

الدكتور  
أحمد محمد الجويني  
أستاذ الأدب العربي  
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

# المرأة في الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية

معدلة ومزودة

ملتمز الطبع والنشر

دار الفكر العربي

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

- ١ -

فكرة خايلت لى منذ درّست الأدب ودرّسته ، وما زالت تخايل لى ، وقد استجبت لها بكتابين : أولهما ( الحياة العربية من الشعر الجاهلى ) ، وثانيهما (القرنل فى العصر الجاهلى) ، ويسعدنى أن أستجيب لها بهذا الكتاب الثالث<sup>(١)</sup>.

أما هذه الفكرة التى سيطرت على نفسى فهى أن درس الأدب لا يشوق ولا يشمر ، ما لم يندمج دارسوه بقائليه اندماجاً يتيح لهم أن يتعرفوا ينابيع هذا الفيض العاطفى ، وبواعثه ، وبيئته التى استوحاها ، وأن يستمدوا من هذا الأدب ألواناً لتصوير الحياة فى شتى مناحيها ، ويبتدوا بالحياة فى الكشف عما يخفى من معانى الأدب وبواعثها ومراميتها ؛ لأن الأدب والحياة يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتقارضان الأخذ والعطاء ، فى الأدب مظاهر من عصره ، وفى العصر ملامح من أدبه .

وقد شاء لى الحظ أن يكون الشعر الجاهلى من مجال دراستى هذه ، فشعرت بالرضا ، لأنى أدرس هذا الشعر المنسم بالأصالة والصدق والحيوية والتجاوب مع بيئته وعصره ، ولأنى شاركت فى إبراز معالنه ، والتنويه بقيمته ، ثم لأنى تمتأت منه جوانب شتى من حياة العرب فى الجاهلية .

ولست أدعى أن هذه الأفكار قد تبلّجت لى على حين فجأة ، أو تمتلت لى

---

(١) ثم كانت محاولة رابعة بعد ( المرأة فى الشعر الجاهلى ) هى أغانى الطبيعة فى الشعر

دفعة ، فلقد انبثق أمامي أول شعاع من الفكرة حين شرعت أستنبط من الشعر الجاهلي ما يتصل بحياة العرب في الاجتماع والأخلاق والدين والعمادات في كتابي ( الحياة العربية من الشعر الجاهلي ) . حينئذ ازددت يقيناً بقيمة الشعر في دراسة العصر الجاهلي ، وبوثاق الروابط بينه وبين الحياة العربية . فلما درست الغزل في العصر الجاهلي فتحت لي ميادين أخرى للبحث والاستنباط ، والاعتداد بالشعر الجاهلي ، والاعتماد عليه في تمثيل الاجتماع العربي في صورته المختلفة .

## - ٢ -

ثم حفزتنى تلك الدراسات إلى أن أستنير بالشعر الجاهلي في تجلية هذه المشكلات :

- ١ - أردت أن أعرف من الشعر مكانة المرأة في الأسرة ، وفي القبيلة ، وفي المجتمع العربي ، والصور التي رسمها لها في هذه البيئة في السلم ، وفي الحرب ، وماذا كان لها في الحياة العربية من أثر ؟ أكان أثرها عظيماً قوياً أم ضعيفاً خافتاً ، أم لم يكن لها أثر ؟ أكانت تعامل معاملة الرقيق ؟ أم كانت عليية القدر ، ذات رأي ومكان مرموق ؟
- ٢ - وقصدت إلى أن أشبر غَوْرَ هذا الشعر في تصويره حياة المرأة ، فأعرف قيمة الصور التي رسمها ، أهي صور صادقة تتفق ونظم الحياة البدوية ، والمعالم التاريخية ؟ أم هي صور تتجافى نظم البادية ، وحقائق التاريخ الصحيح ؟
- ٣ - ثم أردت أن أسترفد هذا الشعر لجلاء منزلة العرب في الحضارة القديمة - من حيث ما يتصل بمنزلة المرأة في الأسرة والقبيلة والمجتمع - فكثيراً ما تناقض الباحثون في هذه المسألة ، بعضهم يسمونها ، وبعضهم يهبط ، بعضهم يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام في يقظة ووعي وتطور ناهض ، فلما جاء الإسلام سار بهم إلى نهاية الشوط ، وبعضهم يذهب إلى أنهم كانوا شعباً همجياً في الدرك الأسفل من نظمه وعقائده وعاداته وأخلاقه ، فبزغ الإسلام عليهم

بزوغ الشمس بعد ليل طويل غاسق ، فهداهم إلى الحق الذي جهلوه ، وإلى الخير الذي تنكبوه ، وقرر لهم نظماً أسرية واجتماعية لم يكن لهم بها عهد .  
 ٤ — ومشكلة أخرى تخاليل لى أيضا ، أريد أن أعرف مقدرة المرأة على قرض الشعر في العصر الجاهلي ، ومنزلتها من شعراء عصرها ، وإلى أى مدى حاققت بمناحيها في سماء هذا الفن الرفيع ؟ وهل كانت لشعرها خصائص تميزه من شعر الرجال ؟ أو أن شعرها كان صورة من شعرهم ؟

— ٣ —

١ — سلكت السبيل إلى غايتي متقبا في أشتات المراجع مخطوطة ومطبوعة من دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والسير ، والاجتماع ، واللغة ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، والمذاهب .  
 ذلك بأنه لم يفرد للمرأة أو للأسرة أو للقبيلة دراسة خاصة أو شبيهه بالخاصة في العصر الجاهلي . بل إن هذا العصر — من الوجهة التاريخية — ما زال يكتبه غموض واضطراب ، ونقص في المصادر والمراجع ، والذين كتبوا عن العرب من القدماء مثل آخيليس Aeschylus ( ٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م ) وهيرودوت ( ٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م ) وتيوفراست Theophrastus ( حوالي ٣٧١ - ٢٨٧ ق . م ) وديودور الصقلي Diodorsu Siculus ( ٤٠ ق . م ) وسترابون Strabon ( ٦٤ ق . م - ١٩ م ) ، ومن النصارى مثل اسبيوس Ousebius ( ٢٦٥ - ٣٤٠ م ) وزكريا ( المتوفى ٥٦٨ م ) ومالالا Malalas ( المتوفى ٥٧٨ م ) ومن المسلمين كابن هشام والطبري والمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير والبلاذري واليعقوبي وابن خلدون ، هؤلاء وأولئك لم يعرضوا الحياة العامة ، ولم يدرسوا أحوال المجتمعات .

وليس هذا بعجب ، إذ كان ذلك منزع المؤرخين جميعا ، يعنون بالملك والقادة والوقائع والثورات والفتوح ، ولا يكادون يحفلون بالجماعات والاعادات



والأخلاق والنظم ، ومن البديهي أننا لا نظفر ببحث عن المرأة أفرد لها أى واحد من هؤلاء ، وبذلك حرمت المرأة الجاهلية ما نالته المرأة المسلمة من حفاوة ، إذ غنى بها كثير من المؤرخين والكتّاب ، وأفرد بعضهم لها مجالا رحباً فيما كتب ، كابن حجر فى كتاب الإصابة ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن قيم الجوزية فى أخبار النساء ، وابن طيفور فى بلاغات النساء .

فقت فى آثار العرب ، واستخبرت ما خلفوا من شعر ، وما كتب عنهم وعن غيرهم ، متجرداً من آراء سابقة فى بعضها حيف ، وفى بعضها إنصاف ، لأسمع القول من الألسنة الأولى وأتبصره ، وأتمثل منه الحقيقة التى يمكن أن تتمثل .

٢ — وكان الشعر الينبوع الأول الذى استقيت منه ؛ لأنه فى الشعب العربى كالآثار المادية ، والآثار المدونة ، فى مصر واليونان وغيرها من الأمم التى خلفت أبنية ونقوشا ، وخطوطا وآثارا وتاريخا مدونا « وليس فى الأرض أمة بها طرُق — قوة — أولها مُسككة ، ولا جيل لم قبض ولا بسط إلا ولهم خط ، وكل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المتقى ، وكان ذلك هو ديوانها .. .. وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان <sup>(١)</sup> »

٣ — ولقد يعترضنا هذا السؤال : أليس هذا الينبوع الذى نستقى منه عرضة للكدره واحتمال أخلاط من غيره ؟

بلى . وقد سبق إلى التنبيه على ذلك القدماء كابن سلام وابن هشام وأبى الفرج ، ثم كان لهذا دوى فى مصر منذ ربع قرن ، ولكن التنبيه القديم والدوى

(١) الميوان للجاحظ ٢/١ تحقيق هارون .

الحديث يلتقيان عند هدف واحد لاخلاف عليه هو أن قليلا من هذا الشعر منتحل أو منحول<sup>(١)</sup>، ثم يفترقان إذ يطمئن القدماء إلى أن الكثرة الغالبة صحيحة، ويفالى بعض المحدثين فينبغي عن الكثرة هذه الصحة.

(١) وأرى أن الحق مع القدماء، وأن هذا القليل قطرات في جدول يزخر بالماء الأصيل الصحيح المصنّف، فهي لا تعكره ولا تغيره، ولا تطفئ على طبعه وخصائصه. فمن حقنا إذاً ألا نتشكك في الشعر الجاهلي كله؛ لأن شأن الشعر في هذا شأن التاريخ، كلاهما يتطرق إليه الكذب والمبالغة، ولقد يكون التاريخ أيسر منالاً للروايات المدخولة، والآراء المنحولة؛ لأنه تسجيل فرد أو أفراد، فهو أدنى إلى أن يميل مع الهوى والعاطفة، لذلك تختلف فيه الآراء، وتتناقض. أما الشعر فهو تسجيل آلاف من الشعراء، من قبائل شتى، ومن مواطن عدة، في زمن طويل، لذلك أرى أنه أرحب مجالاً لاستنباط الحقائق من سجلات منوعة، خلفها الشعراء الذين عبروا عن عواطفهم صادقين، وصوروا حياتهم العامة غير قاصدين ولا كاذبين، وتناولوا عفواً ما أهمل التاريخ من نظم الاجتماع في ذلك العصر البعيد.

فلم أعتد إلا على ما وثقت بصحته من شعر، مهتديا بقيمة المصادر، ومهتديا بحاستي الفنية، وبملاءمة الشعر للحياة البدوية الجاهلية.

(ب) ثم إن الموضوع الذي أدرسه بمنجاة من النحل ومن الوضع؛ لأنه مستمد من أبيات ذكرها الشعراء في قصائدهم عرضاً لا قصداً، في مطالع القصائد أو في خلالها، مفتخرين أو هاجين، أو واصفين، أو راثين، أو مادحين، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يعمد إلى تصوير مقصود لحياة النساء ومنزلتهن، وإنما جرى مع فطرته في إيراد المعاني، وتصور ما يشعر به.

(١) عرضت لهذا الموضوع بالتفصيل في الطبعة الرابعة من كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي.

أما الوضع فإنه يتطرق إلى ضروب آخر من الشعر ، يتطرق إلى الشعر الذى يؤازر السياسة والحزبية والعصبية ، ويتسلل إلى الشعر الذى تحلى به القصص والأسمار ، ويتعرض له الشعر الذى يناصر نزعة شعوبية ، أو ياجىء إليه التباهى بالحفظ والتكاثُر بالرواية ، أو الحجاج على مسألة فى اللغة أو النحو ، أو ما شاكل ذلك من فنون المقال .

( ح ) وشئ آخر أستوثق به من هذا الشعر الذى أستقى منه ، أقصد إجماع جمهرة من الشعراء على حقيقة ما ، كحديثهم مثلاً عن عزازة الأم ، أو حماية المرأة من السبي ، أو محبة البنات ، وبغضة البنات ، أو سفور المرأة ، وحجابها ، أو ما شاكل ذلك مما يتفقون فيه جميعاً على رأى واحد ، أو ينقسمون فيه إلى فريقين . فليس من الطبيعى أن يكون هذا الشعر الذى يصور لونا من ألوان الحياة مكذوباً ، أو منحولاً كله ، إذ لو كان كذلك لبرز فيه التناقض والخلط والمجافاة لما تمليه البيئة بساطتها العام .

( د ) ولست أنسى أن الشعر مجال للخيال والمبالغة ؛ لأن طريقتة فى التصوير كثيراً ما تقتضى ذلك ، فهو إذاً ليس تصويراً دقيقاً للواقع . لكننى لا أنسى أيضاً أن الخيال فى هذا الشعر ضيق المجال ، لا يعمدو التشبيه والاستعارة والكناية ، ونحن فى دراستنا نعرف ماذا يريد الشاعر إذا شبه أو استعار أو كنى . أما المبالغة فهى نادرة فيما خلف شعراء الجاهلية ، وهى لا تفهم على صورتها اللفظية فى أى عصر من الأعصار .

( هـ ) كذلك أعلم أن من خصائص الشعر الإيجاز والإدماج واللمح ، وألا يحفل بالتفصيل ، أو يحنح إلى الإطناب . لذلك استقيت أيضاً من التاريخ والحضارة والاجتماع وغيرها ، لأجل الصور ، وأكمل خطوطها ، وأوضح ألوانها ، وأفضل ما أدمج الشعر وأجمل .

٤ — على أنى فى دراسة الشعر الجاهلى — وزمانه لا يتجاوز قرنين قبل

الإسلام ، ومكانه جزيرة العرب - لم أغفل حياة العرب في مطلع الإسلام ، فاستمددت من شعر المخضرمين ما يجرى في طلق واحد مع شعر الجاهليين ، مرجحاً أنه من نتاجهم قبل أن يسلموا ، أو من نتاجهم بعد أن أسلموا ، وقبل أن يصبغهم الدين بصبغته .

وكذلك استقيت من حياة النساء المخضرمات ما يتفق وحياة الجاهليات . وأراني على حق في هذا ؛ لأن حياة الشعراء وغيرهم في مشرق الإسلام امتداد لحياتهم قبل إشراقه ، إذ لم يكن الإسلام قد رست قواعده ، ولم تكن قد كملت تعاليمه ، ولم تسكن النفوس كلها قد أشربته إشرباً ينسخ حياتها الأولى . وهل من المعقول أن ينقلب العرب بين عشية وضحاها من حياة إلى حياة ؟ وهل من الطبيعي أن ينسى الشاعر على إثر إسلامه ما استقر في نفسه من عادات وأخلاق وأوضاع ؟

إنما الطبيعي أن يمضى زمن على العقيدة الجديدة ، لتظهر آثارها في قصائد الشعراء ، وفي أخلاق الناس .

٥ - ورأيت أن تجلية مكانة المرأة في الجاهلية لا تتضح إلا بموازنتها بينها وبين معاصراتها ، والسوابق لها من نساء العالم القديم ، في الأمم والحضارات التي اتصل العرب بها ؛ لأعرف قيمة المرأة العربية بالقياس إلى هؤلاء . كذلك قايست المرأة الجاهلية بالمسامة ، لأتبين قيمة المرأة قبل الإسلام بالنسبة إلى قيمتها بعد الإسلام ، إذ أستبين ما أحدث الإسلام في النظم الجاهلية المتصلة بالمرأة من تجديد أو تأييد ، ومن تغيير أو إبطال ، ولأخلص من هذه المقايسة إلى تمثل مكاتبتها في الجاهلية تمثلاً صحيحاً مستمداً من عصرها ، ومستمداً من المشابهة بينها وبين أختها المسامة فيما بعد .

وقد بدأت يبحث تمهيدى جلوت فيه صلات العرب بغيرهم من المعاصرين .

لهم ، ووضحت مكانة المرأة عندهم ، لأوازن بينها وبين المرأة العربية موازنة جزئية في غضون البحث ، ثم موازنة عامة في مكان خاص .

فليس من شك اليوم في أن عزلة العرب قبل الإسلام ، وجهلهم بالعالم الخارجى ، وجهالة العالم الخارجى بهم ، حتى إنهم لم يؤثروا فيه ، ولم يتأثروا به ، ليس من شك في أن هذه دعوى باطلة . وسنرى وسائل اتصالهم بالأمم التي عاصرتهم ، ومظاهر هذا الاتصال ، وبعض معالم التأثير والتأثر ، وخاصة ما يتصل بالمعتقدات والنظم الأسرية .

ثم قسمت الكتاب ثلاثة أبواب : تحدثت في فصول الباب الأول عن المرأة في الحياة الأسرية : أمما ، وزوجة ، و بنتا ، وأختا ، وقرينة ، وتحدثت عن حقوقها المالية .

وفي فصول الباب الثانى درست أحوال المرأة في الحياة العامة : درست أخلاقها ، وسفورها ، وحجابها ، وصناعاتها ، وأعمالها ، وثقافتها ، وعملها في الحرب ، وتحدثت عن السبايا ، والإماء .

أما الباب الثالث وهو المرأة في الحياة الفنية ، فقد عقدت له ثلاثة فصول : تحدثت في الفصل الأول عن المرأة المغنية ، وفي الثانى عن المرأة راوية للشعر وناقدة ، وفي الثالث عن المرأة الشاعرة .

— ٥ —

و بعد . .

فالموضوع - فيما أعلم - غير مطروق بهذا النهج ، والمراجع التي ترفد دارسه من قريب أو من بعيد ليست معينة محددة ، والمعالم منها غير مفهرس ، وغير مرتب ، وكثير منها مخطوط ، بعضه بالى الورق ، مغلق الخط . لهذا كنت أستعرض كل ما يمكن أن تصل إليه يدي من مراجع ومطان ، لأقتش بها عن فكرة أو عن شعر .

وكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها ، لأجتنى منها ثمرة لاتكافي ،  
بعض ما بذلت ، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب ، أجوس خلالها ،  
وأجوب ما بين ضفافها في يقظة وأيد ، ولكن لم يعلق منها بشباكي صيد .

لكن المشقات التي كانت تعترضني في الإعداد ، والصعوبات التي احتملتها  
في التنقيب والتنقيب ، كل هذه لامندوحة عنها لمن يتصدى للبحث ، فيصبر  
ويصابر ، ويدأب ويثابر ، ليخط في سجل المعرفة سطرًا ، يابى به رغبة ، أو  
يقضى به حقًا ، أو ينال به ذكرًا .

أحمد محمد الحوفي

الناصرة } ذو القعدة ١٣٨٢  
أبريل ١٩٦٣



# تمهيد

صلوات العرب بالأمم والمحاضرات ومكانة المرأة فيها



لم يكن العرب في العصر الجاهلي — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — يعيشون بجزيرتهم في عزلة عن العالم ، ونجوة عن الشعوب واصطراعها ، ونجوة عن تيارات الحضارات ، وإنما اتصل العرب بالأمم المجاورة ، وغير المجاورة ، وشاركوا في الصراع السياسي الدائر بين الأمم المعاصرة بقدر اتصالهم به ، واتصالهم بالمصطارعين ، وعرفوا العالم القديم ، وعرفهم ، بل إن بلادهم على جذبها ، ووعورة المسالك إليها ، كانت مهاجر كثير من الشعوب ، فقد نزع إليها من الشام ومصر والعراق فارثون من ظلم أو ضغط ، أو تمتعون على الحكومات لسبب ما ، وكان أكثر النازحين عدداً اليهود ، لكثرة ما قاسوا الاضطهاد منذ خروجهم من مصر ، إلى أن اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره . وهاجر إليها كثير من اليونان والرومان والفرس والهنود والحبش<sup>(١)</sup> .

لذلك لم يكن سكان جزيرة العرب كلهم عرباً ، بل كان يحتلط بالعرب هؤلاء النازحون ، وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالي والحلفاء من أمم وأديان شتى ، فيهم الفارسي ، والهندي ، والروماني ، والكلداني ، وفيهم اليهودي ، والنصراني ، وكان هؤلاء يتوالدون ، وتحتاط ذرائعهم بالعرب ، ويضع نسبهم ، كالكلدان والسريان ، وبعضهم كان يحالف العرب وينتمى إليهم كـ بعض اليهود والنصارى ، وآخرون كانوا ينخرطون في عداد العبيد ، ويحملون ألقاب سادتهم كالحبش ، والفرس ، والهنود . فهم جميعاً إما عرب ، وإما مستعربون ، إلا بعض اليهود وبعض النصارى من الروم ، وبعض الفرس الذين يعرفون بالأبناء<sup>(٢)</sup> .

وكانت بلاد الشام والعراق أيضاً حافلة بأشتات من الأمم ، فقد ظهر الإسلام ، وبها بقايا من الآراميين الأصليين من سريان ويهود وسامريين ، وبها أنباط ، وعرب من المناذرة والفسانة وإياد وربيعة ، وأشتات من أمم

(١) التمدن الإسلامى ١٧/٥ .

(٢) الأغانى ٥٣/١٦ .

أخرى كالجرامة والجرامقة ، وأخلاق من مولدى اليونان والرومان والفرس والأكراد ، وبها أديان شتى<sup>(١)</sup> . وطبيعى أن يكون لهذا الاتصال أثره فى الحياة العربية ، فإن من الحقائق الثابتة اليوم أن علاقات الأمم من أكبر العوامل فى رقيها ، وليس بمستطاع أن نوضح تقدم الشعوب أو تأخرها اعتماداً على المميزات الجنسية ، والمعتقدات الدينية ، وتأثير البيئة فى السكان فحسب ، بل بموقعها الجغرافى أيضاً الذى يَسرُّها العلائق بشعوب أخرى فى عصور مختلفة<sup>(٢)</sup> .

وسأفصل فى الفقرات التالية أسباب الاتصال بين العرب والأمم التى عاصرتهم ، والحضارات التى أطلَّت العالم فى عهدهم ، وأبين بعض السمات الدالة على تأثير العرب بغيرهم ، وأتعرف مكانة المرأة فى نظر هذه الأمم والحضارات ، ثم أجعل ذلك أساساً للموازنة بين المرأة العربية وغيرها .

(١) . Literary History of Persia . . . Browne P. 154 .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد . ٧ .

( ٢ المرأة فى الشعر الجاهلى )

# صلة العرب باليهود

مقدم اليهود إلى الحجاز

وفد اليهود إلى الحجاز منذ عهد بعيد ، ولم يتفق المؤرخون على تحديد أول هجرة من هجراتهم إلى هناك ، وإن كانوا جميعا على أن هذه الهجرات بدأت في عهد مبكر .

وإذا ما استقيننا من التاريخ الوثيق لليهود وجدناهم يُضطَّهَدُونَ مرات ، ويُسامون الخسْفَ في فِاسْطِين ، فيلوذ بعضهم بالبلاد القريبة ، ويحق لنا أن نستنبط من هذا الفرار المتكرر أن بعضهم لجأ إلى الحجاز . فقد حمل عليهم الملك الأشوري شامناحرسنة ٨٥٤ ق . م <sup>(١)</sup> والملك سنحاريب سنة ٧٠٢ ق . م <sup>(٢)</sup> ، والملك بختنصر ( نبوخذ نصر ) سنة ٥٧ ق . م <sup>(٣)</sup> وانقضَّ عليهم الكلدان سنة ٥٨٦ ق . م <sup>(٤)</sup> ، ثم أنتيوخوس والى مصر سنة ١٦٨ ق . م <sup>(٥)</sup> ، ثم الإمبراطور الروماني بومبي سنة ٦٤ ق . م <sup>(٦)</sup> ، والإمبراطور الروماني تيطس سنة ٧٠ م <sup>(٧)</sup> ، وهادريان سنة ١٣٤ م <sup>(٨)</sup> .

- 
- (١) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ٤٨ يوسف غنيمه وتاريخ العرب ١/٤٥  
فليب حتى (٢) نزهة المشتاق ٤٩ .  
(٣) تاريخ اليهود للسامري ٦٥ ونزهة المشتاق ٥٠ . (٤) نزهة المشتاق ٥٢ .  
(٥) تاريخ يوسفوس اليهودى ٥٣ والعقد الأنفس في ملخص التاريخ المقدس ١١٦  
ترجمة تادرس وهي .

L.Histoire des Arabs. De Perceval. 1-PP . 642-645 . And (٦)

A Literary History of The Arabs. Nicholson P . 137 .

(٧) تاريخ يوسفوس اليهودى ٢٥٣ - ٣١٣ و . History of The Arabs .

Hitti. P. 62 .

(٨) الدعوة إلى الإسلام ٢٩ توماس أرنولد و Encyclopedia Britanica art Hadrian.

ومن الراجح أنهم نزحوا إلى الحجاز في بعض هذه النكبات ، وإن كان زوحهم ثابتاً لما هدم تختصر بيت المقدس ، وأجلى من أجلى ، وسبى من سبى من بنى إسرائيل ، ففر قوم منهم إلى الحجاز ، ونزلوا وادى القرى ويثرب وتيما<sup>(١)</sup> . ثم لحق بهؤلاء إخوانهم فراراً من بومبي ، ومن تيطس ، ومن هادريان .

والحقيقة أن جموعاً من اليهود المضطهدين كانوا كلما حَزَبَهُمُ الأمرُ بحثوا لهم عن ملجأ ، وكان هذا الملجأ هو الحجاز<sup>(٢)</sup> . ومن المحتمل أن الأنباط حين غزوا فلسطين أسروا كثيراً من اليهود ، وأن هؤلاء الأسرى وغيرهم يَمَمُوا شَطْرَ الجنوبِ موغابن<sup>(٣)</sup> .

على أن عددهم بالحجاز قبل الميلاد بقرن كان ضئيلاً ، لأن جريزل Grayzel نشر خريطة دقيقة لمواطن اليهود في العالم القديم في القرن الأول من الميلاد ، وسجل فيها عددهم في كل مواطن ، وليس بها إشارة إلى يهود الحجاز أو باليمن<sup>(٤)</sup> .

وفي الحجاز أقام اليهود ، وبنوا الحصون ، وثمروا الأموال ، وزرعوا الأرض<sup>(٥)</sup> ، وبتداول الزمان صارت لهم في الحجاز مستعمرات عدة ، منها خير ، وفدك ، ووادي القرى ، وتيما ، ومقنا<sup>(٦)</sup> . وكانت قرى كثيرة شمالي يثرب آهلة باليهود ، وهي والمستعمرات اليهودية تصور مبلغ كثرتهم وانتشارهم بالحجاز<sup>(٧)</sup> .

(١) تاريخ الطبري ٢٨١/١ وفتوح البلدان للبلاذرى ٢١ - ٢٣ .

De Perceval P. 642

(٢)

A History of the Jews. Grayzel. P. 244

(٣)

(٤) المرجع السابق ١٣٨ .

(٥) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسهودي ٧٩ ونشر الحاسن البيانية ١٦ مخطوط

والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧ / ٦٠ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٩ و ٣٦ و ٤١ و ٤٢ و ٦٦ .

(٧) تاريخ اليهود في بلاد العرب . لإسرائيل ولفنسون ١٤ .

## اختناطهم بالعرب :

كثرت اليهود بالحجاز ، واختناطوا بالعرب ، لأن الأوس والخزرج حين نزلوا يثرب وجدوا بها عدة قبائل من بني إسرائيل ، هم بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ، وبنو زغورا ، وبنو قينقاع ، وبنو زيد ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو بديل ، وبنو عوف ، وبنو الفضيص ، وهم جميعاً من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود<sup>(١)</sup> . وكان هنالك أيضاً بنو صخم ، وبنو ماسكة ، وبنو النعممة ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو زهرة ، وبنو زباله ، وبنو ناغضة ، وبنو عكوة ، وبنو مزابة<sup>(٢)</sup> ، حتى لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت أطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين<sup>(٣)</sup> .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنو الحرّماز - حتى من اليمن - وبنو مسند - حتى من بلي - وبنو نيف - من بلي - وبنو معاوية - من بني سليم - وبنو الشظية - من غسان<sup>(٤)</sup> - ، وبنو مسريد (مزيد) - من بلي - وبنو الجذمي (الجذماء) - من اليمن<sup>(٥)</sup> .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود في قرأهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود<sup>(٦)</sup> .

وقضى الأوس والخزرج ردحاً من الزمن في ضيق ، لأن الخيرات كانت في قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمناً طويلاً<sup>(٧)</sup> ، حتى قدم أبو جبيلة الغساني إلى يثرب فآزر الأوس والخزرج ، وأفنى كثيراً من اليهود ،

(١) معجم البلدان ٧ / ٤٢٨ والأغاني ١٩ / ٩٥ .

(٢) الأعلام النفيسة ٧ / ٦٢ .

(٣) خلاصة الوفا ٧٦ .

(٤) الأغاني ١٩ / ٩٥ (٥) الأعلام النفيسة ٧ / ٦٢ وخلاصة الوفا ٧٩ .

(٦) خلاصة الوفا ٨٢ (٧) الأغاني ١٩ / ٩٦ والأعلام النفيسة ٧ / ٦٣ .

فقال سارة القرظية في رثائهم :

بنفسى أمة لم تُغن شيئاً      بذي حُرْمِضٍ تُعَقِّبُهَا الرِّيحُ  
كهبولٍ من قريظة أتلفتها      سيوف الخزرجية والرماح  
رزتنا والرزية ذات ثقل      يَمُرُّ لأهلها الماءُ القراح  
ولو أربوا بأمرهم لجالت      هنالك دونهم جأوى رَدَّاح<sup>(١)</sup>

وقد أشاد الشعراء بأبي جبيلة ، واقتخروا به<sup>(٢)</sup> ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى الشام ، واندمج في الغساسنة ، فمن الطبيعي أن يستجيب لنصرة قومه<sup>(٣)</sup> .

ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه في بيعهم وكنائسهم ، فقال في ذلك :

نَحَانِي الْيَهُودَ بَتْلَعَانِهَا      نَحَانِي الْحَمِيرَ بِأَبْوَالِهَا  
فَمَاذَا عَلَيَّ بَأَن يعلَنُوا      وَتَأْتِي الْمَنَايَا بِإِذْلَالِهَا

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون ، بل يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ؛ لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم<sup>(٤)</sup> .

ويذهب المؤرخ جريتز Greatz إلى أن بطون الأوس والخزرج لم تكاشف اليهود بالعداء إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن ، لأنه لا يتصور أن يضطهد اليهود في الحجاز في العصر الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على

(١) الأغاني ١٩ / ٩٦ والبدء والتاريخ للعقدى ج ٣ والروض الأنف ٢ / ٢٤ ومعجم البلدان ٧ / ٤٢٨ وخلاصة الوفا ٧٩ - ٨٠ .

(٢) الأغاني ١٩ / ٩٦ و ٩٧ .

(٣) De Perceval I. P.650

(٤) الأغاني ١٩ / ٩٧ .

اليمن ، ويتعصبون لدينهم ، ويناهضون كل من يعارضهم أو يعتدى عليهم<sup>(١)</sup> . وأضيف إلى هذا سببا آخر هو أن الأوس والخزرج قد تسكثروا ، ونبت منهم فروع عدة ، فتطلعوا إلى تملك الأرض التي يملكها اليهود ، ونفسوا عليهم أن يستأثروا بخيرات يثرب وغيرها ، وأن يكون لهم السلطان المالى على العرب ، فاتهبوا سقوط دولة اليهود في اليمن فرصة يتحللون فيها من نفوذ يهود الحجاز ، فكان لهم ما أرادوا .

وإذا فلم يكن بين العرب واليهود حائل يمنع الاختلاط ؛ « فإن قبائل عربية يمنية قد شرعت تنتشر في الحجاز بين الجاليات اليهودية »<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان يدعو إلى الاتصال أيضا أن اليهود أهل مهارة في الصناعة ، وبراعة في تشييد المال ، فلم يكن للعرب بد من أن يعاملوهم ، فمثلا كان بنو قينقاع صاغة بالمدينة<sup>(٣)</sup> ، وكانت لهم سوق عظيمة ذات ضجيج ، حتى لقد نَفَرَت من ضجتها ناقة النابغة الذبياني<sup>(٤)</sup> ، وكان آل أبي الحقيق مهرة في صناعة الخلى بخيبر ، والعرب يقصدونهم ليشتروا لنسائهم من حايهم<sup>(٥)</sup> .

ثم إن تجار العرب كانوا يقدون إلى الأسواق اليهودية في شمالي الحجاز ليتناعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم ، وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم في أسواق العرب . وكان العرب يمرون بمستعمراتهم على طريق القوافل بين الحجاز واليمن ، وبين الحجاز والشام ، « فينتج من التعاون الاقتصادي ، والاختلاط الاجتماعى تبادل في الآراء ، وجدال في الديانات »<sup>(٦)</sup> .

على أن الاختلاط كان يتخذ مظهراً أقوى في تحالف بعض العرب مع اليهود ضد إخوانهم العرب ، فالأوس تحالف قريظة ضد الخزرج ، والنبيت

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٦١ و Greatz V. 3. P 91

(٢) De Perceval. P. 646 (٣) المغازى للواتدى ١٨٠

(٤) الأغاني ٢١ / ٦٢ (٥) المغازى ٢٧٧

(٦) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٤ .

تذهب إلى خير تختمى يهودها ، فتغيرها الخزرج وتفتخر عليها<sup>(١)</sup> ، وبنو النضير يحالفون بني عامر<sup>(٢)</sup> ، وبنو قينقاع حلفاء لعبادة بن الصامت ، ولعبد الله بن أبي<sup>(٣)</sup> ، وأهل خير حلفاء لغطفان<sup>(٤)</sup> ، ويهود وادي القري وما والاه حلفاء لقبائل سعد هُدَيْم من قضاة ، يمنعونهم من العرب ، وهم الذين حوهم من غزو النعمان بن الحارث الغساني ، وظلوا حماهم إلى أن أشرق الإسلام<sup>(٥)</sup> .

وكان العرب حراصا على الوفاء لليهود بخلفهم ، حتى في بأساء اليهود ومخبتهم ، فقد وجدَ الرسول عليه الصلاة والسلام على بني قريظة بعد غزوة أحد ، فخاصهم حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم من الأوس أن يشفعوا في إطلاقهم ، فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت - كان الرسول قد حاصر بني قينقاع حلفاء الخزرج ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فوهبهم له<sup>(٦)</sup> .

ولم يقتصر الوفاء على الشفاعة والرجاء ، بل تعدى إلى التناصر ، ذلك بأن أهل خير لما بلغهم أن النبي يتجهز ليسير إليهم ، بعثوا إلى حلفائهم أسد وغطفان فأتوهم<sup>(٧)</sup> .

ويظهر أن بعض العرب كانوا يخبون اليهود ، ويشاركونهم في آلامهم ، فإنه لما أحرق النبي نخل بني النضير وقطعه ، قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

لعزَّ على سراة بني لُؤَيَّ حريق بالبويرة مستطيرُ

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

أدام الله ذلكم حريقا وضرَّ في طوائفها السعير

(١) خلاصة الوفا ٨٩ (٢) المغازي ٣٥٤

(٣) المغازي ١٧٩ - ١٨٠ والتنبيه والإشراف للسعودي ٢٠٦

(٤) معجم ما استعجم للبكري ٢ / ٥٢٣ .

(٥) معجم البلدان ٧ / ٧٤ ومعجم ما استعجم ١ / ٤٣ .

(٦) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٧ و ٢ / ٤٢٨ (٧) المغازي ٣٨٩



هم أو تواتر الكتاب فضيعوه فهم عمن عن التوراة بؤر<sup>(١)</sup>

### اليهود باليمن وما حاورها :

منذ عهد بعيد كانت لليهود صلة باليمن ، فقد كان لسبأ صيت تجارى ذائع عند اليهود ، وكانت قوافل سبأ تغد إلى أسواق اليهود والكنعانيين<sup>(٢)</sup> ، وكان تجار اليهود يرحلون إلى جنوبى جزيرة العرب<sup>(٣)</sup> ، وقصة سايان وملكة سبأ ثابتة بنص القرآن الكريم والتوراة<sup>(٤)</sup> .

وقد أثبت العالم جلازر Glaser أن اليهود كانوا فى اليمن وحضرموت منذ عهد بعيد قبل الإسلام ، وهم الذين مهّدوا لدينهم هناك ، ثم ظهرت أسباب عند ملك أو ملوك حبيبت إليهم اليهودية<sup>(٥)</sup> .

على أن اليهودية لم تنتشر باليمن إلا بعد الغزو الحبشى سنة ٣٤٠ م ، إذ فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وقضوا به خمساً وثلاثين سنة ، ثم عاد مالك كرب يوهامين فى جيش إلى اليمن ليطرد الحبش ، وكان قد دان باليهودية ليقاوم بها المسيحية ، دين المستعمرين لبلاده<sup>(٦)</sup> ، ولم يمض إلا زمن قصير ، حتى كان تبع الآخر - تبان أسعد أبو كرب ، وهو حسان تبع - قد تعلم اليهودية ، وعاد إلى اليمن فنشرها<sup>(٧)</sup> .

وقد ذهب المستشرق بروكك Brocock إلى أن دولة حمير تهودت فى القرن

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٥ .

(٢) سفر أشعيا اصحاح ٤٣ آية ٣ واصحاح ٤٥ آية ١٤ وسفر حزقيال اصحاح ٢٣

آية ٤٢ .

(٣) سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢ .

(٤) سورة النمل وسفر الملوك الأول ١٠ : ١ - ١١ .

(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب . ولفنسون ٣٥ و ٣٧ و ٤٠ .

(٦) The Bak ground of Islam. P. 132 Phelby. (٦)

(٧) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٦ والعمري لابن خلدون ٢ / ٥٣ وسيرة ابن هشام

١٤ / ١ - ٢٤ والنتيه والإشراف ١٧٢ وتاريخ يعقوبى ١ / ٢٩٨ .

الأول قبل الميلاد ، والعالم سافستردى ساسى silvester. de sacy إلى أن ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثانى بعد الميلاد<sup>(١)</sup> .

ولكن ذلك مردود ؛ لأنه كما يقول المؤرخ اليهودى شيفر : ليس من المعقول أن تكون دولة حمير يهودية في القرن الثانى ولا يذكرها التلمود ، إذ أنه ألف بعد ذلك ، وتم في القرن الرابع الميلادى<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن اليمن عرفت اليهودية في القرن الثانى بعد الميلاد<sup>(٣)</sup> ، ولكن اليهودية لم تصرديناً رسمياً إلا بعد ذلك . وقد أثبت العالم بيرون Perron أن دولة حمير لم تعتنق اليهودية رسمياً إلا في القرن الخامس الميلادى ، ونقض ما يرجع بتهود ملوك حمير إلى أقدم من هذا القرن<sup>(٤)</sup> .

ويتفق معه في هذا رأى المؤرخ الثقة Grayzel ، ويذكر أن ذانواس تهود هو وشعبه في أوائل القرن السادس ، وأنه انتقم من المسيحيين ثاراً لليهود المضطهدين في الدولة الرومانية الشرقية ، فبعث إمبراطور الروم ملك الحبشة ليفزوا اليمن<sup>(٥)</sup> .

على أن نفوذ الدولة اليهودية الحميرية تجاوز اليمن إلى الشمال<sup>(٦)</sup> ، ودان بها كثير من الجنوب ، كبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة<sup>(٧)</sup> . وكان بنجران يهود دفعوا الجزية للنبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٨)</sup> ، وكان بالبحرين يهود

(١) Memoires sur divers. evenement de l'Histoire des Arabes avant Mahmet . . . . .

Journal Asiatique 1838 Novembre. p. 358 (٢)

The Jews of Asia P. 164 Mendelssohn (٣)

Journal Asiatique 1838 Novembre P. 358 (٤)

AHistory of the Jews. P. 244. Grayzel. (٥)

De Perseval. 1. P. 654 (٦)

(٧) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٣ ؛ والأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧

وبلوغ الأرب لحي الدين العطار ٨٨

(٨) فتوح البلدان ٧٥ .

دفعوا الجزية أيضاً<sup>(١)</sup>، وكان بها يهود صالحوا على الجزية العلاء بن عبد الله الحضرمي مبعوث النبي إليهم في السنة الثامنة من الهجرة<sup>(٢)</sup>، وفي أماكن متفرقة من اليمن أقام يهود على دينهم ودفعوا الجزية لعمال رسول الله<sup>(٣)</sup>.

وليس أدل على صولة اليهودية في اليمن من أن الملك اليهودي ذانواس كان متعصباً لها جاداً في نشرها، يعامل المسيحيين بما تعامل به الدولة الرومانية اليهود<sup>(٤)</sup>.

ثم إن اليهودية وصلت إلى الحيرة، فقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة زوجات كثيرات من العرب والفرس واليهود، وكانت المتجردة اليهودية آثر نساته عنده؛ لجمالها وحسن تبعائها، وهي التي ذكرها النابغة في شعره<sup>(٥)</sup>.

### أثر اليهود في العرب :

١ — من المتعذر أن نضع حدوداً فاصلة بين اليهود والعرب تميز الأخلاق والنظم والعادات. ذلك بأن بني إسرائيل نتاج الصحراء، ولم تنقطع صلتهم بالصحراء في عصور حضارتهم، والمميزات الصحراوية بارزة في لغتهم وخطابهم، لهذا كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمونهم بالعبريين، لعلاقتهم بالبادية، ولتمييزهم من أهل الحضارة<sup>(٦)</sup>.

(٢) فتوح البلدان ٨٥ .

(١) فتوح البلدان ٨٦ .

(٣) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٥ وتاريخ الطبري ٢ / ١٠٥ و ١٠٦ وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٩ وتفسير الطبري ٣٠ / ٨٤ - ٨٦ والنيسابوري ٣٠ / ٦١ - ٦٢ على هامش الطبري ومعجم البلدان ٧ / ٢٦٢ والسكامل لابن الأثير ١ / ١٢٨ وبن الحبشة والعرب لعبد الحميد عابدين ٥٢ - ٥٤ و

AHistory of the Jews. 244 Grayzel.

(٥) كتاب حرب بني شيبان مع كسرى أنوشروان ٦٥ .

(٦) تاريخ اللغات السامية ولفنسون ٧٨ - ٨٠ واليهود في تاريخ الحضارة ٤٣ لودفيج و Israel From its Begining. pp. 190 — 191. Adolphe lods.

وأولئك اليهود الذين سكنوا بلاد العرب كانوا مطبوعين بالطابع البدوي من قبل ، ثم عاشوا في البادية ثانية ، وخالطوا العرب كما سبق ، فتأثروا بأخلاقهم ، وبيعض عاداتهم ، وجروا على كثير من نظمهم . « ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق أبنائه وعاداتهم ونظمهم إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> . » حتى لقد أنستهم البيئة ما ورثوا من روحانية ، وأخضعتهم للعقلية البدوية<sup>(٢)</sup> ، ولم يختلفوا عن عرب الصحراء إلا في مظاهر سطحية<sup>(٣)</sup> . لهذا أنكر يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أن في الجزيرة العربية يهودا ، لأنهم لم يتمسكوا بالدين ، ولم يخضعوا لقوانين التلمود<sup>(٤)</sup> .

وكذلك كان حالهم من الوجهة اللغوية ، فقد اصطنعوا اللغة العربية لغة أدبية لهم ، وكان فيهم شعراء نظموا الشعر في الموضوعات التي مارسها العرب ، ولا يختلف شعرهم عن الشعر العربي وزنا وقافية وتصويرا وخيالا ومعنى ، كالسموأل ، وأوس بن دني ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ، وشعبي بن الغريض ، وشبريح بن عمران ، وأبي قيس بن رفاعة ، وأبي الذيبال . ودرهم بن يزيد<sup>(٥)</sup> ، وقد أجاز الربيع أبياتا للناغفة فأعجب بيديته وقال له : أنت ياربيع أشعر الناس<sup>(٦)</sup> .

٢ — وقد عجزت اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية . ولعل مرد ذلك إلى مشقة أحكامها ، حتى لقد قال أحد فلاسفتهم يهودا فيلون (٣٠ ق م - ٥٠ م) إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، وذنبهم عند الناس أنهم

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٢ ولفنون (٢) المرجع السابق ١٢

(٣) اليهود في تاريخ الحضارة لودفيج ٣٠

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب ١٣ ولفنون .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام بتحقيق محمود شاكر ٢٣٥ - ٢٤٧ والوحشيات لأبي

(٦) الأغاني ٢١ / ٦٢

تمام ٩١ مخطوط والأغاني .

يأخذون أنفسهم بالفرائض الصارمة ، والصرامة ثقيلة على الطباع<sup>(١)</sup> ، ومن هذه الصرامة عند طائفة الآسين أو الأسينيين تحريم الرق ، واعتبار التجارة عملاً خبيثاً ، وأخبت منه حمل السلاح للقتال ، وازدراء المادة ، لأنها مصدر الشرور<sup>(٢)</sup> . ولقد يكون السبب أيضاً أن اليهود لم يتحمسوا لنشر دينهم<sup>(٣)</sup> ، وليس دينهم تبشيريًا يجد أتباعه فرضاً عليهم أن ينشروه ويهدوا مخالفه ، وإنما هو والبرهية والزرادشتية دين غير تبشيري ، أما التبشيري فالبوذية والمسيحية والإسلام<sup>(٤)</sup> .

على أن اليهودية تطورت فصارت تعتبر الناموس التامودي وعقائده أساساً لا محيد عنه لمن يرغب في التهود ، والذين دانوا بالتوراة وحدها لم يقبل تهودهم ، وربما كان هذا سبباً في انصراف اليونان والسريان إلى النصرانية<sup>(٥)</sup> .

ويزيد التهود عسراً أن اليهود كانوا في عصر ميلاد المسيح فريقين ، أحدهما يتبع الحكيم شامى ، وهم متخرجون يردون الراغبين في اليهودية من غير اليهود ، والآخر لا يتخرج كما يتخرج هؤلاء<sup>(٦)</sup> .

وبعد فقد كان الصراع غنياً بين النصرانية واليهودية في الحجاز ، وفي اليمن ، ولم يُقل من غربه إلا نزاع الفرس والرومان ، وكان من المنتظر أن تنتشر اليهودية والمسيحية في بلاد العرب أكثر مما اتهمت عنده ، ولكن الإسلام جاء فقلبهما جميعاً<sup>(٧)</sup> .

٣ — لكن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز<sup>(٨)</sup> ، فكان

(١) عبقرية المسيح ٦٧ العقاد

(٢) عبقرية المسيح ٢٧

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٢ ولفنسون .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ١٧ توماس أرنولد ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنراوى ،

وقد أعجب أرنولد بهذا التقسيم الذى نقله عن Max Muller

(٥) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٢ (٦) عبقرية المسيح ٢٥

(٧) Skyzen and Vorarbeiten. V. 4. P. 8 Wellhausen.

(٨) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٤٩ وتاريخ العرب ١ / ١٤٦ فيليب حتى ومعجم البلدان

حول مكة قبائل عربية متهودة ، هي بطون من كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كندة<sup>(١)</sup> ، وتهود قوم من غسان ومن جذام<sup>(٢)</sup> ، وهاد بنو حشنة بن عكارمة من بلى بتيما<sup>(٣)</sup> ، وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاؤروا اليهود<sup>(٤)</sup> .  
والذين لم يتهودوا كانوا يتصلون باليهود ، ويتأثرون بهم ، فقيس بن الخطيم يتغزل في يهودية<sup>(٥)</sup> ، والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم<sup>(٦)</sup> ، وكانت نساء بعض الخزرج يذرن إن ولدن ولدا أن يهودنه إذا عاش ، لأن اليهود أهل علم وكتاب<sup>(٧)</sup> .

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير ، سمعها العرب في الجاهلية ، وسمعها المسلمون في الإسلام<sup>(٨)</sup> ، ومما يدل على ذبوعها أن اقرآن الكريم كثيراً ما يجادلهم ، ويدحض آراءهم .  
ولا شك أن اليهود كانوا في نظر العرب أكثر منهم ثقافة ، واستنارة ، لأنهم أهل كتاب ، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج في كثير من الأعمال<sup>(٩)</sup> ، وكان ابن إسحاق صاحب السيرة المتوفى ١٥٠ هـ يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميهن في كتبه أهل العلم الأول<sup>(١٠)</sup> .

وقد علم اليهود بعض العرب الكتابة العربية ، وجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون ، ثم أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها<sup>(١١)</sup> ، وكان الكتاب بالمدينة كثيرين ، لأنهم يجاورون ويخالطون اليهود<sup>(١٢)</sup> .

(١) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٩٨ وعبون الأخبار ٣ / ٤٠٨

(٢) تاريخ اليعقوبي ١ / ٩٨ (٣) معجم ما استمعتم ١ / ٢٩

(٤) الروض الأنف للسهبلى على هامش السيرة ٢ / ٢٤ وتاريخ اليعقوبي ١ / ٢٩٨

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٤٩ مخطوط (٦) كتاب بكر وتغلب ٨٠

(٧) الروض الأنف ٢ / ٢٤ (٨) فتح الباري ١٣ / ٤٣١

(٩) محاسن النساء لابن هشام ٤٨ مخطوط و Grayzel P.P. 141-255. and Sources of Islam P. 13.

(١٠) الفهرست لابن النديم ٩٢ (١١) فتوح البلدان ٤٧٩ ، وتاريخ الخميس ١ / ٥٢٣

(١٢) الموشح للعرزباني ٣٨ .

على أن العرب خالفوا اليهود في بعض المعتقدات ، فاليهود - ربانيين وقرائين - يتفقون على تحريم لحم الجمل ، والعرب كلّفون به . واليهود يعرمون أكل الشحم ما خلا شحم الظهر ، والعرب يأكلون الشحم كله . واليهود يعرمون أكل الحوايا والعرب يأكلونها<sup>(١)</sup> .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بهن<sup>(٢)</sup> » .

## المرأة اليهودية

كانت النظم اليهودية مصطبغة بسمات صحراوية كما سبق ، وما برحت عاداتهم البدوية غالبة على أجيالهم المتعاقبة ، وفي التوراة إشارات إلى أصلهم الصحراوي<sup>(٣)</sup> .

لذلك قامت شريعة إسرائيل على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل ، والرغبة في كثرة النسل .

فالمرأة تُسبى ، وتباع ، وتورث ، وللاباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات ببيع الرقيق ، وأن يقتلوهن<sup>(٤)</sup> .

ولم ترفع التوراة من قدر المرأة ، ففي سفر الجامعة أن المرأة أمرٌ من الموت ، وأن الصالح التقى هو الذى ينجو منها « رجلا واحداً بين ألف وجدت ، أما امرأة فلم أجد واحدة بين كل أولئك<sup>(٥)</sup> » .

وكانت المرأة في المجتمع اليهودى - كما في المجتمعات البدائية - مملوكة

(١) صبح الأعشى ١٣ / ٣٦٢ (٢) سورة الأنعام ١١٤٦

(٣) سفر التثنية ٣٢ : ١٠ وسفر أرميا ٢ : ٢ وسفر هو شع ٩ : ١٠

(٤) حضارة العرب ٤٩٢ جسناف لوبون و Israel From its Begining. Adolphe Lods. 190.

(٥) سفر الجامعة ٧ : ٢٦ - ٢٩

لأبيها قبل زواجها ، تشتري منه عند نكاحها ، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء ، ثم تصير مملوكة لزوجها ، وهو سيدها المطلق ، لأن كلمة (بعل) معناها سيد ، وليس لنذرها أو قسمها قيمة مالم يؤيده زوجها<sup>(١)</sup> ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه ، لأنها جزء من التركة ، وله أن يبيعها أو يعضها<sup>(٢)</sup> . وكان الزواج بالأخت ذائعا عندهم قديما ، فمثلا تزوج إبراهيم بسارة أخته من أبيه<sup>(٣)</sup> ، والربانيون - الربايم إحدى طوائف اليهود الثلاث - يبيحون زواج بنت الأخ ، وبنت الأخت ، وبنت امرأة الأب<sup>(٤)</sup> ، وقد بعث عيسى - عليه السلام - يحيى بن زكريا في اثني عشر من الخواريين يعامون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ<sup>(٥)</sup> .

ثم بعد ذلك حرموا الأم ، وامرأة الأب ، والأخت لأب أو لأم ، وابنة الابن ، والعممة ، وانخاللة ، وزوجة الابن ، وبنت امرأة الأب ، والأصول والفروع<sup>(٦)</sup> .

وجروا على تعدد الزوجات ، ولم يعارضه القانون الشرعى أو المدنى<sup>(٧)</sup> ، وعرفوا زواج المتعة ، ومارسوه ، ثم نهى الكتاب عنه ؛ لأنه لا يليق أن يكون الاقتران لأجل تبعا لهوى النفس ، ثم تحدث بعده فرقة بغير مسوغ شرعى<sup>(٨)</sup> . وبديهي أن المرأة التي تورث ، كالمثناع لاحق لها في الميراث ، فالقاعدة أن الرجل إذا مات وليس له أبناء ورثه بنو عشيرته ، أما النساء فلا نصيب لهن مما ترك الرجل ، بل كن يُورثن .

(١) اليهود في تاريخ الحضارة ٥٢ ، و 191 Israel From Begining. P.

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٦٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ : ١٢ (٤) العقائد ٨٠

(٥) تاريخ الطبرى ٢ / ١٢

(٦) سفر اللاويين لإصحاح ١٨ آية ٦ - ١٨ وشعار الحضرة .

(٧) اليهود في تاريخ الحضارة ٥٠

(٨) شعار الحضرة ١٠١



فإذا مات الزوج ولم يكن قد أولد الزوجة ورثها أخوه أو بعض أقاربه .  
 وكانت البنت إذا مات عنها والدها ورثها أقرب الرجال إليها ، ثم عدلت  
 هذه القاعدة في عصر متأخر ، فسمح للبنت أن ترث أبها إذا لم يكن له ولد .  
 أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها ، بل ظلت جزءاً من متاعه يرثها  
 ذوو قريبه . على أن التوراة اشترطت على البنت التي ورثت أبها أن تتزوج رجلاً  
 من عشيرته<sup>(١)</sup> .

واختلفت وافى توارث الزوجين ، فالرَبانِيون يورثون الرجل زوجته ، والقراءون  
 يمنونه ، ولا يلزمونه مؤجل صداقها ، ويمنعونها أيضاً أن ترثه ، ولكن لها  
 مؤجل صداقها<sup>(٢)</sup> .

وقد خولت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت  
 ما لا يَرْضَى ، ولم يكن هناك ما يكفه عن استعمال هذا الحق المطلق إلا بعض  
 روابط واهية لا تجدى فتيلاً . ولم يسمح للنساء أن يطلبن الطلاق من أزواجهن ،  
 وليس قبولهن الطلاق شرطاً لصحة وقوعه<sup>(٣)</sup> ، ثم في عصور متأخرة أباح القراءون  
 للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها<sup>(٤)</sup> .

وكان اليهود قديماً ينسبون أبناءهم إلى أمهاتهم ، ففى التعاويذ السحرية  
 اليهودية يقرن اسم الرجل باسم أمه لا باسم أبيه ، وقد عكف يوليوس وهوزن  
 على دراسة التوراة ، وخلص إلى أن النسب إلى الأم هو الشائع فى جداول الأنساب  
 فى الجزء الذى حرره أتباع المدرسة اليهودية ، وهذه الجداول يرمز إليها بحرف (J)  
 وأن النسب إلى الأب هو الشائع فى القسم الذى حرره أتباع المدرسة الكهنوتية ،

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ وشعار الحضر ١٥٢-١٦٤ والأحكام الشرعية  
 فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ١٦٩ - ١٧٢

(٢) شعار الحضر ١٦١ - ١٦٣

(٣) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة فى الإسلام  
 للسيد أمير على الهندى ٧٣ والإسلام والحضارة العربية ١ / ٨٠

(٤) شعار الحضر ١٢٦

وهي التي يرمز إليها بالحرف ( P ) ، وإذا علمنا أن الساميين كانوا يضعون قيوداً شديدة وحدوداً مرعية للزواج بذوى الأرحام ، ولا يضعون مثل هذه القيود في الزواج بالعصبة ، فهم مثلاً يبيحون الزواج بالأخت لأب ، إذا علمنا ذلك تبين لنا أنهم كانوا في وقت ما يعدون صلة الأبوة أو هي من صلة الأمومة ، ويرون أنها لا تفرض نهياً ولا تحريماً في الزواج<sup>(١)</sup> ، ووجود هذه العادة يفسر قول إلههم يهوه عن اتحاد الرجل بالمرأة ( سوف يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بزوجته ) ، ولا تزال لهذه العادة آثار في اليهود إلى اليوم ، وفي الأمم العربية ومصر عادة نسبة الولد إلى أمه في التعاويد والرقى والتأمم . ويرى نولدكه أنها تدل على مرحلة قديمة من نظام الأمومة<sup>(٢)</sup> .

وقد أباح العهد القديم للوالد أن يبيع بنته ببيع الأرقاء لمن يرضى أن يتزوجها لنفسه أو لأحد أبنائه<sup>(٣)</sup> .

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ - ٨٨ و Israel From its Beginning. P. 192

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨١ (٣) سفر الخروج ٢١ / ٧ - ١٢ ( ٣ المرأة في الشعر الجاهل )

# صلة العرب بالنصارى

النصرانية في الشمال والوسط :

كانت النصرانية قد ذاعت واستقرت أركانها في البلاد المحيطة بحجزيرة العرب ، في الدولة الرومانية ومصر والحبشة . وكان النصارى يتعبدون بنشر دينهم والتبشير به ، فيجوبون البلاد ، ويجوسون القفار ، ويحتملون المشقات . وكان من أثر ذلك أن نفذت المسيحية إلى بلاد العرب ، وعرفت في أرجائها ، ودان بعض العرب بها .

فالفلسنة في الشام نصارى<sup>(١)</sup> على المذهب المنوفستي الذي كان شائعاً في ديارهم ، وعرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبي ، نسبة إلى يعقوب البرذعاني<sup>(٢)</sup> ، وهم حماة الكنيسة في الشرق ، يدل على ذلك أن الحارث بن أبي شمر ( حوالى ٥٢٩ - ٥٦٩ م ) كان نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة<sup>(٣)</sup> .

وفي الحيرة نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد انتقلت النصرانية إليهم من الشام ، لأن الإمبراطور جستنيان اضطره النساطرة فرحب بهم كسرى أنوشروان ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) وأسس لهم مدرسة جنديسابور في فارس ، فنشروا مذهبهم هناك<sup>(٤)</sup> ، وغلب هذا المذهب على فارس وخراسان والعراق والموصل<sup>(٥)</sup> .

وقد دارت بالمسيحية أشرف الحيرة ، منهم من بنى تيم آل عدى بن زيد العبادي ، ومنهم أناس من سليم ومن طيء وغيرهم<sup>(٦)</sup> . وفي عام ٤١٠ م

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته

(٢) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩ (٣) العرب قبل الإسلام ١٩١ جرجى زيدان

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٦ و ١٨ دى بور ترجمة أبور ريد

(٥) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩ (٦) البلدان للياقوتى ٣٠٩

ورد ذكر أشقفٍ على الحيرة ، وفيما بين ٥٥٩ و ٥٧٥ م كان أحودمه يبشر بالنصرانية بين التنوخيين<sup>(١)</sup> .

ولما فتح العرب العراق كان على شواطئ الفرات مسيحيون ، وكان بعض البدو من انتجعوا الجزيرة قد دخلوا في حوزة الكنيسة<sup>(٢)</sup> . وقد نزل خالد بن الوليد في طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ بقرى يقال لها بانقيا وباروشما وأليس فصالحه أهله النصارى<sup>(٣)</sup> . وقد بقيت كتب من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية استعملت لغة للكنيسة<sup>(٤)</sup> .

وكانت على النصرانية قبيله تغلب ، وقد دانت بها بعد يوم خزاز ، ذلك أن نزار لم تكن تستنصف من اليمن ، ولم تنزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم<sup>(٥)</sup> ، فلما انتصر عرب الشمال على اليمن شعروا بنعمة الاتحاد ، والتفوا حول زعيمهم كليب ، ووجدوا أن عرب اليمن يهود ونصارى ، وعرب الشام والحيرة نصارى ، فاعتنق النصرانية كليب وبعض خلفائه من ربيعة ومن مضر ، ومن إياد ، ومن طيء ، ومن قضاة ، ومن قيس بن ثعلبة ، وبنى كليب كنيسة ينافس بها حرم مكة ، وهو إنما يريد أن يثبت ملكه على دعائم من العقيدة الدينية والعصبية القبلية . ولم ترم تغلب عن المسيحية ، وما زالت عليها إلى عهد عمر بن الخطاب « ولما أراد أخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زُرعة ابن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي أو عبادة بن النعمان التغلبي : أنشدك الله فيهم ، فإنهم قوم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية ، فلا تمن عدوك عليك » فضاعف عمر عليهم الصدقة ، وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم<sup>(٦)</sup> ، وكانت هذه معاملة خاصة بالتغليبيين ، إذا اعتبر عمر أن المضاعفة

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/١٣٥ عن نو Nau في كتابه Les Arabes. P. 16

(٢) الحضارة الإسلامية ٧٣ فون كرير (٣) تاريخ الطبرى ٤ / ٣

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٩ بارتولد (٥) معجم البلدان مادة خزز

(٦) المعارف ١٩٣ والحراج لأبي يوسف ٦٨ والحراج للقرشى ٦٦ وفتح البلدان ١٨٩

بمنزلة الجزية على غيرهم » وليس يؤخذ من غيرهم من أهل الذمة صدقة مضاعفة<sup>(١)</sup> .

وكان بعض قبيلة بكر - تيم اللات وضبيعة وبعض بني عجل - نصارى<sup>(٢)</sup> ، وكان قرب منازل تميم من منازل بكر وتغلب وسيلة إلى أن يعتقد بعضهم النصرانية<sup>(٣)</sup> ، وقد افتخر الزبرقان بن بدر أمام النبي بنصرانته في قوله :

نحن الكرام فلا حتى يُعادِلنا منا الملوكُ وفينا تُصَبُّ البِيعُ<sup>(٤)</sup>

كما اعتنقها جماعة من إياد، منهم قس بن ساعدة<sup>(٥)</sup> ، وجماعة من جذام<sup>(٦)</sup> ، وجماعة من قُضاعة<sup>(٧)</sup> ، ودان بها أناس من النُعمِ<sup>(٨)</sup> ، وأناس من طيِّ كعدى ابن حاتم<sup>(٩)</sup> ، وأبي زُبَيْد<sup>(١٠)</sup> .

وكان في أيلة نصارى ، ضرب عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثاً ، ولا يفشوا مسلماً<sup>(١١)</sup> .  
أما في قلب الجزيرة وبخاصة مدن الحجاز التجارية فلم تكن المسيحية مجهولة ، ذلك بأن سكان هذا الإقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال ، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتثر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم في تعريف العرب بال نصرانية .

(١) الحراج للقرشي ١٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر المجلد الرابع العدد الأول ٤٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٧٤

(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥

(٥) التنبيه والإشراف ١٧٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٦

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٦ / ٣١٣

(٧) المعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧

(٨) تاريخ الطبري ٤ / ٧٣ (٩) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٤٦

(١٠) الشعر والشعراء ١٠١ والأغانى ١١ / ٢٣

(١١) الأم للإمام الشافعي ٤ / ١٠١

على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية<sup>(١)</sup>، ففي ناحية من نجد كشف بلي pely عن عمود مسيحي حطمه الوهايون<sup>(٢)</sup>. وقد تنصر من قریش بنو أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث وورقة ابن نوفل<sup>(٣)</sup>، وكان ورقة قد استحکم في النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً<sup>(٤)</sup>.

وفي يثرب كان من المخارین ضد النبی عند مقدمه إليہا شريف من الأوس مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى الراهب<sup>(٥)</sup>، وكان بمكة نصراني اسمه مؤهب ضرب عليه النبي ديناراً كل سنة<sup>(٦)</sup>.

وكان بالبحرين نصارى، ففي سنة ٧ هـ صالحهم العلاء بن الحضرمي نيابة عن رسول الله<sup>(٧)</sup>.

على أننا نجد أسماء كثير من النصارى في أماكن شتى من الجزيرة<sup>(٨)</sup>. وكان بكندة نصارى منهم حُجَيَّة بن المَضْرَب<sup>(٩)</sup>، وامرؤ القيس بن عابس الكندي<sup>(١٠)</sup>.

### النصرانية في اليمن:

سلكت المسيحية طريقها إلى اليمن منذ أواسط القرن الرابع الميلادي.

(١) العرب والإمبراطورية العربية ٢٩ بروكلمان.

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٩ تاريخ العقوبى ١ / ٢٩٨

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٣ والأم للشانقي ٤ / ١٠١ والمراج للقرشي ٧٣

والأغانى ٣ / ١٢٠ (٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢١٦

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٦ و ٢٤٣.

(٧) فتوح البلدان ٨٥ (٨) المعارف ٢٠ ومروج الذهب ١ / ٢٩ - ٣٢

وتاريخ الخميس ١ / ٣٢ ومجالس ثعاب ١ / ٦٥٣ وديوان التلمس . مخطوط .

(٩) الأغانى ٢١ / ١٠ وسمط اللآلى ١ / ٢٠٤ .

(١٠) أسد الغابة ١ / ١١٥ .

وتضافرت على فسح المجال لها هناك عوامل شتى ، بعضها سياسى ، وبعضها تجارى ، وبعضها دينى .

ذلك بأن قياصرة الروم لما تنصروا أخذوا يهتمون بنشر دينهم ، ويستعينون به على بسط نفوذهم ، وتوسيع المجال لتاجرهم ، فأرسل الإمبراطور قسطنطينوس constantius ( ٣٥٣ - ٣٦١ ) مبشراً هو فروممتوس إلى الحبشة نصبه أسقفاً عليها سنة ٣٥٤م فنشر النصرانية فيها <sup>(١)</sup> . وفى سنة ٣٥٦م بعث ثيوفيلوس ليشر باليمن ، واستطاع أن ينشئ كنيسة بأرض حير ، وثالثة بعدن ، وليس ما يمنع من أن يصدق أن المسيحية وفدت أيضاً من الشمال بعد ذلك <sup>(٢)</sup> . وكان بنجران كنيسة بناها بنوعيد المدان الحارثى ، وسموها كعبة نجران <sup>(٣)</sup> وقد ذكرها الأعشى فى قوله لناقته :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها  
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها <sup>(٤)</sup>

ثم كانت الغزوة الحبشية الأخيرة لليمن فى ٥٢٣ م ، فاعترف نصارى اليمن بالحبش ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، واستطاع أبرهة أن يحكم اليمن ، وكان نصرانياً ورعاً متحمساً لبث دينه فى بلاد العرب ، فبنى القليس بصنعاء <sup>(٥)</sup> ، وهى كنيسة لم ير الناس أحسن منها ، ولما أتم بناءها كتب إلى النجاشى : إني قد بنيت لك كنيسة لم بين مثالا ملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب <sup>(٦)</sup> . وفى سبيل ذلك حاول أن يهدم الكعبة ، وكانت غزوة الفيل التى باء كيدها بتضليل .

(١) دائرة المعارف لابستانى ٦ / ٦٧٩ .

(٢) العرب قبل الإسلام ١٢٦ زيدان و Hitti . P.97 History of the Arabs .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٩ وسيرة ابن هشام ١ / ٣٠ - ٣٤ و Hitti P.67 .

(٤) الأغاني ١٠ / ١٣٥ - ١٣٧ وديوان الأعشى ١٧٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٦١ والقاموس المحيط ( قلس )

(٦) معجم البلدان ٧ / ١٥٥ و ١٥٧ .

ومن تنصر باليمن طيباً ومذحجاً وبهراء وسليح<sup>(١)</sup> .

وهذه الكثرة تخوّنا أن نرفض قول تسدال Tisdal إن المسيحية لم يعتنقها من العرب إلا بنو الحارث في نجران ، وبنو حنيفة في اليمن ، وبعض طيبى في تيماء<sup>(٢)</sup> .

وما جاء الإسلام حتى كانت النصرانية ذائعة في الجنوب ، يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على النصرانية<sup>(٣)</sup> ، وصالح وفد نجران على ألفي حلة في صفر وألفي حلة في رجب .. وأن عليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إن كان باليمن كيد<sup>(٤)</sup> ، ومع كل حلة أوقية من الفضة<sup>(٥)</sup> . وهذا دليل على كثرة العدد والثروة ، لذلك لا عجب أن يبلغوا في عهد عمر أربعين ألفاً ، وأن يتحاسدوا ، فأتوا عمر فقالوا : أجلنا - وكان قد خافهم على المسلمين - فاعتنم الفرصة وأجلاهم<sup>(٦)</sup> .

### أثر النصرانية في العرب

١ - كانت النصرانية ذات آثار شتى في العرب ، فبعضهم مال إلى الرهبنة وبناء الأديار ككنيسة الطائي ، إذ فارق قومه ونسك ، وبنى ديراً بالقرب من شاطيء الفرات ، وترهب فيه حتى مات سنة ٥٩٠ م<sup>(٧)</sup> ، وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قايلاً من الطعام<sup>(٨)</sup> .

وكان القسس والرهبان يعظون الناس في الجامع والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وقد سمع النبي

(١) تاريخ يعقوبين ١ / ١٩٨ .

(٢) Original Sources of The Quran P. 136. (٢)

(٣) فتوح البلدان ٧٥ . (٤) فتوح البلدان ٧٠ .

(٥) الحراج لابن يوسف ٤١ . (٦) فتوح البلدان ٧٣ .

(٧) معجم البلدان ٤ / ١٤٣ وشعراء النصرانية ١ / ٩١ .

(٨) الأغاني ١٤ / ٤١ وشعراء النصرانية ٢١١ .



حلى الله عليه وسلم إحدى خطبه في عكاظ ورواها<sup>(١)</sup> .

ومما يدل عن انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفندها ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا نصارى ، وللمسيحية آثار في شعرهم وخيالهم وعقائدهم ، كأمية ابن أبي الصلت<sup>(٢)</sup> ، وذى الإصبع المدوانى<sup>(٣)</sup> ، وعدى ابن زيد العبادى<sup>(٤)</sup> ، والأعشى<sup>(٥)</sup> ، والنابغة الجعدى<sup>(٦)</sup> وغيرهم<sup>(٧)</sup> .

على أن العرب كانوا يتزوجون بنصرانيات في الجاهلية وفي الإسلام ، وكن ينسان لهم بعض الأشراف ، ذكر كثيراً منهم ابن رُسْتَمَة ، كالحارث بن عبدالله ابن أبي ربيعة الحزومى<sup>(٨)</sup> .

٢ — وإذا كانت اليهودية قد عجزت عن أن تصرع الوثنية الجاهلية ، فكذلك قد عجزت المسيحية ؛ لأنها لاتوائم طباع العرب الميالين إلى النار والانتقام والأنفة من الضيم ، وما من عربى يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن .

ثم إن المسيحية كانت قد اختلطت تعاليمها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة<sup>(٩)</sup> ، فقدت بساطتها ، وامتلات بالشبهات والغموض ، يقول تايلور Canon Taylor إن أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة ، ودعوا إلى العزوبة والعزلة ، وادعوا أن التقذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضر أو مستقبل ؛ فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله<sup>(١٠)</sup> .

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٢ وقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢٠ والأغانى ٤ / ١٢٥ وديوان أمية ابن أبي الصلت .

(٣) الأمالى ١ / ٢٥٥ والأغانى ٣ / ١٠٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢٨٥ . (٥) الأغانى ٨ / ٧٦ ساسى .

(٦) طبقات الشعراء ١٠٣ - ١٠٥ .

(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلى . أحمد الحوفى ٨١ - ٨٢ والفضليات ٢ / ٥٢ .

والمؤتلف والمختلف للامدى ٧٤ والبيان والتبيين ٣ / ٥٣ و ١ / ٥٤ .

(٨) الأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٣ .

(٩) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٢٦ دى بور ترجمة أبو ريده .

(١٠) الدعوة إلى الإسلام ٦٦ و ٦٧ أرنولد .

لذلك كان من العسير أن يُشرب العرب هذه التعاليم .  
 على أن العرب خالفوا النصرارى فى أشياء ؛ فالنصارى يعرمون الإبل  
 وألبانها ، ولكن العرب أحلوها ، والكنيسة تحرم تعدد الزوجات والعرب  
 يعددون ، والنصارى يحظرون الطلاق والعرب يستبيحونه<sup>(١)</sup> .

### المرأة النصرانية

أعزت المسيحية المرأة بعض الإعزاز ، وحمتها بعض الحماية من المهانة التى  
 كانت تُمنى بها ، فلا جرم أن تهرع النساء إلى المسيحية أفواجا ؛ لأنهن أحبين  
 من تعاليمها أنه « لا يهودى ولا إغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى ،  
 كلكم واحد فى يسوع المسيح » فى وقت كانت النساء فيه محتقرات ؛ ينظر إليهن  
 على أنهم يقمن بعمل ثانوى فى النسل ، حتى لقد كان اليهودى الورع يحمد الله  
 دائما على أنه لم يخلقه غير يهودى ، ولم يجعله عبداً ولا امرأة .

وقد قامت المسيحية فى أول عيدها على جيد النساء إلى حد كبير ؛ فكن  
 مبشرات ، وكن يهين لها المال ، ويُدعنها فى حماسة ، وقد اعترفت بهن قسيسات ،  
 وبلغت القسيسات عشرات<sup>(٢)</sup> ، وأظهرت المبشرات كثيراً من ضروب  
 الشجاعة والإيمان ، والتمسك بالعميدة ، واحتمان العذاب راضيات<sup>(٣)</sup> .

وكان أعظم ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرمت تعدد الزوجات ،  
 والتسرى ، وحدت من الطلاق<sup>(٤)</sup> ؛ فقد سأل المسيح تلاميذه عن الطلاق ؛  
 فقال لهم : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها  
 وتزوجت بأخر تزنى<sup>(٥)</sup> .

(١) صبح الأعتى ١٣ / ٢٨٥ .

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ١٩٣ . نشره السير جون هامرتن .

(٣) المرأة فى العصور ٣١ أحمد خاكي . (٤) المرأة فى العصور ٣٦ .

(٥) إنجيل مرقس . الإصحاح ١٠ .

ولكن إعزاز المسيحية للمرأة كان بقدر ضئيل ، لم يرفع من شأن المرأة ، ولم يطلقها من ساطان الرجل ، ولم يحمها من عسفه وازدرائه ولم يضيف إليها حقاً من حقوقها الكثيرة المسلوبة ؛ فالإنجيل يخص الرجل بالذكر دون المرأة : « لأن الرجل مخلوق على صورة الله ، وأما المرأة فإنها مخلوقة من جنب الرجل » . وقد أيدت آراء رجال الدين أن المرأة هابطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ؛ ففي رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خاتمت المرأة من أجل الرجل <sup>(١)</sup> . وجاء في رسالته إلى أهل أفسس : « يا أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ؛ لأن الرجل رأس المرأة ، كما أن المسيح رأس الكنيسة » . وإن كان قد أوصى الرجال بحب النساء : « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة » <sup>(٢)</sup> ، وشبهه بهذا ما ورد في رسالة بطرس الأولى <sup>(٣)</sup> .

وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت في الإنجيل بأن المرأة حليفة الشيطان ؛ فهي جديرة بالاحتقار ، وعندها بعضهم مصدراً للرجس ، وكان من أثر ذلك انتشار الرهينة والتبتل <sup>(٤)</sup> .

ومن عجب أن بحث المجتمعون في مجمع ( ماكون ٥٨١ م ) فيما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعد من البشر ؟ وبعد جدال طويل عنيف كان الجواب أن لها نفساً ، وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة <sup>(٥)</sup> . ، وإن كانت الفكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ، ما عدا السيدة مريم .

(١) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس الإصحاح ١١ : ٢ .

(٢) من رسالة بولس إلى أهل أفسس الإصحاح ٥ : ٢٢ ، ٢٥ .

(٣) الإصحاح ٣ : ١ - ١٠ .

(٤) المرأة في العصور ٣١ - ٣٦ وتاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ .

## صلة العرب بالفرس

يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس مملكة الخيرة بقرون ؛ فقد أدوا الجزية للملك قورش سنة ٥٥٠ ق.م ، وكانوا أعواناً لقمييز في فتح مصر سنة ٥٢٥ ق.م ، ثم كانوا مع الفرس في حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق.م<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر الكاتب اليوناني كينوفند ( ٤٠١ ق.م ) أن كورة في شرقي الفرات كانت تدعى ( العربية )<sup>(٢)</sup> . وكانت البلاد الواقعة شرقي الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة سنة ٤٠١ ق.م<sup>(٣)</sup> .

وفي عهد سابور الأول بن أردشير ( ٢٤١ - ٢٧٢ م ) كانت بين دجلة والفرات مدينة اسمها « الحضر » ، يحكمها عربي من قضاة ، وقد شمل ملكه أرض الجزيرة ، وبلغ الشام ، ثم إنه أغار على بلاد الفرس فخاربه سابور<sup>(٤)</sup> .

وفي أوائل القرن الثالث للميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جرهم وإجلائها عن مكة ، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبي الخيرة<sup>(٥)</sup> ، منها سنداد - نهر فيما بين الخيرة إلى الأبلّة - وكانوا ذوى منعة لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على كسرى وهزموه مرتين<sup>(٦)</sup> .

(١) العرب قبل الإسلام ١٠١ تقلا عن هيرودوت .

(٢) مجلة الجمع اللغوي ٣ / ٣٣١ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢ والأغانى ٢ / ١٤١ ومعجم البلدان ٣ / ٦٧ وسيرة ابن

هشام ١ / ٧٨ ومروج الذهب ١ / ٢٩٦ والكامل لابن الأثير ١ / ١٣٥ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٧ .

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٧٣ .

ثم كانت حروب بين العرب وسابور الثاني المسمى بذي الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م) بعد أن أغار العرب على أطراف مملكته ، ومكثوا بها مدة ، ففزاهم في بلادهم ، وأسر منهم كثيراً ، وأسكن أمراهم مع بكر بن وائل كرمان ، ومن بني حفظة الأهواز<sup>(١)</sup> ، وأسكن عدداً عظيماً من أسرى العرب إقليم تَوَجَّ أيضاً ، وكانت حملة سابور حوالي ٣٥٠ م<sup>(٢)</sup> .

وبذلك تعددت الفرص لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ويساكنوهم .

ثم بعد ذلك ساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الخيرة ، التي ظلت نحو أربعة قرون (٢٦٨ - ٦٣٣ م)<sup>(٣)</sup> ، وُضِلت بين العرب والفرس ، وكان أهلها أكثر حضارة من عرب الجزيرة ، وكان الفرس يعجبون بهم ، حتى لقد أرسل يزيد جرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرئ القيس ابن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ - ٤٢١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء قصر الخورنق له ، وأن يخرج به إلى بوادي العرب<sup>(٤)</sup> ، وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلم لأساتذة من الفرس ومن العرب ، ثم أعانه العرب في أن يخلف أباه على عرش فارس<sup>(٥)</sup> ، وتوسط عطاء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مسألتهم إليه ويعفو عنهم<sup>(٦)</sup> .  
وأثرت التربية العربية في بهرام ؛ فأجاد اللغة العربية كما أجاد لغات أخرى ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٦ - ٦٩ و ٣ / ٦٨ و مروج الذهب ١ / ١٢٢ - ١٢٤  
وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١٦٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر .

(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٣٧ و ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨ و ١٥٦ و جغرافيا الإسلام ١٨  
وتاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم ٤٨ و مروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٧٢ ونهاية الأرب للنويري ١ / ٣٧٢ .

(٥) تاريخ الطبري ٢ / ٧٤ - ٧٦ .

(٦) الطبري ٢ / ٧٨ .

وقرض الشعر العربي والفارسي<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر محمد عوفى فى كتابه ( لباب الألباب ) وذكر شمس الدين الرازى فى كتابه ( المعجم فى معاير أشعار العجم ) أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن عرب الخيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرص الشعر ، ونهوه عنه<sup>(٢)</sup> .

وكان إقليم الخيرة وما جاوره مجعاً لأديان شتى أيضاً فى العصر الجاهلى ، فقد فتح المسلمون هذه البلاد ، وعلى شاطئ دجلة والفرات أناس من أديان شتى ؛ فرس يعتقدون الزرادشتية ، ومسيحيون يدينون بالمسيحية ، وإلى هؤلاء جميعاً كان أتباع الديانة المانوية - وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية - وأتباع لديانات قديمة وثنية ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى الصابئة بخران حتى القرون الوسطى<sup>(٣)</sup> .

على أنهم حكموا اليمن عهداً طويلاً منذ استنجد بهم سيف بن ذى يزن لطرده الحبشة ، وظلوا يحكمونها إلى أن أشرق الإسلام<sup>(٤)</sup> ، وقد اشترط أنوشروان على سيف بن ذى يزن - أو معديكرب - بعد أن ساعد اليمانيين على إجلاء الحبش شروطاً . منها أن الفرس يتزوجون بنساء اليمن ، ولكن لا يتزوج اليمانيون بنساء الفرس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينكحوا النسوان منهم وألا ينكحوا فى الفارسينا<sup>(٥)</sup>

(١) مروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٢) الأدب الفارسى الإسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب فى العالم

٤٤٨ ، ٤٥٠ / ١

(٣) Literary History of Persia of persia, Browne. P. 154

والحضارة الإسلامية ٨٣ فون كريمير . والفهرست ١٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ١١٥ - ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١ / ٦٥ - ٧٣ والأغانى

Original of the Quran. P. P. 212-215. و ٧٣ / ١٦

(٥) مروج الذهب ١ / ٢١٨ .

وقد سُمي العرب الفرس الذين قدم بهم سيفُ بنى الأحرار ، يقول أمية بن أبي الصلت في تهنئته ومدحه لسيف بن ذى يزن :

حتى أتى بينى الأحرار يقدّمهم تخالم فوق متن الأرض أجيالاً  
لله درهم من فتية صبروا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالاً<sup>(١)</sup>  
على أنهم حكموا البحرين أيضاً ، ومَجَر ، وقد بعث رسول الله إلى أتباع  
كسرى بهَجَر فلم يسلموا : فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل<sup>(٢)</sup> .

ثم إن الفرس كانوا يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم ؛ فمثلاً لقيط  
الإيدى كتب لكسرى وترجم له<sup>(٣)</sup> ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى  
ابرويز ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) ، وأبوه زيد كان يقرأ العربية والفارسية ، وزيد بن  
عدى كان من تراجمة كسرى بعد أبيه<sup>(٤)</sup> .

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كلدة الثقفى ،  
رحل من الطائف إلى جنديسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، وضرب  
العود ، ووفد على كسرى وله معه حديث طويل<sup>(٥)</sup> .

وكذلك رحل ابنه النضر إلى الخيرة وإلى فارس ، وكان يشتري كتب  
الفرس ليحدث منها ، ويعايد الدعوة الإسلامية<sup>(٦)</sup> .

ورحل الأعشى إلى فارس ، ومدح كسرى ، وأدخل فى شعره كلمات فارسية  
كثيرة<sup>(٧)</sup> .

ووفد عبد الله بن جُدعان على كسرى أنوشروان<sup>(٨)</sup> ، وكان لعبيد بن شربة

(١) طبقات الشعراء ٢١٨ والأغانى ١٦ / ٧٣ .

(٢) المغازى ٨٥ و ٨٨ . (٣) معجم ما استعجم للبكري ١ / ٧٥ .

(٤) الأغانى ٢ / ١٠١ - ١٠٦ .

(٥) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ / ١٠٩ - ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطى ١١١ .

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٠ و عيون الأنباء ١ / ١١٣ .

(٧) معجم البلدان ٢ / ٥١ ودراسة الشعراء للعرضى ٩٢ .

(٨) الأغانى ٨ / ٤ .

المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم<sup>(١)</sup> .  
 وكانت ترد على أهل مكة في الجاهلية درايم الفرس البغلية والكسروية<sup>(٢)</sup> .

## أثر الفرس في العرب

ليس من أغراضى هنا أن أبسط القول في أفانين التأثير الفارسى في العرب ؛ لأن ذلك يبعد بى عما أقصد الآن إليه ، وله مجال آخر<sup>(٣)</sup> ؛ لهذا سأقصر بحثى على تبيان التأثير الفارسى في الحياة الاجتماعية ، وما يتصل بالمرأة ، وإذا كانت الزرادشتية والمناوية والمزدكية دعائم العبادة والاجتماع عند الفرس ؛ فإن من حقها أن تفرد بكلمة .

أما زرادشت : فهو عند الفرس نبي أسموه زرتشترا ، وسماه اليونان زرواستر ، ونسبوه إلى زمن قديم ، ولكن المؤرخين المحدثين يرون أنه كان بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد<sup>(٤)</sup> ، وقد ظهر بين الفرس وهم يعبدون مثرا إله الشمس ، وأناهيتا إلهة الخصب والأرض وغيرها ؛ فثار ضد المجوس أو الكهنة الذين كانوا يلغون شئون هذه العبادة ، وأعلن وحدانية الله ، وسماه أهورا مزدا إله النور والسماء ، وأعان أن ما عداه من آلهة إن هي إلا مظاهر من صفاته . وآزره في نشر هذه العقيدة دارا الأول ، وجعل الزرادشتية وحدها الدين الرسمى للدولة بعد أن كانت بغيضة إلى الأهلين<sup>(٥)</sup> .

رمز زردشت إلى أهورا مزدا برمزين هما : الشمس والنار ، ودعا إلى تقديسهما على هذا الاعتبار<sup>(٦)</sup> ، ولكن أتباعه عبدوا النار من بعده ، وعدوها

(١) الفهرست ٨٩ . (٢) فتوح البلدان ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) فصلت القول في هذا في كتاب ( التيارات المذهبية بين العرب والفرس ) .

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٣٨ ول ديورانت .

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٣٩ والدعوة إلى الإسلام ١٧٩ أرنولد .

(٦) قصة الأدب الفارسى ٣٢ حامد عبد القادر .



من آلهتهم ، وأسموها (آنز) وجعلوها ابناً لإلههم الأعظم إله النور والضياء ، وكانوا يقدمون للشمس والنار وأهورا مزدا قرابين من الأزهار والخبز والفواكهة ومن الحيوان ، وأحياناً من البشر<sup>(١)</sup> .

وأما المانوية : فقد ظهرت في إيران سنة ٣٤٢ م في زمن سابور بن أردشير ، إذ ادعى ماني النبوة ، وصدقه خلق كثير ، هم الذين سمو المانوية .  
والمانوية قائمة على الزرادشتية وبعض تعاليم من المسيحية ، إذ أن ماني لم ينكر نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

وأهم تعاليمها أن العالم تسيطر عليه قوتان : النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر . وقد فرض ماني على أتباعه عدة فروض ، منها التواني في العمل ، وتعلم المسحر ، والامتناع عن الكذب والسرقة والزنا والقتل ، والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، والامتناع عن الزواج ، وإيثار العزلة والرهبنة ، حتى يفنى العالم ، ويعود النور إلى موطنه الأصلي .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الأولى كانت تشجع على العمل والتعمير والتناسل ، وأن الثانية كانت تدعو إلى الكسل والخمول .

ولهذا قال هرمز بن سابور إن ماني جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم<sup>(٢)</sup> .

ولهذا أطلق أتباع زرادشت كلمة ملاحدة أو زنادقة على أتباع ماني .

وأما مزديك : فقد ظهر في أوائل القرن السادس في عهد قباد والد كسرى أنوشروان معاصر البعثة الحمديّة، ووافق زرادشت في بعض ما جاء به، وزاد ونقص، ولكنه استحل الحرام والمنكرات ، وسوى بين الناس في الأموال والأموال والنساء ، والعبيد والإماء ؛ فكثرت أتباعه من السفلة والطعام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قباد ؛ فعظمت البلايا على الناس ، وصار الرجل

(١) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسي ٥٤ والملل والنحل ١/٢٢٤ .

لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف أباه . فلما مضت عشر سنين من ملك قباذ اجتمع موبدان موبذ والعطاء ، وخلعوا قباذ وولوا عليهم أخاه جامسب ، ثم أعيد قباذ بعد قتل كثير من المزدكية<sup>(١)</sup> .

ويتحدث نظام الملك في تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقرؤا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن في نساءكم ، فبهي كالأموال بينكم ، فمن يرغب في امرأة فليجتمع بها ، فليس في ديننا غيرة ولا سميّة ، وبهذا لا تحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها .

وإذاً فقد فتح مزدك أبواب الفساد لجميع الناس ، ورغبهم في مذهبه ولا سيما العامة . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلاً إلى منزله فعليه أن يمدّهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مجامعة نساءه . . . ولكن أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى أبيه ، وبيّن لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباه على الملك والدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسراً إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه ، وقُتل مزدك وكثير من أتباعه<sup>(٢)</sup> .

وإذاً فقد حاول مزدك أن يفلسف مذهبه ، ويصبغه بصبغة فيها خير للمجتمع ، فادعى أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شحنة وسفك دماء إنما سببه النساء والأموال « فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلاء<sup>(٣)</sup> .

وأغلب الظن أن الدعوة إلى شيوع النساء في فارس أقدم من مزدك هذا ،

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٤ والأغانى ٦١ / ٨ ساسى والملل والنحل ١ / ٢٢٩ .

(٢) سياسة نامه ٢٤٠ تأليف نظام الملك . ترجم هذه الفقرة صديق الدكتور محمد موسى

هنداوى .

(٣) الملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل ٢ / ٨٦ وصبح الأعشى ١٣ / ٢٩٧

(٤ - المرأة في الشعر الجاهلى)

لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل فسا ، يقال له زرادشت بن خرکان ، وقد تابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال له مزدق<sup>(١)</sup> ، وبهذا الرأي أخذ براون<sup>(٢)</sup> . ويعزره أيضاً أن ابن النديم ذكر أن اثنين دَعَوْا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر في أيام قباد ، وقتله أنوشروان<sup>(٣)</sup> ، وقتك بأتباعه<sup>(٤)</sup> . وأياما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذبوع المذهب في الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقي عدد منهم تعقبه أنوشروان بعد استوائه على العرش ٥٣١ م ، ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية .

### بعض مظاهر التأثير الفارسي في العرب :

١ — عبد الفرس النار بعد زرادشت كما سبق ، وكانت بيوتها منبثة في العراق مثل بيت النار الذي بنته بوران بنت كسرى ابرويز ، وغيره من بيوت كثيرة بناها المجوس هناك<sup>(٥)</sup> ، ناهيك بما كان في فارس نفسها من بيوت النيران ، حتى لقد قال ابن حوقل عن كورة اصطخر: إن بيوت نيرانها كثيرة ، والعلم بها من غير الديوان متعذر ، إذ ليس من بلد ولا رُستاق ولا ناحية إلا بها عدد كثير منها<sup>(٦)</sup> ، وظلت معابدهم إلى ما بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون في العراق وفارس<sup>(٧)</sup>

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٩١ .

(٢) Litery History of Parsia Browne P. 170. (٢)

(٣) الفهرست ٣٤٢ .

(٤) التنبيه والإشراف للمعمودى ٨٩ والفهرست ٣٤٢ .

(٥) مروج الذهب ١ / ٢٦٨ (٦) المسالك والممالك لابن حوقل ١٨٩

(٧) مروج الذهب ٤ / ٨٦ والإصطخرى ١٠٠ و ١١٨ والمسالك والممالك ٨٩

وكان المجوس منبئين في بقاع شتى من جزيرة العرب ، وقد دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مجوس نجران <sup>(١)</sup> ، ومجوس اليمن ، ومجوس هجر <sup>(٢)</sup> ، ومجوس عُمان <sup>(٣)</sup> ، والبحرين <sup>(٤)</sup> . وكان بائقطينف وبالزارة مجوس امتنعوا من أداء الجزية للنبي ، وبالغابة ودارين مجوس أيضاً <sup>(٥)</sup> ، وكان بتميم مجوس ، منهم زرارة بن عدس ، وابند حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سود جد وكيع بن حسان وغيرهم <sup>(٦)</sup> . وكان سلمان الفارسي مجوسياً أسلم <sup>(٧)</sup> .

وقد ظلت المجوسية عقيدة لبعض العرب إلى عهد النبي ، بل إلى عهد عمر ، فقد ذكر له في خلافته قوم يعبدون النار وليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أدري ما أصنع بهؤلاء ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب <sup>(٨)</sup> .

لذلك لا عجب أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبو الحسن المدائني كتاباً سماه ( كتاب فيمن تزوج مجوسية ) <sup>(٩)</sup> . ولم يكن هذا الزواج في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوّة زرادشت مكذبون بسائر الأنبياء <sup>(١٠)</sup> .

وقد تجلّى تقديسهم للنار في مظاهر شتى ، فهم حلقوا بها ، إذ كانت نار باليمن ، لها سدة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنتفض ، فيبول بذلك على

(١) فتوح البلدان ٧٥ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٨ والحراج لأبي يوسف ٧٤ .

(٣) فتوح البلدان ٨٤ (٤) فتوح البلدان ٨٦ (٥) فتوح البلدان ٩٢ و ٩٣

(٦) الأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧ والمعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والكامل لابن

الأثير ١ / ٢١٣ .

(٧) أسد الغابة ٢ / ٣٢٩ .

(٨) الحراج لأبي يوسف ٧٤ والرسالة للشافعي ٤٣٠ .

(٩) الفهرست ١٠٢ (١٠) الفصل ١ / ١١٣ .

الخالف لينكل إذا كان مذنباً ، ويجرؤ على الحلف إذا كان بريئاً <sup>(١)</sup> ، يقول .  
أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المَهْوَلِ حالف <sup>(٢)</sup>  
وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى <sup>(٣)</sup> أفنون التغلبي <sup>(٤)</sup> ، ثم ذكرها  
الكميت في العصر الإسلامي <sup>(٥)</sup> .

وكان العرب يتحالفون على النار ، وربما يدنون منها حتى تكاد تحرقهم <sup>(٦)</sup> .  
ثم إنهم استمطروا بها أيضاً <sup>(٧)</sup> ، وفي شعر أمية بن أبي الصلت تسجيل لهذا  
الاستمطار <sup>(٨)</sup> .

وقد روى أن بشار بن برد كان يدين بهذا المذهب ، لذلك فضل النار على  
التراب ، وإبليس على آدم في قوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار <sup>(٩)</sup>  
وقوله :

إبليس أفضل من أيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار  
الناس عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار  
وقد رد عليه صفوان الأنصاري بقصيدة طويلة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند <sup>(١٠)</sup>

(١) تاريخ الطبري ٢/٩٦ وأبيات المعاني لأبي هلال العسكري وأساس البلاغة والقاموس  
المحيط مادة هول وأيمان العرب للنجيري ٣١ والحيوان .

(٢) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول .

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٣٩ (٤) المفضليات ٦٢/٢ .

(٥) البيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول .

(٦) أيمان العرب للنجيري ٤/٤٧ الكاتب ٣١ مخطوط

(٧) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ ساسي

(٨) ديوان أمية ٤٥ والحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ .

(٩) الأغاني ٣/٢٠ ساسي والبيان والتبيين ١٦/١ بتحقيق هارون .

(١٠) البيان والتبيين ١/٢٧ - ٣٥ بتحقيق هارون .

٢ — وعبد وبعض العرب الشمس أيضاً يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت . ومن عبادها ثمود ، و « كانت تميم أدنى من غيرها ثقافة فألهموا الشمس بخاصة <sup>(١)</sup> » . وعبدها عرب من حمير قبل أن يتهودوا منهم ملكة سبأ ، يقول تعالى على لسان المهدد لساميان . « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله <sup>(٢)</sup> » .

وعبد بعض اليمانيين ودا إله التمر ، وعبدته بعض قبائل من كنانة ، وعبدت تميم الدبران ، وعبدت نلم وجذام المشتري ، وعبدت طيء سُهَيْلا ، وعبدت قيس الشعرى العُبُور ، وعبدت أسد عطار <sup>(٣)</sup> . وعبادة الكواكب والنجوم وثيقة الصلة بعبادة الشمس .

ومن عبدة الكواكب صابئة حران ، لذلك برعوا في الفلك والسحر ، وظلوا على دينهم إلى سنة ٨٣٠ م إذ سألهم المأمون عن دينهم فأجابوا بما لا مفتح فيه ، فهددهم بالقتل إن عاد من رحلته فلم يجدهم على دين سماوى ، فقبلوا نصيحة بعض فقهاء المسلمين ، وأعلنوا أنهم من الصابئة ، وتحت ستار هذا الاسم استمتعوا بحقوق أهل الكتاب ، وإن ظلوا على عقائدهم القديمة <sup>(٤)</sup> .

وكان في العرب صابئة آخرون ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(٥)</sup> » .

وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(٦)</sup> » . وقال :

(١) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٧ .

(٢) سورة النمل ٢٤ (٣) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣ .

(٤) Encyclopaedia Britannica ( Art Sabians ) والفهرست ٣٢٠

(٥) البقرة ٦٢ .

(٦) المائدة ٦٩

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد <sup>(١)</sup> » .  
 وهم في بعض الأقوال يعبدون الملائكة <sup>(٢)</sup> ، أو يعبدون الكواكب <sup>(٣)</sup> ،  
 أو هم لا يعبدون الكواكب ولكن يعظمونها ، كما يعظم المسلمون الكعبة  
 بالتوجه إليها <sup>(٤)</sup> . وفي الصابئة أقوال أخرى <sup>(٥)</sup> .  
 وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، قال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً  
 ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من  
 دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » <sup>(٦)</sup> .  
 وهم الذين قال الله فيهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون <sup>(٧)</sup> » .  
 وقال : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألم الذكر وله

(١) الحج ١٧ .

(٢) تفسير الطبري ٩٧/١٧

(٣) هذا رأى الصاحين أبى يوسف ومحمد . عيون المسائل ٥٠

(٤) هذا رأى أبى حنيفة . عيون المسائل ٥٠

(٥) يكذبون بنبوة إبراهيم ومن بعده وصدقون بنبوة لإدريس وغيره (الفصل ١٠٢/١)

وليس لهم كتاب وإنما لهم حدود وأحكام ( الملل ٤٤/١ ) . وقد يجعلون من النصارى وقد  
 يجعلون من غيرهم ( تفسير النيسابورى ٩٧/١٧ ) أو هم يدينون بكتاب ينسونه إلى شيت

Original Sources of Qoran. Adolphe Lods P. 52. and Browne

P. 145

وتعرف شريعة شيت عندهم باللة الحقيقية ( قصص الأنبياء ٤٢ ) وكان شيت قبل إدريس  
 ونوح ( قصص الأنبياء ٣٨ و ٤٥ ) . وكانت له دراية بالفلك والنجوم ( قصص الأنبياء  
 ٤٠ و ٤٣ ) أو هم على دين نوح ( القاموس مادة صبا ) أو دينهم يشبه دين النصارى ويزعمون  
 أنهم على دين نوح وهم كاذبون ( التهذيب للأزهري وهامش القاموس مادة صبا ) . وقد  
 اعتبرهم المسلمون من أهل الذمة يدفعون الجزية كغيرهم من الكتابيين ( المراجع لأبى يوسف ٦٩ )  
 والذي هو المتمسك بكتاب كاليهود والنصارى . أما من زعم أن له كتابا كصحف إبراهيم  
 وزبور داود فقه خلاف ، والأصح عقد الذمة له ، وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول  
 النصارى . ولكن لا يعتقد لزنديقى ولا عابده وثن ولا لعابده الملائكة والكواكب ( صبح  
 الأعشى ٣٦١/١٣ ) .

(٦) النحل ٥٧

(٦) سبأ ٤٠ و ٤١

الأنثى؟<sup>(١)</sup> » وقال : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . إنكم اتقولون قولاً عظيماً<sup>(٢)</sup> » ومن هؤلاء قريش كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ويعبدونها<sup>(٣)</sup> ، وآخرون من العرب زعموا أن الملائكة والأوثان بنات الله<sup>(٤)</sup> .

ومن مظاهر عبادة العرب للكواكب والنجوم اعتقادهم في الأنواء ، ونسبتهم للمطر والرياح وكثيراً من الأحداث إليها ، كما سألين في (ثقافة المرأة) . وكذلك تسميتهن الشمس إلهة ، قال عتبة بن الحارث اليربوعي :

تروءحنا من الأعباء عصرا وأعجلنا الإلهة أن تثوبا<sup>(٥)</sup>

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلاً : أبدليني بها سنّاً أحسن منها ، ولتجر في ظلمها إياتك . وزعموا أنه إذا فعل ذلك أمن على أسنانه العوج . وإلى هذا يشير طرفة بقوله :

سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف - ولم تكدم عليه - يأمئد<sup>(٦)</sup>  
وقال أيضاً :

بدلته الشمس من منبته برءاً أبيض مصقول الأشر<sup>(٧)</sup>

٣ - واعتنق بعض العرب المزدكية ، اعتنقها ملك كندة الحارث بن عمرو ابن حُجر ، وكان معاصراً لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان المنذر بن ماء السماء في عهد قباذ عاملاً له على الخيرة ونواحيها ، فدعاه قباذ إلى الدخول معه في

(١) النجم ٢٢ .

(٢) الإسراء ٤٠ (٣) تفسير الطبري ٦٨/٢٣ .

(٤) تفسير الطبري . سورة النحل ٥٧ .

(٥) لسان العرب مادة أوب . الأعباء : اسم مكان . تروءحنا : رجعنا . أبعجنا : سبقنا .

تثوب : تقرب .

(٦) ديوان طرفة ٢٥ إياة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تعض بأسناتها عضا يذهب تحزير أسنانها . أسف عليه يأمئد : ذر على لثته لئمه وهو حجر للكحل .

(٧) ديوان طرفة ٦٥ الأشر : تحزير الأسنان .



المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فأجابه ، فولاه الخيرة مكانه . ثم لما تولى أنوشروان أعاد المنذر وأبعد الحارث <sup>(١)</sup> .

## المرأة الفارسية

لم تسمُ المرأة الفارسية إلى مكانة عليّة ، وبحسبنا من الدلالة على أنها كانت في نظر الرجال مستمتعاً رواجُ الدعوة المزدكية ، وهشاشة العامة لها ، ورضا بعض الخاصة بها ، حتى لقد ناصرها الملك قباد عشر سنوات .

ثم إنه كان للفارسي أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت <sup>(٢)</sup> .

ولم تتعلم النساء شيئاً سوى تديير منازلهن <sup>(٣)</sup> .

ولا يناقض هذه المكانة أن ملَّك الفرس عليهم سنة ٦٣٠ م بوران بنت كسرى أبرويز فلبست التاج ، ووعدت الحاضرين أن تسير فيهم بأحسن سيرة ، فنثروا عليها الجواهر ، وأظهِروا البشائر ، ودام ملكها نحو سنة وأربعة أشهر حتى ماتت . ثم ملكوا بعدها آزرم دخت بنت كسرى نفسه ، فلبست التاج ، ووعدت أن تعدل كما وعدت أختها ، ولكن ملكها لم يتكث إلا نحو أربعة أشهر ، وماتت أو سُمت <sup>(٤)</sup> .

وكان قداماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج بينته ، وبأخته الشقيقة ، أو غير الشقيقة <sup>(٥)</sup> ويبيحون الأمهات ، والجمع بين الأختين <sup>(٦)</sup> ، فيتزوج الأب

(١) الأغاني ٦١/٨ وتاريخ يعقوبى ٢٩٩/١ و

Original Sources of the Quran P.P 212 - 215

(٢) تحرير المرأة فاسم أمين ٢٣ (٣) تاريخ التريية ١١٦/١ الطغان .

(٤) الشاهنامه للفردوسى ٢٦١/٢ - ٢٦٢ ترجمة عزام وتاريخ الطبرى ١٦٨/٢

والتنبيه والإشراف للسعودى ٩٠ مع اختلاف يسير في مدة الحكم .

(٥) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) صبح الأعشى ٢٩٥/١٣ .

ابنته ، والابن أمه ، والأخ أخته ، لأن الزرادشتية تبيح ذلك <sup>(١)</sup> .  
 وإذا كان الإيرانيون وبخاصة ال ( كبر ) قد ادعوا في القرون الوسطى أن  
 العقائد المجوسية لم تحل المحارم ، فإنهم يخالفون الحقيقة الواقعة <sup>(٢)</sup> .  
 على أن تعدد الزوجات كان مباحاً أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت  
 التسرى ، واتخاذ الحظايا والخليلات <sup>(٣)</sup> .

وكان الحجاب شديداً على نساء الطبقة الراقية ، حتى لقد كن لا يخرجن إلا  
 في هودج مرخاة عليها السدول ، وكان محظوراً عليهن أن يخالطن الرجال في  
 مجتمع عام أو خاص ، بل لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن أو إخوتهن .  
 أما الفتيات فكن حرات في التنقل ؛ لا يضطررن إلى الكد والعمل . وكانت  
 الخليلات والحظايا يتمتعن بقسط عظيم من الحرية ؛ لأن المفروض فيهن أنهم  
 يرفهن عن ساداتهن وعن ضيوفهم <sup>(٤)</sup> .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويفعلون في تقديرهم ، ويعدونهم  
 ثروة اقتصادية لأبائهم ، وعدة حربية لملوكهم .

أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من  
 تربيتهم إعدادهن لمنزل رجل آخر يخفى فائدتهن . ومما قاله الفرس إن الرجال  
 لا يتهلون إلى الله مطلقاً من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبر البنات  
 بركة يجوز منحها للبشر <sup>(٥)</sup> .

(١) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢

(٣) قصة الحضارة الفارسية ٥٨

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٦٠

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٦١

# صلة العرب بالرومان

١ — إذا كانت صلة العرب بالفرس قد نجمت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ببضعة قرون ، فإن علاقة العرب باليونان والرومان قد نبئت قبل أن تنشأ إمارة غسان ببضعة قرون أيضاً .

فقد عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب ، لأن الإغريق كانوا يعتقدون أنها غنية ، ثم كانت الغزوة التي قام بها نيارك حول بلاد العرب نذيراً بإزماع الإسكندر على غزو بلاد العرب نفسها ، ولكن موته وقاها هذا الغزو .

وحوالى ٢٤ ق . م أرسل الإمبراطور أغسطس قيصر حملة خرجت من مصر بقيادة والى مصر إيلوس جالوس *Aelius Gallus* لتستولى على طرق التجارة التي يحتكرها الحميريون ، ولتستغل موارد الثروة فى اليمن لصالح روما ، وتوغلت الحملة حتى نجران ، ثم باءت بالفشل ، وكان يرافقها المؤرخ سترابون<sup>(١)</sup> ، وقد استعان فيها جالوس بالأنباط<sup>(٢)</sup> .

ثم كانت دولة الأنباط مسلماً للاتصال بين العرب والرومان ، وقد قامت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ودامت مستقلة إلى أن دخلت فى حوزة الرومان سنة ١٠٦ م ، وكان اليونان يسمونها العربية الحجرية *Arabia Petra* نسبة إلى عاصمتها بطرا ( الحجر<sup>(٣)</sup> ) وكانت مملكته الأنباط ، ولاسيما عاصمتها مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

٢ — ولما سقطت بطرا فى قبضة الرومان انتعشت إمارة أخرى هى تدمر ، وطمع فيها الرومان كما طمعوا فى بطرا ، وحاولوا فتحها فى منتصف القرن الأول

(١) تاريخ العرب ١/٥٨ فيليب حتى

(٢) العرب قبل الإسلام ٦٨ - ٧٦

(٣) العرب قبل الإسلام ٦٨ .

قبل الميلاد بقيادة ماركس أنطونيوس ، ولكنهم لم يفلحوا .  
 وبلغ بعض ملوكها من القوة إلى حد أن ساعدوا الروم في حربهم للفرس .  
 مساعدة تكفل النصر للروم ، بل لقد انتصر أذينة (٢٦٥ م) على ملك الفرس .  
 سابور الأول ، فنار لهزيمة الإمبراطور فاليريانوس ، فكافأ الإمبراطور أذينة بأن  
 جعله إمبراطور الشرق ، وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني .

ولكن هذا الصفاء بين الرومان ومملكة تدمر لم يدم طويلا ، فقد تنكر  
 الرومان لتدمر ، وقاتلوا الزباء زوجة أذينة ، فانتصرت عليهم انتصاراً ميبئاً ، ثم  
 عاودوا حربها وهزموها سنة ٢٧٢م ، وبعد موتها أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ،  
 وعاش بها بعض الأساقفة ، وشيد بها جستانيان كنيسة . واستمرت تدمر خاضعة  
 للرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (١) .

والأنباط والتدمريون جميعاً عرب ؛ لأن مؤرخي اليونان المعاصرين لهم  
 ذكروا أنهم عرب ، ولأن أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورتبال وأذينة  
 ووائل وعدى وعميرة ، ولأنهم كانوا يتكلمون العربية .

ولا يخفى هذا أن آثارهم التي كشف عنها مكتوبة باللغة الآرامية ، فقد كانت  
 لغة الكتابة في ذلك العهد ، وكان هذا شأن الدول القديمة بالشرق ، وخاصة فيما  
 يتصل بالآثار السياسية والدينية (٢) . ويصح لنا أن نقول إن اللغة الآرامية كانت  
 لغة دولية (٣) ، وفي التوراة ما يؤيد أن الإسرائيليين كانوا يتكلمون بها لما حاصر  
 سنخاريب بيت المقدس (٤) وليس هذا بقادح في نسب الإسرائيليين . وكذلك كان  
 عرب الحيرة يتكلمون العربية ، ويستعملون السريانية غالباً في كتاباتهم (٥) ، وعرب

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٣ و ١٣/٥ وتاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى

(٢) تاريخ الأدب السرياني ٨ مراد كامل والبكري والعرب قبل الإسلام ٧٨ و ٨٩ .

(٣) تاريخ الأدب السرياني ٥ و ٩ .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ : ١١ .

(٥) عصر ما قبل الإسلام ١٣٥

غسان يستعملون الآرامية لغة ثانية لهم<sup>(١)</sup> ، وهذه الحال تشبه حالنا الآن ، فنحن نسطنع العامية في حديثنا والقصحي في كتابتنا ، بل لقد يصطنع بعضنا لغة أجنبية فيما يكتب ، وفي الشؤون الدولية بخاصة .

٣ — ثم أسست مملكة غسان ، وكانت صلتها بالرومان وثيقة ، وهي مشهورة شهرة تخولني أن أكتفي هنا بالإشارة إليها .

على أن قبائل عربية كانت تخضع للروم وتتصل بهم ، فمثلا كانت قبيلة إباد تنزل بقرى من أرض الروم ، وكان بعضها يسكن حمص وأطراف الشام<sup>(٢)</sup> ، ثم دانت لغسان وتنصرت<sup>(٣)</sup> .

وكان نفود الرومان قد تسرب إلى قلب الجزيرة ، نتيجة للاتصال التجاري الدائم بين العرب والشام والرومان ، حتى إن أوليري يرجح أنه كان بمكة قناصل رومانيون يرعون مصالح قومهم التجارية<sup>(٤)</sup> . وقد قدم عثمان ابن الحويرث على قيصر ، ورغبة قيصر في أن يحض قريشاً على الإقبال بتجارتهم إلى الشام ، وقيل إنه ولاء أمر مكة ، لكن قومه انقضوا عليه بعد أن بايعوه<sup>(٥)</sup> . ثم إن الدنانير المرقلية كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية<sup>(٦)</sup> ، وقد شبهت امرأة عربية طالحة بأنه دينار هرقل<sup>(٧)</sup> .

و بعض العرب تزوجوا روميات ، فمثلا أبو الروم بن حمير بن هاشم بن عبد مناف أمه أمة رومية<sup>(٨)</sup> . ونجد في الجزيرة أشخاصاً من الروم ، وأسماء رومية ،

(١) المرجع السابق ١٤٢ . (٢) معجم ما استعجم ٧١/١

(٣) معجم ما استعجم ٧٥/١ .

(٤) Arabia Before Muhammed. O'leary. P. 184

(٥) الروض الأنف ١٤٦/١ والمتني من أخبار أم القرى ١٤٣ .

(٦) فتوح البلدان ٤٧١ - ٤٧٢

(٧) الميوان ٢٥٢/٤ وعيون الأخبار ٢٥/٤

(٨) أسد الغابة ١٩٤/٥ .

مثل زنبيرة الرومية التي أعتقها أبو بكر<sup>(١)</sup> . والأزرق غلام الخارث بن كلدة<sup>(٢)</sup> وأبي الروم ، وأبي رومي<sup>(٣)</sup> .

### أمر الرومان في العرب :

كان العرب المتصلون بالرومان على قسط عظيم من الحضارة ؛ لأنهم يقبسون من حضارة الروم ، فمثلاً يصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس الغناء عند جبالة بن الأيهم وصفاً يدل على ترف وتحضر ، ويقول إنه سمع عشر قيان يغنن ، منهن خمس روميات يغنن بالبرابط<sup>(٤)</sup> .

على أن الرومان كانوا من بواعث نشر المسيحية في بلاد العرب كما سبق ، وقد أعانهم الفساسنة في نشرها وحمايتها ، حتى لقد كان الخارث بن أبي شمر حامياً للكنيسة في الشرق ، والرومان هم السبب في نشر المسيحية في اليمن منذ بعثة تيوفيلوس ٣٥٦ م كما سبق .

## المرأة الرومانية واليونانية

١ — كانت المرأة في نظر الرومان التمداء شراً يجتنب ، وإن كانت مخلوقة للمتعة ، وهي دائماً خاضعة للرجل أباً أو زوجاً ، « وكان زوجها يملك مالها ، ويقم عليها وصياً قبل موته<sup>(٥)</sup> »

فهي في نظره ونظر المجتمع أمة لا قيمة لها ، بيد أبيها أو زوجها حق حياتها وحق موتها ، وإذ كانت ملك أبيها في شبابها ، فإنه هو الذي يختار لها زوجها ، فإذا ما تزوجت ملكها ، ويقول الفقهاء إنها في يمينه مثل ابنته<sup>(٦)</sup> . وعلى كثرة المشرعين في روما فإنهم لم يخلفوا بالمرأة ، ولم يعترفوا لها بحق ، وإنما عينوا ما عليها من واجب . فهي في نظرهم أمة شرعية يتصرف فيها رب الأسرة كما يتصرف

(٢) أسد الغابة ٥/٤٨١

(٤) الأغاني ١٦/١٤

(٦) حضارة العرب ٤٩٤

(١) أسد الغابة ٥/٤٦٢

(٣) أسد الغابة ٤/٤٢٧

(٥) المرأة في الصور ٢٥

في عبيده وقطعانه<sup>(١)</sup>.

على أنها في بعض الأحوال عمود النسب ، فإذا تزوج روماني امرأة أجنبية ، ولم يكن بينهما حق المطاهرة لحق الولد بأمه ، وكان غريبا ، وإذا تزوج لاتيني امرأة رومانية لحق الولد بأمه أيضاً<sup>(٢)</sup> .

وإلى هذا النظام يشير أبو العلاء إشارة سافرة في قوله :

وَلُحِبُّ الصَّحِيحِ آثَرْتُ الرُّومَ انتساب الفتى إلى أمهاته  
جهلوا من أبوه إلا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته<sup>(٣)</sup>

ولكن المرأة تنفست في عصر روما الذهبي ، وتحررت وسادت ، وأمسى الرجال أسارى النساء ، كأنما تواضع الرجال والنساء على تبادل ما كان ، وهال نفوذ النساء كاتوا أحد عظماء روما السياسين ( ٢٣٤ - ٣١٥ م ) ، وهاله أن عم الرخاء ، وبالغت النساء في زينتهن ، وتدخلت الماجنات في سياسة الدولة ، وتسالطن على الأباطرة حتى أضعف سلطانهن روما نفسها ، عندئذ حاول كاتوأن يؤيد القانون الذي يحرم النساء الثروة ، فعجز ، وازداد التحسن في مركز النساء ، وتقدير الرجال لهن ، حتى إنه بعد الإمبراطور ديوكلتين ( ٢٨٤ - ٣٠٥ م ) لم يبق أثر من سلطة الآباء والأزواج الشديدة ، وما زال الحال كذلك إلى أن كاد المشرعون في عصر جوستينيان ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) يساوون النساء بالرجال في الحقوق<sup>(٤)</sup> .

وسواء نظرنا إلى العصر الذهبي أو إلى ما قبله ، فإننا نجد المرأة لم تعامل معاملة الرجل ، ولم تنافسه في مرتقه ، فلم ترب البنت كإربي الولد ، بل وجهت إلى فنون المنزل ، وأعدت للحياة الزوجية ، واتخذت من أمها معاملة لها ، وكانت تجيد الغزل .

(١) تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس ١٩٩ .

(٢) أساس العدالة في القانون الروماني ٣٦ .

(٣) اللزوميات ٩٦/٢ .

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٨٥ والمرأة في العصور ٣٠ .

والنسيج والخياطة<sup>(١)</sup> وشئون المنزل ، وكان من تشریفها أن تدعى أم الأسرة كما يدعى الرجل أبا الأسرة ، ومن تشریفها أن تكون زاهدة ، « فإذا ماتت كتبوا على قبرها مادحين : إنها التزمت ببيتها ، ولم تبرحه ، وغزلت الصوف<sup>(٢)</sup> » .

كذلك كانت المرأة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ربة البيت ، ولها نفوذ في مجال عملها المنزلي ، ونفوذ على أطفالها<sup>(٣)</sup> .

وكان الطلاق مألوقاً عند الرومان ، وقد كثرت في عهد الجمهورية الأخيرة<sup>(٤)</sup> . وقد اعترف الرومان بأنه نظام مرعى منذ العصور الأولى في تاريخهم ، فإن قوانين الاثنتي عشرة مائدة سوغته وأقرته ، ولكن ليس للزوجة حق في أن تطالبه ، فإذا حاولت الفراق عرضها لعملها للعقاب الصارم<sup>(٥)</sup> .

ولولا أن المسيحية أطفأت من شرته لظل سيفاً مصلتاً على العلاقة الزوجية إلى عصر متأخر<sup>(٦)</sup> .

٢ — أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالاً ، ولا أرفع مكانة ، لأن الإغريق عامة عدواً النساء من المخلوقات المنحطة ، وليست المرأة عندهم إلا بطناً يدفع النسل ، وإلا حفيظة على شئون المنزل ، وإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها . قال مسيو ترو بلونغ : « إن المرأة السيئة الحظ كانت تضع ولداً غير قوى صالح للجندية ، فقتل » . وقال : « كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها عارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر » . ولم ينل إبان ازدهار الحضارة اليونانية الخطوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى اللائئى كن وحدهن لا يتخرجن<sup>(٧)</sup> .

(١) تطور النظرية التربوية ١١٨ (٢) تاريخ الحضارة ١٩٩ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية ٣٣ تأليف نورمان بينتر وترجمة مؤنس وزيدان .

(٤) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ .

(٥) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣ .

(٦) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ .

(٧) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون .



وهي كأختها الرومانية مسودة دائماً ، فإن كانت فتاة سيطر عليها أبوها ، وإن كانت زوجة سيطر عليها زوجها ، وإن كانت أرملة سيطر عليها أهلها<sup>(١)</sup> .

وفد سمرت في إسبرطة وأثينا ، لكن هذا السفر ليس دليلاً على علو مكانتها ، لأن وظيفتها ولا سيما في إسبرطة كانت أن تحمل وتلد للدولة ، فالزنا غير محظور ، والحجاب عبث .

وانحطت منزلة المرأة في أثينا حتى عدت من سقط المتاع ، فكانت النساء يبعن ويشترين في السوق ، ومنزلتهن في الدرك الأسفل ، كأنهن رجس من عمل الشيطان . وكان مصرحاً للأثيني أن يتزوج بأى عدد يشاء . وقد فاخر ديموستين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، اثنتين منها زوجات شرعيات وشبهيات بالشرعيات<sup>(٢)</sup> . «

ومن عجب أن فلاسفة اليونان لم يسموا بمركز المرأة ، فإن سقراط لم يجد حرجاً عليها في أن يقرضها زوجها أصدقاءه . ولم تكن في رأى أفلاطون أسعد حالاً ، لأنه قسا عليها كما قسا قانون مانو الهندي القديم ، وأكده في جمهوريته الواجب تداول النساء كما تتداول الحاجات<sup>(٣)</sup> . ثم لم يحاول أرسطو أن يبدل هذه النظرة ، فقد قرر أن الخير قد يوجد في أشخاص من كل نوع ، حتى في المرأة والعبد مع أن المرأة أميل إلى الشر منها إلى الخير<sup>(٤)</sup> .

واضطبغت هذه النظرة للمرأة بصيغة القانون ، لأن قوانين ليكورغ مشرع إسبرطة — قبل تسعة قرون قبل الميلاد — جوزت الشيوخ في النساء ، وأباحت

(١) La grande Encyclopedia. Tome 14. P. 143-170

(٢) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٣٦ .

(٣) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ - ١٣٥ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٩

جستاف لوبون .

(٤) الشعر لأرسطو ٦١ ترجمة إحسان عباس .

للزوجة أن يستمع بها غير زوجها بإذن منه ، وخولته أن يدفعها للاستبضاع من آخر على أن يكون الولد للزوج<sup>(١)</sup> .

وليس من مفاجأة الحق أن تقرر أن المدنية اليونانية كانت تزدهر والمرأة اليونانية تافهة القدر ، ومتعة للرجل ومسلاة ، وقائمة بخدمة الدار ، وقد تبينت تفاهتهن في ضيق آفاقهن ، وخعولة معلوماتهن ، وطلاعتهن العمياء للرجال<sup>(٢)</sup> .  
ومن الطبيعي أن تستمتع هذه المكافحة إجحافا بالحقوق المالية للمرأة ، فهي لا تملك ، ولا ترث<sup>(٣)</sup> ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها وحدهم ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجها الأكبر من ورثة أبيها الأقربين ، وينسب ابنهما إلى جده والدأبيه ، وإليه ينتقل إرث جده<sup>(٤)</sup> .

وكان الطلاق شائعاً عند الأثينيين بغير قيد أو شرط<sup>(٥)</sup> .

على أن الأولاد كانوا في التاريخ القديم للإغريق — المنتهى سنة ٤٧٦ م — ينسبون أحياناً إلى أمهاتهم ، وفي إلياذة هو ميروس أثارة من هذا<sup>(٦)</sup> .  
وهنا يتشابه الإغريق والإسرائيليون في تقدير الأمومة أكثر من الأبوة ، لأن الإغريق أيضاً كانوا يبيحون للرجل أن يتزوج أخته لأبيه ، ولا يبيحون له أن يتزوج أخته لأمه<sup>(٧)</sup> .

(١) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ والأمومة عند العرب ٢٦ .

(٢) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٨٩ Mrs Ray Strackey

(٣) حضارة العرب ٤٩٤ جستاف لوبون (٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٤

(٥) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣ .

(٦) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٥ .

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ .

## صلة العرب بمصر

كما أوغلنا في الماضي لفيط الحجب عن تاريخ العرب في جاهليتهم شعت أمامنا أنوار تكشف عن مجهول ، أو تضيف جديداً إلى مانعلم . فالتقد كان بيدري إلى الخطر أول وهلة أنه لا عجب في أن يتصل العرب بالعبرانيين والنصارى ، لأنهم مختلطون أحياناً ، ومتجاورون أحياناً ، وأنه لا عجب أيضاً في أن يتصلوا بالفرنس ، لأنهم تجاوروا وتجاوروا قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ، وبعد أن أسست ، ثم لا غرابة في أن اتصلوا بالرومان ، لأنهم تصاقبوا وتخابروا وتحالفوا منذ كانت دولة الأنباط وتدمر ، ثم منذ نشأت إمارة غسان .

ولكن العجب في أن يتصلوا بمصر منذ زمن موغل في القدم ، « ففي الدور الببطينى باليمن الذي انتهى حوالى ٣٠٠٠ ق . م كانت رحلات تجارية مصرية أيام الأسرة الخامسة تقوم من مصر إلى الجنوب ، منها رحلة الملك ساحورع من ملوك القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد بنط - وكان يظن أنها الصومال الحديثة فحسب ، ولكن ثبت أخيراً أنها الأرض التي على جانبي باب المنذب يشقيه الإفريقي والاسيوى ، وأيدت هذا الرأى البحوث التي قامت بها كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م ، وبحوث الأستاذين رانجر وفون وسمز - ثم رحلة الملكة حتشبسوت حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م ، وهي مدونة على جدران المعبد الكبير الذي أنشأته في الدير البحرى <sup>(١)</sup> » .

وتعددت حملات المصريين على بلاد العرب الجنوبية للحصول على اللبان والطور وغيرهما <sup>(٢)</sup> .

(١) تاريخ العرب ١/١ ٤١ فيليب حتى وعصر ما قبل الإسلام ٦٣ - ٦٥ مبروك تافع .

(٢) تاريخ العرب ١/١ ٤١ - ٤٣ فيليب حتى .

وقد عرف العرب مصر زمن قديم ، وكانوا يفتدون على الجزء الشمالى الشرقى من مصر ، وقد سماهم المصريون شاسو ، أى البدو ، وكانوا ينتقلون فى بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، كما ينتقل بدو العصر الحاضر .

وكان لهم فى سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ .  
وكثيراً ما جاس العرب فى شرقى وادى النيل ، وكثيراً ما سطوا على مدن مصر وسلبوا السابلة من عهد ميناء ، وكثيراً ما استعان بهم الفراعنة فى حروبهم ، لما كانوا يعملون من شدة بأسهم .

ثم سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر وامتلكوها ، وعرفت دولتهم بدولة البدو ، واليونان يسمونهم هكسوس ، والعرب يسمونهم العماقة أو العرب البائدة<sup>(١)</sup> .

والمؤرخون مختلفون فى زمن امتلاكهم مصر ، ولكن إخراجهم منها يكاد يكون حوالى ١٥٨٠ ق . م على يد أحسن الأول ، وبذلك حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن<sup>(٢)</sup> . وقيل إنهم قدموا إلى مصر فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وما زالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر<sup>(٣)</sup> ، وبذلك قضوا فى مصر نحو خمسة قرون .

ولقد يقرب مسافة الخلف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة بين عشية وضحاها ، بل كان غزؤهم تدريجياً ، واكتسب قوته بمرور الزمن ، كالشجرة التى تضرب بجذورها فى أرض خصبة فتزداد نمواً على مر الأيام ، وذلك أنهم وفدوا على مصر جماعات صغيرة متفرقة ، ثم صار لهذه الجماعات سلطان عظيم ، حتى حكموا مصر حوالى سنة ١٧٣٠ ق . م . ولما طردهم أحسن الأول لم يزل نفوذهم الثقافى

(١) العرب قبل الإسلام ٥٢ - ٥٦ جرجى زبدان .

(٢) مصر القديمة ، سليم حسن الجزء الرابع .

(٣) العرب قبل الإسلام ٥٢ .

من مصر ، بل استمرت ثقافتهم تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة .

وهم الذين جلبوا الخيل والعربات إلى مصر ، ولا شك أنهم كانوا على جانب عظيم من المدنية<sup>(١)</sup> .

والراجح أنهم عرب كما قرر ذلك يوسيفوس المؤرخ الإسرائيلي المتوفى في أواخر القرن الأول للميلاد ، نقلا عن ما نيشون المؤرخ الإسكندري المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد<sup>(٢)</sup> .

ودليل آخر أن العرب يسمونهم في كتبهم عمالقة مصر<sup>(٣)</sup> .

ثم إن لفظ هكسوس أصله هيك شاسو ، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة ، ثم تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية ، وهم العرب . وقد ورد في الآثار المصرية أن الهكسوس جاءوا من بلاد العرب قديماً ، وهذا يرجح عربيتهم .

على أن المصريين بعد أن أجلوهم من مصر استمروا يناصبونهم العدا ، ويفزونهم في أرضهم ، كما فعل رمسيس الثاني وتحتمس ، واستمر العرب أيضاً يهاجمون مصر بغزواتهم ، وقد ناصروا الفرس في فتحهم لمصر<sup>(٤)</sup> ، مما يدل على ميل إلى التآمر مستحكما بين العرب والمصريين .

والذين لا يذهبون إلى عربيتهم يقررون أن الساميين هم العنصر الغالب في الهكسوس<sup>(٥)</sup> ، ومن المحتمل أن بعض أجناس قد اختلطت بهم<sup>(٦)</sup> .

وقد ارتاد رمسيس الثالث بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب بأسطوله ، ولم يكن له بد من توطيد العلاقة الودية بين مصر وشواطئ البحر الأحمر واليمن ، ليفسح المجال للتجارة بين مصر وأقصى الشرق ، لذلك أنشأ طريقا للتوافل منظرًا

(١) مصر القديمة ٤ / ١٦٣ .

(٢) العرب قبل الإسلام ٥٦ عن Josephes. wars of the jews. I-19

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٢٧ . (٤) العرب قبل الإسلام ٥٩

(٥) مصر القديمة ٤ / ١٨٧ . (٦) مصر القديمة ٤ / ١٩٧

بين القصير وقنط ، تسلكه التجارة ، بعد أن تعبر المحيط الهندي مارة ببلاد العرب .

واقنطى به رسميس الرابع ( ١١٦٦ ق . م ) فافتتح طريقاً مختصراً إلى بلاد العرب ، وكان الطريق إليها طويلاً<sup>(١)</sup> .

فلا عجب أن يكثر العرب بقنط ، وأن يذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا في زمانه ( القرن الأول قبل الميلاد ) من العرب<sup>(٢)</sup> ، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة ، وطمع فيها جيرانها ، وشرع بعض العرب يفدون إليها بأنعامهم وخيامهم ، ويسطون على مدنها كما فعلوا من قبل ، ونزلوا قنط ، وملسكوها قروناً<sup>(٣)</sup> .

ولم تكن قنط وحدها هي المعمورة بالعرب ، بل كانت مدن كثيرة في صعيد مصر حافلة بالعرب منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد<sup>(٤)</sup> . ويذكر هيرودوت وبلينيوس وغيرهما أن الأقسام الشرقية من مصر وخصوصاً المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية قبل زمن هيرودوت وبلينيوس<sup>(٥)</sup> .

وإذا كانت كلمة العرب لم ترد في النصوص المنصرية القديمة ، فإن هذا ليس دليلاً على أن العرب لم يتصلوا بمصر . فقد كانت شبه جزيرة سيناء وثيقة الصلة بمصر ، وسكانها عرب . وكلمة ( عرب ) لم تطلق علماً على قوم إلا قبيل الميلاد ، فمن الجائز أن المصريين قصدوا من كلمة ( عمرو ) التي أطلقوها على البدوى والأسبوى الأعراب الرحل في الأرض المنصرية وحوها<sup>(٦)</sup> .

(١) العرب قبل الإسلام ٩٦

(٢) مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١ (٣) العرب قبل الإسلام ١٠٢ .

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على .

(٦) تاريخ العرب ٤١ فيليب حتى وتاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على

على أن التجارة كانت عروة أخرى من عرى الاتصال ، فكان السبتيون ينقلون العروض الهندية والحبشية على قوافلهم إلى مصر<sup>(١)</sup> ، ثم كان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر ، وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بها . جاء في سفر التكوين : « ثم جلسوا يأكلون - إخوة يوسف - ورفعوا عيونهم ونظروا ، فإذا قافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم محملة . . . . وهم سائرون لينزلوا مصر<sup>(٢)</sup> » .

ثم نجد قبيلة حوثكة تنزل بمصر في العصر الجاهلي بعد نزاع بينها وبين غيرها<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً نجد أنارة من هذا الاتصال فيما روى عن وفود عمرو بن العاص على مصر في الجاهلية ، في قصة جال فيها الخيال وصال<sup>(٤)</sup> . وإذا كنت أدفع خيالها ، وأرفض تفاصيلها ، فإنني لأستبعد جوهرها ، لأن عمراً تاجر ، ومصر من البلاد التي كان العرب يتجرون معها .

لذلك عثر الباحثون في اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية . وقد ألف المرحوم أحمد كمال معجماً كبيراً في ذلك لم يطبع بعد .

## المرأة المصرية

أما المرأة المصرية فقد كانت سامية القدر ، لها أن تتولى الملك إذا فقدت الوارث للعرش من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة كما روى ديودور ، فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات بإزاء أربعائة وسبعين ملكاً<sup>(٥)</sup> .

(٢) سفر التكوين ٣٧ : ٢٥ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي .

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٠

(٣) معجم ما استعجم ٤٠/١

ويظهر أن شعور المصرية بأنوثتها كان السبب في أنها - وإن كانت مملكة - تشعر بأن الملك أليق بالرجل ، لأن الملكة حثشبسوت - قبل ١٥٥٠ ق . م - اضطرت إلى أن تلبس ثياب الرجل ، مراعاة للرأى العام<sup>(١)</sup> . وكان المصريون يدينون للملكة بالولاء ، ويخلونها ، حتى ليقول ديودور الصقلي : إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى المجيدة التي خلقتها في مصر الإلهة إيزيس<sup>(٢)</sup> .

وكانت الزوجة جليلة القدر ، حتى إن الملك لا يكاد يصور على الآثار إلا مع زوجته ، وهذا عام لا يقتصر على الطبقة العالية .

وكان لقبها أنها ربة البيت<sup>(٣)</sup> . وكانت النساء يخضرن مع أزواجهن الحفلات العالية ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث ، فالمصرية كانت امرأته بجانبه أينما وجد ، ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، وهذا يشبه ما نراه الآن في الحفلات الأوروبية ، فالزوج المصري وزوجته يجتازان الحياة واليد في اليد كما نرى في الصور التي على القبور<sup>(٤)</sup> .

ومما يدل على العناية بالزوجة أن فتاح حتب - ابن ملك من الأسرة الخامسة - أذاع وصاياها لما طعن في السن على بنى وطنه ، وكان منها : إذا كنت عاقلاً فأجدتموين بيتك ، وأحب امرأتك ، ولا تسأحنها ، وغذها ، وزينها ، وعطرها ، ومتعها ما حييت ، ففي ملك يجب أن تكون جديرة بالمالك ، ولا تكن معها فظاً غافلاً<sup>(٥)</sup> .

وكانت المرأة تتناول مهراً من زوجها بعقد زواجها ، وقد ذكر ديودور أنه

(١) المرأة في التاريخ والشرائع ١٩ .

(٢) الحضارة المصرية القديمة لويون ١٣ .

(٣) المرأة في مختلف العصور ١٨ . (٤) الحضارة المصرية القديمة ٦٣

(٥) الحضارة المصرية القديمة ١١٦ .



نص في شرط عقد من عقود الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة<sup>(١)</sup> .

وقد أباح الفراعنة والبطانسة الزواج بالأخت<sup>(٢)</sup> ، وكان ذلك عاما في الشعب كما ذكر ديودور<sup>(٣)</sup> ، وفي أحيان قليلة كان زواج بالأم<sup>(٤)</sup> .

وعرف المصريون تعدد الزوجات عن طريق التسرى ، لأن النظام الاجتماعي كان يقضى بتقسيم الشعب إلى طبقات ، ولم يكن مباحا للرجل أن يتزوج إلا امرأة واحدة من طبقة ، ولكن له أن يتسرى ، على أن تكون زوجته سيدة سراريه<sup>(٥)</sup> .

وعرفوا النسب إلى الأم أحيانا بدلا من النسب إلى الأب ، إذا كانت الأم من أسرة عالية القدر<sup>(٦)</sup> ، على أن النسب إلى الأب كان هو الشائع<sup>(٧)</sup> ، ولعل هذا من تأثير الأمومة الأولى التي وجدت آثارها إلى عهد الإمبراطورية الوسطى . وفي نقوش ذلك العهد نرى أن الجدة من جهة الأم تتقدم في سيرها على جميع أفراد الأسرة<sup>(٨)</sup> .

وتميزت المرأة المصرية من بعض معاصراتها بأنها تملك ، بل لقد استأثرت بالملكية أحيانا ، لذا كان يناط بالبنات تغذية أهليهن إذا طعنوا في السن ، ولا يكاف الذكور ذلك . وهذا دليل على أن النساء لبثن وحدهن زمنا طويلا يملكن ويرثن<sup>(٩)</sup> . ثم تطور النظام فصارت المرأة تأخذ من تركة أبيها نصيباً يعادل

(١) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٢) قصة الحضارة ١/٧٣

(٣) الأسرة والمجتمع ٤٧

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

(٥) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

(٦) La grande Encyclopedie, Tome. 17. P. 143-170

(٧) الحضارة المصرية القديمة ٧٢ .

(٨) المرأة في التاريخ والشرائع ١٣

(٩) الحضارة المصرية القديمة ٧٢ .

نصيب شقيقها<sup>(١)</sup> ، وكان هذا قبل الحكم اليونانى .

وكانت النساء يمارسن التجارة ، فقد ذكر هيرودوت أن النساء المصريات كن يذهبن إلى السوق ، ويفرغن للتجارة ، أما الرجال فكانوا فى منازلهم ينسجون<sup>(٢)</sup> .

وبعد الحكم اليونانى نصّر أباح فرعون بوهورس للأعيان أن يملكوا الأرض — وكان تملكها قبل ذلك مقصوراً على الملك والأشراف والسكينة والقواد ، ولم يكن لعامة الناس ما يستحق أن يملك ويورث — نضيف من استئثار الرجل بالملكية عقب أن شاع تعدد الزوجات ، فعمدت المرأة إلى كبح استئثاره بالاشتراط فى عقود الزواج ، حتى كانت إحداهن تشتط عليه أن تنتقل أملاً كه كلبها إلى ولده منها إذا تزوج بغيرها .

ثم حد فيلوباتور أحد بطالسة اليونان من حق الزوجات فى التصرف فيما يملكن ، فأمر بإبطال تصرفهن إلا بإجازة بعولتهن ، وبذلك وضع المرأة فى وصاية الرجل ، وجعل الرجل صاحب الحق فى توزيع الثروة ، فانحطت مكانة المرأة بتأثير المدنية اليونانية<sup>(٣)</sup> .

(٥) تاريخ التربية لأحمد فهمى القطان ١/٤٤ .

(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧

(٦) الحضارة المصرية القديمة ٧١

## الباب الأول

# المرأة في الحياة الأسرية

## الفصل الأول

# الأم

أريد أن أروِّز قدر المرأة في الأسرة ، وأن أفضل نواحي القول فيها ، سواء كانت أما أم زوجة أم بنتا أم أختا أم قريبة ، معتمداً على ما يبضُّ به الشعر ، وما يسجله القرآن الكريم ، ومتخذاً من التاريخ والأحداث والاجتماع جلاء لما غمض ، ولقد أعتمد على غير الشعر لأمهّد للموضوع ، وأعدّ له جواً ملائماً .

١ — ورأيت أن أبدأ بمكانة المرأة في الأسرة ، لأن الأسرة أساس القبيلة ، والنظرية التي قال بها العلامة روبرتسن سميث Robertson Smith وهي « أن النظام الاجتماعي في بلاد العرب كلها واحد ، يمكن تلخيصه في أن القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية<sup>(١)</sup> » ، قد أبطلتها البحوث الحديثة التي قام بها العلامة روبرت لوى R. Lowie لأنه أثبت أن الأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية ، وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة ،

---

Kinship & Marriage in early Arabia. P. I. by Robertson (١)  
smith

وبهذا تقضى ما ذهب إليه من قبل مالك لئان وسمت من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية<sup>(١)</sup>.

لهذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديماً وحدة اجتماعية ، فكانت حكومة صغيرة في الأمة الكبيرة ، الأب فيها رئيس مطلق وبطريرك قديم ، يخف به أولاده وعبيده وأحفاده وقطعانه<sup>(٢)</sup>.

ومن الأسر المشتركة في الدم تنشأ القبيلة ، موسومة بطابع الأسر التي كونتها . وإذا فالقبيلة العربية هي الأساس الاجتماعى الكبير للحياة العربية ، وعاداتها هي الغالبة ، سواء أكان أفرادها يعيشون في قبائل بدوية تقوم حياتها الاقتصادية على الرعى ، أم يعيشون في قبائل تجارية تحرس اللطائم ، أو تجوس البلاد حاملة السلع والمتاجر .

أما الزراعة فلم يكن العرب يمارسونها في الحجاز ونجد ، لذلك لما فتح النبي خيبر لم يجد من المسلمين ذوى خبرة بالزراعة ، فأبقى اليهود في أرضهم يزرعونها ، على أن لهم الشطر من نخائها وزرعها<sup>(٣)</sup> ، ثم لما فتح وادى القرى ترك النخل والأرض في أيدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر<sup>(٤)</sup>.

وقد حافظ العرب على العادات القبلية زمناً طويلاً ، حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضرية ، فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة ، وإذا فتحت مدينة أنشئت فيها أحياء للقبائل ، ولقد يفصل بين الأحياء أو بين الشوارع بأسوار ذات أبواب ، كما كان الحال في دمشق والكوفة وغيرها ، وهذا دليل على خضوعهم للحياة القبلية في المدن أيضاً . وهم حملوا هذه النزعة إلى إيران فيما حملوا<sup>(٥)</sup>.

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ١٠ عن R. Lowie.

Primitiv society & smith Religion of the semites. P. 38

وتاريخ العرب ٢٣/١ فيليب حتى (٢) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٣٢ .

(٣) فتوح البلدان ٣١ و ٣٢ وسيرة ابن هشام ٣/٣٨٩ .

(٤) فتوح البلدان ٤١ . (٥) تاريخ الحضارة الإسلامية ٣٠ بارتولد .

٢ — وبدأت بالأم ، لأنها المعين الذى يفيض بالأفراد والأسر والجماعات ،  
هى التربة الخصيبة التى ينبت فيها الحب ، فإذا ما نضج أنبت حباً آخر .

الأم هى التى تمنح بنيتها — بعد الخالق سبحانه وتعالى — الحياة ، فهم فى  
بطنها أجنة يقضون أشهراً فى قرار مكين يعتدون من دمها . ثم هم بعد الوضع  
أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ، ويتشكأون إلى حد كبير  
بتربيتها . ثم هم فتيانا وشباناً معتدأملانيا ، وهى أيضاً نجى أنفسهم ، وملاذ الخائف  
منهم ، وقسيمة الفرح المحبور . فإذا ما اكتبوا لهم نغارها وذراها ، وهم حينئذ  
ذكرانا وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها فيهم ، وفى  
ذرائعهم . فهى أجدد بالتقدمة على الزوجة لهذا ، ولأنها بالأمومة ذات صفتين :  
فهى زوجة لرجل ؛ وهى أم لبنين .

أما الزوجة فكثيراً ما تكون ذات صفة واحدة ، لأنها زوجة فحسب قبل  
أن تنسل ، فإذا ما نسلت صارت أمّاً وزوجة ، وجنح بها الوصف إلى الأمومة  
أكثر من الزوجية .

والأم مقدمة على الزوجة وعلى البنت معاً ، لأنها أصل الكلتيهما ، ولأنها  
تجمع صفات ثلاثاً لا تتحقق كلها فيهما ، فالأم ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ،  
وأم لأبناء .

وقد قيل إن البنت أولى بالتقدمة ، لأن حواء — أول أنثى — خلقت بنتاً ،  
لكن رد ذلك ميسور ، إذ أن حواء قد خلقها الله زوجة لابنتا ، قال تعالى :  
« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها »<sup>(١)</sup> ،  
فإن أى تتبعت النشأة الأولى لتقدمت الزوجة لابنت . على أن تتبع هذه النشأة  
ليس محتوماً ، لأن للأم صفات تؤثرها بالتقديم ، ولأننى أستطيع أن أقول إن

الغاية من خلق حواء لا أن تكون بنتا ولا زوجة ، وإنما أن تكون أمًّا يكثر  
بها بنوها ، وتعمر بهم الأرض .

### أثر الأم في القرابة

جرى العرب على أن الأب هو الأصل في القرابة وربط الأسرة ، ولكن  
الأم كانت ذات شأن عظيم في القرابة أيضا ، وكثيراً ما كانت المصاهرة وشيخة  
قوية بين الأسر وبين القبائل ، لأن العرب كانوا يجعلون الأم إجلالا عظيما ،  
« ولا يعززون المرأة إلا أن تكون أمًا »<sup>(١)</sup> ، وإذا ما ولدت المرأة ارتفع قدرها ،  
وتوثقت بها العرى<sup>(٢)</sup> .

وكان هذا شأنها عند اليونان أيضا ، فهي كالأمّة إلى أن تلد .  
وكان الفرس يعلون من قدر المرأة إذا ولدت ، وما زال هذا دأب أهل البادية  
إلى اليوم<sup>(٣)</sup> . لذلك عبر العرب عن القرابة بالرحم ، والرحم في اللغة منشأ  
الجنين ومستقره ، وهو القرابة أيضا ، أو أصابها وأسبابها ، واشتقوا منه الرحمة  
بمعنى الرأفة والتعطف والمغفرة ، قال المذلي :

ولم يك فظا قاطعا لقرابةٍ ولكن وصولاً للقرابه ذارُحُم<sup>(٤)</sup>

وقال القتال الكلابي يحكي استعطافه لابن عمه زياد :

نشدتُ زيادا والمقامةُ بيننا وذكرته أرحامِ سِعَرٍ وهيم<sup>(٥)</sup>

وقال آخر :

(١) العقد الفريد ٢/٢٦٤ .

(٢) التمدن الإسلامي ٤/١٥٠ .

(٣) التمدن الإسلامي ٤/١٥٠ .

(٤) التاموس المحيط وأساس البلاغة مادة رحم .

(٥) شرح الحماسة للبرزوقي ١/٢٠١ أى أقدمت عليه وأهل المجلس حاضررون .

وذكرته الرحم التي تجمعنا من هذين الرجلين

أفيتقوا بنى حزن وأهواؤنا معاً وأرحامنا موصولة لم تقضَب (١)  
وكثيراً ما يتردد هذا التعبير عن القرابة (٢) ،

وهم دلوا على القرابة أيضاً بكلمة بطن ، والبطن وعاء الرحم ، لذلك قالوا :  
نثرت المرأة بطنها ، إذا أكرثت الولد ، وألقت ذات بطنها إذا ولدت ، وهو أيضاً  
دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة ، واشتقوا من البطن ما يدل على الصداقة  
والمصافاة ، فقالوا : هو بطانة فلان أى من خواصه (٣) .

وكثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه — كما  
سيجيء في إعزاز الأم لبنيها — في مجال الاستعطاف وإحياء المودة ، أو في مجال  
الفخر ، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل ، كقول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإني إلى أهل سواكم لأميل (٤)  
وكقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك :

تقول ابنة العمريِّ مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعاً  
فقلت لها : طول الأسي إذ سألتني ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا  
وفقد بني أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعاً (٥)  
وقول النابغة الجعدي في رثاء ابنه محارب ، يخاطب زوجته :

ألم تعلمي أني رزئتُ محارباً فمالك منه اليوم شيء ولايا  
ومن قبله ما قد رزئتُ بوخوح وكان ابن أمى والخليل المصافيا (٦)

وكان هذا هو السبب في أن عشيرة الأم تناصر أولاد هذه الأم ، وإن

(١) المرزوقي ٣١٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ١٨٢/١ وديوان النابغة ٤١ والأغانى ١٥٩/٢٠ .

(٣) أساس البلاغة والناموس المحيط مادة بطن .

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري ٣ .

(٥) المنظيات ٢/٦٨ ابنة العمري : زوجته . أسفع : مغبر . تداعوا : تابعوا إلى

الموت . خلافهم : بدمهم . أضرع : أذل وأستكين (٦) شرح الحامسة للتبريزي ٥١/٣

كانوا من قبيلة أخرى ، لأن الخنولة قرابة قوية كما سيحيىء في الحال .  
 وكان الرجال يتقربون إلى أخوالهم ، ويقبسون من شرفهم ، ويخايلون  
 بفخارهم . يقول نابغة بنى جعدة في آمنة بنت أبان بن كليب زوجة أمية بن  
 عبد شمس :

وشاركنا قريشا في ثَقَاها وفي أنسابها شِرْكُ العِنان  
 وما ولدت نساء بنى هلال وما ولدت نساء بنى أبان<sup>(١)</sup>  
 وكانوا يخايلون أيضا بالجد لأم ، يقول عمرو بن كلثوم :  
 ورثت مهلهلا والخير منه زهيرا ، نعم ذخر الذاخرينا<sup>(٢)</sup>

## الأم الحرة

١ — أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم ، وبأن يشيدوا بأبائهم ، وأولعوا  
 أيضا بأن يباهوا بأمهاتهم ، ويزهوا بحريتهم ، وعراقة نسبهم . وسنعرف في  
 دراسة (الأمّة) أنها كانت دون الحرة مقاما، وأن أبناءها كانوا يعيرون استرقاقها .  
 وكأما كان العربي الذي يخايل بأمه يزواج نغره ويضاعفه ؛ لأنه إذا يفخر  
 بأبيه أيضا ، فما كان العبد ليتزوج حرة ذات عراقة . وهذا الفخار بالأم صراحة  
 وبالأب ضمنا — وإن كانوا كثيرا ما نغروا بالأب صراحة — يستتبع أيضا مباهاة  
 عن الفاخر بسجاياه ومزاياه وعراقة التي ورثها من أبيه .  
 يقول جعفر بن عُلْبَةَ الحارثي إن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة  
 الشجاع ، لأنه برىء من شوائب المهجنة ، فصار كرم أصله مبيجا لأنفته ، ومشجما  
 له على الاستبسال :

لَا يَكْشِفُ العَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حَرَّةٍ يَرَى غَمْرَاتِ المَوْتِ تَمُّ يَزُورُهَا<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٩/١ ساسي . شرك العنان : شركة متساوية لأن عنان الدابة طافتان متساويتان

(٢) شرح الفصائد العشر للبريزي ٢٣٩ .

(٣) شرح الخماسة للبريزي ٥٠/١ .



ويقول القتال الكلابي في نغره بأمه عمرة بنت حرقمة من ربيعة :  
 لقد ولدتنى حُرَّةٌ رَبِيعِيَّةٌ      من اللاءِ لم يُخَصِّرْني في القَيْظِ دُنْدَانًا<sup>(١)</sup>  
 ويفخر بأنه ابن أسماء ، وهي من عشيرة أبيه وأعمامه ، وقد رضع ثديها حرة  
 وزوجة لحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى      إذا تراءى بنو الإِمْوَانِ بِالْعَارِ<sup>(٢)</sup>  
 وقد جمع المقدم بن زيد سيد بنى حى بن خولان نغره بأمه إلى نغره بأبيه  
 فى قوله :

تمتنا إلى عمرو عروقٍ كريمة      وخولان معقود المكارم والحمد  
 وأمى ذات الخير بنت ربيعة      ضريبة من عيص الساحة والمجد<sup>(٣)</sup>  
 وكان الفخر بحرية الأم وشرفها عاما ، يشيد به العلية والعاماة ، فالشغرى  
 وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيار الحِجْرِ بيتًا ومنصبا      وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها<sup>(٤)</sup>  
 ولم يخل تلقيب الأم بلقب لا يرضاه الشاعر أن يذكر لقبها هذا ، ويباهى  
 بكرمها وشرفها وعفتها ، يقول ربيعة بن عبد الليل فى أمه قلابة الملقبة بالذبية :  
 إني لمن أنكرنى ابن الذبيهِ      كريمة عفيفة منسوبة<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ١٥٩/٢٠ دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف  
 الاحتطاب كالإماء . وفى الأصل ديدنا .  
 (٢) تهذيب الكامل ٣١٣/٢ ولسان العرب ٤٧/١٨ إموان : جمع أمة .  
 (٣) معجم البلدان ٤٣٢/٥ ضريبة : بنت ربيعة بن نزار وهى أم خولان ولأخوته بنى  
 عمر بن الحاف بن قضاة .  
 (٤) الأغاني ٨٨/٢١ .  
 (٥) من نسب إلى أمه من الشعراء محمد بن حبيب . نوادر المخطوطات ٩٠ .

وسيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول في يوم حنين :  
أنا ابن العواتك من سليم<sup>(١)</sup> .

وقد تأقلم اليهود في الحجاز كما سبق ، واحتذوا بالعرب في نخارهم بأمهاتهم .  
فالسموءل بن عدياء يفخر بأنهم من أمهات أحسن حملهم أجنة ، ومن آباء  
كرمت عروقهم ، فكانوا في أعلى المراتب من ظهور الآباء الكرام ، وانحدروا  
منها لوقت معلوم — يريد وقت الأطهار — إلى بطون خير الأمهات :

صفونا فلم نكدر وأخلص سرتنا إناث أطابت حملنا وغول  
علونا إلى خير الظهور وحطننا لوقت إلى خير البطون نزول<sup>(٢)</sup>  
٢ — ومَدْحُوًّا أَيْضًا بِالْأَمِّ الحرة ، قال حُرَيْثُ بْنُ مُحَمَّدٍ في مدح قومه :  
بنو الجدد لم تَقْعُدْ بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا<sup>(٣)</sup>

(١) إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك للزيدي ٦ مخطوط والنقائض ٤٠٣ ولسان  
العرب ٣٥١/١٢ وإنسان العيون ٤٦/١ والمغازي للواقدي ٢٧٣ وتاريخ الخميس ٢٥١/١  
امرأة عاتكة : بها ردع الطيب . قال السهيلي في الروض الأنف لأنها مصفرة من الزعفران ؛ وفي  
القاموس عمرة من الطيب ؛ وبؤيده قول ابن قتيبة هي من عتكت القوس إذا احمرت . وهذه  
الأراء راجعة إلى تغير لونها من الطيب .

وقال ابن عباد في المحيط : هو من عتكت إذا شرفت ورأست على قومها وعشيرتها ؛  
فسموا بهذا الاسم تفاؤلا على عادتهم . وقيل سميت لصفاتها من قولهم نبئت عاتك أي صاف ،  
وهو قول ابن دريد . وقال ابن سعد في الطبقات : العاتكة الطاهرة في نسبها وحسبها  
( إيضاح المدارك ص ٥ مخطوط ) .

والعواتك : منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بن عبد مناف ؛ وهي عاتكة بنت مرة  
ابن هلال بن فالج بن ذكوان . وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جده هاشم بن عبد مناف .  
وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة  
جد الرسول لأمه آمنة . وسائر العواتك أمهات رسول الله من غير بني سليم ؛ فهن تسم  
والثلاث الأوليات : الأولى عمه الوسطى ؛ والوسطى عمه الأخرى ( النقائض ٤٠٣ وإيضاح  
المدارك ١١ - ١٤ ولسان العرب ٣٥١/١٢ ) وقد اختلف في عدد العواتك من جداته ؛  
فن أكثر ومن مقل ( إنسان العيون ٤٦/١ ) .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١١٩/١ وديوان السموءل ١٠ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٢ بتحقيق شاكر وفي بعض المراجع أنه ابن محض .

(٦ - المرأة في الشعر الجاهلي )

وعبروا أحيانا عن الحرائر بالمهيرات، لأن المهير كان لا يدفع إلا للحرة، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر إنه ينتمى إلى السادة ذوى الحصافة والحكمة والسخاء، وإلى حرائر مواجد من حرات ماجدات :

يأبن القروم ذوى الحجبا وابن الحضارمة المرأفد  
وابن المهاثر للمهاثرزانها الشيم المواجد<sup>(١)</sup>

ولم يكن الملك ليحول بين الملك ومدحه بأمه كما يمدح بأبيه، ولم تكن عظمة الملك هي الجدة الفذ الذى يشيد به مادحوه، لذلك شادوا بأمه كما نوهوا بأبيه، فهذا حاتم الطائي يمدح الحارث بقوله :

نتمته أمامة والحارثا ن حتى تمهل سبقا جديدا<sup>(٢)</sup>  
بل لقد تبلغ عزة الشخص بأمه إلى أن يعلوبها على أم الملك الشهير الذى اشتهر باسم أمه، يقول عارق الطائي فى رده على تهديد الملك عمرو بن هند :  
من مبلغ عمرو بن هند رسالة إذا استحقبها العيس تنصى من البعد  
أبوعدى والزمل بينى وبينه تأمل رويدا ما أمامة من هند<sup>(٣)</sup>  
وكان شائعا أن ينسب الشخص إلى أمه — كما سآين — وأن ينسب نفسه إلى أمه وإن كان أبوه ملكا، يقول امرؤ القيس :

ألاهل أتأها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقر<sup>(٤)</sup>  
وقد وثى رسول الله صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضى من الأنصار

(١) ديوان الخنساء ٦٢ القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل؛ والمراد السيد الشريف. الحضارمة : جمع خضرم وهو البحر الطامى والمراد الكريم. المرأفد : جمع مرقد وهو المعطى. المهاثر : جمع مهيرة وهي المرأة الشريفة الحرة ذات المهر الغالى. للمهاثر : أى أن جداته مهاثر (٢) ديوان حاتم ٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٢١/٤ ومعجم البلدان ١١٥/١ .

(٤) ديوان امرؤ القيس ٦٩ تملك : اسم أمه أو لإحدى جداته . يقر : أقام فى الحضر وترك أهله فى البادية .

حضر موت ، ثم ضم إليه كندة ، فانتقضت كندة كلها عليه إلا السكون ، فقال  
شاعرهم :

ونحن نصرنا الدين إذ ضل قومنا      شقاء وشايعنا ابن أم زياد  
ولم نبغ عن حق البياضي مَزْحَلًا      وكان تُقَى الرحمن أفضل زاد<sup>(١)</sup>  
وكان شائعاً أيضاً أن تكنى المرأة باسم ابنتها تكريماً لها .

قال زيد الخليل في رثاء أوس بن خالد :

فلا تجزعى يا أم أوس فإنه      تصيب المنايا كلَّ حاف وذى نعل<sup>(٢)</sup>  
وقال عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهى طروق      وبانت على أن الخيال يشوقُ  
ذريتي فإن البخل يا أم هيثم      لصالح أخلاق الرجال سرُوق<sup>(٣)</sup>

وكانت هذه الكنية أثيرة عند المرأة ، لذلك قالت السيدة عائشة يوماً للنبي  
وهى حزينة إن كل نسانه لمن كُنِّيَ إلهي . فقال لها : تكني بابنك عبد الله —  
وهو ابن أختها أسماء — فصارت من ذلك الحين تكني بأم عبد الله<sup>(٤)</sup> . ولما  
ولدت أم هاشم خالد بن يزيد بن معاوية تركت كنيته الأولى واكتفت بأم  
خالد . يقول فيها يزيد :

وما نحن يوم استعبرت أم خالد      بمرضى ذوى داء ولا بصِحاح<sup>(٥)</sup>  
ويتصل بهذا الفخر والمدح التبرؤ من أن تكون الأم أمة ، والتعير بالأمة ،  
يقول القتال الكلابي :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى      إذا ترامى بنو الإيمان بالعار

(٢) الشعر والشعراء ٩٥ .

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ١٠٧ .

(٣) المفضليات ١٢٣/١ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٣/٨ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٣١٠/٩ .

(٥) الأغاني ٨٥/١٦ .

أما الإماء فلا يدعونني ولدا إذا تُحَدَّثَ عن نقضى وإسرائى  
لا أرضع الدهرَ إلا ندى واضحة لوأضح الخدي يحمى حوزة الجار<sup>(١)</sup>  
ويهبجو عويف القوافى خصومه - فى الإسلام - بأنهم جنباء ، وبأن أمهم  
وضيعة النسب :

وما أمكم تحت الخواقى والتمنا بشكلى ولازهراء من نسوة زهر<sup>(٢)</sup>  
ويبرأ ذو الإصبع العذوانى من عبودية أمه ، فىقول فى لوم ابن عمه ،  
- ويقال إن أمه كانت أمة - :

عنى إليك فما أمى براعية ترعى الخاضَ ولا رأى بمغبون<sup>(٣)</sup>  
ولما غير المتلمس أخواله بنو يشكر - ويقال إنه ولد فىهم ومكث بينهم  
حتى كادوا يغابون على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هند مضرط الحجارة  
- والمتلمس عنده - الحارث بن التوأم الشكرى عن نسب المتلمس ، فقال :  
أنا يزعم أنه من بنى يشكر ، وأنا يزعم أنه من بنى ضبيعة ، فقال عمرو بن هند :  
ما آراه إلا كالساقط بين الفراشين - غضب المتلمس فقال :

تعيرنى أمى رجالٌ ولن ترى أخا كرم إلا بأن يتكرما  
.....

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وهل لى أم غيرها إن ذكرتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا<sup>(٤)</sup>  
وهما عمرو بن هند بقصائد أخرى<sup>(٥)</sup>.

(١) لسان العرب ٤٧/١٨ وتهذيب الكامل ٣١٣/٢ إمامان : جمع أمة . واضحة :  
شريفة النسب حرة .

(٢) شرح الحماسة لتبريزى ٢٨/٤

(٣) الشعر والشعراء ٢٧١ والمفضليات ١٠٨/١ .

(٤) الأغاني ١٢١/٢١ وشعراء النصرانية ٣٣٧ .

(٥) شعراء النصرانية ٣٣٩ و ٣٤٠ والأغاني ١٢٥/٢١ و ١٢٩ و ١٣١ و ١٣٥

وظل الاعتزاز بحرية الأم إلى ما بعد العصر الجاهلي — كما سيحيى في الإماء — فقد افتخر الحجاج بن يوسف بقوله: لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر<sup>(١)</sup> ،

## الأم المنجبة

زُهِيت الأم بأبنائها السادة الماجدين ، وحق لها أن تزهى لأنهم بعضها ، وثمراتها الجنية الشبية التي حماها وتعهدها حتى أنضجتها . فهي الوعاء الذي ضمهم أجنة ، وهي التي حضنتهم وأرضعتهم وررتهم أطفالا ، فإذا كانت كريمة العنصر وأنجبت نسب إليها قسط من نجابة بنينا ، وإن كانت خسيصة العنصر وولدت ولداً وضعفاً ذمت به وذم بها . لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :  
تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس .

ولذلك زهيت الأم المنجبة بأبنائها ، وزهى أبنائها بها ، لأنهم يدينون لها بكثير من عظمة نفوسهم ، وسلامة أبدانهم ، وشهرتهم ومجدهم ، وسميت الأم التي يشرف بنوها منجبة .

وقد رفع العرب من أقدار المنجبات ، فنوهوا بهن ، وعدوهن مثلاً عالية يرمقونها ويقسون عليها ، لذلك ضربوا ببعضهن المثل فقالوا : أنجب من ماوية<sup>(٢)</sup> ، وأنجب من فاطمة بنت الخرشب<sup>(٣)</sup> ، وأنجب من أم البنين<sup>(٤)</sup> ، وأنجب من عاتكة<sup>(٥)</sup> ، وأنجب من حبيثة<sup>(٦)</sup> .

(١) البيان والتبيين ٨٢/٢ تحقيق هارون .

(٢) جمع الأمثال ٢٧٦/٢ .

(٣) جهر الأمثال ٢٤٢/٢ وجمع الأمثال ٢٧٦/٢ .

(٤) جمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ .

(٥) جمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ .

(٦) جمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ وجمع الأمثال ٢٧٦/٢ .

أما معاوية فهى بنت عبد مناة بن مالك من تميم ، أم لقيط وحاجب وعاقمة  
ومعبد بنى زُرارة بن عُدس (١) .

وأما فاطمة بنت الخرشب الأُممارية فقد ولدت لزياد العبسى الكَمَلَة :  
ربيعاً الكامل ، وقيس الحِمْياز ، وأنس الفوارس ، وعمرا الوهاب أو عمارة ،  
وكل منهم ساد فى الجاهلية ، وقاد جيشاً . وقد سئلت : أى بنيك أفضل ؟  
فقلت : الربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس . ثم قالت : شككتم إن كنت  
أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها (٢) .

أما أم البنين فهى ابنة عمرو بن عامر فارس الضَّحَّيَّاء ، ولدت مالك بن  
جعفر بن كلاب ملاعب الأُسنة ، وفارس قُرْزُلُ طُفَيْل الخليل والد عامر الشاعر  
الفارس ، وربيع المقترين ربيعة والد عبيد ، وتزَّال المضيق سُمَيِّى ، ومُعَوِّذ  
الحكماء معاوية ، وهى التى افتخر بها لبيد فى قوله :  
نحن بنو أم البنين الأربعة (٣) .

وأما عاتكة فهى بنت هلال بن مرة بن فالح بن ذكوان ، ولدت لعبدمناف  
ابن قصي هاشماً وعبد شمس والمطلب (٤)  
وأما خبيثة فهى بنت زباح بن الأشلّ الغنوية ، ولدت لجعفر بن كلاب  
خالداً ومالكا وربيعاً (٥) .

لا عجب إذا فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأمهات المنجبات ، لأن الإعجاب

(١) الأغاني ١٦ / ١٩ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٥ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزختمرى ٧٦ مخطوط والأغاني ١٦ / ١٩ وأمالى المرتضى  
١ / ١٣٤ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ .

(٣) جهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ والأغاني ١٦ / ٢٢ والعارف  
٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ومستقصى الأمثال ٣٨ مخطوط .

(٤) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ .

(٥) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ والأغاني ١٦ / ١٩ .

بين والفخار يهز القلوب الشاعرة ، ويرفد بالحامد النفوس الفاخرة . فهذا أنيف بن حكم — أو ابن زبان — النبهاى يفخر بأن قومه يأبون الضيم ، لأن أمهم أكثرتهم وأنجبتهم :

أبي لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو ناتيقي كانت كثيراً عيالها<sup>(١)</sup>  
 ويفخر ليبد بجدته أم البنين على مسمع من النعمان بن المنذر بقوله :  
 نحن بنو أم البنين الأربعة ومن خيار عامر بن صعصعه  
 المطعمون الجفنة المددعه والضاربون الهام تحت الحية<sup>(٢)</sup>  
 وقد كرر ليبد الفخار بقوله :

أثبتت أن أبا حنيف لامنى فى اللامينا  
 أبنى هل أحست أعمامى بنى أم البنينا  
 وأبى الذى كان الأرا مل فى الشتاء له قطينا<sup>(٣)</sup>

وقد بلغ إعجاب قيس بن زهير العبسى بفاطمة بنت الخرشب أم بنى زياد أن لقبها بالجنية ، لأنها أنجبت أسوداً بسلاء لاتنجب إنسية مثلهم :

لعمرك ما أضاع بنو زياد ذمار أبيهم فيمن يضيع  
 بنو جنيّة ولدت سيوفا صوارم كلها ذكراً صنع<sup>(٤)</sup>

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ٧٧/١ الناتيقي : الكثرة الأولاد

(٢) الأغاني ١٦ / ٢٢ والمعارف ٣٠ وديوان ليبد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ومستقصى الأمثال للزمخشري مخطوط ٣٨ . والبنون الأربعة خمسة فى الحقيقة هم : مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، وطفيل بن مالك أبو عامر بن الضفيل فارس قرزل ، وربيعة بن مالك والد ليبد وهو ربيع المقرين ، وعبيدة بن مالك الوضاح ، ومعاوية بن مالك معوذ الحكماء . وهم أشرف بنى عامر . وقد جعلهم أربعة لأن أباه كان قد مات والأربعة أحياء ( خزنة الأدب للبغدادي وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ) وليس بصحيح أنه جعلهم أربعة للواقفية كما فى مجمع الأمثال للعبداني وجمهرة الأمثال لأبى هلال . المددعة : الملائى . الحية : غبار الحرب .

(٣) ديوان ليبد ٤٥ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٤٦٩ وسمط اللآلى ١ / ١١٧ وفى ديوان حاتم الطائي ١٧ أنها لحاتم .



## النسب إلى الأم

### مظاهره

منذ زمن قديم عرف الساميون والعرب النسب إلى الأم ، ويتكشف هذا في مظاهر عدة :

١ — كان للمرأة أحيانا أن تسمى أبناءها ، وتنسبهم إليها ، وكان لعشيرتها هذا الحق ، وقد استمر هذا إلى قبيل الإسلام . يدل على ذلك أنه لما خطب عمرو بن حُجْر إلى عوف ابن مُحَلِّم الشيباني ابنته أم إياس قال له : نعم أزوجكها على أن أسمى بنيها ، وأزوج بناتها. فقال عمرو : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فنكحهن أ كفاءهن من الملوك <sup>(١)</sup> . وأنتنتج من هذه القصة أن عوف بن محلم استمسك بهذه التسمية كبرياء منه ، واعتزارا بنفسه ، أوجريا على عرف اجتماعي في عشيرته ، وأن عمرو بن حجر رفضه ، لأن هذا النظام غير سائد في قومه .

٢ — كان الولد أحيانا إذا ما كبر عاد إلى قبيلة أمه ، وانتسب إليها ، كما فعل زهير بن أبي سلمى ، فقد كان بشامة بن الفدير خال أبيه ، فانقطع زهير إليه ، واختار هذا الخي من أخواله غطفان لخولتهم . ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته ، فأناه زهير فقال : يا خلاه لو قسمت لي من مالك ؟ فقال : والله يا بن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال زهير : وما هو ؟ قال : شعري وورثتيه . ثم أحذاه نصيبا من ماله <sup>(٢)</sup> .

٣ — نسبت كثير من العشائر الآرامية إلى أمهاتها ، ففي النقوش الآرامية

(١) العقد الفريد ٣ / ١٩١ .

(٢) الأغاني ٩ / ١٤٩ .

التي كُشف عنها في الحجر أسماء عشائر تنتسب إلى الأم لا إلى الأب<sup>(١)</sup> .  
وقد سبق أن هذا النسب كان معروفاً للإسرائيليين ، فينالك شواهد قديمة  
تذكر سلالات من بني إسرائيل نسبت إلى الأم ، وظلت الأم الإسرائيلية  
قروناً تحتفظ بنسب بنيتها إليها<sup>(٢)</sup> .

وما زال علماء الاجتماع يعترفون به في بحوثهم ، فلما ارتقت حضارة  
الساميين ارتفعوا إلى نظام الأبوة ، لأن الحضارة تؤكد الجانب الأبوي .

وكثير جداً من القبائل العربية عزت نسبها إلى أمهاتها ، فمثلاً باهلة قبيلة  
من قيس عيلان ، سموها باسم أمهم باهلة بنت ضب بن سعد العشيثة<sup>(٣)</sup> .  
وخندف نسبوا إلى أمهم زوجة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان من  
قضاعه<sup>(٤)</sup> ، وبجيلة حى من اليمن وهم ولد امرأة اسمها بجيلة<sup>(٥)</sup> ، وبنو العدوية  
من تميم نسبوا إلى أمهم ، وبنو طهية من تميم أيضاً نسبوا إلى أمهم<sup>(٦)</sup> ، ونسب  
بنو مرة بن صعصعة إلى أمهم فعرفوا ببني سلول<sup>(٧)</sup> ، ونسب الأوس والخزرج  
إلى أمهم قبيلة فسموا ببني قبيلة<sup>(٨)</sup> ، ونسب بنو دهن بن وداعة من لكيز من  
تقيف إلى أمهم وائلة<sup>(٩)</sup> ، ونسب بعض بني الحارث بن ذهل بن شيبان إلى أمهم  
الورثة من بني يشكر ، فقبل بنو الورثة ، ونسب بعضهم إلى أمهم جاذرة ،  
وهي سبية من اليمن ، ونسب بعضهم إلى أمهم الشقيقة<sup>(١٠)</sup> .

والذي يبدو لي أن نسب القبائل إلى أمهاتها كان شائعاً في القبائل ، وفي

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ .

(٢) Israel from its begning. Lods P. 192.

(٣) منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ١٠ .

(٤) نسب عدنان وقحطان للمبرد ، والأغاني ١٣/١ الدار .

(٥) منتخبات من أخبار اليمن ٥ . (٦) المعارف ٢٦ .

(٧) المعارف ٢٩ وشرح الحماسة للتبريزي ٢ / ١٩٣ والشعر والشعراء ٢٤٨ ودائرة

المعارف الإسلامية ٣ / ٣٢٠ .

(٨) المعارف ٣٦ والتنبيه والإشراف ١٧٤ ودائرة المعارف للإسلامية ٣ / ١٥٠ .

(٩) المعارف ٣١ . (١٠) المعارف ٣٣ .

أماكن شتى ، سواء في ذلك أهل الجنوب وأهل الشمال ، وسواء في ذلك الحضر والبدو ، وسواء في ذلك أكانت الأم حرة أم أمة .

٤ — ولا يقل نسب الأفراد إلى أمهاتهم كثرة عن نسب القبائل إلى أمهاتها .

وقد ألف محمد بن حبيب كتاباً فيمن نسب إلى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعراً عددت من بينهم ٣٦ شاعراً جاهلياً<sup>(١)</sup> .

وفي غيره من المراجع مئات من أشخاص انتسبوا أو نسبوا إلى أمهاتهم ، منهم عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد نسب إلى أمه زهرة دون أبيه<sup>(٢)</sup> ، وأوس بن مفرأ شاعر نسب إلى أمه<sup>(٣)</sup> ، وشيب بن البرصاء نسب إلى أمه ، وهو القائل :

أنا ابن بَرِّ صاء بها أجيبُ هل في هجان اللون ما يعيب<sup>(٤)</sup>

وخُفَّاف بن نُدْبَة منسوب إلى أمه وكانت سوداء سبية<sup>(٥)</sup> ، ونسب الأشهب ابن ثور إلى أمه رُمَيْلة وهي سبية من سبايا العرب<sup>(٦)</sup> ، ونسب قيس بن ممتد ابن عمرو بن عبيد إلى أمه الحُدادية<sup>(٧)</sup> ، ونسب ربيعة بن عبد ياليل الثقفي إلى أمه قلابة ، وكانت تلقب بالذبية ، فقيل ربيعة بن الذبية<sup>(٨)</sup> ، وكان يكنى عن ثابت بن عمرو بن مالك من بني النجار بأنه ابن خنساء<sup>(٩)</sup> ، ويكنى عن سواد بن وهب بن كلبٍ من قضاة بأنه سواد بن غَزِيَّة<sup>(١٠)</sup> ، وغير هؤلاء كثير<sup>(١١)</sup> .

(١) من نسب إلى أمه من الشعراء ل محمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب .

(٢) المعارف ٤٣ . (٣) الأغاني ٢ / ٦٢ و ٢ / ١٣١

(٤) طبقات الشعراء ٢ / ١٦ والأغاني ١١ / ٨٩ (٥) المعارف ١٤٢ .

(٦) الأغاني ٨ / ١٥٣ ساسي . (٧) الأغاني ١٣ / ٢ .

(٨) مجالس تلعب ١٧٣ والموتلف والمختلف ١٢٠ .

(٩) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٠ . (١٠) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٢ .

(١١) المعارف ٢٥٧ .

وما زال النسب إلى الأم حتى صدر الإسلام ، وحتى ما بعده ، فقد كانوا عن الحسين بن علي بأنه ابن بنت رسول الله ، تكريماً له بأمه<sup>(١)</sup> ، وإسماعيل بن عُلَيَّة منسوب إلى أمه ، وأبوه إبراهيم بن عائشة منسوب إلى جدة له ، وكان أبوه أيضاً يعرف بابن عائشة ، وابن القِرْبِيَّة منسوب إلى أمه ، واسمه أيوب بن زيد ، وابن الإطنابة منسوب إلى أمه ، وكذلك ابن مَيَّادَة<sup>(٢)</sup> ، وكان ممن يهاجى الفرزدق الأشهب بن ثور ، وقد اشتهر بأنه ابن رُمَيْلَة وهي أمه<sup>(٣)</sup> .

### آراء في أصل النسب إلى الأم

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمومة كانت النظام الذي خضع له العرب القدماء .

١ — ففي رأى سمث أن العرب كانوا في عصر قديم ينتسبون إلى آباء من الحيوان أو النبات يعبدونها ويقدمونها ، ويحملون أسماءها ، ويحرمون أكلها ، وكانوا يجرون في زواجهم على ما تجرى عليه القبائل المتوحشة في أستراليا وأمريكا وإفريقية من القبائل التوتمية<sup>(٤)</sup> ، ومن نظم التوتمية أن يتبع الولد توتم أمه لا توتم أبيه ، ومن نظمها أيضاً أن زواج الرجل من امرأة تنفق معه في توتمه محظور .

(١) بلوغ الأرب ٣ / ١٩٦ . (٢) المغارف ٥٨٠ . والإصابة ٨ / ١٤٤ .

(٣) طبقات الشعراء ١٩٣ .

(٤) التوتمية هي أن يرتبط أفراد الأسرة أو العشيرة برابطة قرابة متعددة الدرجة ، ليست قائمة على صلات الدم . وإنما هي قائمة على إلتناء الأفراد لتوتم واحد Totem . وهو نوع من الحيوان أو النبات تتخذ العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس . قائمها مجموعة من الأفراد لتوتم واحد يجعلهم أفراد أسرة واحدة ، ويربطهم بقرابة متعددة في درجاتها وقوتها أيا كانت صلة بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية ووشيجة الدم . فليست درجة القرابة التي تربط الولد بأبويه لتزيد على درجة القرابة التي تربطه بأي فرد آخر من العشيرة . بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أبويه أو عن أحدهما إذا قضت النظم الشبعة بانتمائه إلى عشيرة أخرى غير عشيرتهما أو عشيرة أحدهما ( الأسرة والمجتمع ٨ الدكتور علي عبد الواحد ) .

ورأى أن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم وإلى قحطان ، وأن سائلة أنسابهم كما تذكرها كتب الأنساب ، اختلاق وضع في صدر الإسلام ، متأثراً بنظام الاستحقاق للعطاء الذي وجد في ديوان عمر بن الخطاب <sup>(١)</sup> .

ويقول إن حروبهم كانت دائمة ، وإنهم لم يعرفوا الملكية ، بل كانت أموالهم ونساؤهم مشاعة بينهم ، وإذا أسرت المرأة لم يستأثر بها رجل واحد ، فهم يشبهون جماعة بدائية تدين بالشيوعية <sup>(٢)</sup> . واستدل على أمومة العرب باستعمال كلمة البطن والفتخذ للدلالة على القرابة ، وظن أن كلمة بطن كان لها مدلول آخر غير ما تعارفت عليه الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال كلمة رحم <sup>(٣)</sup> وقال إن البطن والحى هما أول المجتمعات عند الساميين ، والحى في نظره وحدة اجتماعية سياسية متميزة <sup>(٤)</sup> ، وفي رأيه أن كلمة حى ذات صلة بالحياة ، فالحى رابطة قرابة وصلة رحم <sup>(٥)</sup> .

٢ — وذهب ماك لينان Mac Lannan إلى أنه في بعض الشعوب المتوحشة وبعض الأمم المتعدنة قديماً وحديثاً كان الخاطب أو رفاقه يتظاهرون على اغتصاب فتاة له من غير قبيلته ، رستنتج أن هذه العادة بقية من عادة قديمة مدارها أن يتزوج رجال القبيلة بنساء قبيلة أخرى ، وأخذ يبحث في أصل هذه العادة ، فنجح إليه أن سببها شيوع الواد عند بعض القبائل ، حتى لقد أدى إلى زيادة عدد الرجال على النساء ، فاضطروا إلى مباشرة امرأة واحدة .

وفي رأيه أن هذا أصل تعدد الأزواج ، وظهور نظام الأمومة ، لأن الأصل في الأمومة أن أم الولد معلومة وأباه مجهول ، ثم استنتج أن قلة عدد النساء في بعض القبائل اضطرت رجالها إلى اغتصابهن من قبائل أخرى ، ولهذا كان تعدد

Kinship & Marriage in early Arabia P. 6.

(١)

P. 37 (٣)

P. 150 (٢)

P. 47 (٥)

P. 47. (٤)

الأزواج شائعا في القبائل ذات النكاح الخارجى ، وكانت هذه القبائل لاتعترف إلا بقراة الأم<sup>(١)</sup> .

٣ — وإلى ذلك ذهب وليكن *wilken* ، فإنه بعد أن استعرض أنواع النكاح عند العرب في الجاهلية قال إنه لم يكن سبيل إلى معرفة الأب ، بل لم تكن حاجة إلى هذه المعرفة ، لأن الاتصال الجفسى في العصر الخالية — حين كان الزواج الشرعى مجهولا — من شأنه أن يتبع الولد أمه في كل شىء ، ولم يكن هذا ليمنع الرجل من الخنو على الطفل الذى شارك في وجوده<sup>(٢)</sup> .

وله على ذلك أدلة ، منها أن هذا النظام ما زال معروفا عند بعض القبائل إلى اليوم ، وأن العرب استعملوا كلمة بطن بمعنى القبيلة ، وأن بعضهم نسبوا إلى أمهاتهم ، وأن أبناء الأخت كانوا يرثون خالم<sup>(٣)</sup> .

٤ — ويعمل شارل لوتورنو للأومومة بأن الناس كانوا في العهد الوحشى عاجزين عن إدراك العلاقة بين الزواج والولادة ، فقام نظام الأسرة على الأمومة ، ذلك أنه من الطبيعى أن الرجال الذين لا يدركون العلاقة بين المباشرة والإنسال ، لجهالهم السبب في الحمل ، أولشيوخ النساء بينهم واختلاط أنسابهم ، لا يهتمون بعزرو أولادهم إليهم<sup>(٤)</sup> .

#### مناقشة هذه الآراء

١ — أغلب الظن أن أصحاب هذه النظريات متأثرون في رأيهم عن العرب بما ذكره سترابون في معجمة الجغرافى من زواج المشاركة في اليمن<sup>(٥)</sup> ، وبما ذكره الكاتب اللاتينى *Ammianus Marcellinus* من أن عرب الجاهلية لم يعرفوا زواجا مستمرا ترتبط فيه المرأة برجل معين لأجل غير مسمى ، لأنهم كانوا

(١) Primitive Marriage. 124.

(٢) الأمومة عند العرب . وليكن . ترجمة بندلى الجوزى ٣٢ .

(٣) الأمومة عند العرب ٣٥ - ٤٣ .

(٥) *strabo* XVI. 7

(٤) المرأة في التاريخ والشمائع ٦

يجرون على نظام النكاح المؤقت ، فهم يقضون حياتهم في تجوال وتنقل ،  
ونسأوهم يجامعون من يردن من الرجال ، وقد بقي النكاح المؤقت شائعاً بينهم إلى  
مشرق الإسلام ، وأباحه النبي ( عليه الصلاة والسلام ) لأصحابه ، ( فترة من  
الزمن ) ويعرف هذا النكاح بنكاح المتعة <sup>(١)</sup> .

ولكن ما ذكره سترابون من اشتراك الإخوة في زوجة واحدة باليمن نوع  
من الأفاقيص ، لأنه لم يطأ أرض اليمن ولم يخالط أهلها ، وإنما كان مصاحباً  
لمجلة جالوس التي تحدثت عنها من قبل ، فلعله سمع من بعض الناس هذه الرواية  
فصدقها وعممها ، أو لعابها كانت حادثة فردية شاذة ضخمتها خيال الرواة لغرابتها.  
وكتب السياح حافلة بالأساطير ، وما زال كثير منهم يعززون إلى بلاد الشرق  
التي يزورونها ولا يقيمون بها إلا قليلاً أموراً لا تمت إلى الحقيقة بسبب .

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الخلط والاختلاق مثل زعم بولوجيوس —  
أحد كهنة قرطبة العلماء المخالطين للمسلمين — أن النبي أنبأ أصحابه بأن الملائكة  
ستحمله إلى السماء بعد موته بثلاثة أيام <sup>(٢)</sup> .

على أن سترابون نفسه صدر روايته بقوله ( Ondit ) أي يقال <sup>(٣)</sup> . ويقول:  
للإخوة جميعاً امرأة واحدة ، والزناة — وهم الذين يتزوجون من غير قبياتهم —  
يعاقبون بالقتل ؛ وإذا فالقصة تشير إلى اشتراك الإخوة في الزواج باسرة واحدة ،  
ولا تذكر أن العشيرة كلها تشترك في امرأة ، فنظام الأسرة قائم ، وهذا يناقض  
ما ذكره سمث وغيره في نظام الأمومة من تحريم الزواج من العشيرة التوتمية .

ثم إن قصة سترابون تصرح بأن الزواج الخارجى محرم ، حتى ليعدزنا بماقرب  
فاعله بالقتل ، والزواج الخارجى أساس الأمومة في رأى القائلين بها .

ويستدل الأستاذ محمود جمعه على بطلان قصة سترابون بأن النقوش المعينية

(٢) أنساب العرب القدماء . زيدان ٢٠ .

(١) الأمومة عند العرب ٢٠

(٣) أنساب العرب القدماء ٢٠ .

منذ الألف قبل الميلاد تبين أن عرب الجنوب كانوا يشعرون بشعور ديني قوى في مراعاة قوانين الخلاط الجنسي ، ويعدون أى انحراف عن مراعاة هذه القواعد أمراً إذا بنفرون منه نفورا شديدا ، وإذا ما زلَّ أحدهم فارتكب فاحشة سارع إلى التوبة ، لذلك لا يمكن افتراض أن الإباحية الجنسية كانت عامة<sup>(١)</sup> .

وإذا فدعوى سترابون أن زواج المشاركة كان ذائعا في اليمن مردودة لا تؤيدها الحقائق التاريخية ، وعامه بأحوال بلاد العرب ناقص ، لأنه تائقه من قصص التجار والمغامرين والمتزيدين .

٢ — أما أدلة سميت على توتمية العرب فقد نقضها كثير من علماء الاجتماع<sup>(٢)</sup> . وأهم أدلته :

١ — أن كثيراً من القبائل كانت تسمى بأسماء الحيوان كأسد وفهد وكلب الخ . . لأن هذه الحيوانات هي توتم القبائل التي تسمت بها . وهذا مردود ، لأن عدد العشائر التي تسمت بأسماء الحيوان لا يعدو الأربعين ، وأسماء القبائل بضع مئات .

ثم إن هذه الأسماء التي أطلقت على القبائل وعلى الأفراد أوحى بها ظروف وملاسات خاصة ، عرض لها الجاحظ بقوله : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرود على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والقال ، فإن سمع إنسانا يقول حجراً أو رأى حجراً سمى ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالمقى . وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وإن كان حمارة تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت وغير ذلك<sup>(٣)</sup> .

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٢٨ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٩٩ - ١٤٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١ / ٣٠٤ بتحقيق هارون .



ولقد يختارون الأسماء المرهبة المرعبة اتوحى إلى المسمى بالقوة والشدة ؛ ولترهب الأعداء ، فقد سئل أبو العريش الأعرابي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو ذئب و كلب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال ، إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا<sup>(١)</sup> .

ب - وأن العرب عبدوا الحيوان .

وهذا مردود أيضا بأننا لانعرف أن العرب عبدوه كما عبده المصريون القدماء . وليس في أصنام العرب ما كان على صورة حيوان ، إلا ما جاء من بعض الآراء في يفتوح ويعوق ونسر ، فقد ذكر الزنجشري والنيسابورى أن يفتوح كان على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر<sup>(٢)</sup> .

على أن الطبرى لم يذكر هذا ، وإنما روى أنها كانت على صورة أناسى ، وقد عبدها قوم نوح ، ثم عبدها العرب ، وتابعه الزنجشري فذكر ذلك أيضاً<sup>(٣)</sup> وليس في كتاب الأصنام ما يشير إلى شبهها بالحيوان<sup>(٤)</sup> . فنحن الآن أمام رأيين : فإذا اعتمدنا أن هذه الأصنام الثلاثة كانت على صورة حيوانات فعلينا أن نتذكر أنها قلة قليلة بالنسبة لما نعرف من عدد أصنام العرب<sup>(٥)</sup> ، وإذا أخذنا بأنها كانت على صورة البشر بطلت الدعوى . وسواء أكانت على هذه الصورة أم تلك فإنها لم تكن من مبتدعات العرب ؛ وإنما هي بقايا من عهد نوح : وهناك عشرات من أصنام العرب لم تكن على شكل حيوان ، وبعضها كان على هيئة إنسان<sup>(٦)</sup> .

(١) حياة الحيوان للدميرى ٢ / ٢٤٢ وتاريخ الخميس ١ / ١٧٣ ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقمشدى ٢١ .

(٢) الكشف للزنجشري ٢ / ٤٩٢ وتفسير النيسابورى ٢٩ / ٥٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والزنجشري ٢ / ٤٩٢ .

(٤) الأصنام لابن الكلبي ١٠ و ١١ و ٥٧ و ٥٨ .

(٥) في كتاب الاصنام لابن الكلبي ثلاثون صناء وفي ملحق الكتاب سبعة وأربعون .

(٦) الاصنام ٩ و ٢٨ و ٥٦ و ٥٩ وتفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والنيسابورى ٢٩ / ٥٣

والزنجشري ٢ / ٤٩٢ .

وشتان بين عبادة الحيوان في التوتمية وعبادة صنم على هيئته ، لأن أصحاب التوتم يعبدون حيوانات لأصناما شبيهة بها ، ويمارسون ضروبا من السحر والرقى لحفظ التوتم حيا .

ولا يصح أن نفعل عن تقرير القرآن الكريم أن العرب كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ، بل لتقربهم إلى الله زلفى « مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ( ح ) وأما دليله على توتمية العرب بأنهم حرموا لحم بعض الحيوان ، فهو مردود بأن العرب لم يحرموا حيواناً ، ولو أن العرب دانوا بالتوتمية لحرموا لحمان الثور والبكر والظبي والعنز والفهد وغيرها من الحيوانات التي سماها بها .

( د ) على أن التوتمية تقضى أن ينسب الولد إلى توتم أمه لا توتم أبيه ، ولو دان العرب بالتوتمية لكان النسب إلى الأم هو الغالب السائد ، ولكن الذى حدث أن النسب إلى الأب كان السائد الغالب .

( هـ ) ثم إن من أسس التوتمية ألا يتزوج الرجل امرأة تنفق معه في توتمه كما يقول سميث وغيره . وسنجد في فصل ( الزوجة ) أن العرب كانوا يتزوجون بأقاربهم وبنات أعمامهم ، كما كانوا يفتربون ، لا لأنهم يدينون بالتوتمية ، بل لأنهم يستجدون النسل ، ويحققون منافع أخرى ستجىء .

وإذاً فقد بطلت نظرية سميث في توتمية العرب ، فبطلت النتائج التي بناها عليها ، وأهمها نظرية الأمومة .

٣ — أما التعبير عن القرابة بالبطن فليس دليلاً على الأمومة ، وقد أسلفت أن التعبير بالرحم والبطن دليل على عظم أثر الأم في القرابة . على أنهم عبروا أيضاً بالفخذ والشعب والعمارة ، وليس في واحد من هذه أثاراً من الدلالة على الأمومة .

٤ — ثم إن الأنساب لم تخاق في عهد عمر ، ولم يختلط بعضها ببعض ، لأن العرب منذ العصر الجاهلى كانوا حراساً على حفظ أنسابهم ، وكانوا يتشددون فيها ، ويردون من يدعى نسباً ليس له .

ولا شك أن النظام القبلي كان يَحْتَم على أنسابهم الحفاظ على أنسابهم ، لأن القبيلة وحدة متماسكة ، يتداعى أفرادها للنصرة . ورد الفارة ، ويتضامنون في تحمل المغارم والديات ، ويتعاونون على تحقيق كثير من المنافع ، وهذا كذليل بحرصهم على معرفة أنسابهم ، وتحريمهم الصدق فيها ، وإبعادهم كل دخيل ليس منهم « فيؤمن عليهم اختلاط أنسابهم وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ، ولا عرف فيهم شوب <sup>(١)</sup> » .

وكيف نصدق أن تلفق الأنساب في عهد عمر ، وهو نفسه كان يحض العرب على حفظ أنسابهم بقوله : « تعاملوا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا <sup>(٢)</sup> » .

وكان من العرب نسابون ثقات أطبق الناس على أماتهم وسعة معارفهم <sup>(٣)</sup> . وكثيراً ما تباهى الشعراء بأنسابهم ، واعتزوا بها وحرصوا عليها . من ذلك قول بشامة بن جَزء النهشلي :

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا <sup>(٤)</sup>  
فلم يكن عجباً أن رفضت بجيلة أن يولى عليها عرجة بن هرثمة ، وسألوا

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ . (٢) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ .

(٣) مثل جبير بن مطعم وأبي بكر وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب والحطاب ونفيل ودغفل وعمير وصبح وابن الكيس والأزهر بن عبد المارث وابن عطاء اللبثي وابن كريبز والأبرش والحطفي وغيرهم ( البيان والتبيين ١ / ١٤٤ و ٢٥٣ و ٢٥٨ و ٢٦٩ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٢ و ٢٨٣ ) والأنساب للسماعى ٨ .

(٤) شرح الحماسة الرزوقي ١ / ١٠٢ و عيون الأخبار ١ / ١٩٠ وفي شرح التبريزي ١ / ٥٠ و خزائن الأدب ٣ / ١٥٥ أن القائل بشامة بن حزن النهشلي . وفي الشعر والشعراء ٢٤٢ أنه نهشل بن حري .

عمر أن يعفيهم منه ، وقالوا : هو فينا لزيق ، وطلبوا أن يولى عليهم جريرا . فسأل عمر عر بنجة عن ذلك ، فقال له : صدقوا يا أمير المؤمنين لست منهم ، ولكفى رجل من الأزدي ، كنا أصبنا في الجاهلية دما في قومنا ، فاحقنا بجيلة ، فبلغنا فيهم من السؤدد ما بلغك .

فيهم على علم بوشائج كل شخص ، يردون نسبه صراحة إن ادعى لغير قومه ، ولا يرضون بدخيل رئيسا عليهم .

٥ - وإن صدقنا أن النسب مختلق في عهد عمر لنيل العطاء ، فكيف نصدق أن القبائل التي نُحِّي نسبها عن قريش قتل عطاؤها رضىت بذلك ؟ وكيف تقر نسبها الموضوع ، وهو لا يرضيها ، ويظل ذلك إلى العصور اللاحقة . وإلى الآن في كتب التاريخ ؟ ثم كيف غفل الشعوبية عن هذا النسب المختلق المنحول أو المتحلل ؟ ولا سيما الفرس في وقت كانت المفاخرة فيه على أشدها ، وأعنفها ، إذ كان العرب يفاخرون الفرس بأنسابهم ، ولم يأل الفرس جهداً في النيل من العرب ، حتى لقد نسبوه إلى الوحشية وقالوا : « إنهم كالذئاب العادية ، والوحوش الضارية يأكل بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثوقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبابا مردفات على حقائق الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى وقد وطنن كما توطأ الطريق المبيع<sup>(١)</sup> » .

ولو استطاع شعوبى أن ينكر على العرب أو على بعضهم نسبهم لفاعل ، مع أنهم أنكروا على العرب دعواهم أن الهند والبربر والديلم وبرجان أصلهم من العرب . قال بجير يعير العرب ذلك :

زعمتم بأن الهند أولاد خندفٍ	وبينكم قُرْبَى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل	وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقربانا ملوك الأكاسر <sup>(٢)</sup>

نعم كان الفرس أحق الناس بطعن هذه الأنساب التي نجاها العرب أنفسهم، لأنهم على صلة بهم من قديم ، بالجوار والحرب والسلام والحكم ، ولأنهم اتصلوا بهم بعد الإسلام اتصالاً أقوى وأعمق ، وكان يهد لهم هذا الطعن أن كثيراً من المؤرخين والنسابين في الإسلام من أصل فارسي ، فلماذا سكتوا؟ ولماذا روجوا لأنساب مدخولة يستطعون أن ينالوا من العرب بنقضها وتزييفها؟

٦ - على أن الساميين في عصورهم التاريخية اعتبروا النسب إلى الآباء هو النظام الاجتماعي المألوف ، حتى لقد حسبوا أن كل شعب قد نجله أب واحد، فهو ينتسب إليه . فالأشوريون نسل بهم أب واحد اسمه آشور ، والكنعانيون نجاهم رجل واحد هو كنعان ، والمؤابيون أبناء أب واحد اسمه مؤاب ، والإسرائيليون أولاد إسرائيل وهكذا . ومعنى هذا أن القبيلة تنتسب إلى أولاد الرجل الذي انحدر منه الشعب ، وأن العشيرة تعزى إلى أحفاده وهكذا<sup>(١)</sup> .

وقد دونت شريعة حمورابي نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وجاء فيها عن نظام الزواج والطلاق ما يدل على أن الرجل رب الأسرة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى نظام الأمومة .

فالانتساب إلى الأب هو النظام السائد بين الأمم السامية منذ العصور التاريخية ، لأن الأب رب الأسرة ، ويده تصريف أمورها الدينية والمدنية ، وهو الذى يقرب القرابين لإله العشيرة ، ويهيمن على بنيه وأهله ، فكان له أن يبيع أبناءه وبناته ببيع العبيد<sup>(٢)</sup> ، وكان له أن يقتلهم أو يحرقهم إذا شاء<sup>(٣)</sup> ، إلى أن حرمت التوراة عليه ذلك<sup>(٤)</sup> ، ثم شدد القرآن الكريم التكثير على الوالدين كما سيحىء . لذلك دل الساميون على الرجل بكلمة بعل ، ومعناها الزوج والسيد .

(١) Israel from its Begining. Adolphe Lods P. 199.

(٢) سفر الملوك الثانى الإصحاح الرابع الآيه الأولى . وسفر الخروج الإصحاح ٢١ الآيه ٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآيه ٢٤ .

(٤) سفر التثنية الإصحاح ٢١ الآيه ١٨ .

٧ — ثم إننا نجد أحياناً نسباً مزدوجاً في العرب إلى الأب والأم معا ، فبعض القبائل نسبت إلى أبيها وأمها ، كالأوس ، نسبوا إلى أمهم قَيْلَةَ وإلى أبيهم حارثة<sup>(١)</sup> ، وبنو خندف انتسبوا إلى أبيهم إلياس بن مضر، كما انتسبوا إلى أمهم خِنْدِف ، وفي ذلك يقول قصي بن كلاب من مرة :

إني أرى الحرب علىّ وأبي      عند تناديهم بهابٍ وهبي  
معتم الصولة على النسب      أمهتي خندف والياس أبي<sup>(٢)</sup>

و بنو طُيَيْة نسبوا إلى أمهم وإلى أبيهم سود بن مالك بن حنظلة<sup>(٣)</sup> ، وأولاد مرّ بن أدّ نسبوا إلى أمهم ظاعنة وإلى أبيهم<sup>(٤)</sup> .

كذلك كان بعض الأفراد يعرفون بأبيهم وأمهم معا ، كالحارث بن ثعلبة ابن جفنة ، أمه مارية ذات القرطين ، من جفنة ، أو مارية بنت ظالم من كندة ، وقد نسب جماعة من ملوك غسان إليها<sup>(٥)</sup> ، وعنترة بن الأخرس من طيء نسب أيضاً إلى أمه عكُبرة<sup>(٦)</sup> .

٨ — وإنا لنجد إصراراً من بعض العرب على نسبهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، من هؤلاء المتأسس ( جرير بن يزيد أو ابن عبد المسيح من ضبيعة بن نزار ) فقد ولد في أخواله بنى يشكر ، ونشأ بينهم حتى كادوا يغابون على نسبه ، فسأل عمرو بن هند يوماً الحارث اليشكري عن نسب المتأسس فقال : أوأنا يزعم أنه من بنى ضبيعة . فقال عمرو : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتأسس ، وهجأ عمرا ، وهدد الحارث<sup>(٧)</sup> ، لأنه كان حريصاً على نسبه

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٥٠ .

(٢) مروج الذهب ١ / ٢٧٥ هـ ، هي : زجر للاخيل أي أقدى وأقبل .

(٣) المعارف ٢٦ . (٤) المعارف ٢٥ .

(٥) مروج الذهب ١ / ٢٠٧ .

(٦) شرح ديوان الحماسة المرزوق ١ / ٢٢٠ .

(٧) ديوان التلمس ١ مخطوط والأغاني ٢١ / ١٢٥ - ١٣٥ وشعراء النصرانية ٣٣٩ .

لأبيه ، يدل على ذلك قول أبي الفرج إن الحارث الإشكري أراد أن يدعى  
المتلمس ، فقال المتلمس :

ومن كان ذا عرض كريم ولم يضمن له حسباً كان اللئيم المذمماً  
أحارثُ إنا لو تُسَاطُ دماؤنا تَزَايَلُنْ حتى لا يمسَّ دم دماً  
أُمْنَتَفِيّاً من نَصْرٍ بُهْتَةٌ خِلْتَنِي أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَيْنَا  
وإن نصابي إن سألت وأسرتي من الناس قوم يقتنون المرثماً  
فلو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسماً  
وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم زنياً فما أحرزتُ أن أتكلماً<sup>(١)</sup>

ولما خطب عمرو بن حُجْرٍ إلى عَوْفِ بْنِ مَحَلِّ الشيباني ابنته أم إياس قال له :  
أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن أ كفاءهن  
من الملوك<sup>(٢)</sup> .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يؤثر أن ينسب إلى جده الأعلى النَّضْرِ  
لا إلى جدته ، من ذلك أنه لما قدم عليه الأشعث بن قيس في وفد كندة قال  
الأشعث : يارسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم  
رسول الله ، وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن  
الحارث - وكانا تاجرين إذا شاعا في بعض العرب فسئلا من هما قالوا نحن  
بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ، لأن كندة كانوا ملوكاً - ثم قال لهم : لا ،  
بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا تقفوا معنا ، ولا نتفق من أيينا<sup>(٣)</sup> .

وجاء الإسلام فحرم النسب الخلق المتعمد ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) الأغانى ٢١/١٢١ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ١/٦٤ بهتة : ابن وهب  
ابن جلي بن أحسن بن ضبيعة . تساط : تخاط .  
(٢) العقد الفريد ٣ / ٢١٠ .  
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤ .

« من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة <sup>(١)</sup> » وأمر القرآن الكريم بنسب المتبئين إلى آبائهم ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم <sup>(٢)</sup> ﴾ ، فنسبة الشخص الذي يُعلمُ أبوه إلى غير أبيه حرام في الإسلام <sup>(٣)</sup> .

٩ — ولقد اعتمد ولسكن على تشابه أسماء البطون في دعواه أن الأنساب مختلطة ، لأن التشابه في نظره وليد الانتحال والاختلاق ، ودليل على تشعب الآراء وتصرف الأهواء .

ولكن دفع هذا ميسور ، فقد تشترك قبيلتان أو أكثر في لقب واحد كالأراقم ، فهو لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية بنى بكر بن عمرو من تغلب <sup>(٤)</sup> . ولعل سبب تاقمهم بالأراقم أن عيونهم تشبه عيون الحيات الرقم ، يدل على ذلك قول المبرد إن الأراقم قبيلة من بنى تغلب ، لقبوا بذلك لأن عيونهم شبت بعيون الحيات الأراقم ، فعرفوا بهذا الاسم <sup>(٥)</sup> . وكذلك بنو أبان بطون شتى من قبائل شتى ، بعضها من العدنانية وبعضها من القحطانية <sup>(٦)</sup> . وبنو أثمار حى من عدنان وحى من كهلان <sup>(٧)</sup> . وبنو عبد مناف علم على ثلاث بطون من العدنانية <sup>(٨)</sup> . وبنو أسد بطن من أزد كهلان من القحطانية ، وبطن من قضاة من حمير . وبنو الأوس بطن من قحطان ، وبطن من عدنان . وكذلك بنو تغلب وبنو بكر <sup>(٩)</sup> .

وقد تتفرع من القبائل بطون تشترك في اسم واحد لفظاً ونطقاً ، فمن هوازن

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٥ . (٢) سورة الأحزاب ٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٦ . (٤) المعارف ٣٢ .

(٥) السكامل للمبرد ١٢٧ .

(٦) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للفاشنى ٣٠ .

(٧) المرجع السابق ٢٦ . (٨) المرجع السابق ٢٨٠ .

(٩) المرجع السابق .



هلال بن عامر بن صعصعة ، ومن ضبة هلال بن عامر بن ربيعة ، ومن ربيعة ابن نزار هلال بن ربيعة بن زيد ، ومن الأزدي هلال بن عمرو بن كعب ، ومن النخعي هلال بن عمرو بن جشم ، ومن قضاعة هلال بن جشم بن القين ، وكل هؤلاء يطون<sup>(١)</sup> ، فالإقتصار على هلال وحده وأحياناً عليه وعلى ما بعده يدعو إلى اللبس ، لذلك ألف ابن حبيب كتاباً عرض فيه نواحي من هذا التشابه والاشتباه .

١٠ — وسنرى في الزواج أن العرب كانوا يجرون على أنواع ، أقر الإسلام واحداً منها ، وأبطل ثلاثة هي نكاح الاستبضاع ، ونكاح الرهط ، ونكاح البغايا ، وحتى في هذه الأنواع كان ينسب الولد إلى أبيه ، لأن الأب في نكاح الاستبضاع كان يطعم في نجابة الولد وينسبه إليه ، وفي نكاح الرهط كانت المرأة ترسل إلى من باشروها وتعين واحداً منهم فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ، وفي نكاح البغايا كان القافة يلحقون المولود بالذي يرون فيدعى ابنه ، ولا يرفضه<sup>(٢)</sup> .

فإذا كان الولد ينسب إلى أبيه في هذه الأنواع التي لم يقرها الإسلام ، فأحرى به أن ينسب إلى أبيه في النوع الذي أقره ، وهو الذي كان ذائعاً شائعاً ، ولو أن العرب كانوا يدينون بالأمومة لكان نكاح الرهط ونكاح البغايا أفسح مجال لها ، لأن الأب فيهما مجهول ، أو على الأقل مشكوك فيه . ومن أمثلة ذلك أن جارية بن سليط بن الحارث اتصل ببغى في سوق عكاظ ، فقالت له : لعل سألقت ولداً ، فموعدك فصال ولدي إن حملته ، فعرف الجارية اسمه ، ثم وافي عكاظ بعد ثلاثة أعوام ، فوجدها قد ولدت غلاماً وفطمته ، وأقبلت معها أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ ، ثم دفعن إليه الغلام ، فسماه

(١) مختلف القبائل ومؤتلفها ١٨ لابن حبيب .

(٢) ريم الأبرار للزمخشري ١٤٩ مخطوط وفضل العرب على العجم ٣٩ مخطوط وأمثال العرب للضي ١٨ وفتح الباري ٩ / ١٥٨ والاعتصام للشاطبي ٢ / ١٨٤ وإنسان العيون ٤٧ / ١ والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ٣ / ٢٣٣ .

عوقاً<sup>(١)</sup> . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها اشتراك أبي لُب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبي سفيان بن حرب والعاص بن وائل في مباشرة النابغة أم عمرو بن العاص ، وحكمها هي بأنه للعاص<sup>(٢)</sup> .

١١ - وسنرى في فصل ( البنت ) أن الوأد لم يكن عاماً ، وفي ( فصل الزوجة ) أن العرب لم يجزوا على المشاركة في النساء ، وبهذين يبطل ما ذهب إليه ماك لينان وولكن من أن عموم الوأد اضطر العرب إلى المشاركة في النساء ، وكانت هذه المشاركة هي السبب في نظام الأمومة عندهم ، لأن الأم معلومة والأب مجهول .

### رأى في أصل النسب إلى الأم :

لم أرتض أن يكون الباعث على النسب إلى الأم عند العرب هو نظام الأمومة ، ولكنهم قد نسبوا أحياناً إلى الأمهات ، فلماذا نسبوا إليهن ؟ أرى أن مردهذا النسب إلى أمور شتى منها :

١ - تكريم الأم المنجبة ، وتمجيدها ، والإعلاء من قدرها ، كما نسب إلى أمه عمرو بن هند مُضَرَّط الحجاراة ، وكما نسب المناذرة إلى أمهم ماء السماء ، وهي ماوية بنت عوف بن جُشَم ، وكما انتسب الحارث الأعرج إلى أمه مارية وانتسب إليها الفساسنة . يقول حسان بن ثابت في مدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجِلَقٍ في الزمان الأول  
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكرم المفضل<sup>(٣)</sup>

(٢) ربيع الأبرار ورقة ١٤٩ مخطوط .

(١) أمثال العرب للضي ١٨

(٣) الأغاني ١٤ / ٣ وهي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي (المعارف ٢٦٣ وبيع الأبرار ٢٠٦ مخطوط والفاخر للكوفي ٨٧ ومستقصى أمثال العرب للزخمرى ١٠٠ وخزانة الأدب للبغدادى . ( ٢٣٨ / ٢ ) .

ويقول النابغة الذبياني - أو حسان بن ثابت - في مدح عمرو بن الحارث الأعرج ونفضيه على المنذر :

فَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجِبِهِ وَأَمَّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَنْدَرِ<sup>(١)</sup>  
وقد انتسب إلى أمه ملك الحيرة عمرو بن المنذر الأكبر، وعرف بأنه عمرو ابن هند، وهي بنت عمه امرئ القيس الشاعر، يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:  
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟  
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيكم فيها قطينا<sup>(٢)</sup>  
ويقول طرفة في تحريضه له على الثأر من مُراد الذين قتلوا أخا عمرو بن هند:  
أعمرو بن هند ما ترى رأى معشر أماتوا أبا حسان جاراً مجاوراً  
فإن مُراداً قد أصابوا حرَّيمَهُ جهاراً وأضحى جمعهم لك وآترا<sup>(٣)</sup>  
وفي مدح الحارث بن حلزة اليشكري للملك قيس بن شراحيل بن هام الشيباني كناية عنه بابن مارية ( بنت سيار بن ذهل بن شيبان ) :

وإلى ابن مارية الجواد وهل شروى أبي حسان في الإنس<sup>(٤)</sup>  
ويمدح قيس بن زهير العبسي بنى زياد ، فيكفي عنهم بأنهم أبناء جنية في فضلهم وسؤدهم ودهائهم :

لعمرك ما أضع بنو زياد ذمار أيهم فيمن يُضيعُ  
بنو جنية ولدت سيوفا صوارمَ كلِّها ذكرٌ صنيع<sup>(٥)</sup>  
وقد نسب بعض المحدثين النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه :  
صلى الإله على ابن أمنة التي جاءت به سبط البنان كريماً<sup>(٦)</sup>

(١) الأغاني ١٤ / ٤ . (٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٣٦ .

(٣) معجم البلدان ٧ / ١١٩ .

(٤) المفضليات ١ / ١٣١ شروى : مثل .

(٥) شرح الحماسة للرزوقي ١ / ٤٧٠ .

(٦) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للخير وزابادي ١٠٠ من نوادر المخطوطات .

٣ — الفخار بها ، لعراقتها ، أو لادعاء عراقتها كقول سلمة بن ذرير بن الصَّمَّة وقد رمى أبا عامر الأشعري فقتله ، حين بعثه رسول الله في آثار من توجه إلى أوطاس :

إن تسألوا عنى فإني سَمَّه ابنُ سَمَادِيرِ لمن تَوَسَّمَه  
أخرب بالسيف رهوس المسماه<sup>(١)</sup>

وكقول وَزَّرِ بن جابر النبھانی وقد رمى عنقرة بن شداد : خذها وأنا ابن سَمَمَى ، فتحامل عنقرة بالرمية حتى أتى أهله ، فقال وهو جريح :  
وإن ابن سلمي عنده فاعلموا دمي

وهيبات لا يُرجى ابن سَمَمَى ولا دمي<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما كان يقول الضارب : خذها وأنا ابن فلان أو فلانة .

وكان حسان بن ثابت ينسب إلى أمه الفُرَيْعة ، وقد ناداه عمرو بن الحارث الأعرج معجباً بشعره بقوله يا ابن الفريعة أربع مرات في مجلس واحد<sup>(٣)</sup> ، وكان حسان ياتمب نفسه بذلك ، كقوله :

أمسى الخلائيس قد عَزَّوا وقد كثروا وابن الفريعة أضحى بيضة البلد<sup>(٤)</sup>  
وفي نحر الحارث بن حلزة قوله :

وولدنا عمرو بن أم أناسٍ من قريب لما أتانا الحُبَاءُ<sup>(٥)</sup>  
وفي نغار الحُصَيْنِ بن الحَمَامِ المرى بنفسه قوله :

أبي لابن سلمى أنه غير خالد مُلَاقِي المَنَايا أَيْ كَرَفِ تَيْمِهَا<sup>(٦)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٨٨ سمادير : أمه .

(٢) الأغاني ٧ / ١٤٥ . (٣) الأغاني ٤ / ٣٤ .

(٤) الإصابة ٨ / ١٦٦ والأغاني ٤ / ١١ . الخلائيس : اللثام الأندال .

(٥) شرح التصانيد العشر ٢٨٧ يريد عمرو بن حجر الكندي جد الملك عمرو بن

هند. وأم أناس هي أم الأول وهي من ذهل بن شيبان، أي أن النسب بيننا وبين الملك قريب

(٦) الفضليات ١ / ٦٧ سلمى : أمه أو وجدته . أي صرف تيمم : أي جهة قصد

أي أبي أن يحتمل الدل والعار لأنه لا بد أن يموت .

ويقول الأحنف بن قيس :

أنا ابن الزافرِيَّةِ أرضعتني بئدي لا أجدُّ ولا وخيمُ  
أتممتني فلم تنقضْ عظامي ولا صوتي إذا اصطكَّ الخصومُ<sup>(١)</sup>

ويقول إياس بن قبيصة الطائي إنه لا يستحق أن يكون ابن أمه العفيفة الشريفة النسب إن شايح هواه في طلب امرأة :

ما ولدتنى حاصنُ ربيعِيَّةُ<sup>(٢)</sup> لأنَّ أنا ما لأتُ الهوى لا تبتاعها<sup>(٣)</sup>

وقد سبق نحر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ابن العواتك .

٣ — مدح أبنائها بأنهم نساها ، كما يمدح الملوك وأبناء المنجبات ، من ذلك أن أعشى بنى عوف — ضابيء أويزيد بن خليد بن مالك — حمجد جوار أبناء هند ، وهي امرأة من شيبان ، فقال :

فلم أُرْ جيرانا إذا الحرب شمَّرت كمثل بنى هند أعفت وأكرما<sup>(٤)</sup>  
وقول رُشيد بن رميِّض العنزيِّ في غارة مُشريح بن سُرحبيل على اليمن :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزَّأَمِ<sup>(٥)</sup>

ومدح المساور بن هند بن قيس قومه إذ نفرُوا له لما استنفرهم ، وفداهم

بنفسه وأبويه :

فَدَى لِبَنِي هِنْدِ غَدَاةَ دَعْوَتِهِمْ بِجَوْ وَبَالَ النَّفْسِ وَالْمَالِ<sup>(٥)</sup>

(١) البيان والتبيين ١ / ٦٥ الزافرِيَّة : أمه واسمها حبي وهي من باهلة . لا أجد : ليس يابساً . وخيم : تليل . اصطكَّ الخصوم : تقارعوا فيما بينهم . وقال يونس إنه عنى بمظامه أسنانه لأنها إذا تمت تمت الحروف وإذا تنصت تنصت الحروف .

(٢) شرح الحماسة للبربري ١ / ١١١ والمرزوقي ١ / ٢٠٨ .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ١٣ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٣٥٤ والبربري ١ / ١٨٤ .

(٥) شرح الحماسة للبربري ٤ / ٩٨ الجو : الأرض المثلثة . وبال : اسم ماء .

وقد افتخر موسى بن جابر - وكان يعرف بابن ليلي وبابن الفريرة أيضاً -  
برجلين من آباءه كنى عنهما بابني العنبرية :

إذا ذكر ابنا العنبرية لم تصنق ذراعى وألقى باسته من أفاخر  
هلالان حمالان فى كل شتوة من الثقل ما لا تستطيع الأباقر<sup>(١)</sup>  
وكان رجل من عبد القيس - يقال له ابن أمية - قتل ، فرثته زوجته ،  
ومن رثائها قولها :

أجيران ابن مية خبرونى أعين لابن مية أم ضمار<sup>(٢)</sup>  
٤ - ولقد تكون الأم أعظم شهرة وعراقة من الأب فينسب إليها بنوها ،  
أو تكون الأم هى التى كفلت أبناءها وربتهم ، لأن آباهم مات وهم صغار ،  
فيشتهرون بها .

على أن من أسباب ذلك أيضاً التمييز بين الأبناء حين يتزوج الرجل بامرأتين  
أو أكثر ، ويولد له من زوجاته أولاد يشترك بعضهم فى اسم واحد ، فينسب  
كل منهم إلى أمه - مع انتسابه لأبيه - تمييزاً له من أخيه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الإسلام ، فقد كان لعلى بن أبى طالب أولاد  
من زوجات ، سمى ثلاثة منهم باسم محمد ، فنسب أكبرهم إلى أمه خولة بنت  
جعفر من بنى حنيفة ، وعرف بمحمد بن الحنفية ، ولو أنه كان فى الجاهلية لعرف  
أعقابه ببني الحنفية ، كما قيل فى الجاهلية بنو العدوية .

ولقد تكون الأم هى الوشيحة بين ابنها ومن ينسبه إليها ، فيؤثر أن يذكره  
بها لا بوالده ، كما قال النابغة فى رثاء أخيه لأمه :

لا يهيننا الناس ما يرعون من كلاً وما يسوقون من أهل ومن مال

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٣٦٩ والتبريزى ١ / ١٩٠ .  
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ١٤١ العين: النقد الحاضر . الضمار : الدين لا يرجى  
قضاؤه والمراد أتدركون ثأره أم تطلون دمه ؟

بعد ابن عاتكة الثاوي على أمرٍ أمسى ببلدةٍ لاعمٍ ولا خال<sup>(١)</sup>  
 ٥ — وسنعرف في حديثنا عن الزواج أن من أحوال النسب إلى الأم  
 أن تعيش الزوجة مع زوجها في عشيرته ، فإذا طلقها عادت إلى أهلها وحمت معها  
 أولادها ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش زوجها معها ، فإذا طلقها عاد إلى  
 عشيرته ، وترك أولاده مع أمهم ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش هو في عشيرته  
 على أن يتردد عليها ، فإذا طلقها احتفظت بأولادها<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الحالات ينسب  
 الولد إلى أمه .

٦ — ويحق لنا أن نستنتج من بعض الهجاء أن التلقيب بالأم كان يقصد  
 به التحقير أحياناً .

من ذلك قول الطرماح بن جهم السنبسي لنافذ بن سعد المعنى :

متى قدت يا بن الحنظلية عصابة من الناس تهديها فجاج الحارم ؟  
 فقد بزمام بظن أمك واحتفر بأير أيبك الفسل كراث عاسم<sup>(٣)</sup>  
 وقول آخر في هجاء :

يا قبيح الله أقواما إذا ذكروا بنى عميرة رهط اللؤم والعار<sup>(٤)</sup>

وقول أعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب يذكر قاتله هنداً :

أصبت في حرم منا أختة هند بن سلمى فلا يهنا لك الظفر<sup>(٥)</sup>

وإن عنتره ليفصح عن ذلك بأن قومه كانوا في السلم حين لا تحوجهم نجدته

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٢ / ١٨٥ ذو أمر : موضع .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسة ٨٤ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ٣٠ الحارم : جمع مخرم وهو أنف الجبل . الفسل :

الضعيف . عامم : رمل لبني سعد .

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ٤٩ .

(٥) جهرة أشعار العرب لأقرشي ٢٨٢ .

ياقبونه باين زبيبة ، وكانوا في الحرب حين يستصرخونه ويفتقرون إلى بلائنه  
ياقبونه باين الأطايب :

ينادونني في السلم باين زبيبة وعند صدام الخيل باين الأطايب<sup>(١)</sup>  
ومن هذه الزراية قول بشر بن أبي خازم :

قل للمثلّم وابن هند بعده إن كنت رائم عرنا فاستقدم<sup>(٢)</sup>

٧ - على أن الأب قد يموت في حياة أمه أو أم زوجته ، فتكمل أحفادها  
وترعاها ، فينسبون إليها ، أو تكون ذات شبرة فيعرفون بها ، كما نسب إسماعيل  
ابن إبراهيم بن مقسم الأسدي إلى جدته لأمه عليّة ، ونسب إليها أيضاً ابن  
ابنه<sup>(٣)</sup> . وكما نسب عبد الله بن مالك الأزدي إلى أم أبيه عبدة بنت الحارث  
ابن عبدالمطلب ، ولقبها بـ **بُحَيْمَةَ**<sup>(٤)</sup> ، ونسب سهيل بن عمرو إلى أم أبيه الحنظلية<sup>(٥)</sup>  
ونسب الحارث بن مالك إلى أم أبيه أيضاً ، واسمها عبدة ولقبها **البرصاء**<sup>(٦)</sup> .  
ونسب سعد بن عُمَيْب إلى أم جده الحنظلية فعرف بابن الحنظلية<sup>(٧)</sup> . وفي الإسلام  
نسب جميل بن مَعْمَر إلى أم جده معمر فعرف بابن قميّة<sup>(٨)</sup> .

٨ - وفي قليل من الأحيان كان الولد ينسب إلى حاضنته وإن لم تكن أمّاً  
ولا جدة . فقد كان للنعمان بن المنذر ولد أودعه أخته لأمه - سلمي بنت ظالم  
المرى - لتحضنه وتربيته ، ثم اعتدى النعمان على جيران للحارث بن ظالم المرى  
أخى سلمى ، وغنم أبليهم ، فغضب الحارث ، واحتال على أخته حتى دفعت إليه  
ابن النعمان فقتله وقال :

فإن تك أذوادُ أصيبنَ وصيبةً فهذا ابن سَمَى رأسه متفاقم<sup>(٩)</sup>

- |  |                            |
|--|----------------------------|
| (١) ديوان عنتره ٢٥ .   | (٢) جهرة أشعار العرب ١٨٤ . |
| (٣) تحفة الأبيّه ١٠٢ .   | (٤) تحفة الأبيّه ١٠٧ .     |
| (٥) تحفة الأبيّه ١٠٦ .   | (٦) تحفة الأبيّه ١٠٤ .     |
| (٧) تحفة الأبيّه ١٠٥ .   | (٨) سمط اللال ١ / ٢٩ .     |
| (٩) المنضليات ٢ / ١١٢ الأذواد : جماعات الإبل . متفاقم : مكسر . |                            |



وقد نسب أولاد إلى زوجة أبيهم ، لأنها حضنتهم ، فمثلا نسب إلى باهلة تسعة رجال ، وليست أما لغير اثنين منهم ، وإنما حضنت الجميع فغلبت عليهم<sup>(١)</sup> بل لقد نسب عوف بن عبد مناة بن أد بن طابخة إلى أمة سوداء حضنته - اسمها عكل - فغابت على اسمه ، وإليه يشير البعيث في هجاء جرير بقوله :

وجئنا بعمرو بعد ما حلَّ سَرَبَهَا      محلّ الدليل خَافَ أطحَل أو عُكَل<sup>(٢)</sup>

## مظاهر حب الأم لبنيتها

إذا كان الأولاد قد تجددوا أمهاتهم ، وباهوا بعراقه نسبهن ، وإذا كان العرب قد عظموا المنجبات وضر بوهن مثلا عالية تحتذى في مجتمع يقدر الأم ، ويحل المرأة ، فإنهم خافوا أيضاً من الآثار الأدبية ما يكشف عن حب الأم لبنيتها ، وحسن تربيته لهم ، وخلفت المرأة أيضاً ما يدل على إدراكها لواجبها نحو بنيتها ، وتعيدها لثمرات حياتها .

وقد تجلّى حبها لأبنائها في مظاهر شتى :

### ١ - تربيته لهم :

كانت العرب تعير من قصرت أمه في تربيته ، وتسبه بذلك<sup>(٣)</sup> ، وقد تجلت تربيته لأبنائها في مظهرين :

**المظهر الأول النربية الجسمية :** فهي تتعبد وليدها قبل أن تتحمّله ، ذلك بأنّها كانت لا تحمل إلا في طهر ، ولعل الأب كان يشار إليها في ذلك ، لأنهم اعتقدوا أن الحمل في أعتاب الحيض أو قبيل الحيض ينتج ولداً سقيماً .

(١) لسان العرب وطهارة العرب للشنقيطي ٣٢ .

(٢) النفاض ١٥٦ عمرو : يريد عمرو بن تميم . أطحل : جبل ينزله بنو ثور بن عبد مناة

(٣) عيون الأخبار ١ / ٤٥٤ .

يقول أبو كبير الهذلي في وصف تأبط شرا ابن زوجته إن أمه حملت به وهي طاهر ليس بها بقية من حيض :

ولقد سرّيت على الظلام بِعِشْمٍ جلد من الفتيان غير مُثْمَلٍ  
ومُبْرَأٍ من كل غُبْرٍ حيضةً وفساد مُرْضَعَةٍ وداء مُغْبِلٍ (١)

ويشير إلى ذلك أحد شعراء الحماسة في وصفه لابنه :

حميت على العُتَّار أطهارَ أمه وبعض الرجال المدَّعِين غُتَّاء (٢)

وزعموا أن النطفة إذا وقعت في الرحم في أول الهلال ، خرج الولد قويا ضخما ، وإذا كان في الحاق خرج ضئيلا ضامراً . قال الشاعر في وصف مولود كامل اجتمعت له شرائط السلامة والضحة :

لَقِيحَتْ في الهلال عن قُبُلِ الطهر مر وقد لاح للصباح بشير (٣)

لذلك هجا البعيث خصمه بقوله :

لَقَى حملته أمه وهي ضيفة فجاءت بيّنين للضيافة أرشماً (٤)

وكانوا بمتعقدون أن أنجب الأولاد ولد الفارك، لأنها تبغض زوجها ، فيزعمون أنه يسبقها بمائه ، فيخرج الولد مذكراً شبيهاً بأبيه ، وكان بعض الحكماء يقول إذا أردت أن تطلب ولد المرأة فأغضبها ، ثم قع عليها فإنك تسبقها بالماء . وكذلك ولد الفرعة ، قال الأصمعي : إن المرأة إذا حملت وهي مذعورة فأذكرت جاءت به لايطاق .

ذكر أبو كبير الهذلي في وصف ابن زوجته تأبط شراً أن أمه حملت به وهي

(١) شرح ديوان الحماسة للدرزوقي ٨٧/١ والشعر والشعراء ٢٥٧  
(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١٤٣/١ لأن حمايته لأمه من الزناة وهي في طهرها دليل على عفتها وغيرته ، ودليل على أن الطهر هو الزمن التخير للعمل .  
(٣) البغلاء للجاحظ ٢٤/٢  
(٤) اسان العرب ١١٣/١١ و٣٤٧/١٧ الضيفة : الحائض . اليتن : الذي يولد منكوساً تخرج رجلاه قبل رأسه ويديه .

غير مستعدة لفراس ؛ لأنها فزعة ، فنشأ محموداً مرضياً لم يدع أحد عليه بالهلاك :  
 من حملن به وهن عواقدُ حُبِكَ النطاق فشبَّ غير مُهَيَّبِ  
 حملت به في ليلة مزهودة كرها وعقدُ نطاقيها لم يُحْمَلِ (١)  
 وروى عن أم تأبط شرا قولها: حملت به في ليلة ظلماء، وإن نطاقي لمشدود (٢) ،  
 وقولها : لقد حملت به في ليلة مظامة وتحت رأسى سرج ، وعلى أبيه درع (٣) .  
 وكذلك قالوا في ولد الغضبي والفارك :

تَسَمَّتْهَا غَضْبِي فِجَاءَ مُسَهِّدًا وَأَنْفَعُ أَوْلَادِ الرِّجَالِ الْمَسَهِّدُ (٤)  
 ب - فإذا ما أمت حملها ، ووضعت جنينها افتخرت بأنها وضعت وضعاً سليماً  
 صحيحاً لا عسر فيه ولا شذوذ ، روى عن أميمة أم تأبط شراً أنها قالت : والله  
 ما ولدته يَبْتَنَا (٥) ، ونسب هذا القول أيضاً لفسامة بنت الخرشب (٦) ، ولعلمهم  
 كانوا يتحامون الحمل قبيل الحيض وبعيده حتى لا يولد الولد يتنا ، يدل على ذلك  
 قول البعيث في الهجاء كما - بق :

لَقِيَّ حَمْلَتَهُ أُمُّهُ وَهِيَ ضَيْفَةٌ فِجَاءَتِ بَيِّنٍ لِلضِّيَافَةِ أُرْشَمَا  
 وقد رجعت إلى كثير من الأطباء الإخصائيين في طب الأطفال وأمراض  
 النساء ، فقرروا أن ماسبق في الحمل ، وفي المرأة الفارك ، والمذعورة ، وفي  
 الاستدلال على فساد المولود بنزوله منكساً ، قرروا أن هذا كله لا أساس له  
 ولا صحة فيه .

(١) تهذيب الكامل ٤٩ / ٢ وشرح ديوان الحماسة للمرزوق ١ / ٨٧ وكتاب المعاني  
 الكبير لابن قتيبة ١ / ٥١٩ ليلة مزهودة : ذات فرع ويجوز نصب مزهودة على الحال من  
 فاعل حملت .

(٢) شرح الحماسة للمرزوق ١ / ٨٨ (٣) المرزوق ١ / ٨٧

(٤) المرزوق ١ / ٨٥

(٥) الحيوان للاجاض ١ / ٢٨٦ طبعة هارون والعقد الفريد ٣ / ٢٢٤ ولسان العرب  
 ١٧ / ٣٤٧ وتهذيب الكامل ٢ / ٥٠ وشرح الحماسة للمرزوق ١ / ٨٧ البتن : خروج رجل  
 المولود قبل رأسه ، وذلك علامة سوء فيها يزعمون .

(٦) بجم الأمثال للميداني ٢ / ٢٧٦ والأغانى ١٦ / ٩٧ .

ح - فإذا ما وضعت سقته من لبنها، وهي في حال تسكفل دَرَّه صافياً مغذياً،  
فأبست ترضع وهي حبلية، لأنهم عرفوا بتجاربههم أن لبن الحبلية ضار بالرضيع .  
وقد ذكرت أم تأبط شرا في حديثها السابق : « ولا سقيته غَيْلاً » . وفي ذلك  
يقول أبو كبير الهذلي :

وَمُبْرَأٍ مِنْ كُلِّ غَبْرٍ حَيْضَةٌ وَفَسَادُ مَرْضَعَةٍ وَدَاءُ مُغِيلٍ  
ويقول الراجز : « كان أبوه غائباً حتى فطم » أي لم يسق غَيْلاً<sup>(١)</sup> .  
ويقول شاعر :

ثُمَّ نَعَى وَلَمْ تُرَضَّعْ فَلَوْأَ وَرِضَاعُ الْمُجِجِّ عَيْبٌ كَبِيرٌ<sup>(٢)</sup>  
لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هممت أن أنهي أمتي عن  
الغَيْلَةِ ، حتى علمت أن الروم وفارس يصنعون ذلك ، فلا يضر أولادهم<sup>(٣)</sup> » .

د - وهي إلى ذلك تتوخى راحتها ، فتضحكه وتداعبه ، وتنيمه على مسرة ،  
جاء في حديث أميمة السابق ( ولا أبته على مَأَقَةٍ ) ، يقول الجاحظ : أما قولها  
في المَأَقَةِ فإن الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً ، فإذا كانت الأم جاهلة  
حركته في المهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب بيدها على جنبه ،  
ومتى نام الصبي وتلك الفرزة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ، ولم يعمل  
ببعض ما يابيه ويضحكه ويسره ، فإن ذلك مما يعمل في الفساد . والأم الجاهلة  
والمارقة الخرقاء إذا لم تعرف ما بين هاتين الحالتين كثير منها ذلك الفساد وترادف ،  
حتى يخرج الصبي مائتاً<sup>(٤)</sup> .

ويعمل المبرد تعليلاً آخر فيقول : « لم أبته مغنيظاً ، وذلك أن الخرقاء تبيت

(١) تهذيب الكامل ٥٠/٢

(٢) البخلاء ٢٥/٢ نعى : نما . الفلو : المهر والجحش إذا فظما والمراد الصبي . المحجج :  
الكبيرة البطن من الحمل .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٦٥ وتهذيب الكامل ٥٠/٢ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/ ٢٨٦

ولدها جائعاً مغموماً لحاجته إلى الرضاع ، ثم تحركه في مهده حتى يغابه الدوار ، فينومه ، والكيسة تشبعه وتغنيه في مهده ، فيسرى ذلك الفرح في بدنه من الشبع ، كما يسرى ذلك الغم والجوع في بدن الآخر»<sup>(١)</sup> . وهما معا ياتقيان فيما نفهمه من العبارة أن نوم الطفل غضبان با كيا مهتاجا - وإن عولج بالهددة المنومة - ضار بالطفل .

هـ - ثم هي لاتمنعه الرضاع إذا اشتد الحر ، لتطفيء ظمأه ، ولا تسقيه الرثيئة من اللبن . تقول فاطمة بنت الخرشب : « ولا منمته قتيلا ، ولا سقيته هُدْبداً<sup>(٢)</sup> » . وروى أن ليلي الأخيلية أجابت الحجاج - وقد أعجبه شباب ابنها فسألها عن تربيتها له - بما سبق من حديث أميمة وفاطمة<sup>(٣)</sup> .

#### المظهر الذاتي التربوية الخلفية :

أسلفت أن العرب كانوا يدينون بأن الولد يرث من أمه ومن أبيه ، وأنهم كانوا يرون فيه من خاله ملامح ، ومشابه في الجسم والخلق ، وهم يحدثوننا أن غلاما نزع إلى جدته لأمه ، وكانت سوداء نجاء أسود<sup>(٤)</sup> ، وأن حاتما الطائي ورث الجود عن أمه غنية بنت عفيف الطائية ، وكانت سخية لا تبقى على شيء<sup>(٥)</sup> ، وكانت ذات يسار لا يسألها أحد شيئا فتمنعه ، حتى لقد حجر عليها إخوتها<sup>(٦)</sup> .

لذلك طلق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء ، مخافة أن تجيئه بولد ألثغ ،

وقال :

لثغاء تاتى بحيفسٍ ألثغ تيمس في الموثيِّ والمصبيغ<sup>(٧)</sup>  
ونهى النبي عن إرضاع الحمقاء : « لاترضع لكم الحمقاء فإن اللبن يُفسد »

(١) تهذيب الكامل ٥٠/٢

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢٧٦/٢ الهديد : الرثيئة : اللبن الحائر الحامض جداً .

(٣) العقد الفريد ١٧٧/٣

(٤) لإرشاد الساري ٣٨/١٠

(٥) مجمع الأمثال للميداني ١٦٧/١

(٦) الأغاني ٩٣/١٦

(٧) البيان والتبيين ٦٤/١ الحيفس : الولد القصير الصغير الديميم .

وعن إرضاع سيئة الخلق : « لاترضع لكم سيئة الخلق »<sup>(١)</sup> .

تعهدت الأم ولدها منذ طفولته ، فسكبت في سمعه غناها ، وحملت هذا الغناء أمابها في أن يكون ولدها كما تشتهي مجدداً وكرماً وشجاعة ، وكانت ترقصه وتغني له ، وترقيص الصبيان بالغناء والكلام الموزون من طبائع الإنسان أنى وجد ، حتى لتجدنه في الحيوان الأعجم ، إذ تراه يهارش ولده ، ويداعبه في صوت لين ، وحنو كحنو الإنسان على ولده<sup>(٢)</sup> . وقد احتفل بهذا الضرب من تأديب الطفل وإيناسه محمد بن المعلى الأزدي اللغوي فألف كتاب الترقيص<sup>(٣)</sup> .

ولاشك أن الآباء أيضاً كانوا يرقصون أطفالهم ، ولكن الأمهات أكثر . مزاوله للترقيص وخبرة ، وهن أندى صوتاً من الرجال ، وأصير على مداعبة الأطفال وتهديتهم .

ولقد نسأل : هل من المعقول أن يفهم طفل معانى الغناء الذى ترقصه به أمه ؟ وإذا كان لا يفهمها فكيف نعتدها ذات أثر في خلقه ؟ لا نستطيع أن ندعى أن الطفل يفهم هذه المعانى ؛ ولكننا لا ننسى أن إخوته الأسن منه كانوا يسمعونها من أمهم إذا مارقت أطفالها ، فيفهمونها ويتأثرون بها .

ومن أمثلة ذلك ما غنت به ضباعة بنت عامر بن قُرظ لابنها المغيرة بن سلمة وهى ترقصه ، فازدهت بآبائه ، وأشادت بسيادتهم وكرمهم وعزهم ، تأمل أن يكون ابنها نعمة من هذه الدوحة :

نما به إلى الذرى هشامُ قرمٌ وآباء له كرامُ  
ججاجُ خضارمُ عظامُ من آل مخزوم هم الأعلامُ  
الهامة العلياء والسنامُ<sup>(٤)</sup>

(١) المسوط للسرخسى ١١٩/١٥ والسن الكبيرى لليهيق ٤٦٤/٧ .

(٢) الغناء للأطفال عند العرب الدكتور أحمد عيسى صفحة هـ .

(٣) من علماء القرن الرابع ذكره صاحب كشف الظنون ، والبغدادي .

(٤) الأمالي ١١٦/٢ ججاج : سادة مسارعون إلى الكرام . خضارم : كراماء سادة .

وكانت الشياء بنت السيدة حليلة السعدية أخت النبي في الرضاعة -  
وكانت تحضنه مع أمها ، ولذلك كانت تدعى أم النبي أيضا - ترقصه بدعائها له  
أن يراه الله :

هذا أخ لي لم تلده أمي ليس من نسل أبي وعمي  
فأنه اللهم فيما تُنمي<sup>(١)</sup>

وقد تمت أم الفضل بنت الحارث المالكية لطفها عبد الله بن عباس أن يسود  
العرب جميعاً حسبا وكرما :

شكلت نفسي وشكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهير  
بالحسب العبد وبذل الوفر حتى يوارى في ضريح القبر<sup>(١)</sup>  
٢ - الأم بفطرتها تواقفة إلى أن يعيش بنوها ، لأنهم ثمراتها ، وبضع منها ،  
ولأنها تجد في حياتهم حياتها مكررة ، وشخصها باقيا ، فهي ترى مباحج الحياة  
كلها في طفلها ، وتحس من عظم فرحها وسعادتها به أنها لاتدانيها أم أخرى في  
فرحها وسعادتها بابنها ، قالت أعراية وهي ترقص ولدها :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد  
أهكذا كل ولد أم لم يلد قلبي أحد ؟

ويقينا أنه لاحب يسامى حب الأم لابنها ، فقد تخون الحبيبة ، ويصد الأب ،  
ويخفو الأخ ، وتبغض الزوجة ، ويتقاب الصديق ، لكن الأم فوق هؤلاء جميعا ،  
لا ينضب معين حبها ولا يترقق ، ويكاد عفوها يسبق دائما ذنب ابنها ، ولا تيأس  
من أن يعود إليها ابنها العاق فيندم على عقوقه ، ويطلب منها المغفرة .

ولقد يضطرها الرجاء في أن يعيش ابنها إلى ضرب من الخرافات ، لاتجارى  
العقل ، ولكنها تسير الوهم ، فقد زعموا أن المرأة المقاتلات إذا وطئت قتيلا  
شريفًا عاش بنوها<sup>(٢)</sup> ، قال الشاعر :

(١) السيرة الحلبية ١/١١٤

(٢) الأمل ٢/١١٧

(٣) الأمل ٢/١١٦

تظل مقاتلة النساء يطأنه يقان ألا يُبقي على المرء منزراً<sup>(١)</sup> ؟  
 وفي مدحة الكميت للحسين بن علي تسجيل لهذه العادة في عصره :  
 وتطيل المرزآتُ المقاتلِست إليه التعمود بعد القيام<sup>(٢)</sup>

وما زالت بقية من هذه العادة في بعض جهات مصر ، إذ تنتخطى المرأة العقيم أو المقاتلات قتيلاً لتحمل ، ليعيش ولدها .

٢ — ولقد تنكب موت زوجها ، فتعكف على رعاية أولادها ، وتأنى أن تتزوج وإن كانت في عسرة ، من ذلك أن أم إئثال آمت ، وكانت أجمل نساء اليمامة ، نخطبها أشراف اليمامة فردتهم ، وقالت إنها لا تؤثر أحداً على ابنها ، ولا ترضى زواجا وإن كانت في شظف ، وإنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس ، لأن زواجها يظامن من عزته ويحزنه ويؤذيه :

لعمرى إئثال لا أفدَى بعينه وإن كان في بعض المعاش جفاء  
 إذا استجمعت أمُّ الفتى غَضَّ طرفه وشاعره دون الدثار بلاء<sup>(٣)</sup>

بل رفضت المرأة الزواج من الرسول إشفاقاً على أولادها ، وبقيا على راحتهم ، فإنه لما خطب رسول الله أم هاني بنت أبي طالب بعد موت زوجها هبيرة ، قالت : والله لهُو أحب إلي من سمعي وبصري ؛ ولكن حقه عظيم وأنا مؤتمة ، فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامى ، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركن الإبل صوالح نساء قريش ، أحناه على ولد في صفره ، وأرعاه على زوج في ذات يده »<sup>(٤)</sup> .

٣ — وقد كان حبها لبنيتها مدعاة إلى أن تحرص على مالهم ، وتحاول كفهم

(١) محاضرات الأدباء ٧٣/١ المقاتلات : المرأة التي لا يعيش ولدها .

(٢) أساس البلاغة مادة قلت وشرح الهاشميات ٣٢ المرزآت : اللاتي مات أولادهن .

(٣) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢

(٤) فتح الباري ١٠٧/٩ والعقد الفريد ٢١٣/٣ وأخبار النساء لابن القيم ٦٧



عن بذله فيما تحسبه إسرافاً وحمقاً ، وفي هذه المحاولة تشترك الأم والزوجة ، ويتبرم الشعراء بلومهما ، وسأتحدث عن هذا في أخلاق المرأة .

ولم يُحْفِ الشاعر أن أمه لامته على جوده ، ولم يجد غضاضة في أن يبوح بما قالت له وبما قال لها ، فهذا حطائط بن يَفُفِر يقص لوم أمه - رُهم بنت العباب - له ، ودفاعه عن نفسه :

تقول ابنة العباب رُهم حَرَبْنَا	حطائط لم تترك لنفسك مَقْعدا
إذا ما جمعنا صِرْمَةً بعد هَجْمَةٍ	تكون علينا كابن أمك أسودا
فقلت - ولم أعي الجواب - . تأمل	أكان هزلا حتف زيد وأرْبَدَا ؟
أرى جوادا مات هزلا لعلى	أرى ماترين أو بنخيلاً مُخْلدا
ذريني أكن للمال ربا ولا يكن	لى المال ربا تحمدى غِبَّه غدا
ذريني فلا أعيأ بما حل ساحتى	أُسودُ فأكفى أو أطيع مُسَوِّدا
ذريني يكن مالى لعرضى وقاية	يقى المال عرضى قبل أن يتبددا <sup>(١)</sup>

٤ - بينا تسعد الأم بطفلها ، وتتوسم في مخايله سيادة وعزة وبراً ، وبيننا ننعم بولدها الذى شب أو اكتهل ، تستمتع بيره ، وتسمع أعذب الثناء عليه فترهى وتنشى ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ، ويطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها . إنها الساعة المشئومة التى كانت لاتسمح لطيفها أن يلْم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التى لاتنتقم جراحها ، إنه الحزن الذى يجثم فى قابها لايرحه مارددت أنفاسها ، وأى حزن على فقيد يعدل حزن الأم ؟ بل أين ذلك الحزن الذى يدانى حزن أم على ولدها ؟

وقد يتنفس هذا الحزن فى نَشِيج أوفى وجوم أوفى دموع ، فإذا كانت

(١) الأغانى ١١/١٣٣ حربنا : سابت مالنا . صرمة : قطعة من الإبل من عشرين إلى ثلاثين ، وقيل غير ذلك . هجمة : قطعة من الإبل من أربعين إلى ما فوقها أو من سبعين إلى مئة . أسود : أخو حطائط .

الأم شاعرة تنفس حزنها في قصيد أيضاً . وكثيرات الأمهات الرائيات ، وفي  
سرايهم تصوير للوعة ، وقسوة الدهر ، وتصويح الأمل ، وإشادة بالمناقب .  
فالأم إذ تياس من أن يواتيها الصبر تود لو أنها كانت الغداء لابنها ، قالت  
أم تابط شراً أو أم السليك في رثائه :

ليت قلبي ساعة صَبْرَهُ عَنْكَ مَلَّكَ

ليت نفسي قَدِّمْتُ لِلْمَنَايَا بِدَلِكْ (١)

وهي تخدع نفسها إذ تعلم بالفاجعة ، فتشك في صدق الخبر ، ثم ينجعها الواقع  
فتحزن ، حتى تشعر أن الحزن قد جفف مخ عظمها ، وتجار وتساءل الناس أو  
تسكاد تسائلهم : ماذا تفعل ؟ وأين تجد ابنها ؟ هكذا كان حال أم حكيم بنت  
قارظ زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بُسْر بن أرطاة ولديها ، وكان معاوية قد  
بعثه إلى اليمن ونواحيها ، وكان عبيد الله عاملاً لعلي بن أبي طالب على اليمن ،  
وكانت أم الطفلين قد وارتبها ، فأخذها من تحت ذيابها وذبحهما :

يا من أحسَّ بُدَيْيَ اللذين هما كالدرتين تَشَطَّى عَنْهُمَا الصَّدْفُ

يا من أحس بنبي اللذين هما سمى وطرفى فطرفى اليوم مختطف

يا من أحس بنبي اللذين هما مخ العظام فمخى اليوم مُزْدَهَفُ

نبئت بسراً - وما صدقت مازعموا من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا

أنحى على وَدَجِي طِفْلِيَّ مرهفة مشحودة ، وعظيم الإفك يقترف

من دلِّ والهة حرى منجعة على صبيين غابا إذ مضى السلف (٢)

٥ - وإذا ما قتل ابنها وقبل زوجهادته ثارت ، فهذه أم قرفة قتل ابنها في  
حرب داحس والغبراء ، قتله قيس بن زهير ، فعمل ربيع بن زياد العبسى ديته إلى

(١) شرح الحماسة للبريزى ١٩١/٢

(٢) الثنائى ٧١٧ وتهذيب الكامل ٢٢٢/٢ وبلغات النساء ١٨٤ والاغانى ٤٥/١٥

مزدهدف : فان هالك . الودج : عرق فى العنق .

أبيه حُدَيْفَةَ ، فرضيها ، وسكن الناس ، فلما علمت أم قرفة بما فعل زوجها هاجت  
هياج المغيظ الحق ، ودعت عليه بالهلاك ، وعيرته قبول الدية ، وحرضته على  
أن يثار لابنه :

حذيفة لاسمت من الأعادى ولا وُقِّيتَ شَرَّ النَّائِبَاتِ  
أَيَقْتُلُ قِرْفَةَ قَيْسٌ وَتَرْضَى بِأَنْعَامٍ وَنُوقٍ سَارِحَاتِ  
نَغْدٌ ثَارًا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَبِالْبَيْضِ الْحِدَادِ الْمَرْهَفَاتِ<sup>(١)</sup>

## مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم

حفظ العرب لأمهاتهم صنيعهن، وأدر كوا حقوقهن عليهن فأدوها، وبروهن  
على خير ما يبر الولد والديه .

ولعلمهم كانوا أكثر برا بالأمهات وحدا عليهن من برهم وحدهم على الآباء ،  
لأنهن أضعف ، وأشد حاجة إلى الحب والعطف ، وأكث لصوقا بالطفل من الأب .  
ويظهر أن هذا شعور عام في الناس ، فقد جاء في شريعة مانو الهندى :  
« الأم أجدر بالاحترام من ألف أب »<sup>(٢)</sup> . وأبدع القرآن الكريم في تذكير  
الأبناء بما قاست أمهاتهم في حماهم وإرضاعهم ، وكرر الأمر ببر الوالدين ،  
وقرنه كثيرا بطاعة الله . وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما أمر  
ببر الأم ثلاث مرات ، ووقفاهن ببر الأب<sup>(٣)</sup> .

حتى الأم الرضاعية كانت لها مكانة في نفس المسترضع منها ، فقد وفد على  
النبي أشراف من هوازن - قوم السيدة حليلة السعدية مرضع الرسول - بعد  
غزوة حنين ، فقالوا ، يارسول الله إنما في الحظائر عماتك وحواضنك اللاتي كن  
يكفلنك . ولو أننا ملحننا - أرضعنا - للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ،

(١) رياض الأدب في مرآة شواعر العرب ٤٠

(٢) البخارى ٢/٨

(٣) حضارة الهند . جستاف لوبون ٣٢٨

ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائده . فقال رسول الله : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقالت قريش والأنصار : ما كان لنا فهو لله ورسوله . وبذلك أطلقت سبائا هوازن<sup>(١)</sup> .

وقد اتضح إعزاز الأم في عدة مظاهر :

١ — حمايتها من المهانة أيا كان مصدرها ، وأياما كانت نتائج هذه الحماية ، فقد حاول عمرو بن هند أن يستذل أم عمرو بن كلثوم ، فنارت ليلي بنت كليب أم عمرو بن كلثوم ، وثار ، وقتل الملك في ثورته<sup>(٢)</sup> ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة ، وخطب بها في سوق عكاظ<sup>(٣)</sup> ، وبنو تغلب تعظمها جدا ، ويرويها كبارهم وصفارهم ، حتى لقد هجوا بذلك :

ألمى بنى تغلب عن كل مَكْرُومَةٍ قَصيدة قالها عمرو بن كلثوم  
يروونها أندا مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مشوم  
وكان التغلبيين لم يكفهم نحر عمرو ، على روعته وكثرته ، فافتخر شعراؤهم  
بجراته وأنفته ، يقول أفنون بن صريم التغلبي :

لعمرك ماعمر بن هند وقد دعا لتخدم أمى أمه بموقفٍ  
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا فأمسك من ندمانه بالمُخَمَّقِ  
وجلاه عمرو على الرأس ضربة بذي شُطْبِ صافي الحديد روتق<sup>(٤)</sup>

وسواء أكانت القصة صحيحة أم فيها خيال ومبالغة ، فإنها تدل على إعزاز الأم ؛ لأن الذي اخترعها أو زاد عليها جرى العرف العام .

ثم قتل مرة بن كلثوم أخو عمرو المنذر بن النعمان وأخاه ، وإياه عنى الأخطل  
يقوله الجريز :

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٢٦/١

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤

(٣) الأغاني ١٧٥/٩

(٤) الأغاني ١٧٦/٩ والحيوان للجاحظ ١٣٥/٣ والكامل لابن الأثير ٢٢٦/١ الخنق :

الحاق . ذو شطب : سيف به طرائق .

أبني كليب إن عمي اللذا قنلا الملوك وفككا الأغلالا<sup>(١)</sup>  
 ٢ - الفخريها ، كما سبق ، وقد افتخر خُفاف بن نُدْبَة بأمه ، وفضاها على  
 أم العباس بن مرداس :

أبي الشتم أنى سيد وابن سادة مطاعين في الهيجا مطاعيم للجرم  
 أدبٌ على أتماط بيضاء حرة مقابلة الجديين ماجدة العم  
 وأنتَ لحنفاء اليمين لو انها تباع لما جاءت بزندٍ ولا سهم<sup>(٢)</sup>

٣ - وهم يُفقدون بالأم كثيراً ، إشعاراً بأنها أعز إنسان عليهم ، وأحيانا  
 يقرون بها عزيزاً آخر ، وأحيانا يفردونها . يقول العباس بن مرداس في مدح  
 حُليس النصرى بعد ما ثار له من قاتل أخيه :

فدى لك أمى إذ ظفرتَ بقتله وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا<sup>(٣)</sup>  
 ويقول عبد الله بن جذل الطعان :

فدى لهم نفسى وأمى فدى لهم بُرزة إذ يحمطهم بالسنايك<sup>(٤)</sup>  
 ولما ردت بنو لحيان غزاتها من بنى كعب مدحهم مالك بن خالد الهدلى  
 أو حذيفة بن أنس الهدلى بقوله :

فدى لبنى لحيان أمى وخالتى بماماصعوا بالجزع ركب بنى كعب<sup>(٥)</sup>  
 وقد افتخر حسان بن ثابت بانتصار الخزرج على الأوس فقال .  
 فدى لبنى النجار أمى وخالتى غداة لقوهم بالثقف الشمر<sup>(٦)</sup>

(١) الأغانى ٩/ ١٧٦

(٢) الأغانى ١٦/ ١٣٨ أنماط : نسب أو ضرب من البسط . مقابلة الجدين : كريمة النسب  
 من جهتهما . حنفاء : معوجة .

(٣) الأغانى ١٣/ ٦٦

(٤) معجم البلدان ٢/ ١٢٥ برزة : موضع كانت به وقعة قتل فيها مالك بن خالد بن صخر

(٥) معجم البلدان ٤/ ٩٦ للمشريد .

(٦) لكامل لابن الأثير ١/ ٢٤٣

وفي يوم أحد نثل النبي كنفاته لسعد بن أبي وقاص ، وقال : ارم فذاك  
أبي وأمي (١) .

٤ — ثم إن الأولاد كانوا يستجيبون مشورة أمهاتهم ، فإنه لما هجا بشر  
بن أبي خازم الأسدي — وكان عبداً — أوس بن حارثة الطائي ، وذكر أمه  
سعدى ، أغار أوس على نوقه ، فهرب منه ، ثم قدم عليه ، فأشار عليه قومه  
بقتله ، فقال أوس : هجوتني ظالماً فلا مفر من قطع لسانك ، أو حبسك حتى  
تموت ، أو قطع أطرافك وتخليتك .

ثم دخل على أمه سعدى ، فقالت له : يا بني ، مات أبوك ، فرجوتك لقومك ،  
فأصبحت أرجوك لنفسك . زعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يحجو ما يقوله  
غيره ؟ قال : فماذا أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحتك ،  
وتعطيه مائة ناقة ، فإنه لا يفسل هجاءه إلا مدحه . ففعل ما أمرت به أمه ، فقال  
بشر : لا مدحت أحدا حتى أموت غيرك ، ومدحه بتصيدته التي يقول فيها :

إلى أوس بن حارثة بن لأمٍ ليقضى حاجتي ولقد قضاها  
فما وطيء الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها (٢)

وكثيراً ما كانت الأم تحرض ابنها على الثأر ، فتؤجج حماسته ، وتذكي  
بغضته ، فيندفع لثأره لا يلوى على شيء ، كما سألين في أثر المرأة في الثأر .

٥ — وقد أسافت أنهم كانوا يعبرون عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء  
أمهم ، يستعطفونهم بذلك ، أو يذكرونهم بصلة حبيبة يجب أن توصل ، أو  
يظهرون عظم الفجعة في أخ عزيز ، أو يتحسرون على مودة مقطوعة ، الخ . . .  
يقول الشنفرى :

(١) فتح الباري ٧/٢٧٦ وتاريخ الطبري ٣/١٨ تمل : نقض .  
(٢) بلاغات النساء لابن طيفور ١٤٠ والكامل لابن الأثير ١/٢٦٣

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل<sup>(١)</sup>  
ويقول أبو زُبَيْد الطائي :

يا بنى أمى ويا شقيق نفسى أنت خلّيتنى لأمر شديد<sup>(٢)</sup>  
ويقول متم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

.....

وفقد بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا<sup>(٣)</sup>  
ويقول أيضاً :

فإن يك إخوانى توفوا وأخطأت بنى أمك الدنيا ختوف الرواصد  
فكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق فى أعيانهم غير واحد<sup>(٤)</sup>  
ويقول أوس بن حجر فى هجاء طفيل بن مالك :

لعمرك ما آسى طفيل بن مالك بنى أمه إذ ثابت الخليل تدعى

.....

فراراً وأسلمت ابن أمك عامراً يلاعب أطراف الوشاح المززعج<sup>(٥)</sup>  
وتقول أم حاتم الطائى تعاتب إخوتها لأنهم يلومونها فى كرمها :

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يا بنى أم الطبايعا؟<sup>(٦)</sup>  
ويقول معد يكرب بن الحارث فى رثاء شقيقه شرحبيل :

يا بنى أمى ولو شهدتك إذ تدعو تميماً وأنت غير محباب  
لتركت الحسام تجرى ظباه من دماء الأعداء يوم السكّاب<sup>(٧)</sup>

وفى يوم أحد خرجت صفية بنت عبد المطلب ، وقد انكشف المسلمون ،

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٢ (٢) الموشح للمرزبانى ٩٧

(٣) الفضليات ٦٨/٢ (٤) حسانة البحرى ٣٦٢

(٥) ديوان أوس ١٣ تدعى : تتلاحق وتفترق . الوشاح : الرماح .

(٦) الأغاني ٩٤/١٦ (٧) شعراء الصراية ٢

فقلت : يا رسول الله ، أين ابن أمي حمزة؟ (١) .

ووفدت أم هانيء بنت أبي طالب على النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح ،  
فقلت : يا رسول الله زعم ابن أمي علي أنه قاتل رجلا قد أجرته (٢) .

٦ — وإذا ما تزوج الرجل أجد رابطة جديدة بامرأة جديدة ، يتخذها  
سكنه ، ويماطليها كأس المودة دهاقا ، وليست له مندوحة من أن تخلف زوجته  
أمه في رعايته ، وتعرف دخيلته ، ومشاركته في كثير من شئون حياته .

ولقد تفتت علاقته بأمه ، ولقد تتراوح بين القوة تارة والضعف تارة ، وربما  
تسعه ظروفه فتدح له أن يعمر أمه وزوجه بعطفه كما يعمرانه . لكن حدثاً قد  
يلم به ، فيوحى إليه أن أمه أصبر عليه في نكته من زوجته ، فيؤثر أمه عليهما ،  
لأنه يعلم بتجربته وبتجارب غيره ، ويعلم بفطرتة أيضاً أن أمه أبقى له وأوفى ،  
وهي عليه أحنى .

حدث هذا لصخر بن عبد الله الشريد ، كان يتعشق ابنة عمه سلمى بنت  
كعب ، وكان يخاطبها فتأبى عليه ، فأقام على ذلك حيناً ، ثم أسرت سلمى ،  
واستنقذها صخر بعدما أصابته طعنة في جنبه ، وتزوج بها ، وكان يحبها ويكرمها  
ويؤثرها على أهله . ثم انتفض جرحه ، فمرض حولا ، وكان نساء الحى يدخان  
إلى سلمى عوائد ، فيقلن : كيف أصبح صخر ؟ فتقول : لا حتى فيرجى  
ولا ميت فينسى . فسمعها صخر ، وعرف أنها تبرمت به ، في حين أنه يرى  
تحرق أمه عليه ، فقال لها ناوليني السيف لأنظر أصدىء أم لا ، وهو يريد قتلها ،  
فناولته ، فإذا هو لا يقدر على حمله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمان مضجعي ومكاني  
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ، ومن يفتر بالحدثنان ؟



فأى اسرىء ساوى بأم حلياةً فلا عاش إلا فى شقاً وهوان  
 أئمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان  
 لعمرى لقد أيقظت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذنان  
 فلموتٌ خير من حياة كأنها مُعرّسٌ يعسوب برأس سنان<sup>(١)</sup>

ويشفع لتصديق هذه القصة الإجماع على روايتها، وتسجيل صخر لها فى شعره، وأمر آخر أهم من هذين أن سلمى كانت فاركا له، راغبة عنه منذ خطبها، ولقد تزوجها شبه مرغمة بعد أن استنقذها من السبي. ويظهر أن نفرتها منه كانت شديدة لم ياطف من حديثها حبه لها وإشاره إياها.

## ٧ - الإخوة لأم

قلت إن الأم كانت وشيجة قوية فى القرابة، وأرجح أن الإخوة لأم كانوا أكثر تعاطفاً وتراحماً وتواداً من الإخوة لأب، ذلك بأننا نجد الشعراء كثيراً ما يعبرون عن إخوتهم الأشقاء بأنهم أبناء أمهم، كقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك بن نويرة:

تقول ابنة العمرى مالك بعدما أراك قديماً ناعم البال أفرعا  
 قتلتها طول الأسى إذ سألتنى ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا  
 ووقد بنى أم تولوا فلم أكن خلافتهم أن أستكين وأضرعا<sup>(٢)</sup>

وقول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام فراره يوم بدر، وتركه أخاه الشقيق أبا جهيل:

(١) الأغاني ١٣/١٣١ وأخبار النساء لابن القيم ٧٦ وتهذيب الكامل ١٩٣/٢ ومستقى أمثال العرب للزحمرى ٩٩ مخطوط والحاسة البصرية ٢٢٤ مخطوط ووفيات الأعيان ١٣٢/١ والشعر والشعراء ٣٩٣/١ تحقيق شاكر.

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٩٤

هلاً عطفت على ابن أمك إذ ثوى قَمَصَ الأسنة ضائع الأسلاب<sup>(١)</sup>  
 ولم يجد دريد بن الصمة في تصاريف الدهر ، وتفريقه شمل الأحية ، أفسى من  
 تفريقه بين الشخص وابن أمه ، وقطعه ما بينهما فينفد كما ينفذ زاد المسافر ،  
 يقول في رثاء أخيه عبدالله بن الصمة :

أعاذلتى كل امرئ وابنُ أمه متاعُ كزاد الراكب المتزود<sup>(٢)</sup>  
 ثم إنا نستشف من اللغة نفسها ما يثبت أن الإخوة لأم أعظم تحابا من  
 الإخوة لأب ، لأن الأعيان الإخوة لأب وأم ، والأقران والأخيار بنو أم واحدة  
 من رجال شتى ، وبنى العلات بنو رجل واحد من أمهات شتى<sup>(٣)</sup> .  
 وكلمة أقران جمع قرن وهو الكف<sup>(٤)</sup> ، ففيها دليل على تكافؤ الإخوة  
 لأم وتماتهم ، وكلمة أخيار معناها أن في سخنهم وألوانهم وخاقتهم بعض  
 الاختلاف ، لأن آباءهم مختلفون ، ولعلها مشتقة من الخيف وهو زرقه إحدى  
 عيني الفرس وغيره وسواد الأخرى<sup>(٥)</sup> . أما العلات فهن الضرائر ، ويكفي  
 التعبير عن الإخوة بأنهم أبناء ضرائر ، للدلالة على ما بينهم من تجاف وتباغض .  
 على أننا مازلنا نشعر بالجفوة بين أبناء العلات ، مستعانة تارة ، ومستترة إلى  
 حين تارة ، ومازلنا نشعر بالتعاطف بين الأخيار ، وتساقيتهم الود صافيا .  
 ومرد ذلك إلى أن الأم الواحدة تقرب ما بين بنيتها ، أما الضرائر فيباعدن  
 بينهم بالوقية والدس ، وبث عوامل الغيرة والتنافس والتحاسد .  
 ثم إن أبناء الضرائر أكثر تنازعا على الميراث من الأشقاء ، أما الإخوة  
 لأم فلم يتنازعا على ميراث ، وقلما حدث ذلك ، لأن الثروة للأب في  
 الأعم الأغلب .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٨٦ وديوان حسان ١٧ قصص الأسنة : القتل بها في سرعة .

(٢) الأغاني ٩/٤ (٣) لسان العرب ١٧/١٨١

(٤) القاموس المحيط مادة قرن . (٥) القاموس مادة خيف .

(٩ - المرأة في الشعر الجمالي)

يتجلى حب الأخت لأم في أن ضرار بن عمرو صُرع في معركة بين القنا، فأسرع إليه إخوته لأمه فأنقذوه، ثم استشالوه حتى ركب فرسه، فرفع عقيرته بعكاظ فقال: ألا إن خير حائل أم، ألا فزوجوا الأمهات<sup>(١)</sup>. ويتجلى أيضاً في رثاء كثير من الشعراء لإخوتهم للأمهات، كرثاء أعشى باهلة لأخيه المنتشر بن وهب، وهو رثاء تتأجج فيه اللوعة والحزن، كقوله:

فَطَلْتُ مَكْتُمًا حَرَآنَ أُنْدُبِهِ      وَكُنْتُ ذَا حَذْرٍ لَوْ يَنْفَعُ الْحَذْرُ  
عَشْنَا بِهِ حَقْبَةَ حَيَا فْفَارِقْنَا      كَذَلِكَ الرِّمْحُ ذُو الْفَصْلَيْنِ يَنْكَسِرُ  
فَإِنْ جَزَعْنَا فَإِنَّ الشَّرَّ أَجْزَعْنَا      وَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا مَعْشَرُ صُبْرٍ  
فَإِنْ سَلَكْتَ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا      فَازْهَبْ فَلَا يَبْعَدُ نَيْكَ اللَّهُ مَنْتَشِرًا<sup>(٢)</sup>

وفي هذه القصيدة عدد الشاعر مناقب أخيه، وأشاد بما آثره إشادة المعترِبها، الأسيْف على ذهابها.

كذلك رثى أبو العيال الهدلى أخاه لأمه عبْد بن زهرة، فأشاد بشجاعته، وصور الحزن يصيب رأسه بالصداع وجسمه بالألم، وصور عينه تذرف الدمع غزيراً، كأنه سيل يتسرب من مزادة مثقوبة، ثم صور ليله كئيباً، لأن الذكريات تتوافد عليه، ولأن فراغه في الليل يسلمه لهواجسه وبلايله:

أَلَا اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ      فَتَى قَوْمٍ إِذَا رَهَبُوا  
وَقَالُوا مَنْ فَتَى لِلْحَرِّ      بَ يَرَقُبْنَا وَيُرْتَقِبُ  
فَكُنْتُ فَتَاهُمْ فِيهَا      إِذَا يَدْعَى لَهَا يَثِبُ  
ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي      صَدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصْبُ  
فَدَمَعُ الْعَيْنِ مِنْ بُرْحَا      مَا فِي الصَّدْرِ يَنْسَكِبُ  
كَمَا أَوْدَى بِمَاءِ الشَّنْثَةِ      الْخُرُوزَةَ السَّرْبُ

(١) البيان والتبيين ١٦/١ تحقيق هارون . حائل : لم تحمل .

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٨٢ وخزانة الأدب ١/١٣٠

على عبّدين زهرة طو ل هذا الليل أكتب<sup>(١)</sup>  
وكذلك رثى النابغة الذبياني أخاه لأمه<sup>(٢)</sup> ، ورثى سلامة الجعفي أخاه لأمه<sup>(٣)</sup> .

## ٨ - إعزاز الخال

أسلف أن الأم مأنحة ابنها الحياة ، ومورثة إياه بعض مميزاته الجسمية والعقلية والخلقية ، وأن العرب خالوا بعراقها وشرفها وسمو أخلاقها وإنجابها .

وسنرى في الزواج أنهم يجيدون اختيار الزوجة ، ويتحرون أصولها ، وأخوها مقياسهم في ذلك ، لأنه النبعة الماثلة للأم ، فهو مرآة لها ، وهي صورة منه .

فإذا كان أخوالأم سيداً شجاعاً جواداً فصيحاً كان الأمل قويا في أن ينزع إليه ابن أخته نزوعاً يعضد ما يرثه من أبيه . وإذا كان الخال رعيديداً كزاهياً تسربت رذائله كلها أو بعضها إلى ابن أخته ، فعاندت وراثته الخيرة من أبيه ، أو سايرت رذائله الموروثة من أبيه ، وغذتها وتمتها .

فالولد أحياناً يشبه خاله جسداً ، يقول الراجزي في ولده وقد غلبته أمه على شكله :

والله ما أشبهني عصامُ  
لا خلق منه ولا قوامُ  
نمتُ وعرق الخال لا ينامُ<sup>(٤)</sup>

وأحياناً يرث من خاله خلقاً أو ميلاً ، كما ورث زهير خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان بشامة يعرف أن زهيراً وارث شعره ، فإنه لما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته ، فأتاه زهير فقال : يا خاله ،

(١) الأغاني ١٦٦/٢٠ و ٦١/٢ وشرح أشعار الهذليين للسكري ١٣٧

(٢) شرح الحماسة للبرزبي ١٨٥/٢

(٣) شرح الحماسة للبرزبي ٥٩/٣

(٤) تهذيب الكامل ٥٠/٢

لو قسمت لى من مالك؟ فقال: والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله. قال: وما هو؟ قال: شعرى ورثتيه<sup>(١)</sup>.

وقد أتى الشعر امرأ القيس بن حُجْر من قبل خاله مهلهل<sup>(٢)</sup>، وأتى الأعشى من قبل خاله المسيب بن علس، وأتى خُفَاف بن نَدْبَة السلمي من قبل خاله تابط شرا، وأتى دُرَيْد بن العمة من خاله عمرو بن معديكرب<sup>(٣)</sup>. وكان لهذه الوراثة أثر فى أن ولدت الخنساء بنيتها شعراء جميعاً<sup>(٤)</sup>. واعترف الفرزدق بأنه ورث الشعر من خاله العلاء بن قَرظَة<sup>(٥)</sup> وقرر النالفة الجعدى أنهم شاركوا قريشاً فى تقواها وأنسابها، لأن أمنة بنت أبان أم الأعياص وأم أبى مُعَيْط منهم: وشاركنا قريشاً فى تقاها وفى أنسابها شريك العنان بما ولدت نساء بنى هلال وما ولدت نساء بنى أبان<sup>(٦)</sup>

### نصرة الخال لابن أخته

لا جرم كان الخال فى هذه البيئة التى تعزز بالخال يحذب على ابن أخته، وقيه أو ينصره ما وسعه النصر، لأن الأم إذا مانست أنشأت عصية الختولة، وهى نصرة إخوة الأم وأقاربها لابن أختهم، وأحياناً لعشيرة الزوج كلها. ولقد كانت تحدث هذه النصرة بين القبائل المتباعدة الأصول، كاليمينية والمضرية، من ذلك تأييد الخزرج وبنى النجار خاصة، وتأييد إخوانهم الأوس للنبي عليه الصلاة والسلام، لأن أمه من بنى النجار من الخزرج، فالخزرج كلهم أخواله، وخوتولهم له مكررة، لأن أخوال عبد المطلب من المدينة، فأمه سلمى

(١) طبقات الشعراء ٥٦٤ والأغاني ٩ / ١٥٠ ورسالة الغفران ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن وديوان زهير ٣٠٥ (٢) سبط اللالى ٣٨ / ١ (٣) سبط اللالى ٣٩ / ١ (٤) سبط اللالى ٣٢ / ١

(٥) الشعر والشعراء ١٣٦ بتحقيق شاكر وسبط اللالى ٣٩ / ١

(٦) الأغاني ١٧ / ١ شرك العنان: التساوى فى الشركة لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان

بنت عمرو من بنى النجار ، وأمها منهم أيضا ، وكذلك أم أمها<sup>(١)</sup> ، وأحوال عبد الله بن عبد المطلب من المدينة أيضا ، وقد توفي عندهم شابا<sup>(٢)</sup> ، وإن كان بنو زهرة يقولون إنهم أحوال النبي ، لأن السيدة آمنة منهم وإن لم يكن لها أخ<sup>(٣)</sup> ، لأن أمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة<sup>(٤)</sup> .

لذلك لما كبر عبد المطلب وتسلم مال أبيه عرض له نوفل بن عبد مناف في رُكح له - ساحة - فاغتصبه إياه ، فسأل عبد المطلب رجالات قومه أن ينصروه ، فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه ، فكتب إلى أحواله يصف لهم ما فعل نوفل ، فقال :

أبلغ بنى النجار إن جئتهم أنى منهم وابنهم والخميس  
فإن عمى نوفلا قد أبى إلا التي يغضى عليها الخميس

فخرج أبو أسعد بن عدس النجارى فى ثمانين راكباً ، وهدد نوفلا ، فرد  
إليه رُكح إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله على رُكحى وكانوا فى التَّنَسُّب دون قوى  
وقال فى ذلك سمرة بن عمير الكنانى :

لعمرى لأحوالٍ لشيبة قَصْرَةٌ مِنْ أَعْمَامِهِ أَبْرَةٌ وَأُوصل  
أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم ولم يثبهم إذ جاوز الحقُّ نوفل  
جزى الله خيراً عصابة خزرجية تواصلوا على برِّ وذوالبر أفضل  
فلما رأى ذلك نوفل حالف بنى عبد شمس كلها على بنى هاشم<sup>(٥)</sup> .

فلا عجب فى أن تؤيد الخزرج النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن ينضم إليهم  
إخوانهم الأوس ، فنجد أن أول من لباه من المدينة أحواله ، لأنه لما عرض

(١) المعارف ٢٤ و ٤٢ وسيرة ابن هشام ١١٩/١ والنتيب والإشراف ١٩٧ .

(٢) المعارف ٣٨ (٣) المعارف ٤٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ١٢٠/١ .

(٥) تاريخ الطبرى ١٧٨/٢ .

نفسه في مستهل الدعوة على نفر من الخزرج آمنوا به ، وكانوا تسعة ، فيهم اثنان من بني النجار<sup>(١)</sup> ، ثم بايعه اثنا عشر رجلا بيعة العقبة الأولى ، فيهم عشرة من الخزرج ، ومن هؤلاء ثلاثة من بني النجار<sup>(٢)</sup> ، ثم بايعه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بيعة العبة الكبرى ، وكان النقباء من هؤلاء اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج ، وثنيتين من المبايعة تسعة وثلاثين رجلا من الخزرج ، بينهم أحد عشر من بني النجار ، هذا إلى امرأة نجارية من المرأتين المبايعتين<sup>(٣)</sup> . على أن المرء بد الذي بركت فيه ناقة الرسول في مقدمه إلى المدينة مهاجرا كان لثلاثين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا رافع بن عمرو من بني النجار<sup>(٤)</sup> .

وقد اشتهر الخزرج وبنو النجار ومن يمت إليهم بقرابة بشدة دفاعهم عن الرسول وغيرتهم عليه<sup>(٥)</sup> ، وكان النبي إذا استَحَرَّ القتال جلس تحت راية الأنصار كما فعل يوم أحد<sup>(٦)</sup> ، وكان أعداء الإسلام إذا هجوا النبي والمسلمين خصموا بني النجار بالهجاء ، يقول عمرو بن العاص - في يوم أحد قبل أن يسلم - :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا	مع الصبح من رَضْوَى الحبيك المنطِقُ
تمت بنو النجار جهلاً لقاءنا	لدى جنب سَلْعِ والأمانِ تَصَدُّقُ
فما راعهم بالشرا إلا نجاة	كراديس خيل في الأزقة تَمَرِّقُ
أرادوا لكيا يستبيحوا قباينا	ودون القباب اليوم ضرب مُحَرِّقُ
وكانت قباينا أومنت قبل ما ترى	إذا رامها قوم أبيضوا وأحنقوا
كأن رهوس الخزرجيين غُدْوَةٌ	وأيمانهم بالمشرية بَرَوْقُ <sup>(٧)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٣٨/٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ - ٧٥ (٤) الرنن الأنف للسبيل ١٢/٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ - ٧٥ و ١١٢ والمعارف ٢٤ و ٣٨ و ٤٢ .

(٦) سيرة ابن هشام ١٩/٣ .

(٧) سيرة ابن هشام ١١٠/٣ الفيفا : الفيفا وهي الأرض المففرة . الحبيك : الذي فيه

طرائق . المنطق : الخزوم جيداً . سلع : جبل أو موضع قريب من المدينة . القباب : جمع قبة .

أحنقوا : غيظوا . بروق : شجرة ضعيفة تشبه البصل .

ويقول ابن الزُّبَيْرِ في رثائه قتلى أحد من المشركين :

وَجَمَعَ بَنِي النَّجَارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقَعِينَ نَجِيعٍ <sup>(١)</sup>  
فيرد عليه حسان بقوله :

وَحَامَى بَنُو النَّجَارِ فِيهِ وَصَابَرُوا وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللَّقَاءِ جَزُوعٌ <sup>(٢)</sup>  
ويقول ابن الزُّبَيْرِ أيضاً :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بَدَرُ شَهْدُوا جَزَعَ الْخُرْجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ <sup>(٣)</sup>  
فيرد عليه حسان أيضاً <sup>(٤)</sup> .

هذه النصرة لا يهيبُ لها إلا مجتمع يقدر الخال . ويميز ابن الأخت ، لأنه معدود من القوم .

ويؤيد ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا الأنصار فقال : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا . فقال : ابن أخت القوم منهم <sup>(٥)</sup> . وكان النبي بقولته الحكيمة مترجماً عن شعوره ، وعن شعور العرب جميعاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قول الأحنس بن شَرِيْقِ قَبِيلِ مَوْقَعَةَ بَدْر — وكان أعرابياً حليفاً لبني زهرة — : يا بني زهرة قد نجيَّ الله غيركم ، وخلص أموالكم ، وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك نبيا فأتتم أسعد به ، وإن يك كاذباً بلي قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا ، واجعلوا جنبها بي . . . فأتاعوه ، ولم يشهد بدر أحد من بني زهرة ، وكانوا مئة أو ثلاث مئة <sup>(٦)</sup> .

ولقد يتجلى إعزاز الخال لابن أخته في إثارة بالمكرمة والحمدة ، من ذلك أن رجلاً من بني سعد اسمه طاححة كان له إبل أغار عليها جيرانه بنو ربيعة بن

(١) سيرة ابن هشام ١٠٦/٣ (٢) سيرة ابن هشام ١٠٨/٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ وطبقات الشعراء ١٩٩ تحقيق شاكر .

(٤) سيرة ابن هشام ٩٨/٣ (٥) فتح الباري ٤٠٢/٦ .

(٦) المغازي للواقدي ٣٧ .



عَجَل ، فَأَتَى الْأَسْوَدَ بْنَ يَمْفَرٍ ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ إِبِلَهُ الَّتِي اغْتَصَبَهَا جِيرَانُهُ - وَهُمْ  
أَخْوَالُ الْأَسْوَدِ - فَقَالَ الْأَسْوَدُ لِأَخْوَالِهِ :

يَا جَارَ طَلْحَةَ هَلْ تَرُدُّ لَبُونَهُ فَتَكُونُ أَدْنَى لِلْوَفَاءِ وَأَكْرَمًا  
تَاللَّهِ لَوْ جَاوَرْتُمُوهُ بِأَرْضِهِ حَتَّى يَفَارِقَكُمْ إِذَا مَا أَجْرَمَا  
فَبِعَثْ بَنُو عَجَلٍ يَابِلَ طَلْحَةَ إِلَى الْأَسْوَدِ ، وَقَالُوا : أَمَا إِذْ كُنْتَ شَفِيعَهُ نَفَذْنَا  
وَتَوَلَّ رَدَهَا ، لَتَحْرُزَ الْمَكْرَمَةَ عِنْدَهُ دُونَ غَيْرِكَ <sup>(١)</sup> .

وَيَتَجَلَّى أَيْضًا فِي أَنْ يُوَثِّرَ الْبَقِيَّةَ عَلَى الشَّخْصِ مِنْ تَصَلُّهِ بِأَمِّهِ قَرَابَةً مِنْ بَعِيدٍ ،  
ذَلِكَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ هِنْدٍ وَجَّهَ طَرَفَهُ بِكِتَابٍ إِلَى عَامِلِ الْبَحْرَيْنِ بِأَمْرِهِ فِيهِ بِقَتْلِهِ ،  
فَقَالَ لَهُ الْعَامِلُ : هَلْ تَعْلَمُ مَا أَمَرْتُ بِهِ فِيكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَمَرْتُ أَنْ تَجِيزَنِي ،  
وَتَحْسِنَ إِلَيَّ . فَقَالَ لَطَرَفَهُ : إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ خَنْوَلَةٌ ، أَنَا لَهَا رَاعٍ حَافِظٌ ، فَاهْرَبْ  
مِنْ لِيَانِكَ هَذِهِ ، فَإِنِّي قَدْ أَمَرْتُ بِقَتْلِكَ <sup>(٢)</sup> .

### نَصْرَةُ لَوْلَدٍ لِحَاوِسٍ

تَبَادُلُ الْخَالِ وَابْنِ أُخْتِهِ النَّصْرَةَ ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا يَعْزُ الْآخَرَ وَيَعْتَزُّ بِهِ ، وَإِذَا  
كَانَ الْخَالُ يَرَى فِي ابْنِ أُخْتِهِ وَلَدَهُ ، فَإِنَّ الْوَلَدَ كَانَ يَرَى فِي خَالِهِ أَبَاهُ ، وَيَعْرِفُ  
لَهُ حَقْوَقَهُ . يَقُولُ الْمَرْقَشُ الْأَكْبَرُ فِي رِثَائِهِ لِابْنِ عَمِّهِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَوْفٍ ، وَاسْتَعْطَافَهُ  
مَا سَكَ مِنْ آلِ جَفْنَةَ - هُوَ الَّذِي قَتَلَ عَوْفًا - : إِنْ قَوْمَهُ خَنْوَلَةٌ هَذَا الْمَلِكُ ،  
فَحَقُّ لَهُمْ أَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِمْ :

فَنَحْنُ أَخْوَالُكَ عَمْرُوكَ وَالْخَالُ لَهُ مَعَاظِمٌ وَحُرْمٌ <sup>(٣)</sup>

لِذَا كَانَ الْخَالُ أَحْيَانًا يَكُلُّ لِابْنِ أُخْتِهِ أَنْ يَثَّارَ لَهُ إِذَا قَتَلَ ، فَقَدْ جَدَّ تَأْبَطُ  
شَرًّا فِي الثَّارِ لِحَالِهِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ يَثَّارَ لَهُ ابْنُ أُخْتِهِ إِذَا هَلَكَ :

(١) الْأَغَانِيُّ ١١/١٣١ .

(٢) شَرْحُ الْمَعْلَمَاتِ السَّبْعِ لِابْنِ الْأَزْبَارِيِّ ١٩ مَخْطُوطٌ .

(٣) الْمَفْضِلِيَّاتُ ٢/٤٠ : عَمْرُوكَ : أَقْسَمُ بِحَيَاتِكَ .

إِن بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لِقَتِيلًا دَمَهُ مَا يُبْطَلُ  
 خَلْفَ الْعَبَاءِ عَلَيَّ وَوَلِيِّ أَنَا بِالْعَبَاءِ لَهُ مُسْتَقَلٌّ  
 وَوَرَاءَ الثَّأْرِ مَنِّي ابْنُ أُخْتِ مَصْعَعٍ عَقْدَتُهُ مَا تُحْلَلُ  
 مُطْرَقٌ يَرِشِحُ سَمَا كَمَا أَطْرَقَ أَفْعَى يَنْفِثُ السَّمَّ صِلَ<sup>(١)</sup>  
 وَكَثِيرًا مَا حَقَّقَ أَيْنَاءُ الْأَخْتِ أَمَلُ أَخْوَالِهِمْ فِي الثَّأْرِ لِهِمْ ، كَمَا ثَارَ تَأْبِطُ شَرَا  
 لِحَالِهِ ، وَكَأَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ لِحَالِهِ :

مَنْ مَبْلُغٌ أَفْنَاءُ مَذْحِجٍ أَنِّي ثَارَتْ خَالِي ثُمَّ لَمْ أَتَأْتُمْ<sup>(٢)</sup>  
 بَلْ لَقَدْ يُوْثِرُ ابْنُ الْأَخْتِ أَخْوَالَهُ عَلَى عَشِيرَتِهِ ، وَيَشْتَفِي بِالثَّأْرِ مِنْهَا لِأَخْوَالِهِ ،  
 يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ وَبَنِي الْعَجْلَانَ اقْتَتَلُوا ، فَقَتَلَتْ بَنُو جَعْفَرِ  
 رَجُلًا مِنْ بَنِي الْعَجْلَانَ ، وَرَضِيَ هَؤُلَاءُ أَنْ يَأْخُذُوا دِيَةَ قَتِيلِهِمْ ، فَعِيرَهُمُ الْقِتَالُ  
 الْكَلَابِيُّ - وَهُمْ أَخْوَالُهُ لِأَنَّ جَدَّتَهُ أُمُّ أَبِيهِ عَجْلَانِيَّةٌ - وَقَالَ :

إِذَا مَا لِقَيْتُمْ عُضْبَةَ جَعْفَرِيَّةً كَرِهْتُمْ بَنِي اللَّكْمَاءِ وَقَعَّ السَّنَابِكُ  
 فَلَسْتُمْ بِأَخْوَالِي فَلَا تَصْلُبُنِّي وَلَكِنَّمَا أُمِّي لِإِحْدَى الْعَوَاتِكِ  
 قَتَلْتُمْ فَلَمَّا أَنْ طَلَبْتُمْ عُقْلَتُمْ كَذَلِكَ يُؤْتَى بِالذَّلِيلِ كَذَلِكَ<sup>(٣)</sup>  
 وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَنْفَعُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ قَدْرِ أَخْوَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُنْقُصُ  
 الصَّقِ النَّاسَ بِهِ ، فَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ بِحَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ أَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ عَمْرَةَ الْأَوْسِيَّةَ ،  
 غَضِبًا لِأَخْوَالِهِ إِذْ بَخَسْتَهُمْ أَقْدَارَهُمْ ، وَأَفْضَلَتْ الْأَوْسُ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَثْنِهِ عَنْ  
 تَسْرِيحِهَا أَنْ كَلَّا مِنْهُمَا كَانَ مَعْجَبًا بِصَاحِبِهِ وَحُبًّا لَهُ . وَكَأَنَّمَا لَمْ يَشْفِ الطَّلَاقُ  
 غَضَبَهُ ، فَأَخَذَ يَفْخَرُ بِأَخْوَالِهِ ، لِيَجُوهَا مَا مَسَّهِمْ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَلِيَسْمُوهُمْ عَلَى قَوْمِهَا  
 الْأَوْسِ . قَالَ فِي ذَلِكَ :

(١) شرح الحماسة للجزيري ١٦٠/٢ ورسالة الغفران للمعري ٥٤٥ الشعب : الطريق  
 في الجبل . سلع : جبل أو مكان بقرب المدينة . لا يطل : لا يهدر . مصعع : ثابت شديد  
 القتال . مطرق : ناظر بعينه إلى الأرض . صل : خبيث من الأفاعي .  
 (٢) الحماسة للجزيري ٤٣  
 (٣) الأغاني ١٦١/٢٠

لا يكن حبك حبا ظاهراً ليس هذا منك يا عمر بسيرة  
 سألت حسان من أخواله إنما يسأل بالشئ الغمر  
 قلت أخوالى بنو كعب إذا أسلم الأبطال عوارتِ الذبُر  
 رب خال لى لو أبصرته سبَطِ المشية فى اليوم الخِصر<sup>(١)</sup>

### الفخر بالخال والمدح به

من الطبيعي إذاً أن يزدهى الولد بخاله ، وأن يشيد به فى مجال المباهاة . ولقد  
 يشفع خيلاه بخاله إلى نغاره بأبيه وأجداده ، كقول عوف بن الأحوص :  
 ولكن نلت مجد أب وخال وكان إليهما ينمى العلاء<sup>(٢)</sup>  
 وقول قصى :

عبدٌ يناديهم بهابٍ وهبى أمهتى خندِفٌ وألياس أبى  
 حيدرةً خالى لقيطٌ وعلى وحاتم الطائى وهاب المي<sup>(٣)</sup>  
 وقول الزبير بن عبد المطاب لأخيه العباس وقد أقعده فى حجره صغيراً ،  
 وأخذ يفتى له ، مفتخراً بأعمامهما وأخوالهما :  
 أكرم بأعراقك من خال وعم<sup>(٤)</sup> .  
 وقول حسان بن ثابت :

جدى أبو لىلى ووالده عمرو وأخوالى بنو كعب<sup>(٥)</sup>  
 وهذا الضرب من الفخر كثير<sup>(٦)</sup> .

(١) ديوان حسان ٥٢ والأغاني ١٤/٣ سر : حسن الغمر : غير الحرب . سبط  
 المشية : كريم العمل . الخصر : البارد يريد وقت الجذب .

(٢) المفضليات ١٧٣/١ ينمى . يرتفع

(٣) لسان العرب ٣٦٤/١٧ هاب وهبى : زجر للخيل لتقدم فى الحرب .

(٤) الأملى ١١٥/٢ (٥) ديوان حسان ١٥ .

(٦) البيان والتبيين ١٥٨/٢ و ٢٥٩/٢ وديوان حسان ٩٩ .

وكان الشخص يمدح بعراقة خاله ، كما يمدح بشرف أبيه ، قال الأسود بن يعفر في ابنه الجراح :

فأباه جراح ذؤابة دارمٍ وأخوال جراح سرة بنى نهد<sup>(١)</sup>  
وجاء في وصف المنذر الأكبر للجارية التي سبها في غارته على الحارث  
الأكبر الفسائي ، وأراد أن يهدبها إلى أبو شروان : « كريمة الخلال ، تقتصر  
بنسب أبيها دون فصيتها ، وبفصيتها دون جماع قبيلتها<sup>(٢)</sup> » وأحيانا كان  
الخلال يمدح ابن أخته بأنه يزدان بمفاخر أخواله ، وهو بهذا يجمع المدح والنخر  
معاً ، كقول سلمة بن الخزشب يمدح ابن أخته الربيع بن زياد العبسي ، وقد هم  
قوم بمحاربتة :

أتيتم إلينا ترخنون جماعةً فأين أبو قيس وأين ربيع ؟  
وذاك ابن أخت زانه ثوب خاله وأعمامه الأعمام وهو نزيح  
رفيق بدء الحرب طبب بصعبها إذا شئت رأى القوم فهو جميع<sup>(٣)</sup>  
وكان التجني ربما يحدث على مضمض من عريق الأخوال والآباء ، أما من  
غيره فإنه مرة لا يذاق ، وشار لا يغضى عنه ، يقول أعرابي :

فلو أني بليت بهاشمي خمولته بنو عبد المدان  
صبرت على أذيتيه ولكن تعالي فانظري بمن ابتلاني<sup>(٤)</sup>  
على أن بعض الأبطال الذين انحدروا من آباء معرقين وأمهات شريفات قد  
خايلا بمجدهم الذي كسبوا ، وبمجدهم الذي ورثوا ، يقول عامر بن الطفيل :

فإني وإن كنت ابن فارس عامر وفي السر منها والصریح المهذب

(١) الأغاني ١١/١٣٣ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢/١٥١ .

(٤) حماسة الخالدين ١٦٤ مخطوط .

فما سودتني عامرٌ عن وراثته أبي الله أن أسمو بأب ولا أب<sup>(١)</sup>

### اثأر من خال

مأزق ضيق حرج أن يضطر الولد إلى الترجيح بين أبيه وخاله ، أيهما ينصر على الآخر ؟ ومن أيهما يثأر للآخر ؟

وليس يخلصه من هذا المأزق إلا أن يستوحى فطرته ، فيجد الأب أقرب لحمة ، وأعظم نعمة ، وأنه العصبه التي يحمل اسمها ، فيؤثر أباه على خاله ، ويثأر من خاله لأبيه . فقد ثأر الهجرس بن كليب التغلبي من خاله جساس ، وكان قد قتل أباه وهو جنين ، ثم وضعت أمه بين قومها ، فلما شب قتل خاله ثأراً لأبيه ، فلم يقبُح ما فعل<sup>(٢)</sup> ، وقال في ذلك :

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي أمثلُ أمرى بين خالي ووالدي  
وأوردتُ جَسَّاسَ بنَ مَرَّةٍ غُصَّةً إذا ما اعترتني حَرُّها غير بارد  
وقال :

با للرجال لقلب ما له آس كيف العزاء وثأرى عند جساس؟  
ولما قتل خاله قال أيضاً :

ألم ترني ثأرت أبي كليبا وقد يرُجى المرشح للذُحُول  
غسلت العار عن جُشَمِ بنِ بكر بجساس بن مرة ذى التُّبول<sup>(٣)</sup>

ثم قد يتلى الشخص بوثر له عند خاله الذي قتل أخاه ، فيحار ، ويتردد ، ويسأل نفسه : أيهما أولى بأن يبقى عليه ؟ وأيهما أحق بأن بغضى عنه ؟ وتتنازعه في ذلك التوازع ، فيجئح أحياناً إلى الشفقة على أمه حتى لا يضاعف نكبتها

(١) ديوان عامر القصيدة ١ من الملاحق . Lyall .

(٢) رسالة الغفران للعمري ٥٤٥ تحقيق عائشة عبد الرحمن .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ٤٨٩ والمستطرف ١/١٩١ .

بفقد ابنها وأخيها ، ولسكنه يحسم هذا التردد بأن يثار ، هكذا فعل توبة بن مضرّس السعدى ، إذ قتل خاله بأخيه ، وقال :

بكت جزعا أمى رُمَيْلَةً أن رأت      دما من أخيها فى المهنّد باديا  
فقلت لها لا تجزعى إن طارقا      همى الذى كان الخليل المصافيا  
وما كنت لو أعطيت ألفى نجبية      وأولادها كغواً وستين راعيا  
لأقبأها فى طارق دون أن أرى      دما من بنى عوف على السيف جاريا  
وما كان فى عوف قتيل عامته      ليوفينى من طارق غير خاليا<sup>(١)</sup>

### الصبر على أذى الخال

على أن الرجل قد يصفح عن مساءة خاله ، المساءة التى لا وتر فيها لأب أو أخ ، لأنه موقن أن فى القصاص منه إيلا ما لنفسه ، فكأثما يقطع كفه . يقول المتأس فى صفحه عن أخواله ، وتصوير المشاعر التى احتجزته عن القصاص منهم :

ولو غيرُ أخوالى أرادوا تقيصتى      جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وما كنت إلا مثل قاطع كفه      بكف له أخرى فأصبح أجذما  
يداه أصابت هذه حِقْفَ هذه      فلم تجد الأخرى عليها مُقَدِّما  
فأما استنقاد الكف بالكف لم يجد      دراكا لها فى أن تبين فأحجبا  
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى      مسافا لتأبىه الشجاع لضمّا<sup>(٢)</sup>

وقليلا ما كان الأخوال يعتدون على ابن أختهم ، كما اعتدى بنو سعد على ابن أختهم غسان بن رعدة ، أو كما اعتدى على النمر بن تولب أخواله ، وأغاروا على

(١) الوحشيات لأبى تمام ٦٧ مخطوط ورسالة الغفران ٥٤٥ والمختلف والمؤتلف للأمدى ٦٨ لغو : ما لا يعتد به فى المعاملة وكانوا لا يحتببون أولاد الإبل الصغار فى الذية . لذلك يقول الشاعر ( كما ألغيت فى الذية الحوارا ) .

(٢) الوحشيات لأبى تمام ٩٥ مخطوط . أجذم : مقطوع الكف . حقف : أصل . استنقاد . أراد أن يتنقم ويقتص . دراكا : بدا . الشجاع : الثعبان .

إبله ، فتنهّب به الظنون شتى المذاهب ، ويركن أخيراً إلى أنهم عدوا عليه؛ لأنه  
لا عصبية له ، ولا أعمام أماجد ، قال غسان أو النمر :

إذا كنت في سعد وأملك منهم      غريباً فلا يفررك خالك من سعد  
فإن ابن أخت القوم مُصنّئ إنأؤه      إذا لم يزاحم خاله بأب جلد<sup>(١)</sup>

### التعبير بالخال

إذا كانت للخال هذه المنزلة فإن ابن أخته يعير به كما يعير بأبيه ، لأنه أحد  
أصليه ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم في هجاء النعمان ، يعيره لؤم خاله وصناعته :

لحى الله أدنانا إلى اللؤم زُلْفَةً      والأمنسا خالا وأعجزنا أبا  
وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله      يصوغ القروط والشنوف بيثرباً<sup>(٢)</sup>  
وقول عامر بن الطفيل :

وأنت لسوداء المعاصم جَعْدَةٌ      وأقعس من نسل الإماء العوارك  
أبوك أبو سَوْءٍ وأملك مثله      وهل تشبهن إلا أباك وخالك<sup>(٣)</sup>

### الخال في ال-م-م

ظلت الخثولة في الإسلام رابطة قوية تشد ما بين الأفراد ، وتشد ما بين  
القبائل ، واستغلتها السياسة ، وأفلحت في استغلالها . فمثلا نصر بنو كلب - من  
اليمين - معاوية على عليّ ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم ، وقد تاطخت أصابعها  
بدمه حين مقتله ، ولأن معاوية تزوج منهم أم يزيد . وقد ناصروا يزيد أيضاً ،  
لأنهم أخواله . وكان خالد بن يزيد متعصباً لكلب على قيس في الحرب التي  
نشبت بينهم ، لأن الكلبيين أخوال أبيه وأخوال زوجته ، فقال شاعر من قيس :

(١) شرح الحماسة للبريزي ٤٠/٢ وأساس البلاغة مادة صغى .

(٢) الأغاني ١٧٨/٩ زلفة : منزلة .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٣٥ .

يا خالد بن أبي سفيان قد قدَحَتْ منا التلُوب وضاق السهل والجبل  
 أنت تأمر كلباً أن تقاتنا جهلاً وتمنعهم منا إذا قُتلوا؟<sup>(١)</sup>  
 وكانت مناصرة الأخوال في الإسلام أمراً متواضعاً عليه ، وإن لم يتصل  
 بالسياسة ، يدل على ذلك قول غسان بن ذهيل في هجاء جرير :

ستعلم ما يُفني مُعيدٌ ومُعريضٌ إذا ما سَلِطَ غَرَقْتُكَ بحورها<sup>(٢)</sup>  
 ثم جاء العصر العباسي فناصر الفرس المأمون على الأمين ، لأن أمه منهم ،  
 وكان المعتصم يؤثر الترك ، ويُجندُّ منهم ، ويقدمهم على الفرس ، لأن أمه تركية .

### عقوق الأمهات

ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة الماكرة ، فإنها تريد أن  
 تستأثر بزوجها ، كما استأثرت أمها بأبيها ، أو كما حاولت أن تستأثر .  
 وعزيز على الأم التي حملت وأرضعت وربت وأملت ، وكانت نَجِيَّةً ولدها  
 ومفرزة في مساءته ، وشريكه في حبرته ، وكان ريحانة نفسها وسر سعادتها ،  
 عزيز عايبها أن تنتزعه منها هذه الفتاة الطارئة انتزاعاً فجائياً قاسياً لا يجامل  
 ولا يتدرج . وهنا يقع الابن في الحيرة ، وتصطرع في نفسه عاطفتان قويتان ،  
 فيحسم الخلاف بحسن سياسته ، ويحاول أن يخمد النار كلما بدا من خلل رمادها  
 وميض ، أو ينجح إلى ناحية من الناحيتين .

وإذا ما جرح إلى زوجته عق أمه ، فآلقها في أتون متسع من الهم  
 والحسرات . يقول عروة في شكواه من أصحابه الذين أحسن إليهم وأساءوا إليه  
 إنه وإياهم كالأم وابنها العاق ، حملته وفدته وربته وناطت به آمالها ، فلما كبر  
 وحق لها أن تنتظر نفعه وشكره تزوج ، فقرب دونها فتاة جميلة تتكحل وتزين

(١) الأغاني ١٦ / ٨٨ .

(٢) النفاض ٧ معيد : جد جرير لأمه . معرض : من أخواله .



لتجذبه ، فهامت أمه ، وبانت تصيح وتتألم مما نالها ، وإيها لخيرى بين أمرين  
 ما من أحدهما بد ، وما فى أحدهما راحة ، أن تفقد ولدها وهذا لا يطاق ، وأن  
 تصبر وتتجدد وهذا أيضا لا يطاق ، وإلكنه مر المذاق :

فإنى وإيام كذى الأم أرهنت له ماء عينيها تُفدّى وتحمّل  
 فلما ترجّت نفعه وشبابه أتدونها أخرى جديداً تكحلّ  
 فبانت لحدّ المرفقين كليهما تُوحّوحُ مما نالها وتولول  
 تحيّر من أمرين ليسا بعبطة هو الثمكل إلا أنها قد تجمّل<sup>(١)</sup>

وليس من الطبيعى أن يكون الأولاد جميعا بررة ، بل الطبيعى أن يشذ  
 بعضهم ، فيسىء إلى أمه وأبيه ، ولو أن الشعر صمت عن هذه المساءة أو صور  
 الأبناء كهم أختياراً لكان قد كذب أو قصر .

هذه أم ثواب الهزانية نذكر تربيتها لابنها ، وتتوجع من عقوقه لها ، وإساءته  
 إليها ، وتنظر إليه بقلب الأم وعينها ، فترى طفولته وتتذكرها ، وتدهش من  
 لحيته ولّمته . ثم تشير إلى أمر تكتمه فى نفسها ، أو هو ينفلت منها على غير  
 إرادة ، ذلك أن كتّبتها هى التى أوغرت صدره ، وزينت له أن يضرب أمه ،  
 ويمزق ثوبها . على أنها تتظاهر بالعطف عليها وإن كانت تود إهلا كها :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه أمّ الطعام ترى فى ريشه زغباً  
 حتى إذا أض كالفرخ شذبه أبارهُ ونقى عن متنه الكربا  
 أنسا يمزق أثوابى ويضربنى أبردستين عندى يبتغى الأدبا؟  
 إنى لأبصر فى ترجيل لّمته وخسطّ لحيته فى وجهه عجا  
 قالت له عرسه يوماً لتسمنى رفقا فإن لنا فى أمنا أربا

ولو رأيتني في نار مسعرة من الجحيم لزادت فوقها خطبا<sup>(١)</sup>  
 وقد صور أبو العلاء ما يختلج في نفس بعض الأمهات أحيانا من تخوفها سوء  
 عشرة كسنتها لها ، وإيثارها أن يشغل ابنها نفسه بطلب المجد عن الزواج ،  
 وتحذيرها إياه إغراء الخاطبات الخادعات :

عليك السابغات فإيهنَّه<sup>(٢)</sup> يدافعن الصوارم والأسنه

.....

فخنَّ إلى المكارم والمعالى ولا تثقل مطاك بعبء حنَّه  
 فإني قد كبرت وما كعاب ملائمة عجوزاً مُقسِّئنه  
 ترى تنوُّمها وترى نغامي فمهبزاً من منبيلة مسنه  
 إذا حاورتها نبذت حواري وإلا تُلف لي ذنبا تجنَّه<sup>(٣)</sup>

والخطيئة مثل سائر في هجائه لأمه - وإن كان قد هجا نفسه وزوجته وأباه -  
 فهل كان مرجع هجائه لأمه أنه شاعر ساخر ذو شر وسفه لا يبالي أين وقع مقاله ،  
 ولا يرعى حرمة نفسه ، ولا حرمة غيره ؟

أو كان سبب هجائه لأمه راجعا إلى عقدة نفسية ، وهذه العقدة هي التي  
 أضمرت في نفسه المجازفة بالقول ، وجعلته لا يبالي ؟

أرجح أن هذا هو السبب ، وأرجح هذه العقدة النفسية إلى أنه مجهول  
 النسب ، لا يعرف أباه معرفة يقين ، لأنه من أولاد الزنا . وقد سأل أمه من أبوه  
 نخطت عليه ، فقال :

(١) شرح الحماسة للبرزى ١٤٣/٢ وثمار القلوب في المضاف والنسب للتهالبي  
 ٢٠٥/١ وتهذيب الكامل ١٨٣/١ أعظمه أم الطعام : أكبر ما فيه بطنه . الفحال : فحل  
 الخلل . الأبار : المتقح للنخل . الكرب : أصول السعف . ترجيل لثته : غسل شعره وتمشيطة  
 ورواية التهالبي للبيت الأول : أطمعه أم الطعام . وفسر أم الطعام بالخطبة .  
 (٢) شرح التنوير على سقط الزند ٢٩٣/٢ مقسئنه : يابسة من الكبر . تنومها :  
 شعرها الأسود الشبيه بشعر شجر التنوم . النعام : نبت يشبه الشعر الأبيض . منبيلة : عجوز  
 تمشى في ضعف . تجنه : تتجنى وتدعى على ذنبا لم أفعله .  
 (٣) (١٠) المرأة في الشعر الجاهل

تقول لى الضراء لست لواحد ولا اثنين، فانظر كيف شرُّك أولك  
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضلته هُيَلتَ ألما تَسْتَفِقُ من ضلالكا؟  
لذلك كان نسبه متدافعا بين القبائل ، فينتهي إلى واحدة إذا غضب على  
الأخرى ، فأنا يدعى أنه ابن عمرو بن علقمة ، وحينما ينتسب إلى بنى ذهل بن  
ثعلبة ، وتارة يعترى إلى بنى عبس ، وآونة يلتصق ببني الأقمم .

ثم إن أمه تزوجت — بعد أبيه ، والحطيئة كبير — بالكلب بن كنيس ،  
وهو ابن أمة ، وولد زنا أيضا<sup>(١)</sup> . أعتقد أن تخليط أم الحطيئة عليه في نسبه ،  
وجعله أباه الحقيقي ، واضطراره إلى الالتصاق بأناس شتى ، وأن زواج أمه  
برجل مجهول النسب أيضاً ، وخزيمها له في كبره ، أعتقد أن ذلك بابل خواطره ،  
ومزج بالسخط حياته . وركب في نفسه احتقار أمه ، وامتهان نفسه ، وكل عزيز  
عليه . يقول في هجائها وهجاء زوجها :

ولقد رأيتك في النساء فسوتني وأبا بنيك فساءني في المجلس  
وقال أيضاً :

جزاك الله شرا من عجوز ولقائك العقوق من البنين  
فقد مُلِكتِ أمر بنيك حتى تركتهم أدقَّ من الطحين  
لسانك مبرد لا خير فيه ودرك دَرٌّ جاذبة دَهين<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا :

تنحى فاجلسى عنى بعيداً أراح الله منك العالمينا  
أغرِّبالاً إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا  
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ١٦٠/٢ - ١٦٤

(٢) درك : لبنك . جاذبة : ناقة لا تدر . دَهين : ناقة قليلة اللبن لا تدر .

(٣) كانون : ثقيلة .

وله في هجائها وهجاء غيرها شعر كثير (١) .

وقال سعد بن قرط من بني جذيمة يهجو أمه :

يأليت ما أمنتـا شالت نعامتها      إيما إلى جنة إيما إلى نار  
تلتهم الوسق مشدودا أشظته      كأنما وجهها قد طلى بالنار  
ليست بشعبى ولو أوردتها هجرا      ولا برياً ولو قاظت بذي قار (٢)  
على أن عقوق بعض الأبناء لم يقتصر على الأمهات ، بل تعدى إلى الآباء ،  
يقول المنازل بن الأعراف يتشكى من ابن عاق اسمه خليج :

تظلمنى مالى خليج وعمى      على حين كانت كألحنى عظامى

وكنت أرجى الخير منه ، وأمه      حرامية ، ماغرني بحرام ؟

وربيته من بعد ذا فرحاً به      فلا يفرحن بعدى أب بغلام (٣)

ويقول أمية بن أبى الصلت فى ابنه :

غذوتك مولوداً وعلتك يافما      تُعلُّ بما أحنى عليك وتنهل  
إذا ليلة نابتك بالشكر لم أبت      لشكواك إلا ساهراً أتمل  
كأنى أنا المطروق دونك بالذى      طرقت به دونى فعينى تهمل  
تحاف الردى نفسى عليك وإنها      لتعلم أن الموت وقت مؤجل  
فلما بلغت السن والنياية التى      إليها مدى ما كنت منك أو مل  
جملت جزأى غلظة وفضاظة      كأنك أنت المنعم المفضل  
وسميتنى باسم المنفئد رأيه      وفى رأيك التنفيذ لو كنت تعقل

(١) الأغاني ١٦٢/٢ والعقد الفريد ٢٢٢/٣ وخزانة الأدب ١٧٥/٢ ونجم الأمثال

. ١٤٢/١

(٢) شرح الحماسة للبربرى ١٧٥/٤ شالت نعامتها : ماتت . إيما : أصله إيما . الوسق : ستون صاعاً . الأشظة : جمع شظية وهي الفلقة من عصى ونحوها . هجر : بلد باليمن كثير التمر . قاظ : أقام فى القَيْظ وهو الحر . ذو قار : موضع .

(٣) معجم الشعراء ٥١ الحقي : القسى .

فليتك إذ لم ترع حق أبوقى فعلت كما الجار المجاور يفعل<sup>(١)</sup>  
وكذلك يشكو أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز<sup>(٢)</sup> .  
وإذا فقد كان عقوق الأمهات نادراً ، وكان العقوق — على ندرته —  
يصيب الأمهات والآباء ، ولو أنه أصاب الأمهات وحدهن لكان معناه أن  
الأم أقل في نظر بنيتها مكانة من الأب ، أو أقل عزازه .

## الفصل الثاني

# الزوجه

المصاهرة رباط بين المتصاهرين :

ما من شك في أن المصاهرة كانت لحة قوية بين الأفراد والعشائر، تقوى ما بين الأقرباء وتقرب ما بين البعداء، وتطفى نار العداوة والشحناء، لأنها صلة جديدة مختارة من شأنها أن تمزج المتصاهرين .

يقول خالد بن يزيد بن معاوية : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير، حتى تزوجت منهم رملة، فصاروا أحب خلق الله إلى<sup>(١)</sup>، وفيها يقول :  
أحب بني العوام طراً لحبها . ومن حبها أحبيت أحوالها كلها<sup>(٢)</sup>  
وقد استعطف عدى بن زيد العبادى النعمان بن المنذر بمصاهرته له، لأنه كان زوج أخته كما ذكر العلماء من أهل الحيرة، أو زوج ابنته هند كما ذكر رواية العرب، وفي استعطافه يقول :

أَجَلَ نَعْمَى رَبِّهَا أَوْلَكُمْ وَذُنُوبَى كَانَ مِنْكُمْ وَاصْطَبَارَى  
وفي تهديد النابغة لعمر بن هند مضطرب الحجارة قوله : إننا لا بد أن نقابل  
شرك بمثله، وإن كنت قد ذكرت ما بيننا من مصاهرة ومودة :  
تَجْزِيكَ إِنْذَاراً بِمَا أَنْذَرْنَا وَذَكَرْتَ عَطْفَ الْوَدِّ وَالْإِضْهَارِ<sup>(٤)</sup>

(١) بلوغ الأرب ٧/٢

(٢) الأغاني ١٦/٨٦

(٣) الأغاني ٣/١٣ . أجل : نصب على نزع الحائضى من جل . ربهما : تعاماً

(٤) ديوان النابغة ٤٣

## الزوجة المثلى :

عنه الرجل أن الزواج شركة في الحياة ، وأساس لعشرة طويلة ، ولحمة وثيقة بينه وبين من يصاهر . وعلم أيضاً أن الزوجة سكنه ، ومتاعه ، وقسيمته في إنتاج أولاده ، يرثون منها كما يرثون منه ، وينتطمعون على كثير مما تطعمهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة ؛ لذلك تحير الزوجة جهده ، وكانت الزوجة المثلى ممتازة بصفات تحبها إلى الرجل .

١ - بعض هذه الصفات راجع إلى حسبها وشرف قومها .

وليس الحسب في نظر العربي هو الغنى ، وإنما هو الحمد وحسن الأحدثنة ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن به ثراء أم لم يقترن .

يدل على ذلك أن قيس بن زهير سيد عبس وبطلها طلب من النمر بن قاسط من ربيعة أن يختاروا له زوجة أذلها الفقر وأدبها الغنى <sup>(١)</sup> . وشيبه به قول خالد ابن صفوان لرجل : « اطلب لي بكراً . . . قد عاشت في نعمة ، وأدركتها حاجة ، نفلت النعمة فيها ، وذل الحاجة معها <sup>(٢)</sup> »

لذلك أوصى أكرم بن صيفي قومه بقوله : « لا يكفكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف <sup>(٣)</sup> » وهو يريد شرف أبنائه . وامتن أبو الأسود الدؤلي على بنيه بقوله : أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقيل أن تولدوا . قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن <sup>(٤)</sup> »

ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فمرز هذه الفكرة بقوله : « احتفظوا لنطفكم فإن العرق نزع » . وقال : « وإياكم وخضراء الدمن » قيل : ما خضراء

(٢) اللطائف والظرائف للشمالي ٦١

(١) العقد الفريد ٣/٢١١

(٣) نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٢ ومحاضرات الأدباء ١١٧/٢ ومجمع

(٤) إسماع الصم في إنبات الشرف من قبل الأم ٤ مخطوط

الأمثال ٢/٢١٨

الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء<sup>(١)</sup> . «

وجرى المسلمون على حكمته ، فقد أوصى عثمان بن أبي العاص الثقفي بنيه بتخير زوجاتهم وأصهارهم ، وضرب لهم من نفسه مثلاً : « يا بني إني أجدتكم في أمهاتكم . . والنالكح مفترس ، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينبج ولو بعد حين<sup>(٢)</sup> »

ولما خطب عبد الله بن الزبير مبشراً بفتح إفريقية في مجالس عثمان بن عفان أعجب به أبوه الزبير فقال : « يأيتها الناس انكحوا النساء على آباءهن وإخوتهن فإنني لم أر لأبي بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا<sup>(٣)</sup> » .

لا عجب إذاً في أن افتخر بعض الأزواج بحسب زوجاتهم ، لأن في حسيهن ، شرفاً لأزواجهن . من ذلك أنه كانت ملاحاة بين لقيط بن زرارة ورجل من بيته اسمه زيد ، فعيره زيد أنه لم يتزوج ، لأن الأ كفاء يرغبون عنه ، فخطب إلى قيس ابن مسعود ، فلما زوجه قال :

ألم يأت زيدا حيث أصبح أننى تزوجتها إحدى النساء المواجد  
عقيلة شيخ لم يكن لنا لها سوى عُدُسى من زُرارة ماجد  
إذا اتصت يوماً بنسبتها اتهمت إلى آل مسعود بن قيس بن خالد  
وعير عامر بن الطفيل خصومه بأنهم حقراء لا يتسامون إلى الخطبة من  
الكرام ، ولا إلى أن يخطب إليهم أحد ، لذلك تعُدُّس بناتهم ولا يخطبن :  
لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيمهم ولما تُخطب<sup>(٤)</sup>  
وإذا فالزوجة نبعة من قومها ، تشر مثل ثمرهم ، وتتخلق بأخلاقهم ، وأبناؤها  
صورة منها ، لهذا يقول أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز في عقوق بنيه وشراسته  
زوجته :

(١) كثر العماء ٢٨٨/٨ ومحاضرات الأدباء ١١٧/٢ (٢) البيان والتبيين ٢/٦٧

(٤) ديوان عمر القصيدة ٨ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١/٤٠٦



إِن بَنِي لَيْسَ فِيهِمْ رِثَةٌ وَأُمَّهُم مِّثْلَهُمْ أَوْ أَشْرُهُ  
إِذَا رَأَوْهَا تَبِعْتِي هَرَوَا (١)

ويقول رافع بن هُرَيم في عتاب أبناء إخوته إنيهم أختة لأنهم ورثوا عن أمهم الخسة :

عفاريتنا على وأخذ مالي وعجزا عن أناس آخرين  
فهلأ غير عمكم ظلمتم إذا ما كنتم متظلمينا  
فلو كنتم لكيسة أكاست وكيس الأم أكايس للبنينا  
ولكن أمكم حمت فحتم غثائنا ما نرى فيكم سمينا (٢)

وكانت المرأة نفسها بصيرة بذلك ، فقد أتى رجل إلى ابنة الخس يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت : انظر رمكاء جسيمة ، أو بيضاء وسيمة ، في بيت جد أو بيت حد أو بيت عز . قال : ما تركت من النساء شيئا (٣) .

وقد أمر النبي بإيثار المرأة ذات الخلق القويم والتدين ، قال : « تنكح المرأة لأربع : نالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك (٤) »  
وزوج عمر بن الخطاب ابنه عاصما بنت امرأة تبع اللهن ، لأن خلقها أعجبه (٥)  
٢ — وبعضها راجع إلى أوصافها الجسدية والنفسية ، وقد فصلت هذا ، ووضعت نموذج الجمال في نظر الرجال ، في كتاب آخر (٦) ويكفي أن أذكر هنا قول لقيط بن زرارة في وصف زوجته :

كأن رضاب المسك دون لثائها على شميم من ماء مُزَنَّة بارد  
لها بشر صافي الأديم كأنه لجين تراه دون حمر الجاسد

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٦

(١) معجم الشعراء ١٦

(٣) الأمالي ٢/٢٥٦ رمكاء : سمراء .

(٤) فتح الباري ١/١١٥ واللطائف والظرائف للتعالي ٦١ وعبون الأخبار ٤/١

(٥) بجم الأمثال ٢/١٠٢ (٦) الغزل في العصر الجاهلي ٢١ - ١٢٥ .

إذا ارتفعت فوق الفراش حسبتها شريحة نبع زينت بالقلائد<sup>(١)</sup>  
 ٣ - وهم آثروا الشابة البكر على الثيب ، ولعابهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤة  
 لم يزايلها صدفها ، وراعوا أنها أسلس قياداً ، وأيسر انطباعاً ، وأكثر نسلاً وولادة ،  
 وهم يعرفون بالمشاهدة أن الرجل أبعد أمداً في النسل من المرأة « فبى تنقطع عن  
 الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر<sup>(٢)</sup>

لذلك قال الحارث بن كلدة : لا تزوجوا من النساء إلا الشباب<sup>(٣)</sup> .

وقد خدع جهنم في امرأة من بنى قتمس اسمها قامة ، فباع إبله ، ومهرها ،  
 فلما دخل بها وجدها عجوزاً ، فقال :

وما لمتُ نفسي مذ فطمت بلحية كملت نفسي في عجوز بنى شمس  
 فبانت - ولم أغب - غداة اشتريتها وبعث تلاد المال بالثمن البخس  
 فإن مات جهنم غيلة فاقتلوا به قمامة إن النفس تقتل بالنفس<sup>(٤)</sup>

والشعراء مكثرون من الوصاة بتجنب العجوز والأيم ، كقول أحدهم :  
 لا تنكحن الدهر ما عشت أيتما محرمة قد مل منها وملت  
 تجود برجليها وتمنع درها إذا طلبت منها المودة هرت<sup>(٥)</sup>  
 ويقول آخر :

لا تنكحن عجوزاً إن أتيت بها واخاع ثيابك عنها ممعنا هرباً  
 وإن أتوك فقالوا إنها نصف وإن أمثل نصفها الذى ذهب

(١) أمثال العرب للضي ٢١ (٢) الحيوان للجاحظ ٥/٢٠٨ .

(٣) مظالم البدور ٢/٢٧ .

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ في الأصل فبتت ، ورجح مصححو الكتاب أن هذا تعريف  
 صوابه فبت . لكن هذا لا يتفق مع المعنى ، لأن الشاعر يذكر أنه فرقها غداة دخوله بها  
 مسروراً لم يشعر بحسرة على ماله ، لأنه فتم بالملاس منها . لهذا رجحت أن يكون التصويب  
 ( فبانت ) أى طلقها أو يكون ( فبتت ) أى قطعت صلتي بها .

(٥) شرح الحماسة للبريزى ٤/١٩٧ مخزومة : دعا عليها أهل زوجها السابق أن

تنكحها المنية .

وقد شدد النبي عليه الصلاة والسلام في اختيار البكر<sup>(١)</sup> . وروى عن عمر قوله : « انكحوا الجوارى الأبكار ، فإنهن أطيب أفواها ، وأنتق أرحاما<sup>(٢)</sup> » . وقال النبي لجابر بن عبد الله لما أخبره أنه تزوج ثيبا : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » والمراد بالجارية البكر<sup>(٣)</sup> .

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة ، لأن الناس يسلكون ذلك في استيلاء الحيوان ، ليحصلوا على نسل قوى ممتاز . وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين ، وينتهي بالأربعين ، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين<sup>(٤)</sup> .

٤ — وهم يحبون المرأة الولود ، وكان هذا من بواعث إيثارهم للشابة البكر ، لأنهم كانوا يفرحون بكثرة الأولاد — ولا سيما الذكور — ويعتزون بهم ويكاثرون ، وهم طالما خيلوا بكثرة عددهم ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنضرة والحروب ، وفي كثرة العدد عز ومنعة ، وفي قلته ضعف واستهانة ، لذلك كانت القبيلة تهنا وتقيم العرس لثلاث : غلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج<sup>(٥)</sup> . يقول عمرو بن كلثوم :

ملاأنا البرحتى ضاق عنا      وظهر البحر نملؤه سفينا

وكان الرجل يعتمد في نصرته على بنيه أولا ، يقول الأشهب بن رُمَيْلة أو نهشل بن حَرِيّ :

قال الأقارب لا تفرك كثرتنا      وأغن نفسك عنا أيها الرجل

(١) فتح الباري ج ٩ وكنز العمال ٢٨٥/٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/٧ .

(٢) كنز العمال ٢٨٨/٨ وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال ٧٦ أنه حديث .

(٣) فتح الميدي ١٧٨/٢ وفتح الباري ١٠٤/٩ والسنن الكبرى للبيهقي ٨٠/٧ .

(٤) جمهورية أفلاطون ١٣٢ - ١٣٤ .

(٥) العمدة لابن رشيقي ٣٧/١ .

عَلَى بَنِي يَشْدُ اللَّهُ أَعْظَمَهُمْ وَالتَّبَعُ يَنْبُتُ قَضَابَانَا فِي كَهْلٍ<sup>(١)</sup>

لهذا كان من الأسباب التي بغض بها زهير بن أبي صرد عينة بن حصن في مجوز استمسك بها من سبى هوازن ولم يطلقها كما أطلق رسول الله والمهاجرون والأنصار سبيهم قوله له : والله ما فوها ببارد ، ولا تديها بناهد ، ولا بدنها بوالد<sup>(٢)</sup> .

وتأبى أئونة المرأة إلا أن تستعان في تفضيلها المرأة الولود وإن كانت مثناة ، تقول ابنة أُلُحْس : أفضل النساء . . . متوركة جارية ، في بطنها جارية ، تتبعها جارية<sup>(٣)</sup> .

وقد أكد النبي هذا الميل بحضه على إيثار الزوجة الولود ، جاءه رجل فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال النبي : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم<sup>(٤)</sup>

ولم يصرفهم عن المرأة الولود إلى العاقر أن العاقر أخوف من الضرة ، فهي أرى للزوج ، حتى تليبه بتعلها عن عقمها ، فلا يمنح إلى زواج غيرها ، يقول الممقر البارقي في وصف الخليل :

يَفْرَجُ عَنَّا كُلَّ نَعْرِ مَخَافَةٍ      مَسِيحٌ كَسْرَحَانَ الْقَسِيمَةَ ضَامِرٌ  
وَكُلُّ لُجُوجٍ فِي الْعِنَاقِ كَأَنَّهَا      إِذَا اغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَخَاءَ كَاسِرٌ  
لَهَا نَاهِضٌ فِي الْوَكْرِ قَدْ مَهَّدَتْ لَهُ      كَمَا مَهَّدَتْ لِلْبَعْلِ حَسَنَاءُ عَاقِرٌ  
تَخَافُ نِسَاءً يَبْتَدِرْنَ حَلِيلَهَا      مُحْرَدَةٌ قَدْ حَرَدَتْهَا الضَّرَائِرُ<sup>(٥)</sup>

(١) البيان والتبيين ٤٧/٣ (٢) سيرة ابن هشام ١٣٧/٤ (٣) الأمل ٢٥٧/٢ .

(٤) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣٤١/٣ وكثر العمال ١٨٥/٨ .

(٥) الأغانى ٤٤/١٠ مسيح : جواد سريع . سرحان : ذئب . العناق : الإسراع .

اغتمست في الماء : بللها عرقها من شدة عدوها . فتخاء : عقاب . كاسر : منقضة مفترسة . ناهض : فرخ أو شك أن يطير .

وقد شاركهم اليهود في حب النسل ، وكانت كثرته تلوح أعظم ما يمن به  
 (يهوه) على الرجل ، وكان عقم المرأة يعد عاراً<sup>(١)</sup> . يقول السموءل بن عادياء  
 مدافعاً عن قلة عددهم :

تعيّرنا أنا قليلٌ عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل<sup>(٢)</sup>

٥ — ومن كمال الزوجة أن تكون أريبة لقنة فصيحة ، لتبشر بأن ابنها  
 سيكون كذلك . فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لثفاء ، مخافة أن تلد له  
 ولداً أثلغ ، ولم تفتنه بأن تبخر في ثيابها الموشاة فتنسيه لثفها ، قال :

لثفاء تأتي بحبيّسٍ أثلغ تيسُ في الموشىِّ والمصَّبِ<sup>(٣)</sup>

ويزعمون أن امرأ القيس آلى ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة  
 . وثنتين ، فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر ، فينما هو  
 يسير ليلاً إذا برجل يحمل ابنة له صبية كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فسألها  
 سؤاله ، فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما ثنتان  
 فتدنيا المرأة . فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها<sup>(٤)</sup> .

وهذه القصة تحمل في طياتها بواعث الشك فيها ، فلست أعقل أن يخطب  
 امرؤ القيس ويتزوج صبية لما يزل يحملها أبوها ، ولست أعقل أن يقصد  
 امرؤ القيس في اختياره لمن يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإنغاز ، الذي  
 لا يتهدى إلى مرماه إلا مخترعه ، وأرجح أنها قصة موضوعة لتعليم الفروق  
 اللغوية ، وللدلالة على أن اللغة تخص هذه الأنداء بكلمات مختلفة ، ثم إنها

(١) اليهود في تاريخ الحضارة ٤٩ (٢) ديوان السموءل ٨ .

(٣) البيان والتبيين ٥٧/١ وغيون الأخبار ٧/٤ وفيه نسب الشعر لزياد .

(٤) الأغاني ٧١/٨ ساسي وبجم الأمثال ٢/٢١١ .

مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة ، تدل على ذكاء هذه العبية وقدرتها على التمييز<sup>(١)</sup> .

### صفات مذمومة في الزوجة :

١ — تحاموا المرأة الحقاء ، لأنها تلد الحقى ، جاء فى وصية أ كثم بن صيفى إلى طيبى : « وإياكم ونكاح الحقاء ، فإن نكاحها غرر ، وولدها إلى ضياع<sup>(٢)</sup> » ، وكذلك قال الحارث بن كعب لبنيه : « إياكم والورهاء ، وتجنبوا الحرقاء » . وفى الحديث الشريف : « لاتزوجوا الحقاء ، فإن صحبتها بلاء ، وفى ولدها ضياع » و « لاتسترضعوا الحقاء فإن لبنها يغير » وقال عمر بن الخطاب « لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا<sup>(٣)</sup> » .

٢ — وتحاموا ضربا من النساء يخدع مظهره ، ويسوء مخبره ، هذا الضرب هو النسوة اللاتى منحن وسامة وقسامة ، لكنهن نشأن فى بيئة لاتغذى بأخلاق فاضلة . يقول أ كثم بن صيفى : « لا يغابنكم جمال النساء على صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف<sup>(٤)</sup> » ويحس الشاعر أن الخسة قد تأتى من الأم والخالة لأن وراثته الشر قوية فيقول :

فأدر كنته خالانته فخذلته ألا إن عرق السوء لا بدمدرك<sup>(٥)</sup>

وشبيه بهذه الثرية الناشئة فى لؤم وخسة ، وقد نفر منها أ كثم بن صيفى فى وصيته لابنه ، « يا بنى إياك واختيار الثيمة بما عندها من المال ، فإن المال يذهب به ، ويبقى فى حالك اللؤم الذى لا يفنيه شئ<sup>(٦)</sup> » .

(١) الأغاني ٧١/٨ .

(٢) بجم الأمثال ١١٨/٢ غرر : تعرض للضرر .

(٣) السنن الكبرى للبيهق ٤٦٤/٧ والمبسوط للسرخسى ١١٩/١٥ ونزهة الأبصار

والأسماع ٣٢ .

(٤) محاضرات الأدباء ١١٧/٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢ وجهرة الأمثال ٤ .

(٥) جهرة الأمثال ٥

(٦) نزهة الأبصار ٣٢ .

ثم أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله ، « إياكم وخضراء  
الدمن<sup>(١)</sup> » يريد المرأة الحسنة في المنبت السوء ، كالنبات المعجب الذي نبت على  
البحر ، يروق ظاهره ، وليس في باطنه خير ، لأن عرق السوء لا بد أن يظهر .  
٣ - وكانت المرأة الثيب غير محببة إليهم في الأعم الأغلب ، وكذلك  
المرأة المتماضة ، والغنية التي تمن بما لها ، وغير المتصونة .

قال رجل لولده . « يا بني لاتخذها حنّانة ولا أنانة ولا مماناة ولا عشبة الدار  
ولا كية التقا<sup>(٢)</sup> » ، ينهاه عن المرأة الثيب التي تمن إلى زوجها الأول ، أو التي  
لها ولد من غيره فهي تمن عليهم . وينهاه عن التي تمن من غير علة ، لأنها  
إما مترفة مبالغة في ترفها ؛ وإما خبيثة تتمارض لأرب في نفسها ، أو هي التي مات  
عنها زوجها ، فكلما رأت زوجها الثاني أنت . وينهاه عن ذات المال التي لاتقتأ  
تذكر زوجها بما قدمت له وابنيه من خير . وينهاه عن الحسنة في بيثة فاسدة .  
وينهاه أخيراً عن المرأة التي تناولها الألسنة ، فإذا قام زوجها من المجلس قالوا :  
فعلت كذا وكذا ، وكان بينها وبين فلان كذا .

على أن الثيب كانت تشتهر أحياناً بعراقة أو بجمال ، أو خلق كريم ومال ،  
أو تجتذب الرجال بجمالة ما فتزوج مرات . وهم يضربون المثل بأم خارجة ،  
فيقولون : أسرع من نكاح أم خارجة ، كما قالوا ولدت في العرب في نيف  
وعشرين حيا ، من آباء شتى ، وكان الرجل يقول خطب ، فتقول زكح<sup>(٣)</sup> ،  
حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها كثير من الناس لكان قد  
قارب<sup>(٤)</sup> ، على أن المفضل الضبي ذكر أنها تزوجت خمس مرات فحسب<sup>(٥)</sup> ،  
وابن حبيب ذكر أنها تزوجت أكثر من ثمانية رجال<sup>(٦)</sup> .

(١) كنز للعالم ٢٨٨/٨ (٢) المحاسن والأضداد ١٦٩ والأمال ٢٥٦/٢

(٣) تهذيب السكامل ١١٧/٢ .

(٤) محاسن النساء لابن هاشم ٦٦ مخطوط .

(٥) أمثال العرب للضبي ١١ (٦) المجر ٣٥ لابن حبيب .

وكثيرات من النساء غير أم خارجة قد أُرِدْفَنَ ، منهن مارية بنت الجَعْمِيدِ ، ذكر ابن حبيب أسماء أزواجها ، وعددهم عشرة ، ودختنوس بنت لقيط بن زرارة تزوجت ثلاثة ، وهند بنت عتبة تزوجت ثلاثة أيضاً<sup>(١)</sup> ، والسيدة خديجة بنت خويلد تزوجت قبل المصطفى مرتين<sup>(٢)</sup> ، وضباعة بنت عامر بن قرط تزوجت ثلاثة<sup>(٣)</sup> . وقد استنبطت من رسالة المردقات لأبي الحسن المدائني ثمانى وعشرين مردفة في الجاهلية .

وكذلك أُرِدْفَتْ كثيرات في الإسلام ، كأم هشام بنت عبد الله بن عمر ابن الخطاب<sup>(٤)</sup> ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، أُرِدْفَتْ خمسة رجال<sup>(٥)</sup> ، وتزوجت أم كلثوم بنت عتبة أربع مرات<sup>(٦)</sup> ، وجميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول تزوجت أربع مرات<sup>(٧)</sup> .

ولكن الميل العام كان للبكر كما سبق ، في الجاهلية والإسلام . ويدل على ذلك أيضاً قول الجاحظ : إن الزواج بالثيب كان قبيحاً في العصر الأموي والعباسي<sup>(٨)</sup> .

٤ — ومن عيوبها تقطيب الجبين ، والصَّخَبَ ، والصُّجَاجَ ، والمشاراة . قال شيخ من بني سليم لابنه : يا بني إياك والفضوب القطوب<sup>(٩)</sup> ، وقالت ابنة الخسّ شر النساء الشؤيداء المراض ، الكثير المظاظ<sup>(١٠)</sup> .

وخير تصوير لذلك قول عبد الله بن أوفى الخزاعي في امرأته :

- 
- (١) المحرر ٤٣٥ - ٤٥٥ . (٢) الإصابة ٨ / ٦٠ .  
 (٣) الإصابة ٨ / ١٣٣ . (٤) الأغانى ١١ / ١٣٨ .  
 (٥) الأغانى ١٦ / ١٢٧ وأسد الغابة ٥ / ٤٩٩ ونزهة الأبصار ١٤ والإصابة ٨ / ١٣٧ والاستيعاب ٢ / ٧٦٨ .  
 (٦) المردقات من قريش لأبي الحسن المدائني ٥١ من نوادر المخطوطات .  
 (٧) الإصابة ٨ / ٤٢ . (٨) رسالة الفيات ٥٩ .  
 (٩) بلوغ الأرب ٢ / ٢٢ .  
 (١٠) الأمالي ٢ / ٢٥٦ المظاظ : المشارة والشاقة .



نصحت ابنة المنتصى نكحةً على الكره ضررت ولم تنفع  
 ولم تُقن من فاقة مُعدماً ولم تُجد خيراً ولم تجتمع  
 مُنجدةً مثل كلب المِراش إذا هجع الناس لم تهجع  
 مُفرقة بين جيرانها وما تستطيع بينهم تقطع<sup>(١)</sup>

### الزوجات الغريبات

١ - كان العرب يجرون على نظام الزواج من العشيرة، ومن غير العشيرة، لكنهم كانوا يؤثرون الاغتراب، لأنهم يرون أن ولد الرجل من قرابته يحىء ضاويًا نحيفًا، قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد:

ذاك غبيدٌ قد أصاب ميا ياليتَه ألقها صبيًا  
 فحملت فولدت ضاويًا<sup>(٢)</sup>

وفي أمثالهم: النزاع لا القرائب. قال ابن السكيت: النزيمة، الغريبة، لأن الغريبة أنجب. ويقال اغتربوا لا تزواوا، أى انكحوا فى الأبعاد حتى لا يولد لكم ضاوى، قال الشاعر:

فى لم تله بنت عم قريبة فيضوى وقد يضى رديد القرائب  
 تعلم من أعمامه البأس والندى وورثه الأخوال حسن التجارب  
 هو ابن غريبات النساء وإنسا ذوو الشأن أبناء النساء الغرائب<sup>(٣)</sup>  
 وقال آخر فى تخيره زوجة غريبة:  
 تَنَحَّيْتُهَا لِلنَّسْلِ وَهِيَ غَرِيبَةٌ نَجَّاتْ بِهِ كَالْبَدْرِ خِرْقًا مَعْمًا<sup>(٤)</sup>

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٤٢ ابنة المنتصى : زوجته التى وطئها مرة واحدة .  
 منجدة : مجرب ما عندها . المِراش : تحريش كلب بكلب . إذا هجع الناس لم تهجع : تمامة .

(٢) لسان العرب ١٩ / ٢٢٥ .

(٣) مجمع الأمثال ٠ / ٢٧٠ ولسان العرب ١٩ / ١٢٥ وجمهرة الأمثال ١٥ والمأثور الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ وحماسة المالحدين ١٣٥ مخطوط والتنبية على أوام أبي على فى أماليه ١٢٤ .

(٤) حماسة المالحدين ٦٥ مخطوط والبيان والتبيين ٣ / ٦٨ ولسان العرب ١٩ / ٢٢٥ .  
 تنحى : اعتمد ورواية البيان : تنحيتها أى اخترتها . خرق : كريم الخليفة . معمم : سيد .

وقال آخر :

أنذر من كان بعيد المم تزويج أولاد بنات العم  
فليس بناج من ضوى وسقم وأنت إن أطعمته لا ينمى<sup>(١)</sup>  
وقال غيره .

ألا فتى نال العلا بهمه ليس أبوه با بن عم أمه  
ترى الرجال تهتدى بأمه<sup>(٢)</sup>

وافتخر شاعر بأن أمه غريبة :

مكننى بيت رفيع وجرأة وخال كعُربان النجوم نزع<sup>(٣)</sup>

وقد جرى المسلمون على هذا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأمر باختيار  
الغربيات مخافة ضعف النسل « اغتربوا لا تضووا<sup>(٤)</sup> » ، وعمر بن الخطاب ينظر  
إلى قوم من قریش صغار الأجسام فيقول : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قرب أمهاتنا  
من آبائنا ، فيقول : صدقتم ، اغتربوا . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا<sup>(٥)</sup> . وقال جرير  
فى ابنه بلال :

إن بلالا لم تشنه أمه لم يتناسب خاله وعمه<sup>(٦)</sup>

على أن بعضهم كان يؤثر بنات العم ، لأنهن فى زعمه أصبر على ريب الزمان  
و نُبوة الخلق . ومن هؤلاء بنو عبس ، وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر ؟ قالوا :  
بنات العم<sup>(٧)</sup> .

(١) محاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ وتاج العروس ١٠ / ٢٢١ والإمتاع والمؤانسة  
للتوحيدى ١ / ٩٤ .

(٢) تاج العروس ١٠ / ٢٢١ أمه : قصده .

(٣) المعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ خال كعربان النجوم : واضح النسب شهير  
كالنجم السافر .

(٤) لسان العرب ١٩ / ٢٢٥ وتاج العروس ١٠ / ٢٢١ ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧

(٥) كنز العمال ٨ / ٢٨٨ ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ والعقد الفريد ٣ / ٢٢٤

وعيون الأخبار ٤ / ٣ .

(٦) ديوان جرير ٥٣٣ . (٧) عيون الأخبار ١ / ١٩٧ .

( ١١ المرأة فى الشعر الجاهلى )

وهذا النظام الذى سار عليه العرب فى الاغترب يشبه ما كان سائداً فى بعض الدول المسيحية الأوروبية ، إذ كانت تحرم التزاوج بين أولاد الأعمام والعرات ، والأخوال والخالات ، وما زال العرف الأوروبى — بعد إباحة الزواج بهن — يفضل غيرهن عليهن<sup>(١)</sup> .

والسبب الذى زين للعرب أن يعترفوا هو عقيدتهم أن الاغترب يقوى النسل جسمياً وعقلياً وأن الاقتراب يضعفه ، فهل هذا صحيح ؟ نعم لأنه إذا كان فى الأسرة ضعف موروث ، فإنه يتفاقم .

وقد تنبه القدماء لهذا ، يقول الجاحظ : « ورأينا الخلاسى من الناس — وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء — ، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومشمريه<sup>(٢)</sup> » .

وذهب أبو العباس — وكان يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع — إلى أنه لا يكون الخط إلا فى نتاج شكلين متباينين ، فالتقاؤهما هو الإسير المؤدى إلى الخلاص ، وهو إن تزواج بين هندية وخراسانى ، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز<sup>(٣)</sup> .

وقد دلل على صواب ذلك أبو حيان التوحيدى بأن تراب الأرض إذا حوّل وقاب زكت الزروع . فإذا كان الاغترب يؤثر من التراب إلى التراب فالأولى أن يؤثر الإنسان فى الإنسان بالاغترب ، لأن الإنسان أيضاً من تراب<sup>(٤)</sup> .

ثم جاء العلم الحديث فعزز ما عرفه العرب بالتجربة ، ذلك بأن الوراثة فى رأى كثير من العلماء أعظم مؤثر فى الحياة ، بل هى مجرى الحياة نفسه ، لأن كل كائن حى نتاج أبوين<sup>(٥)</sup> . وما أصدق قول منتانى : يالها من قوة خطيرة

(١) الأسرة والمجتمع ٤٧ .

(٢) الحيوان ١ / ١٥٧ .

(٣) الحيوان ١ / ١٤٨ .

(٤) الإمتناع والمؤانسة ١ / ٩٥ .

(٥) The Science of living things. Heredity By Eldon

Moore P. 455

تلك القطرة المنوية الدقيقة التي تتكون منها ، فتنقل إلينا صفات آباءنا الجسمية وأفكارهم وميولهم<sup>(١)</sup> .

وليس بين العلماء شك في انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد ، فإذا تزوج اثنان أحدهما أبيض الشعر والآخر أحمر الشعر نسلًا وليدًا كُميت الشعر . وإذا تزوج من هذا النسل اثنان نسلًا واحدًا أحمر الشعر واثنين كُميتين وواحدًا أبيض ، أى أن اثنين نزعا إلى الجدين واثنين نزعا إلى الأبوين . وقد انتهى مندل Mendel من بحوثه إلى أن كلا من الأبوين يمنح الطفل خلاياه ، وأن خلاياها تصطحب في طفلهما اصطحابًا متقاربا ، وما الطفل والكائن الحى إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة في الأب والأم<sup>(٢)</sup> . ولقد تظهر الصفات الوراثية في السلالة البعيدة بعد أن اختلفت أجيالا ، وهذه هي الوراثة غير المباشرة<sup>(٣)</sup> .

وكثير من العلماء على أن الصفات العقائية والخلقية تورث أيضا ، سواء منها الصالح والطالح ، كالذكاء والحلم والكرم والورع ، وكالجنون والعتة والجنين والحجل المفرط والميل إلى العبارة أو الانتحار<sup>(٤)</sup> .

وإذا فقد كان العرب على صواب في إشارهم الاغتراب في الزواج . يقول العالم النفسى إلدن مور Elden moore ، يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه أو عمته أو خاله أو خالته ؛ لأن هذا الزواج الداخلى قد يسبب ضعفاً في الجسم أو العقل ، أو يجر بعض الأمراض كالسل وغيره . والسبب الذى يوجب الحذر في الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدي الصحة والعقل كان النسل مثابها ، وإذا كانا ضعيفي الجسم أو غيبين أو بهمانقص ما نسلًا أولادًا ضعافًا أو مُخَدَجين<sup>(٥)</sup> .

(١) في التربية ١٥٥ على عبد الواحد .

(٢) The Science of living things. p. p. 466-467

(٣) Ebid P. 470 (٤) في التربية ١٣٤ .

(٥) The Science of living things. P. 484

وقد تبين مما سبق أن الصفات الموروثة بعضها مباشر يرجع إلى الوالدين ، وبعضها غير مباشر يرجع إلى الأجداد ، فالخليفة تقضى بإيثار الزواج الخارجى نجوة من تأثير صفات مستكنة مجهولة تضرب إلى الأصول .

أما الخلاسيون « فمن الخطأ الزعم أنهم يحملون أسوأ صفات الجنسين ، لأن الدراسة تبين أنهم أحماء وأقوياء ، كالجالية الصينية الإنجليزية فى ليفر بول وبعض جزر الهند الصينية <sup>(١)</sup> .

على أن لاغتراب العرب بواعث آخر ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصالهما برباط من المودة والتخالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف . والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الأحدثوة ، ثم إن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جمالهن وجاذبيتهن ، لأنه ألفت أن يراهن ، ولكن بعد الغريبات عنه يضىف عليهم سحرا وجاذبية .

وقد ذهب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى تعليل آخر ، فذكر أن السبب فى ضعف الولد من التريبة أن شهوة أبيه إلى أمه ضعيفة ، لأن الإحساس بالنظر واللمس يقوى بالأمر التريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، ولا تنبعث به الشهوة <sup>(٢)</sup> .

ولكن هذا التعليل لا يقره العلم كما سبق ، ثم هو مردود بأن الرجل يتزوج الغريبة ويألفها بعد حين ، كما كان يالف القريبة قبل الزواج .

لم يقف اغتراب العرب عند الزواج من قبيلة أخرى ، بل تعداه إلى الزواج من أمم أخرى ، وأنا أريد بالزواج هنا الاتصال بين الرجل والمرأة .

١ — فكانت الزوجة فى كثير من الأحيان حبشية ، وكان للعرب ميل خاص إلى الحبشيات ، يدل على ذلك قول أبى حازم المدنى :

(١) Ibid. P. 483

(٢) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٢٢ .

ومن يك معجبا بينات كسرى فإني معجب بينات حام  
وقول الأصمى لرجل : أى الرجال أخف أراوحا؟ قال : الذين أعرقت  
فيهم السودان . وقول على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلى  
مهرها <sup>(١)</sup> . وساعدهم على هذا كثرة الإماء من الحبشة ، وحسن رأيهم فى  
الخبشيات ، حتى لقد كان اليمينيون يؤثرون الخبشيات وبنات الخبشيات  
فى زواجهن <sup>(٢)</sup> .

ولم يكن هذا الميل ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيرا من  
العرب فى الجاهلية أمهاتهم خبشيات ، فأم عنتره زبيدة وهى أمة حبشية <sup>(٣)</sup> ،  
وأم خفاف بن عمير أمة سوداء اسمها نذبة وإليها نسب <sup>(٤)</sup> . وكانت بركة أم أيمن  
مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد  
الخرزجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبى من زيد بن حارثة فولدت أمانة <sup>(٥)</sup> ،  
وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن أيضاً ، وهى حبشية كانت خادما لأم حبيبة ،  
وقد ترجم لها ابن حجر <sup>(٦)</sup> ، ويذكر صاحب المحبر عدة من الخبشيات زوجات  
وأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف ، وولدت نضلة بن هاشم ونفيل  
بن عبدالعزيز وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حبة كانت لجابر بن حبيب ،  
وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب  
بقوله يا بن السوداء ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من  
قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ،  
وأم معمر بن عثمان التيمى ، وأم التماس الضبي ، وأم عثمان بن الحويرث الخ <sup>(٧)</sup> .

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٠ .

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥ .

(٣) الأغاني ٧ / ١٤١ والمحبر ٣٠٦ .

(٤) الأغاني ١٦ / ١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢ .

(٥) الإصابة ٨ / ٣١٢ .

(٦) الإصابة ٨ / ٢٧ .

(٧) المحبر لابن حبيب ٣٠٦ - ٣٠٩ .

ب - وتزوجوا بروميات ، كسمية ، فهى رومية الأصل سبأها اليشكري ووهبها للحارث بن كلدة ، وكان يطؤها بملك اليمين ، فولدت له نافعاً ثم نفعياً ، ثم وهبها لزوجته صفية الثقفية ، فزوجتها عبداً رومياً لها يقال له عبید ، فولدت له زيادا ، فأعتقته صفية<sup>(١)</sup> ، ثم خلف عليها الأزرق ، فولدت له سامة<sup>(٢)</sup> .

ج - لكنهم لم يتزوجوا بفارسيات ، لأن الفرس كانوا لا يزوجون بناتهم للعرب في الجاهلية<sup>(٣)</sup> ، ولكن بعض الإماء والقيان كن فارسيات ، وكن يستولدن . وقد ألف على بن محمد المدائني كتاباً سماه ( كتاب من تزوج مجوسية<sup>(٤)</sup> ) .

وكانما أراد العرب أن يثأروا في العصر الأموي لترفع الفرس عليهم في الجاهلية ، فلم يرتضوا الفرس أزواجاً لبناتهم ، تحقيراً لشأن الأعاجم ، كما سيحىء في كفاءة الزوج . ثم انسكب المسلمون على الزواج بالفارسيات في العصر الأموي والعباسي ، حتى أتمجد كثيراً من الخلفاء والأمراء من أمهات غير عربيات<sup>(٥)</sup> .

د - على أن بعضهم عاب الزواج بالنبطيات ، يدل على ذلك أنه كان في شيهم بن ذى النابين فشل وضعف رأى ، فأتى أرض النبط في نفر من قومه ، فهوى جارية نبطية حسناء ، فتزوجها ، فنهأ قومه ، وقال أخوه محارب :

لم يَعدْ شِيَهْمُ أن تزوج مثله فَمَا كَشِيَهْمَةَ علاها شيهم  
ورسوله الساعى إليها تارةً جَعَلْ وطوراً عَضْرَ فوطُ مَاجَمَ  
ولم يكن في قومه إلا ساخر به عائب له<sup>(٦)</sup> . ولعل مراد ذلك إلى أن العرب كانوا يرون النبط أهل زراعة واستقرار وخضوع للحكام<sup>(٧)</sup> ، ولا يدينون بعصبية

(١) الإصابة ٨ / ١٩ (٢) الإصابة ٨ / ١١٤ .

(٣) مروج الذهب ١ / ١٩٦ . (٤) معجم الأدياء ١٤ / ١٣٣ .

(٥) الخبر لابن حبيب ٤٥ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أمه فارسية . إبراهيم ابن الوليد بن عبد الملك أمه أم ولد . مروان بن محمد أمه كردية . أبو جعفر المنصور أمه بربرية . موسى وهارون ابنا الرشيد أمهما جرشية . المأمون أمه باذغسية الخ . . . .

(٦) مجمع الأمثال ١ / ١٥٥ شيهم : قنفذ . جعل : دوية كالنفساء . عضر فوط : ذكر العطاء وهو كسام أبرص ، وقى زعمهم أنه من دواب الجن وركائبهم .

(٧) هؤلاء غير الأنباط الذين كانت لهم دولة بالشام .

كما يدين العرب في الجزيرة ، ولا يعترفون بأنسابهم مثلهم . يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب: تعلموا الأنساب، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدكم عن أصله قال: أنا من قرية كذا<sup>(١)</sup> وقوله: تَمَعَدُوا ولا تستنبطوا ، أى تشبهوا بَمَعَدٍ ، ولا تشبهوا بالنبط في سكنائها واتخاذ العقار والمالك . ويدل على ذلك أن رجلاً قال لآخر: يا نبطي . فقال لاحدّ عليك ، كلنا نبط . يريد الجوار والدار دون الولادة . وفي كلام أيوب بن القرية: أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا<sup>(٢)</sup> .

### الزوج الكفء في نظر المرأة وآلها .

بالغ العرب في تخيير الأزواج لبناتهم ، ودققت الفتيات في اصطفاء أزواجهن ، كما تحرى الرجال - فيما سبق - زوجات متمتات بصفات خاصة .

وكانت الفتاة وآلها يهشون للمخاطب الكفء ويابون خطبته ، ولا يردونه . بذلك نصح حصن بن حذيفة بن بدر أبناءه في قوله: «أنكحوا الكفء الغريب ، فإنه عزّ حدث<sup>(٣)</sup>» وأوصى قيس بن زهير النمر بن قاسط بعد أن تزوج منهم وجاورهم بقوله: «لا تردوا الأكفاء عن النساء فتخرجوهن إلى البلاء ، فإن لم تجدوا الأكفاء تخير أزواجهن القبور<sup>(٤)</sup>» وقال الأحنف بن قيس: ثلاثة لا أناة فيهن عندي . قيل: وما هن يا أبا نجر؟ قال: .... وأن تنكح الكفء أيتك<sup>(٥)</sup>» وكان يقال: لأفغى تحكك في ناحية بيتي أحب لي من أيم رددت عنها كفتنا ، وما بعد الصواب إلا الخطأ ، وما بعد منعين من الأكفاء إلا بذلن للسفلة والغوغاء<sup>(٥)</sup> .

(٢) لسان العرب مادة نبط .

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ .

(٣) أمالي المرتضى ٢ / ١٦٨ .

(٤) العقد الفريد ٣ / ٢١١ وأمالي المرتضى ١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٩٩ .



أما الشروط التي راعتها المرأة وراعاها قومها في الزوج فإنها تدور كلها حول الكفاءة لهذه المصاهرة .

١ - فالزوج الشاب أثير مستحب ، لأنه أدنى إلى الزوجة سناً ، وأشبه بها خلقاً وميلاً ، ولأنه في ريعانه وعنفوانه . لذلك رفضت الخنساء أن تتزوج بدريد ابن الصمة لما خطبها ، لأنها تبينت أنه هرم ، ولم يثبها أبوها عن رفضها<sup>(١)</sup> . وحاول أخوها معاوية - وكان صديقاً لدريد - أن يرغبها فما استطاع ، وفي ذلك تقول :

أَتَكْرَهُنِي - هُبَلْت - عَلَى دُرَيْدٍ      وَقَدْ أَصْفَحْتُ سَيْدَ آلِ بَدْرِ  
مَعَاذَ اللَّهِ يَرْصَعُنِي حَبْرُ كَيْ      قَصِيرِ الشَّبْرِ مِنْ جُشْمِ بْنِ بَكْرِ<sup>(٢)</sup>  
فغَيْظُ دَرِيدٍ وَهَجَاها ، وَتَمَنَى أَلَّا تَتَزَوَّجَ زَوْاجًا سَعِيداً<sup>(٣)</sup> .

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمة بن خصفة الطائى - وكان الحارث شيخاً - قال علقمة لأم الجارية : أريدى ابنتك على نفسها . فقالت لها : أى بنية أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاج ، الواصل المنناخ ، أم الفتى الواضح ؟ قالت : لا بل الفتى يا أماء :

إِنَّ الْفَتَاةَ تَحِبُّ الْفَتَى      كَحَبِّ الرَّعَاءِ أَنْيَقَ الْكَلَا

ولكن أمها لم تزل بها حتى غلبتها على أمرها ، فتزوجت الحارث . وبينما هو ذات يوم جالس وهى إلى جانبه أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفست صعداء ، ثم بكت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى والشيوخ الناهضين كالفروخ .

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٦ .

(٢) ديوان الخنساء ١٢٠ أصفحت : رددت : سيد آل بدر : كان زعيمهم خطبها فردته . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيف الرجلين يكاد يكون مقعداً . قصير الشر : متقارب الخطو . يرصعنى يتزوجنى .

(٣) الأغاني ١١/٩ و ١٣٨/١٣ ومنتهى الطاب ٣٢٤ مخطوط .

فقال لها : أما وأبيك لرب غارة شهدها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فاللحق بأهلك فلا حاجة لي فيك . وقال :

تهزأت بي أن رأيتي لابساً كبيراً      وغاية الناس بين الموت والكبر  
فإن بقيت لثيت الشيب رانمة      وفي التعرف ما يمضى من العبر  
عنى إليك فإني لا يوافقني      عورُ الكلام ولا شربُ علي الكدر<sup>(١)</sup>  
وودت بنت ذى الأصبع العدواني أن يكون لها زوج شاب :

ألا ليت زوجي من أناس ذوى غنى      حديث الشباب طيب الريح والعطر<sup>(٢)</sup>  
٢ — وأن يكون الزوج حسن العشرة ، حذباً على الزوجة ، رفيقاً رقيقاً ،  
وهن قد أعلن ذلك في أحاديثهن ، جاء في حديث نسوة من بنى سعد قول واحدة  
منهن : « خير الرجال الحظيُّ الرضى القنوع ، غير الحظَّال »

وقول ثانية : « بل خير الرجال الوفي السنى الذى يكرم الحرّة ، ولا يجمع  
الضرة » ، وقول ثالثة : « بل خير الرجال الغنى المقيم الرضى لا يلوم<sup>(٣)</sup> »  
وتحدثت بنات ذى الإصبع العدواني عن الصفات التى تتمناها كل منهن فى زوجها  
حديثاً طويلاً<sup>(٤)</sup> يعيننا منه الآن قول الكبرى :

ألا ليت زوجي من أناس ذوى غنى      حديث الشباب طيب الريح والعطر  
طيب بأدواء النساء كأنه      خليفة جان لا ينام على وتر  
وإن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحاً باسم الثغر لتجد الأنس فى قبره ،  
والراحة فى عشرته . قيل لابنة الخس : ألا تزوجين ؟ قالت : بلى ، لا أريده أخوا

(١) عيون الأخبار ٤/٤٨ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣ وجمع الأمثال ١/١١٠ والفاخر

للسكوفى ٨٩ ججاج : سيد كريم

(٢) الأغاني ٣/٩٤ .

(٣) الفخر ١٩٣ وجمهرة الأمثال ٢/١٣٣ المظال : المقتضى على أهله .

(٤) الأغاني ٣/٩٤ وتهذيب الكامل ١/٣٠٥ وجمع الأمثال ١/٢٩٣ وأمالى المرتضى

١٧٧ وأخبار النساء لابن القيم ٤٨ وجمهرة الأمثال ١/٢٢٥ .

فلان ولا ابن فلان ، ولكن أريده كسوبا إذا خرج ، فعوكا إذا أتى (١) .  
وما زالت هذه نظرتها إلى زوجها في الإسلام ، فإنه لما خطب عمر أم أبان  
بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — بعد مقتل زوجها أبان بن سعيد بن العاص  
ابن أمية — أبت فقيل لها : لم ؟ قالت : يدخل عاباً ويخرج عابساً . ثم خطبها الزبير  
ابن العوام ، فأبته ، فقيل لها : لم ؟ قالت : ليس لزوجته منه لإقضاء حاجته ، ويقول  
كنت وكان وكان وخطبها على فقالت : ليس للنساء منه حفظ . وخطبها طلحة  
فرضيته ، قالوا لها : وكيف ذلك ؟ قالت : إني عارفة بخلائقه ، إن دخل ضاحكاً ،  
وإن خرج بساماً ، إن سألت أعطى ، وإن سكت ابتدأ ، وإن عملت شكر ،  
وإن أذنت غفر (٢) .

وهذه الصفات التي جاءت في حديث بنات سعد وبنت ذى الإصبع وابنة  
الحس ، وأم أبان ليست إلا ألواناً من العشرة الحسنة والأخلاق الرضية التي  
تأنس إليها الزوجة في زوجها .

٣ — وأن يكون الزوج متحملاً بالفضائل التي تعارفت عليها العرب ، واقتضتها  
البيئة من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها ، فهي تؤثره جواداً ، لأن جوده يحقق آمالها  
في حياة ناعمة ، ويكفل له شهرة وسيادة ، قالت إحدى بنات ذى الإصبع :

ألا ليته يَمَلًا الجفان لضيفه له جفنة يشقى بها التيب والجزر (٣)

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت  
ذات حرية تزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنايفة ورجل من النبيت يخطبونها ،  
فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها في الصباح  
ما قالوا ، وستعطفني أكرمهم زوجاً لها . وفي الصباح أنشدوها ، وكان من قول حاتم :  
أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

(١) عيون الأخبار ١١/٤ (٢) أعلام النساء ١٢/١ .

(٣) التيب : النوق المسنة . الجزر : النوق التي تذبج .

فقال: إن حاتمًا أكرمكم وأشعركم . ثم رضيته زوجًا لها على أن يخلى سبيل امرأته فأبى ، فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية وولدت له عَدِيًّا<sup>(١)</sup> . وهي تريد أن يكون شجاعا ، لتعزز بجايته . وتفخر برهبتة ، ولتعلو مكانته في قومده ، فلا ينام على وتر كما قالت بنت ذى الإصبع ، وكما قالت امرأة في وصف زوجها : ليث عَرَبِيَّة ، وجمال ظمينة ، وظل صخر ، وجوار نجر<sup>(٢)</sup> . وفي رثاء الخنساء لأخيها صخر نموذج للرجل الأثير عند النساء بكرمه وشجاعته وسيادته ، وطالما رددت هذه المعاني كقولها :

جَدُّ جَمِيلِ الحَيَا كَامِلِ وِرعٍ      وللحروب غداة الروع مِسْعَارِ  
مِثْلِ الرُّدَيْبِيِّ لَمْ تَنْفَدُ شَبِيهَتَهُ      كأنه تحت طي البرد أسوارِ  
عَبْلُ الذَّرَاعِينَ قَدْ تُخَشَى بَدِيهَتَهُ      له سلاحان : أنياب وأظفار<sup>(٣)</sup>

وقد سئلت ابنة الخلس أى الرجال أحب اليك ؟ فقالت : السهل النجيب ، السمح الحسيب ، الندب الأريب ، السيد المهيّب . وأفضل منه الأهيف الهفّاف الأنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف ولا يخاف<sup>(٤)</sup> . وذكر أبو على القالى حديثًا طويلًا بين ثلاث فتيات وصفن ما يحبهن من أزواجهن ، ماخصه أنهن يتطلبن فى الزواج الكرم والشجاعة<sup>(٥)</sup> .

لذلك هجاء عمر بن الطفيل أناسًا بأنهم حقراء لا يخطبون بنات السادة ، ولا يقبل أحد على الخطبة منهم :

(١) الأغاني ١٦/٩٩ - ١٠١ وذيّل الأمالى ١٥٤ .

(٢) مجالس ثعلب ٤٥/١ .

(٣) ديوان الخنساء ٨٠ مسعار : مشعل . أسوار : سوار كما فى شرح الديوان ، وأرى أنه فارس الفرس ، لأن هذا أليق بمدحه .

(٤) ذيّل الأمالى ١١٩ الأهيف والهفّاف : الضامر البطن الدقيق الحصر . الأنف

العياف : الأبن للضميم .

(٥) الأمالى ١٦/٣ .

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيّهم ولما تُخطَبِ (١)  
وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها، لأنه فر في  
الحرب وتركتها تسبي (٢). ورأت امرأة زوجها قد قبع في منزله والرجال يقاتلون  
عدوهم، وهي تنظر إليهم معجبة، فضربها، فقالت أغيرة وجبنا، فذهبت مثلاً (٣).  
وفي حديث بن عمر بين الخطاب وعمرو بن معد يكرب قول عمرو: كنا نغير على  
بني مالك، فأتيننا على قوم سراة، فجلست في موضع أسمع كلامهم، وإذا بجارية  
قد خرجت من خيمتها، وجلست بين صواحب لها، ثم دعت وليدة من ولاندها  
فقالت: ادعى لي فلانا. فلما جاء قالت له: إن نفسي تحدثنى أن خيلاً تغير على  
الحى، فكيف أنت إن زوجتك نفسى؟ قال: أفعال وأصنع، وجعل يصف  
نفسه ويفرط، فقالت له: انصرف حتى أرى رأيي. وأقبلت على صواحبها  
وقالت: ما عنده خير. ثم استدعت آخر، وخطبته فأجابها كجواب الأول،  
فسرفته. ثم قالت لوليدتها: ادعى لي ربيعة بن مكدم، فدعته، فقالت له مثل  
قولها للرجلين، فأجابها: إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه، ولكنى إن لقيت  
أعذرت، وحسب المرء غناء أن يُعذر. فقالت له: قد زوجتك نفسى، فاحضر  
غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك (٤).

لذلك كان الرجال كثيراً ما يتوجهون بفخارهم بالشجاعة إلى المرأة، ويطالبون  
منها أن تسقيهم الخمر جزاء وتقديراً، قال المرقش الأكبر:

يا ذات أجوادنا قومي تخيننا وإن سقيت كرام الناس فاسقيننا  
وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوماً سراة خيار الناس فادعينا (٥)  
وقال عمرو بن كلثوم:

(٢) أشعار النساء للعرزبانى ٥٧ - ٥٩ .

(١) ديوان عامر القصيدة ٨

(٣) الميدانى ٤/٢ .

(٤) الأغاني ١٥/١٣٢

(٥) المفضليات ٢/٢٣١ .

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا<sup>(١)</sup>  
وقال الدهان بن جندل بعد انتصار العرب في ذي قار :

إن كنت ساقيه يوماً على كرم فاستمى فوارس من ذهل بن شيبانا  
واسقى فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكاً وريحانا  
وقال بكر بن الأصم :

إن كنت ساقيه المدامة أهليها فاسقى على كرم بني همام  
وأبا ربيعة كلها ومحملاً سبقوا بغاية أفضل الأقسام<sup>(٢)</sup>  
ولقد يشهد لها الرجل على مفاخره ، كقول أمية بن الصلت :

فإما تسألني عنى لبيني وعن نسي أخبرك اليقينا

ثقي أني النبيه أبا وأما وأجدادا سموا في الأقدمينا<sup>(٣)</sup>

٤ - ولقد تؤثر الفتاة أن تتزوج فتى من عشيرتها ، ايثاراً لقرنها من آ لها ،  
ورغبة في أن تقيم يوطنها ، وتهيبها من معاشرة من لا تعرف . ولقد يكون السبب  
أيضاً كما قرر ولها وزن Wellhausen أن النساء كن يحتمين بعشيرتهن حتى وهن  
متزوجات ، وكان أقاربهن يحمونهن ويدافعون عنهن . وفي الحكومة الجمهورية  
بغير حاكم - كما يحلو لولها وزن دائماً أن يطلق على الحياة السياسية للعرب البداءة -  
كانت القبيلة هي التي تكفل السلام والحماية لأفرادها جميعاً ، وكان الفرد يسعى  
ليحقق أهدافه الخاصة في نطاق لا يعدو على مصالح القبيلة ، والمرأة عضو في هذا  
الاتحاد ، فيجب على القبيلة أن ترعى أمنها وسلامتها وحقوقها ، حتى بعد أن تتزوج  
في قبيلة أخرى<sup>(٤)</sup> .

ويدل على إيثارهن للزوج القريب قول إحداهن :

(١) شرح القصائد العشر ٢١٨ (٢) الأغاني ٢٠ / ١٣٨ .

(٣) جبهة أشعار العرب ١٨٧ .

(٤) Women in the Aiyam Al Arab. P. 66 (٤)

لصوقاً بأكباد النساء ، وأصله إذا ما اتهمى من سِرِّ أهلى ومحتدى  
وقول بنت أوس بن حارثة الطائى لأبيها إذ استشارها فى أن يزوجه بالحارث  
ابن عوف : لست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فيستحى منك<sup>(١)</sup> .  
ونصحت أخت أختها ألا تقبل غريباً زوجها ، وقالت لها : إن شر الغريبة يُعلن  
وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغرك الأجسام<sup>(٢)</sup> . وجاء فى قول  
الخنساء لأبيها وقد رفضت دريد بن الصمة زوجاً : أترانى تاركه بنى عمى مثل  
عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بنى جُشم<sup>(٣)</sup> .

وقد نمت امرأة عامرية من أبيها وأخيها أنهما زوجها فى عشيرة أخرى :  
لا تحمدن الدهر أخت أخا لها ولا ترثين الدهر بنت لوالد  
ثم جعلوها حيث ليست بحرة وهم طرحوها فى الأفاصى الأبعد<sup>(٤)</sup>  
ولما خطب عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة - وكان أبوها نصرانياً -  
أمر ابنه ضبا - وكان مسلماً - أن يتولى أمر زواجها ، فزوجها عثمان ، فلما حملت  
كرهت الغربية ، فقالت لأخيها ضب :

ألست ترى يا ضبُ بالله أننى مصاحبة نحو المدينة أركبا

إذا قطعوا حزنًا تحت ركبهم كما زعزعت ریح يراعا مثقبا

لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما بغنى الخبياء المطنبا<sup>(٥)</sup>

قضى الله حقاً أن تموتى غريبة ييثر ب لا تلقين أما ولا أبا<sup>(٦)</sup>

ثم بعد ذلك جاءت ميسون بنت بحدل الكلبية ، وكانت بدوية ، فتزوجها  
معاوية ، وأقامت بالشام فى محبوبحة الملك وخفض العيش ونضرة الحضارة ، وكانت

(١) الأغانى ٩/١٤٢ (٢) مجمع الأمثال ١/١٢٤ .

(٣) الأغانى ٩/١١ والشعر والشعراء ١٢٢ .

(٤) تهذيب الكامل ٢/١٢٤ وأشعار النساء المرزبانى . مخطوط .

(٥) الأغانى ١٥/٦٧ ورسالة الحنين إلى الأوطان ٢٢ وعيون الأخبار ٤/٧٦ .

(٦) معجم البلدان ٨/٤٩٩ .

قد حملت بولده يزيد ، فلم تتجدد على انتظار الوضع ، بل أخذت تهتف بقصيدة تقول في آخرها :

خشونة عيشتي في البدو أشمهي إلى نفسي من العيش الطريف  
فما أبغى سوى وطني بديلاً فحسبي ذلك من وطن شريف<sup>(١)</sup>  
وكثيراً ما كانت المتزوجات في غربة يتغنين بالخنين إلى أوطانهن ، تقول  
امرأة شيبانية كانت متزوجة في بني يشكر :

أصبحت في آل الشقيق غريبة على الذي لا عيب فيه معيب  
وإن زمانا ردى في عشيرتي إلى وإن لم أرجه الحبيب  
فسمعا زوجها ، فردها إلى قومها<sup>(٢)</sup> .

وكان الخاطب من قومها يهتاج إذا ما آثرت عليه غريباً . فخطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وتزوجت غريباً ، فدعا عليها بالأتسعد ، والأتنسل ، وأن يكون زوجها هرماً كثير الإماء سيء العشرة ضرراً لزوجاته ، فذرا قبيح الصورة :

ونبتها أحرمت قومها	لتنكح في معشر آخرينا
فإما نكحت فلا بالرفاء	إذا ما نكحت ولا بالبنينا
زوجت أشمط في غربة	تجن الحليلة منه جنونا
خليل إماء يرا وخنه	وللمحصنات ضرراً مهينا
إذا ما نقلت إلى داره	أعد لظيرك سوطاً متينا
وقلبت طرفك في شاهق	تظل الحمام عليه وكونا
يشمك أخبك أضراسه	إذا مادنوت فتستنشقينا
كأن المساويك في شدقه	إذاهن أكرهن يقاعن طينا

(١) حاسة المالدين ٢٣٢ مخطوط .

(٢) أشعار النساء للرزباني ٥١ مخطوط .



فأبعدك الله من جارة وألزمك الله ما تكرهينا<sup>(١)</sup>

٥ — وقد راعت الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً ، لأن العرب كانوا ذوى حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حد الغلو ، يرون أنهم أرقى الأمم وأصفاها ، فليس شعب بكف ، لأن يصهر إليهم .

وكان كثير من الأمم يجرى على ذلك ، فالعبريون كانوا يحرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم ، لأنهم اعتقدوا أنهم شعب الله المختار . واليونانيون كانوا لا يزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة بربر ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم . وأيد فلاسفتهم هذه النظرية ، فأرسطو يرى أن اليونان وحدهم مزودون بالعقل والشجاعة ، ومن عداهم من الشعوب ( البربر ) مزودون بالشجاعة وحدها . وكذلك كان الرومان ، فقد أصدر الإمبراطور فالنتيان قانوناً يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية تتزوج بغير روماني<sup>(٢)</sup> .

وتشدد العرب في حظر تزويج غير العربي وإن كان ملكاً . ومن أمثلة ذلك أن النعمان رفض أن يزوج كسرى بن هرمز ابنته حُرقة ، وكان من نتائج هذا الرفض أن قتل كسرى النعمان ، ثم أن قامت حرب ذى قار وانتصر فيها العرب<sup>(٣)</sup> . وإن أقدم عربي على تزويج عبلج سخر منه العرب واحتقروه ، قال الأسعر الجعفي في هجاء أبي حُمران :<sup>(٤)</sup>

باعوا جوادهم لتسمن أمهم ولكي يعود على فراشهم فتى  
عبلج إذا ما برَّ عنها ثوبها وتحامصت قالت له : ماذا ترى

ولما جاء الإسلام قضى على نزعة العصبية الجنسية ، وأحل محابها الدين في الكفاءة ، نقل عن عمر وابن مسعود وغيرهما — وهو الظاهر من مذهب مالك .

(١) لسان العرب ١٧/١٥ وحامسة الخالدين ٣٥٢ مخطوط والحامسة البصرية ٢٢٤ مخطوط . مراد : حصن أو قصر . وكون : جمع واكن أى جائم يريد أن الحمام يقف على الحصن فلا يذعر لارتفاعه .

(٢) الأسرة والمجتمع ٣٣ - ٣٥ (٣) تاريخ الطبري ١٥٠/٢ .

(٤) الأصمعيات من مجموع أشعار العرب لوليم بن الورد البروسى ٣/١ .

الاعتداد بالدين وحده ، لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » وقوله : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » وغير هؤلاء يعتدون الكفاءة في الدين والحرية والنسب والصناعة <sup>(١)</sup> .

ولكن بعض العرب ظلوا يستمسكون بنعرتهم القديمة ، ففي الإسلام زوج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري يحيى بن أبي حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين ألف درهم ، فقال شاعر يعيره :

لعمري لقد جلّت نفسك خزّية      وخالفت فعل الأكرمين الأكارم  
ولو كان جدك الذان تتابعا      بيدر لما راما صنيع الألائم  
فرد عليه إبراهيم بقوله :

فما تركت عشرون ألفاً لقاتل      مقالا فلا تحفل ملامة لائم  
وإن أك قد زوجت مولى قد مضت      به سنة قبلي وحبّ الدراهم <sup>(٢)</sup>  
وكان يحيى هذا يهودياً فأسلم <sup>(٣)</sup> ، أو كان أبوه يهودياً فأسلم <sup>(٤)</sup> .

وروى أن يحيى هذا خطب لابنيه بنتى مقاتل بن طلّبة بن قيس بن عاصم ، فأجابه ، فقال الله الأبخ بن حزن المنقري :

نُبِئت خولة قالت حين أنكحها      لطلما كنتُ منك العار أنتظر  
أنكحتُ عبيد ترجو فضل مالها      في فيك مما رجوت التّرب والحجر  
لله در جياذ أنت سائسها      برذنتها وبها التحجيل والغرر <sup>(٥)</sup>  
وكرر هذا الهجاء <sup>(٦)</sup> .

وفي العصر الأموي عيّر الكميّ اليمانيّن بأنهم زوجوا بناتهم للفرس والحشب

(١) عيون المسائل ٥٩ .

(٢) الكامل للمبرد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤ .

(٣) عيون الأخبار ١٦/٤ (٤) الأغاني ٣٦/٩ .

(٥) عيون الأخبار ١٦/٤ (٦) الأغاني ٣٦/٩ .

في العصر الجاهلي ، وافتخر بأن النزاريين لم ينحدروا إلى هذا الدرك :  
وما ضربت فحولَ بنى نزار قوالُح من فحول الأعمجينا  
وما حملوا الحمير على عتاق مطهمة فيلفوا مُبغَلينا  
بنى الأعمام أنكحنا الأيما وبالآباء سَمِينا البئينا<sup>(١)</sup>  
وكان عقيل بن عُلقة شديد العجرفة والبذخ بنسبه في بنى مرة ، لا يرى أن  
له كفتاً ، وقد صاهرتة قريش وخلفاؤها وأشرفها ، منهم يزيد بن عبد الملك ،  
وسامة بن عبد الله بن المغيرة ، ويحيى وخالد والحارث أبناء الحكم بن أبي العاص<sup>(٢)</sup>  
ولما خطب إليه عبد الملك بن مروان لأحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجة ،  
قال : أما إذ كنت فاعلا فجنبتى هجئاءك<sup>(٣)</sup> . فهو لا يرفض غير العربي فحسب ،  
وإنما يرفض من أمه غير عربية . وكذلك يرفض أحد الأغنياء لأنه هجين ،  
وإن كان ذا مال كثير :

لعمري لئن زوجت من أجل ماله هجيننا لقد حُبتْ إلى الدراهم  
أأبيح عبداً بعد يحيى وخالد أولئك أكنأى الرجال الأكارم  
أبي لى أن أعطى الدنيا أنتى أمُدُّ عنانا لم تخنه الشكائم<sup>(٤)</sup>

٦ — وهم ترفعوا عن تزويج العبد ، والحر المنحدر من عبد .

ولم ينفردوا وحدهم بهذا الترفع ، فكذلك كان العبريون واليونانيون  
والرومان<sup>(٥)</sup> ، وما زالت آثار من هذا النظام بأمریکا . يقول فوليه Alfred  
Fouillée تحدث مشاهد في الولايات المتحدة لا تجلب نفراً للأمریکان ، وذلك

(١) العقد الفريد ٣/٢٣٣ الفحول : الرجال البيئو الفعولة . قوالُح : من فلول الفحل  
إذا هدر . مبغَلين : مهجنين .  
(٢) الأغاني ١١/٨٢ .  
(٣) تهذيب الكامل ١/٢٦٨ وأخبار النساء لابن قيم ٥٤ وعيون الأخبار ٤/١٢ .  
(٤) الأغاني ١١/٨٦ .  
(٥) أساس العدالة في القانون الروماني ٢٩ والأسرة والمجتمع ٣٣ - ٣٧ .

أن الزوج يحبون النساء البيض حباً جماً ، ولقد يشور بهم هذا إلى أن يرووا شهوتهم بالعنف ، ويقضى القانون بأن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطرب الحكومة السود الذين يعيشون فى المنطقة التى حدث فيها الجرم أن يشهدوا إحراق رقيقهم ، وهم لا يفعلون ذلك ولا قريباً منه بالبيض إذا ما ارتكبوا هذا الجرم (١) .

نعم هنالك فى أمريكا يعيش وسط مائة مليون من الرجال والنساء النازحين من أوربا اثنا عشر مليوناً من أصل إفريقي ، وبين البيض والسود حاجز حصين من اللون يحرص البيض على بقائه وصيافته ، كما يحرص غيرهم على حدود مملكته ، والصلوات الاجتماعية محظورة على جانبي هذا الحاجز العنصرى ، وإذا ما حاول أحد من السود أن يتخطى هذا الحاجز نار البيض (٢) .

ومهما يكن العرب قد أحسنوا معاملة العبيد فإنهم فى نظرهم عبيد ، فقد كان الشنفرى أسيراً عند بنى شِبابَة ، فأعطوه لبنى سُلامان ، وعاش فيهم كأنه أحدهم وكان السلامي أتخذه ولداً له ، فقال الشنفرى ل بنت السلامي : يا أختى اغسلى رأسى . فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً ، وسأل حتى علم أنه من الأواس بن الحجر ، فقال :

ألا ليت شعرى والتلهف ضلة      بما ضربت كفّ الفتاة هجينها  
ولو علمت قُعمُوسُ أنساب والدى      ووالدها ظلت تفاخر دونها  
أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً      وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها (٣)

فإذا كانت ترفضه أخا متبنى ، فهى أشد رفضاً لأن يكون زوجها ، لذلك خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وأرجح أنها ردت له لأن أباه ابن

(١) الإسلام والحضارة العربية ١٤/١ .

(٢) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٢٣ Sir Arthur. Keith

(٣) الأغاني ٨٧/٢١ قعموس : لقب للمرأة الدمية .

أمة ، ففضب شقيق ، وتمنى لها شقوة في زواجها كما سبق <sup>(١)</sup> .

وجاء الإسلام فجعل الحرية شرطاً ، والكفاءة فيها كالكفاءة في الإسلام خاصة بالعجم ، لأن العرب لا يُستترقون ، إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، فالأعجمي الرقيق ليس كفتناً للحرّة ، والحر بنفسه ليس كفتناً لمن لها أب نشأ في الحرية ، ومن له أب لم يسترق ليس كفتناً لمن لها أبوان ، ومن له أبوان كفاء لمن لها آباء <sup>(٢)</sup> .

وظلت بعض النساء في الإسلام وبعض الرجال يتشددون في النظر إلى حرية آباء الزوج ، يدل على ذلك أن نصيباً علق جارية ، ومكنت زمانا تمنيه بالأباطيل ، فلما ألح عليها قالت : إليك عني ، فوالله لكأنك من طوارق الليل . فقال لها : وأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت : ما أظرفك يا أسود . ففاظه قولها ، فقال لها : هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف العقل . ثم قالت له : انصرف حتى أنظر في أمرك ، فأرسل إليها بهذه الأبيات :

فإن أك حالكا فالمسك أحوى      وما لسواد جلدى من دواء  
ولى كرم عن الفحشاء ناء      كبعد الأرض من جو السماء  
ومثلى فى دياركم قليل      ومثلك ليس يُعدّم فى النساء  
فإن ترضى فردى قول راض      وإن تابى فنحن على السواء  
فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتیان على غيرهما ، وتزوجته <sup>(٣)</sup> .

٧ — ثم إلى ذلك كله لا بد أن يكون الزوج كفتناً للزوجة وقومها عراقية نسب وكرم أصل .

وكان العرب يتشددون في عراقه النسب، ومساواة المخاطب لهم في الشرف .

(١) لسان العرب ١٥ / ١٧ وحاسة الخالدين ٣٥٢ مخطوط والحامسة البصرية ٢٢٤ مخطوط

(٢) عيون السائل ٦٤ وكنز العمال ٣٠ / ٣١٢ .

(٣) الأغاني ١ / ٣٥٤ .

ويرفضون من يهبط نسبه ، ويضؤل شرفه . يقول جرير بن كليب - أو جزء ابن كليب - الفقعسى إن ابن كوز تطلب الزواج من نساء سادتنا ، لأنه رأى أزمة حلت بنا ، فرددناه فى خزى ، لأنه تجاوز قدره ، ولأننا وإن عشنا الزمان ذوو حفاظ يمنعنا مصاهرة غير الأ كفاء :

تَبَعَى ابن كوز والسفاهة كاسمها      لَيْسْتَادَ منا أن شَتَوْنَا لِيَالِيَا  
فما أ كبرُ الأشياءِ عندى حِزَاة      بأن أبتَ مزرباً عليك وزاريا  
وإنا على عض الزمان الذى ترى      نعالج من كرهه المخازى الدواهيا  
فلا تطلبنها يابن كوز فإنه      غذا الناسُ مذ قام النبي الجواريا  
وإن التى حَدَّثْتِهَا فى أنوفنا      وأعناقنا من الإباء كما هيا<sup>(١)</sup>

ومهما تنزل بالعربى نكبات تفقده ماله أو جاهه فإنه يعتز بشرفه الموروث ، ويزن الخاطب وزن المدقق المتحرى ، فان أرغم على تزويجها من غير كفاء فى العراقة حزن ، كما حدث للمهلل إذ نفر عن قومه بعد حرب البسوس ، ونزل فى بنى جَنب - حى من مذحج - نخطبوا إليه ابنته ، فقال : إنى طريد فيكم ، فمتى زوجتكم قالوا اقتسروه . وهو يريد أن يتنصل ، ولكنهم أجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها أدماً ، فقال :

أعزز على تغلب بما لقيت      أخت بنى الأكرمين من جُشم  
أنكحها فقدُها الأراقم فى      جَنب ، وكان الحياء من آدم  
لو بأبا نينِ جاء يخطبها      ضُرِّجَ ما أنفُ خاطب بدم  
ليسوا بأ كفائنا الكرام ولا      يفتنون من عَيْلَة ولا عُدُم<sup>(٢)</sup>

ولام عميرة بن جُعَل قومه بنى تغلب ، لأنهم يزوجون بناتهم من حقراء النسب :

(١) شرح الحماسة للرزوقى ٢٤١/١ .

(٢) أشعار المراقبة ٦٩ وعيون الأخبار ٩١/٣ وشرح الحماسة للرزوقى ١١٨/١ والعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ١٤/٢ أبانين : جبل فى سفحه منازل تغلب . ضرج أنه بالدم : قرع أنه ووجهه بالعصا كما يقرع الفحل المهجين إذا تعرض لناقاة كريمة .

ترى الحاصن الفراء منهم لشارف أخى سلة قد كان منه سليمان<sup>(١)</sup>  
 ٨ - وقد انفرد الحُصْنُ - قريش ومن دان بدينها من خزاعة لنزولها مكة  
 ومجاورتها قريشاً ، وكنانة وجديلة قيس وثقيف وعامر بن صعصعة . وكانت لهم  
 مناسك خاصة في الحج - باشتراكهم في الخطاب أن يكون على دينهم ، لأنهم قد  
 شددوا على أنفسهم في الدين ، وشددوا على الناس<sup>(٢)</sup> ، فلم يزوجوا بناتهم إلا للحُصْنِ  
 أو لمن يتحسس في دينه .

ومثل هذا التقيد عام في الشعوب ، ففي الهند لا يصح الزواج بين البرهيمين  
 وغيرهم من الطبقات ، والقوانين اليهودية القديمة تحرم الزواج بين اليهود وأهل  
 الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين<sup>(٣)</sup> .

وفي الإسلام لا يصح زواج مسلمة بغير مسلم وإن كان كتابياً ، ولا يجوز  
 زواج مسلم إلا بمسلمة أو كتابية . على أن بعض الفرق الإسلامية ذهبت إلى  
 تحريم الزواج من الفرق الأخرى . واشتد أبو حنيفة في مراعاة الإسلام ، فذهب  
 إلى أن أقدمية الآباء في الإسلام من مقاييس الكفاءة ، فمن له أب واحد في  
 الإسلام ليس كفتا لمن لها أبوان ، ولكنه يقف عند حد الأبوين ، فمن له أبوان  
 مسلمان كفاء لمن لها آباء .

(١) الفضليات ٥٨/٢ شارف : كبير . سلة : سرقة ، أى مسروق النسب . الحاصن :  
 الكريمة العفيفة . سليمان : ولدها .

(٢) الخبر ١٧٩ والقاموس المحيط مادة حمس وإنسان العيون ٢٣٠/١ ومعجم البلدان  
 ١٣٨/٨ وبلغ الأرب ٢٨٩/٢ إذا نسكوا لم يسلثو ستمنا ولم يطبخوا أظفاً ولم يدخروا لبنا ،  
 ولم يأكلوا ما طبخوا في الحرم ، ولا يمسون دهننا ولا يطوفون في ثياب أتوا بها من الحل ،  
 وتركوا الوقوف برفة والإفاضة منها مع اعترافهم أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ،  
 ويرون لسائر العرب أن يقفوا عايمها وأن يفيضوا منها ، وإنما يطوفون في ثياب الحس ، فإن  
 لم يجدوا طائفوا عراة ، فإن طاف رجل منهم أو امرأته في الثوب الذي جاء به من الحل ألقاه  
 بعد الطواف فلا يمسه ولا ينتظم به ، وكانت العرب تسمى هذا الثوب اللقي والكن الإسلام  
 أبطل ذلك ( ثم أنيضوا من حيث أفض الناس ) ( يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد  
 وكواوا واشربوا ولا تسرفوا لأنه لا يحب السرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده  
 والطيبات من الرزق ؟ ) . (٣) الأسرة والمجتمع ٣١ .

وقد بقي الاعتداد بالكفاءة في الحسب إلى الإسلام ، فذهب أبي حنيفة على أن غير العربي ليس كقنا للعربية ، وأن غير القرشي ليس كقنا للقرشية ، اعتماداً على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قریش بعضهم أ كفاء لبعض ، رجل برجل » فلا يصح على هذا المذهب زواج عربية من أعجمي أو قرشية من غير قرشي إلا إذا تنازل أولياؤها عن حقهم في الكفاءة<sup>(١)</sup> .

ولما كتب زياد إلى سعيد بن العباس يخطب إليه ، وبعث له بال كثير قسم سعيد المال بين جلسائه ، ثم كتب إلى زياد : أما بعد فإن الإنسان ليَطْفَى أن رآه استغنى<sup>(٢)</sup> .

### مربيتها في اختيار زوجها

أسلفت أن الرجل كان في خطبته يتحرى مميزات خاصة فيمن يصطفها شريكة حياته ، وأن الفتاة وقومها كانوا يتوخون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة أيضاً ، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام ، ولأنه عشرة بين الزوج وزوجته . وقد استمتعت المرأة العربية بحريتها في اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، ولم يكن للأباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تجد ، إذ كان للولى أن يزوجها بغير استشارتها ، وكل عقد تبرمه بغير رضاه باطل<sup>(٣)</sup> . ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود .

ولهذا كان مركز المرأة العربية جديراً بأن نشيد به ، وبأن يشيد به المستشرقون ، يقول نيكلسون : كان مركز المرأة ونفوذها في الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيماً ، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن ، وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسئنت معاملتهن ، وفي بعض الحالات كن يهين

(١) عيون المسائل ٦٣ والأسرة والمجتمع ٣٦

(٢) عيون الأخبار ١٧/٤ (٣) المرأة في التاريخ والثرائم ٧٤



أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكن يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أندادا ورفيقات <sup>(١)</sup> .

### وللهذه الحرية مظاهر :

١ — كانت المرأة تختار زوجها ، وتزوج نفسها أحياناً ، فعلت ذلك ماوية بنت عفّز من بنات ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبياني وحاتم الطائي ورجل من النبيت ، وقيل هم زيد الخليل وأوس بن حارثة وحاتم ، وآثرت حاتماً <sup>(٢)</sup> . وفعلت هذا أيضاً امرأة من هذيل من بني سهم إذ خطبها تأبط شراً ، فقال لها قائل : لا تنكحيه فإنه وشيك أن يقتل ، فرفضته ، فقال :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل إن يلاقى مُجمَعاً

فلم تر من رأي فتيلة وحاذرت تأيّمها من لابس الليل أروعا <sup>(٣)</sup>

وكذلك فعلت الرباب من بني ذهل ثم من بني سدوس ، فقد خطبها خدّاش بن حابس التميمي بعد ما هام بها زمناً ، وكان أبواها يتمنعان لجمالها وميسمها ، ويردان خدّاشاً ، فأضرب عنها زماناً ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا ، فاتمبى إلى محلّتهم وهو يتغنى بقوله :

ألا ليت شعري يارب متى أرى أنا منك نُجْحاً أو شفاء فأشتفي

فقد طالما عينتني ورددتني وأنت صغيي دون من كنت أصطفي

لحى الله من تسمو إلى المال نفسه إذا كان ذا فضل به ليس يكتفي

فئنيكح ذا مال دميماً ملوماً ويترك حراً مثله ليس يَصْطَفي

فعرفت الرباب منطلقه ، وجعلت تتسمع إليه ، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خدّاش أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خدّاش أن قد عرفت حاجتك ، فاغدُ على أبي خاطبا ، ورجعت إلى أمها فقالت : هل أتزوج إلا من

(١) Aliterary History of the Arabs. Nickolson. P . 87

(٢) الشعر والشعراء ٧٢ والأغاني ١١/١٠٤ و ١٦/١٠٠

(٣) الأغاني ١٨/٢١٧ وشرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٢ والمرزوق ٤٩١

أهوى؟ قالت: لا، فما ذاك؟ قالت: زوجيني خدasha. قالت أمها: وما يدعوك إلى ذلك مع قاة ماله؟ قالت إذا جمع المال السيء الفعالم فقبحا المال. فأخبرت الأم أباهما بذلك فرضى<sup>(١)</sup>. وقد سبق ما فعلته المرأة الكنانية حين اختبرت ثلاثة من قومها، وانتقت ربيعة بن مكدّم<sup>(٢)</sup>.

٢ - وكانت كثيراً ما تستشار في زواجها، فلا يستبد به وليها كما كان يستبد الأب العبري واليوناني، فالخساء استشارها أبوها حينما خطبها دريد بن الصمة، لأنها كما قال لدريد: «لها في نفسها ما ليس لغيرها»، فرفضت، مؤثرة بنى عمها. ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها - وكان صديق دريد، وصخر غائب في غزوة - قالت:

تبا كرتي حميدة كل يوم      تما يولي معاوية بن عمرو  
فإلا أعط من نفسي نصيبا      فقد أودى الزمان إذا بصخر  
أتكرهني - هُبلت - على دريد      وقد أحرمت سيد آل بدر  
معاذ الله يرصعني حبركي      قصير الشبر من جشم بن بكر<sup>(٣)</sup>

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى عاتمة بن خصيفة الطائى، قال عاتمة لأم الفتاة أريدى ابنتك على نفسها، فاستشارتها<sup>(٤)</sup> وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائى لما خطب إليه الحارث بن عوف المرى، فإنه استشار ابنته<sup>(٥)</sup>. واستشار عتبة بن ربيعة بنته هند لما خطبها أبو سفيان وسُهيل بن عمرو<sup>(٦)</sup>، وآثرت هند أبا سفيان فخنق عليها سهيل، وقال:

نبتت هنداً تبرّ الله سعيها      تأبّت وقالت وصف أهوج مائق

(٢) الأغاني ١٥/١٣٢

(١) مجمع الأمثال ١/٤٤٠

(٣) الأمالي ٢/١٦١ والأغاني ٩/١١ و١٣/١٣٨ أحرمت: منعنى من زواجه. حبركي

قصير الرجلين أو ضعيفهما. الشبر: الخطو أو الخير والعطاء. يرصعنى: يتزوجنى.

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ ونهاية الأرب ٣/٢١ ومجمع الأمثال ١/١٠٢ والمحاسن

والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٦) الأمالي ٢/١٠٤

(٥) بلاغات النساء ٩/١٤٩ والأغاني ٩/١٤٢

فلم تنكحى يا هند مثلى وإنتى لمن لم يمتقنى فاعلمى غيرى وامق<sup>(١)</sup>  
على أن أم الفتاة كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ،  
وتشير عليه ، وتهتدى البنت برأىها . هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، فإنه  
رفض أن يزوج بنته للحارث بن عوف ، ودخل على امرأته مغضباً ، فسألته ،  
فأخبرها ، فقالت له : إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ وأشارت عليه أن يتدارك  
ما كان منه ، ففعل وزوجه ابنته<sup>(٢)</sup> . وكذلك فعلت زوجة علقمة بن خصفة  
الطائى لما خطب الحارث بن سليل بنتها<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن المرأة كانت أحياناً  
تعلم زوجها على أمره ، فقد خطب إلى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، ومازالت  
به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنا الفراقسنرى<sup>(٤)</sup> .

### الإسلام وتزويج المرأة نفسها

١ — جاء الإسلام ، وكان لا بد من التشريع الذى يصون سمعة الأسرة ،  
فاختلف الفقهاء فى تزويج البالغة العاقلة نفسها ، فذهب الشافعى ومالك إلى منعها  
من مباشرة عقد زواجها وزواج غيرها ، وعليه كثير من الصحابة مستدلين بأدلة ،  
منها قوله عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي » وقوله : « أيما امرأة نكحت  
بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل » وقوله : « لا تزوج المرأة المرأة ،  
ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » .

وذهب أبو حنيفة إلى إثبات هذا الحق لها ، واستدل هو وغيره بأدلة منها  
قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الثيب أحق بنفسها من وليها » وقوله : « البكر  
تُستأذن فى نفسها وإذنها صمتمها » .

والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها الحنفية أن الولى يستأذن المرأة

(١) العقد الفريد ٣/٢١٢ يعق : يجب (٢) الأغانى ٩/١٤٢ سابع

(٣) الفاخر ٨٩ ومجم الأمثال ١/١١٠ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٤) بمجم الأمثال ٢/٢٦٣ .

في زواجها ولا يستبد به . والذي يؤخذ من الأحاديث التي استدلت بها مخالفوهم أن المرأة ليس لها أن تستبد بأمر زواجها ، ولكن لها أن تباشر العقد بنفسها<sup>(١)</sup> وبهذا صان الإسلام مكانة الأسرة من أن تعبت بها الأهواء ، أو تعصف بها النزوات ، وحى المرأة من سوء القالة ومن الشبهات .

٢ — وعَضَدَ الإسلام حق المرأة في رضاها بزواجها ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيمُّ حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا : يارسول الله وكيف إذن؟ قال : أن تسكت<sup>(٢)</sup> .

وللكبيرة التي أكرهت على الزواج أن تفسخه ، فقد كانت خنساء بنت خُذَام الأنصاري تحت أنيس بن قَتَادَة ، فقتل عنها يوم أحد ، فأنكحها أبوها رجلاً وهي كارهة ، فأتت النبي ، فقالت يارسول الله : إن أبي تفوت على فزوجني ولم يشعرني . قال : « لانكاح له ، انكحى من شئت » فرد نكاحه وتزوجت غيره<sup>(٣)</sup> ، واشترت السيدة عائشة بَرِيرَة وأعتقتها ، وكان زوجها مغيث مولى ، فغيرها رسول الله ، فاخترت فراقه . وكان يحبها ويمشي في طرق المدينة يبكي ، واستشفع إليها برسول الله ، فقال لها فيه ، فقالت : أتأمر؟ قال : بل أشفع ، قالت : فلا أريده<sup>(٤)</sup> .

أما الصغيرة فاختلف في أمرها ، ألها الخيار إن كان أبوها هو المزوج أم لا ؟ وفي رأى مالك وابن حزم أنه ليس لأحد سوى الأب أن يزوج الصغيرة لوفور شفقتة ، وضم الشافعي الجد إلى الأب .

وفي الحديث أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه عثمان من ابن عمر ،

(١) تيسير الوصول ٣/٣٤٥ — ٣٤٦ وعيون المسائل ٦٧ — ٦٩ وحجة الله البالغة

(٢) فتح الباري ٩/١٦٤ وتيسير الوصول ٣/٣٤٦

(٣) فتح البدي ٣/٢٣٣ والطبقات لابن سعد ٨/٣٣٤ والإصابة ٨/٦٥ والمبسوط ٥/٢

(٤) الإصابة وأسد الغابة ٥/٤٠٩ والطبقات الكبير ٧/١٦٢ والتجريد الصريح

فردها رسول الله وقال إنها يقيمة ، وإنها لا تنكح حتى تستأمر . قال ابن عمر  
لقد انتزعت من نفسى بعد أن ملكتها<sup>(١)</sup> . على أن بعض المجتهدين كابن شبرمة  
وأبى بكر الأصب لم يثبتا الولاية على الصغيرة لأحد ، والحنفية يثبتونها للأب  
والجد وغيرها من العصابات<sup>(٢)</sup> .

وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن ، فأم كلثوم بنت أبى بكر رفضت أن  
تتزوج عمر بن الخطاب ، فقالت لها عائشة أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت : نعم  
إنه خشن العيش ، شديد على النساء<sup>(٣)</sup> . وكذلك رفضت بنت عبد الرحمن بن  
الحارث بن هشام عبد الملك بن مروان ، وآثرت عليه يحيى بن عبد الحكم<sup>(٤)</sup> ،  
وفضلت عائشة بنت طلحة ابن عمها على بشر بن مروان<sup>(٥)</sup> .

## الخطبة والإملاك

لا يكاد يختلف نظامهم فى الخطبة والإملاك عما يجرى فى العالم الإسلامى  
إلى اليوم ، ذلك بأنهم كانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض  
بنى عمها<sup>(٦)</sup> ، فيقول الخاطب : خُطِب ، ويقول أهل الزوجة : نِكَح ، ويقوم  
ذلك مقام الإيجاب والقبول<sup>(٧)</sup> .

فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم ، ونحرت لهم الذبائح ، وخطب خطباء من  
آل الزوجين ، كما حدث فى يوم عقد النبى على السيدة خديجة ، فقد خطب عمه  
أبو طالب معدداً بعض مناقب قريش ، ومُنَّوَّها بمناقب ابن أخيه محمد بن عبد الله ،  
وذكر أنه خطب خديجة على مهر قدره اثنتا عشرة أوقية ونشأ ، ثم رد عليه  
عمها عمرو بن أسد أو ابن عمها ورقة بن نوفل معدداً مناقب قريش ومفاخر بيت

(٢) عيون المسائل ٧٢  
(٤) العقد الفريد ٢٨١/٣  
(٧) إنسان العيون ٤٥/١

(١) البسوط ٢١٢/٤ - ٢١٥  
(٣) العقد الفريد ٢٧٥/٣  
(٥) الأغاني ٥٤/١٠  
(٦) الخبر لابن حبيب ٣١٠

عبد المطلب ، ومشهدا الحاضرين على قبوله هذا الزواج . ثم أو لم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويفغنين <sup>(١)</sup> .

وكانت العروس تزين يوم الإملاك بما تملك ، ، ولقد يستعار لها . حدث عبد الواحد بن أعين عن أبيه قال : دخلت على عائشة رضی الله عنها وعليها درع قطيرٍ ثَمَنَ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ ، فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتي وانظر إليها ، فإنها تزهي أن تلبسه في البيت ، وقد كان لي منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت امرأة تُقَيِّنُ بالمدينة إلا أرسلت إليّ تستعيره <sup>(٢)</sup> .

وفي يوم الإملاك يحتفل قومها وقومه وينحرون ، ويسمرون الليل غناء وعزفا ورقصاً . تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب ، وجاء في حديثه : « قلت ليلا فلانم من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أنك أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمر كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل . فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بقرابيل ومزامير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : هذا فلان ابن فلان ، تزوج فلانة بنت فلان فجعلت أنظر ، وضرب الله على أذني ففتمت ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس <sup>(٣)</sup> .

ولما تزوج السيدة خديجة نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس <sup>(٤)</sup> . ثم لما زوج بنته فاطمة لعلي بن أبي طالب قال : يا علي ، لا بد للعرس من وليمة ، فأولم <sup>(٥)</sup> .

وهم في احتفالهم بيوم الخطبة أو الزفاف يشبهون الشعوب كلها ، ولكنهم

(١) إنسان العيون ١/١٥٤

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١١/١٤٩ وفتح الباري ٥/١٧٨ درع : قيس .  
تقين : تزين وتزف . قطر : ضرب غليظ من البرود في بعضها قطن . ثمن : منصوب على نزع اخافض .

(٣) تاريخ مكة للفاكهى ٧ من كتاب المنتقى في أخبار أم القرى .

(٤) إنسان العيون ١/١٥٤ وبلوغ الأرب للعطار ٢٩

(٥) بلوغ الأرب في مآثر العرب للعطار ٣٣

لم يفعلوا ما كان يفعل الرومان ، إذ كان يقبل جماعة من الفتيان أصدقاء العروس فيأخذون عروسه ، ويمضون في منظر يمثل أنهم انتزعوها من أهلها قسراً . وكان العروس الإسبرطى يذهب إلى عروسه ليلاً فيأتى بها كأنه اختطفها<sup>(١)</sup> . والذي يظهر لى أن تمثيل عادة الاختطاف لم يكن فى العرب ، لأنهم ذوو حمية وغيره وأنفة ، فلا يراضى أهل الزوجة ذلك المظهر .

## المهر

### المهر والمهرام

المهر فى الأصل العوض الذى يدفع لأهل المرأة ، أما الصداق فالعوض الذى يدفعه الرجل للزوجة .

وكان العبريون والسريان يطلقون كلمة مهر على الثمن الذى يدفع نظير اقتناء الزوجة ، وكان يدفع لأبيها ، لأن الساميين القدماء كانوا ككل القبائل البدائية ينظرون إلى الفتاة على أنها سلعة قيمة تزيد مال أبيها<sup>(٢)</sup> . ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء قوله تعالى على لسان شعيب لموسى « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك »<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن العرب كانوا كذلك ، فى اللغة : الناحجة البنت ، لأنها تعظم مال أبيها بمهرها<sup>(٤)</sup> ، لذلك كانوا يهنتون من ولدت له بنت بقولهم : هنيئاً لك الناحجة . أى المنفجة للمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج<sup>(٥)</sup> ، وأحياناً كانوا يعبرون عن الزواج بأنه شراء ، قال جرهم فى امرأة من بنى فقعس باع لإبلاله ومهرها ، وتزوجها ثم وجدها عجوزاً فطلقها :

فبانت ولم أعين غداة اشتريتها . وبعث تلاد المال بالثمن البخن<sup>(٦)</sup>

- |                                 |                                      |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| (١) دأثر المعارف للبستاني ٩/٣٣٦ | (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٤١    |
| (٣) سورة القصص ٢٧               | (٤) القاموس المحيط مادة فقع          |
| (٥) مجمع الأمثال ٢/٣٢٧          | (٦) العقد الفريد ٣/٢١٠ وفى الأصل فبت |

ولما خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب قال عامر : « إنك أتيتني تشتري مني كبدى . . . (١) » .

وهم أطلقوا كلمة الخُلوان على ما يأخذه الرجل من مهر ابنته أو أخته أو امرأة ما (٢) ، ولم يكن هذا شائعاً ، بدليل أن امرأة نغرت بأن زوجها لم يأخذ من بناته حلواناً : « لا يأخذ الحلوان من بناتيا » (٣) .

ولكن هذه التفرقة بين المهر والصداق توارت في الإسلام ، فالمهر والصداق معاً ما يستحق به الحرائر من النساء (٤) ، وإن ظل بعضهم يطلق الصداق على الإبل التي تساق مهراً ، ويسمىها الناجحة ، ويقول : ساق الرجل إلى المرأة صداقها ، قال الشاعر :

وليس تلادى من وراثته والذى ولا شاه مالى مستفاد النوافج  
فإذا كان الصداق عينا وورقاً لا يقال ساق إليها صداقها (٥) .

وجعل الإسلام المهر أو الصداق حقاً للمرأة لا لوليها ، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم ، لقوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » وإن كان كثير من العرب ما زالوا إلى اليوم يستأثرون به وهو حرام (٦) ، لأن المهر ما يجب على الزوج لزوجته في مقابل ملك استمتع بهها ، وهو حق خالص لها ، تقبضه هي نفسها أو وكيلها إذا كانت رشيدة ، أو يقبضه ولي مالها إذا كانت صغيرة ، وإذا استهلكه كان ضامناً لمثلها أو قيمته (٧) .

وأبطل الإسلام أيضاً زواج الشغار ، وهو نوع من زواج المبادلة ، وسمى شغاراً لخلوه من المهر ، والطرز الشائع من هذا الزواج أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته . وكان هذا الضرب من الزواج

(١) العقد الفرید ١٩١/٣ (٢) المخصص ٢٥/٤ والأمال ٢٧٦/٢ ولسان العرب ٢١٠/١٨ (٣) لسان العرب ٢١٠/١٨ والأمال ٢٧٦/٢ (٤) المخصص ٢٥/٤ (٥) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٤ (٦) روح المعاني ١٩٨/٤ (٧) عيون المسائل ٨٥ و٢٠٦ و١٠٧



شائعاً عند الساميين قديماً ، ومارسه العرب إلى أن جاء الإسلام ، فهبى عنه النبي وقال ببطالانه كثير من الفقهاء ، وذهب الحنفية إلى فساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل لكل من الزوجتين <sup>(١)</sup> .

### نوعه ومقداره

١ — كان المهر يقدم إبلاً أو نقداً ، لأن الثروة عند الشعوب الراحية قطعان من الماشية ، والماشية كالنقد ، « وقد احتفظت اللغات الأوروبية بآثار من هذه الحال البدائية ، الدالة على أن الماشية كانت تستعمل استعمال النقود ، لأنها الثروة الوحيدة ، فهو ميروس يتكلم عن بنات بأمنهن أحضرن ثيرانا لوالدهن ، يكنين عن رغبة الناس فيهن ، وأنهن سيدفعون فيهن مالا عظيماً . والقانون الإيرلندي يقدر الغرامات والأثمان عادة برءوس الماشية ، وظلت الحال على ذلك إلى العصور الوسطى <sup>(٢)</sup> » .

وكذلك كان الحال عند العرب . وكان مقدار المهر يتفاوت باختلاف القدرة والمكانة والثروة ، فقد مهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب <sup>(٣)</sup> ، ومهر الحارث بن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة ابن خصفة الطائي مائة وخمسين من الإبل وألف درهم <sup>(٤)</sup> ، وزوج ذو الجديين ابن قيس بن خالد بنته للقيظ بن زرارة على مائة من الإبل ، ليس فيها مصبورة ولا ناب ولا كزوم <sup>(٥)</sup> ، وزوج مطرود البجلي ابنته خودة على مائة ناقة ومعها رطاتها <sup>(٦)</sup> . وكان أهل كندة مشهورين بالتغالي في مهورهم ، بدليل قوله صلى الله

(١) عيون المسائل ٨٨ والنظم الاجتماعية والسياسية ٤٠

(٢) اللغة ٦٢٩ ج فاندريس ترجمة الدواخلى والقصاص

(٣) إنسان العيون ٥٠/١

(٤) الميداني ١١٠/١ والمحاسن والأضداد ١٨٤ وفي جبهة الأمثال ١٨٣/١ أنه حس

ومائة من الإبل وخادم وألف درهم .

(٥) الأغاني ١٣١/١٩ مصبورة : مشرفة على الموت . وفي الأصل مصابرة . ناب :

مسنة . كزوم : ذهب أسنانها هرما (٦) بلوغ الأرب في أحوال العرب ٣٣/٢

عليه وسلم : « اللهم أذهب ملك غسان وضع مهور كندة<sup>(١)</sup> » ، وذكر الحبي أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل ، وربما مهرت الواحدة ألفاً<sup>(٢)</sup> ، وقد أصدق عمرو بن حجر أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني عقاراً في كندة ، ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة<sup>(٣)</sup> .

وكان المهر الذي قدمه النبي للسيدة خديجة عشرين بكرة<sup>(٤)</sup> ، وقيل إنه كان خمسمائة درهم<sup>(٥)</sup> ، وقيل إنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشاً<sup>(٦)</sup> ، ورأى السهيلي أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدرهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقداً ، وزاد عليه النبي تلك البكرات<sup>(٧)</sup> .

وقد افتخروا بعظمة المهر ، لأنها دليل في نظرهم على علو الشأن ، قال الأبيرد ابن هرثمة العذري ، وقد مهر الفغاء بنت سنان العذري خمسين بعيراً :

إني لسمح إذ أفرّج بينها بأكثبة البقار يا أم هاشم  
فأفنى صداق المحصنات إفلها فلم يبق إلا جلة كالبراعم<sup>(٨)</sup>

وقال خالد بن جعفر يمن على هوازن بقتله زهير بن جذيمة :

وجعلت مهر بناتهم ودماءهم عَقْل الملوك هجائنا أباكرا<sup>(٩)</sup>

على أن بعضهم كان يقنع بحسب الخطاب ، ولا يتطالب منه مهراً ، من

(١) البيان والتبيين ٢/٢٨

(٢) ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه (٣) العقد الفريد ٣/١٩١

(٤) سيرة ابن هشام ١/٢٠٦ (٥) إنسان العيون ٤/١٥٤

(٦) بلوغ الأرب للعطار ٢٨ وطبقات ابن سعد ٨/١١٥ الأوقية : أربعون درهما ، والنش : نصف أوقية فتكون جملة الصداق خمسمائة درهم ذهباً ( بلوغ الأرب للعطار ٢٩ وفتح المبدى ٢/١٧٩ والطبقات ٨/١١٥ وإنسان العيون ١/١٥٤ )

(٧) إنسان العيون ١/١٥٤

(٨) معجم الشعراء ٣٥ البقار : واد . البراعم : شماریخ الجبال . الإفال : الإبل الصغار

(٩) الأغاني ١٠/١٤

ذلك أن لقيط بن زرارة بن عدس خطب إلى قيس بن خالد سيد ربيعة ، فزوجه ،  
وساق عنه المهر وهداها إليه من ليلته<sup>(١)</sup> .

ومن المهر الضئيل رقاع الجلد التي أجبر المهلهل على أخذها من قبيلة جنب  
- وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، إبقاء عليهم أن تفتيهم الحرب  
بسبب النار لأخيه كليب - وسار إلى اليمن ونزل في جنب وهم حى من مذبح ،  
فخطبوا إليه ابنته فنعهم ، فأجبروه وصدقوها جلوداً من آدم - فتحسر وتألم بقوله:

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشمٍ  
أنكحها فقدھا الأراقمِ في جنبٍ وكان الحباء من آدم<sup>(٢)</sup>

وذكر الجاحظ أن الأعرابي الفقير ربما صاد ضبا فاحتمله إلى كفيته فكان  
مهراً ، وقد قال في ذلك أحدهم :

أمهرتها بعد المطال ضبين من الضباب سحبتين سبتين  
نعم لعمر الله مهر العرسين<sup>(٣)</sup>

٢ - أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخفف من غلواء العرب في مهور  
بناتهم ، وأن يقيم الزوجية على دعائم أخرى من الدين والخلق غير دعامه المال ،  
فنهى عن المغالاة في المهور بأحاديث كثيرة ، منها : « لا تغالوا بالنساء فإنما هن  
سُميا الله<sup>(٤)</sup> » ، وقوله لسهيل بن سعد : « اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد »  
فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ، فقال :  
« هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : معى سورة كذا وسورة كذا ، قال :  
« اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن<sup>(٥)</sup> » ، وفي حديث ابن عباس

(١) جهرة الأمثال ٢٠١/٢ وأمثال العرب للضي ٢٠

(٢) أشعار المراقبة ٦٩ وعبون الأخبار ٩١/٣ وشرح الحماسة للرزوقي ١١٨/١

والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ١٤/٢ وخزانة الأدب ٢٨/٢ والشعر والشعراء ١٠٠  
والكامل لابن الأثير ١/٢٢١ .

(٣) الحيوان ٣٦/٦ السجل : الضخم . السبط : الحسن القد والمنظر

(٤) البيان والتبيين ٢/٢٧ (٥) فتح الباري ٩/١٧٨ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢

أن النبي زوج رجلاً بدون مهر ، على أن يعلم زوجته أربع سور أو خمساً من كتاب الله ، وفي حديث أبي هريرة أن يعلمها عشرين آية<sup>(١)</sup> . وروى عن النبي أن خير النساء أيسرهن صداقاً<sup>(٢)</sup> .

ونهى عمر عن المغالاة في المهر بقوله : لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة في الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاًكم بذلك ، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية<sup>(٣)</sup> .

على أن ذلك لم ينزع من العرب ما ألفوا ، وظلوا حراساً على عظم المهر ، وظلت النساء مزهوات بكثرتة ، يدل على ذلك أن عمر نهى عن المغالاة في المهور ، فردت عليه امرأة بقولها : ليس ذلك لك يا عمر ، إن الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً من ذهب » - وهي كذلك في قراءة ابن مسعود - فقال عمر : امرأة خاصمت عمر نفصمته<sup>(٤)</sup> . وروى أن عمر نفسه أصدق أم كلثوم بنت علي أربعين ألفاً ، وأن ابنه عبيد الله أصدق ابنة أبي عبيدالتغى عشرة آلاف درهم<sup>(٥)</sup> . وقد أصدق مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف ، وأهدى إليها خمسمائة ألف ، فقال أنس بن أبي أنس :

بُضِعَ الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جياجا

لو لأبي حفص أقول مقاتلي وأبشه ما قد أرى لالتاعا<sup>(٦)</sup>

وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفاً<sup>(٧)</sup> ، وأصدق

يحيى بن أبي حفصة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير عشرين ألف درهم<sup>(٨)</sup> .

وفي رأى الفقهاء أن أقل المهر ما يمكن أن يتمول به ، وهو ما يجب فيه قطع اليد

(١) فتح الباري ١٧٩/٩ وتيسير الوصول ٢٨٢/٢

(٢) تيسير الوصول ٢٨٤/٢ وسنن أبي داود ٢١٠/١

(٣) الطبقات لابن سعد ١١٥/٨ وتيسير الوصول ٢٨٣/٢

(٤) فتح الباري ١٧٥/٩ والكنشاف ٩٧/١ (٥) عيون الأخبار ٧١/٤

(٦) الردقات من قریش ٧٠ من نوادر المخطوطات (٧) الطبقات ٨٧/٣

(٨) الكامل للبرد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤

في السرقة ( ثلاثة دراهم وقيل خمسة وقيل عشرة ) أو هو أربعون أو خمسون على أنه لا يقدر أقله<sup>(١)</sup> ، وخالف في ذلك المالكية والحنفية ، فعند الحنفية أقله عشرة دراهم ، وهي تساوي الآن خمسة وعشرين قرشاً<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن التقالي في المهور كان يحنق كثيراً من العاجزين عن دفع مثلها ، يقول أعرابي :

يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أن من شاء يكذب<sup>(٣)</sup>

وصايا للزوجة عند زفافها :

إذا ما تاهبت البنت لتنتقل من رعاية أبويها إلى كفالة زوجها زودتها أمها وأبوها بوصايا من نتاج الخبرة والتجربة .

١ — فمن وصايا الأمهات ما أوصت به زوجة عوف بن محمّ الشيباني لما زفت بنتها أم إلياس إلى عمرو بن حُجر ، قالت لها : أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل ، لم تعرفيه ، وقرين لم تألقه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرأً يكن لك ذخراً .  
أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحق السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع مَلَّهية ، وتنقيص النوم مفضية . وأما السابعة والثامنة فالاحتباس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفسيت مره لم تأمئ غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والسكابة بين يديه إذا كان فرحاً<sup>(٤)</sup> .

(١) فتح الباري ١٧٥/٩ (٢) عيون المسائل ٩٠ (٣) عيون الأخبار ٧٢/٤

(٤) المقد الفريد ١٩١/٣ ومحاضرات الأدباء ١٢٣/٢ وشرح نهج البلاغة ٣٠٨/٤  
وجمع الأمثال ١٩٢/٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٣ ومحاسن النساء لابن هشام ٧ مخطوط  
وأعلام النساء ٦٠/١

وفي هذه الوصية قوام السعادة الزوجية ، لأنها تريد ابنتها على طاعة زوجها ، وتريدها على العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وأن تراعى راحتها في منامه وطعامه ، وأن تقتصد في نفقاتها ، وتربي أولادها ، وتراقب خدمها ، وأن تصون أسرارها ، وتشاركه مشاركة وجدانية في أفراحه وأفراحه .

إنها إن فعلت ذلك كانت زوجة صالحة ، بل كانت مثلاً عالياً في الزوجات . وإذا كانت قد نهبتها على النظافة - كما سينبه غيرها - فإنها بتجربتها تتفق مع ما يقرره الطب الحديث من أن التهاون في تنظيف الجسم والأعضاء التناسلية ينفّر أحد الجنسين من الآخر ، فتنشأ عن هذه الفترة عوامل نفسية عدة ، كالتمرّز والاشتمزاز وغيرها (١) .

وقد فصلت القول في أثر الروائح العطرية في الجاذبية في كتاب آخر (٢) . وليس يعدم المجتمع أن يكون فيه الخير والشرير ، والمسلم والمشاغب ، وأن تكون من الأمهات الشرسة الحريصة على أن تكون ابنتها مثلاً ، فقد أوصت امرأة ابنتها بقولها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه ، انزعج زج رجحه ، فإن سكت قطعى اللحم على رأسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه (٣) .

٢ - وللآباء في هذا المجال إرشاد وتوجيه . ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر ، كان إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال : أسمعين ؟ كوني له أمة يكن لك عبداً (٤) . ومنهم ذو الجدين ، قال لابنته لما زفت إلى لقيط بن زرارة : كوني له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أكثر طيبك الماء ، واعلمى أن زوجك فارس مضر ، وإنه يوشك أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشى عليه وجهاً ، ولا تحلقى شعراً (٥) .

(١) الأزمت الزوجية وعلاجها للدكتور محمد زكى شافعى ١٠٣

(٢) الفزل في العصر الجاهلى ١١٢ (٣) عيون الأخبار ٧٧/٤ ومحاضرات

الأدباء ١٢٠٤/٢ والإحياء للغزالي ٤١/٢ (٤) عيون الأخبار ٧٧/٤

(٥) الأغاني ١٩/١٢١ والعقد الفريد ٣/٢١١ وأمثال العرب للضبي ٢٠

وكذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته بأن تتنظف بالماء<sup>(١)</sup>. وما زلت نائلة بنت الفرافصة الكلبي إلى عثمان رضى الله عنه قال لها أبوها : يا بنية إنك تقدمين على نساء قريش، وهن أقدر على الطيب منك، فلا تغلبي على خصلتين : الكحل والماء، فتكحلى وتطيبى بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر<sup>(٢)</sup>.

وما زال الآباء يوصون بناتهم في الإسلام، فمثلا أسماء بن خارجة الغزاري قال لابنته وقد زفها إلى الحجاج : يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل، وإياك وكثرة المعاتبه، فإنها قطعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وكوفى لزوجك أمة يكن لك عبدا، واعلمى أنى القائل لأمك :

خذى العفو منى تستديمى مودنى ولا تنطقى فى سورتنى حين أغضبى  
ولا تنقُرنى نقره الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المغيب<sup>٣</sup>  
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى إذا اجتمعما لم يلبث الحب يذهب<sup>(٣)</sup>  
وهذه الوصايا من الآباء تدور حول النظافة والطاعة وحسن التبعل عامة.

## مكانة الزوجة عند زوجها

مبه لها :

حظيت المرأة العربية عند زوجها، وأولاهما من تقديره ورعايته وحبه ما يدل على علو مكانتها فى نفسه، وأنه نظر إليها على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز، وأحيانا كان الزواج يسبق بحب، وكثيرا ما نبتت من الزواج شجرة الحب<sup>(٤)</sup>. فهذا دريد بن الصمة يحب الخنساء ويتغزل بها، ويخطبها إلى أبيها، ويحبه فى غزله قوله :

(١) عيون الأخبار ٤/٧٦

(٢) نثر الدر : صورة شمسية بدار الكتب، وعيون الأخبار ٤/٧٦ والأغانى ١٥/٧٦

(٣) الأغانى ١٨/١٢٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ١/١٢١ وعيون الأخبار ٤/٧٧

أن القائل أبو الأسود - (٤) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩ والأغانى ٢/١٢٨ - ١٣٢

أُخْناَسُ قَدْ هَامَ الْفُؤَادَ بِكُمْ واعتاده دلا من الحب<sup>(١)</sup>  
 وكثير من العشاق كانوا يحبون ويريدون أن يتزوجوا بمن يحبون ، كالمركش  
 الأكبر<sup>(٢)</sup> ، وعروة بن حزام<sup>(٣)</sup> ، وعمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء  
 السماء<sup>(٤)</sup> ، وعدى بن زيد العبادي<sup>(٥)</sup> ، وأبي مالك بن عبد الله بن مسعود<sup>(٦)</sup> ،  
 وعُتْبَةُ بن الحُبَابِ بن المنذر بن الجوح<sup>(٧)</sup> ، والحَبَلُ القَيْسِي<sup>(٨)</sup> .  
 وقد تغزل بعض الشعراء في زوجاتهم ، لأنهم أحبوهم حبا حارا كما يحب  
 الرجل فتاة لا ينالها ، فمثلا تغزل زهير بن أبي سلمى في زوجته أم أوفى<sup>(٩)</sup> ، وبدأ  
 معلقته بقوله :

أمن أم أوفى ديمنة لم تكلم بحومانة الدراج فآلمتلم<sup>(١٠)</sup>  
 وامرؤ القيس تغزل في زوجته أم جندب بقوله :

خلى مرّابي على أم جندب لتقضى حاجات الفؤاد المعذب  
 فإنكما إن تُنظرا في ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب  
 ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب  
 عقيقة أتراب لها لا دميمة ولا ذات خلقي إن تأمات جانب<sup>(١١)</sup>  
 وتغزل حسان بن ثابت في زوجته الشعناء<sup>(١٢)</sup> . ثم حدث هذا أيضا في العصر  
 الأموي من الحارث بن خالد المخرومي إذ شب بزوجه أم عمران<sup>(١٣)</sup> .

وإذا فلم يكن العوب شعبا بدائيا ، يجهل عاطفة الحب ، ويقم الزواج على أنه  
 اتصال حيواني الغرض منه إشباع اللذة ، وإنسال الولد فحسب ، ذلك بأن البدائيين

(١) الأغاني ١١/٩ والأماي ١٦١/٢

(٢) الأغاني ١٧٩/٣ والشعر والشعراء ٥٤ وتزين الأسواق ٨٨ ودبوان طرفة ١١٨

(٣) فوات الوفيات ٣٥/٢ والأغاني ١٥٣/٢٠ والذوادر ١٦١ وتزين الأسواق ٧٧

(٤) الدر المنثور ٣٤٨ (٥) الأغاني ١٢٨/٢ - ١٣٢

(٦) تزين الأسواق ٩١ (٧) تزيير، الأسواق ٩١

(٨) الأغاني ١٦/٢١ (٩) الأغاني ١٥٠/٩

(١٠) شرح التصانيد العشر ١٠٣ (١١) دبوان امرئ القيس ٣١ جانب: ضخم قصير

(١٢) الإصابة ١٢٠/٨ (١٣) الأغاني ٣٣٠/٣



لا يعرفون عاطفة الحب ، وقاموا بتفنونها بصورها ، لذلك لما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة ألجونكون Algonquins لم يجدوا في لغتهم كلمة تعبر عن الحب ، وفي قبيلة الهونتوت نجد الزواج عملاً آلياً ، ولا يأبه أحد الزوجين بالآخر ، وكذلك في ساحل الذهب وعند الأستراليين البدائيين<sup>(١)</sup> والمتأخرون بعامة أقل من المتدينين ميلاً إلى النساء ، حتى لقد يبقى الرجال أعزاباً مدة طويلة من أعمارهم ، ثم تطراً عليهم الرغبة في الاتصال الجنسي . وهم فقراء عاطفة في عاطفة الحب الجنسي ، لهذا لا يعمر الغرام بالمرأة قلوبهم أو خيالهم<sup>(٢)</sup> . بل كان العرب شعباً متحضراً يؤسس العشرة بعد الزواج على دعائم من الحب والتعاطف والاعتزاز .

وكانت الزوجة العربية أرفع مكانة من اليونانية والرومانية ، لأن هذه لم تكن تنال مثل ما نالت العربية من حب زوجها وتقديره « ولم يعرف الأوروبيون للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس ، ونقل عنهم الإسبان والأوروبيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا »<sup>(٣)</sup> .

### نراؤها بلقب التكريم :

ومن دلائل حبه وتقديره أنه كان يلقبها باللقاب فيها تكريم وإشعار بالعزاة ، فمثلاً قيس بن عاصم يقول لزوجته منقوسة بنت زيد الفوارس الضبي وقد أته بطعام ، أو حاتم يقول لزوجته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك      ويا ابنة ذى البردين والفرس الوردي  
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له      أكلياً فإنى لست آكله وحدي<sup>(٤)</sup>

(١) قصة الحضارة ٧١ ول ديورانت

(٢) The psychology of Mrrriage. P. 240. Waltee M. Gallichan

(٣) تراث الإسلام ١/١٥٩

(٤) الأغاني ١٢/١٤٤ وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ وفي شعراء النصرانية ١٣٣

وشرح الحماسة للتبريزي ٤/١٠٠ وحامسة المالديين ٢٨٩ مخطوط أن الفائل حاتم الطائي .

وعروة بن الورد يلقب زوجته بأبيها العظيم :

أَقْلَى عَلَى اللّومِ يَا بِنْتَ مَنْذِرٍ وَنَامِي فَإِن لَّمْ تَشْتَبِهِي النّومَ فَاسْبِرِي<sup>(١)</sup>  
ولقد يلقبها زوجها باسم ابنها ، إعزازاً لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر  
التميمي لزوجته :

أُمّ تَعَلَمِي أُمَّ الْجَلَّاسِ بَأَنَسَا كِرَامٍ لَدَيْ وَقَعِ السِّوْفِ الصَّوَارِمِ<sup>(٢)</sup>  
وقول عروة في امرأته سلمي :

ذَكَرْتَ مَنَازِلًا مِنْ أُمِّ وَهَبٍ مَحَلَّ الحِي أَسْفَلَ ذِي النَّقِيرِ  
وَأَحْدَثَ مَعْبِدَ مِنْ أُمِّ وَهَبٍ مُعَرَّسُنَا فَوَيْقَ بَنِي النَّضِيرِ<sup>(٣)</sup>  
وقوله أيضاً لزوجته ملقباً بأم مالك تارة وبأم حسان تارة :

سَلَى الطَّارِقَ الْمُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قِدْرِي وَمَجْرِي  
أُيَسْفِرُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرِي وَأَبْدَلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي؟  
وقوله أيضاً :

ذَرَبْنِي وَنَفْسَ أُمِّ حَسَانٍ إِنِّي بِهَا قَبْلَ أَلَا أَمْلِكُ الْبَيْعَ مَشْتَرٍ  
أَحَادِيثَ تَبَقَى وَالْفَتَى غَيْرَ خَالِدٍ إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيْرٍ<sup>(٤)</sup>

ورثما ناداها الزوج باسمها مجرداً ، إشعاراً بالألفة وقرب النفس إلى النفس ،  
وهذا هو الغالب ، وربما ناداها باسمها مصغراً تدليلاً وإيناساً ، وربما كنى عنها  
بميزة من مميزاتهما ، وخاصة من خواص عملها . قال الشاعر :

أُمّ تَعَلَمِي يَا رَبَّةَ الخَدْرِ أَنِّي أَبِيُّ إِذَا رَامَ العَدُوَّ تَهَضُّمِي

ذو البردين : عامر ابن أحيمر بن بهدنة أخذ من المنذر بن ماء السماء بردي ابنه عمرو بن هند  
في جمع من وفود العرب مكافأة له لأنه من أعزهم قبيلة وأكثرهم عدداً ( التناض ٧١٤ )

(١) شعراء النصرانية ٨٨٣

(٢) حماسة البحرى ٢٤٢ (٣) شعراء النصرانية ٨٩٠ ذو النقيز : ماء أو موضع

لبنى القين ولكب . (٤) شعراء النصرانية ٩١١ وديوان عروة ١٣ وجمهرة أشعار

العرب ٢١٤ وجموع أشعار العرب ١/٢٩ هامة : طائر يخرج من القبر في زعمهم يطلب النأره

صير : قبر

وقال أزهري بن هلال التيمي :

أعانتك ماوليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدماً<sup>(١)</sup>

وقال تأبط شرا :

إلا تكلماعرسى منيعة ضمنت من الله إثمنا مستسراً وعالنا<sup>(٢)</sup>

وذكرها المثقب العبدى أو علبة بن يزيد بأنها عرسه :

تهزأت عرسى واستنكرت شيبى ففيمها جنف وأزورار<sup>(٣)</sup>

وصفر تأبط شراً اسمها فى قوله :

تقول سلميى لجاراتها أرى ثابتاً قد غدا مُرملاً<sup>(٤)</sup>

### إشهادها على مفاهمه

إذا كان العربى كلفا بأن يشيد بمفاخره ، ويذيع محامده ، فإنه كان كلفا أيضاً بتوجيه الخطاب إلى المرأة - زوجته أو حبيبته - وإشهادها على هذه المفاخر. من ذلك قول عروة بن الورد فى إشهاد زوجته على محامده :

وقد علمت سليمى أن رأى ورأى البخل مختلف شتت

وأنى لا يربنى البخل رأى سواء إن عطشت وإن رويت

وأنى حين تشتجر العوالى حوالى اللب ذورأى زميت<sup>(٥)</sup>

وقول حاتم أوقيس بن عاصم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقا أو جار بيت فإنى أخاف ملامات الأحاديث من بعدى<sup>(٦)</sup>

وقول أوس بن حجر :

ألم تعلمى أمّ الجلاس بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم؟

(١) حماسة البحرى ٥١ (٢) الأغانى ٢١٣/١٨ (٣) الحماسة البصرية ١٠٥ مخطوط.

(٤) الحماسة البصرية ١٢ (٥) ديوان عروة وشعراء النصرانية ٩٠٦ زميت :

وقور . (٦) ديوان حاتم ٩ وشرح الحماسة للتبريزى ١٠٠/٣ وفى الأغانى ١٤٤/١٢

وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ أن القائل قيس بن عاصم

وأنا لنعطى الحق منا وأننا لناخذهُ من كل أبلج ظالم<sup>(١)</sup>  
وقول عروة :

سلى الطارق المعتز يا أم مالك إذا ما أتاني بين قِدرى ومجزرى  
أيسفر وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر<sup>(٢)</sup>  
وإنه ليتامى فى إشباده على محامده تماذا ، فيتطلب منها أن تسائل الحارين ،  
عن شجاعته لترهى به ، ويزهى بإعجابها . يقول عامر بن الطفيل :

فلو علمت سليمى عِلْمَ مثلى غداة الرّوع واصت الكراما<sup>(٣)</sup>  
ويقول :

هلاً سألت بنا وأنت حفيّة بالقاع يوم تورّعت نهْدُ  
هذا مقامى قد سألت وموقفى وعن المسير فسائلى بعدُ  
أسألت قومى عن زياد إذ جنى فيه السنان وإذ جنى عبد<sup>(٤)</sup>  
ويقول عنتر بن شداد :

سلى عنا الفزاريين لما شفينا من فوارسها الكبودا<sup>(٥)</sup>  
ويقول :

يا عبل كم من غمرة باشرتْها بمثقف صاب القوائم أسمر<sup>(٦)</sup>  
ويتهدد عامر بن الطفيل زوجته بالطلاق إن هى تفاضت عن الخفاوة بلبائنه ، يقول :  
طلّقت إن لم تسألنى أى فارس حليلك إذ لاقى صداء وخنمها  
أكر عليهم دعلجاً ولبائنه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحا<sup>(٧)</sup>

### اعتذاره لها من فراره

أحياناً كان المحارب يضطر إلى أن يفر ، وهو يعلم أن الفرار مخزاة ومعة ،

(١) حماسة البحتري ٢٥٢

(٢) شعراء النصرانية ٩١١ (٣) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

(٤) الديوان القصيدة ٣ (٥) ديوان عنتر ٥٦

(٦) ديوان عنتر ٨٦ (٧) ديوان عامر القصيدة ١٩ ملحق

فيجعل يبرر فراره ، وينحل لنفسه المماذير ، ويختص زوجته بأعداره ، لأنها الشخص الأول الذي يهيمه أن يشهد له بالشجاعة ، ويحججه أن يصمه بالجبن .

فرّ أوس بن حجر عن بني عبس ، وكان فيهم زهير بن جذيمة العبسي وأولاده شأس ومالك وقيس ، فاعتذر لزوجته بأن أعداءه ذوو دهاء ، فقرّ حتى لا يقتل ، ولم يفر عن جبن ، لأن شجاعته معلومة من قبل :

أجاعلة أم الحصين خزايةً      على فرارى أن لقيتُ بني عبس  
ورهُط أبي سهم وعمرو بن عامر      وبكرا نجاشت من لقائهم نفسى  
أو :

لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا      وقيسا نجاشت من لقائهم نفسى  
كأن جلود الثمر جيبت عليهم      إذا جمعوا بين الإناخة والحبس  
فضموا علينا حَجَرَ تَيْنَا بصادق      من الرأى حَسَّ النَّارِفى الحطب اليبس  
فَأُبْتُ سُلَيْمى لم يُحَرِّقْ عمامتى      ولاصفحتى وَقَعُ القواضب فى الترس  
وليس يعاب المرء من جبن يومه      إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس (١)

ويعتذر زهير بن هلال لزوجته بأنه لم يفر إلا بعد أن هزم رجاله وتفرقوا ، فلم يحمد من الكياسة والحصافة أن يتقدم وحده ، على أنه قد فر بعد أن أثنى الجراح فى أعدائه :

أعاتك ما وَّليتُ حتى تبددت      رجالى وحتى لم أجد مُتَقَدِّمًا  
أعاتك إني لم أَلَمْ فى قتالهم      وقد عض سيفى كبشهم ثم صمعا  
أعاتك أفناني السلاح ومن يُبطلُ      مقارعة الأبطال يرجع مكلما (٢)

ويعتذر شاعر آخر لزوجته بأنه خشى الأسر ، ولم يخش القتل :

قالت سلامة لا أرى لك عادة      أن تترك الأعداء حتى تُعذِّرا  
لو كان قتل يا سلام فراحة      لكن فررت مخافة أن أوسرا (٣)

(١) ديوان أوس بن حجر ١٠ والحامسة البصرية ١٢ مخطوط وحامسة البحرى ٥٢ وفى العقد الفرید ١٧٥/١ أن القائل عمرو بن معديكرب . الشجاعة

(٢) حماسة الخالدين ٢٤٤ مخطوط وحامسة البحرى ٥١ (٣) المرأة العربية ١/٢٢

ولقد نظرت امرأة حماس بن قيس إليه وهو يُحِدُّ حربته يوم فتح مكة ،  
 فقالت له : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعدها لحمد وأصحابه ، فقالت : ما أرى يقوم  
 لحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . فلما لقيهم  
 خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل وفر ، وقال لامرأته : أغلقتى علىّ بابي .  
 فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فاعتذر لها بأن سادة قريش فروا ، وأن  
 المسلمين غلابون ضرّابون :

إنك لو شهدت الخليل يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفر عكرمه  
 وابو يزيد قائم كالمؤتمه ولحقتنا بالسيوف المساه  
 يَفْلِقْنَ كل ساعد وجمعه ضرباً فلا نسمع إلا غغمه  
 لم نهبّت خائفنا وهممه لم تنطقي في الاوم أدنى كلمه<sup>(١)</sup>  
 فخره بحسن عشرته لهما :

كان من سراوة الخلق وسمات الرجولة أن يحسن الرجل عشرة زوجته ،  
 لذلك خايل بعضهم بأنه لا يسمى عشرتها ، كقول ذى الإصبع العدواني إنه يابى  
 نداء جارته وكنتها ، ولا يفجع زوجته بشرّ :

ثم سلا جارتى وكنتها هل كنت فيمن أراب أو فرّعا ؟  
 أو دعئاني فلم أجب ولقد تأمن منى حلياتي الفجعما<sup>(٢)</sup>  
 ومع شهرة التيميات بالدل وصعوبة المراس كن حظيات عند أزواجهن ،  
 ينعمن بدمائة أخلاقهم<sup>(٣)</sup> .

(١) العقد الفريد ١٧٣/١ ( القائل اسمه الحارث ) وفي سيرة ابن هشام ٢٦/٤ ومجمع  
 البلدان عند الكلام على الخندمة أن القائل حماس بن قيس بن خالد وفي السيرة أيضاً ٢٨/٤ أن  
 القائل اسمه الرعاش الهذلي وفي الكامل للمبرد ٣٦٥ طبعة أوروبا أنه أبو عثمان الهذلي الرعاش  
 أو حماس بن قيس . أبو يزيد : حذف همزته لضرورة الشعر . المؤتمه : التي قتل زوجها فبقى  
 لها أولاد أيتام . المسلة : السلون . الغممة : صوت الأبطال في الحرب . نهبّت : نوع من  
 صياح الأسد مهمة : صوت في الصدر .

(٢) الأغاني ٩٧/٣ . الكنية : امرأة الابن أو الأخ . أراب : فعل ما يريب . فرع :  
 أغش أو تسلل إلى غير زوجته من فرع العروس إذا غشيها أو فرع في الجبل إذا صعد فيه وفي  
 الأصل فدع . الفجع : الأذى (٣) الأغاني ١٠/١٥

على أن الرجال لم يكونوا على نسق واحد في معاملة الزوجات ، وهذا طبيعي ،  
فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : كنا معشر قريش نغلب النساء ،  
فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب  
نساء الأنصار ، فصغبت على امرأتى ، فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ،  
فقلت : ولم تنكر أن أراجعتك ؟ فوالله إن أزواج النبي ليراجمنه ، وإن إحداهن  
لتبجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ذلك . . وفى رواية يزيد بن رومان :  
كنا ونحن بمكة لا يكلم أحد امرأته إلا إذا كانت له حاجة . وفى رواية عبيد  
ابن حنش : ما نعد للنساء أمراً . وفى رواية الطيالسى : كنا لا نعتد بالنساء  
ولا ندخلهن فى أمورنا<sup>(١)</sup> .

ولكن فى هذا نظراً ، لأن كثيراً من القرشيين كانوا يحفلون بنسائهم ،  
أو يشركونهن فى أمورهم كما سبق ، وكما سيجى . ويظهر لى أن خلق عمر كان فيه  
بعض جفاء فى معاملة النساء ، وربما شرکه بعض القرشيين فى خلقه ، وربما توهم  
بعضهم أن القرشيين مثله . ولسنا نستطيع أن ندعى أن العرب كلهم كانوا يحسنون  
معاملة النساء ، لأن هذا مفاير للطبائع ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة عليه القدر  
فى بعض البيئات ومهينة فى بعضها الآخر ، من الوطن الواحد .

ثم إن حسن المعاملة لم يتدل بالزوج إلى أن يكون خنوعاً لزوجته ، أو  
إمعة لا رأى له ، لأن الخلق العربى مدعوم برجولة وفتوة ، لذلك يقول الشنفرى  
لزوجته : طلقينى إذا رضيت بمخالفتك لى فيما نهيتك عنه ، لأنك إذا الزوج ،  
ومن حقت أن تؤدبى بسوطك :

إذا ما جئتِ ما أمهك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى  
فأنت البعل يومئذ قومى بسوطك لا أبالك فاضربينى<sup>(٢)</sup>

ويقول عروة إنه لا يصيخ لزوجته إذا أمرته بمقوق :

إذا أمرتني بالعقوق حليلتي فلم أعصها إني إذا لمُضِيع<sup>(١)</sup>  
 وإن فحولة الرجل لتتضح حينما تسيء زوجته إلى ابنه من غيرها ، أو إلى أخى  
 زوجها ، فيردعها ردعا ، من ذلك أنه كان لعمر بن شاس ابن يقال له عَرَّار من  
 أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، وكان عراريشتمها ، فغضب  
 عمرو وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه ، لأنه يحبه ويعزه ويحميه :

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم  
 وإن عرارا إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم  
 وإن عرارا إن يكن ذا شكيمة تقاسينها منه فما أملك الشيم  
 فإن كنت منى أو تريدن صحبتي فكوني له كالسمن ربت له الأدم  
 وإلا فسيري مثل ما سار راكب تعجل خمسا ليس في سيره أمم<sup>(٢)</sup>  
 وأنف دريد بن الصمة أن تشتم زوجته أخاه ، لأنها إذا تشتمه أيضاً :

أعبد الله لو شتمت عرسى تساقط لحم بعضى فوق بعض  
 معاذ الله أن يشتمن عرضى وأن يملكن إمرارى ونقضى  
 إذا عرس الفتى شتمت أخاه فليس بحامض الرثين محض<sup>(٣)</sup>

### استماع مسورتها :

هذه العشرة التي يتعاطى الزوجان صفوها ، ويتبادلان فيها الثقة والإعزاز  
 جدرة بأن تمهد للزوجة أحيانا سبيل المشورة على زوجها فيما يعود عليهما بالخير ، وهو

(١) شعراء النصرانية ٩١٤

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر والأمالى ١٨٩/٢ وشرح الحماسة  
 للرزوق ٢/٢٨٠ والأغانى ١٠/٦٠ غير واضح : غير أبيض جميل . العمم : النمام الطويل .  
 شكيمة : جفوة . ربت له الأدم : دهن الوعاء بالرب ليصلح السمن الذي فيه ، أى أحسن معاملته  
 ظاهرة وباطنة بحيث لا يكون فيها تغير كالسمن المربوب وعاءه . تعجل خمسا : سار مسرعا  
 إلى الماء ليقى ليله بعد أن عطشت أربعة أيام . أمم : إبطاء .

(٣) الوحشيات لأبي تمام ١٠١ مخطوط . حامض الرثين : مر اللحم . محض : خالص النسب



لا يجد غضاضة في أن يستمع إليها ويحقق ما تريد .

ولقد تكون المشورة إصلاحا بين القبائل ، كما حدث لما خطب الحارث بن عوف هَيْسَةَ بنت أوس بن حارثة الطائي ، فلما هم بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ؟ — وكان ذلك في أيام حرب عيس وذبيان — فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحللا عنهم الديات ، فانصرفا بأجل الذكر ، وشاد بهما زهير بن أبي سلمى <sup>(١)</sup> .

ولقد تشير الأم على زوجها في تزويج ابنته ، ويرتضى هذه المشهورة كما سبق في اختيار الزوج . ولقد تكون مشورتها في شأن من شئون الحياة كالرحلة مثلا ، فقد أراد الحطيئة أن يسافر ، فأنته امرأته بعد ما أعد راحلته ليركب ، فقالت :

أذكرُ تَحَنُّنًا إليك وشوقنا      واذكر بناتك إنهن صغار

فقال : حطوا الرحال ، لا رحلت أبدا <sup>(٢)</sup> .

على أنها كانت ذات أثر عظيم في تشجيع زوجها وحفز همته ، وخير مثل في ذلك السيدة خديجة ، فقد آمنت بالنبى ، وصدقت بما جاء من الله ، وآزرتة على أمره ، تخفف الله بمؤازرتها عن نبيه ، وكان لا يسمع بما يكرهه من الرد عليه والتكذيب له إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبتته وتصدقته وتمهون عليه أمر الناس <sup>(٣)</sup> .

غبرته عابها وصمها :  
غبرته عابها وصمها :  
غبرته عابها وصمها :

في هذه البيئة التي قامت الأخلاق فيها على الإباء ، والاعتزاز بالشرف ، وحسن الأحذوثة كان لا بد للرجال من الغيرة على العرض ، وكان العدوان عليه يجر حربا وويلا .

(٢) الأغاني ٢/١٧٧

(١) الأغاني ٢/١٤١ والمستطرف ٢/٢٢٢

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٥٩

وقد افتخر العرب بالعفة ، ومدحوا بها ، وهؤلاء المنتخرون بالعفة والمدحون بها عُزُّوا على النساء ، وما زالت غيرتهم مضرب الأمثال ، لذا قالوا : « كل شيء مَهْمَةٌ ما خلا النساء وذكرهن » يريدون أن كل شيء يسير جميل مقبول يُعْتَمَد الرجل إلا ذكر الحرم ، فإنه يمتعض منه ولا يطيقه<sup>(١)</sup> .

ولهم في الغيرة حديث عجب ، فمثلا قتل آكل المرار حُجْر بن عمرو بن معاوية الكندي أو الحارث بن عمرو بن حُجْر الكندي امرأته هندا ، لأن عمرو بن الهَبُولَةَ سبها في غيابها ، فلما قدم تبعه وقتله واستنقذها ، وعلم أنه نال منها ، فربطها في أذنان الخليل حتى تقطعت أوصالها<sup>(٢)</sup> . وكذلك فعل الحارث بن عمرو إذ غزاها ابن هُبَيْرَةَ النسائي في غيبته ، فأخذ ماله وسبى امرأته ، فأصابها في الطريق ، ثم لحقه الحارث فقتله ، وتخلص امرأته ، ولما عرف أنها مست أمر بها فوثقت بين فرسين ، ثم أحضرهما حتى تقطعت ، وأنشد :

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خَيِّتَ عور  
إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مفرور<sup>(٣)</sup>

وأرجح أن الحادثة واحدة ، ولكنها نسبت إلى شخصين ، بدليل تشابهها

#### (١) بجم الأمثال ٧٠/٢

(٢) الأغاني ٨٢/١٥ وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ . سمى آكل المرار لأنه حنق من سبى امرأته حتى أكل المرار وهو يعبث به ولا يدري ( الأغاني ٨٢/١٥ - ٨٤ ) و ( سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ ) أو لأنه أكل هو وأصحابه شجر المرار في غزوة ( سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤ ) وأنا أرجح أحد هذين البيتين وأستبعد الرأي الثالث وهو أن امرأته قالت لسايبها : كأنني برجل آدم ( مسترخى الشفتين ) أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار ، قد أخذ برقبتك . والمرار شجر مر إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها فبذت أسنانها وفي آكل المرار خلاف . أم هو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية ( سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤ ) والأغاني ٦١/٨ و ٨٢/١٥ وشرح القصائد العشر للتبريزي (٣) فهو الجد الثالث لامرئ القيس . أم هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية ( هامش الأغاني ٨٤/١٥ ) والاشتقاق لابن دريد وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ والقاموس المحيط مادة مر ( فهو جد امرئ القيس لأنه عاش حوالي سنة ٤٨٠ : تاريخ العرب ١١٥/١ فيلب حتى ) . (٣) أخبار النساء ٣ و بجم

الأمثال ١٧٧/٢

( ١٣ - المرأة في الشعر الجاهلي )

وأن صاحب العقد يذكر هذين البيتين بعد قصة آكل المرار<sup>(١)</sup>.

أما حماية الزوج لزوجته فإنها صورة من حماية العربي للمرأة عامّة ، فلا داعي لتفصيل القول فيها الآن . وحسبنا هنا هذه اللمعة ، يقول مالك بن أبي كعب الأوسى إنه يستعيز بالله من أن تقول زوجته إنه فرّ عنها ، وإنه يجود بأخر قطرة من دمه ليحميها من الأسر :

معاذ الإله أن تقول حليلتي ألافراً عنى مالك بن أبي كعب  
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلاً وأنجو إذا غمّ الجبان من الركب<sup>(٢)</sup>

وعير عامر بن الطفيل قيساً أنه أسلم زوجته سبية :

وأفلمتاً على الخومان قيس وأسلم عرسه ثم استقاما<sup>(٣)</sup>  
وإذا ما تهاون في حمايتها نبذته ، ورفضت أن تعاشره ، لأنه في نظرها فسل لا تعترف في رحابه ، ولا تطمئن إلى حمايته . من ذلك أن بني عبد مناة أغاروا على مجل وحنيفة في يوم العذاب ، ويسمى أيضاً يوم الصعاب ، وسبي عمرو بن الحارث أو الحارث بن تولب حسينة بنت جابر العجلي ، وكانت زوجة لابن عمها تمام بن سواده ، ففر عنها فأسرت ، ثم إن زوجها وأباها أتيها ليفادياها ، فرفضت واختارت سايها وقالت تعير زوجها :

تمم قد أسلمتني لرماحهم وخرجت تركض في مجاج القسطل  
وتعومني ألا أكره عليكم هيات ذلك منكم لا أفعل  
ثم افتداها أخوها ، وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض تميم ،  
وقال :

وخيرنا حسينة إذ أتتها سواده ضارعا معه الفداء  
وقالت إن رجعت إلى تميم مخيرة فقد ذهب الحياء  
وهبناها لأبجر إذ أتانا وفيها غيرها منهم نساء

(١) العقد الفرید ٢٠/٢ (٢) حماسة الخالدين ١٠ مخطوط .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٢

وفي ذلك يقول جرير للأخطل :

ورأت حسينة بالعداب فوارسا تخوى التهاب وتقسم الأنفالا<sup>(١)</sup>

### الإسلام ومعاملة الزوجات

لاشك أن الإسلام هذب الأخلاق الجامحة ، وشذب العادات الطالحة ، وسنَّ جديدا من الآداب ، وزاد من عطف الرجال على الزوجات .

فقد شرع القرآن الكريم وسائل تأديب الزوج لزوجته : « واللاتي تخافون تشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا »<sup>(٢)</sup>

وشرع التحكيم بين الزوجين المتخاصمين : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليا خيرا »<sup>(٣)</sup> .

وأوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالنساء خيرا في حجة الوداع : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله »<sup>(٤)</sup>

وبين النبي أنه لا غصاضة ولا ضير في مداعبة الرجل زوجته : « اللهم في ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك »<sup>(٥)</sup> .

وكان صلى الله عليه وسلم أنبل زوج معاملة ، وأظرف زوج عشرة . وحسبنا قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »<sup>(٦)</sup> .

وقد نهى عن ضرب النساء ، فقليل له يارسول الله إنهن قد فسدن ، فقال : « اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم »<sup>(٧)</sup> .

(١) أشعار النساء المرزباني ٥٧ - ٥٩ مخطوط (٢) سورة النساء ٣٤ (٣) سورة

النساء ٣٥ (٤) تيسير الوصول ٢/٢٥٦ والمغازي للواقدي ٤٣٤ والبيان والتبيين ٢/٣٧ .

(٥) كنز العمال ٧/٣٣١ وعيون الأخبار ٤/٨١

(٦) كنز العمال ٨/٢٥٨ (٧) الطبقات لابن سعد ٨/١٤٧

وقال في خطبة الوداع: « إن الله قد أمر أن تهجروهن وتضر بوهن ضرباً غير مبرح » وهاله أن يلجأ الأزواج إلى الضرب في قلة مبالاة ، فقال : « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل نائراً فريصاً عصب رقبته على مريثته يقانها . » وشكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضرباً شديداً ، فقام فأنكر ذلك وقال : « يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعاقبها ولا يستحي »<sup>(١)</sup> . وللنبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في الوصاية بالزوجات والحث على إحسان معاملتهن<sup>(٢)</sup> .

واهتدى بهديه المسامون ، وساعدهم على تمتيع النساء أن كثرت أموالهم ، حدث محمد بن ربيعة بن الحارث أن أصحاب رسول الله كانوا يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصابن ويتجمل به ، وأنه رأى على عثمان مطرف خز ثمنه مئتا درهم ، فقال له عثمان : هذا لنايلة كسوتها إياه ، فأنا ألبسه أسرها به .

ولا شك أن الإسلام زاد مكانة المرأة عزاً وعلواً ، وعضدها في حرمتها في اختيار زوجها ، وكفل لها معاملة حسنة ، حتى لقد دلت بعض المسلمات بمكاتبتهم ، فاشترطن على أزواجهن ، وشططن في معاملتهن ، فمثلاً اشترطت سكينه بنت الحسين على زوجها زيد بن عمرو بن عثمان ألا يمنعها سفراً ولا مدخلاً ولا مخرجاً ، بل لقد منعه مرة من زيارتها بالطائف حيث أقامت بيت لها ، ثم أمرت بالرحيل إلى المدينة ، وأذنت له فجاءها<sup>(٣)</sup> ، وكانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة لعبد الملك بن مروان ، وقد غضبت عليه وهو خليفة ، فاحتجت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل إليها من يخال في إرضائها<sup>(٤)</sup> وقد فعلت ذلك عائشة بنت طلحة مع زوجها مصعب بن الزبير ، حتى أصلح بينهما ابن قيس الرقيات<sup>(٥)</sup> .

(١) كثر العمال ٢٦٠/٨ والطبقات ١٤٨/٨ (٢) كثر العمال ٢٥٨/٨ - ٢٦١  
 (٣) الأغاني ٩٣/١٧ (٤) الأغاني ١٣٥/٢  
 (٥) الأغاني ٥١/١٠

## مكانة الزوج عند زوجته

أسلفت القول في الصفات التي كان يتوخاها الخاطب في الفتاة ، ليطمئن إلى حياة منزلية هادئة سعيدة ، وما زال الأزواج يمتدحون في زوجاتهم مظاهر الأنوثة الكاملة التي تتجلى في لين العريكة ، ودماثة الخلق ، وحسن السمع والطاعة . يقول البراء بن قيس في زوجته :

كانت إذا غَضِبَتْ عَلَيَّ نَظَلَّتْ      وإذا كَرِهْتُ كَلَامَهَا لَمْ تُثَقَلْ <sup>(١)</sup>  
 ويمدح عمرو بن أحمد الباهلي المرأة بأنها ليست ثرثرة الحديث ولا مغالبة ،  
 وبأنها كيسة ، لا تتكلم إلا بما ينفع <sup>(٢)</sup> .  
 وقد كانت مكانة الرجل عند امرأته عالية ، وتجلى ذلك في عدة مظاهر .

### مهراله

إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتاً آخر جديداً ، تقيم فيه عمرها ، وتفرض آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبثه آمانيها ، وتشكو إليه آلامها ، بل تتمزج بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميتها وعائلتها ، ووالد بنيتها ، فهي إذا تحبه ويسعدها أن يحبها .  
 ولقد تسلك في تحبها إليه أن تتبعل له ، وأن تنجب ، وأن تنذرع بحمالها وحسن خلقها .

ولقد يسوقها الحرص على حبه لها أن تنذرع بضرب من الخرافة والوهم ، فتعلق الخرزات ، وتقرأ الرقي . والمرأة هي المرأة في كل عصر وفي كل بيئة ، فما زالت بعض النساء يدنّ بالتعاونيد والرقي والتمايم ، ويعتقدن أنها وسائل ناجمة في أن يجتذبن أزواجهن ، ويعمرن قلوبهم .

(٢) البيان والتبيين ١٧٢/٢

(١) معجم البلدان ٣٨٧/٨

وكانت الخرازات في الجاهلية أنواعا، منها: الهنمة، وكن يقلن: أخذته بالهنمة، بالليل زوج وبالنهار أمة، ومنها العطفة والفطسة والسكحلة والصرفة والسُلوانة أو السُلوان والهبرة والقبل والقبلة<sup>(١)</sup>. ومن خرزاتهن أيضا الدرديس، وهي خرزة سوداء كأن سوادها لون الكبد تشف مثل العينية الحمراء، تتحبب بها المرأة إلى زوجها، وتوجد في قبور عاد<sup>(٢)</sup>، والقِرْزَحْلَة خرزة تلبسها المرأة ليرضى بها زوجها ولا يبتغى غيرها ولا يشرك معها أحدا<sup>(٣)</sup> والكوار والهجرة، ورقيتهما: يا كرار كرىه، ياهجرة أهريه، إن أقبل فُسرَّيه. وإن أدبر فضريه<sup>(٤)</sup>. وقد أنشد ابن بري في القرزحلة:

لا تنفع القرزحلة العجائزا إذا قطعن دونها المناوزا<sup>(٥)</sup>  
وقال شاعر في الدرديس وشدة تأثيرها:

قطعت القيد والخرازات عني فمن لى من علاج الدرديس<sup>(٦)</sup>  
وقال آخر في القبل والفطسة والدرديس:

جمعن من قبل لهن وفطسة والدرديس مُقابلاً في المنظم<sup>(٧)</sup>  
وما من شك في أن هذه الودعات خرافة، لكن لم تقتصر على المرأة العربية، فقد كان الأقدمون يتخذون الودع والأصداف رموزاً لقدرة النساء على أن يلدن ويهبن الحياة، ثم زاد شأنه إلى أن صار يقي الأحياء خطر الموت، ويمنح الموتى طول البقاء، لذلك أصبح التنطق بالودع وسيلة لإغراء الرجال بالنساء، ففي الملاحم البابلية أن أشتار Ishtar ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعها كانت إذا خلعت منطقتها وفت حركة التناسل حتى تعود إلى لبسها، واشتهرت منطقة أفروديت Aphrodite بقدرتها على إرغام الناس على الحب، وكانت قوة برنهلد Brunhild مودعة في منطقتها<sup>(٨)</sup>.

(١) لسان العرب ١٠٧/١٦ ومواد الكلمات . (٢) لسان العرب ٣٨٤/٧  
(٣) اللسان ٧٢/١٤ (٤) اللسان ٤٥٢/٢ (٥) اللسان ٧٢/١٤  
(٦) اللسان ٣٨٤/٧ (٧) اللسان ٣٨٤/٧ و٤٥/٨ (٨) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١

ومردّد ذلك إلى خضوع الناس لسلطان القوى الغيبية في شؤونهم الدنيوية . وما زالت الكثرة العظيمة تخضع لهذا السلطان إلى اليوم ، وليس ذلك مقصوراً على غير المثقفين ، لأن الذين تتيح لهم ظروفهم أعظم الفرص للتعلم والتثقف ينتشر بينهم كثير من الخرافات والأوهام التي لا تمت إلى الأديان الراقية بصلة . وليست الرقى والتمايم وقراءة الكف ونحوها إلا قليلاً من كثير من الأمثلة التي تدل على ضروب العرافة والسحر المتعددة ، وما زالت باقية بين الطبقات العالية في المجتمعات<sup>(١)</sup> .

ومن مظاهر حبها لزوجها أنها كانت إذا غاب عنها في سفر تأخذ تراباً من قدمه وموضع رجله ، معتقدة أن ذلك يسرع بعودته . قالت امرأة من العرب : أخذت تراباً من مواطئ رجله غداً غداً كيما يثوب مساماً وقالت أخرى :

قالت له واقتبصت من أثره يارب أنت جاره في سفره<sup>(٢)</sup>  
ويتجلى هذا الحب في أن الزوجة كانت تعظم خيبتها في زوجها أكثر من خيبتها في أخيها وخالها ، فقد عاد رسول الله من غزوة فلقيته حمنة بنت جحش ، فنعى لها أخاها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله : « إن زوج المرأة منها ليمكان » لما رأى تثبتها عند مصرع أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها<sup>(٣)</sup> .

هوفرها عليه من القتل :

مهما تسكن المرأة العربية كلفة بالشجاعة وبالبطولة فإنها لا بد أن تتخوف على زوجها الردى ، لثلاث حرم حمايته وإعزازه وعشرته ، ولثلاث ترمل ، ويتيم بنوها ،

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥ البوت سمث (٢) بلوغ الأرب ٢/٣٣٩

(٣) تاريخ الطبري ٣/٢٧ وسيرة ابن هشام ٣/٥٠ والمغازي ٢٨٥



فهي معذورة في أن تحاول أحيانا أن تنفيه عن الحرب وعن الغارات .  
وممن صوروا ذلك عروة بن المرد ، كان قد أجذب هو وصعاليكه ، فأراد أن  
يخرج ليغزو ، فنبهته امرأته خوفا عليه من الردى ، فعصاها وخرج غازيا ، وأصاب  
إبلا عاد بها على نفسه وصحبه وقال :

أرى أم حسان الغداة تلومني      تخوفني الأعداء والنفسُ أخوف  
تقول سلمي لو أقممت لسنرنا      ولم تدر أنى للعقام أطوف  
لعل الذى خوفتنا من أمامنا      يصادفه فى أهله المتخلف<sup>(١)</sup>  
ويكرر هذا المعنى فى قوله :

تقول لك الويلات هل أنت تارك      ضيوًا برجل تارة وبمئسر  
ومستثبت فى مالك العام إننى      أراك على أقتاد صرماء مذكر  
فجوع لأهل الصالحين مزلّة      تخوف رداها أن تصيبك فاحذر<sup>(٢)</sup>  
وهو حنى بتكرير هذا<sup>(٣)</sup> .

ويشركه فى هذا الحديث عمرو بن براقه الهمداني :

تقول سلمي لا تعرّض لتلقّة      وليك عن ليل الصعاليك نائم<sup>(٤)</sup>  
وعمر بن معد يكرب :

أعازل عدتى بزى ورمحى      وكل مقلّس سلس القياد  
أعازل إنما أفنى شبابى      إجابتى الصريخ إلى المنادى<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ٨٢/٣ وشعراء النصرانية ٨٩٨ وديوان عروة ٢٣

(٢) شعراء النصرانية ٨٨٤ ضيوًا : لصوقًا بالأرض لحتل الصيد والمراد أصحاب المال .  
رجل : رجال . مئسر : خيل والمراد خيالة . أقتاد صرماء مذكر : الأقتاد خشب الرجل أو  
جيم أذاته والمراد الرحال . صرماء : مغارة لأماء فيها (أساس البلاغة) مذكر : داهية شديدة  
أو طريق مخوف والمراد على شفا هلاك . فجوع : تفجع الناس بالسطو عليهم . الصالحين : ذوى المال

(٣) ديوان عروة ١٣ و ٢١ (٤) حماسة الخالدين ٥ مخطوط .

(٥) العقد الفريد ١/١٤٣

وكعب بن سعد الغنوي يفصل حواراً بينه وبين زوجته فيقول :

اتقد أغضبتني أم قيس تلومني وما لوم مثلي باطلاً بجميل  
تقول : ألا يا استبق نفسك لاتكن تساق لغيراء المقام دحول  
أراك امرأ ترمي بنفسك عامداً مراحمي تقتال الرجال بقول  
ألم تعامى ألا يراخى منيتي قعودى ولا يدنى الوفاة رحيملى  
فانك والموت الذى ترهيبينه على وما عذاه بعقول  
كداعى هدبيل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هدبيل<sup>(١)</sup>

هؤلاء الشعراء ومن على شاكلةهم كمضرس بن ربیع<sup>(٢)</sup> قد يكون تصويرهم هذا صادقا ، وقد يكون ضربا من الفخار بالبسالة واقتحام المهالك ، ولكنه على الحالين تعبير عن دخيلة الزوجة ، وخشيته على زوجها ، لأن الشاعر ما كان ليتخذ عدلها وتخوفها مدرجة إلى نغره إلا وهو على يقين من صوابه فى تصوير نفسه زوجته .

هرصها على ماله :

من أحق من الزوجة المحبة الوفية بالحرص على مال الزوج ؟ إن الأم تحرص على مال ابنها بدافع الأمومة ، غير متأثرة بنفع شخصى تتوقعه ، أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة فى الحياة ، وبدافع شخصى من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيتها ولزوجها ، وأنها تحقق به آراها ، فهى أشد من الأم حرصاً ، وأشد منها لوما للرجل على الإسراف ، وهى ترى إسرافاً ما يعتده الزوج أريحياً وواجباً محتوماً . لهذا أكثر الشعراء من تصوير الزوجات لومات على البذل ، فهل كان ذلك لأنهم يتوسلون بهذا التصوير إلى الفخر بالكرم ؟ أو كان هذا تخيلاً من الشاعر أراد به أن يعظم من عزمته ومروءته ، فهو يكرم حين يلام ؟

أرى أن الرجل كان صادقاً في حديثه عن لوم امرأته ، فليس من المعقول أن يصم زوجته أو أمه بالبخل المدعى ليمهد به إلى أن يفخر بكرمه وغلبته على اللوم للتخيل ، لأنه بذلك يسيء إلى نفسه أيضاً . وإنما كان الأكل لفخاره أن تكون أمه كريمة أورثته الكرم ، وأن تكون زوجته كريمة ، لأنها نشأت على الكرم في بيت أبيها صبره ، وعاشت مع زوجها الكريم فصادف كرمه في نفسها هوى .  
وإذا فالراجح في نظري أن الشعراء كانوا صادقين في تصويرهم ، وأن النساء كن أبخل من الرجال ، كما سآيين في أخلاق المرأة . وقد حاولت ماوية بنت عفزر أن تكف زوجها حاتماً عن سخائه فتأبى عليها ، فلما ضاقت به طاقته <sup>(١)</sup> ، وفي ذلك قال قصيدته التي مطلعها :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يتردد  
يفخر فيها بكرمه ، ويشيد بآثاره <sup>(٢)</sup> . ويظهر أن حاتماً كان قد أجهد نفسه في الدفاع عن مذهبه ، وفي تحييب السخاء إلى زوجته ، بضرب الأمثال ، كقوله لماوية :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر  
أماوى إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً : حل في مالنا نزر  
أماوى ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر  
أماوى إن يصيح صداى بقفرة من الأرض لا ماء هناك ولا خمر  
ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلتُ به صفر <sup>(٣)</sup>

وقوله لنوار وقد حاولت أن تصده عن سخائه فرفض <sup>(٤)</sup> ، وقوله لزوجتيه .  
معا وقد هددتاه بالطلاق :

(١) ذيل الأمال ١٥٣ والأغاني ١٠٢/١٦ (٢) الأغاني ١٠٢/١٦ (٣) زهر الآداب ١٨٣/٣ وشعراء النصرانية ١٠٩ والعقد الفريد ١/٣٣٦ وديوان حاتم ١١  
(٤) العقد الفريد ١/٣٣٤

وعاذلتين هبّتا بعد هجعة      تلومان متلافا مفيدا ملوّمًا  
 تلومان لما غورّ النجم ضلّةً      فتى لا يرى الإنفاق في الحق مَعْرَمًا  
 فقلت وقد طال العتاب عليهما      وأوعد تمناني أن تبينا وتَصْرَمًا  
 ألا لا تلوماني على ما تقدما      كفى بصروف الدهر الدرء محْكَمًا  
 فإنك لا مَصَى تدركانه      ولست على ما فاتني متندما<sup>(١)</sup>

وقد أضاف النمر بن تولب قوما، وعقر لهم أربع قلائص، واشترى لهم زق خمر، فحنقت زوجته ولامته، فقال لها إن لومك سفه، وإنك تتخوفين الغد، ولكنك لا تستطيعين أن تردى الفقر عني ببيخلك، ثم قال إنها بكت لما سبأ الزق لضيوفه، على أنه اشتراه بجمل مسن مهزول، وبكت لأنه نحر لهم قلائص أربعة، على أنه قد نحر مثلها لغيرهم من قبل، فهذا البكاء ضلة منها وسفه، بل إنه تباك لابكاء. ثم أمرها أن تفسح لإخوته ليستمتعوا معه بما يملك، وقال إنه لا بد أن يموت ويترك ماله فماذا يقسره على البخل؟ ثم ضرب لها أمثلة بمن ماتوا وخالفوا المال لغيرهم:

قالت لتعدلني من الليل: اسمع  
 لا تجزعي لغدٍ وأمرٌ غدٍ له  
 قامت تُبكي أن سبأتُ لفتية  
 زِقًا وخايبةً بعوْدٍ مُقَطَّعٍ  
 وقريتُ في مَقْرَى قلائص أربعة  
 وقريتُ بعد قِرَى قلائص أربعة  
 أتبكيًا من كل شيء هين  
 سفهٌ بكاء العين ما لم تدمع  
 فإذا أتاني إخوتي فدعيتهم  
 يتعللوا في العيش أو يلهبوا معي  
 لا تطردتهم عن فراشي إنه  
 لا بد يوما أن سيخلو مضجعي  
 هلا سألت بعادياء وبيتسه  
 وأنخلل والخمر التي لم تمنع

لا تجزعى إن مُنفسٌ أهلكه . وإذا عاكت فعمد ذلك فاجزعى <sup>(١)</sup>  
وهذا الضرب من المقال كثير <sup>(٢)</sup> .

ولبعض الرجال مع نساءهم البخيلات الحريصات على المال أقاصيص ، كهذه التي رووها عن حُجَّية بن المضرِّب ، فقد رأى جارِته معها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه . فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبيده : أريحا هذه الإبل على أولاد أخى . فأراحها كلها عليهم ، ففضبت امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال قصيدة يتحدث فيها عن غضب زوجته وغیظها ، وعن أنفته أن تهدي إلى أولاد أخيه لبنا في قعب كما يجاد على السائين والبائسين ، وأنه أمر عبديه أن يذبحا النوق عند أولاد أخيه ، ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبا بغضب زوجته وحنقها ، بل إنه أرضى نفسه بهذا الصنيع ، وهو ليس ببلد الحسن للوميا ، وليس أحق فتخذه بكحلها لتنسيه ماوجب عليه من رعاية أولاد أخيه ، وإنما هو رجل يحتفظ لنفسه بمقومات الرجولة ، فتمش معه على ما يريد فيعزها ، وإلا فلتفارق ، ثم ذكر الباعث له على حفاوته بأبناء أخيه أنه وفاء لأبيهم :

لجنا واجت هذه في التفضُّب      واطَّ الحجاب دوننا والتجنب  
وخطت بعود إثمٍ فوق عينها      لتُذهب عقلی بالنواكة زیني  
تعم على مال شفاني مكانه      فلومي على ما فاتك اليوم واغضي  
ولا تحسبني بُلدًا إذ نكحته      ولكنني حُجَّية بن المضرِّب

(١) خزائن الأدب للبغدادي ٢١٥/١ تبكي : تهيج للباكاء . سبأ : اشترى للشرب . خابية : جرة عظيمة . عود : مسن من الإبل . مقطع : مهزول . قرية في مقرى : أضفت في مضيف . فراشي : المراد بيت . غادياء : أبو السموأل . الخل : جم خلة وهي الخمر أو حامضتها أو المنفيرة بلا حوضة ، والمراد بالخل والخمر أنه كان يجود بالمر بنوعيهما (٢) ديوان حاتم ٨ والأغاني ١٩/١٥٨ و٢١/١٠ والأمالى ١/٣٨، ١٩، ٢/٤، ٢٨٠، والأفضليات ١/١١٦، ٢٣، ٢/١٥٦ و١٧/١، ١٥٩، مخطوط والمؤلف والمختلف ٨٦ والأسميات ٥/١ وخزائن الأدب ١/٢١٥، و٢/٢٩٠ وديوان عبيد القصيدة ٢٨ .

فإن تجلسى فأت أفقى عيالنا  
رحمت بنى معدان إذ ساف ملهم  
ولما رأيت النفس ألا تُنقَرها  
رثيت لهم لما رأيت سوامهم  
فقلت لعبدينا: أريحنا عليهم  
وقلت: خذوها واعلموا أن عمكم  
عيالى أحق أن ينالوا خصاصة  
أحابي بها قبر امرىء لو أتته  
أخى والذى إن أدعه لعظيمة  
وإن تكرهى هذى المعيشة فاذهبي  
وحق لهم منى ورب الحصب  
هدايا لهم فى كل قعب مشعب  
عطاء الموالى من أفيل ومضعب  
سأجعل بيتى مثل آخر مُعزب  
هو اليوم أولى منكم بالتكسب  
وأن يشر بوارثنا إلى حين مكسب  
حربياً لآسانى على كل مركب  
يخبئى وإن أغضب إلى السيف يغضب<sup>(١)</sup>

لم تقتصر الزوجة على أن تلوم فى الكرم ، بل لامت أيضاً فى إعزاز الخليل  
وتقديم اللبن لها ، ونحن نعلم أن العرب كانوا يرعون خيالهم ويؤثرونها أحياناً على  
أنفسهم وأهليهم<sup>(٢)</sup> . يقول ربيعة بن مقروم :

وجرداً يقرّين دون العيال  
خلال البيوت يلكن الشكيا<sup>(٣)</sup>  
وكانوا يخصوصونها بلبن الإبل تقوية لها وإعزازاً ، قال المتلمس :  
أبقت لنا الأيام واللز  
بأت والمعاني المرهق  
جرداً بأطناب البيوت  
تعمل من حلب وتقبق<sup>(٤)</sup>

غضبت الزوجة من هذا الإعزاز ، ورأت أنه إسراف ، فلامت زوجها ،  
لكنه لم يصغ إليها ، يقول قبيصة بن النضرانى إنها لامته ، وإنها تجهل قيمة  
الخصان إذا حزب الأمر :

(١) المؤنث والمختلف ١٨٣ والأغانى ١٠/٢١ لط . لزوم . بدم . أحق ثقيل خيم .  
أفقى عيالنا : خيرهم . النواكة : الحق . ساف : نقد . أفيل : ولد الناقة . مضعب : خل من  
الإبل . حريب : فى شدة .

(٢) اللغويات ١/١٨٣ .

(٣) الحياة العربية ٢٥٧

(٤) ديوان المتلمس ٩ مخطوط .

هاجرتي يا بنت آل سعد إن حابت لِقْحَةً للورد  
 جهلت من عنانه المتمد ونظري في عطنه الألد  
 إذا جيات الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرذ<sup>(١)</sup>  
 وقال الأعرج المعنى إنها عدلته ، وهي لاتدرى أن الحصان أنفع منها إذا  
 جد الجد ، وأنه سيجزى صاحبه حين الحرب :

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تعلم وما أدري علام تَوَجَّع ؟  
 تعلم على أن أعطى الورد لِقْحَةً وما تستوى والورد ساعة تفرع  
 إذا هي قامت حاسرا مُسْمَعَةً نخيب الفؤاد رأسها ما تُقْنَعُ  
 وقت إليه باللجام مُيسراً هنالك يجزىني الذي كنت أصنع<sup>(٢)</sup>  
 وكذلك تحدث خُزْرُ بن لُوْذَانَ<sup>(٣)</sup> وحبال بن حِسل<sup>(٤)</sup> وحاجب بن حبيب  
 الأسدى<sup>(٥)</sup> وغيرهم .

وعذلت في الخمر أيضا. وأكثر الشعراء من الحديث عن عدلها، قال أبو ذؤيب:  
 رأيت صريع الخمر يوما فسوتها بقران إن الخمر شعث صحابها  
 وضاق أحدهم بلومها فهددها بالتغالي في الشراب إن لم تكف عن اللوم ،  
 ولا يخلو تهديده من تصوير فكه :

غضبت على لأن شربتُ بجزّة فائن أبيت لأشربن بخروف  
 ولئن غضبت لأشربن بنعجة دهساء مائة الإناء سحوف  
 ولئن غضبت لأشربن بفاقة كوما نارية العظام صفوف  
 ولئن غضبت لأشربن بسائح نهدي أشم المنكبين منيف

(١) شرح الحماسة للبريزي ٨٩/٢ .

(٢) معجم الشعراء ٢٥١ وشرح الحماسة للرزوقي ٣٤٩/١ . مشعلة : مسرعة . نخيب  
 الفؤاد : طائفة اللب . ميسراً : مهيباً .

(٣) البيان والبيان ٣١٦/٣

(٤) المؤلفات واختلاف ٨٦

(٥) الفضليات ١٦٨/٢

ولئن غضبت لأشربنَّ بواحدى ولأجعلنَّ الصبر منه حليفي<sup>(١)</sup>  
 وذهب سُحَيْمُ بن وَثِيلِ الرياحي إلى أن الخمر هي الثناء والفخر ، وأنها لب  
 الحياة ، وهي خير من زوجته اللائمة :

تقول حوراء ليس فيك سوى الخمر ر معيب يعيبه أحد  
 فقلت : أخطأتِ بل معاقرتي الخمر ر وبذلي فيها الذي أجد  
 هو الثناء الذي سمعت به لا سَبْدٌ تُخَدِي ولا لَبْدٌ  
 ويحك لولا الخمر لم أحفل العير شَ ولا أن يضمني لخدّ  
 هي الحيا والحياة واللهم لا أنت ولا ثروة ولا ولد<sup>(٢)</sup>

ويبدو أن الليل كان الظرف الملائم لهذه الملامة ، لأن الزوج حينئذ يخلو  
 إلى زوجته فتنفرد به ، ويتناولان معا شئون اليوم ، قال حاتم :

وعاذلتين هبتا بعد هجمة تلومان متلافا مفيدا مُلَوِّما  
 تلومان لما غورَ النجمُ ضلّةً فتى لا يرى الإنفاق في الحمد مَعْرَما<sup>(٣)</sup>  
 ويقول عبيد بن الأبرص :

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحي<sup>(٤)</sup>  
 ويقول النمر بن تولب :

قالت لتعدلني من الليل اسمع سَفَهَ تَبَيَّنْتَكَ الملامة فاهجعي<sup>(٥)</sup>  
 ويقول ضَفْرَةُ بن ضَمْرَةَ إن زوجته عجبت بلومه بعد موهن من الليل :

بكرت تلومك بعد وَهْنٍ في الندى بَسَلُ عَلَيْكَ ملامتي وعتابي<sup>(٦)</sup>

(١) الأماي ١٥٠/١ دهساء : محرة اللون أو عظيمة الإيابة . سجوف : عليها طبقتان  
 من الشحم . كوما : عظيمة السنام . ناوية العظام : سمينة . صفوف : تصف بين رجليها عند  
 الحلب وأن تحلب في محلين أو ثلاثة ، فهي غزيرة اللبن . سابع نهد : فرس ضخم .  
 (٢) البيان والتبيين ٣/٣٤٤ (٣) خزانة الأدب ٢/٢٩٠ .  
 (٤) ديوان عبيد القصيدة ٢٨ (٥) خزانة الأدب ١/٢٥١ .  
 (٦) الأماي ٢/٢٨٠ بكرت : المراد عجبت . بسل : حرام .



## وفاءها لها :

إذا ما جمعها الدهر في زوجها وقت له ما عاشت ، ولهذا الوفاء عدة مظاهر .  
 ١ — ففى تذكره بالخير ، ولقد يتزوجها غيره فلا تفكك عن هذه الذكرى ، بل ترطب بها لسانها على مسمع من زوجها الثانى ، من ذلك أنه لما قتل لقيط ابن زرارة تزوج امرأته بنت هانىء بن قبيصة رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة فرجع إلىى وبقميصه نضح من دماء الصيد ، والمسك يذوق من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمى شمة ، فليتتى مت شمة . ففعل زوجها مثل ذلك يوماً ، ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداء<sup>(١)</sup> .

٢ — ولقد تعاف الزواج بعده ، وتقضى حياتها أيماً ، أو تترهب ، كما ترهبت هند بنت النعمان بن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدى بن زيد ، وحبت نفسها فى الدير المعروف بدير هند فى الحيرة ، ثم خطبها المغيرة بن شعبة والى الكوفة فى عهد معاوية فرفضت<sup>(٢)</sup> .

وكذلك فعلت فى الإسلام نائلة بنت الفرافصة الكلبية ، فإنه لما قتل عثمان خطبها معاوية وألح عليها ، فقالت : ما يعجب الرجل منى ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرت ثناياها ، وبعثت بها إليه فأمسك . ومثاها الرباب بنت امرىء القيس ، كانت زوجة للحسين بن على ، وكان يحبها وتحبه ، يقول فيها وفى بنته سكينه :  
 لعمرك إننى لأحب داراً تحل بها سكينه والرباب

(١) جهره الأمثال ١٥٣/٢ وجمع الأمثال ٢٠٦/٢ صءاء: بئر عذبة لم يكن عندهم أعذب من مأثها وفيها يقول ضرار السعدى .

ولانى وتهاى بزئب كالى تطاب من أحواض صءاء مشرباً  
 (٢) الأغانى ١٣١/٢

فلما قتل خطبت ، فقالت : والله لا اتخذت حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

وروى الأصمعي عن رجل من بني ضبة أنه عرض على فتاة تأميت أن يتزوجها ، فأطرقت ساعة ، ثم رفعت رأسها ، وعيناها تذرغان دموعاً وقالت :

كنا كفصنين من بان غداؤهما ماء الجداول في روضات جنات  
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه دهر يكُرُّ بفرحات وترحات  
وكان عاهدني إن خانني زمن ألا يضاجع أشي بعد موتاتي  
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مُذُّ سُنَيَات  
فأصرف عتابك عن ليس يصرفه عن الوفاء له خَلْبُ التحيات<sup>(٢)</sup>

٣ — ولقد يدفعها وفاؤها لزوجها أن تحمسن أخاء ليثار له ، وتلومه على تغافله عن القصاص لأخيه ، كما فعلت أميمة امرأة عروة بن مرة إذ دخلت على أخيه أبي خراش خويلد بن مرة فرأته يلاعب ابنه ، فقالت له : يا أبا خراش ، تناسيت عروة ، وتركت الطلب بثأره ، وهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله فبكي أبو خراش ، وقال :

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي وأنى ثوائى عندها لتليل  
وقالت أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل  
فلا تحسبي أنى تناسيت فقدُهُ ولكن صبرى يا أميم جميل<sup>(٣)</sup>

٤ — وإنما لتفجع على زوجها إذا ما اختطفه المنون ، لأنه سندها قد تقوض ، وأملها الفينان قد صوّح ، وقلما تصبر على البلوى ، فتذهب تقص شعرها ، وتشمس وجبها ، وتشق جيبها ، وتلطم خدها ، وتدعو بدعوى الجاهلية . قال طرفة لزوجته :

(١) المحبر ٣٩٦ وأخبار النساء ٦٢ والمستطرف ١٨٥/١

(٣) الأغاني ٥/٢١

(٢) عيون الأخبار ٣١/٤ وأخبار النساء ٦١ .

(١٤) - المرأة في الشعر الجاهلي

فإن مت فأنعني بما أنا أهله وشقى على الجيب يا بنة معبد<sup>(١)</sup>  
وقال ضابيء بن الحارث البرجمي :

همت ولم أفعل ، وكدت وليتني فقلتُ فكان المولاتِ حلأته<sup>(٢)</sup>

وخشى قيس بن مسعود الشيباني على ابنته أن تفعل ذلك إذا قتل زوجها  
لقيط بن زرارة أو مات ، فأوصاها فيما أوصى بالأا تخمش وجهها ، ولا تخلق  
شعرها<sup>(٣)</sup> . وقد جزت نساء قريش شعورهن وسمن حزنًا على قتلى بدر<sup>(٤)</sup> .  
وكان بعضهن من المهتاجات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين ، يدل على ذلك  
قول عبد مناف بن ربيع الهذلي :

يربعُ قلبَ ابنتي ربيع عويلهما لا ترقدان ، ولا بؤسى من رقدا  
كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصباً من بطن حذية لا رطباً ولا نقداً  
إذا تأوب نوحٌ قامتا معه ضرباً أليماً بسبتٍ يلعجُ الجلد<sup>(٥)</sup>  
ويدل على ذلك أيضاً قول الخنساء في رثاء أخيها معاوية :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الخليق<sup>(٦)</sup>

هذه الفجعة العظمى التي تفجع بها الزوجة ، فتهيجها وتفقدتها رشدها حلت  
بالمرأة اليونانية أيضاً فأحست بأنها أشد وأدهى من فجيعة الأب بابنه والأم بابنها ،  
قالت أنذروماخ إن مصابها بقتل هكطور أشد من مصاب أبيه وأمه وأقاربه :

(١) ديوان طرفة ٣٥ (٢) حساسة البجزي ٥ .

(٣) المقدم الفريد ٢١١/٣ (٤) المغازي ١١٦ .

(٥) الكامل للبرد ٢٦٣/٣ ابتنا ربيع : أختاه . قصبا : مزمارا يريد أنهما لنواحهما  
كأن في جوفهما مزمارا . لا رطباً ولا نقداً : ليس القصب رطباً يكتم الصوت ولا متاً كلاً  
يسرع إليه العطب فيخني الصوت . تأوب نوح : عاودهن نوح في جنح الليل . سبت : نعل .  
يلعج : يهيج . الجلد : الجلد ، والكلمة بسكون اللام وتحريكها كما في القاموس .

(٦) لسان العرب ١١/٣٤٥ وديوان الخنساء ١٧٣ .

جلّ عن واجب التأسي أساكاً ولقد هدّ والديك رداكاً  
إنمالي فوق الجميع شجاكاً<sup>(١)</sup>

ولما جاء الإسلام نعى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في الحزن ، فقال  
ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية<sup>(٢)</sup> ، وروى  
عنه أنه برىء من الصالقة والحالقة والشاقة<sup>(٣)</sup> .

٥ — وكثيراً ما كانت الزوجة ترثى زوجها ، تصور في رثائها لوعتها  
وخبيعتها ، وتتحدث عن مآثره في قومه . قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية  
في رثاء زوجها الجراح إنهما تلتذ البكاء بدموع غزار تتحدر من جوانب عينيها ،  
فقد كان ملاذها وتركها بغير ملاذ ، وكان أياً حمياً تعزبه ، وتحمى بسلطانه ، وتمشى  
مختالة في الناس ، ولكنها اليوم ذليلة تخضع للذليل ، ويعتدى عليها ، فتضطر  
إلى أن ترد المعتدى بيدها :

يا عين بكى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح  
قد كنت لي جبلاً ألوذ بظله فتركتني أضحى بأجرد ضاح  
قد كنت ذات حمية ما عشت لي أمشى البرازَ وكنت أنت جناحى  
فالיום أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظلمى بالزاح  
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدّ فوارسى ورماحى  
وإذا دعت قمرية شجنا لها يوماً على فنن دعوت صباحى<sup>(٤)</sup>  
وقد تمثلت السيدة عائشة بهذه الأبيات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>

(١) الألياذة ١١٤٥ (٢) شرح المبدى من مختصر الزبيدى ٣٥/٢ .

(٣) شرح المبدى ٣٦/٢ الصالقة : الرافعة صوتها في المصيبة . الحالقة : التي تقس شعرها  
حزناً . الشاقة : التي تشق جيبها حزناً .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ١٨٩/٢ والأمالى ١/٢ جودى بأربعة :  
بالموقين واللحاطين أو يشقون أربعة . دعوت صباحى : قلت واسوء صباحى .

(٥) الأمالى ١/٢ .

وصورت جليلة بنت مرة فبجعتها في زوجها كليب ، ووجيعتها من قتل  
أخيها جساس له ، بقصيدة حارة ، يهمنها منها هنا أن قتل زوجها قوض بيتها ،  
وهدم أملها ، ورمائها فأصماها ، وأحرقها بنار المم والحزن ، حتى لقد تمت.  
لو أن حياتها كانت فداء لزوجها :

جلّ عندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجالت أو تنجلي  
فِعلُ جساس على وجدى به قاطع ظهري ومدنٍ أجلى  
ياقتيلاً قوض الدهر به سقف بيتي جميعاً من عل  
هدم البيت الذي استحدثته واثني في هدم بيتي الأول  
ورماني قتله من كذب رمية المضى به المستأصل  
يانسائي دونكن اليوم قد خصني الدهر برزء معضل  
خصني قتل كليب بلظي من ورأى ولظي من أسفل  
ليتة كان دما فاحتلبوا دِرراً منه دمي من أكلحى<sup>(١)</sup>

أما حديثهن عن شجاعة الزوج ، وبلائه في الحروب ، وسيادته ، وكرمه ،  
ومحامده فإنه لا يغير ما رده الرجال في مراتبهم ، كرتاء خرنق لزوجها<sup>(٢)</sup> ، ورتاء  
الخنساء مزداس السامى<sup>(٣)</sup> ، ورتاء دختموس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة<sup>(٤)</sup>  
ولم تختلف الزوجات المسلمات عن هؤلاء في شيء<sup>(٥)</sup> ، وسأفصل القول في  
ذلك في (شعر المرأة) .

(١) أشعار النساء مخطوط ٥٠/٣ والوحشيات ١٠٧ مخطوط والكمال لابن الأثير  
٢١٦/١ والأغانى ٦٣/٥ ونهاية الأرب ٢١٤/٥ .  
(٢) ديوان خرنق ٣ - ٥ مخطوط وأشعار النساء مخطوط والأمالى ١٥٨/٢ .  
(٣) ديوان الخنساء ١٩٧ وبلاغات النساء ١٦٨ والأغانى ٧٢/١٣ .  
(٤) الشعر والشعراء ٢٧٢ .

(٥) مثل رتاء عاتكة بنت قيس لأزواجها الأربعة (الحماسة البصرية ٨٤ مخطوط وحسن الصحابة  
في شرح أشعار الصحابة ٢٩٤/١ ورتاء الرباب لزوجها الحسين بن علي (الأغانى ١٥٨/١٤) .

ليس من الطبيعي أن يطرد حسن العشرة في النساء جميعاً ، وأن يكن كلهن على طراز من الخلق الكريم ، وإنما الطبيعي أن يتفاوتن في ذلك ، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع ، نايبات العشرة .

وقد تحدث الشعر عن هؤلاء أيضاً ، كما تحدث عن الصالحات .

١ — فالمرأة قد تشعب على زوجها ، كما يقول عامر بن الطفيل إن زوجته أصبحت تلومه على غير ذنب ، وإذا مارده عليها دعوى أتته بأخرى ، وهذا ضرب من المعاملة لا يرضاه — على أنه مازال في طبع بعض النساء إلى اليوم — ثم يرى أنه لا خير في صلة وهت أسبابها وتزايلت عراها :

وقد أصبحت عرسي الغداة تلومني      على غير ذنب هجرها وصدودها  
فإني إذا ما قلت : قولي ، فانقضى      أتني بأخرى ، خطلة لا أريدها  
فلا خير في ود إذا رثَّ حباه      وخير حبال الواصلين جديدها<sup>(١)</sup>

ويقول عمرو بن قميئة إن زوجته قد ارتحلت إلى أهلها مغضبة ، وهو راض عن فرقها هذه ، بل يدعو عليها بالهلاك ، ويقول إنها قد شغبت عليه ، فلا بد أن يقابل شغبتها بمثله ، فقد جرب معها اللبن والدمائة ، فلم تكن لينة ولا دمتة :

فبينى على نجم شخيسٍ نحوسه      وأشأم طير الزاجرين سنجحها  
فإن تشغبي فالشغب منى سجية      إذا شيمتى لم يؤت منها سنجحها<sup>(٢)</sup>

ويتحدث أعشى بنى مازن أو بنى حرماز ( الحارث بن قراد بن سفيان ) عن شغب زوجته شاكياً إلى ملك من ملوك العرب ، فيقول إنه خرج يشتغى من خيرات الأرض ، فنازعته زوجته ، وهربت إلى قومها ، ناكثة بعهدا ، ويختم شكواه بأن النساء شر غالب للرجال :

(١) ديوان عامر القصيدة ٦

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ١٤ شخيس نحوسه : متعدد شؤمه . سنجح : ابن سهل .

ياسيد الناس وديان العرب: إليك أشكو ذرّبةً من الذرّب:  
 خرجتُ أبعيها الطعام في رجب تخلفتني بنزاع وهسرب  
 أخلفت العهد ولطت بالذّيب وهن شر غالب لمن غلب<sup>(١)</sup>

٢ - وقد تتبرم بفقر زوجها ، ونحن نعلم أن العرب عاشوا كما عاش غيرهم ، متفاوتي الفقر والغنى ، وأن الفقر كان أكثر شيوعاً وأوسع دائرة . وكثيراً ما شكا بعضهم آلام الفقر ، وضاقوا ببرم الناس بالفقير أو استهاتهم به ، وكثيراً ما شكا بعضهم تبرم الزوجات بفقر بعولتهم ، فمثلاً عروة بن الورد يزيد ضجراً أن تجتموى الزوجة زوجها الفقير ، لأن تنكرها له أشد عليه مرارة من تنكر الناس :

ذري للغي أسمى فإني رأيت الناس شرهم الفقير  
 وأهونهم وأحقرهم لديهم وإن أسمى له نسب وخير  
 ويُقصَى في الندى وتزدريه حليته وينهره الصغير<sup>(٢)</sup>

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل فراق زوجته التي قلته لفقره<sup>٤</sup>  
 وأساءت عشرتها له :

تلك عرسى غضبي تريد زيالي ألبين تريد أم لدلال ؟  
 إن يكن طبك الفراق فلا أحفل أن تعطني صدور الجمال  
 كنت بيضاء كالمهاة وإذا آ تيك نشوان مُرخياً أذياي  
 فاتركي مط حاجيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال  
 زعمت أنني كبرت وأنى قل مالي وضمن عني الموالى<sup>(٣)</sup>

ومنى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل زوجته - وقد سألتاه الطلاق لما افتقر -

(١) معجم الشعراء ١٥ الذرّبة : السليطة اللسان . اطت بالذّيب : أصرت على الجد في رحلتها وفرقتها .

(٢) ديوان عروة ٢٠ والبيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء الصراية ٨٨٨ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/٢٣٦ .

بأن ماله قد يكثر، فيقتنى العبيد والخدم والإماء، ويمتعهما ويكسوها أنفس الكسا:  
 تلك عرساي تنطقان على عمدي لي اليوم قول زور وهتر  
 سالتاني الطلاق أن رأنا ما لي قليلا، قد جثماني بُنكر  
 فلعلي أن يكثر المال عندي ويُعزّي من المفارم ظهري  
 وتُرّي أعبد لنا وأواقٍ ومناصيف من خوادم عشر  
 وتجراً الأذيال في نعمة زو ل تقولان: ضع عصاك لدهر<sup>(١)</sup>

ولقد عبت أم حبيش في وجه زوجها ذي الخرق (خليفة بن حمل بن عامر)  
 وخاصته، لأنه افتقر، ورأت إبله مهزولة لا تحمل إلا خرقاً، وحضته على أن  
 يجهد في كسب المال:

ما بال أم حبيش لا تكلمنا لما افترقنا وقد نُثري فنتفق  
 تُقطع الطرف دوني وهي عابسة كما تشاوس فيك الثائر الخنق  
 لمارات إيلي جاءت حمولتها غزّي عجاناً عليها الريش والخرق  
 قالت، ألا تبغني مالا تعيش به عما نلاقي وشر العيشة الرّمق<sup>(٢)</sup>  
 وكذلك حضرت تماضر زوجها عروة بن الورد<sup>(٣)</sup>، وبذلك تحدث تأبط  
 شرا<sup>(٤)</sup> وعبيد<sup>(٥)</sup> وجابر الطائي<sup>(٦)</sup>.

ويظهر أن هذه الخصلة لم تزايل المرأة بعد العصر الجاهلي، فقد تحدث أعشى  
 همدان عن تبرم زوجته بفقره:

قالت تعاتبني عرسى وتسألني أين الدراهم عنما والداناير؟

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٥ وفي الأغاني ١٦/٦٠ أن الشعر لنبية بن الحجاج السهمي .  
 مناصيف : ج منصف وناصف وهو الحادم ، زول : ظريف .  
 (٢) المؤلف والمختلف ١١٠ وخزانة الأدب ١/٢٧ تشاوس : نظر بتؤخر عينه . غزّي  
 جياع . الرّمق بكسر الميم وفتحها الشيء القليل الذي يحفظ بقية الحياة .  
 (٣) ديوان عروة ٩ (٤) الحماسة البصرية ١٢ مخطوط .  
 (٥) البيان والتبيين ١/٢٣٦ (٦) شرح الحماسة للمرزوق ١/٣٠٤ .



فقلت أنفقتهما والله يخلفها      والدهر ذو مِرَّةٍ عَسْرٍ وتيسير  
 إن يرزق الله أعداى فقد رزقتُ      من قباهم في مراعيها الخنازير  
 قالت : فوزقك رزقٌ غير متسع      وما لديك من الخيرات قَطَامِيرُ  
 وقد رضيت بأن تحيا على رَمَقٍ      يوما فيوما كما تحيا العاصفِيرُ<sup>(١)</sup>

لهذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله شيئاً من عرض الدنيا زيادة في النفقة أو غيرها<sup>(٢)</sup> نزل قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً »<sup>(٣)</sup> فعرض ذلك على زوجاته ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة<sup>(٤)</sup> .

٣ — ولقد تفرم بشيبه وكبرة سنه ، وقد اتفق علقمة بن عبدة<sup>(٥)</sup> وأمرؤ القيس<sup>(٦)</sup> والأعشى<sup>(٧)</sup> وعترة<sup>(٨)</sup> وعبيد بن الأبرص<sup>(٩)</sup> والأسود بن يعفر<sup>(١٠)</sup> وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ثم كثير من شعراء الإسلام كجران العود التميمي وعمر بن أبي ربيعة ، اتفق هؤلاء على أن الشباب والمال — وما يستتبعان من مجد ومحامد ومتمعة طبعاً — هما وسيلة اجتذاب المرأة ، ونيل إيجابها .

وربما كانت المرأة أكبر بفضة للشيب من الفقر ، لأن الفقر عارض قد يزول ، وأما الشيب فإنه وافد لا يبرح ، وتشد وطأته حيناً بعد حين . يقول عاقمة إنه بصير بنفسية النساء ، علم بأنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الغنى :

(١) الحيوان للجاحظ ٦٢/٧ (٢) تفسير الطبري ٩٩/٢١ .  
 (٣) سورة الأحزاب ٢٨ و ٢٩ (٤) الطبقات الكبير ٤٧/٨ وتفسير الطبري ٩٩/٢١  
 (٥) ديوان عاقمة ٣ وديوان الأخبار ٤٥/٤ وحماسة البحتري ٢٨٩ والعقد الفريد ٢١٨/٣ والمفضليات ١١٩/٢ والشعر والشعراء ٥٩ .  
 (٦) ديوان امرئ القيس ٩٨ (٧) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ١٣٨/٢  
 (٨) ديوان عترة ٥٦ (٩) ديوان عبيد القصيدة ١٣٥  
 (١٠) المفضليات ٢١٨/٢ .

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طيب  
 إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له من ودهن نصيب  
 يردن ثراء المال حيثُ علمنه وشَرخ الشباب عندهن عجيب<sup>(١)</sup>  
 وقد أعجب أبو عمرو بن العلاء بهذا الرأي ، وقال إن صاحبه أعلم الناس  
 بالنساء<sup>(٢)</sup> .

تحدث الشعراء بكراهية زوجاتهم لشيبيهم ، وهرمهم ، فمثلاً يقول عبيد  
 بن الأبرص إن زوجته تعرض عنه ، وتغلاظ في مقالها له ، وتمط حاجبيها ، لأنها  
 تراه قد كبر :

ألا عتبت على اليوم عرسي وقد هبت بليل تشكيني .  
 فقالت لي : كبرتَ فقلت هُنا لقد أخافتُ حيناً بعد حين  
 تريني آية الإعراض منها وفضت في المقالة بعد لين  
 ومطت حاجبيها أن رأيتني كبرتُ وأن قد ابيضت قروني<sup>(٣)</sup>  
 ويحدثنا الثقب العبدى أو علة بن زيد بأن زوجته سخرت منه لما رأت  
 شبيهه ، وجففته وهجرته :

تهزأت عرسي واستنكرت شيبي ففيمها جَنفٌ وازرار  
 لا تكثري هُزءاً ولا تعجبي فليس بالشيب على المرء عار<sup>(٤)</sup>

ابو-الاسم يوصى المرأة بزومها

أقام الإسلام الحياة الزوجية على دعائم من التعاطف والمشاركة القابلية والثقة  
 المتبادلة والهناء المستطاعة ، وقد أسلفت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان حفيماً  
 بالزوجات، يوصي بين الرجال خيراً. وهو كذلك طالما أوصى النساء بأزواجهن<sup>(٥)</sup> ،

(١) الفضليات ١٩٢/٢ (٢) العقد الفريد ٣/٢١٨ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ هنا : تنحى وابعدى (٤) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط

(٥) كنز العمال ٨/٢٦١ - ٢٦٨ و٣٠٢ - ٣٠٤ .

كقوله: « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع »<sup>(١)</sup>.  
 وقوله: « انظري أين أنت منه إنما هو جنتك ونارك »<sup>(٢)</sup>. وقوله: « خِدْمَتِكَ  
 زوجك صدقة<sup>(٣)</sup> ». وقوله: « خير النساء من تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك  
 إذا أمرت ، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك »<sup>(٤)</sup>.

## تعدد الزوجات

### ومدة الزوجة

١ — جرى العالم على وحدة الزوجة ، وعلى تعدد الزوجات ، وقديماً اشترط  
 لابان على يعقوب ألا يقتن بغير ابنته<sup>(٥)</sup>.

وكانت الأسر الشريفة في مصر و بابل تشترط على الزوج في عقد الزواج  
 ألا يقرب الجوارى والإماء . وفي أوراق البردى التي كشف عنها في أسوان  
 عقد زواج ينص على تعهد الزوج ألا يقتن بامرأة أخرى غير زوجته ، فإن فعل  
 قدم لها غراماً<sup>(٦)</sup> . ويذكر ديودور الصقلي أن الكهنة في مصر كانوا يقتصرون  
 على زوجة واحدة ، أما سائر الشعب فإنهم كانوا يعددون الزوجات ، ويختارون  
 منهن من يشاءون ، على أن هيروودوت ذكر من قبله أن المصري كان مثل  
 اليوناني يقتصر على زوجة واحدة<sup>(٧)</sup> ، ومن الممكن أن ترجع هذا التباين إلى أن  
 ديودور جاء بعد هيروودوت بأربعة قرون ، فمن المنتظر أن تكون العادات التي  
 شهدها هيروودوت قد اندثرت أو تزعرعت .

وسار الإمبراطيون على نظام آخر ، ذلك بأنهم لم يسمحوا للرجل أن

(١) كثر العمال ٢٦١/٨

(٢) كثر العمال ٢٦١/٨

(٣) كثر العمال ٢٦٧/٨

(٤) كثر العمال ٢٦٧/٨

(٥) سفر التكوين إصحاح ٣١ آية ٥

(٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٣

(٧) المحاضرة المصرية . لوبون ٧٠ .

يتزوج غير واحدة إلا في ظروف خاصة ، ولكنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج عدة رجال في وقت واحد ، وكانت النساء جميعاً تقريباً يمارسن هذه العادة <sup>(١)</sup> .

ولم يستطع الباحثون أن يقرروا أى النظامين كان أسبق : وحدة الزوجة أم تعدد الزوجات ؟ فبعضهم يرى أن الزواج بواحدة كان هو الأصل عند آبائنا الأقدمين ، وآخرون يخالفون هذه النظرية ، ويذهبون إلى أن المجتمع ابتداءً بتعدد الزوجات ، وبعزز باخوفن Bachofen هذا الرأي ، ويرى أن النساء ثمن على هذا النظام لمخنج الرجال إلى وحدة الزوجة <sup>(٢)</sup> .

٣ — أما العرب فقد اقتصر بعضهم على زوجة واحدة ، واشترط بعض الآباء وبعض النساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى . يقول عدى بن زيد :  
بنات كرام لم يُرَبَّنَ بَضْرَةَ دُمَى شِرْقَاتٍ بِالْعَبِيرِ رَوَادِعًا <sup>(٣)</sup> .

وجاء في حديث بين الجعفاء بنت علقمة وثلاث نسوة قول إحداهن :  
« خير الرجال الذى يكرم الحرّة ولا يجمع الضرة » <sup>(٤)</sup> ، ورفضت ماوية بنت عفزر أن تتزوج حاتماً الطائى بعد أن اختارته وآثرته على خاطبها إلا على شرط أن يسرح زوجته ، فأبى ، فلما ماتت زوجته رضيته وتزوجته <sup>(٥)</sup> .

كذلك استوثقت حرّقة البلوية من خاطبها مرة بن عوف ألا يتزوج عليها - وكان زوجها لمليكة بنت خُصَيْلَةَ المَرِّيَّة - فخلف لها وأعاط الحلف ألا يتزوج غيرها ، فرضيته ، ثم خرج بها يسير حتى نظرا نيران أهله ، فقالت حرقة : ما هذه النيران ؟ فقال : أما هاتيك فنار بنى وامراتى ، فقالت : أغدرا من أول ليلة ؟ قال : ما غدرت بك ، ولكنى غدرت بسواك <sup>(٦)</sup> .

(١) مركز المرأة في الإسلام ٢٦ وتاريخ اليونان ، جرون ١٣٦/٦ .

(٢) The Psychology of marriage P. 287. waltr. m, gallichan.

(٣) الأغاني ٢/١٥٠ . روادع : فيهن أثر الطيب .

(٤) جبهة الأمثال ١٦٢ . (٥) الأغاني ١١/١٠٤ .

(٦) شرح الحماسة للبريزى ١/٢٠٢ .

## تعدد الزوجات

كان التعدد وما زال نظاماً طبيعياً ، كثيراً ما تلجئ إليه الضرورات ، « وقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن التعدد نظام ابتكره النبي محمد ابتكاراً لم يسبق إليه<sup>(١)</sup> » ، ولكنهم مخطئون جد الخطأ ، لأن التعدد أسبق من الإسلام بثبات الأعوام .

ذلك بأن الأمم القديمة كانت تعدد الزوجات ، فالعبريون عدّدوا منذ عهد قديم<sup>(٢)</sup> يدل على ذلك أن التوراة أباحته ، ولم تحدد العدد ، ثم حدد التامود العدد<sup>(٣)</sup> ، وما روى عن كثرة عدد نساء سليمان<sup>(٤)</sup> ، ثم عدّدوا في عصر متأخر ، ولكنهم اشترطوا على الزوج أن يعدل بين نسائه ، فلا يقبل على واحدة ويعرض عن أخرى .

وحدد الزبانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع بين أربع ، وذهب بعض العلماء إلى منع التعدد ، ورأى بعضهم إباحته إذا عقت المرأة الأولى<sup>(٥)</sup> .

وظل اليهود يعددون زوجاتهم في أوروبا إلى القرون الوسطى ، وهم لا يزالون يمارسون التعدد إلى اليوم في العالم الإسلامي<sup>(٦)</sup> .

وكانت تعاليم زرادشت تحول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتخذوا الحظايا والخليلات ، لأن الشعوب المحاربة في حاجة دائمة إلى الفتيان<sup>(٧)</sup> . لذلك عدد الفرس ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده<sup>(٨)</sup> .

(١) قصة الحضارة ، ول ديوانت ٧٠/١

(٢) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ وقصة الحضارة ٧٠/١ .

(٣) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ .

(٤) سفر التثنية إصحاح ١٧ وتاريخ الطبرى ٢٦٠/١ .

(٥) شعائر الحضرة ٨٣ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ .

(٧) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ ول ديوانت .

(٨) مركز المرأة في الإسلام ٤٤ وحضارة العرب ٤٨٣ .

وقد عدد الرومان ، ويكفي أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع بين أربع ، وبومبي جمع أربعا . وأن ملك فرنسا داغوبرت الأول جمع بين ثلاث<sup>(١)</sup> :

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد كالإمبراطور قسطنطين وابنه<sup>(٢)</sup> بل إن الإمبراطور فلافيوس فالنتيان Flavius Valentinien سن قانوناً يبيح التعدد ، وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الميلادي<sup>(٣)</sup> ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعاً أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا ، ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية . ومارس التعدد الأباطرة الذين خلفوا فالنتيان ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان ، حيث حرم التعدد ، على أنه لم ينجح في تحريره ، ولم يكن في هذا التحريم متأثراً بالمسيحية ، لأن أكبر مستشاريه كان غير مسيحي ، لذلك لم يخضع لتحريم التعدد إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعبروه طاعة<sup>(٤)</sup> .

ونحن نعلم أن المنذر بن الحارث بن أبي جبلة الفسائي كان بطريقاً وحامياً للكنيسة الشرقية ، ولكنه قد تزوج نساء كثيرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالي ذلك ما دام هؤلاء الأمراء غير متزوجين كنسياً إلا بواحدة<sup>(٥)</sup> .

وكان مصرحا للأثيني أن يتزوج أي عدد من النساء ، حتى لقد افتخر ديموسين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات ، والشبهيات بالشرعيات<sup>(٦)</sup>

(١) با كورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ٧٤ .

(٢) مركز المرأة الإسلام للسيد الأمير على ٤٢ .

(٣) Histoire Des PaPes. Tome . 1.P. 255.

(٤) مركز المرأة في الإسلام ٤٢ (٥) أمراء غسان . تولدك ٣١ .

(٦) مركز المرأة في الإسلام ٢٠ و ٣٦ .

وقد سبق أن المصريين في عهد ديودور كانوا يعددون ، وكان نبلاؤهم يستمتعون بالإماء وما ملكت اليمين<sup>(١)</sup> .

على أن شعوبا أخرى كانت تمارس التعدد كالهندوس القدماء والميديين والبابليين والآشوريين<sup>(٢)</sup> .

٢ — لا عجب إذا في أن يعدد العرب في الجاهلية ، وفي أن يشيع هذا النظام بينهم ، فيمارسه من تواتيه ظروفه ، أو تلجئه حاجة ، أو يتوقع منه خيراً ، فقد بزغ الإسلام وفي ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة ، كمسعود بن معقب وعروة بن مسعود وسفيان بن عبد الله وأبي عقيل مسعود بن عامر وغيلان بن سلامة ، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبو عقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعا<sup>(٣)</sup> ، وكان عند قيس بن الحارث ثمانى نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، نفيهما النبي في أربع<sup>(٤)</sup> ، وقد كان لعبد عبد المطلب بن هاشم ست نسوة ، ولدن له عشرة رجال وست نساء<sup>(٥)</sup> ، وكان عند أبي سفيان بن حرب ست ، وعند صفوان بن أمية ست أيضاً<sup>(٦)</sup> . وكان المغيرة بن شعبه قد تزوج سبعين امرأة<sup>(٧)</sup> وقد ألف أبو الحسن المدائني كتابا فيمن جمع أكثر من أربع<sup>(٨)</sup> .

### عراء الضرائر :

التعدد نظام اجتماعي شائع في الأمم ، لكن شيوعه لم يكن كفيلا ، ولن يكون كفيلا بالتخفيف من تباعض الضرائر وتحاسدهن ، لهذا كانت الزوجة

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ والحضارة المصرية القديمة . لوبون ٧١ .

(٢) مركز المرأة في الإسلام ٣٤ .

(٣) المحرر ٣٥٧ وبجم الأمثال للميداني ٣٥/١ (٤) عيون المسائل ٥٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ١١٩/١ (٦) الإصابة ١٣٩/٨ .

(٧) كذا العمال ٢٨٨/٨ وفي الأغاني ١٤/١٣٧ أنه تزوج ثمانين أو تسعا وثمانين

أو ثلاثا وتسعين .

(٨) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢ .

تفجع بالضرة ، وكان بعض النساء يشترطن على الزوج ألا يضارهن بأخرى كما سبق .

وكان عداء الضرائر معهوداً معلوماً ، حتى إن بنت مرة بن عاهان لما قتلتها باهلة لم تجد ما تشبه به ما بينهم وبين باهلة من بفضة إلا داء الضرائر :

إنا وباهلة بن أعصر بيننا داء الضرائر بفضة وتناسف<sup>(١)</sup>

وكانت المودة لا تصفو بين ضرتين ، وكثيرا ما تشغب الأولى ، فمثلا كانت الورثة بنت ثعلبة زوجة لذهل بن شيبان ، وكان كلما تزوج امرأة شارتها الورثة وضربتها وأجلبتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثة .

يا ويح نفسى اليوم أدركنى الكبيرُ أأبكى على نفسى العشية أو أذر؟  
فوالله لو أدركت فى بقيّة للاقيت ما لاقى صواحبك الآخر<sup>(٢)</sup>

على أن الأزواج كانوا أحيانا يؤدبون زوجاتهم بالضرائر ، ويمساقبونهن بالتعدد ، يدل على ذلك قول الطهوى :

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسك من الضرائر  
ذاتُ شذاةٍ جمة الصراصر حتى إذا جرس كلُّ طائر  
قامت تُعنظى بك سمع الحاضر تُصرُّ إصرار العقاب الكاسر<sup>(٣)</sup>  
ثم إن المرأة تحدثت بغيرتها فى غير موارد ، من ذلك أن لى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل ، ثم عادت إلى قومها تخبرهم فقالوا : أنت امرأة غيرى ، وهو صاحب نساء ، ارجعى فاستقبله ، فرجعت وقالت :

(١) طهارة العرب ٣٢ باهلة .

(٢) أمثال العرب للضى ٥٥ وجمع الأمثال للميدانى ١/٩٩ .

(٣) طهارة العرب ٣٢ ذات شذاة ، ذات خصومة وحدة . جمة الصراصر : الصراصر جمع صرصرة وهى الصوت الشديد ، والمراد صغابة جبهة بالسوء من القول . جرس : صوت والمراد الصياح الباكر . تعنظى : تذكرك بالفحش لتسمع الحمى . تصر : تنصب أذنها للاستماع



إنك نبي الله وقد أحلّ لك النساء ، وأنا امرأة طويلة اللسان ، لاصبر لي على الضرائر ، فأقالتها <sup>(١)</sup> .

ولما خطب النبي هند بنت أبي أمية القرشية الخزومية قالت له : فيّ خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ، وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال : أنا أكبر منك سنّاً ، وأما العيال فيلّي الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك ، وتزوجها <sup>(٢)</sup> :

ولم يكن الإسلام والتدين بقدير على أن يحتث من المرأة غيرتها ، ومن الشطط أن تتطلب منه ذلك ، وإلا فما بال عائشة أم المؤمنين كانت غيرى شديدة الغيرة ؟ كانت تظهر غيرتها فيما تقول وفيما تعمل <sup>(٣)</sup> . من ذلك قولها : دخل عليّ رسول الله فقلت : أين كنت ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سامة ، فقلت ما تشعب من أم سامة ، فتبسم . فقلت : ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت ، أيتهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع . قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرى ، فتبسم رسول الله <sup>(٤)</sup> .

وكانت تغار حتى من ضررتها المتوفاة ، التي توفيت قبل أن تكون هي زوجة ، ذلك بأن النبي كان عظيم الوفاء والحب للسيدة خديجة ولذكراها ، وكانت السيدة عائشة تغار من ذلك ، قالت : « ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله إياها وثنائه عليها <sup>(٥)</sup> . ولم تضبط غيرتها يوماً ، وقد سمعت الرسول يكثر من ذكر خديجة ويطريها ، فقالت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب وقال : والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبتني الناس ، وواستني في

(١) الإصابة ١٨١/٨ (٢) الإصابة ٢٠٣/٨ والطبقات ٦٣/٨

(٣) أخبار النساء ٩ وعيون الأخبار ٤/١٩ .

(٤) الطبقات ٥٥/٨ وفتح المبدى ج ٣ (٥) فتح البارى ٩/٢٨٥ .

مالها إذ حرمنى الناس . » قالت عائشة : فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً (١) .

وقد اتفقت عائشة وسودة وصفية — حين علمن أن النبى مكث عند حفصة أطول مما كان يمكث ، وشرب عندها عسلا — على أن يدعين أن فى فم النبى رائحة مغافر ، فألى ألا يذوق العسل (٢) ، فنزل قوله تعالى : « يأيبها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » (٣) وسواء أكان هذا هو السبب فى نزول الآية ، أم كان السبب أن النبى خلا بنجاريته مارية فى يوم حفصة بيبتها أو فى يوم عائشة ، فما زالت به حتى حلف ألا يقربها (٤) ، سواء أكان هذا أم ذلك ، فإن الغيرة محققة فى الحالين ، لأنهن أردن تبغيض عسل صفية إلى النبى ، فزعمن أنه مغافر (٥) ، أو أردن الخيلولة بينه وبين جاريته مارية . وربما كان الرجل يبرع فى حيلة لطيفة يطفىء بها جذوة من الغيرة ، كما فعل عبد الله بن رواحة ، ذلك بأنه أصاب جارياً له ، فسمعت به امرأته ، فأخذت شفرة وأنته فقالت : أفعلتها يا بن رواحة ؟ قال ما فعلت شيئاً . فقالت : لتقرآن قرآنا وإلا بعجتك بها . قال : فكفرت فى قراءة القرآن ، وأنا جنب فهبت ذلك ؛ وهى امرأة غيبرى وفى يدها شفرة ، لا آمن أن تأتى بما قالت ، فقلت :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع  
بيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استنقمت بالكافرين المضامع  
فلما سمعت ألتقت السكين ، وقالت : آمنت بالله وكذبت البصر . ثم أتيت

(١) أسد الغابة ٤٣٨/٥ والاستيعاب ٧٤١/٢ .

(٢) الطبقات ٥٩/٨ وتفسير الطبرى ١٠٢/٢٨ وتفسير النيسابورى ٩٩/٢٨ .

(٣) التحريم ١ (٤) تفسير الطبرى ١٠٠/٢٨ والنيسابورى ٩٩/٢٨ والجلالين ٤٧٦

(٥) المغافر : شئ يبيضه الثمام والعشر والدرقظ مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل

ولكن له رائحة كريهة ( القاموس مادة غفر وغتر وتفسير النيسابورى ٩٩/٢٨ ) .

( ١٦ - المرأة فى الشعر الجاهلى )

النبي فأخبرته بذلك ، فضحك ، وأعجبه ما صنعت <sup>(١)</sup> .  
 على أن بعض الرجال في الإسلام كان يتحامى هذه الحياة المشوبة ، من  
 هؤلاء أعرابي شاعر يصور في أسلوب فكه بلواه من زواج اثنتين ، ويوصى  
 بالعزوبة :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي	بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت : أصير بينهما خروفا	أنعم بين أكرم نعمتين
فصرت كنعجة تُضحى وتُمنسى	تداول بين أخبث ذنبتين
رضا هذى يُهيج سخط هذى	فما أعرى من إحدى السخطين
وألقى في المعيشة كل شرٍ	كذلك الضر بين الضرتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى	عتاب دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً	من الخيرات مملوء اليدين
فمش عزباً فإن لم تستطعه	فضرّباً في عراض الجحفاين <sup>(٢)</sup>

### هل في النمر منقصة للمرأة ؟

عرفنا أن الأمم كانت تمارس تعدد الزوجات ، وأنه لم يكن مقصوراً على  
 عرب الجاهلية ، ولم يكن بدعة إسلامية ، بل إن الإسلام حدد العدد المطلق ،  
 وأوصى بالمعدلة بين الزوجات .

وقد ظهر لكثير من الباحثين والمؤرخين وعلماء الانتوجرافيا ، كالأستاذة  
 وسترمارك، وهو بوز، وهيلير، وجنسبرج (westermarck, Hoboose, mheeler  
 and Gensberg) أن هذا النظام لم يبد في صورة واضحة إلا في الشعوب المتقدمة

(١) أخبار النساء ٤٤ .

(٢) الأمالي ٣٥/٢ وسبط الآلي ٦٦٩/٢ ضرباً في عراض الجحفاين : تعرض الموت  
 والاستشهاد .

في الحضارة ، وأنه قليل الانتشار أو معدوم في الشعوب البدائية المتأخرة<sup>(١)</sup> .  
 ويعزز لوى Lowie ذلك بقوله في تحليله العوامل النفسية لتعدد الزوجات :  
 إن هذا النظام ليس دليلا على انحطاط المرأة ، أو على الشعور بضعتها ومهاتها ،  
 وليس الدافع إليه الانغماس في الشهوة والتهالك عليها ، إذ قد يحدث أن تدفع المرأة  
 زوجها إلى الاقتران بأخرى ، لشدة رغبتها في طرح جزء من أعباء واجباتها  
 المنزلية على عاتق امرأة أخرى ، وقد يكون الدافع إليه الرغبة الطبيعية في النسل  
 وكثرة الذرية<sup>(٢)</sup> .

وكذلك يذهب جستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى  
 الأخلاقي في الأمم التي تدين به ، ويزيد الأسر ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما  
 وسعادة لا تجدهما في أوروبا<sup>(٣)</sup> .

ويرد منسينور لوروا على الذين ذهبوا إلى أن التعدد أثر للاختلاط بين  
 الرجال والنساء بأنه قد استيقن أن هذا الاختلاط ليس له أثر في أية ناحية من  
 إفريقية - حيث يكثر التعدد - إلا في قطعان البقر الوحش ، ويؤكد أن تعدد  
 الزوجات ليس نتيجة حياة بدائية همجية كما يزعم الماديون ، وإنما هو أثر لحضارة  
 قديمة غربت شمسها<sup>(٤)</sup> .

وليس من موضوعي أن أبسط حكمة التعدد والأحوال التي تلجىء إليه ،  
 وحسبى أن التعدد ليس دليلا على مهانة المرأة ، لأخلص من ذلك إلى أن العرب  
 لم يكونوا شعبا همجيا بدائيا ، وأن المرأة العربية لم تكن مهينة القدر .  
 وإذا فقدت دعوى انحطاط المرأة العربية التي اعتمد القائلون بها على  
 تعدد الزوجات .

(١) الأسرة والمجتمع ٨٢ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٤ .

(٣) حضارة العرب لوتون ٤٨٣ .

(٤) Monseigneur, Leory. La Reeligion des Primitifs, P. 95

وإني لأسأل : أيهما أدل على ضعة المرأة في نظر زوجها ، وضعته هو في نفسه ، أن يتزوج أخرى أو أخريات زواجا متعارفا عليه معلوما للناس ، أم أن يتخون نفسه ورجولته وزوجته فيجعل يخادن غيرها من النساء ؟

إن الرجل العربي لا يكاد يقتصر على زوجة واحدة ، بل يُخال غير زوجته ، ولقد تضطر هي أيضا إلى أن تخال غيره ، وفي هذا فساد وضلال وانحلال ، لذلك آثر كثير من مفكرهم نظام التعدد .

« وإن رجال الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر من زوجة ، شرعية أو غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداستهم »<sup>(١)</sup> .

ثم إن الإسلام راعى الأحوال التي قد تلجئ إلى التعدد ، فأقره في حدود معلومة ، وجعل الحد الأقصى أربع نسوة ، وأوجب العدل بينهما ، وما من شك في أن الإسلام كان يحذب على النساء ويرفع من قدرهن ، فلو أن التعدد منقصة للمرأة لحظره الإسلام حظراً كما حظر الزيادة على أربع . وقد جهل بعض أعداء الإسلام هذا كله ، فزعموا أن النبي هو الذي أباح تعدد الزوجات ليستجلب الرجال إلى دينه ، بل زعم ييرون أنه أراد بذلك استمالة الرجال والنساء . وبلغ من تعصب ريفان في كتابه ( ابن رشد ) أن وصف الإسلام بأنه دين الخنازير والقوم المنهمكين في الشهوات . وزعم الأب بروغلي أن تعدد الزوجات نتيجة للإسلام<sup>(٢)</sup> .

ويحسبنا في الرد على هؤلاء أنهم يجهلون ما كان قبل الإسلام عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وأنهم يجهلون أو يتجاهلون ما أضاف الإسلام على المرأة من رعاية وتقدير . وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل الإسلام على المرأة ،

(١) مركز المرأة في الإسلام ٣٩ .

(٢) الإسلام . الكونت هنري دي كاستري . ترجمة أحمد فتحى زغلول ٥٢ .

يقول مسيوريفيل : إننا لا نجد عملاً أفاد النساء ورفع من قدرهن أعظم مما أتى به النبي محمد ، فهن مدينات له بأمور كثيرة ، وفي القرآن آيات ساميات في تقرير حقوقهن ، وما يجب لهن على الرجال (١) .

### أنكحة الجاهلية

قلت فيما سبق إن الرجل كان يخطب المرأة إلى نفسها أو إلى وليها ، فيجاب أو يرفض ، فإذا أجيب إلى طلبه مهر زوجته ، ثم جمع بعض قومه وجمع ولي الزوجة بعض قومها واحتفلوا بهذا الزواج ، فهو إذاً زواج قائم على الإيجاب والقبول ، وهو الضرب الذي كان شائعاً في العرب ، وجاء الإسلام فأقره .

على أنهم كانوا يعرفون ضروبا أخرى من اتصال الرجل بالمرأة ، ذكرت السيدة عائشة أربعة منها ، لعلها كانت أكثرها شهرة .

قالت : إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء (٢) :

١ — « فنكاح منها نكاح الناس اليوم — في الإسلام — يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها » . وقد أقر الإسلام هذا النوع ، وكان قد ساد وعم في آخر العصر الجاهلي ، وصار هو القاعدة ، حتى إن المرأة إذا ولدت عن الدعارة أو نكاح الرهط نسب وليدها إلى شخص واحد (٣) .

وليس بعجيب أن يوافق الإسلام ما أطبق عليه عرب الجاهلية من نظام يكفل للمرأة صيانة ومعزة ، ويصون للأسرة شرفها واستقرارها ، لأن الإسلام أقر كثيراً مما تعارفوا عليه من صالح العمل وطيبه ، فمثلاً كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، ويصلبون قاطع الطريق ، يقول مالك بن عميلة — في مליح ومدرك ابني عوف وكانا قد سرقا حلل الكعبة في الجاهلية — يخاطب حميد بن زهير بن عم مليح :

(١) المرجع السابق ٢٨ .

(٢) فتح الباري ١/١٥٨ ولسان العيون ١/٤٧ والاعتصام للشاطبي ٣/١٨٤ .

(٣) Mustem Law. P. 24

تمنى حميداً أنه كان حَيضةً لىالى بانت من مليح أصابعه  
 لىالى بانت كفه من ذراعه فأصبح لا يدنو لقرن ينازعه  
 ودِرَّاسَ مخزومٍ تركنا مجدلاً بما قدمت أظفاره وأشاجفه  
 فأمسى تليلاً للسباع تنوبه تسيل دما آرابه وكراسفه<sup>(١)</sup>  
 وكانوا إلا يأكلون الميتة ، فإن حارثة بن أوس الكلبي يقول :

لا آكل الميتة ما عُمرت نفسى وإن برح إملاقى<sup>(٢)</sup>

ومادعا إليه الإسلام وكانوا يمارسونه : الضمضة والاستنشاق والسواك  
 وقص الشارب والختان والاستنجاء وتقليم الأظفار الخ<sup>(٣)</sup> ، وسنرى أنهم كانوا  
 يحرمون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ويكرهون الجمع بين أختين  
 والزواج بامرأة الأب .

وإذا ما عرفنا أن هذا الضرب من الزواج كان هو الشائع عند العرب فى  
 الجاهلية ، وأن الرجل كان يدفع مهراً للزوجة ، كان لنا أن نحكم بأنهم لم يكونوا  
 همجاً أو متأخرين فى نظمهم الأسرية عن الأمم المتحضرة التى عاصروها . ذلك  
 بأن الزواج مر بمراحل ثلاث : الاختطاف ، والشراء ، والعقد . وكان العقد عملاً  
 تقديرياً للمرأة ، وفى بعض الأحيان كان يقدم لها مهر ، وقد جرى عليه اليونان  
 والرومان<sup>(٤)</sup> .

٢ — « ونكاح الآخر — الصنف الآخر — كان الرجل يقول لامرأته  
 إذا طهرت من طمئها : أرسلى إلى فلان فاستبضى منه ، ويعترها زوجها ولا يمسيها

(١) المحبر ٣٢٨ درواس : لقب مدرك بن عوف . كان حية : لم يولد . الأشاجع :  
 أصول الأصابع فى الكف . تليل : ملق على عنقه وخذ . آرابه : أجزاء يده المقطوعة .  
 كراسفه : جمع كرسوع وهو طرف الزند الذى يلى الخنصر .

(٢) المحبر لابن حبيب ٣٢٩ .

(٣) المحبر ٣٢٩ .

أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجاة الولد » .

وهذا الضرب لم يكن يتعارض مع النسب إلى الأب ، لأن الوليد ينسب إليه « وهو يخالف نظام تعدد الأزواج للزوج ، لأن الولد في هذا النظام يتبع أمه <sup>(١)</sup> » .

وقد سبق في الموازنة بين العربية وغيرها أن كثيراً من الأمم كانت تراول نكاح الاستبضاع ، فأفلاطون قد ذهب إلى شيوعية النساء بين الرجال ، وبخاصة الحكام ، فلا يخص أحد نفسه بإحداهن ، والنسل الناتج مجهول النسب ، وملاك للدولة ، فلا يعرف والد ولده ، ولا مولود أباه <sup>(٢)</sup> .

وليكورغ مشرع إسبرطة أباح شيوع النساء ، وسمح للزوجة أن تبيع نفسها لصاحبها بإذن زوجها ، وأباح للزوج أن يدفع زوجته للاستبضاع من آخر ، على أن يكون الولد للزوج <sup>(٣)</sup> .

وأباحت شريعة سولون للمرأة أن تستبضع من غير زوجها إذا عجز عن مباشرتها <sup>(٤)</sup> .

وقد أقرت شريعة مانو نظام الاستبضاع عند الهندود ، لأنها كانت تعد العقم كارثة ، وكانت تخض على الإكثار من النسل ولا سيما الذكور « ولذا تداركت العقم بطريقتين : الأولى أن يزوج الرجل — الذي عقم — ابنته ، على أن يكون مولودها الذكر ابنه ، والثانية أنها أوجبت على الرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد إخوانه أو أقاربه » <sup>(٥)</sup> .

(١) Muslem Law P. 22

(٢) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و١٣١ و١٣٥

(٣) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة في التاريخ والشرائع ٧٣

(٤) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة في التاريخ والشرائع ٧٣

(٥) Question feministe. Rosler. P. 143



وذكر العالم الألماني جريم Grimme عن الجرمان القدماء أنهم كانوا يتوخون من الزواج الحصول على وارث شرعى ، حتى إنه كان يحق للرجل أن يطلق امرأته إذا ما تحقق عقمها ، ويأخذ غيرها من غير معارضة<sup>(١)</sup> ، وذكر أن الرجل العاجز عن المباشرة الزوجية كان يجب عليه - ما دامت زوجته راضية عنه - أن يحملها على ظهره ، وينقلها إلى رجل آخر يرضيها<sup>(٢)</sup> .

وقد ورد في بعض القصائد القديمة عن القديسة اليبابات أن أحد فرسان تورنغ لما استوثق من مجزه عن إنجاب وارث له ، مثل أمام الأمير لودفيج زوج اليبابات ، وطلب منه أن يطأ امرأته<sup>(٣)</sup> .

ويذهب ولكن إلى أن هذه العادة التي كان يزاولها بعض العرب تختلف عما كان عند بعض الشعوب ، « ذلك أنه كان يحق للمرأة نفسها أن يستمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب من زوجها أولاداً<sup>(٤)</sup> .

أريد أن أعتمد على شيوع هذا النوع من الخلاط الجنسي بين شعوب شتى ، لأخلص إلى أنه لم يقتصر على العرب كما كان يذاع .

على أنه ضرب شاذ نادر يتنافى والأخلاق العربية من غيرة وحمية ونخوة واعتداد بالنفس ونغار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ إليه إلا رجل عاجز عن مباشرة زوجته أو فسل ساقط المروءة . وإذا فليس دليلاً على مهانة المرأة العربية .

وقد سجل النمر بن تواب - الشاعر المخضرم - هذا النوع ، ذلك أنه كان لقمان بن عاد أخت محممة ، وكذلك كان زوجها ، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طهرى ، وهى ليلتك ، فدعيني أنام فى مضجعك ، فإن لقمان رجل منجب ،

(١) الأمومة عند العرب ٢٥

(٢) الأمومة عند العرب ٢٦

(٣) الأمومة عند العرب ٢٥

(٤) الأمومة عند العرب ٢٥

فمسي أن يقع على فأنجب ، فوق على أخته ، شملت بَلَقِيم ، فهو قول النمر بن تولب :

لَقِيمُ بن لَقْمَانِ من أخته فكان ابن أختٍ له وابناً  
ليالي مُحَقِّقٌ فاستَحَضَمْتِ عليه ففُغِرَ بها مُظَالِماً  
فأحبلها رجل مُحَكِّمٌ فجاءت به رجلاً مُحَكِّماً<sup>(١)</sup>

٣ — « ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ، دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومّرت ليال بعد أن تضع أرسات إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، إني ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحببت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل » .

وهذا النوع هو نكاح المشاركة أو نكاح الرهط ، وهو الذي ذكره سترابون عن أهل اليمن ، وقد أسلفت قوله والرد عليه في نسب الولد إلى أمه .  
على أن هذا الضرب من الاتصال الجنسي نظام اجتماعي بدائي كان فاشياً بين الساميين القدماء ، وربما كان دخيلاً على العرب من الفرس زمن حكمهم لليمن ، وتسلطهم على الحيرة ؛ لأنهم كانوا يمارسون الإباحة الجنسية في عهد الساسانيين ولا سيما جماعة المانويين ، وربما طراً على العرب من شرقي إفريقيا ، لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك ، وما زالت تدين به<sup>(٢)</sup> .

وقد حدث هيرودوت عن بعض الحبش المقيمين على سطح البحر الأحمر أن النساء عندهم مشتركة ، ومتى كبر الأولاد أعطى كل من الرجال ما شابهه من الأولاد<sup>(٣)</sup> .

(١) الحيوان للجاحظ ٢١/١ والبيان والتبيين ١٨٤/١ مظلم : في الظلام

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٦ .

(٣) الأمومة عند العرب ٣٣ .

وكان تعدد الرجال للمرأة الواحدة شائعاً في العصور القديمة<sup>(١)</sup>، وما زال  
النائر - أعيان الملابار في الهند - يجرون عليه ، كما ذكر باخوفين Pachofin في  
كتابه (آراء القدماء في القرابة)<sup>(٢)</sup> .

لم يشع هذا النوع في العرب ، ولم يتعد قلة منهم ، وإن ادعى بعض الباحثين  
أن الشيوعية في النساء كانت نظاماً شائعاً بين العرب ، وقد رددت عليهم في  
النسب إلى الأم . ومن التعسف بل من الخطأ الفاحش أن نسب الشيوعية من  
قول عنتره :

إن الرجال لم إليك وسيلة وابن النعامة يوم ذلك مركبي<sup>(٣)</sup>  
٤ - « والنكاح الرابع : » يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع  
من جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن  
ليدخل عليهن ، فإذا حمت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ،  
ثم أحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما  
بعث محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم «  
وهذا النوع كان محصوراً في الإماماء ، وسأعرض له بتفصيل عند الكلام على الإماماء .  
٥ - على أن السيدة عائشة لم تذكر نكاح المتعة ، وربما أغفلته لأنه يشبه  
النكاح العام ، غير أنه محدود الأجل . وكان العرب يعرفونه ويمارسونه ، وأباحه  
النبي في بعض غزواته ثم حرمه<sup>(٤)</sup> . وإليه يشير عمر بن قعاس المرادى بقوله :

ألا رجل جزاه الله خيراً يدل على مُحَصَّلَةٌ تَدِيَّتُ

(١) Studies in Ancient History. mac Lennan. P. 276

(٢) الأمومة عند العرب ٢٨ .

(٣) ديوان عنتره ٢٠ ابن النعامة : فرسه

(٤) فتح الباري ١٠٢/٩ و ١٤٤ - ١٤٩ و ١٨٢ و ٣٦٩/٧ و صحيح مسلم ١٣٠/٤ -  
١٣٥ - والمبسوط ١٥٢/٦ وتفسير الطبري ٨/٥ والكشاف ٢٠٠/١ وروح المعاني ٦/٥  
والسنن الكبرى ٢٠٠/٧ - ٢٠٢

تُرَجَّل لِعَتِي وَتَقُمُّ بَيْتِي وَأَعْطِيهَا الْإِتَاوَةَ إِنْ رَضِيتَ<sup>(١)</sup>

وكان اليهود يمارسون نكاح المتعة ، ثم نهى الكتاب عنه<sup>(٢)</sup> .

٦ — ولم تذكر نكاح الشَّفَار ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه زواج فردى .  
كالزواج العام إلا أنه لامهر فيه ، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو موليته ، ولا صداق فيه لكليهما . وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وصححه الحنفية ، ولكنهم قالوا بفساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل<sup>(٤)</sup> .

وهذا النوع من الزواج كان معروفاً عند الأمم السامية قديماً<sup>(٥)</sup> ، ولا تزال له بقايا في كثير من الأمم المتعدنية<sup>(٦)</sup> .

### المحرمات في الجاهلية والإسلام

١ — حرم العرب على أنفسهم أنواعاً من الأقارب . ثم جاء الإسلام فأقر هذا التحريم . كانوا لا ينكحون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخاللات<sup>(٧)</sup> وذهب ابن عباس وغيره إلى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين<sup>(٨)</sup> .

(١) خزائن الأدب ٢/٢٤٦ أنشد الأزهري هذا البيت وما بعده في التهذيب بفتح صاد محصلة وقال : ما لأعرابي أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً بِمَتْعَةٍ . وفي لسان العرب مادة حصل أن المحصلة بكسر الصاد هي التي تحصل تراب المعدن أو التي تميز الذهب من الفضة ، وذكر البيهقي وقال إن الأزهري قال تبيت أي تبتني عندها لأجامعها ، والجوهري قال تبيت تفعل كذا . والذي أراه أن الكلمة بكسر الصاد والشاعر يريد أنها خيرة بالرجال فهي تميزه وتؤثره

(٢) شعار المحضر ١٠١

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ١٩٩/٧

(٤) فتح الباري ٩/١٤٠ والمبسوط ٥/١٠٠

(٥) النظم الاجتماعية ٤٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١١٤

(٧) الملل والنحل على هامش الفصل ٣ / ٢٣١ وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر في

أخبار الإبراهيم لأبي الفدا ١/٩٩

(٨) تفسير الطبري ٤/٢١٧ - ٢١٩ وروح المعاني ٤/٢٦١

وقد تباعد أهل مكة في المناكح عن البنت، وبنت، والبنت والأخت، وبنت الأخت، وغيره ونفورا من المجوسية، ونزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم<sup>(١)</sup>.

ولاشك أنهم بهذا التحريم سموا على كثير من الشعوب القديمة، لأن زواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الأشوريين والفرس والمصريين، فقد تزوج بطليموس فيلادلفيوس شقيقته — في مصر — وتزوج قمبيز شقيقته — في فارس — وجاء في كتاب زرادشت أن اقتراناً كهذا من أفضل القرب. وما زال المجوس إلى اليوم على آثار أجدادهم. وكان الإسيرطيون يبيحون زواج الأخت لأم<sup>(٢)</sup>. أما زواج الأخت لأب فقد كان مباحاً في كثير من الشعوب المتحضرة القديمة كالعبريين واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقالبة<sup>(٣)</sup>.

وقد تزوج الملك اليهودي هيروود أخته هيروودية، وزوجها لا يزال على قيد الحياة، ولم يرتض يوحنا المعمدان هذا الزواج فندد بالملك وبأخته تنديداً، وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله، لكن هيروود استجاب له بأن قتله<sup>(٤)</sup>.

وكان الفراعنة والبطالسة يتزوجون الأخوات على الإطلاق<sup>(٥)</sup>

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون<sup>(٦)</sup>

وكان العبرانيون يتزوجون بنات الأخ، يدل على ذلك أن عيسى عليه السلام بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر حوارياً يعلمون الناس، وكان فيما نبههم عنسه نكاح بنات الأخ<sup>(٧)</sup>.

(١) معجم البلدان ١٣٧/٨

(٢) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٨/٩

(٣) قصة الحضارة ٧٣/١ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٤) عبقرية المسيح . العقاد ١١٥

(٥) الأسرة والمجتمع ٤٧ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ وقصة الحضارة ٧٣/١

(٦) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٧) تاريخ الطبري ١٣/٢

لكن ذلك مازال قائماً، لأن طائفة الربانيين ( الربائيم ) وهم سواد اليهود يبيحون زواج الرجل بابنة أخيه وابنة أخته وابنة امرأة أبيه . والسامرة والقراءون يمنعون ذلك<sup>(١)</sup> .

أما نكاح زوجة الأب فإن العرب لم يخرموه، بدليل قوله تعالى : «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف»<sup>(٢)</sup> والآية تعنى رجالاً خلفوا آباءهم على أزواجهم<sup>(٣)</sup> . وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب إذ قال في زوجته التي خلف أباه عليها :

فلولا إخسوتي وبنّي منها ملأت لها بذي شُطْب يميني  
أصْصَاةُ اللجامِ برأسِ طِرْفٍ أَحَبُّ إِلَيَّ من أن تنكحيني<sup>(٤)</sup>  
ولما جاء الإسلام حظر نكاح امرأة الأب، وفسخ زيجات أربعا كانت قائمة<sup>(٥)</sup>

على أن العرب كانوا يمتقون هذا النوع، ويسمون المولود عليه المَقْتِي، ومن ثم قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلاً » كأنه قال فاحشة في دين الله بالفحة في التبع، قبيح ممقوت في المروءة<sup>(٦)</sup>، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضيّن، ويتمونه بأنه فارسي يدين بالمجوسية، قال أوس بن حجر :  
والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لأبيه ضيّن سلف<sup>(٧)</sup>

(١) العقائد . عمر عنيت ٨٠ - ٨٢

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) تفسير الطبري ٤/٢١٧

(٤) لسان العرب مادة نكح

(٥) الإصابة ٨/٥٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ٣/١٢٣ و ١/١٧ والمثل والنحل ٣/٢٣٢ وأسد الغابة ٢/٢٣٨ والروض الأنتف ١/١٤٦ والمخبر ٥/٣٢٥ والكشاف ١/١٩٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والمبسوط ٤/١٩٨ وروح المعاني ٤/٧٠١ والمتطرف ٢/٧٢ ومعجم البلدان ٨/١٣٧

(٦) الكشاف ١/١٩٧

(٧) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٧/١٢٢

ولم يكن هذا النوع شائعا إذا ، لأن أحق شخص بامرأة المتوفى ابن زوجها الأكبر ، ولما يقدم عليه لقبه .

وقد ظلت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، ذلك أن منظور بن زبان كان قد تزوج امرأة أبيه ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، فقال منظور :  
 لَعَمْرُ أَبِي دِينَ يَفْرُقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَسْرًا إِنَّهُ لِعَظِيمٍ  
 وَهَجَاهُ حَجْرُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بِقَوْلِهِ :

لبئس ما خلف الآباء بعدهم في الأمهات عجان الكلب منظور  
 قد كنت تغمزها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز معذور<sup>(١)</sup>  
 كذلك لم يحرم العرب الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » .

وقد ألف أبو الحسن المدائني كتابا فيمن جمع بين أختين<sup>(٢)</sup> . وبعضهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام<sup>(٣)</sup> وإن بقي أثره إلى عهد عمر ، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام ، حاف أنه لا يعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين<sup>(٤)</sup> .

على أن العرب لم ينفردوا بهذا الضرب ، فقد كان العبريون يجمعون بين الأختين ، كما جمع يعقوب بن إسحاق بنتي خاله لبان : راحيل وليا ، وأنجبتاله ، وكان الناس يومئذ يفعلون ذلك ، إلى أن بعث موسى عليه السلام ، وأنزلت عليه التوراة<sup>(٥)</sup>

٢ — وإذا فقد كان العرب يحرمون ما حرم الإسلام في قوله تعالى : « حرمت

(١) الأغاني ١١/٥٣

(٢) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢

(٣) المحبر ٣٢٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والملل والنحل ٣/٢٣١ وروح المعاني ٤/٢٦١

(٤) فتوح الشام للبصرى ٢٢٧

(٥) تاريخ الطبري ١/١٦٣

عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم» (١)

وزاد الإسلام تحريم امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، وبين المحارم مطلقاً ، فقد نهى رسول الله أن تتكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها ، أو الخالة على بنت أخيها ، لا تتكح الصغرى على الكبرى ، ولا الكبرى على الصغرى (٢) .

ولا شك أن العرب بمقتهم نكاح امرأة الأب ، ويتباعدون عن الجمع بين الأختين ، وبتحريمهم ما حرم الإسلام بعد ، قد تساموا عن أمور كانت بين الساميين وغيرهم ذكرتها التوراة (٣) .

ولم يتقوّل مخرلق أو شعوبى على عربى أنه تزوج أمه ، كما تزوج مارك أنطونيو فاربوس هليوجو بال أمه ، وكان يعبد الشمس كملوك الفرس ، ويقدم لها القرابين من أجمل بنات إيطاليا ، وقد قتله جنده هو وأمه سنة ٢٢٢ م (٤) ، وكان الكنعانيون يأتون المحارم كلها (٥) .

أما دعوى زواج لقيط بن زرارة بنته ، فقد فندتها فيما سبق . وبذلك امتاز العرب من الأمم التي كانت تبيح الأخت والبنت وبنت الأخ كما سبق ، وامتازوا من العبريين الذين حرمت عليهم عماتهم وخالاتهم ، ولكثرتهم

(١) سورة النساء ٢٣

(٢) حجة الله البالغة ٩٧/٢

(٣) سفر اللاويين الإصحاح ١٨ آية ٦-٣٠ وحضارة العرب ٤٨٧

(٤) Histoire Des papes. Tome I. P. 187 Paris

(٥) شعار الحضرة في الأحكام الشرعية الاسرائيليين ١٣



جروا على الزواج بهن<sup>(١)</sup>. وامتازوا من الرومان في زمن القيصر كلوديوس، لأنهم أباحوا في عهده ابنة الأخ وابنة الأخت حتى نقض قسطنطين ما أباحوا<sup>(٢)</sup>.

٣ — وللإسلام الفضل في تبريم نظامين كان العرب يضارون بهما النساء أولهما العزل، ذلك أن الورثة كانوا يمنعون المرأة المتوفى عنها زوجها من الزواج، لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها، أو تعطيمهم الصداق الذي أخذته، وكان الأزواج أيضا يسكون زوجاتهم أحيانا من غير حاجة إليهن، فيضاروهن ويضيقون عليهن، ليستردوا بعض ما آتوهن بأن يحتلن بمهورهن. وقيل كان الرجل القرشي بمكة ينكح المرأة الشريفة وربما لاتوافقها، فيفارقها على ألا تزوج إلا بإذنه، فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإلا عضلها<sup>(٣)</sup>.

هذا هو العزل في رأى المفسرين والفقهاء، وهو في اللغة التضيق، ومنع المرأة الزواج ظلما<sup>(٤)</sup>، وليس يهمننا أن يكون العازل هو الوارث، أو الزوج، أو غيرها، فإن الأب قد يعزل بناته، كذلك الذى عضلهن ومنعهن الأكفاء فتأذين، فزوجهن<sup>(٥)</sup>.

وواضح أن عضل الورثة كان الغرض منه أن تبقى في العشيرة ثروة الرجل الرجل المتوفى، وأن عضل الزوج كان الباعث عليه أن يسترجع ما قدم من صداق. أما عضل الأب فليس له من باعث إلا الأنفة والغيرة، أو الأثرة، وهو على أى حال عمل شاذ مباح لنا كان عليه الآباء.

لكن العزب لم يتوحدوا بهذا العمل، فقد كان العبريون يعتقدون المرأة

(١) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٨/٩

(٢) المرجع السابق ٣٣٨/٩

(٣) فتح البارى ١٨٥/٨ وروح المعاني ٣٤٢/٤

(٤) القاموس المحيط مادة عضل

(٥) الأملى ١٠٥/٢

جزءاً من متاع الرجل ، تورث كما يورث ما خلف ، وللوأرث أن يبيعها أو يعضلها<sup>(١)</sup> .

ومن نعم الإسلام على النساء أن حظر العضل : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »<sup>(٢)</sup> .

ثانيهما الزواج بالميراث ، ذلك أن الرجل كان إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس ، فإن كانت تعجبه تزوجها ، وإلا حبسها حتى تموت . وفي رواية البخارى وأبى داود أن أولياء الرجل كانوا أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها ، وإن شاء منعها الزواج حتى تموت ، أو ترد عليهم مهرها ، فهم أحق بها من أهلها<sup>(٣)</sup> .

وكان للولد الأكبر إذا ما طرح ثوبه على امرأة أبيه أن يتزوجها بغير مهر ، وله أن يزوجه أحد إخوته بمهر<sup>(٤)</sup> ، وله أن يعضلها كما سبق ، فلا ينفق عليها ، ولا يخلى سبيلها لتأحق بأهلها . وقد شكت كبيشة بنت معن إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابن زوجها محصن ابن أبى قيس بن الأسلت لما فعل بها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، ثم شكت إليه نسوة أخر كما شكت كبيشة فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن »<sup>(٥)</sup> .

ولم ينفرد العرب بهذا النظام ، فقد كان شائعاً عند الإسرائيليين والبابليين والآشوريين ، وكان عند الساميين يعتبر حقاً يتضمن الملكية ، وإذا كانت الزوجة

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ و٦٧ (٢) النساء ١٩ (٣) الكشاف ٢٠٧/٤

وروح المعاني ٢٤١/٤

(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ٢٣٢/٣ والمستطرف ٧٢/٢

(٥) المحبر ٣٢٦ والبخارى ٢٨٨/٦ وروح المعاني ٢٤١/٤

(١٧ - المرأة والشعر الجاهلي)

تعد جزءاً من متاع الرجل فإنها كانت ثورث كما يورث غيرها من ماله ، وللوارث أن يبيعها أو يعضاها<sup>(١)</sup> . بل إن شريعة موسى أوجبت على أخى الزوج أن يتزوج زوجة أخيه المتوفى ، وإذا لم يفعل شكته إلى الشيوخ ، فإذا أصر خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت في وجهه ، وصرخت قائلة : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبني بيت أخيه » ، فيسمى مخلوع النعل<sup>(٢)</sup> ، وتصبح المرأة بعد خلع النعل حرة ، لها أن تتزوج من تشاء ، فكان خلع النعل طلاق<sup>(٣)</sup> .

وواضح أن الغرض من الزواج بالميراث كالغرض من العضل ، إنما هو البقيا على ثروة المتوفى والاحتفاظ بها فى العشيرة ، والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو السبيل إلى ذلك .

## الطلاق

ضرورية :

هل من الحتم اللازم أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بملاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم ولا تترنق ؟ إن هذا مخالف لنواميس الاجتماع ، مناقض لطبائع الناس ، مباين للمشاهد فى كل مجتمع .

لقد كانت الحياة الزوجية فى كل قبيل تهزها هزات عنيفة تقوض أركانها ، ومازالت إلى الآن عرضة لرجات قوية تهدم بنيانها ، فكان من الطبيعى أن يفرغ العالم القديم إلى الطلاق ، وكان من تنظيم الأسرة أن تبيحه الشرائع السماوية الثلاث فى حدود وقيود .

فهل عرف العرب الطلاق ؟ وعلى أى الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرة للرجل يستأثر به ؟ أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟ ثم

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٥ - ٦٧

(٢) المرأة فى التاريخ والتمرائع ٤٨ : (٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٥

ما الصورة التي نستشفها من نظام الطلاق، لتتصور مكانة المرأة في المجتمع العربي؟ وماذا كانت نظرة الإسلام إلى ما تعارف عليه العرب من صور الطلاق؟

### الطلاق عند الأمم :

مارس العبرانيون الطلاق<sup>(١)</sup>، وخولت القوانين العبرية القديمة الرجل أن يطلق زوجته، ولم تحول الزوجة أن تطلب الطلاق<sup>(٢)</sup>، ولم تمنح للمرأة العبرية حق المطالبة بالطلاق إلا في عصور متأخرة، إذ أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق<sup>(٣)</sup>، وليس قبولها الطلاق إلا شرطاً لوقوعه<sup>(٤)</sup>. وإذا فلم يكن من حقها أن تطلق زوجها.

ثم جاءت المسيحية فضيقتة جداً، حتى لقد روى عن المسيح أنه حرمه، ذلك أن تلاميذه سألوه عنه فقال لهم: « من طلق زوجته وتزوج أخرى يزني، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت آخر تزني<sup>(٥)</sup>»، ولكن الكنائس أباحته في ظروف خاصة، سواء في ذلك الكنيسة الرومية والمذهب الأرثوذكسي والمذهب البروتستانتي<sup>(٦)</sup>. والكاثوليك يحرمون الطلاق لكنهم يفسخون العقد لأسباب قليلة كزنا المرأة، ويعدون هذا انفصالا لا طلاقاً، ولا يجوز لأحد الزوجين أن يتزوج بعده<sup>(٧)</sup>.

وإذا ما عدونا التشريع السماوي وجدنا أن الرومان قد زاولوه وأنه شاع في عهد الجمهورية الأخيرة، وانتشر طمعاً من الرجال في المال، وإعجاباً بالجمال، وغراماً بالنساء. وقد طلق الخاصة والقياصرة كما طلق الشعب، فإن يوليوس قيصر

(١) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/٢ ودائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١ والمرأة في

العصور ٨٥

(٢) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة في الإسلام

٧٣ والإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ (٣) شعار الحضرة ١٢٦ (٤) الأحكام

الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ (٥) إنجيل مرقس الإصحاح ١٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١٢٧ (٧) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١

طلق مرتين ، وأنطونيو طلق ثلاثاً ، وأوكتافيو طلق أربعاً . وظل الطلاق منتشراً حتى خففت المسيحية من شرته ، ثم حظر حظراً<sup>(١)</sup> .

لكن الزوجة الرومانية لم تخول المطالبة به ، فإذا حاولت الفراق عرضها عمالها للعقاب الصارم<sup>(٢)</sup> .

وكذلك مارسه الأثينيون بدون قيد أو شرط ، وجملوه حقاً للرجل وحده ، فلا نصيب للمرأة منه<sup>(٣)</sup> . وقد أقرته شريعة سولون ، ومنحت المرأة ما كانت محرومة منه . أما ليكورغ فقصّر حق التطلق على الرجال<sup>(٤)</sup>

وكان حق الطلاق مباحاً للزوجين في بابل<sup>(٥)</sup> . وأما المصريون القدماء فقد حرموه تحريماً ، ونقل الإسكندر المقدوني عنهم تحريمه .

#### رواوى الطلاق عند العرب :

ليس بمستطاع أن نتعرف بواعث الطلاق كلها ، وبحسبنا أن نمثل ببعضها ، فقد يكون من بواعثه الفقر ، فمثلاً سألت نبيه بن الحجاج السهمي زوجته أن يطلقهما لأنه افتقر فقال :

تلك عرساي تنطقان على عَمْدلى اليوم قول زور وهتر  
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جتمانى بِنَكْر<sup>(٦)</sup>  
ولقد ينضم الكبر في السن إلى الفقر ، وفي هذين يقول عبيد بن الأبرص :  
تلك عرسى غضبى تريد زىالى ألبين تريد أم لدلال ؟  
زعت أنى كبرت وأنى قل مالى وضنّ عنى الموالى .

(١) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١ والإسلام والحضارة العربية ٨٠/١

(٢) مركز المرأة في الإسلام ٧٣ للسيد أمير على الهندى

(٣) مركز المرأة في الإسلام ٧٣ (٤) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١

(٥) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٧ Mrs Ray Strachey

(٦) الأغاني ٦٠/١٦ وفي البيان والتبيين ١٩٩/١ أن القائل سميد بن زيد بن عمرو

بن قليل . وعند الزمخشري أنه زيد بن عمر بن قليل

وصحاحاً باطلاً وأصبحت شيخاً لا يواني أمثالها أمثالي<sup>(١)</sup>  
 وبسبب الكبر طلق عمرو بن عدس دُخْتَنُوس بنت عمه لقيط بن زرارة ،  
 لأنه كان شيخاً هرمًا ، فأراها يوماً تتأفف منه ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟  
 قالت : نعم ، فطلقها<sup>(٢)</sup> .

وربما يدفع إلى الطلاق أن تتناول الزوجة على قوم الزوج وتنال منهم ؛  
 فيندفع بمصيبته لهم إلى تطليقها ، فمثلاً كان حسان بن ثابت زوجاً لعمرة بنت  
 الصامت الأوسية ، وكانا متصافيين متحابين ، ولما أجاز الأوس مَخَلد بن الصامت  
 الساعدي قال أبو قيس بن الأسلت :

أجرت مَخَلدًا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت  
 فتكلم حسان في أبي قيس بكلام أغضب عمرة ، فغيرته أخواله ، ونفرت  
 عليه بالأوس . فغضب لهم فطلقها<sup>(٣)</sup> . وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته  
 أم معبد لأنها عاتبتة على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه وسبته ،  
 فطلقها وقال فيها :

أعبد الله إن سببتك عرسي تقدم بعض لحي قبل بعض  
 إذا عرس امرئ شتمت أخاه فليس فؤاد شأنه بمضم  
 معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملك إبراهيم وتقضى<sup>(٤)</sup>  
 وشبيه بذلك أن عمرو بن شاس كان له ابن أسود من أمة ، يقال له عرار ،  
 وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، فهددها بالطلاق في قوله :  
 فإن كنت منى أو تريدين صحبتي فكوني له كالسمن ربت له الأدم

(١) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩

(٢) بجمع الأمثال للسيداني ١/١٦٤ والأغاني ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧ .

(٣) الأغاني ٣/١٤ .

(٤) الأغاني ٩/٥ . الفؤاد الحامض : الفاسد المتغير .

وإلا فسيري مثل ما سار راكب تعجل خمسا ليس في سيره أمم<sup>(١)</sup>  
 ولقد يطلق الرجل امرأته لأنه لا يأنس إليها ، ولا يجد فيها الخلال التي  
 يريد ، كما فعل الأعشى لما تزوج امرأة من عنزة فلم يرضها ، ولم يستحسن خلقها  
 فطلقها ، وقال :

فبيني فإن البين خير من العصا وألا ترمى لي فوق رأسك بارقة  
 وما ذاك عندي أن تكون دنيئة ولأن تكوني جئت عندي بباتقة  
 ويا جارتا بيني فإنك طالقته كذلك أمور الناس غاد وطارقة<sup>(٢)</sup>  
 ولقد يطلقها لأنه يجد فيها ميلا إلى غيره ، وتبرما به ، كما طلق الحارث  
 ابن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة لما رأى إعجابها بشبان من قومها<sup>(٣)</sup> .

وربما يتوسم الرجل في المرأة التي خطبها شابا وجمالا ، فإذا هي عجوز شطاء  
 فلا يجد بدا من تسريحها ، حدث هذا لجهم ، إذ خطب من بنى فقعس ، وباع  
 إبلا له ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً مولية ، فطلقها وقال :

وما لمت نفسي منذ فطمت بلحية كملت نفسي في عجوز بنى شمس  
 فباتت ولم أعين - غداة اشتريتها وبعثت تِلاد المِال بالثمن البخس<sup>(٤)</sup>

## أنواع الطلاق عند العرب

### ١ - الطهر :

كانت العرب تطلق في الجاهلية ثلاثاً على التفرقة ، والزوج أحق بزوجته  
 إلى أن يستوفى ثلاث طلاقات ، فإن استوفها انقطع سبيله إليها<sup>(٥)</sup> ، وفي

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ . ربت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد  
 لدبوغ تتخذ منه الزقاق والأوعية ونحوها ، ورب الوعاء دهنه بالرب وهو خلاصة التمر بعد طيبخه  
 وعصره لينع فساد السمن . يقول لها : عامليه برعاية كما تستصحبين السمن بدهن وعائه .

(٢) ديوان الأعشى ١٨٣ وشعراء النصرانية ٣٦٣

(٣) مجمع الأمثال للميداني ١١١/١ والمحاسن والأضداد ١٨٤

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ .

(٥) المحبر ٣٠٩ والمثل والتحل على هامش الفصل ٢٤٣/٣ وبلوغ الأرب للألوسي ٤٩/٢

ذلك يقول الأعشى لزوجته .

وموموقةً فينا كذلك ووامقه  
 فبيني حصان الفرج غير ذميمة  
 وذوقى فتى قومٍ فإني ذائقُ  
 فتاةَ أناسٍ مثل ما أنت ذائقه  
 وبيني فإن البينَ خيرٌ من العصا  
 وألا تَرَمَى لى فوق رأسك بارقه  
 وكذاك أمور الناس غادٍ وطارقه<sup>(١)</sup>

فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

وكان هذا هو الغالب . وقد التزم أهل مكة هذا التفريق ، يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها<sup>(٢)</sup> .

وأحياناً كانوا يوقعون الثلاث دفعة واحدة ، يدل على ذلك قول الشاعر :

فإن ترفقني يا هند فالرفق أيمس  
 وإن تخزني يا هند فأخزق أشام  
 فانت طلاقٌ والطلاق عزيمة  
 ثلاثٌ ومن يخزق أعق وأظلم  
 فبيني بها أن كنت غير رفيقة  
 وما لأمريء بعد الثلاث مُقدّم

ولكن طلاق الثلاث دفعة واحدة في الإسلام كان لا يقع إلى عهد عمر إلا طلقة واحدة ، روى مسلم عن ابن عباس أن الطلاق كان في عهد رسول الله وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم<sup>(٣)</sup> .

على أنه وردت آراء أخرى في أن العرب كانوا يطلقون ويراجعون ، ولاحد لهم ينتهون إليه ، وكانوا يضارون النساء بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق

(١) ديوان الأعشى ١٨٣ والأغاني ٨/٨٠ .

(٢) معجم البلدان ٨/١٣٨

(٣) تفسير القرطبي ٣/١٣٠ والسنن الكبرى للبيهقي ٧/٣٣٦ .



مرتان فإمساك بمعروف أو تمریح بإحسان<sup>(١)</sup> . ولكنى أرجح أن هذا لم يكن نظاماً عاماً ، لأن رأى ابن عباس أجدر بالقبول ، وأقرب إلى المعقول ، ولأن بعض ما روى عن هذا الإطلاق غير مقبول ، وكيف تقبل ما ذكره ابن زيد أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ، ثم إذا أراد أن يراجعها كان ذلك له<sup>(٢)</sup> ؟ وكيف تقبل ما ذكره الرازى أن الرجل كان له أن يطلق امرأته ألفاً ، ثم يراجعها بعد كل مرة<sup>(٣)</sup> ؟

ومهما يكن من شيء فإن الإسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم فى أن جعل الطلقات ثلاثاً ، ثم زاد أموراً ، منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره . ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثاً دفعة واحدة ، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء فى حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والمحققين إلى وقوعه واحدة<sup>(٤)</sup> .

## ٢ - الخلع :

وكان من صور الطلاق فى الجاهلية أن تفتدى المرأة من زوجها بما لها، وتختلف منه إذا أساء عشرتها<sup>(٥)</sup> ، من ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : « يا بنى ارفع عصاك عن بكرتك ، فإن كانت نفرت من غير أن تنفّر فذاك الداء الذى ليس له دواء ، وإن لم يكن بينكما وفاق ، ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك » ورد

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٢٧٦ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢/ ٣٦١ وتفسير القرطبي

١٢٦/٣ (٢) تفسير الطبرى ٢/ ٢٧٦ والسنن الكبرى لليهنى ٧/ ٣٣٣ .

(٣) تفسير الرازى ٢/ ٢٧٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٣/ ١٣٠ وعبون المسائل ١٤٥ - ١٦٠ .

(٥) الكشاف ١/ ١٩٧ .

عليه صداقه وخلعها<sup>(١)</sup> ، وكذلك خلع دمع بن عبد الله من رجل إيادى زوجته وتزوجها<sup>(٢)</sup> .

ولما جاء الإسلام أقر الخلع<sup>(٣)</sup> ، مراعاة لصالح المرأة ، لأنها قد تبغض زوجها وتتأذى بعشرته ، ويأبى هو أن يخاصها ، حرصاً عليها ، أو نكايته لها ، أو أسفاً على ما أنفق من ماله في زواجها . قال تعالى : « ولا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ »<sup>(٤)</sup> .

ولقد يكون في الخلع رعاية لصالح الزوج أيضاً ، فيما إذا أتت الزوجة بفاحشة مبينة كافي الآية ، والمراد بها النشوز وسوء الخلق أو الزنا<sup>(٥)</sup> ، وقد كشفت جميلة بنت عبد الله بن أبي النبي صلى الله عليه وسلم عن كراهيتها لزوجها ، ورغبتها في فراقه ، فقال زوجها : إني أعطيتها أفضل مالى ، حديقة ، فالتردد على حديقتى . فأمرها النبي بردها عليه ، وفرق بينهما<sup>(٦)</sup> ، ورويت هذه الحادثة بطرق أخرى ، ولكنها كلها تدل على أن العرب كانوا يعرفون الخلع ، وإلا لم يطلب الأزواج ما لهم قبل الفرة .

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع ، أو تطلب الطلاق من غير حاجة ، أو خضوعاً للهوى ، لقوله تعالى : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » ، والمراد النشوز والبغضة من الزوجة ، والتقصير في الحقوق من الزوج ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم تُرْحَ راحة الجنة »

(١) أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري ٤٣ مخطوط وفتح الباري ٣٤٦/٩ وعبون الأخبار ٧٦/٤ .

(٢) الفاخر . الكوفي ٤٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٣٧/٣ .

(٤) البقرة ٢٢٨ .

(٥) روح المعاني ٢٤٢/٤ .

(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٢١٣/٧ وتفسير الطبري ٢٨٠/٢ والنيابوري ٣٦٣/٢ .

و « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة »  
و « المختلعات هن المناقات (١) » .

### ٣ - الظهار :

قال الشافعي رضى الله : « سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول :  
« كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق . فأقر الله  
تعالى الطلاق طلاقاً ، وحكم في الإيلاء والظهار بما بين في القرآن » (٢) . ذلك بأن  
الرجل كان يظاهر من زوجته في الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها : « أنت على  
كظهير أُمى » يريد تحريمها على نفسه تحريماً مؤبداً ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم  
لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت حين فرغت إليه لما ظاهر منها زوجها  
« حرمت عليه (٣) » . ثم أنزل الله تعالى حكم الإسلام . وقيل إنهم كانوا  
يعدون طلاقاً ، ويحيزون للمظاهر أن يتزوج زوجته ثانياً (٤) ، ولكن جواب  
الرسول لخولة يناقض هذا . وربما كان الأكثر يحرمون بالظهار ، والأقل  
لا يحرمون به .

أما حكم القرآن في الظهار فواضح من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من  
قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل  
أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي  
السبيل (٥) » ، ومن قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلن فى زوجياتها ،  
وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركن ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣١٦/٧ وتيسر الوصول ٣٣٨/١ .

(٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٣/٢٨ والقرطبي ٢٧٠/٢٨ وطبقات بن سعد ٢٧٦/٨ .

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢٨ والنيسابورى ٨٢/٢١ والمبسوط ٢٢٤/٦ .

(٥) سورة الاحزاب ٤ .

من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظهرون من نسائهن ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتاسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتاسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا »<sup>(١)</sup> .

وبهذا أبطل الإسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان في جوفه ، وقاس لهم على هذا المستحيل أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كأمه ، ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة .

#### ٤ - الإيلاء :

كان الإيلاء من أنواع الفرق في الجاهلية كما ذكر الشافعي<sup>(٢)</sup> والقرطبي<sup>(٣)</sup> ، يولى الرجل من زوجته السنة والسنين وأكثر ، إيذاء لها ، فلا يقربها . فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه ، ثم يطلق إن شاء أو يبقى في يمينه ، « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »<sup>(٤)</sup> فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكى<sup>(٥)</sup> .

### حق المرأة في الطلاق

١ - تميزت المرأة العربية بأن لها الحق في أن تكون العصمة بيدها فتطلق

(١) سورة المجادلة ١ - ٤ .

(٢) بلوغ الأرب ٢ / ٥٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٣ / ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة ٢٢٦ و ٢٢٧ .

(٥) تفسير القرطبي ٣ / ١٠٣ .

الرجل ، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق ، سواء أكان على بدل أم لم يكن ، وهذا حق لم تظفر به امرأة في الأمم التي عاصرت العرب . « فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حولن الخباء ، فإن كان بابہ قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابہ قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها<sup>(١)</sup> » ولعل السبب في هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكاً للمرأة ، وهو عند أهل المدركالبيت عند أهل الحضرة<sup>(٢)</sup> ، فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقته . أما الحضريات فكانت لمن طريقة أخرى في الإعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح<sup>(٣)</sup> .

ومن هؤلاء اللاتي امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، إحدى نساء بني عدى بن النجار ، كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها ، فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته<sup>(٤)</sup> ، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجليية ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج السامية ، وفاطمة بنت الخرشب الأثمارية ، والسوداء العنزوية الهزانية<sup>(٥)</sup> ومنهن ماوية بنت عفزر ، وقد طلقت زوجها حاتماً الطائي لما تخرق في كرمه وضاق به<sup>(٦)</sup> .

وقد ورد في الشعر ما يثبت ذلك ، قالت امرأة من بني جذيمة بن عامر وقد أوقع بهم خالد بن الوليد بالعة يئساء :

- 
- (١) الأغاني ١٠٢/١٦ وذيل الأملال ١٥٣ .  
 (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٧ .  
 (٣) مجمع الأمثال للبيداني ٣١٨/١ .  
 (٤) الأغاني ١١٩/١٣ والميداني ٣١٨/١ .  
 (٥) الميداني ٣١٨/١ والمحجر ٣٩٨ .  
 (٦) الأغاني ٩٩/١٦ وذيل الأملال ١٥٣ .

فكأن ترى بالغميضاء من فتى أصيب ولم يجرح وقد كان جارحاً  
ألطت بخطاب الأيامي وطلقت غداتئذ منهن من كان ناكحاً<sup>(١)</sup>  
ويقول عبيد بن الأبرص لزوجته :

وعيشي بالذي يفنيك حتى إذا ما شئت أن تنأى فيني<sup>(٢)</sup>  
ويقول الشنفرى :

إذا ما ماجئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقيني<sup>(٣)</sup>  
وحتى على فرض أن هذا تهكم من الرجل فإنه دليل على أن للمرأة أن تطلب  
الطلاق .

٢ — وكان للمرأة أن تطلب الطلاق ، فلم تكن كغيرها من نساء الأمم  
المعاصرة لا رأى لها ولا اختيار . وهي إما أن تطلب الطلاق بالاختلاع كما سبق ،  
وإما أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته :

تلك عرسى غضبي تريد زيالى ألبين تريد أم لدلال  
إن يكن طيبك الفرائئ فلا أحفل أن تعطنى صدور الجمال<sup>(٤)</sup>  
وكما حدث سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجته :

تلك عرساى تنطقان على عمى لى اليوم قول زور وهتر  
سالتانى الطلاق أن رأنا ما لى قليلا قد جتتا بئكر<sup>(٥)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٥٧/٤ ومعجم البلدان ٣٠٧/٦ ألطت : لزمت . الغميضاء : موضع  
قرب مكة .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٣ .

(٣) الوحشيات لأبى تمام ٢٧ مخطوط وأخبار النساء ٥٤

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١١٩/١ .

(٥) البيان والتبيين ٩٩/١ وفى الأغاني ٦٠/١٦ أنه نبيه بن الحاج .

ويقول أبو قُرْدُودَةَ :

كَبَيْشَةَ عِرْسِي تَرِيدُ الطَّلَاقَ      وَتَسْأَلُنِي بَعْدَ وَهْنٍ فِرَاقًا<sup>(١)</sup>

وقد سألت ضباعة بنت عامر بن قرط زوجها عبد الله بن جدعان أن يطلقها، لأنه كان كبيراً، وعاشت معه زماناً لاتد، ولأن هشام بن المغيرة المخزومي أغراها بطلب الطلاق. فقال لها عبدالله: أخاف أن تزوجي هشام بن المغيرة، قالت: لا أتزوجه. قال: فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها بين إساف ونائلة، وتفزلين لي خيطا يقطع ما بين الأخشيين، وتطوفين بالبيت عريانة. فأرسلت إلى هشام تخبره، فأرسل إليها: ما أيسر ما سألك، وما يلويك هذا، وأنا أيسر قريش في المال، ونسأى أكثر نساء رجل من قريش، وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة، فلا تأبى عليه. فقالت لزوجها، فإن تزوجت هشاماً فعلى ما قلت. فطلقها، فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجُزُر، وجمع نساء ففسجن ثوباً يسع ما بين الأخشيين، ثم طافت بالبيت عريانة<sup>(٢)</sup>.

على أن المرأة كانت لبقة في تصرفها بعصمتها، لا تطلق زوجها حماقة وهوى، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية، لا تفصمه إلا إذا لم تجد بداً من فصمه. فهؤلاء اللاتي كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها، يدل على ذلك أن ماوتية لم تطلق حاتماً إلا بعد ما يئست من كفه عن التخرق في كرمه، ونخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيتها إن أنجبت منه<sup>(٣)</sup>. ويدل على ذلك أن رجلاً من آل أبي طالب غضب على امرأته يوماً فقال لها: أمرك بيدك. فقالت: أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة، فحفظته وأحسنيت صحبتته،

(١) الحيوان للجاحظ ٤٦٣/٥ .

(٢) الإصابة ١٣٣/٨ و٣٥٣/٤ ورسالة القيان للجاحظ ٥٧ وأشعار النساء للرزباني ٢٤

(٣) الأغني ١٠٢/١٦ .

فلا أضيعه إذ كان في يدي ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حتمك . فأعجبه قولها وأحسن صحبتها<sup>(١)</sup> .

٣ — ثم جاء الإسلام فأبقى على حق المرأة في الطلاق إذا اشترطته على الزوج . وإلى ذلك ذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة<sup>(٢)</sup> .

وأباح لها أن تختلع ، وأن تطلب التفريق لعيب في الزوج ، أو لامتناعه عن الإنفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة<sup>(٣)</sup> .

وأباح للتي زوجت صغيرة أن تفسخ زواجها عند بلوغها ، أو أن تمضيه<sup>(٤)</sup> . والفكرة العامة التي نستنبطها أن الإسلام أبقى على بعض النظم العربية الصالحة في الطلاق ، وأبطل الإيلاء على أنه طلاق ، وحرّم الظهار ، وصان المرأة حقها في الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها .

ثم إنه بفض الطلاق إلى الرجال ، فقد ورد في القرآن الكريم : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »<sup>(٥)</sup> و « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة »<sup>(٦)</sup> و « إن خفتم شقاق بينهما فابعثو حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما »<sup>(٧)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق<sup>(٨)</sup>

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ .

(٢) عيون المسائل ١٦٩ .

(٣) عيون المسائل ٢٠٥ .

(٤) عيون المسائل ٧٧ .

(٥) سورة النساء ١٩ .

(٦) سورة الطلاق ١ .

(٧) سورة النساء ٣٥ .

(٨) السنن الكبرى للبيهقي ٣٢٢/٧ .



وقال: أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فخرام عليها رائحة الجنة<sup>(١)</sup>،  
 وذهب الفقهاء إلى أنه قد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً<sup>(٢)</sup>، كما أنه قد يكون  
 واجباً وقد يكون مستحباً<sup>(٣)</sup>.

وما من شك في أن الطلاق نظام طبيعي لا مفر منه أحياناً ، وليس أدل على  
 ذلك من لجوء بعض المسيحيين إليه ، « والأفضل أن يقتصر الإنسان على امرأة  
 واحدة لا يبدلها ، ولكن قد يحدث زواج غير موفق ، فعلينا أن نسن قوانين  
 تخول الرجل أن يفصم هذه الرابطة التي لا مندوحة من تغييرها ، مراعاة لصالحه  
 وصالح المجتمع »<sup>(٤)</sup>

### صمة بهر الطلاق

قد يثور الزوج ، وقد تهتاج المرأة ، وقد تنزل بهما عارضة فيفترقان ، وهذه  
 حال طبيعية لا منجاة منها . فإذا ما وجدنا الرجل يندم على الطلاق ، ويتحسر  
 على سعادة قد ذهبت ، وإذا ألقينا المرأة المطلقة تُثنى على زوجها ، وتأسف على  
 صلة قد انقطعت ، كان لنا أن نوقن بأن العلاقة الزوجية في العصر الجاهلي كانت  
 وطيدة الدعامة ، عليّة المسكاة .

١ — أما الزوج فكثيراً ما حزن وندم ، وإذا كانت أخبار حزنه وندمه  
 أكثر من أخبار المرأة ، فذلك لأنه هو المطلق في الأعم الأغلب ، ثم لأنه لا ينجل  
 من البوح بما يمتضه من الألم والندم والحنين إلى زوجته التي طلقها ، أما الزوجة  
 فإنها في موضع المرغوب عنها ، فلا تكشف عن حسرتها وندمها ، وهي إلى ذلك  
 تستحي أن تعلن توجعها وتأبفها على أن تعود .

(١) حجة الله البالغة للدهلوي ١٠٣/٢ :

(٢) البسوط للسرخسي ٦/٢ .

(٣) عيون المسائل ١٤٧ .

(٤) The Psychology of Marriage P. 240 Walter M. Callchan

كانت أم أوفى زوجة زهير بن أبي سلمى ، وقد ولدت له أولاداً ماتوا ، ثم تزوج ففارت ، وطابت الطلاق ، فطلقها ، لكنه حسب أنها ملته لطول عشرتها له ، وأقسم أنه حسير النفس لفرقتها ، وهي لا تبالي بالفرقة ، وأوصاها ألا تتقول عليه لآلها ، فتدعى أنه أساء عشرتها ، ثم ذكرها بما كان بينهما من صلة الأولاد والمودة ، وبرعايته لها وتمتعها :

لعمرك والخطوب مُعَيَّرَات      وفي طول المعاشرة التقى  
لقد باليتُ مَطْعَمَنَ أم أوفى      ولكن أم أوفى لا تبالي  
فأما إذا ظمنتِ فلا تقولى      لدى صِهْرٍ أُذِلَّتِ ولم تُذالى  
أصبتُ بنىَّ منك ونلتِ منى      من اللذات والحلل العوالى<sup>(١)</sup>

وكان لسلمى بن ربيعة زوجة ، وقد فارقت له لأنه يستهلك ماله ، ويعرض نفسه للمعاطب ، ولحقت بقومها ، فأخذ يتلهف عليها ويتحسر ، ويبكى بكاءً حاراً :

حلتُ ثماضرَ غُرْبَةً فاحتلت      فليجاً وأهلك باللوى فاحللة  
وكان بالعينين حب قرنفل      أو سنبلا كحلت به فانهلت<sup>(١)</sup>

وقد تهيب أبو قرودودة أن يطلق ، لأنه يحب زوجته الحسنة ، فلا يطيق صبراً على فراقها ، ولكنها أصرت على الفراق فألته وأبكته :

كَبَيْشَةَ عرسي تريد الطلاقا      وتسالنى بعد وهن فراقا  
كبيشة إذ حاولت أن تبين      يستبقُ الدمع منى استباقا  
وقامت تريك غداة الفراق      كَشْحًا لطيفًا ونغذا وساقا

(١) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغانى ١٥٠/٩ .

(٢) شرح التبريزى للحجاسة ٥٥/٢ غربة : دار بييدة . الحلة : موضع في بلاد بني ضبة . فليج : واد في طريق البصرة وبين الحلة وفليج مسير عشر . القرنفل والسنبيل : من أخلاط الأدوية التي تحرق العين وتسبب دموعها .

ومنسدلاً كمشاني الحبـال توسعه زَنَبَقًا أو خِلاَقًا<sup>(١)</sup>

ولما تخايلت على عروة بن الورد امرأته ، ولحقت بأهلها أرق ، لما شام البرق  
من ناحيتها ، ودعا لدارها بالسقيا ، وتحسر وتذكر ، وتغزل بها :

أرقت وصحبتى بمضيق عمقٍ لبرق من تهامة مستطير  
سقى سلمى وأين ديار سلمى إذا كانت مجاورة السرير  
إذا حات بأرض بنى عليٍّ وأهلى بين إمرةٍ وكبير  
ذكرت منازلًا من أم وهب محل الحى أسفل من تقيير  
وأحدثُ معبد من أم وهب مُعرَّسنا بدار بنى النضير  
وقالوا: ما تشاء فقلت: ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير  
بانسة الحديث رُضابُ فيها بُعَيْدَ النوم كالغنب العصير  
سقوني الحمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور  
وقالوا: لست بعد فداء سلمى بمغني مالديك ولا فقير  
فيا للناس كيف غلبتُ نفسي على شيء ويكرهه ضميرى<sup>(٢)</sup>

ولقد يأسى بعض الأزواج إراء على ولده من مطلقته ، لا حسرة على  
الزوجة ، لأنها ذات شغب وصخب ، يقول العزْر لما فارقتَه زوجته الناقية :

أجدَّ فراق الناقية فانتوت أم البين يحلّولي لمن هو مولع ؟  
لقد كنت أهوى الناقية حنبة وقد جعلت أقران بين تقطع

(١) الحيوان للحافظ ٤٦٣/٥ . منسدلاً : شعرا مسترسلا . الزنبق : دهن الياسين .  
قال الأزهرى وأهل العراق يقولون لدهن الياسين دهن الزنبق . الخلاق : ضرب من الطيب  
وهو الخلوق .

(٢) الأغانى ٧٧/٢ وديوان عروة ١١ والشعر والشعراء ٢٦٠ مضيق عمق : موضع  
قرب المدينة . السرير : موضع ببلاد بنى كنانة . أمرة : منزل في طريق مكة من البصرة . كبير :  
جبل بأرض غطفان . تقيير : موضع بين هجر والبصرة . آثر ذى أثير : أول كل شيء

قنولا 'بَدَيَاها هَبِيْرَةُ إِنَّهٗ      بُنَيَّ الَّذِي يَشْفِي سَقَامِي، وَصَعَصَعُ  
لَكَانَ فِرَاقِ النَّاقِيَةِ غَبَطَةٌ      وَهَانَ عَلَيْنَا وَصَاحِبَا حِينَ يُقَطِّعُ<sup>(١)</sup>

بل لقد بلغ الحزن بعبد الله بن العجلان لما طلق زوجته هند ، ثم تزوجت  
غيره أن مات أسفاً عليها ، ذلك بأن أباه اضطره إلى تطليقها اضطراراً فقال :

فَارَقْتُ هِنْدًا طَائِعًا      فَنَدِمْتُ عِنْدَ فِرَاقِهَا  
فَالْعَيْنُ تَذْرَى دَمْعًا      كَالدَّرِ مِنْ أَمَاقِهَا  
مُتَحَلِّبًا فَوْقَ الرِّدَا      يَجُولُ مِنْ رِقْرِاقِهَا<sup>(٢)</sup>

وقال :

فَمَا مُعْوَلٌ تَبْكِي لِفَقْدِ أَلَيْفِهَا      إِذَا ذَكَرْتَهُ لَا يَكْفُ زَفِيرُهَا  
بِأَغْزَرِ مَنْى عَبْرَةٍ إِذْ رَأَيْتَهَا      يُحِثُّ بِهَا قَبْلَ الصَّبَاحِ بَعِيرُهَا<sup>(٣)</sup>

وله فيها غزل وحنين كثير<sup>(٤)</sup> . وكذلك حزن عمرو بن شاس لما طلق  
زوجته<sup>(٥)</sup> ، وحسان بن ثابت إذ طلق امرأته عمرة<sup>(٦)</sup> .

٢ — وما زال بعض الرجال يأسون بعد الطلاق إلى الإسلام ، من هؤلاء  
عبد الله بن أبي بكر ، كان قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من  
أجمل نساء قريش ، فاما دخل بها غلبته على عقله ، وأحبها حباً شديداً ، فأمره  
أبوه أن يطاقها ، ففعل بعد لأى ، ثم جزع جزعاً شديداً ، حتى عاف الطعام  
والشراب ، وأنشد :

- 
- (١) أمثال العرب للضي ٢٢ . يملول : يحسن . هبيرة وصعصع : ولداها منها .  
(٢) الأغاني ١٩/١٠٢ .  
(٣) الأغاني ١٩/١٠٤ .  
(٤) الأغاني ١٩/١٠٢ - ١٠٥ .  
(٥) جهرة الأمثال ١٧٣ .  
(٦) الأغاني ٣/١٤ .

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها      ولا مثلها في غير شيء تطلق  
لها خلقٌ سمح ورأى ومنصب      وخلقٌ سوى في الحياة ومصدق  
أعانتك لا أنساك ما هبت الصبا      وما ناح قمرئ الحمام المطوق  
أعانتك لأنساك ما حجج ركب      وما لاح نجم في السماء مخلق  
أعانتك قلبي كل يوم وليلة      إليك بما تخفي الصدور معلق  
ولو لا اتقاء الله في حق والدي      وطاعته ما كان منا التفريق

فبلغ أبا بكر شعره ، فأمره فراجعها<sup>(١)</sup> ، وفرح بمراجعتها ، وفاضت فرحته شعراً طروباً كما فاض حزنه من قبل شعراً غضوباً<sup>(٢)</sup> .

٣ — أما الزوجة فقد أثر عنها أحياناً ما ينبيء عن عرفانها جميل زوجها ، وتقديرها حسن عشرته بعد الطلاق. فمثلاً أغار عروة بن الورد على مزينة ، وأصاب منهم امرأة اسمها سلمى ، فاستاقها وأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، ثم كرهت أن تكون سبياً ، وأن تنادى بأنها أمة عروة ، فاحتالت على عروة حتى أتت قومها ، فاخترتهم ، فطلقها عروة ، فأقبلت عليه قائلة : « يا عروة ، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود بدأ ، وأحمى لحقيقة . وما مر عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك ، لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فأرجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم »<sup>(٣)</sup> .

(١) المردفات من قريش للمدائني ، من نواذر المخطوطات ٦٢ ونزعة الأبصار والأسماع ١٣ وأسد الغابة ٤٩٨/٥ والإستيعاب ٧٦٨/٢ والأغانى ١٦/١٢٨ .  
(٢) المردفات من قريش ٦٢ .  
(٣) الأغانى ٢/١٨٥ .

وكذلك لما أسلم قيس بن عاصم ، وعنده امرأة من بنى حنيفة - أبي أبوها وأهلها أن يسموا ، وخافوا إسلامها ، وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها في شيء ما بقيت - طالبته بالفرقة ، ففارقها . فلما احتملت لتلحق بأهلها أثني عليها بقوله : « أما والله لقد صحبتني سارة ، ولقد فارقتنى غير عارة ، لا صحبتك مملولة ، ولا أخلاقك مذمومة ، ولولا ما اخترت ما فرق بيننا إلا الموت ، ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاع » . فقالت له : « أنبئت بحسبك وفضلك ، وأنت والله إن كنت للدائم الحبة ، الكثير المودة ، القليل اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيد النبوة ، ولتعلمن أني لأسكن بعدك إلى زوج » . فقال قيس : « ما فارقت نفسي شيئاً قط فتبعته كما تتبعها<sup>(١)</sup> » .

## العدة

عرف العرب الطلاق ، وجروا على طرق عدة في إيقاعه ، ولم تقف بهم معرفتهم عند ذلك ، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم ، وحداداً على الزوج ، « وكانت مشهورة معلومة في الجاهلية ، لا يكادون يتركونها »<sup>(٢)</sup> . يدل على ذلك ما ذكره البخاري أن امرأة توفى عنها زوجها ، نجشوا على عينيها ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه في الكحل ، فقال : « لا تكحل ، قد كانت إحدا كن تمكث في شر أحلاسها (أو شريبتها) فإذا كان حول فمرّ كلب رمت بيعة . فلا ، حتى تمضي أربعة أشهر وعشراً »<sup>(٣)</sup> .

وتفصيل ذلك أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حيفشاً ، ولبست شريابها ، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتى بدابة : حمار أو شاة أو طائر ، فتفتض به ، ثم تخرج فتعطى بعة فترمي بها ، ثم تراجع بعد ماشاءت من

(١) الأغاني ١٢/١٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٣/١٢٦ وحجة الله البالغة ٢/١٠٦ .

(٣) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٥٧ وفتح الباري ٩/٤٢٨ .

طيب أو غيره . وكانت ترمى بالبعرة أمامها ، فيكون ذلك إحلالا لها ، أو ترمى بها كلباً أو غيره ، تُترى من حضرها أن مقامها حولاً أهون عليها من بعرة ترمى بها كلباً أو غيره ، أو أن رمى البعرة إشارة إلى رميها العدة كما ترمى البعرة <sup>(١)</sup> . وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ <sup>(٢)</sup> وهذه المدة كفيلة ببيان الحمل إن كان حمل .

أما المطالبة فمقد ذكر أنها كانت تمتد في الجاهلية ، ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدتها ، وأجابه . وذكر أيضاً أنها كانت لا تمتد ، وأن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين وهن في عصمة الآخرين <sup>(٣)</sup> . ويعزز ذلك أن عمر رضى الله عنه بلغه أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها ، ففرق بينهما ، وعاقبها ، وقال : لا تنكحها أبداً . وجعل الصداق في بيت المال ، وعلم على ذلك ، فقال : رحم الله أمير المؤمنين ، ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهلا ، فينبغي أن يردهما إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ قال : لما الصداق بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وتكمل عدتها من الأول ، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقرء ، ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بقوله : أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة <sup>(٤)</sup> .

لكني أرجح أن ترك العدة كان جهلاً ، وأن الحوادث التي كانت فيها ولادة من الأول على فراش الثاني منشؤها الجهل أو الانخداع بأنه لا حمل من الزوج الأول .

(١) فتح الباري ٩/٤٢٨ والتجريد الصريح ٣/٢٥٧ الحفش : البيت الصغير . الأجلح  
ج جلس وهو الثوب أو السكاء الرقيق . تفتض به : تمسح به جلدها . قال ابن قتيبة : سألت  
الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لاتمس ماء ولا تتلم ظفراً ولا تربل شعراً ثم  
تخرج بعد الحول بأقيح منظر ، ثم تفتض أي تكسر ماى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتبذره  
فلا يعيش بعدما تفتض به . (٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) المحبر ٣٣٨ . (٤) تفسير القرطبي ٣/١٩٤ .

## الفصل الثالث

# البنات

كشفت الدراسة السابقة للأم وللزوجة عن مكانة عالية للمرأة في المجتمع العربي، وعن تفوقها على غيرها من معاصراتها.

فكيف صور الشعر الجاهلي البنات؟ وما مكاتبا التي رسمها لها؟

### مب بهضمهم للبنات

١ — الفكرة الشائعة إلى الآن أن البنات كن بغيضات إلى الآباء جميعاً ، ولكن في هذا الحكم بعض الخيف ، لأن كثيراً من الآباء كانوا يحبون بناتهم ويعزونهن ، ويحذبون عليهن ، فقد دخلت أم الحكم على أبيها الزبير بن عبد المطلب ، فهش لها ، وقال :

يا حبذا أم الحكم كأنها ريمٌ أجم  
يا بعايا ماذا يشمّ ساهم فيها فسّمهم<sup>(١)</sup>

وكان لمعن بن أوس — الشاعر المخضرم — ثلاث بنات ، وكان يؤثرهن ويعتز بهن ولا يحب أن يكون له بهن رجال ، لأن في الإناث من هن أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم إذا مرضوا ، ويعدنهم إذا سقموا ، وينحن عليهم إذا ماتوا :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم  
وفيهن لا تكذب نساء صوالح

(١) الأماي ١١٧/٢ أجم : ليس له قرنان وفي رواية الأماي أحم . يشم : يختبر . ساهم

فسهم : فارغ فترع وغاب .



وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملته ونوايح<sup>(١)</sup>

ويقول حسان بن الغدير في تحبيب البنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكى والجُيوبُ النواصِح<sup>(٢)</sup>

ويتجلى حب الأب لابنته في قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب إليه بنته عُمَيْرَة : يا صعصعة إنك أنتيتنى تشتري منى كبدى ، وأرحمَ ولدى عندى ، والحسيب كفاء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب<sup>(٣)</sup> .  
وفي قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة وقد خطب إليه ابنته : مرحباً بابن لم ألدّه ، أقرب قريب خطب إلىّ أحب حبيب . . . قد زوجتكها وهى ألوَطُ بقلبي ، فأكرميها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنيها فيصغر عندى قدرك<sup>(٤)</sup> .

ولقد يتجلى حب الأب لابنته في خشيته عليهما من الحزن بعد موته ، فمثلا تخوف ليبد أن تحمش بنتاه الوجه، وتحلقا الشعر ، تفجماً عليه إذا مات، ونصحهما ألا تباديا في الحزن وأن ترضيا بقضاء الله :

تمنى ابتساي أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَرّ؟  
وفى ابنتي نزار أسوة إن جزعتما وإن تسالهما تخبرا منهما الخبر  
فإن حان يوم أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهياً ولا تحلقا شعر  
وقولا هو المرء الذى لا حليفه أضع ولا خان الصديق ولا غدر  
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن بيك حولاً كاملاً فقد اعتذر<sup>(٥)</sup>

بل روى ما يدل على عطف الأب على ابنته وهو يوجد برمقه ، فإنه لما طعن

(١) اللطائف والظرائف للثعالبي ٦٧ ومحاضرات الأدباء ٢٠٤/١ والأغاني ١٠/١٥٧

(٢) المؤنث والمختلف ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ٥٩/٢ والعقد الفريد ٢١٠/٣ وجمع الأمثال ١/٢٨٦

(٤) محاضرات الأدباء ١٢٣/٢ .

(٥) ديوان ليبد ١ والأغاني ٩٨/١٤ .

لقيط بن زرارة يوم شُعب جَبَلَة بقي يوماً ثم مات ، وجعل يقول عند موته :

يا ليت شعري عنك دُخْتَنُوسُ إذا أتاها الخبير المرموس  
أَتَحْلِقُ الرأس أم تَمِيس لا بل تَمِيس إنها عروس<sup>(١)</sup>

وكأنا لم يجد جعدر بن ضبيعة ما يوثق به قسمه على الجلالد والكفاح  
حين تستجر السيوف والرماح غير أن يدعو على ابنته باليتم، قال في يوم التحاليق  
.. من أيام البسوس ل بكر على تغلب - :

قد يَتِمَّتْ بنتي وآمت كَنَّتِي وشَعَّتْ بعد ادهان بُجَّتِي  
ردُّوا على الخليل إن أمت إن لم أناجزها فجزوا لِمَتِي<sup>(٢)</sup>

على أن البنت كانت مدللة في صفرها ، تلعب بالعرانس والدمى ، وتحلى  
بما تحلى به البنات ، قال امرؤ القيس :

وهي إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوارٍ من لَعْب<sup>(٣)</sup>

٢ - ثم جاء الإسلام فزادهن عزازة ، فقد أوصى بهن النبي خيراً ، كقوله :  
من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . وقوله :  
من كانت له أنثى فلم يثدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله تعالى  
الجنة . وله في هذا أحاديث شتى<sup>(٤)</sup> .

وجاء في حديث عن السيدة عائشة أنها كانت تلعب مع الجوارى بالبنات  
( التماثيل الصغار يلعب بها ) بعد زفافها ، فإذا دخل رسول الله خرجن ، وإذا  
خرج دخلن . وقد قدم رسول الله من غزوة تبوك ، فوجد في سترها بنات لها ،

(١) الأغاني ٣٨/١٠ .

(٢) شرح الحماسة للبريزي ٣٣/٢ والمرزوق ٥٠٧/٢ . السكنة : زوجة الأخ أو الابن  
والمراد هنا امرأته هو . إدهان : المراد به هنا دهان الرأس والعناية بالشعر وق رواية البريزي  
بعد الرهان وهو تحريف .

(٣) ديوان امرئ القيس ٥٥ والسكندر الثمين ١٩٦ .

(٤) تيسير الوصول ٤٧/١ وكنز العمال ٢٧٧/٨ .

فقال : ما هذا ؟ قالت : بناتي . ورأى بينهما فرساً له جناحان ، فقال : ماذا أرى وسطين ؟ قالت : فرس ، قال : وما هذا الذي عليه ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ فضحك رسول الله صلى الله حتى بدت نواجذه<sup>(١)</sup> .

وكانت قبل زفافها تلعب على المرجوحة<sup>(٢)</sup> . وأرجح أنها كانت تلعب بالدمى في بيت أبيها ، ثم استأنفت لعبها في بيت الرسول .  
وروى عن أم زينب بنت نبيط بن جابر أن رسول الله حلى أمها وخالتها برِعاتٍ من ذهب ولؤلؤ<sup>(٣)</sup> .

وكان رسول الله المثل الأعلى في العطف على البنات ، كان يصلى وهو يحمل على عاتقه حفيدته أمامة بنت أبي العاص<sup>(٤)</sup> ، وكان يقبل بنته السيدة فاطمة إذا قدم من سفره ، وكان يكنيها بأمه<sup>(٥)</sup> .

وقد رفض بعض الآباء أن يزوجوا بناتهم إلا بعد الاستيثاق من الزوج ألا يجمع الضرة كما سبق .

وكذلك رفض رسول الله أن يتزوج على بن أبي طالب ضرة على ابنته ، لأنه كان يغار على بناته غير شديدة ، ذلك أنه لما علم أن على بن أبي طالب يريد أن يتزوج على فاطمة غضب وصعد المنبر وقال : إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ، وينكح ابنتهم ، فإنما هي بُضعة مني ،

(١) سنن أبي داود ١٩٧/٢ و ٢٠١ والإحياء ٣٤٥/٢ وربع الأبرار للزمخمرى والقاموس المحيط والصحاح والطبقات ٤٠/٨ .

(٢) الطبقات ٤٠/٨ .

(٣) الإصابة ٤٧/٨ وأسد الغابة ٤٢١/٥ و ٥٨٥ .

(٤) الإصابة ١٤/٨ وهي بيت بنته زينب .

(٥) أسد الغابة ٥١٩/٥ والإصابة ١٥٧/٨ .

يُرِينِي مَا أَرَاهَا ، وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا<sup>(١)</sup> .

وقد اقتدى به كثير من المساميين في عطفه على البنات مثل حطان بن المعلى  
في قوله :

لولا بَنِيَات كُرُغَبِ القَطَا رُدِدْنَ من بعض إلى بعض  
لكان لي مُضْطَرَبٌ واسع في الأرض ذات الطول والعرض  
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض  
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض<sup>(٢)</sup>  
ويشبهه في حده أبو خالد القناني<sup>(٣)</sup> وإسحاق بن خلف<sup>(٤)</sup> والمرار بن منقذ<sup>(٥)</sup> .  
على أن هؤلاء جروا أيضاً على عرق من حذب الآباء في الجاهلية ، إذ ليس  
من الطبيعي أن يبدل الإسلام طباع العرب من التقيض إلى التقيض في برهة من  
الزمن ، فيسلخهم من حياتهم الأولى سائخاً في بضعة أعوام ، لأن خروج الأفكار  
من عقول الجماعة صعب كدخولها<sup>(٦)</sup> فلا بد للانسلاخ من عاداتهم الأولى من  
زمان طويل يكفل تحولهم في تودة .

لذلك لم يكن عجباً أن أحب العرب البنات ، وعطفوا عليهن ، ولم يكن  
عجباً أن أفضهن بعضهم حتى في الإسلام كما سيجيء .

على أنهم ما كانوا يقيمون بالبكر الذكر ، فإن كان البكر ابن بكر  
تشاءموا به ، وإن كان ابن بكرين فهو في الشؤم مثل قيس بن زهير ، فإنه كان  
أزرق وبكراً ابن بكرين . ثم إنهم كانوا يحبون أن تبكر البكر بخارية<sup>(٧)</sup> .

(١) فتح الباري ٩/٢٨٦ وسنن أبي داود ١/٢٠٦ وأسد الغابة ٥/٥٢١ والإصابة

١٥٨/٨ (٢) شرح الحماسة للرزوقي ١/٢٨٧ .

(٣) المرزوقي ١/٢٨٤ .

(٤) المرزوقي ١/٢٨٢ .

(٥) الفضليات ١/٨٩ .

(٦) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩

(٧) الحيوان للجاحظ ٣/١٧٤

ويعمل الجاحظ لذلك بأنهم كانوا لا يعنون بحياة الولد البكر كما يعنون بحياة  
الثانى ، فهم يؤثرون أن تبكر البكر بجارية ، لشدة خوفهم على الذكر . ولكن  
هذا التعليل لا يتفق مع قوله إنهم كانوا يتشاءمون بالبكر (الذكر) وإنهم  
كانوا أشد تشاؤما بالبكر ابن البكر وابن البكرين ، فالعلة إذا تشاؤم لا خوف  
على الوليد .

ولقد يكون مبعث تشاؤمهم أنهم اعتقدوا أن ابن البكر أو البكرين نجى  
فى شرح شباب والديه وفورتهما فيرث عنهما نزقا لا يصح أن يوصف به الرجل ،  
أما الأثنى فإن طبيعتها السالبة تخفف من حدة النزق والرعونة .

### مرح البنت تكربما لأبيها

كانت البنت تكرم مرضاة لأبيها ، وتعظيما له ، ولم تمدحها المادح إلا لأنه  
يعلم عزازتها على أبيها ، وأن مدحها تبجيل له . يدل على ذلك أن أوس بن حجر  
كان قد سقط من فوق ناقته ، وآواه فضالة بن كلابة ، وكانت تمرضه حليلة  
بنت فضالة حتى برى ، فقال :

لعمرك ما ملت ثواءً ثويها حليلة إذ ألقى مراسى مقعدى  
ولكن تلتقت باليدين ضمانتى وحل بشرج فالقباثل عودى  
ولم تلمها تلك التكاليف أنها كما شئت من أكرومة وتحوؤد  
سأجزيك أو يجزيك عنى مثنوب وقصرك أن يثنى عليك ويحمد<sup>(١)</sup>

ولما أغار النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي - قائد الحارث بن أبي شمر -  
على بنى ذبيان ، وسبى سبيا من غطفان ، وأخذ عقرب بنت النابغة ، سألها من  
أنت ؟ فقالت : أنا بنت النابغة ، فقال لها : والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ،  
ولا أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى

بهذا منا ، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم ، فقال النابغة في مدحه :  
 يقودهم النعمان منه بمُخَصَّفٍ وكَنِيْدٍ يغم الخارجيَّ مناجدٍ  
 فأب بأبكار وعُونِ عقائلِ أوانس يحميها امرؤ غير زاهدٍ  
 غرائر لم يلقين بأساء قبلها لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد  
 أصاب بني غيظ فأضحوا عباده وجلها نُعْمَى على غير واحد  
 فسكنتَ نفسى بعد ما طار روحها وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهد<sup>(١)</sup>

### اعتذار أميرها برأيها وبجوارها

١ — أليست استشارة الرجل لابنته دليلا على إعزازها وتقديرها ؟ لقد  
 كان أبوها يستشيرها في زواجها كما سبق ، وكان يستشيرها أيضا في أموره.  
 الخاصة ، ويستصوب رأيها. هكذا كان يفعل لقيط بن زرارة ، فكان يرجع إلى  
 رأى ابنته دختنوس ، ويستصحبها معه في غزواته ، ويرجع إلى رأيها<sup>(٢)</sup> . وهكذا  
 كان يفعل عامر بن الظرب ، فقد كانت ابنته عمرة تفرع له العصا إذا سها في  
 الحكم ، وفيه يقول المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما علمُ الإنسان إلا ليعلم<sup>(٣)</sup>

ولقد بلغ بالبنت حسن الرأي وعلو القدر إلى أن تصلح ما بين أبيها وجدها  
 لأُمها ، كما فعلت الجُمَانَةُ بنت قيس بن زهير العبسي ، إذ قالت لأبيها لما تنازع مع عمه  
 الربيع بن زياد العبسي في درع لقيس اغتصبها الربيع : دعني أناظر جدى ، فإن  
 صلح الأمر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك . فأذن لها ، فأنت جدّها الربيع  
 فقالت : إذا كان قيس أبى فإنك جدى ، وما يجب من حق الأبوة على إلا كالذى  
 يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعته العناية ، وتجلي عن محضه

(١) شعراء النصرانية ٦٦٨

(٢) الكامل لابن الأثير ٢١٢/١

(٣) الأغاني ٣/٥ ولسان العرب مادة قرع

النصيحة . إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إليك سوء عزمه ،  
والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يُخَوِّف بالوعيد ، ولا يردعه  
التهديد ، فلا تركز إلى منابذته ، فالخزم فى متاركته ، والحرب متافئة ، والسلم  
أرخى للبال . ثم قالت :

أبى لا يرى أن يترك الدهرَ درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى  
فرأى أبى رأى البخيل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى  
فرق جدما ورد الدرع إلى أبيها وتصافيا<sup>(١)</sup> . ولكن الصفاء كان مؤقتاً  
لأن أسبابا أخرى أشعلت الحرب بينهما<sup>(٢)</sup> .

٢ — وإذا أجات نفذ أبوها إجاتها ، ولو أن أباهما لا يعتدبها ما أمضى  
إجاتها . من ذلك أن عمرو بن عبد الملك طلب مروان بن زبناح العبسى ، فخرج  
هاربا حتى أتى أبيات بنى شيبان ، فلجأ إلى أعظمها — وكان لجماعة بنت عوف  
الشيبانى — فاستجارها ، فأجاته ، ثم لحقته خيل عمرو ، فبعثت جماعة إلى أبيها  
أنها قد أجاته ، فحماء من مطارديه<sup>(٣)</sup> . وكذلك أجات فكيهة بنت قتاد  
السليك بن السلكة من بعض قومها ، فلما أدركوه قامت دونه ، وكشفت خمارها  
عن شعرها ، وصاحت بإخوتها فجاءوها ، ودفعوا عنه حتى نجا من القتل ، فمدحها  
السليك بقوله :

لعمراً إليك والأنباء تسمى لنعم الجار أخت بنى عوارا  
من الخفرات لم تفضح أباهما ولم ترفع لإخوتها شنانا  
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا<sup>(٤)</sup>

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٢٥

(٢) الأغاني ٢٨/١٦ وشعراء النصرانية ٩٢١ والكامل لابن الأثير ٢٠٤/١

(٣) أخبار النساء لابن قيم ٦٥

(٤) المحبر ٤٣٣ والأغاني ١٣٧/١٨ والمحاسن والأضداد ٥٥

٣ — وقد أبقى الإسلام على حقها في الإجارة ، لأنها تكريم لها وإعزاز .  
من ذلك أنه لما أُسِرَ أبو العاص بن الربيع في غزوة بدر ، وشرعت قريش  
تفدى أسراها ، بعثت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم — وكانت بمكة —  
بمال في فداء زوجها أبي العاص ، وفيه قلادة لها كانت السيدة خديجة أدخلتها بها  
على أبي العاص — وهو ابن أختها — ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ،  
وقال : إلا رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم  
يا رسول الله ، فأطاقوه ، وردوا عليها الذي لها . ثم فرق الإسلام بينهما ، وجاءت  
زينب إلى المدينة .

وبعد مدة قابلت سرية لرسول الله أبا العاص عائداً من الشام ، فأصابوا  
مامعه ، وهرب منهم ، ولكنه أقبل في الليل حتى دخل على زينب ، فاستجار بها ،  
فأجارته . وفي صلاة الصبح صرخت من ضفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت  
أبا العاص بن الربيع . فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل  
سمعتُم ما سمعتُم ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء  
من ذلك حتى سمعت ما سمعتُم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف فدخل  
على ابنته ، فقال لها : أي بنية أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين  
له . ثم أسلم أبو العاص ، فرد عليه رسول الله زينب بالنكاح الأول ، ورد  
عليه ماله (١) .

وفي الإسلام أيضاً أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها ،  
فأجارهما النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

كنايته باسمها :

ومن مظاهر تقدير البنت وعزازتها أن الآباء كثيراً ما كانوا يُكَنُّونَ

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٧ و ٣٠٤ وتاريخ الطبري ١/٢٩١ وتاريخ البغدادي  
٧٣/٢ والإصابة ٨/٩٢ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٠  
(٢) سيرة ابن هشام ٤/٣٠



بأسماء بناتهم كما يكونون بأسماء آبائهم . يقول أوس بن حجر مفتخراً بنصرهم ،  
ويساله أبي ليلى :

وجاءت سليمٌ قَصَّهَا وقَضِيضُهَا      بأكثر ما كانوا عديداً وأوكوا  
وجئنا بها شهباء ذات أشلَّةٍ      لها عارض فيه الأسننة تلمع  
فردُّ أبو ليلى طفيلَ بن مالك      بمنعرج الثؤبان لا يتَقَصَّعُ<sup>(١)</sup>

ويقول راشد بن شهاب اليشكري في هجاء قيس بن مسعود الشيباني :

فهبلا أبا الخنساء لا تشتمَّني      فتفرع بعد اليوم سنك بالندم<sup>(٢)</sup>

وأمثال هذا كثير ، مثل حذيفة — أو سهيل — بن المغيرة كان يكنى  
أبا أمية<sup>(٣)</sup> ، وربيعة بن رباح والد زهير اشتهر باسم أبي سلمى<sup>(٤)</sup> ، ووالد حنظلة  
الطائي كنى بأبي عفراء<sup>(٥)</sup> ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية كان يكنى بأبي أمية<sup>(٦)</sup>  
والناطقة الديراني كان يسمى أبا أمامة<sup>(٧)</sup> ، ولقب معن أحد أجداد أعشى باهلة  
باسم بنته فسمى أبا باهلة<sup>(٨)</sup> ، وكنى مالك بن عمرو بن ثابت بأنه أبو حنَّة<sup>(٩)</sup> ،  
وجابر بن أسامة الجهمي بأبي سعاد<sup>(١٠)</sup> ، وعمرو بن عبدالله الجمحي بأبي عزة<sup>(١١)</sup>  
وحاتم الطائي بأبي سَفَّانة<sup>(١٢)</sup> . وهنالك أبو أمامة<sup>(١٣)</sup> ، وأبوريطة<sup>(١٤)</sup> ،  
وأبو أمنة<sup>(١٥)</sup> ، وأبو جميمة<sup>(١٦)</sup> ، وأبو أسماء ، وأبو كدراء العجلي<sup>(١٧)</sup> ،

- 
- (١) ديوان أوس ١١ وأساس البلاغة مادة شل . أو كوا : جاءوا بأمر شديد . أشلة  
جمع شليل وهو ما يلبس تحت الدرع . لا يتقصع : لا يخرج من ثقب الجبل  
(٢) المفضليات ١٠٨/٢ (٣) الإصابة ٢٠٣/٨  
(٤) الأغاني ١٣٩/٩ (٥) الأغاني ٨٩/٩  
(٦) الأغاني ٤٦/٨ (٧) الأغاني ١٥٤/٩ وخزانة الأدب ٥/٢  
(٨) خزانة الأدب ١٣٠/١ (٩) الطبقات الكبير ٤٥/٣  
(١٠) أسد الغابة ٢٠٨/٥ (١١) طبقات الشعر لابن سلام ٩١  
(١٢) أسد الغابة ٤٧٥/٥ (١٣) المعارف ٢٧/٣  
(١٤) أسد الغابة ١٩٨/٥ (١٥) أسد الغابة ١٣٢/٥  
(١٦) أسد الغابة ١٦٠/٥ (١٧) الوحشيات لأبي تمام ٦٢ مخطوط

وأبو نائلة<sup>(١)</sup>، وأبو نباية<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن اليهود الذين عاشوا بالحجاز حاكوا العرب في ذلك، لأن أبا الخارث الذي أجلى عمر آله إلى أريحاء بفلسطين كان يسمى أبا زينب<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الأب يكنى باسم ابنته إعزازاً لها، فإنه كان يتجه إليها بفخره كما كان يتجه به إلى محبوبته وزوجته. قال ثعلبة بن عمرو:  
 أسماء لم تسألني عن أييـك والقوم قد كان فيهم خطوب  
 إن عريياً وإن ساءني أحب حبيب وأدنى قريب  
 ثم أخذ يعدد مفاخره، ويصف مهرة ونكايته بعلوه<sup>(٤)</sup>.

### بغض بعضهم للبنات

١ — رغب كثير من العرب عن البنات، وذاعت بغضتهم، واشتهروا بهن. فقد قيل لأعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أحبث من بنت<sup>(٥)</sup>. وقد هجر أبو حمزة الضبي خيمة امرأته حين ولدت بنتاً، وكان يقيل ويبيت عند جيرانه، فمر بنجاشها يوماً، فسمعها تنغى لابنتها بقولها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا  
 غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا  
 وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا  
 نبت ما قد زرعه فينا

فثاب إلى رشده، وولج الخباء فقبل رأس زوجته، وقبل ابنته<sup>(٦)</sup>. وكانوا

(١) المغازي ١٨٧ (٢) المعارف ٢٥٨

(٣) المغازي ٢٧١

(٤) سمط الآلي ٥٢/١ والمفضليات ٥٣/٢

(٥) اللطائف والظرائف ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤

(٦) البيان والتبيين ١٨٦/١ و ٤٧/٤

إذا هناؤها بها قانوا : آمنكم الله عارها ، وكفناكم مئوتها ، وصاهرتم القبر<sup>(١)</sup> .  
وقد سجل القرآن الكريم هذه البغضة في مواضع شتى ، قال تعالى :  
« ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون \* وإذا بشر أحدهم بالأثى ظل  
وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على  
هون أم يدسه في التراب ، ألاساء ما يحكمون »<sup>(٢)</sup> وقال : « ويجعلون لله  
ما يكرهون »<sup>(٣)</sup> وقال ، « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ،  
إنكم لتقولون قولاً عظيماً<sup>(٤)</sup> » وقال : فاستفتهم الربك البنات ولهن البنون .  
أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ،  
وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون »<sup>(٥)</sup>  
وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم<sup>(٦)</sup>  
على أن بعض النساء شاركن في هذه البغضة ، قالت امرأة مُحَمِّمة إنها لا تبالي أن  
تلد مُحَمِّقا ، لأنهم ذكور :

وما أبالي أن أكون مُحَمِّمة إذا رأيت خصية معاقمة<sup>(٧)</sup>

وقالت قابلة لامرأة اسمها سحابة وقد ضربها الحاض ، وهي تطلق على يديها:

أيا سحاب طرقتي بخير وطرقى بخصية وأير<sup>(٨)</sup>

ولا ترينا طرف البُظَيْر

٢ — ولم تقتصر هذه البغضة على الجاهليين ، فقد كان بعض المسلمين يبغضون

البنات ، على تنديد القرآن والحديث ببغضة أسلافهم للبنات . فليس من الإنصاف

أن يوصم الجاهليون وحدهم بهذه الوصمة .

(١) محاضرات الأدباء ٢٠٤/١ (٢) سورة النحل ٥٧ - ٥٩

(٣) سورة النحل ٦٢ (٤) سورة الإسراء ٤٠

(٥) سورة الصافات ١٤٩ - ١٥٤ (٦) سورة الزخرف ٧١

(٧) البيان والتبيين ١/١٨٥

(٨) شرح الحماسة للمرزوقي ٤/١٦٨ والحيوان ٥/١٨١ والبيان والتبيين ١/١٨٥

٢رقى : المراد بشرى بخروج الجنين

فقد رأى عمرو بن العاص معاوية ومعه ابنته عائشة ، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه تفاعحة البيت . فقال عمرو : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويؤثرن الضغائن . قال : لا تنقل كذا يا عمرو ، فوالله ما مَرَّضَ المرضي ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان إلا هن . فقال عمرو : ما أراك إلا حبيبتهم إلى <sup>(١)</sup> .

وكذلك كان عميل بن علقمة يؤثر موت البنت على أن تحيا وتتزوج ، وإن عظم الزوج وكثر المهر :

إني وإن سيق إلى المهر ألف وعُبدان وذوودٌ عشرُ  
أحب أصهارى إلى القبر <sup>(٢)</sup>

وكان إسحاق بن خلف البهراني يود أن تموت ابنته أميمة وهو يعلم أنها كلفة بحياته ، غير أنه في تعجله موتها صور حبه لها وحدها عليها وحزنه من بكائها عليه إذ مات في قوله :

لولا أميمة لم أجزع من العدم وزادني رغبةً في العيش معرفتي  
وأخشى فظاظة عم أو جناء أخ تمهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً  
ولم أجب في الليالي حنْدِسِ الظلم وكنت أبكي عليها من أذى الكلم  
والموت أكرم نزال على الحرم إذا تذكرت بنتي حين تندبني  
فاضت لعة بنى عبرتي بدم <sup>(٣)</sup> فلما مات قال أبيتاً منها :

فالأف نمت فلا هم يؤرقني بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلمٌ

(١) المطائيف والظرائف للثعالبي ٦٨. ونزهة الأبيصار والأصماع ٤٤

(٢) زهر الآداب ١٧٤/٢ تحقيق زكي مبارك ، وذكر أنه ابن علقمة ، والصواب علقمة كما في المؤلف والمختلف للأمدى ١٦٠ ومعجم الشعراء للدرزباني ٣٠١ وشرح الحماسة

لمنبريزي ٢٠٩/١ و ٢٣/٣ و ٨٦ وطبقات الشعراء لابن سلام ٥٦١

(٣) فوات الوفيات لابن شاکر ١٠/١ وزهر الآداب ١٧٤/٢

لَمَوْتِ عِنْدِي أَيَادٍ لَسْتُ أَنْكُرَهَا أَحْيَا سُرُوراً وَبِي مِمَّا أَتَى أُمُّ<sup>(١)</sup>  
وَعَدَّ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وسائل السترات التي يرجيها كل أب  
لابنته ، وفضل القبر عليها جميعاً :

لكل أبي بنت يُرَجِّي بِقَاوُهَا ثَلَاثَةٌ أَصْهَارٍ إِذَا ذَكَرَ الصَّهْرُ  
فَبِتِ يَنْظِمُهَا وَبَعْلٌ يَصُونُهَا وَقَبْرُ يَوَارِيهَا ، وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ<sup>(٢)</sup>  
وروى أن الأحنف بن قيس لما بشر بابنته بكى ، فقيل له في ذلك ، فقال :  
وكيف لا تأخذني العبرة ، وهي عورة ، هديتها سرقة ، وسلاحها البكاء ،  
ومرئناها لغيري<sup>(٣)</sup> .

أما أبو العلاء المعري فكان أشد بغضة للبنات من البنين ، ويرى في  
دفنهن مكرمة .

وَإِنْ تُعْطَى الْإِنَاثَ فَأَيُّ بُؤْسٍ تَبَيَّنَ فِي وَجْهِهِ مُقَسَّمَاتِ  
.....  
وَدَفْنِ الْحَوَادِثِ فَاجَعَاتِ لِإِحْدَاهُنَّ إِحْدَى الْمَكْرَمَاتِ<sup>(٤)</sup>

## الوَاد

كيف يطيق أب أن يبويء ابنته حفرتها بيديه ؟  
وأي ذهب عاطفة الأبوة ، وأصرة الإنسانية ، وخلق الرحمة والشفقة ؟  
إن الواد صورة بشعة تستدر الدموع ، وتستثير الألم ، فكيف صبر  
الأب عليه ؟

وكيف احتملت الأم آلامه ؟ وهل يتفق الواد مع ما قدمت من عزازة  
المرأة أمًا وزوجة وابنة ؟

(٢) زهر الآداب ١٧٤/٢

(٤) اللزوميات ١٠١/١

(١) زهر الآداب ٢٠٤/١ و ١٧٤/٢

(٣) محاضرات الأدباء ٢٠٤/١

## سبب الواد

١ — ذكر القرآن الكريم أن بعضهم كانوا يثدون مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجدهم عن الإنفاق على الذكور وعلى الإناث معاً ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ﴾<sup>(١)</sup> .

وذكر أن بعضهم كانوا يثدون تخففاً من الأولاد ، لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾<sup>(٢)</sup> . لهذا قدم الله تعالى رزق الآباء على رزق الأبناء في مقام توقع الفقر والخشية منه في المستقبل ، و قدم رزق الأبناء على رزق الآباء في مقام الفقر الواقع الحادث<sup>(٣)</sup> فالأولون هم الأغنياء والآخرون هم الفقراء .

كان الواد أثراً من آثار الفقر المتخوف أو الحادث ، لأن البيئة شحيحة بالزاد ، ضئيلة بالخير ، كثيرة الفواجع والمجاعات ، ليس بها زرع يمون سكانها ، ولا صناعات ينشرونها في الآفاق ، فتدر عليهم الأموال ، والإناث في هذه البيئة عبء على الآباء ؛ لأنهم يأخذون ولا يعطون ، وينفقون ولا يكسبون ، « ولا شك أن الواد عادة منكورة ، ولكن المجاعات الكثيرة نتيجة لندرة الأمطار دفعت إليها »<sup>(٤)</sup> .

وإذا كان العرب قد اضطروا إلى استكمال حاجتهم بالإغارة على القبائل المجاورة ، فإنهم قد اضطروا أيضاً إلى الواد خشية الإملاق<sup>(٥)</sup> . وكان العرب الذين يثدون يعتقدون أن الواد يدل على الأريحية ، كما كان بعضهم يباهى به ، وبعضهم يقترفه منجاة من احتمال متاعب من بنات قد يؤسرن . ولكن القرآن الكريم يذكر الفقر وحده ، وهذا حق ؛ لأن البيئة مجدبة جداً ،

(١) سورة الإسراء ٣١ (٢) سورة الأنعام ١٥١

(٣) روح المعاني ٥٤/٨ (٤) Nicholson. P. ٥٦

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٧/٦

وقد ذكر مسترداوتى كثيراً من المشقات التي يقاسمها سكان الصحراء في أكثر شهور السنة ، حيث لا يجد الطعام إلا الأغنياء<sup>(١)</sup> .

ومما يدل على أن الوأد كان في الأغنياء أيضاً أن مهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها ، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها ، فكبرت حتى تزوجت<sup>(٢)</sup> .  
وسنرى أن كثيراً من الأغنياء وأدوا .

وكان الوأد مقصوراً على الإناث ، وإذا فالمراد من الأولاد في الآيتين الكريمتين الإناث ، وهذا هو المفهوم من حديث صعصعة بن ناجية ، ذلك بأنه خرج يبحث عن ناقتين له ، فر على قوم من بني أثمار من تميم ، وإذا شيخ يوقد ناراً في مقدم بيته ، ونساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض ، وتسكمت النساء فقلن : « قد جاء » يعنين الولد . قال الشيخ : « إن كان غلاماً فوالله ما أدرى ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمع صوتها ، اقتانها » قالت : « ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله » ، قال : « إني أراك بها حنيا فاشترها مني » فأعطيته ناقتين وجمل<sup>(٣)</sup> .

فهذا الرجل حيران ، ماذا يصنع بابنه الذكر ؟ وكيف يطعمه ؟ ولكنه لم يهتم بقتله ، بل اعتزم قتل الأنثى<sup>(٤)</sup> .

٢ — وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أن من أسباب الوأد الغيرة على البنات . أن يسبين أو يزوجن بغير أكفاء<sup>(٥)</sup> ، وقالوا إن أول من فعل ذلك قيس بن

(٢) الأغاني ١٧٥/٩

Moslem Law. P. 26 (١)

(٣) تفسير الطبري ٧٥/١٥ والنيسابوري ٣٣/١٥ والكشاف ٥٤٦/١ والاعتصام

١٨١/٢ (٤) النقائض ٦٩٧

(٥) النيبابوري ٣٣/١٥ و ٧٧/١٤ والكشاف ٥٢٦/٢ والقرطبي ١١٧/١٠

والاعتصام ١٨١/٢ وروح المعاني ٣٢/٨

عاصم ، ذلك بأن تميم منعت الإتاوة عن النعمان بن المنذر ، فخار بهم وسبي نساءهم ، ثم وفد قيس على النعمان ليسترد السبايا ، فأثرت العودة ، إلا بنته فقد آثرت سابيها على أبيها ، فانصرف قيس فوآد كل بنت ، وجعل ذلك سنة كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب ، فكان كل سيد تولد له بنت يندھا خوفاً من الفضيحة<sup>(١)</sup> ولما وفد قيس بن عاصم على رسول الله سألہ بعض الأنصار عن وأده ، فأخبرهم أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها<sup>(٢)</sup> ، وحدث رسول الله بقوله : كنت أخاف سوء الأحذوثة والفضيحة في البنات ، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها<sup>(٣)</sup> . وقد أمره النبي أن يعتق عن كل موءودة رقبة ، فقال له أبو بكر : فما الذي حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك . فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر<sup>(٤)</sup> .

وإني أشك في أن يكون قيس هذا أول وائد ، لأنه أدرك الإسلام ، وأسلم<sup>(٥)</sup> ، فليس بمعقول أن ينشأ الوآد قبيل الإسلام بسنوات ، ثم يشيع في بعض قبائل العرب في زمن وجيز ، ثم ليس بمعقول أن يخاكي العرب قيس ابن عاصم ويشايعوه في عمله ، لأن حادثته فردية لا ينشأ عنها عمل إجماعي ، وكان حربياً بالعرب أن يعيروه لا أن يخاكوه .

على أنهم اختلفوا في أول وائد ، فقيل إنه قيس ، وقيل إنه أمير من ربيعة ، وذكروا في سبب وأده قصة تشبه تمام الشبه قصة قيس<sup>(٦)</sup> .

ويرجع بعضهم القهقري إلى زمن أبعد ، فينسب الوآد الأول إلى لقمان ابن عاد ، لأنه كان يقتل نساءه انتقاماً ، بعد أن خُنته ، فلما قتل أخراهن ونزل من

(١) الأغاني ١٢/١٤٤ والكامل للمبرد ١/٢٨٨ وصحيح البخاري في الوآد وجمع الأمثال ١/٣٨٩ وشرح ابن أبي الحديد ٣/٢٤٢ ونهاية الأرب ٣/١٠٧ وفي الأغاني أن التي امتنعت بنت أخته .

(٢) الأغاني ١٢/١٤٣

(٣) الأغاني ١٢/١٤٣ (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٥

(٥) الأغاني ١٢/١٤٣ (٦) بلوغ الأرب ٣/٤٢



الجلبل كان أول من تلقاة صُحْر ابنته ، فوثب عليها فقتلها ، وقال : أنت أيضاً  
امرأة ، فضربت العرب المثل بقتله صُحْرًا ، قال خُفَّاء بن نُذْبَةَ :  
وعَيَّاشٌ يُدِبُّ لى المَنَيايا وما أذنبت إلا ذنب صُحْر  
وقال عروة بن أذينة :

أتجمع تهياما بليلى إذا نأت وهجرانها ظلاماً كما ظلمت صُحْر<sup>(١)</sup>

وسواء أكان الوائد الأول معلوما أم مجهولاً ، فإنى أرجح أن الخوف من العار  
كان باعثاً من بواعث الواد ، لأن الحروب والغارات كانت لا تنجو نارها ، وكان  
السبي من آثارها ، والغرب غير على النساء ، والسبي معرة فى نظرهم ، كما سبرى فى  
فصل السبايا .

وإذا كان القرآن الكريم قد اقتصر على ذكر الفقر والخوف من الفقر ، ولم  
يشر إلى السبأ ، فإن ذلك راجع إلى أن الفقر والخوف منه مردّهما إلى الله تعالى ،  
وإليه الأمل فى زوالهما ، أما السبي فمرجه إلى العباد وحروبهم ، والحروب  
لا مندوحة عنها ، والسبي نتيجة من نتائجها ، فكيف ينههم القرآن الكريم عن  
الواد مخافة السبي ، وهو لا يحيد عنه ؟

نعم كان السبي — كما سآبين فى السبايا — متوقفاً لا مفر منه « فكان  
الدافع إلى الواد النزوع إلى المحافظة على الشرف ، لأن الآباء كانوا يخشون إطعام  
أفواه لافائدة فيها ، ويخشون أيضاً أن يصيبهم العار من وقوع بناتهم فى  
قبضة الغالبين »<sup>(٢)</sup> .

٣ — وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافى إلى أن وأد البنات دون  
الذكور راجع إلى عقيدة دينية قديمة .

وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رفس من خلق الشيطان ، أى من خلق

إله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهم .

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التي تربط وأد البنات بنظام من العقيدة ، كقوله تعالى « ويجعلون لما لا يعلمون - أى لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جاد - نصيباً مما رزقناهم - من الزروع والأنعام - تالله لتسالن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم - أى لآلهتهم - ما يشتهون - أى البنين - وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم <sup>(١)</sup> .

وهو يذهب إلى أن هذا نوع من الواد مقصور على البنات ، غير الواد الذي سببه الفقر <sup>(٢)</sup> .

٤ - وقيل إن بعضهم كان يثد نوعاً من الإناث هن الزرقاء ، والشَّيَاء - السوداء أو التي في بدنها بقع تخالف سائره - والبرشاء - التي بها نكت صفار تخالف بقية لونها - والكسحاء ، وسبب هذا الواد التشاؤم من هؤلاء <sup>(٣)</sup> .  
وإن صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهن كان مشفوعاً إلى التشاؤم منهن ، وربما كان السببان معاً مشفوعين إلى الفقر أو مخافة الفقر .

### طريقة الواد :

تنوعت وسائل الواد ، فبعضهم كان يحفر حفيرة ، تمخض المرأة على حافتها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ولداً احتفظت به ، وبعضهم كان يرميها من شاطئ جبل ، ومنهم من كان يفرقها ، ومنهم من كان يذبجها <sup>(٤)</sup> .  
والأعم الأكثر أن تواد البنت حين ولادتها ، وإن وردت أخبار عن وأد في الكبير ، فقد ذكر قيس بن عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأته

(١) سورة النحل ٥٦ - ٥٩

(٢) الأسرة والمجتمع ١١٩ - ١٢٣ ومجلة الرسالة ٣ مارس سنة ١٩٤١

(٣) إنسان العيون ١/٥٠ والروض الأنف ١/١٤٨

(٤) تفسير الطبري ١٤/٨٤ والكشاف ٢/٥٢٦ واليسابورى ١٤/٧٧

ولدت بنتاً في سفره ، فدفعتها إلى أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت سنون حتى كبرت الصبية ويفعت ، فزارت أمها يوماً ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك ، وقصت عليه حيلتها . قال : فأمسكت حتى اشتفت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهي تقول : يا أبت أمغطى أنت بالتراب ؟ أتاركي أنت وحدى ومنصرف عني ؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى وارتبها وانقطع صوتها . فما رحمت أحداً من واريته غيرها . فدمعت عينها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن هذه لقسوة . وإن من لم يرحم لا يرحم<sup>(١)</sup> . ويذكر الزمخشري أن الرجل كان إذا أراد أن يستحيي بنته ألبسها جبة صوف أو شعر ، وأرعها إبله أو غنمه في البادية ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أمهاتها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، ثم يدفنها فيها ويهيل عليها التراب<sup>(٢)</sup> .

وأرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر بعيد الاحتمال ، فما الذي زين لأبيها أن يستحييها إلى هذه السن ؟ ولماذا لم يتخلص منها وهي واعدة ؟ لماذا أبقاها سنوات ينفق عليها ويتعلق بها وتتعلق بها أمهاتها ثم يقتلها ؟

### هل افنصر الوأد على الإناث :

لم يقتصر القتل على الإناث ، بل تعداهن إلى الذكور ، بدليل قوله تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، ليردوهم وليأبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»<sup>(١)</sup> . وذلك أن أهل المدر والحريث كانوا يقسمون ما حراثوا قسمين : قسماً لآلهتهم وقسماً لله ، فإن سقط فيما لآلهتهم شيء مما لله تركوه وأقروه ، وإن سقط فيما جعلوه لله شيء مما لآلهتهم ردوه<sup>(٢)</sup> . فونجهم الله على زعمهم وسوء فعلهم ، ثم شبه بضلالهم هذا ضلالاً آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أو سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوآد أو بالنحر للآلهة ، وكان الرجل في الجاهلية يخلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب في ابنه عبد الله<sup>(٣)</sup> ، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالاً أن ينحرن أحدهم للكعبة شكراً لربه ، فلما استكمل أولاده العدد ، همّ بإنجاز ما وعد ، وأجال القداح بينهم ، فكان الذئع نصيب عبد الله ، فخماه أخواله بنو مخزوم ، وأشاروا على عبد المطلب أن يحتكم إلى كاهنة بنى سعد ، فخكت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله<sup>(٤)</sup> :

ويظهر من نص الآيات القرآنية النهي عن قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إنساناً<sup>(٥)</sup> .

على أننا لم نعرف حادثاً للمهمّ بقتل الولد الذكر غير حادث عبد المطلب .

هل لآله الوآد عاماً ؟

ذهب المنتصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أن الوآد كان عاماً في القبائل كلها . ونقل الميداني عن الهيثم بن عدى أنه كان في قبائل العرب قاطبة ، يستعمل واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل إلا في تميم ، فإنه

(١) سورة الأنعام ١٣٦ - ١٤٠ (٢) الخبر ٣٣١

(٣) الكشاف ٣١٢/١ والاعتصام ١٨٣/٣ وروح المعاني ٣٢/٨

(٤) سيرة ابن هشام ١٦٧/١ والكامل لابن الأثير ٢١٥/١ وإعلام النبوة ٢٦

(٥) الاعتصام ١٨٣ وبلوغ الأرب ٤٤/٣

تزايد فيهم قبل الإسلام<sup>(١)</sup> .

وذهب الباقون إلى أنه كان في بعض القبائل ، ولم يكن في جميعها ، وذكروا هذه القبائل وهي : تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل<sup>(٢)</sup> .  
ومن لم يندوا : الطُّلس وهم جميع أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك ، وعجيب وإياد بن نزار<sup>(٣)</sup> .

وهذا هو الحق ، لأن إعراز بعضهم للبنات — كما سبق — يتنافى وذلك الوأد العام . ولو أن الوأد كان عاما في العرف كما ذهب الهيثم بن عدى لعلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات كما رأينا . ولو أنه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يندون ، لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة .

### الأمم والوآد :

هنا تصمت المراجع والأخبار والأشعار صمتا عجيبا ، فلا تنفع غلتنا ، بل لا تبيل بعض صدانا إلى معرفة حال الأم من وأد ابنتها ، أكانت تشارك الأب في كراهيته لابنتها ؟ أم كانت تحبها وتؤثر بقاءها وتبكي لوعة وشجي حينما يختطفها أبوها ليثدها ؟

وكل ما عثرت عليه أن كبيرة بنت أبي سفيان — مخضرمة — قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني وأدت أربع بنين لي في الجاهلية ، فقال : أعتق أربع رقاب<sup>(٤)</sup> ، والظاهر أنها تريد أربع بنات :

وأستتج من حادثة قيس بن عاصم السابقة أن امرأته كانت حريصة على استحياء ابنتها ، لأنها أخفتها عند أخوالها ، ثم بكت لما توجست أنه سيقتلها<sup>(٥)</sup>

(١) يجمع الأمثال ٣٨٩/١ وبلوغ الأرب ٤٢/٣

(٢) الكامل للبرد ١٨٨/١ وشرح ابن أبي الحديد ٢٤٢/٣

(٣) المحرر ١٧٩ و ١٨١ (٤) الإصابة ١٧٦/٨

(٥) الأغاني ١٢/١٤٣

ثم إن صعصعة بن ناحية مر برجل يحفر حفرة وامرأته تبكي ، وأخبرته أنه يريد وأد ابنتها ، فرق لها صعصعة وفداها (١) .

على أنى أفرغ إلى الأمومة أستنبها ، فتخبرني صادقة أن النساء كن في القبائل الوائدة حسيرات القلوب ، كسيرات النفوس ، غزيرات الدموع ، وأن غريزة الأمومة وطبيعة الأنوثة لا تقر هذه القسوة ، ولا ترتضى أن تنتزع منها ثمرة من ثمراتها لتقدم طعمة للثرى .

ولم تكن المرأة العربية وحدها هي التي سلبت بناتها فرضيت أو كظمت لوعتها ، فقد كانت المرأة في أئينا خاضعة للزوج ، حتى إنه إذا شاء انتزع من الأم ابنتها وتركها في الجبل أو الطريق في جرة من الفخار ، تبكي بكاء يفتت الأكباد إلى أن تلفظ أنفاسها . ولا تستطيع الأم أن تعارضه أو تنطق بكلمة (٢) .

#### اصباء الموءودات :

سيدان من سادات العرب حملا لواء الرحمة ، وأقذا من ظلمات الخفاثر بنات كثيرات ، هما صعصعة بن ناجية ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

أما صعصعة جد الفرزدق فقد سمي محبي الموءودات ، وكان السبب في مكرمه هذه أنه مر برجل من قومه - تميم - يحفر بئراً ، وامرأته تبكي ، فقال لها صعصعة ما يبكيك ؟ قالت : يريد أن يئد ابنتي هذه . فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : الفقر . قال : فإني أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادها تعيشون بألبانها ، ولا تتد الصبية . فرضى الرجل ، فأعطاه الناقتين وجملاً فخلاً ، وقال في نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها . نجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة ، وقيل أربعمائة ،

(١) الأغاني ١٩/٤

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray Strachey

وقيل ستا وتسعين ، وقيل ثلاثمائة وستين <sup>(١)</sup> وقيل مائتين وثمانين <sup>(٢)</sup> وقيل مائة وأربعاً <sup>(٣)</sup> . وليس من المنتظر أن يبلغنا العدد الحقيقي أو القريب منه ، لأن المبالغة والتنفج والمباغاة لا بد أن تضاعف العدد أو تضخمه . ولقد يكون من الصواب أيضاً أن كثيراً من الفقراء ادعوا أنهم سيئدنون لينالوا من عطاء صعصعة .

وقد خايل الفرزدق بإحياء جده للوئيدات في عدة قصائد ، كقوله :

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي      متى تخلف الجوزاء والدلؤ يمطر  
أجار بنات الوائدين ومن يجر      على النقر 'يُعلم' أنه غير مخفر  
على حين لا تيميا البنات وإذ هم      عكوفاً على الأضنام حول المدور  
أنا ابن الذي رد المنية فضاهُ      فما حسب دافعت عنه بمعور  
وفارق لي في نساء أتت أبي      تمارس ريحاً ليها غير مقرر  
فقلت : أجر لي ما ولدتُ فإنني      أتيتك من هزل الحملوة مقتر  
رأى الأرض منها راحة فرمى بها      إلى جدد منها إلى شر مخفر  
فقال لها : فيئى فيئى بدمتي      لينتك جاراً من أبيها القنور <sup>(٤)</sup>

وقال أيضاً :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يواد <sup>(٥)</sup>  
وروى أن غالب بن صعصعة وفد على النبي وأخبره بفعال أبيه في الموءودات ،  
فاستحسنه وسأله : هل له في ذلك من أجر ؟ فقال : نعم <sup>(٦)</sup> . وروى أن صعصعة  
نفسه قدم على النبي فأسلم ، وقص عليه إحياءه للوئيدات ، وسأله : هل لي في ذلك  
من أجر ؟ فقال : هذا باب من البرِّ لك أجره إذ منَّ الله عليك بالإسلام <sup>(٧)</sup> .  
وأما السيد الآخر فزيد بن عمرو بن نفيل القرشى ، كان يستحي الموءودات

(١) الأغاني ٣/١٩ - ٥ (٢) الكامل للبرد ١/٢٨٩

(٣) المحبر ١٤١ والنقائس ٢٦٤ (٤) الأغاني ٢/١٩ ودبوان الفرزدق ٤٧٧

(٥) الأغاني ٤/١٩ (٦) الأغاني ٢/١٩

(٧) الأغاني ٤/١٩

فإذا بصر برجل يهيم بواد ابنته قال له : لا تقتنها ، أنا أكنيك مئوتها . وبأخذها وينفق عليها حتى تكبر ، ثم يقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفتيك مئوتها<sup>(١)</sup> . وقيل إنه أحيأ ستاً وتسعين موءودة<sup>(٢)</sup> .

### الوآء عذر غير العرب :

لم يكن العرب بدعا في وآء البنات ، لأن بعض الأمم القديمة فعات بالبنين فعلا أبشع من فعل العرب .

فالفيثقيون كانوا يعبدون الطبيعة ، ويرمزون لها بعنم اسمه بعلم يمثل إله النور المسمى مولوخ ، وآخذوا له زوجة أشركوها في الألوهية سموها عشترا (الزهرة) وكانوا في عبادة عشترا يستبيحون النساء عامة ، وفي عبادة مولوخ يضحون بالأولاد إحراقا في النار الملتهمة<sup>(٣)</sup> .

وكان الأب الإسرائيلى يستطيع أن يبيع أبناءه ذكورا وإناثا للرق ، وقد حدثت التوراة فيما بعد من هذا الحق ، لكن الأب ظل يملك أن يقتل أبناءه سواء أكانوا كبارا أم صغارا<sup>(٤)</sup> .

وكان الإمبراطيون يقتلون المشوهين والمرضى والضعاف من الأولاد عقب ولادتهم ، ويتركونهم في القفار طعاما للوحوش والطيور . ولقد تتحقق الأم نفسها من صلاحية ولدها للحياة فتغمسه في دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل على قوة بنيته وجدراته بالحياة فيربى ، وإن مات فقد تخلص المجتمع من إنسان ضعيف لا يستحق أن يعيش . وكان هذا النظام أو ما يقرب منه سائدا في أثينا وروما ،

(١) تيسر الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ١١٣/٣

(٢) بلوغ الأرب للأوسى ٤٥/٣

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع لمحمد جميل بيهم ٤٤

(٤) سفر الملوك الثاني ٤ : ١ وسفر الخروج ٢١ : ٧ وسفر التكوين ٣٨ : ٢٤ وسفر



وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو<sup>(١)</sup>. وأحيانا كان الآباء يقدفون بأبنائهم خارج الحدود، وإن كانوا أعماء، لعجزهم عن الإنفاق عليهم. وفي روما كان يحمل الطفل عقب ولادته ويوضع عند قدمي والده، فإما أن يرفعه فيصير فرداً من الأسرة، وإما أن يحمله إلى مفترق الطرق ليموت أو ليصير من الرقيق<sup>(٢)</sup>.

وقد اعتاد الصينيون أن يلقوا أبناءهم وبناتهم في البحر إذا مسهم عوز<sup>(٣)</sup>. ولم تسكن هذه الشعوب لتفرق في القتل بين الذكر والأنثى. على أن بعض الشعوب البدائية وغيرها كانت تقتل الأولاد كلهم أو بعضهم لأسباب اقتصادية أو دينية، فبعض العشائر الأسترالية تختص الذكور بالقتل، وبعضها تختص الإناث، وفي بعضها تقتل الأمهات بعض أولادهن بغير تفرقة بين ذكور وإناث<sup>(٤)</sup>، وبعضهم لا يتكون للأم إلا ولداً أو اثنتين، ويربون الآخرين إلى سن العاشرة، ثم يذبحونهم ويأكلونهم، وتبكي الأم قليلاً ثم لا تأتي أن تأخذ نصيبها من لحم ابنها طعاماً<sup>(٥)</sup>. وما زال الإسكيمو يثدون البنات بعد ولادتهن بزمن قصير، لأن حياتهم شاقة ذات شظف وفقر<sup>(٦)</sup>. وللزوجين في تاهيتي أن يقتلا طفلهما دون أن يلومها أحد<sup>(٧)</sup>.

### الوَأَدُ ومِطْةُ المِراةِ العِربِيةِ :

أسلفت أن الوأد عند العرب لم يكن عرفاً عاماً، وأن قليلاً من القبائل مارسته، وحتى هذه القبائل نفسها لم يقس الوأد في أفرادها جميعاً، وإلا فكيف

(١) جمهورية أفلاطون ١٣٤ والأسرة والمجتمع ١١٨ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٣٥ و ٤٧ وتطور النظرية التربوية ٥٢ لصالح عبد العزيز

(٢) تطور النظرية التربوية ١١٥

(٣) باكورة السلام على حقوق النساء في الإسلام ٧٣

(٤) الأسرة والمجتمع ١١٩ (٥) مقدمة الحضارات الأولى. لوبون ٣٧

(٦) النظم الاجتماعية والسياسية ١٥ (٧) قصة الحضارة ١/٦٨

يستمتعن بالحياة ، وينجبن الأبناء ؟ كيف نجا من الواد آلاف من النسوة اللاتي  
أدركن الإسلام وعددن صحايات ؟  
وبينت أن اليونان والرومان وغيرهم كانوا أقسى على أبنائهم من العرب ،  
إذ قتلوا الذكور والإناث .

على أن الواد للفقر ليس دليلا على انحطاط مكانة المرأة ، ذلك أنه حينما  
تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة ، أو أزمات مالية قاسية ، أو زلازل  
وبراكين مدمرة ، قد تتقلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والأبوة ،  
فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهم أو تركيها<sup>(١)</sup> ، فمثلا كان الإسرائيلي يبيع نفسه  
أو أولاده إذا احتاج<sup>(٢)</sup> .

فالواد في حالة العوز إبقاءً على النفس ، ولتجنب البنت ماتقاسى من شطف  
وجوع ، وليس في هذا مهانة لها .

أما الواد خشية العار من سبي يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب ،  
بل إنه دليل على صيانتها وإعزازها وحمايتها وتجنبيها وتجنيب قومها ما قد يلوثهم  
من معرة سبأها ، وشر عدوهم بامتلاكها ، ومعيشتها بين أعداء قومها معيشة  
الذليلة الكسيرة .

### حب البنت لأبيها

تتعلق البنت بأبيها منذ طفولتها ، تجد فيه حاميا وعائلها وراعيها ، فإذا  
ما زوجت ظلت تحبه وتذكره وتشتاقه ، ولا شك أنها كانت تؤثر أباهها على  
زوجها « لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين البنت وأبيها وبين  
الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته »<sup>(٣)</sup> .  
ومن مظاهر حبها لأبيها :

Introduction to social Psychology, by Mukerjee and (١)

Elmer P.271

(٣) قصة الحضارة ١/٥٨

(٢) التاريخ للسامري ٣١

(٢٠ - المرأة والشعر الجاهلي)

١ — أنها تتخوف عليه أن يقتل في حرب ، فتحاول أن تنفيه ، لأنه رجلها  
وليس لها أب غيره . يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتي إن انطلاقتك واحداً إلى الرّوع يوماً تاركي لأباليا  
دعينا من الإشفاق أو قدّمي لنا من الحدائث والمنية واقيا  
ستتلف نفسى أو سأجمع هَجْمَةً ترى ساقمها يألمان التراقيا<sup>(١)</sup>

ويزمع السفر فتحاول أن تنفيه ، وحشة في بعده ، وخشية عليه من ضرر ،  
حتى لقد استشفعت بنت الأعشى بشريف من العشيّة ليصرف أباه عن رحلته ،  
فلما رأست دعت ربها أن يحفه برعايته ليثوب إليها سالما :

تقول بنتى وقد قرّبتُ مرتحلاً ياربَّ جنبِّ أبى الأوصاب والوجعا  
واستشفعتُ من سرّاة الحى ذا شرفٍ فقد عصاها أبوها والذى شفعا  
عليكٍ مثلُ الذى صأيتِ فاغتمضى نوما فإنَّ لجنب المرء مُضطّجعا  
واستخبرى قافل الركبّان وانتظرى أوبَّ المسافر إن ربيئاً وإن سرّعا  
كونى كمثل التى إذ غاب وافدها أهدتُ له من بعيد نظرةً جزّعا  
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوباً لذي اغتراب ولا يرجوله رجماً<sup>(٢)</sup>

على أنه يصور في موضع آخر عواطف ابنته ، من حبا له وشفتها عليه ،  
وشعورها بالآلام اليم في بعده ، وإيثارها لقربه ، وأنها تقنع من كل شىء ، وترضى  
به ، مادام أبوها بجوارها ، وهى تتوجس أن يصيبه مكروه في رحلته ، ولا طاقة لها

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ مخطوط والرحشيات ٧٣ مخطوط . هجمة : جماعة من  
الإبل أقلها أربعون وأكثرها مائة . التراقى : جمع ترقوة وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر والوراد  
أن اللذين يسقيان هذه الإبل يتعبان من كثرتها ويتبين تعبهما فى حركة صدرهما .

(٢) ديوان الأعمشى ١٠١ تحقيق محمد حسين و ٧٣ تحقيق رودلف جبير والوشح ٥٢  
وخزانة الأدب ١٠٤/٢ صليت : دعوت . مرتحل : حمل يوضع عليه الرحل . ينسر لك قصة  
الليامة حين غاب عنها أخوها ورحل يتمس عون جيان فظلت ترتب عودته فى شوق وأمل  
جفترات جازعة ، وقد أكمل القصة بعد ذلك فى ستة أبيات

باحتمال فقدته ، ولن تجد بعده عطوفاً أو معيناً ، لأنها على ثقة من أن الناس سيغفونها ، والأقارب سيهجرونها . ولكنه شرع يواسيها ويخفف عنها بأمثال بضرها من أسفاره الماضية وأوبته سالماً ، ومن مفاجآت القدر المقيم وإن كان ملكاً ممنماً ، أو إنساناً متحصناً في برج مشيد :

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتم  
أبانا فلا رمّت من عندنا فإننا بخير إذا لم ترم  
ويا أبتا لا تزل عندنا فإننا نخاف بأن تُخترم  
أرانا إذا أضمرتك البلا دُنُجُفِي وَتُقَطِّعُ منا الرَّحِمَ (١)

٢ — هذا الحب الذي يدفعها إلى الخوف عليه والرغبة في قربه ، يدفعها أيضاً إلى أن تتعلق بما يطمئنها على حياته ، فتود أن يظل شاباً قوياً ، وتجزع إذا ما رأته قد هرم وضعف . يقول ذو الإصبع العدوانى وقد بكت بنته أمامة إذ رآته في كبرته قد نهض فسقط وتوكل على العصا :

جزعت أمامة أن مشيتُ على العصا وتذكرتُ إذ نحنُ مِ الفتيانِ  
وسلاًها بأمثال من تغير الأحوال ، ثم قال :

لا تعجبينَ أمامُ من حَدَثَ عَرَا فالدهرُ غيرنا مع الأزمان (٢)

وقد ظلت عاطفة البنوة هذه إلى بعد العصر الجاهلى ، وظلت البنت تبكى بعد أبيها ، فقد خرج مالك بن الرّيب مع سعيد بن عثمان ، فتعاقمت ابنته بشوبه وبكت ، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك ، أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى ، فبكى ، وقال :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى بدخيل الموم قلبا كئيبا  
وهى تدرى من الدموع على الخد ين من لوعة الفراق غروبا

(١) ديوان الأعمى ٧٣ نمره رودلف جيز والأغاني ١٣٧/٨ وخزانة الأدب ٢/١٠٤

(٢) الأغاني ٣/١٠٩

عبرات يككدن يجرحن ما جُرْ ن به أو يدَعْنَ فيه نُدوبا  
 حذر الحتف أن يصيب أباهَا ويلاقى في غير أهل شعوبا  
 اسكتى قد حززت بالدمع قلبي طالما حزّ دمعكن القلوبا  
 فعسى الله أن يدافع عنى رَيْبَ ما تحذرين حتى أءوبا<sup>(١)</sup>

٣ — وإن حبها لأبيها ليحملها على أن تضن بماله كما ضنت الأم والزوجة ،  
 فثلاث عانت سلمي بنت الأسود بن يعفر أباهَا ، لأنه يضع ماله فيما ينوب قومه  
 من حمالات ، وفيما يمنحه فقراءهم ، ويمين به مستمنحهم ، فقال :

وقالت : لا أراك تليق شيئا أَتَهْلِكُ ما جمعتَ وتستفيد؟  
 فقلت : بحسبها يُنْمَرُ وِعَارٌ ومُرْتَحَلٌ إذا رحل الوفود  
 وأخذ يدافع عن مذهبه ويضرب لها الأمثال<sup>(٢)</sup> .

٤ — وإذا ما فجعا الدهر في أبيها حزنت حتى يمضها الحزن ، وبكت حتى  
 يجرقها البكاء ، وفعلت ما يفعل النسوة الحزينات ، قال لبيد :

تمنى ابتئى أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟  
 فإن جان يوما أن يموت أبوكا فلا تخمشا وجهها ولا تحلقا الشعر<sup>(٣)</sup>  
 وقال في رثاء أربد مخاطبا ابنته مى :

يا مى قومي فى المآتم واندبى فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا  
 وقولى : ألا لا يُبعَد الله أربداً وهدى به صدع الفؤاد الموجعا<sup>(٤)</sup>

وقال أبو ذؤيب الهذلى فى توقعه ما تفعل بناته بعد موته من ضرب صدره  
 بالنعال :

وقام بناتى بالنعال حواسرا وأصقن وقَع السَّبْتِ تحت القلائد<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ١٩/١٦٧ (٢) الأغاني ١١/١٣٣

(٣) البهجات ١٣٣ مخطوط والموشح ١٧ (٤) ديوان لبيد ٦

(٥) البيان والبيان ٣/١١١ . السبت : النعال المدبوعة بالقرط

وصور عبد مناف بن ربيع الهذلي تصويراً أليماً ما تفعل أختاه على أبيهما  
من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق ، كأن في جوف كتتيهما مزماراً  
لا يفتأ يصوت ، ومن صفق الصدر بالسبت صفقا يחדش الجلد :

ماذا يعيرُ ابنتي ربيعٍ عويلهما لا ترقدان ولا بُوسَى لمن رقدَا  
كلتاها . أبطنتُ أحشاؤها قصبًا من بطن حَلِيَّةَ لا رطبًا ولا نَقْدَا  
إذا تَأوَّبَ نَوْحٌ قامتا معه ضرباً أليماً بسبتٍ يلتمجُ الجليداً<sup>(١)</sup>  
ولقد كانت أحياناً تبكي أباهما في المواسم ، فإنه لما قتل رجل من جهينة  
حصين بن عمرو الكلابي قامت صخرة ابنة عمرو تبكيه في المواسم ، حتى ضرب  
بها المثل ، قال الأخنس :

كصخرةٍ إذ تسائل في مراح وفي جَرَمٍ وعلمهما ظنون  
تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين<sup>(٢)</sup>  
والآباء في كل عصر على يقين من نجمة بناتهم فيهم ، وبكاهن إياهم ،  
يقول أبو فراس الحمداني قبيل وفاته سنة ٣٥٧ هـ مخاطباً ابنته :

أبُنَيْتِي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهب  
نوحى عــــلى بحسرة من خلف سترك والحجاب  
قولى إذا كتبتنى فعميتُ عن رد الجواب  
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب<sup>(٣)</sup>

٥ — وإذا قتل أبوها أشعلت الحفيظة في صدور أوليائه ، ليأروا له ،  
فيشفوا بعض ما تجد من مض الحزن ولوعة الأسي ، فقد حسنت أمامة بنت كليب

(١) سمط اللآلى ٢٢١/١ وتمهذيب الكامل ١٩٦/٢ يغير : يفيد . رطب : لين يخفى  
الصوت . نقد : متاكل . تأوَّب نوح : عاودهن النواح ليلاً . الجلد : بكسر اللام هو الجلد  
يسكونها . (٢) لسان العرب ٢٤٣/١٦ مراح : حى من قضاة .  
(٣) وفيات الأعيان ١٢٧/١

عَمَّهَا الْمَهْلِكُ لِثَارِ لَهُ ، قَالَ الْمَهْلِكُ :  
 تَسَأَلُنِي أَمَامَةَ عَنِ أَبِيهَا وَمَا تَدْرِي أَمَامَةَ عَنِ ضَمِيرِي  
 فَلَا وَأَبِي أَمَامَةَ مَا أَبُوهَا مِنْ النَّعَمِ الْمُؤَبَّلِ وَالْجَزُورِ (١)  
 وَلَمَّا قَتَلَ حَذِيفَةَ قَالَتْ ابْنَتُهُ هِنْدٌ تَحْرُضُ قَوْمَهَا عَلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ :

فِيَا لَبْنِي ذِيانَ بَكُّوْا عَمِيْدَكُمْ بِكُلِّ دَقِيْقٍ الْحَدَّ أَيْضُ بَاتِرٍ  
 وَكُلِّ رُدِّيْنِي أَسْمَ كَعُوْبُهُ يَنْوُءُ بِنَصْلِ كَالْعَقِيْقَةِ زَاهِرٍ  
 وَكُلِّ أَسِيْلِ الْحَدِّ طَاوٍ كَأَنَّهُ ظَلِيْمٌ ، وَجُودَاءِ النَّسَالَةِ ضَاْسِرٍ  
 فَإِنْ أَتَمُّ لَمْ تُصَبِّحُوا الْقَوْمَ غَارَةً يُحَدِّثُ عَنْهَا وَارِدٌ بَعْدَ صَادِرٍ  
 وَتَرَمَوْا عَقِيْمًا بِالتِّي لَيْسَ بَعْدَهَا بَقَاءُ فَكُونُوا كَالْإِمَاءِ الْعَوَائِرِ (٢)

٦ — ثم تراثه ، فتصور لخيبتها فيه ، وتعدد مناقبه ، وتشيد بمفاخره ، كما فعلت الأم في رثاء زوجها .

ومن أمثلة ذلك أن هند بنت عتبة تراثى أبها يوم بدر بأن هلك أيبها  
 لا مثيل له ، وأن الفاجعة التي نزلت بها تنسى المنفجوعات لخيبتهم ، وتستدر دموعهن :  
 مواساة لها ، وأنها كانت تخشى هذا اليوم من قبل ، ثم نزل بها ما خشيت ، فطار  
 عقلها وعزب رشدها :

لله عينا من رأى هلكا كهلك رجاليه  
 يارُبِّ بلك لى غداً فى النَّائِبَاتِ وبأكيه  
 قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حَقَّ حذاريه  
 قد كنت أحذر ما أرى فأننا الفداة مؤاميه

(١) رياض الأدب في مرثي شواعر العرب للأب لويس شيخو ٦ المؤبَّل : الكثير .  
 (٢) رياض الأدب ٤٧ جرداء النسالة : قليله الشعر العوائِر : الجماعات المنفرقة من الجراد ، فيكون المراد الإماء التداولات في كل مكان . وأرجح أن في الكلمة تحريفاً ، صوابه ( الأعاور ) والمفرد أعور وعوراء وممناه الضعيف الجبان الذى لا خير فيه . والجمع عور وجمع الجمع أعاور .

يا رُبَّ قائلة غدا يا ويح أم معاوية<sup>(١)</sup>  
وتقول أيضاً في رثاء أبيها وعمها شيبة :

من حَسَّ لى الأخوين كالفصنين أو من رَأهما

.....

ويلى على أبوى والقبر الذى واراها<sup>(٢)</sup>

وتصور صفية بنت مسافر عينها قد جرحها الدمع كأنها رمذى قرحها  
الرمذ ، وإنها لتبكي منذ انبلاج الفجر ، وحق لها أن تبكى طويلاً ؛ لأن البيت  
قد خرب بقتل أبيها وقومها :

يا من لعينٍ قذاها عائرُ الرمذ حدَّ النهارِ وقرنُ الشمس لم يقدر

.....

كانوا سُقوب سماء البيت فانقصفت فأصبح السَّمكُ منها غيرَ ذى عمد<sup>(٣)</sup>

ولما قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث رثته ابنته قتيلة ، وعاتبت  
النبي ، وودت لو أنه كان قد عفا عنه ، ثم نفتت نفثات ناجت بهن راكباً من  
مكة إلى المدينة ، مؤملة أن يبلغ قبر النضر بعد أيام خمسة ، راجية له السلامة فى  
رحلته ، ليسرع بتحية منها إلى القتييل العزيز النضر ، ومع التحية بلاغ تحب أن  
يصل إلى النضر أن عبراتها بعضها مسفوح ، وبعضها مكظوم يتخفق ، وتسائل  
نفسها : أيسمعى النضر إن ناديتة ؟ ثم تؤمن بالواقع الأليم فتقول : وكيف يسمعى  
ميت مقبور ؟

(١) سيرة ابن هشام ٤١٦/٢ النائبات : نواب الدهر . مواميه : مختلطة العقل .

(٢) الأغاني ٢١٠/٤ . حس . أحس .

(٣) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢ قذاها : آذاها . عائر الرمذ : أله أو قرحته . حد النهار

أوله . لم يقدر : لم يكمل ضوؤه . سقوب : عمد الجباء التى ترفعها .



ياراكباً إن الأثيل مَظَنَّةٌ من صبح خامسة وأنت مَوْفَقُ  
أبلغ بها مَيتاً بأن تحيية ما إن تزال بها النجائب تَخْفُقُ  
منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بوا كفها وأخرى تَخْنُقُ  
هل يَسْمَعَنَّ النضر إن ناديتُه أم كيف يَسْمَعُ ميت لا ينطق؟<sup>(١)</sup>  
وكثير غير هؤلاء ، مات آباؤهن فصورن لواعجنهن ، وشدن بفضائل آباءهن<sup>(٢)</sup> .

٧ — وإنه ليسرها أن يشبه ابنها أباه ، ولقد تتسأى بمجد أبيها فتري من  
العسير على ابنها أن يلحق به ، تقول منفوسة بنت زيد الفوارس وهي ترقص  
ابنها حكيم بن قيس بن عاصم :

أشبهه أخى أو أشبهن أباً كما أما أبى فلن تنال ذاك  
تَقْصُرُ أن تناله يداك

وهي بذلك ترد على زوجها في قوله لابنه وهو يرقصه :

أشبهه أباً أمك أو أشبه عمل ولا تكونن كهلوفٍ وكنل  
يصبح في مضجعه قد انجدل وارق إلى الخيرات زنتاً في الجبل<sup>(٣)</sup>  
وتقول السيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وهي ترقص ابنها الحسين:  
إن بنى شبيه النبي ليس شبيهاً بعلى<sup>(٤)</sup>

(١) حاسة الحامدين ٦٧ مخطوط وفيه أن الشعر لليل بنت النضر وفي المرجع نفسه ٣٧٢  
أنه لفتية بنت النضر . وفي معجم البلدان مادة أثيل أن الشعر لبنت النضر . وفي لسان العرب  
١١٢/١٣ أنه لفتية بنت النضر وكذلك في حاسة البحري ٤٣٤ وأسد الغابة ٥/٣٣٣ وفي  
سيرة ابن هشام ٢/٤٢٠ والأغاني ١٩/١ الدار أنه لفتية أخذت النضر . الأثيل : موضع  
قرب المدينة دفن النضر به .

(٢) الأغاني ٣٠/١٦ و ٣٩/١٠ وأمثال العرب للأضي ٣٣ ومعجم البلدان ٢/٧٧٩  
وسيرة ابن هشام ٤/٨٤ وحاسة البحري ٢١٢ وبلاغات النساء ١٧٩ و ١٨٩ .

(٣) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند الرب لأحمد عيسى ٥ هـ هلوف :  
ثقبيل بطين لاغناء منده . وكل : ضعيف زنتا : صعوداً .

(٤) الأغاني للأطفال عند العرب ٢٧

## إبارة قومها علي قوم زوجها:

بلغ المرأة إعزازها لأبيها وأخيها وقومها واعتزازها بهم أنها لم تقتفر لزوجها أن يتجنى على أخيها ويتنقصه .

من ذلك أن لبيد بن عنبسة الفسائي - والى ربيعة من قبل ملك اليمن - تزوج الزهراء أخت كليب ، وفي حديث بينهما أحست أنه يحقر من شأن أخيها كليب ، فقالت له : لا أعلم في العرب ذا لبدة أشد منه . فهاج لبيد ولطمها ، وقال لها : أنت أمتي فاقبلي ما يأتيك منا نحن الملوك . فقالت له : أنا أكرم منك . وفارقت غصبي ، حتى انتهت إلى كليب وقالت له :

ما كنت أحسب والحوادثُ جمةً أنا عبيدُ الحى من قحطان  
حتى علتني من لبيدٍ لطمةٌ سُجرتَ لها من حرها العينان  
إن ترضَ تغلبُ وائلٍ بفعالهم تكن الأذلة عند كل رihan  
فاهتاج كليب وقصد إلى لبيد ، وجلَّه بسيفه ، فقامت الحرب بين اليمن وبين ربيعة ومضر وإياد وطبيء وقضاعة ، وتقدمهم كليب ، وظفر هؤلاء باليمن في موقعة خزازى ، وتحرروا من سلطانهم<sup>(١)</sup> .

وهي لا ترضى أن يباغت زوجها قومها ، فيغزوهم وينتصر عليهم ، لذلك تنذرهم بنفسها ، كما فعلت سلمى بنت عمرو ، ففي حرب بين الأوس والخزرج جمع أحيحة بن الجلاح الأوس لبني النجار ليغزوهم ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو التجارية الخزرجية ، وله منها ولد اسمه عمرو ، وكان يومئذ فطيا أو دون الفطيم . فلما قارب أحيحة أن يغير عمدت إلى ابنها فربطته بحيط أوجهه ، فبات يبكي . وهي تحمله ، وبات أحيحة معها ساهراً يقول : ويحك ما لا بنى ؟ فتقول : والله ما أدري ، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الحيط من الصبي فنام ، فلما هدأ قالت : وارأساه .

(١) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة للسندوبى ١٩

فبات أحيحة يعصب لها رأسها ، ويقول : ليس بك بأس . حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له : نم أنت فقد ذهب عني ما كنت أجد . وإتما فملت به ذلك ليثقل رأسه وليشتد نومه بعد طول السهر .

فلما نام قامت وتدلّت من الحصن ، وانطلقت إلى قومها ، فأندرتهم بما جمع لهم أحيحة ، فحذروا وأعدوا واجتمعوا . فلما أقبل أحيحة في قومه وجد القوم على حذر ، فلم يكن بينهم كبير قتال ، ثم رجع فلم يجد سلمى ، فعرف أنها خدعته وأنذرت قومها ، فطلقها ، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف ، فولدت له عبد المطلب . وسماها قومها التمدلية ، وقال أحيحة في ذلك قصيدتين<sup>(١)</sup> .

وقد تنذرهم برسول لأنهم منها بعيد ، كما فعلت هند من بني نهد لما رأت قوم زوجها بني عامر قد جمعوا لغزو بني نهد ، فقالت لغلام فقير يتيم من بني عامر : لك خمس عشرة ناقة على أن تأتي قومي فتندرهم ، فرضى ، وحملته على ناقة لزوجها ، وزودته طعاماً وشراباً ، فركب وأنذرهم ، فاجتمعوا واستعدوا ، وواقبتهم بنو عامر ، فاقتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه العامريون ، وفي ذلك يقول عبد الله ابن العجلان من قصيدة :

ألم يأت هنداً كيفاً صنّع قومها      بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرُها<sup>(٢)</sup> ؟  
وقد تنذر قومها برسالة رمزية ، كما أنذرت زهير بن جناب أخته - وكانت متزوجة في بني القين بن جسر - بأن قوم زوجها يعتمنون الغارة عليه ، وذلك بأن أرسلت إليه رسولا معه صرة فيها رمل ، وصرة فيها شوك وفتاد ، فقال زهير إنها تخبركم بعدو كثير ذى شوكة ، وأشار عليهم بالارتحال ، فقال الجلاح ابن عوف : لا ترتحل لقول امرأة . فظعن زهير وأقام الجلاح ، فصبحه بنو القين ، فقتلوا عامة قومه ، واستاقوا أموالهم وماله ، ثم قاتلهم زهير وهزمهم<sup>(٣)</sup> . وكذلك أنذرت امرأة من هذيل قومها<sup>(٤)</sup> .

(١) الأغاني ١٣/١١٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٤٢ (٢) الأغاني ١٩/١٠٤

(٣) الكامل لابن الأثير ١/١٨٠ والأغاني ٢١/٦٧ (٤) الأغاني ١١/١٤

## الفصل الرابع

# الأخت والقريبة

حظيت البنت عند أبيها ، وحظيت الزوجة عند زوجها ، وتبوات الأم مكانة عليّة في نفوس بنيها ، فمن الطبيعي أن تنال الأخت عزايزة أخيها ، وأن تسعد القريبة بحب ذويها .

## الأخت

أحب الأخ أخته وأعزها ، وأحبت الأخت أخاها واعتزت به .

١ — وأي دليل على الإرعاء والحب من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات ، جاء في حديث الخنساء للسيدة عائشة قولها : زوجني أبي رجلاً مبذراً ، فأذهب ماله ، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما ، ثم ضيع زوجي ماله مرة أخرى ، فقسم أخى ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما . فلما كانت المرة الثالثة قالت امرأته : أما ترضى أن تعطيتها النصف حتى تعطيتها الخيار ؟ فقال :

والله لا أمنحها شِرارها وهي حَصَانٌ قد كفتني عارها  
وإن هلكتُ خَرَقَتُ خمارها وأخذت من شعر صِدارها<sup>(١)</sup>

وأى شيء أدل على الإرعاء والحب من أن يتخير الرجل زوجته ثيباً حتى لا تضار أخواته كما تضارهن الشابة ؟ حدث جابر أن رسول الله سألته : هل نكحت يا جابر ؟ فقال نعم . فقال رسول الله : ماذا ؟ أبكراً أم ثيباً ؟ فقال : بل ثيباً . قال الرسول : فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبي قتل

(١) الإصابة ٦٨/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والهاسن والأضداد ١٤٣

يوم أحد ، وترك لى تسع أخوات ، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ،  
ولكن امرأة تمسطن وتقوم عليهن ، فقال الرسول : أصبت <sup>(١)</sup> .

٢ - وكان الأخ يستمع لمشورة أخته ، ويدعن لرأيها في أمور شتى ،  
من هذا أن سَفَّانة ابنة حاتم الطائي - بعد أن أطلقها النبي من السبي وكساها  
وأعطهاها - لحقت بأخيها عدى ، وكان قد فر إلى الشام هارباً ، فرغبت في الإسلام ،  
وأن ياحق برسول الله سريعاً ، وجاء في كلامها : « فإن يكن الرجل نبياً فللسابق  
إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تدل في عز اليمين وأنت أنت » فقال لها :  
« والله إن هذا للَرَأْيُ ، وقدم على رسول الله وأسلم <sup>(٢)</sup> .

٣ - وكان الأخ يحب أخته حتى من زوجها القوام عليها ، فلا يفضى عن  
مساءة زوجها إليها ، ولا يغفر له أن يستذلها . من ذلك أن بكره بنت مَلِيس  
من بني مُقَدِّد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بني سَلِيط ، فضر بها  
فشجها ، فأتى أخوها زوجها ، فلامه على ضربه وشجّه إياها ، فوقع بينهما شجار ،  
فشج تميم أبا بكره أيضاً ، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته ، فشج الزوج فأمه <sup>(٣)</sup> .

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت به أخته من زوجها لبيد بن  
عنبسة إذ لطمها واستذلها وتنقص من قدر أخيها ، وكان من أثر ثورته حرب  
زبون بين اليميين وربيعه ومضرو ومن حالقهما <sup>(٤)</sup> .

٤ - وكان يحب من تجيره إعزازاً لها واعتداداً بحمايتها ، وقد ضرب المثل  
بُفكِيهَة ، فقيل : أوفى من فكيهية ، وهى امرأة من بني قيس بن ثعلبة ، كان  
من وفائها أن الشكيك بن الشككة غزا بكر بن وائل ، فبصروا به ، فعدا حتى

(١) فتح البارى ٧/٢٧٥ وكنتز العمال ٨/٢٨٨

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٢٤٨ وأسد الغابة ٥/٤٧٥

(٣) النقايس ٢ أمه : أصاب أم رأسه .

(٤) أخبار الربيعة ١٩ وكتاب بكر وتغلب ١٥

ولج دار فكيفة فاستجار بها ، فأدركوه وحاولوا أن ينتزعوها منها ، ونزعوا  
نخارها ، فاستغاثت بإخوتها ، فجاءوا عشرة ، فمنعوهم وأجاروا السليك ، وفي ذلك  
يقول مادحاً لها :

امر أيبك والأنباء تنمى      لنعم الجار أخت بني عوارا  
من الخفرات لم تفضح إياها      ولم ترفع لإخوتها شنارا  
وما عجزت فكيفة يوم قامت      بنصل السيف وانتزعوا النخارا<sup>(١)</sup>

٥ - وكان يفار عليها كما يفار على زوجته ، من ذلك أن القتال - عبد الله  
ابن المضر حى - كان يتحدث إلى ابنة عمه ، فقدم أخوها زياد ورآها ، فنهى  
القتال ، وحلف لئن رآه ثانية ليقطنه وبعد أيام رآه يحدثها ، فأخذ السيف  
ليضربه ، فبصر به القتال فخرج هارباً ، فتبعه زياد ، فلما دنا منه ناشده القتال  
بالله وبالرحم ، فلم يلتفت إليه ، فعطف القتال على زياد فقتله وقال :

تهبتُ زياداً والمهامه بيننا      وذكرته أرحام سعد وهيثم  
فلما رأيت أنه غير منته      أملت له كفى بلدن مقوم  
ولما رأيت أنني قد قتلته      ندمت عليه أي ساعة مندم<sup>(٢)</sup>

بل لقد غار الأخ على أخته من أن يتغزل فيها شاعر ، لأن في غزله تشهيراً  
بها ، وجرحاً لشرف آلهما . علم الإصبع بن محصن أن مالك بن الصمصامة يحب  
أخته جنوب ، فألى يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقته ، ولئن عرض بها في  
شعره أو ذكرها ليأسرته ، ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته في نادى قومه . فبلغ ذلك  
مالكا ، فقال في قصيدة :

(١) المحاسن والأضداد ؛ ٥ والمحر ٤٣٣ والأغاني ١٨/١٣٧

(٢) الأغاني ٢/١٥٩

فما الحلقُ بعد الأشرِ شَرُّ بَقِيَّةٍ من الصد والهجران وهي قريب  
 أحب هبوط الواديين وإنني مُشْتَهَرٌ بالواديين غريب  
 أحمقاً عباد الله أن است خارجاً ولا والجباً إلا على رقيب<sup>(١)</sup>  
 لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحياناً وسيلة للكيد والإغاطة والتجريح ،  
 كما تغزل قيس بن الخطيم بعمرة بنت رواحة في تمهيدته للفخر بانتصار الأوس ،  
 على الخزرج في يوم بُعث :

أتعرف رسماً كأطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف ركب  
 تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب<sup>(٢)</sup>  
 فرد عليه عبد الله بن رواحة عدواناً بعدوان ، وتغزل في ليلي بنت الخطيم  
 أخت قيس :

أشاققتك ليلي في الخليلط الجانب نَعَمَ فرشاش الدمع في الصدر غالي<sup>(٣)</sup>  
 وكذلك تغزل حسان بن ثابت بليلي بنت الخطيم في نغمة بانتصار الخزرج  
 على الأوس في يوم الربيع<sup>(٤)</sup> ، فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوجة حسان<sup>(٥)</sup> .  
 ٦ - ما من شك في أن إعزاز الرجل لأخته يستتبع إعزازها أيضاً لابن  
 أخته ، ولقد فصلت القول في الخلال ومكائنه في نفس ابن أخته ، ومنزلة ابن  
 أخته من نفسه ، وحسبي أن أذكر هنا أن ابن الأخت كان كثيراً ما يعد من  
 العشيرة ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار يوماً ، فقال لهم : هل  
 فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا إلا ابن أخت لنا . فقال رسول الله : ابن أخت  
 القوم منهم<sup>(٦)</sup> .

(١) الأغاني ١٩/٨٣

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٠ وطبقات الشعراء ١٩٠

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٨٨

(٤) ديوان حسان ١٦٤ والأغاني ٣/١٢

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغاني ٣/١٢

(٦) فتح الباري ٦/٠٢ ، وصحيح البخاري ١٤/١٢٣

لذلك كانت قريش والخمس يشترطون على من يزوجه من الحيلة أن يكون  
بنوه حسناً مثلهم<sup>(١)</sup> ويمدح أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ابن أخته زهير  
ابن عاتكة بنت عبد المطلب بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مُكذَّب زهيرٌ حساماً مفرداً من حمائل<sup>(٢)</sup>

وإذا كان بشامة بن الغدير لم يورث ابن أخته زهير بن أبي سلمي كما ورث  
غيره ، فإن زهيراً كان يعتقد أنه ذو حق في أن ينال من مال خاله كما نال إخوته  
وعصبته ، فقد قال له : ماذا قسمت لي يا خاله ؟ فقال له : شعري . ثم أعطاه من  
ماله أيضاً<sup>(٣)</sup> .

٧ — وكذلك أحببت الأخت أباها ، واعتزت به ، وكثيراً ما كانت تؤثره  
على زوجها ، لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين الأب وابنته  
والأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفي كثير من الحالات كان الزوج  
يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ولا يرى زوجته إلا زائراً . بل إن الأخ في المدينة  
القديمة كان أعز على المرأة من زوجها ، فزوجة أتنا فرنيز أنقذت أباها لا زوجها  
من غضبة دارا ، كذلك أنتجونا نحت بنفسها من أجل أخيها لامن أجل زوجها .  
والفكرة القائلة بأن زوجة الرجل أقرب إنسان إلى قلبه فكرة حديثة ، وغير  
محققة إلا في بعض الأمم<sup>(٤)</sup> .

ولم تطق الزهراء بنت وائل أن يتنقص زوجها ليبد بن عنبسة الغسانی من  
قدر أخيها كليب ، فقالت له في عزة وغضب : لا أعلم في العرب ذا لبدة  
أشد من كليب . فهاج ليبد ولطمها ، فقالت له : أنا أكرم منك ، وذهبت مفضبة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١١٥/١ (٢) المواهب الفتيحة ١٦٢/١

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٦٣ والأغانى ١٥٠/٩ ورسالة الغفران للمعري ٥٤٧

(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ٥٨/١



إلى أخيها<sup>(١)</sup> .

أليس من الطبيعي إذاً أن تندب الأخت أخاها إذا اخترمه المنون ؟ بلى لقد كانت تندبه بقلبيها ولسانها ودموعها ، وكانت ترضيه متفجعة متوجعة . وكانت الخنساء كغيرها من الجاهليات قد حلقت رأسها ، والتدمت بفعلها حزناً على أخويها ، تقول في ذلك :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الخليق<sup>(٢)</sup>  
 وكانت تابس صداراً من شعر حزناً على أخويها اللذين قتلا في الجاهلية ، فدخلت على عائشة فقالت لها : يا خنساء هذا نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : ما علمت ، وقصت عليها إكرام صخر لها ، وقوله لامراته :  
 ولو هلكتُ حَرَّقتُ خمارها واتخذتُ من شعر صدرها  
 وقالت : فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدر ، ونذرت ألا أنزعه حتى أموت<sup>(٣)</sup> .

وليس يعني كثيراً أن تمجد الأخت أخاها ، وتؤبنه بذكر محامده ، لأن غيرها من الرائين والرائيات يشركونها في ذلك ، وإنما يعني ما ينبىء عن حرقتها ولهب حزنها . وإني لأحس حرارة الحزن في كثير من مرثي الأخوات لإخوتهن ، ولا شك أن زعيمتهن في هذا الضرب الخنساء ، وأنها المقدمة في هذا الفن ، فقد تميزت بكثرة مرثيها لأخويها ولاسيما صخر ، وتفردت مرثيها بصدق العاطفة وحرارتها ، فكانت جذيرة بالزعامة في النساء الشاعرات ، وكانت زعامتها منفذاً لنحلها قصائد لم تقرضها .

(١) كتاب بكر وتقلب ١٥ وأخبار المراقسة ١٩

(٢) ديوان الخنساء ١٧٣ والكامل للمبرد ٢٦٢/٢ ولسان العرب ٣٤٥/١١ قال المبرد : كانت المرأة إذا أصيبت في حميم جعلت في يدها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها .

(٣) الإصابة ٦٧/٨ والشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والخامس

ويطول بي القنال إن أنا حاولت أن أستشيد من رثاء الخنساء، وحسبي أن أستدل من إحدى سرانيتها على توهج حزنها، وتضرم لوعتها، وتذكرها أخاها صخرًا ليلاً ونهارها، وصلحها ومساءها. وإن هذه الذكرى لتتحد في الصباح والمساء، لأنهما زمن الغارة، وزمن الضيافة، وإن حزنها ليشد بها حتى لتكاد تبغخ نفسها، ولا يعزبها بعض العزاء إلا أنها ترى الموت حقاً على الناس ينزل بهم، فيبكي الأحياء ويمضهم، وهي ترى حولها كثيراً من الباكين والباكيات. ثم خيل لها حزنها الأليم أنه لا مثيل له، وخيل لها حبهما لأخيها أنه فقيد لا فقيد مثله، فقالت إن البواكي لا ينحن على عزيز عظيم كأخي، ولكني أناسي بهن، ثم أقسمت أنها ستظل وفيه له ذاكرة حتى يعين حينها، ولن يتطرق سرور إلى قلبها، بل ستعيش حياة كثيفة سوداء لا لذة فيها ولا أنس، وكيف تستطيع الحياة بعد ما ضم التراب أخاها الحبيب؟ وهي بذلك كله تكشف عن ألم ممض وحزن دفين، ودمع غزير سخين، وزفير متاهب:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا	وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولاً	ونأخه تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكي أخاها	عشية رزئته أو غبّ أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن	أعزى النفس عنه بالتأسي
فقد ودعت يوم فراق صخر	أبي حسان لذاتي وأنسى
فيا لهفي عايمه ولهف أمي	أصبح في الضريح وفيه يمسى؟ <sup>(١)</sup>

وتتجلى الوعة أيضاً في أن أم عمرو بنت مكدّم ترى أخاها ربيعة بن مكدّم بأن دمعها مدرار لا يرقأ، وحزنها شديد لا يهدأ، ولو أن حب الأخت لأخيها

(١) ديوان الخنساء ١٥١ أبو حسان: كنية من كنى صخر  
(٢١ - المرأة في الشعر الجاهلي)

ووجودها عليه يرجعانه أو يحفظانه ، لحق لها أن تطلب رجعة أخيها أو خلوده ،  
ولو أن القداء بقي إنساناً لموت نمدته بأهلها جميعاً ، وبما لها :

ما بال عينك منها الدمع مُهراق      سَجَلًا فلا عازب منها ولا راقٍ ؟  
أبكي على هالك أودي وأورثي      بعد التفرق حرنًا حَزْرَه باق  
لو كان يُرْجِع ميتًا وَجَدُ مشفقة      أبقى أخى سالمًا وجدى وإشفاقى  
أو كان يُفَدَى لكان الأهل كلهم      وما أثمرُ من مال له واق  
فسوف أبكيك ما ناحت مطوِّقة      وما سَرَتْ مع السارى على ساق  
تبكي لذكْرته عينٌ مَفجَّعة      ما إن يحف لها من ذكره ماق<sup>(١)</sup>

ومثل هذا الضرب كثير في رثاء النساء<sup>(٢)</sup> .

## القريبة

١ — امتدت عزازة الأم والبنت والزوجة والأخت إلى الخالة والعمة والقريبة ،  
فكانت المرأة العربية عزيزة ، تستمتع بعزتها من مناح عدة ، وتشعر بأن رجالها  
يقدرونها ويحسونها ، ولقد تسعد في آن واحد بزواج يحب ، وأب يحذب ، وأخ  
يعطف ، وابن يبرِّئ ، وقريب يحنو . فمثلا حزن السليك بن السلكة السعدى —  
أمه جارية حبشية — لأنه لم يجد المال الذى يفقدى به خالاته من السبي :

أشاب الرأسَ أنى كل يوم أرى لى خالة بين الرجال  
يشقى على أن يلقين ضيا ويعجز عن تخلصهن مالى<sup>(٣)</sup>  
وكثيراً ما يفدى الرجل بأمه وخالته أو بخالته وحدها ، دلالة على عزازتها

(١) بلاغات النساء ١٧٧

(٢) قتيلة أخت النضر بن المارث ( بلاغات النساء ١١٩ ) وهند بنت حذيفة ( بلاغات  
للنساء ١٧٣ ) وصفية بنت عبد المطلب ( سيرة ابن هشام ١٥٦/٣ ) والفراعة بنت شمداد  
( الحماسة البصرية ٩٢ ) ولبلى بنت كليب ( أشعار النساء للرزبانى ١٩/٣ ) وعمرة بنت  
مرداس ( الأغاني ٦٩/١٣ ) وعمرة الهذلية ( حماسة البحترى ١٣٠ ) والحرقى ( ديوان  
الحرقى ٢ ) . (٣) الكامل المبرد ٢٥١/١

وحبه لها ، قال حاتم في رده على زوجته وقد لامته على كرمه :

فمَهْلا فذاك اليوم أمى وخالتي فلا يأمرني بالدنية أسود<sup>(١)</sup>  
وفدَى عمرو بن ميثثة رفاقه الشجعان بخالته :

فقلت لهم سيروا فدَى خالتي لكمْ أما تجدون الریح ذات سَهام<sup>(٢)</sup>  
وفدى حاجز بن عوف الأزدي رجْليه — وقد نجاه جريه من أعدائه —  
بأمه وخالته :

فدى لكما رجلىَّ أمى وخالتي بسعيكما بين الصفا والأناث<sup>(٣)</sup>  
ومن إعزاز القرية أن يجير لها قريبها كما يجير لأمه وابنته وأخته وزوجته .  
من ذلك أن مسعود بن معتب الثقفي — حين دارت حرب بين كنانة وقيس —  
ضرب خباء على امرأته سبيعة بنت عبد شمس وقال لها : من دخله من قريش  
فهو آمن . فجمعت توصل في خبأها ، ولكن قيسا انهزمت ، وخاب ظن زوجها ،  
وهرع القيسيون إلى خباء سبيعة يستجيرون بها ، فأجار لها حرب بن أميه ، وقال  
ياعمة ، من تمسك ياطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن . فنادت بذلك ، فاستدار  
القيسيون بخبأها ، وسمى الموضع مدار قيس<sup>(٤)</sup> .

وكذلك أجار النبي صلى الله عليه وسلم لعمته أم هانئ ، اثنين من أحماها يوم  
فتح مكة<sup>(٥)</sup> .

وتقتضى عزازة الخالة أن يشور ابن خالتها لفضيها ، فإذا ما رجعنا إلى حرب  
البيسوس ألقينا السبب المباشر الأخير لهاجها أن كليبا قتل ناقه رجل من جرم اسمه  
سعد كان جارا للبيسوس خالة جساس ، ففضبت البيسوس وتألّم جارها ، فوعدها

(١) حاسة البحري ٢٣١ وديوان حاتم ٦ وشعراء النمرانية ١١٢

(٢) ديوان عمرو بن ميثثة ٢٢ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢٥/١ مخطوط . ذات

سهام : ذات توهج . (٣) الأغاني ٤٩/١٢

(٤) الأغاني ٧٩/١٩ (٥) سيرة ابن هشام ٣١/٤

جساس أن يعوضه عن ناقته ناقة ، فأبت ، فزادها إلى عشر ، فلما كان الليل رفعت صوتها لتسمع جساسا ، وهي تخاطب جارها الجرمي :

أيا سعد لا تغررُ بنفسك وارتحل      فإنك في قوم عن الجار أموات  
ودونك أذوادى إليك فإنني      محاذرةٌ أن يَعدروا بينيآني  
لعمري لو أصبحتُ في دار مُنقِذٍ      لما ضيم سعد وهو جار لأبيآني  
ولكنني أصبحت في دار غُربةٍ      متى يَعدُ فيها الذئب يَعدُ على شآني

فلما سمع جساس قولها سكنها ووعدا أن يعقر في غدة جملا أعظم من سراب - ناقة حارها - ووفى بما ووعد ، فقتل في غده كلبيا ، وقامت حرب البسوس (١) .

وتستطيع عازاة الخالة أن يعز الرجل ابنها ، فإنه لما غزا عمرو بن هند طينا وأسر منها ، وكان في الأسرى قيس بن جحدر ، وهو ابن خالة حاتم الطائي ، وقد حاتم على عمرو ، وسأله أن يطلق الأسرى ، فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فاستمطفه حاتم بقوله :

فككت عديا كلها من إسارها      فأفضلُ وشَفَّعني بقيس بن جَحَدْر  
أبوه أبي والأمهات أمهاتنا      فأنعمَ فدتك اليوم نفسى ومعشرى  
فأطلقه (٢) .

٢ - وكانت المرأة تقدر هذه القرابة وترعاها ، وتعزبها ، ففي يوم أحد حمل شماس بن عثمان الحزومي إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم : ابن عمي يدخل على غيري ؟ فقال رسول الله : أحملوه إلى أم سلمة . فحمل إليها ، فمات عندها (٣) .

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢١٥ وأخبار المراقبة ٢٣

(٢) الأغاني ١٩/١٢٨

(٣) المغازي ٣٠٢ .

ومن رعايتها لهذه القرابة إيثارها الزواج بالأقارب ، وتفضيلها قومها على قوم زوجها كما سبق .

أما حزنها على ابن أختها أو ابن أخيها أو قريبها فإنه يتمثل في كثير من المراثي ، كرتاء أمية بنت عبد شمس لابن أخيها أبي سفيان بن أمية ، ولقتلى قومها في حروب الفجار :

أبى ليلك لا يذهبُ      ونيط الطرف بالكوكبُ  
وهذا الصبح لا يأتى      ولا يدنو ولا يقرب  
بمعتر عشيرة منا      كرام الخيم والمنصب  
ألا يا عين فابكيهم      بدمع منك مستعرب  
فإن أبك فهم قومي      وهم ركنى وهم منكب  
وهم أصلى وهم فرعى      وهم نسبي إذا أنسبُ  
وهم مجدى وهم شرفى      وهم حصنى إذا أُرهب  
وهم رحى وهم ترسى      وهم سيفى إذا أغضب  
(١)

ومرئيتها تكشف عن حزن ، وأرق ، وحسرة ، ونحار .  
وكذلك رثت الحرنق قومها<sup>(٢)</sup> وربطة بنت عاصم<sup>(٣)</sup> ، وهند بنت عتبة<sup>(٤)</sup> ،  
وصفية بنت مسافر<sup>(٥)</sup> .

(١) الأغاني ١٩/٨٠ مستعرب : بالغ منتهاه

(٢) ديوان الحرنق مخطوط.

(٣) شرح الجملة للتبريزى ٦٩/٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ٤١٦/٢

(٥) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢

## الفصل الخامس

# حقوق المرأة المالية

كان العرب في منزلة وسط بين الملكية وما يشبه الاشتراكية ، ذلك بأن « الخيمة وأثاثها ملك للفرد ، أما المرعى والأرض الصالحة للزرع فهي ملك شائع للقبيلة كلها<sup>(١)</sup> » .

وقد ذكر سترابون أن اشتراكية الأسرة في الملكية كان النظام الشائع في اليمن ، لكن الرجل الأكبر هو المهيمن على الثروة<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا النظام الوسط بين الملكية والاشتراكية كان للفرد أن يقتني ويحوز ، وللقبيلة أن تقتطع منه ما تحتاج إليه في تحمل الديات ودفع المغارم والإنفاق على الغارات وإكرام الوافدين .

### ملكية المرأة :

اشتركت المرأة في هذه الملكية ، ولكن في طور متأخر أجحف الرجال بها ، وكثيراً ما كانت تعجز عن المطالبة بنصيبها ، وتعجز عن نياله بالقوة - على أنها كانت في هذا الطور تمتلك بأن يتدخل قريب من أقاربها لينيلها حقها<sup>(٣)</sup> .

١ - ولست أشك في أن المرأة الجاهلية كانت تملك ، فالقرآن الكريم يثبت ملكيتها ، والشعر يذكرها ، والأخبار كثيرة فيها . قال تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تُنْفِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع<sup>(٤)</sup> ﴾ .

(١) تاريخ العرب ١ / ٣٣ فيليب حتى

Muslem Law . P . 21 (٢)

Muslem . Law P . 28 (٣)

(٤) سورة النساء ٣

وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النساء اللاتي يتولون شؤونهن ، لا رغبة فيهن ، بل في ما لهن ، وكانوا يسيئون صحبتهم ، ويتربصون بهن الموت ليرثوهن ، وقد سأل عروة بن الزبير السيدة عائشة رضی الله عنها عن هذه الآية فقالت : يا بن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله ، ويريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن <sup>(١)</sup> .

وروى عنها أيضاً في تفسير قوله تعالى : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تتوتمهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن والمتضعفين من ولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما فعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » <sup>(٢)</sup> أن المراد اليتيمة التي تكون عند الرجل ، لعليها أن تكون شريكته في ماله وهو أولى بها ، فيرغب عنها أن ينكحها ، فيعضلها ليحتجز مالها ، ولا ينكحها غيره حتى لا يشركه أحد في مالها <sup>(٣)</sup> . والرواة جميعاً على أن لليتيمة مالا <sup>(٤)</sup> .

٢ — أما الأخبار التي تثبت ملكية النساء فستفيضة . يقول حاتم الطائي لاسرأته وقد لامته على البذل إن مالك كثير مصون ، فلماذا تلوميني على أن أسخو بمالي :

تلوم على إعطائي المال ضلّة إذا ضنّ بالمسال البخیل وصرّدا  
تقول : ألا أمسك عليك فإنني أرى المال عند المؤمن موعّدا

(١) فتح الباري ٩١/٩ وتفسير الطبري ١٩٣/٥ وروح المعاني ٤/١٨٩

(٢) سورة النساء ١٢٧

(٣) فتح الباري ١٦٠/٩ وتفسير الطبري ١٩٢/٥

(٤) تفسير الطبري ١٩١/٥ - ١٩٥



ذريتي وحالي إن مالكِ وافرٍ وكل امرئٍ جارٍ على ما نعوّدا<sup>(١)</sup>  
وقد كانت أم حاتم عتبة بنت عفيف كريمة ، لا يسألها أحد شيئاً إلا أعطته ،  
وكانت ذات يسار ، ولا تمسك شيئاً ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ،  
ومنعوها مالها ، ثم دفعوا إليها صرمة من إبلها<sup>(٢)</sup> ، فهي مثرية ذات مال خاص  
بها ، وإخوتها يرون سفها في بذلها فيحجرون عليها ، ثم بعد حين يردون عليها  
قطيعاً من إبلها .

كذلك روى أن بنت مهليل بن زيد أخت زيد الخليل كانت تملك مائة  
من الإبل مع غلها<sup>(٣)</sup> ، وأن هند بنت صعصعة جد الفرزدق قالت : من جاءت  
من نساء العرب بأربعة كأربعة يخل لي أن أضع خمارى معهم فإيا صرمتي<sup>(٤)</sup> .  
وكان لضباعة بنت عامر بن قرط مال كثير<sup>(٥)</sup> . وكانت السيدة خديجة صاحبة مال  
ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالاً من قريش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبي  
صلى الله عليه وسلم في اليمن وفي الشام ، وتقاضى منها أجره أربع بكرات  
أو قلوصين<sup>(٦)</sup> . وفي حديث السيدة أسماء للرسول قولها : يارسول الله مالي مال  
إلا ما أدخل عليّ الزبير فأصدق . قال : « تصدق ولا تؤعنى قيوعى عليك<sup>(٧)</sup> .  
ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء مالا يتصدقن منه ، أو أنها مظنة أن يكون لها  
مال كغيرها تتصدق منه .

وسيتبين من حقهها في التصرف المالى ما يعزز هذه الملكية .

(١) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠

(٢) الأغاني ٩٣/١٦ وذيل الأمالي ٢٣

(٣) الأغاني ٤٩/١٦ - ٥٠

(٤) النقائض ٢٦٤

(٥) أشعار النساء للعرزباني ٢٤

(٦) لإنسان العيون ١٤٧/١ - ١٥٢

(٧) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٢٦/١١ لانوعى : أى لا تبخل .

## الملكية بين المرأة العربية وغيرها

هذا الحق الذي خُوِّلته المرأة العربية في الجاهلية لم نلّه إلا المرأة المصرية ، لأن النساء في مصر القديمة كن يملكن (حوالي ٤٠٠٠ ق م) أكثر الأراضي ، وذلك لأن التركة كانت تورث في الأعم الأغلب بطريق النسب إلى الأم<sup>(١)</sup> . وكذلك المرأة البابلية ، لأن النساء كن يملكن ، وكن حرات في أن يتعاقدن ، وكن يرثن<sup>(٢)</sup> .

على أن أكثر النساء كن محرومات منه ، كالمرأة العبرية واليونانية .

ولم يكن القانون الإنجليزي الذي سن في القرن الثامن عشر بأعظم حدبا على حق المرأة في التملك ، فقد حرّمها كل حقوقها المالية تقريباً ، فنزلت عن ثروتها عند الزواج ، ورأى المشرعون في ذلك صوتاً للمرأة ورعاية ، حتى قال بلاكستون Blackstone في شرحه على قوانين إنجلترا سنة ١٧٦٥ م : إن التميؤد التي ترزح تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها ، لأن القانون الإنجليزي يؤثرها بعطف شديد<sup>(٣)</sup> .

ولم تخوّل المرأة الإنجليزية حق التملك إلا منذ ١٨٨٢ م مع أنها كانت تزاوّل أعمالا ، ولكن أجرها للأب أو للزوج<sup>(٤)</sup> ، فهي محرومة حق الملكية ، وحق التصرف .

ومازالت المرأة الفرنسية المتزوجة محظوراً عليها تصرفها فيما تملك إلا بإقرار زوجها ، ما لم تشتط في عقد الزواج أنها حرة في تصرفها المالي بعد الزواج<sup>(٥)</sup> .

(١) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٨ Mrs Ray strachey

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٦ Mrs Ray strachey

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرأة في العصور ٩٤

(٥) القانون المدني الفرنسي . بلانيول وروبير ص ٦٢٠ بند ١٨١٠ و ١٨١٩

## حرية المرأة العربية في التصرف المالى

ليس حق الملكية وحده دليلاً على علو مكانة المرأة ، فإن المرأة الرومانية كانت تملك ، ولكنها محرومة حق التصرف المالى ، وزوجها هو الوصى على مالها ، وله أن يقيم وصياً يخلفه بعد موته . كذلك كانت المرأة العبرية فى طور متأخر تملك بالميراث ، ولكن زوجها هو السيد والوصى ، وحتى النذر ، الذى كانت تنذره لاقيمة له مالم يؤيده زوجها .

أما المرأة العربية فقد استتمعت بالحقين معاً : التملك ، والتصرف . ويظهر أن الحضريات عامة كن أكثر أملاً كما وأعظم حرية فى تصرف شئونهن المالية .

ومن أمثلة هؤلاء السيدة خديجة بنت خويلد ، فقد كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم بشىء تجعله لهم <sup>(١)</sup> . وأسماء بنت مخزبة أم عبد الله بن أبى ربيعة كانت تتاجر فى العطور بالمدينة ، وكانت تجلبها من اليمن <sup>(٢)</sup> . وكانت تبيع عطرها إلى أجل مسمى <sup>(٣)</sup> . وملائكة والدة السائب بن الأقرع كانت تبيع العطر زمن النبى صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> . وكانت منشم عطارة يغمسون أيديهم فى طيبها ويتحالفون عليه أن يستميتوا فى الحرب ، أو كانت تبيع الحنوط أيضاً ، وسموا حنوطها عطرا ، لأنهم أرادوا به طيب الموتى <sup>(٥)</sup> . وقد حدثت قبيلة أم بنى أثمار أنها جاءت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المروة فى إحدى عمره فقالت : « يارسول الله إني امرأة أبيع وأشتري ، فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ، ثم

(١) أسد الغابة ١٦/١ وتاريخ الطبرى ١٩٦/٢

(٢) الإصابة ١٠/٨ والأغانى ٦٤/١ (٣) الطبقات الكبير ٢٢٠/٨

(٤) الإصابة ١٩١/٨ (٥) مجم الأمثال ٣٤٨/١

زدت ثم زدت حتى أخذها بالذى أريد أن أخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم تقصت ثم تقصت حتى أبيعها بالذى أريد أن أبيعها به . فقال لها الرسول : لا تفعلى هكذا يا قبيلة ، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعطى به الذى تريد أن تأخذه به ، أعطيت أو منعت ، وإذا أردت أن تبىع شيئاً فاستامى الذى تريد أن تبىعه به أعطيت أو منعت « (١) .

ومعلوم أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالى . وقد خولتها حرية التصرف المالى أن تخالف أباه وإخوتها ، فقد كانت غنيّة بنت عفيف أم حاتم من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تبقى على شىء تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فمكثت دهرًا ، ثم أعطوها قطعاً من إبائها ، فسألته امرأة محتاجة ، فأعطتها القطيع وقالت :

لعمري لقدما عضنى الجوع عضه      فأليت الأمانع الدهرَ جائعاً  
فقولاً لهذا اللأيمى اليوم أعطنى      فإن أنت لم تفعل فقص الأصابما  
فماذا عسىتم أن تقولوا لأختكم      سوى عدلكم أو عدل من كان مانعاً؟  
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة      فكيف بتركى يابن أم الطبايعا؟ (٢)

وكانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتبها الناس . فقال لها : يابنية إن الفويين إذا اجتمعوا فى المال أتلفاه ، فيما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى . فقالت : والله لا أمسك أبداً . وقال : وأنا والله لا أمسك أبداً . قالت : فلا تتجاوز ، فقاسمها ماله وتبائنا (٣) .

(١) الطبقات الكبير ٢٢٨/٨

(٢) الأغاني ٩٣/١٦ وذيلى الأماي ٢٣ (٣) ذيلى الأماي ٢٣ والأغاني ٩٤/١٦

وقد سبق في الخلع والمعضل ما يدل على حرمتها في التصرف المالى .

### المرأة العربية والميراث :

المؤرخون والمفسرون مطبقون جميعاً على أن المرأة كانت مسلووبة حق الميراث، لأن أهل الجاهلية لم يورثوا النساء ولا الصغار من الغلمان ، وقالوا : لا يرث إلا من طاعن بالرمح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة<sup>(١)</sup> . وقالوا إن العرب ظلوا على ذلك إلى أن مات أوس بن ثابت - وقيل أوس بن مالك ، وقيل ثابت بن قيس - وترك ابنتين وابناً صغيراً ، وزوجته أم حكة - أو بنت حكة أو أم حكة أو أم كلثوم - فجاء ابنا عمه فأخذا ميراثه كله ، ولم يتركا لامرأته وأولادها شيئاً ، لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً . فقالت امرأته لهما : تزوجا اليتيمتين - وكان بهما دمامة - فأبيا . فأتت رسول الله فأخبرته ، فدعاها ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً ، ولا ينكى عدواً . فقال : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن . فانصرفوا ، فأنزل الله الآية الكريمة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو أكثر نصيباً مفروضاً »<sup>(٢)</sup> .

ثم نزلت بعد ذلك : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عالماً »<sup>(٣)</sup> .

ثم نزلت : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . . . والله عليم حكيم »<sup>(٤)</sup> .

(١) تفسير الطبرى ٤/ ١٨٥ و ١٩١/٥ والكشاف ١/ ١٩٠

(٢) سورة النساء ٧ (٣) سورة النساء ١٢٧ (٤) سورة النساء ١٢

لكن ذلك في حابة الى منافسة ونمحيص :

١ — فلو أن حرمان المرأة من الميراث عرف عام في العرب ما شكت أم كحة للرسول أنها وأولادها قد حُرِمَ الميراث ، وإنما تدل هذه الشكاية على أن أولياء الميت كانوا عادة يعطون الزوجة والبنات بعض ماترك ، وهم في هذه الحادثة ضيقوا على الزوجة وأولادها ، واحتازوا التركة كلها ، فلم تجد بداً من أن تستنجد برسول الله ، فكان حكم القرآن فيصلا بين المرأة والرجل إلى اليوم .

٢ — ثم إنني أجد في الطبري نصاً آخر أستنتج منه أن الثروة كانت من نصيب الولد الأكبر وحده ، لأنه يقول : « فكانوا لا يعطون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر<sup>(١)</sup> »

وتمارضة هذا النص بسابقه أستنتج أن الذكور الكبار والمقاتلين كانوا يفضلون على الذكور الصغار ، وعلى الإناث في تقسيم الغنائم والأسلاب ، لأن عبء القتال ، وتبعية النار ، وحماية الحوزة كانت كلها على الرجال وحدهم دون الأطفال والنساء ، فحق لهم أن يستأثروا بالأسلاب ، لأنهم هم الذين غنموها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم في معامع القتال .

٣ — وإذا كان النظام العام ألا ترث المرأة ، فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بعضهن ثريات مشهورات الثروة كما سبق ؟

ومن أين حصلن على المال الذي كان يزين لبعض الرجال أن يفضلوهن حتى يفتردين أنفسهن ، أو حتى يتمن فيرث الرجال ما خلفن ؟

قد يقال إنهن حزن هذا المال عن هبة أو وصية أو عطاء ، وأنا لا أجد هذا ، ولكني أرى أن التي تنال مالاً بهبة أو وصية أو عطاء أجدر بأن تناله

أيضاً بالمشاركة في التركة على أى وجه من وجوه المشاركة .

والقرآن الكريم أوصى بالرعاية على اليتامى في مالهم ، وحظر أكله بالباطل ، وحبب إلى المسلمين نكاح اليتامى على أن يُعطين صدقتهن كاملاً : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حروباً كبيراً »<sup>(١)</sup> وفي آية ثانية : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »<sup>(٢)</sup> وفي آية ثالثة : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم »<sup>(٣)</sup> .

وقد أوصى النبي باليتامى أصحاب المال خيراً ، وحذر الأوصياء من العدوان على مالهم .

ومن المعقول أن يكون بعض هؤلاء قد ورثوا قبل مشرق الإسلام ، وأن يكون آخرون قد ورثوا في مشرق الإسلام ، لأن القرآن الكريم ينص على أن اليتامى كان لهم مال قبل أن تنزل الآية ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم . . ﴾ وذلك أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ، ويجعلون لليتيم الردىء والخسيس مكانه ، ففهم الله عن هذا التبديل ، ونهاهم عن خلط مال اليتامى بمالهم حتى لا يأكلوه . وقد تشدد بعض الأوصياء في حرزهم ، حتى كرهوا أن يخالطوا اليتامى ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾<sup>(٤)</sup> .

كذلك ينص القرآن الكريم على أن الإناث اليتامى كان لهن مال ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ والمراد كما قالت السيدة عائشة أن تكون اليتيمة منهن في حجر وليها ، فيرغب في مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأذى من صداقتها ، فنهوا أن

(٢) سورة النساء ٣

(١) سورة النساء ٢

(٤) تفسير الطبري ١٥٤/٤

(٣) سورة النساء ٦

ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق ، أو أن تكون اليتيمة ذات مال فلعل وليها ينكحها لمالها وهي لا تعجبه ، ثم يسيء صحبتها ، فنهوا عن هذا<sup>(١)</sup> .

٤ — وقد عثرت على نصوص فريدة تكشف الحجاب عن هذه الحقيقة :  
أن المرأة كانت ترث ، وهي نصوص كالشعاع الذي ينبعث من خلال السحب الكثيفة يعلن أن الشمس هاهنا ضوءها ، لكنه لم يذهب كله ، ولم تغرب الشمس .  
هي كالأثر الوحيد الذي بقي سليماً على عوادي الدهر وعوادي الناس في أكداس من آثار مهشمة ، وتقوش ممسوخة ، وألواح محطمة .

(١) يقول ابن حبيب : « ورث ذو الجاسد وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ماله لولده في الجاهلية ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فوافق حكم الإسلام »<sup>(٢)</sup> .

(ب) ويذكر ابن حزم الأندلسي أن عامر بن جشم أول من أعطى الذكر حظين والأنثى حظاً<sup>(٣)</sup> .

ولم يكفل البقاء لهذا الأثر أن عامرا ورث بناته ، وإنما كفل له البقاء أنه فرسى فرياً عجيباً اتفق مع ما شرع الإسلام فيما بعد ، ولولا هذا لضاع ما عمله عامر كما ضاع ما عمل غيره .

(ج) ووجدت الواقدي يذكر في قصة أم كحة أنها قالت للنبي عليه الصلاة والسلام : لقد مات بعلي فانتقل الميراث إلى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أئى للبنات أن يتزوجن إذا لم يكن لديهن مال؟<sup>(٤)</sup> .

فهذه الزوجة تشكو إلى النبي أن عم بناتها قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هي أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يقبل

(١) تفسير الطبري ١٥٥/٤ وسنن أبي داود ٢٥٥/١

(٢) لمخبر لابن حبيب ٢٣٦ (٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٠

(٤) المنازى ١٤٧



أحد على بناتها وهن لا مال لهن ، وتصرخ من استئثار الرجل بتركه أخيه .  
ومعنى هذا أنها كانت تتوقع كما يتوقع غيرها من هذا العم أن يترك لبنات أخيه  
نصيلاً من تركه أبيهن .

(د) ثم أجد نصاً رابعاً في الطبرى صريح الدلالة : « كان جابر بن عبد الله  
الأنصارى ثم السامى له ابنة عم عمياء ، وكانت دميمة ، وكانت قد ورثت عن  
أبيها مالا ، فكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا يفكحها ، رهبة أن يذهب  
الزوج بمالها ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان ناس في حجورهن  
جوار أيضاً مثل ذلك ، فجعل جابر يسأل النبي : أترث الجارية إذا كانت قبيحة  
عمياء ؟ فجعل النبي يقول : نعم »<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن هذه كانت ورثت في الجاهلية ، بدليل أن جابراً رغب عن  
أن يتزوجها ، وعضها . وفي سؤال جابر أترث الجارية القبيحة العمياء ؟ دليل  
على أن مبعث الاستنكار أو العجب أنها ماثورة لا أنها أنتى .  
(هـ) كذلك وجدت أن ضباعة بنت عامر بن قرط ورثت من زوجها  
هؤذة بن على الحنفى مالا كثيراً ورجعت به إلى قومها<sup>(٢)</sup> .

هـ — لست أشك إذاً في أن المرأة كانت ترث في كثير من الأحيان ،  
وأن بعض الناس كانوا يحرمونها حقها في التركة بغياً منهم وعدواناً .

ولكن لم تكن المرأة ذات حق معلوم مقرر كهذا الذى حدده القرآن  
الكريم ، وإنما كان العرب يسرون مع المرأة على نظام يشبه التخارج في  
الإسلام ، فيرضونها بمقدار من المال قل أو أكثر .

وليس في هذا الحرمان ما يفض من قدر المرأة ، لأن هؤلاء الذين حرموها  
كانوا يخارجونها على قدر من التركة رضاه .

(٢) أشعار النساء العرزياني ٢٥

(١) تفسير الطبرى ١٩٣/٥

ولو أن ختني أم حكمة خارجها هي وأولادها على شيء من تركة زوجها ما شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا غرابة في هذا ، فإن بعض المسلمين في مصر يفعلون مثل ذلك إلى الآن ، ولقد يخص الوالد بنيه الذكور بقسط من ثروته ، ويدع الباقي ليقسمه البنون أو البنات بعد وفاته . ولقد يكسر بعضهم ماله كله على الذكوران ويدع الإناث ، ويخصهن بنصيب ضئيل . فهل معنى ذلك أن هذا نظام عام في المسلمين ؟ أو أنه هو نظام الإسلام ؟ لا .

كذلك كان العرب يفعلون في توريث البنات ، كما كانوا يفعلون في الزواج ، أكثرهم لا ينكح امرأة الأب ، ولا يجمع بين الأختين ، وأقاربهم كان يفعل ذلك « وما زالت بعض الأسر الكبيرة في داخل سوريا ولبنان — وهم الإقطاعيون الذين يرغبون في أن يبقوا على نفوذهم وتراثهم — لا يورثون النساء ، لأن تقسيم الثروة وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، لذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث ، ويعوضونهن نقداً ، ويحتفظون بالأرض للذكور » (١) .

ومالنا لا نعود القهقري إلى عهد عمر رضى الله عنه ، لنجد غيلاً بن سامة الثقفي قد أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال له النبي : اختر منهن أربعاً . فلما كان في عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فباع ذلك عمر ، فقال له : إني لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك فقدفده في نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً . وأيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن في مالك ، أو لأورثهن منك ، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال (٢) .

(١) عائمة أم المؤمنين لزاهية قدورة ٣٦

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٣٩ وكنز العمال ٢٩٠/٨ أبو رغال : رجل من ثمود أو هو دليل الحبشة في سيرهم إلى مكة .

(٢٢ - المرأة في الشعر الجاهلي)

## ذِكْرُ مَوْلَى بَرْتُونِ :

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث أحياناً، عسفاً من إختوتها أو ولى المتوفى، فإن هذا الحرمان لا ينافي مسكاتها العالية التي أسلفتها في مواضع شتى ، لأن بعض الذكور كانوا يجرمون أيضاً ، وقد سبق أن الصغار كانوا لا يرثون .  
وقد مات أبوطرفة - وطرفة صغير - فأبى أعمامه أن يقسموا له ماله ، فقال :

ما تنظرون بمال وَرْدَةَ فيكم صغر البنون ورهط وردة غُيِّبُ  
قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظلل له الدماء تصدَّب (١)  
وكان الخطيئة ينسب إلى أوس بن مالك العبسى تارة ، وإلى الأفغم بن رباح الشيباني تارة ، وقد أتى أخويه من أوس يطلب منهما بعض المال ، فرفضاً ، فهجأهما ، ثم لحق بإخوته من بى الأفغم ومدحهم ، ومن مدحه قوله :  
قوى إذا انتسبوا فقرعهم فرعى وأثبت أصلهم أصلى  
وسألم ميراثه من الأفغم ، فأعطوه نخيلات لم تقنعه ، فسألم ميراثه ككلاً ، فلم يعطوه شيئاً ، ففضب عليهم ، وهجأهم ، وانسل من النسب إليهم ، وانتسب إلى أوس بن مالك (٢) .

ثم ان الزوج كان لا يرث زوجته أحياناً « لأن الحررة إذا ماتت آلت أملاكها إلى أولادها ، فإن لم يكن لها أولاد فإلى إختوتها وأقاربها من القبيلة . أما الرقيقة فإن زوجها كان يستولى على أملاكها ، فإن مات الزوج لم ترث منه الرقيقة شيئاً ، بل تسلم إلى بنيتها منه أو إلى ورثته » (٣) .

## إمْتِيازُ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمِيرَاثِ :

وإذا فقد تميزت المرأة العربية من نساء العالم القديم ، لأنهن كن محرومات

(١) خزائن الأدب ١٨٦/٢

(٢) خزائن الأدب ١٧٤/٢

من الميراث في قانون حمورابي والقوانين الأشورية . ولم يكن لمن إلا المهر يدفعه الأب لابنته ، فإذا مات قبل أن يمهرها منحها إختوها جزءاً من ربع ما خلف أبوه ، أما العين فإلهم وحدهم<sup>(١)</sup> .

وكانت المرأة العبرية لا ترث قديماً ، بل لقد كانت تورث كما يورث متاع الرجل ، ثم ورثت البنت أبها في عصر متأخر إذا لم يكن له أبناء ، فإذا خلف ذكراً حجبتها ، فلا ترث شيئاً<sup>(٢)</sup> ، وإذا ما ورثت فعليها أن تزوج رجلاً من أسرة أبيها من قبيلته ، ليرث كل من بنى إسرائيل نصيب آبائه ، ولا ينتقل ميراث قبيلة إلى أخرى<sup>(٣)</sup> ، وبذلك تنتقل أملاك المرأة إلى تصرف زوجها ، فسكانها لم ترث شيئاً . أما الزوجة فلا حق لها في ميراث زوجها ، بل ظلت تورث كما تورث تركته<sup>(٤)</sup> .

كذلك لم ترث المرأة اليونانية ، فإذا مات أبوها ورثته إختوها ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجت أكبر الوارثين الأقربين ، فهي ذات صلة بالتركة ، لكنها لا تنال منها شيئاً ، وولدها من هذا الزوج ينسب إلى جده لأمه ، وإليه ينتقل ما خلف هذا الجد<sup>(٥)</sup> .

ولم ترث المرأة الحبشية مخافة أن ينتقل الملك بالزواج إلى الأجانب ، إلا إذا فقد الورثة من الذكور إلى الدرجة السادسة . وكان مثل هذا القانون عند الفرنجة<sup>(٦)</sup> .

### الإسلام ونورث النساء :

كفل الإسلام للمرأة حقاً معلوماً ، ونصيباً مقررراً مقدراً مفروضاً في التركة ، فاستكملت المرأة حقوقها المالية .

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧١ (٢) النظم الاجتماعية ١٧٠

(٣) The Holy Bible Numbers 36. 8-9 وسفر العدد لإصحاح ٣٦ آية

٨٠ و ٩ (٤) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ (٥) المرأة في التاريخ والشرائح ٧٤

(٦) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٦٩

ولا شك أن نظام التوريث في الإسلام قد استوفى العدل والإنصاف والرحمة جميعاً ؛ لأنه فرض للمرأة نصف الرجل ، والرجل هو المكلف الإنفاق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده منها وإن كانت ذات مال ، وهو المكلف البنل في وجوه أخرى لا تكافئها المرأة . فالإسلام سخي في فرضه للأثني نصف الذكر « ويظهر من مقابلة الإسلام بالقوانين الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللاتي يزعم بعض الناس أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقاً في الميراث لا مثيل لها في قوانيننا (١) .

لهذا فإن ليفي Levy يجافى الحق في دعواه أن حق الملكية والميراث في الإسلام نظري لا عملي ، وأن البنات لا يرثن في كثير من القبائل (٢) . لأن حرمان المرأة ميراثها معصية لله لا يجرؤ عليها إلا شذاذ من الناس ، وهؤلاء الشذاذ كثيراً ما يقدرون للنساء نصيباً ، سواء أكان المقدر لهذا النصيب الأب قبل موته - إذ قسم أكثر أملاكه على الذكور ببيع صوري وترك بعضها ليقسمه الذكور والإناث بعد وفاته ، أم وزع أملاكه على الذكور جميعاً بنسب يراها - أم أن الذكور اتفقوا مع الإناث على أن يخرجن من التركة لقاء نصيب معين .

(١) حضارة العرب . جستاف لوبون ٤٧٤

An. Introduction to the sociology of Islam. by Levy. P.141 (٢)

## الباب الثاني

# المرأة في الحياة العامة

جُلوت صور المرأة في الحياة الأسرية في الباب الأول ، والآن أشرع أجلو صورها في الحياة العامة .

والبابان معا دراسة للمرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهما متصلان اتصالا يقرب من التداخل أحيانا ، لكن دواعى الفصل بينهما أقوى من دواعى الإدماج والوصل ، ذلك بأن المرأة أما وزوجة و بنتا وأختا وقريبة وذات حق في حيازة المال وامتلاكه ألصق بحياة الأسرة ، وأوثق صلة بنظامها ، من صلتها بحياة المجتمع ونظم القبائل ، فهى في هذا الباب عضوفى أسرة ، وإن لم يزاياها اشتراكها في المجتمع .

أما المرأة من حيث أخلاقها ومشاركتها في الحروب وأعمالها وصناعاتها وسفورها وحجابها ، فإنها أقوى وشيجة بالحياة العامة ، وبنظم المجتمع كله ، فهى هنا عضوفى جماعة ، أو فرد فى قبيلة ، وإن لم تنفك عنها سمتها الأسرية .

وإذا فقد كانت دراسة المرأة فى الباب الأول لإبراز مكاتبا وقيمتها فى الأسرة ، أما دراستها فى هذا الباب فهى لجلاء أعمالها ومكاتبا فى القبيلة وفى المجتمع كله .

## الفصل الأول

# أخلاق المرأة

### شجاعتها النفسية

سأحدث في فصل الحرب عن شجاعة المرأة العملية ، إذ قادت الجيش ، وأسهمت في الحرب ، والآن أتحدث عن شجاعتها النفسية وجراتها القلبية .  
وللمرأة في هذا المجال نصيب أى نصيب ، فهى لا تتطامن وإن كان الهلاك محققا ، ولا تنزل وإن رأت النكال محققا . فقد أقسم عمرو بن هند بعد يوم أواراة ليجرقن من بنى حنظلة مائة ، فأحرق ثمانية وتسعين . ثم أقبل وافد من البراجم فأتهم به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة فقالت لها : من أنت ؟ قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر . . . . . بن دارم . فقالت : إنى لأظنك أعجمية . فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتى العجم . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هوذة بن جزول . قال : أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك . فقال : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . فقالت : أما والذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافها حلى . قال : اقدفوها في النار . فالتفت ، فقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبصثوا عليها قالت : صارت الفتيان حُمَّما . فأحرق (١) .

وكانت تستطيع أن تنجو إذا ألانت القول ، وخضعت للملك الجبار الخائق

ولكنها كانت جريرة مغيلة ، فجهته بما لم يكن يتوقع .  
 ولقد يطبق قومها على خطأ فلا تحفل بإطباقهم ، ولا تسكتن بلومهم لها .  
 من ذلك أن يزيد بن عبد اللذان كان قد أسر عامر بن مالك ملاعب الأسنه  
 وأخاه عبيده بن مالك ، ثم أطلقهما ، فلما مات يزيد رثته أختهما زينب بنت  
 مالك وذكرت نعمته مرتين<sup>(١)</sup> . فلأمها قومها وعيروها أن بكنه ، فردت عليهم  
 بقولها :

ألا أيها الزارى علىّ باننى نزاريةً أبكى كريماً يمانيا  
 ومالى لا أبكى يزيدَ وردنى أجرٌ جديداً مدرعى وردائياً<sup>(٢)</sup>  
 ومن شجاعها أنه بعد فتح مكة بايع الرسول الرجال ثم النساء ، وفيهن هند  
 بنت عتبة متنعبة متكررة تخشى ما فعلت يوم أحد . فقال رسول الله : تبايعنى  
 على ألا تشركن بالله شيئاً . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لم تأخذ على  
 الرجال ، وسنؤتيكه . قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنت لأصيب من  
 مال أبى سفيان الهنة والهنة ، وما أدرى أكان ذلك حلالاً لى أم لا . فقال  
 رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما  
 سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين . قالت : يارسول الله هل تزنى الحره ؟  
 قال : ولا تقتان أولادكن . قالت : قد ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ،  
 فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب . . . . قال :  
 ولا تعصيننى فى معروف . قالت : ما جاسنا هذا الجاس ونحن نريد أن نصصيك  
 فى معروف<sup>(٣)</sup> .

وشجاعة هند تنجلى فى قولها : ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، ونى  
 قولها : إنك تأخذ علينا ما لم تأخذ على الرجال .

(٢) الأغاني ١٠/١٤٣

(١) الأغاني ١٠/١٤٣

(٣) تاريخ الطبرى ٣/١٢١، والمغازى ١٦، والطبقات الكبير ٨/١٧٢ .



وقد تزعمت أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية بنات جنسها ، وكانت نقيمتين إلى النبي ، تطالب بحقوق المرأة ، وتريد أن تساويها بالرجل في الثواب ، وأعلمته أنها سفيرة النساء إليه ، ودلت على مطلبها بما أعجب رسول الله ، ووفقت في سفارتها ، وعادت مرهوبة بما نالت لبنات جنسها من خير .

ذلك أنها قالت لرسول الله : إني رسولٌ من ورأى من جماعة النساء ، يقلن بقولي ، وعلى مثل رأئي . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فأمننا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدَّرات قواعد بيوت . . وحاملات أولادكم ، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفشاركمهم في الأجر يارسول الله ؟ فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يارسول الله . قال انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت . فانصرفت وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قاله لها رسول الله <sup>(١)</sup> .

ولم تطغ هيبه عمر بن الخطاب ورهيبته على شجاعة المرأة ، فتسكت عما ترى في قوله من مخالفة القرآن ، والاتقاص من حقوق النساء ، في حين سكت الرجال . ذلك أن عمر قال : أيها الناس ما هذه الصدقات التي قد مددتم إليها أيديكم ؟ لا يبلغني أن أحداً جاوز بصدقه صداق النبي صلى الله عليه وسلم . فقامت امرأة برزة فمالت : ما جعل الله لك ذلك يابن الخطاب ، وقد قال الله عز وجل : « وإن آتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر : ألا تعجبون ؟ أمير أخطأ وامرأة أصابت <sup>(٢)</sup> .

(١) الاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ١٤٩ مخطوط ونزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٩ وصحيح مسلم .  
(٢) الاستبصار في معرفة الأصحاب ١/٣٧٥ وبلغات النساء ١٢٨ .

## استمساكها بعقيدتها

إذا دان الإنسان بعقيدة وأشر بتها روحه فأخلص لها ، ثم ابتلى فيها فنافح عنها بنفسه ودمه وماله ، فهو عزيز النفس ، قوى الشخصية ، ذو رأى يخضع له ، وليس إمعة تديعاً . فهو يلاحى عن عقيدته حتى يتبين له بطلانها فينزعها من نفسه غير آسف عليها .

كان كثير من رجال الجاهلية على ذلك ، فماذا كان نصيب النساء ؟  
١ - صبرن على الأذى ، وفدين عقيدتهن بأنفسهن إذ اعتصمن بالشرك ، وناخن عنه .

ولست أشيد بهن إعجاباً بعقيدتهن ، أو إشاراً لمن ، بل أريد أنهن صاحبات عقيدة ناخن عنها ، لأنها في رأيهن الحق ، فلما استبان لمن ضالها ، وشرح الله صدورهن للإيمان سارعن إليه بقدر ما كن ينفرن منه ، وأخلصن له بقدر ما كن يبغضنه . وهن في هذا شبهات بعمر ، كان من أشد المشركين بغضة للإسلام وللنبي ، فلما هداه الله إلى الحق كان أحد رجلين رجا المسلمون أن يعز الله بهما الإسلام .

وهؤلاء المشركات كثير ، منهن العضاء بنت مروان من بنى أمية ، كانت تحت يزيد بن يزيد بن حصن الخطمي ، وكانت تؤذى النبي وتعيب الإسلام ، وتعرض على الرسول ، وتهجو المسالمين بشعرها ، كقولها :

فبأستِ بنى مالك والنبيت وعوف وباست بنى الخزرج  
أطعمم أناوى من غيركم فلا من مراد ولا مذحج  
ترجونه بعد قتل الرؤس كما يُرتجى مرق المنضج<sup>(١)</sup>

فآلى محمد بن عدى الخطمي أن يقتلها إذا رد الله الرسول من بدر إلى المدينة ، ووفى بنذره فقتلها ، وأشاد حسان بن ثابت بعمر .

ومنهن أم جميل بنت حرب بن أمية ، كانت زوجة لأبي لهب ، وقد

(١) المحر ٢٨٣ والمغازى ٣ و ١٧٢ الأناوى : الرجل الغريب .

أظهرت صنوف العداوة للنبي ، وأثارت عليه حقد زوجها ، فانضم إلى أخيها  
أبي سفيان في مناهضته للدعوة . وكانت كسابقتها تهجو النبي بشعرها كقولها :

مُدَّمَّمًا عَصَيْنَا وأمره أبِينَا  
ودينه قَلَيْنَا

وفيها وفي زوجها نزلت سورة المسد<sup>(١)</sup>

ولقد يسلم ابنها وزوجها ، وتأبى هي الإسلام ، فقد أسلم الطفيل بن عمرو  
الدوسى ، وعاد إلى قومه ، ودعا أبويه إلى الإسلام ، فأسلم أبوه ولم تسلم أمه<sup>(٢)</sup> .

ولقد تعير زوجها إسلامه ، وتؤنبه وتنتقصه جبهة ، تريد أن يثبت على  
الشرك ، وأن يبلى في مكائفة الإسلام ، فإن زوجة العباس بن مرداس  
بنت الضحاك بن أبي سفيان لما علمت بإسلام زوجها قوضت خيمتها ، وارتحلت ،  
وقالت تؤنبه وتهيجه بثنائها على المسلمين :

ألم ينه عباس بن مرداس أننى رأيت الورى مخصوصة بالفجائع  
أتاهم من الأنصار كل سَمِيدِع من القوم يحمى قومه فى الوقائع  
بكل شديد الموقع عَضِبِ يقوده إلى الموت هام المقربات البزائع  
لعمرى لئن تابعت دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائع  
لَبَدَلْتِ تلك النفس ذلا بعزة غداة اختلاف المرهفات القواطع  
وقوم هم الرأس المتقدم فى الوغى وأهل الحجا فينا وأهل الدسائع  
سيوفهم عزّ الدليل ، وخياهم سبام الأعداى فى الأمور الفظائع<sup>(٣)</sup>

(١) تفسير الطبرى ٢١٩/٣٠ وسيرة ابن هشام ٣٧٨/١ مذمما : قال ابن إسحاق كانت

قريش تسمى رسول الله مذمماً ثم يسبونه . وفى التاموس مادة ذم أن المذم المذوم جدا

(٢) الأغاني ٥١/١

(٣) الأغاني ٦٤/١٣ السميذع : السيد الكريم الشريف الشجاع . المقربات : جمع

مقربة وهى الفرس التى يكرمها صاحبها ويقربها . البزائع : جمع بزيع وهى الخفيفة وفى الأصل

برائع وهى جمع بريعة أى فائقة الجمال . الصنائع : جمع صنعة وهى الإحسان والكرم .

الدسائع : جمع دسيع وهى العطية الجزيلة والمائدة الكريمة والقوة .

وفي يوم فتح مكة رأى أبو سفيان جيش المسلمين ، وأيقن أنه لاطاقة لقريش .  
 به ، فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم  
 به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ( وكان قد سمع من النبي حين أسلم أن  
 من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل  
 المسجد الحرام فهو آمن ) فقامت إليه امرأته هند ، فأخذت بشاربه وقالت :  
 اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبِّح من طليعة قوم . فقال : ويحك لا تفرنكم  
 هذه من أنفسكم<sup>(١)</sup> . وفي رواية أنها قالت : اقتلوا هذا الخبيث الدنس الذي  
 لا خير فيه ، وفي أخرى أنها قالت : اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلاقاتكم ودافعتم عن  
 أنفسكم وبلادكم<sup>(٢)</sup> ، وفي رابعة أنها أخذت برأسه وقالت له : بس طليعة القوم  
 أنت ، والله ما حَدِثْتَ خدشاً ، يا أهل مكة عايكم الحميت الدسم فاقتلوه<sup>(٣)</sup> ،  
 وتذهب رواية خامسة إلى أنها أخذت بلحيته فاطمته وقالت : اقتلوا الشيخ الأحمق  
 فإنه قد صبا<sup>(٤)</sup> .

والروايات كلها توحى بمعنى واحد هو سخطها على زوجها ، وبرمها بإسلامه ،  
 وتعبيره الجبن والخور ، وتحميضها على قتله .

على أن نساء ثقيف قد حزننَّ أشدَّ الحزن لما هدم الطاغية المغيرةُ بنُ شعبة  
 وأبو سفيان بن حرب بأمر من النبي ، وخرجن حَمْرًا يبكين عليها ، ويقان  
 إنها كانت عظيمة تعبد وتدفع عنهن الشرور ، ويعبن قومهن بالضعف والؤم ،  
 لأنهم لم يحسنوا الدفاع عنها :

(١) سيرة ابن هشام ٢٣/٤ الحميت : وعاء السمن والزق الصغير والزق بلا شعر .  
 الأحمس : إما أنها تريد أنه من الحمس وهم قريش وأكنانه وجديلة ومن تابعهم لتحمسهم في دينهم ،  
 وفي هذا نطفيع لإسلامه ، ولما أنها تمك به ، لأن الأحمس الشجاع . وأرجح أن الكلمة محرفة  
 أصلها الأحمش بالسين وهو السمين لأن الحميش الشجم أو أن أصلها الأحمق بدليل الرواية الأخرى .

(٢) تهذيب السكامل ٦٣/١

(٣) لسان العيون ٩٤/٣

(٤) المغازي ٤١٣

ألا ابكين دُفَاعَ أسلمها الرضاعُ  
لم يُحَسِّنُوا المِصَاعَ<sup>(١)</sup>

ولما قبض رسول الله ذهب بنعیه إلى حضرموت رجل من كليب يقال له  
جَهَّيل بن سيف ، وكان بهاست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موته ،  
ففرحن وخضبن أيديهن بالحناء ، وضربن بالدفوف ، وخرج إليهن بغايا  
حضرموت ففعلن كفعالهن ، وكانت البغايا نيفاً وعشرين امرأة ، فكتب امرؤ  
القيس بن عابس الكندي إلى أبي بكر :

شمت البغايا يوم أعان جَهَّيلُ بنعيَّ أحمدِ النبي المهتدى

.....

اشف الغليل بقطعهن فإنها كالجر بين جوانحي لم تبرد  
وكتب إليه شداد بن مالك :

أبلغ أبا بكر إذا ما جثته أن البغايا رُمن كل مرام  
أظهرن من موت النبي شماتة وخضبن أيديهن بالعلم  
فأقطع - هُدَيْتَ أ كفين - بصارم كالبرق أومض في متون غمام  
فكتب أبو بكر إلى عامله على كندة أن يقطع أيديهن ، ففعل<sup>(٢)</sup> .

٢ - أسامت بعض النساء في مطلع الدعوة ، وكان منهن إماء ، ولكنهن  
صبرن وصابرن ، واحتملن صنوف الإيذاء والتعذيب ، وجهد ساداتهن في ردهن  
عن الإسلام فما استطاعوا . منهن أم عُبَيْس - أو عُنَيْس - ، وزِنيرة ، وقد  
أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر ، فزعمت قريش أنه ما أذهب بصرها إلا  
اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ،

(١) تاريخ الطبرى ١٤٢/٣ دُفَاع : شيء عظيم يدفع به مثله . الرضاع : اللثام . المصاع :

الضرب بالسيف

(٢) الحجر ١٨٤ - ١٨٨ والقاموس مادة جهيل .

فرد الله بصرها . ومنهن النهديّة وبنتها ، وقد مرّ بهما أبو بكر حين بعثتهما سيديهما بطحين لها وهي تقول : والله لأعتقكما أبداً . فراجعها أبو بكر ، فقالت أنت أفسدتهما فأعتقتهما ، فأعتقتهما ومنهن جارية بنى مؤمل التي كان يعذبها عمر ابن الخطاب لتترك الإسلام ، ويضربها حتى إذا ملّ ضربها قال : إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول كذلك فعل الله بك ، فأشترها أبو بكر فأعتقها . ومنهن أم عمار ابن ياسر ، كان بنو مخزوم يعذبونها برمضاء مكة إذا حميت الظهيرة فيمر بها — وبزوجها وابنها عمار — رسول الله فيقول : صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة . ولما ضاق بها بنو مخزوم قتلوها (١) .

وقد هاجرت بعض المسلمات مع أزواجهن إلى الحبشة ، وتركن الوطن والأهل حفاظا على عقيدتهن ، وفرارا بدينهن ، كرقية بنت الرسول ، وسهيلة بنت سهيل بن عمرو ، وأم سلمة بنت أمية ، وليلى بنت أبي حثمة ، وأسماء بنت عميس ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، وأمينة بنت خلف ، وغيرهن (٢) وقد آمنت أم كلثوم بنت عقبة وحدها دون قومها وهاجرت وحدها (٣) .

على أن المرأة التي أسامت لم تكف باستمساكها بدينها وصرها على الأذى ونزوحها عن الوطن ، بل لقد دافعت فيما بعد عن هذا الدين بيدها كما يدافع الرجال .

وبحسبنا من التنويه بحمايتها لعقيدتها وتمسكها بها أن فاطمة بنت الخطاب بكرت إلى الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد ، وكان أخوها عمر لم يسلم ، وكان ذا شكيمة وقسوة على المسلمين ، نخرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهو يعزم أن يقتل النبي ، لأنه في رأيه

(١) - سيرة ابن هشام ١/٣٤٠ - ٣٤٢

(٢) - سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ - ٣٥٣ ولإنسان العيون ١/٣١٩ .

(٣) الإصابة ٨/٢٧٥

صاني ، ، قد فرّق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فعلم في طريقه أن أخته فاطمة وختنه سعيدا قد أساما ، فرجع إليهما ، وكان عندهما خَبَاب بن الأرتّ يقرئهما صحيفة فيها سورة طه . فلما أحسوا به اختبأ خَبَاب في مخدع ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت نَحْذها ، فبطش عمر بسعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه ، فضر بها فشجّها ، فقالت له : قد أسامنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك . .

فلما رأى ما بأخته من الدم ندم ورق ، يطلب منها الصحيفة ، فقالت له : إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فقرأها وأسلم<sup>(١)</sup> .

أية شجاعة هذه ؟ لقد كان الرجال يرتعدون من عمر ، لأنه شديد التنكيل بمن أسلم ، وكان من المتوقع أن تكون أخته أشد فرقا منهم ، لأنها دانت بما يبغض ، وانحازت إلى ألدائه ، لكنها لم تهيب أخاها الجبار حين أسلمت ، ولم تفرع منه حين انكشف له إسلامها ، بل لقد جبهته بأنها أسلمت فليفعل بها ما يريد ، وجبهته بأنه مشرك لا يتسامى إلى أن يمس الصحيفة ، وكانت شجاعتها هذه نعمة وبركة ، لأن عمر أسلم حينئذ ، وأزر الإسلام بقوته وشخصيته وعبقريته .

### عزة نفسها

لم يُؤثر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع ، وإنما كانت كالرجل شمما وإباء ، واعتزازاً بالكرامة ، واعتداداً بالنفس .

ولقد يهبط الدهر بها من سماء الملك إلى ثرى الشعب ، وتتلفت حوالها فتجد الدولة غير الدولة ، والصولة غير الصولة ، لكنها تظل كما كانت عزيزة أبية

تَجِبُهُ الْوَالِي الْجَدِيدُ الظَّافِرُ بِمَا لَا يَتَوَقَّعُ . من ذلك أن خَرْقَاءَ <sup>(١)</sup> بنت النعمان ،  
 أو هند <sup>(٢)</sup> بنت النعمان ، أو الخَرْقَاءَ <sup>(٣)</sup> بنت النعمان لقيت سعد بن أبي وقاص  
 أمير القادسية بعد هزيمة الفرس وقتل رستم ، في حشد من قومها وجوارئها ، فقال  
 سعد : أيتسكن خرقاء ؟ قالت : هأنذه . قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، فما  
 تكرارك في سؤالك ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ،  
 كنا ملوك هذا المِصْرَ ، يُجَبِّي لَنَا خِرَاجَهُ ، وَيَطِيعُنَا أَهْلَهُ ، فَلَمَّا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَانْقَضَى ،  
 صَاحَ بِنَا صَاحُ الدَّهْرِ ، فَصَدَعَ عَصَانَا ، وَشَتَّتْ شِمْلَنَا ، وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يَا سَعْدُ  
 لَيْسَ يَأْتِي قَوْمًا بِمَسْرَةٍ إِلَّا وَيَعْقِبُهُمْ حَسْرَةٌ :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوَاقَةٌ لَيْسَ نَعْرِفُ  
 فَأَفَّ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلُّبُ تَارَاتِ بِنَا وَتُصَرِّفُ  
 فَأَكْرَمَهَا سَعْدٌ وَأَحْسَنُ جَائِزَتِهَا <sup>(٤)</sup> .

وفي رواية أخرى أن الذي لقيها خالد بن الوليد بعد فتح الخيرة ، فقال لها :  
 أسامى حتى أزوجك رجلاً شريفاً مسلماً . فقالت : أما الدين فلا رغبة لي فيه  
 غير دين آبائي ( النصرانية ) ، وأما التزويج فلو كانت في بقية لما رغبت فيه ،  
 فكيف وأنا عجوز هرمة أتربق المنية بين اليوم وغد ؟ فقال : هذا فرض علينا  
 أوصانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قالت : مالي حاجة غير هذا ، فإني  
 ساكنة في هذا الدير الذي بنيته ، الملاصق لهذه الأعظم البالية من أهلي ،  
 حتى ألحق بهم . فأمر لها بمعونة وكسوة . فقالت : أنا في غنى عنه ، ما طلعت  
 الشمس بين الخورنق والدير إلا على ما هو تحت حكمنا ، فما أمسى المساء

(١) مروج الذهب ١/٢٠٥ .

(٢) معجم البلدان ٤/١٨٣ والكامل ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩ والأغاني

١٣٦/١٤ .

(٣) نزهة الأبرار والأسماع ٣٥ .

(٤) مروج الذهب ١/٢٠٥ ونزهة الأبرار ٣٥ وخزانة الأدب ٣/١٨٢ .



حتى صرنا خولاً لغيرنا . وأنشدت البيتين السابقين<sup>(١)</sup> .  
 وروى أن المغيرة بن شعبة خطبها وهو وال على الكوفة ، وكانت مترهبة  
 في ديرها ، وكانت قد عميت ، فقالت : لو كنت جئتني لجمال أو مال لأجبتك ،  
 ولكنك أردت أن تتشرف بي في محافل العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان  
 ابن المنذر ، وإلا فأى خير في اجتماع أعور وعمياء<sup>(٢)</sup> ؟ .

وإذا كانت عزة النفس قد تجلت في ابنة الملك فإنها قد تجلت في كثيرات  
 من غير بنات الملوك ، من ذلك أن تغلى المرأة زوجها الذي لجمعها بضرة ، كما فعلت  
 زوجة زهير بن أبي سلمى<sup>(٣)</sup> ، وأن تنفر من السبي كما سبق في السباء ، وأن تشور  
 لعدوان زوجها على كرامة قومها كما فعلت أخت كليب مع زوجها لبيد بن  
 عنبسة<sup>(٤)</sup> .

ومن هؤلاء بنت السلامي ، فإن أباهما كان قد أخذ الشنفرى من بنى شَبَابَة  
 بعد أسره وكفله حتى صار كابنه ، فقال الشنفرى لبنت السلامي يوماً : يا أختي  
 اغسلي رأسى ، فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته<sup>(٥)</sup> .

ومنهن سلمى الكنانية ، فقد سبها عروة بن الورد ، فأعتقها وتزوجها ،  
 وعاشت معه بضع عشرة سنة ولدت له فيهن أولاداً ، ولكنها كانت ضيقة  
 الصدر بهذه الحياة ، لأنها أنفت أن تقول النساء إنها سبية ، وأنفت أن يتزوجها  
 عروة قسراً ، فاحتالت عليه ، حتى عادت إلى قومها ، واضطر إلى تطليقها ،  
 وتحسر في شعر<sup>(٦)</sup> .

(١) معجم البلدان ٤/ ١٨٣ .

(٢) الأغاني ١٤/ ١٣٦ والسكامل ١/ ٢٧٧ وتهذيب السكامل ٢/ ١١٩

(٣) ديوان زهير بشرح تعلب ٣٤٢ والأغاني ٩/ ١٥٠

(٤) كتاب بكر وتعلب ١٥ وأخبار المراقبة ١٩

(٥) الأغاني ٢١/ ٨٧

(٦) ديوان عروة ١١ والأغاني ٢/ ٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠

وكذلك فعلت امرأة تولت ، فلما فارقت حزن ونفت حزنه في شعر<sup>(١)</sup> .  
وقد ذكرت في السبايا أن فاطمة بنت الخرشب رمت نفسها من فوق جمل  
قيس من زهير فراراً بها من أن يسبها ، فيلحق بها وبأبنائها عار السباء<sup>(٢)</sup> .  
على أن عزة النفس تبدو في صنيع بهيئة بنت أوس الطائي ، فإنه لما تزوجها  
الحارث بن عوف ، أمر أبوها أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ، وأمر بيت  
فضرب لها ، وأزلها وزوجها فيه ، فلما مد الحارث يده إليها قالت له : مه ، أعمد أبي  
وإخوتي ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحل بها ، ثم أراد أن يمسه في الطريق  
فرفضت قائلة : أكما يفعل بالأمة الجليبية أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنجر  
الجُزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل مثلي<sup>(٣)</sup> .

## عفتها

١ — قامت الأخلاق العربية على دعائم ، منها الاعتزاز بالشرف ، والحرص  
على حسن الأحذوثة ، وسمعة الأسرة ، وصيانة المرأة ، فكان لا بد للرجال والنساء  
من العفة ، ومن التعفف ؛ لأن العدوان على العرض قد يجر ويلا ، ويشعل حرباً ،  
ولأن المجانة ليست من سمات السادة .  
لذلك أكثر الرجال من الفخر بعفتهم وبصياتهم حرمة جيرانهم<sup>(٤)</sup> ،  
وكثيراً ما مدحوا ورثوا بالعفة<sup>(٥)</sup> .

(٢) الأغاني ١٦/٢١

(١) الأغاني ١٩/١٥٩

(٣) الأغاني ٩/١٤٣

(٤) الأغاني ٣/٩٧ وديوان حاتم ٣ و ١٧ وديوان أوس بن حجر ٢٤ وديوان قيس  
ابن الخطيم ٥ و ١١ و ٢٩ وديوان عنزة ١٨٥ ومجالس ثعلب ١/٢٥٣ وشعراء النصرانية  
١٢٢ و ٦٤٨ .

(٥) ديوان الحنساء ٦٨ و ٧٠ و ٨٢ و بلاغات النساء ١٦٨ . وديوان الحرنق ٩  
مخطوط ومرآة شواعر العرب ١٤٧

والعرب غير على النساء إلى حد المغالاة ، وهم يبيحون للرجل أن يذكر أى شىء إلا النساء ، وفي أمثالهم : كل شىء مَهَبَةٌ ما خلا النساء وذكرهن (١) .

لذلك لما نزل الحطيئة بنى مقلد بن يربوع وسأله عما يرضى وعما لا يرضى ، جاء فى قوله : «ولا تجعلوا فناء بيتى مجاساً لكم ، ولا تسمعوا بناتى غناء شبابكم» (٢) .

ولذلك افتخروا بحماية زوجاتهم من العيَّار ، كقول أحدهم فى أمته أو فى امرأته :

كَمَيْتُ عَنِ الْعَيَّارِ أَطْبَارِ أُمِّهِ      وَبَعْضَ الرِّجَالِ الْمَدَّعِينَ غُنَاءَ (٣)

وهدد الأصبغ بن محصن مالك بن الصمصامة بالقتل إن عرض لأخته ، وبالأسر وجزَّ الناصية إن تغزل فيها ، فقال مالك :

فَمَا الْحَلْقُ بَعْدَ الْأَسْرِ شَرٌّ بِقِيَّةٍ      مِنْ الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ وَهِيَ قَرِيبٌ

(٤)

وهمَّ عبد الله بن المضر حتى أن يقتل ابن عمه لما رآه واقفاً يحدث أخته ، وكان قد أنذره من قبل (٥) .

٢ — فى هذا المجتمع الذى يقدر العفة ، فيعف فيه الناس أو يتعففون ، ولا يجاهرون بالفحشاء إلا قلة من الشعراء جاهروا بفحشهم كما سبق ، فى هذا المجتمع كانت عفة المرأة أعظم حلالها ، وأنخر خلالها ، وكانت المرأة العفيفة المنعمة هى المثل الأعلى فى نظر الرجال ، لأنهم كانوا يدينون بما قاله على بن أبى طالب من بعد : « خيارُ خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال

(١) أمثال الميدانى ٧٠/٢ وجمهرة الأمثال ١٣٠/٢ مه : يسير محتمل

(٢) الأغاني ١٧٩/٢

(٣) شرح التبريزى للحامسة ١٤٣/١ غناء : ساقطون لاقية لهم

(٤) الأغاني ١٥٩/٢٠

(٥) الأغاني ٨٣/١٩

بعلها ، وإذا كانت جبانة فَرِقت من كل شيء يعرض لها» (١) .

ومن قديم قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هي الفراهة والجمال ، ومزاياها النفسية هي العفة والعمل في غير ابتذال ، وأن الأمم التي لاتعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة التي فقدها اللاسيديميون . Les. L'acédemoniens . (٢)

وقد صرح سُئيكُ بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التي تجود بوصليها ، ويعلق بالمنعة التي لاتأتى ربية :

يَعَافُ وَصَالَ ذَاتَ الْبَذْلِ قَلْبِي وَأَتَمَّعَ الْمُمَنَّعَةَ النَّوَارَا (٣)  
٣ — وللعفة مظاهر شتى ، فقد تكون في أن تخالط المرأة الرجال وتحدثهم ، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول ، يقول في ذلك سويد بن أبي كاهل :

تُسْمَعُ الْخُدَّاتُ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَمَعَ (٤)  
ويقول كعب بن الرُّوَاع :

وَيَخَالُهَا الْمَرْحُ السَّفِيهُ تَحْبَهُ وَنَوَالُهَا غَيْرَ الْحَدِيثِ بَعِيدِ (٥)  
وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجروُ أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته ، وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبدة :

مُنْعَمَةٌ مَا يَسْتَطَاعُ كِلَامُهَا عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تَرَارَ رَقِيبِ  
إذا غاب عنها البعل لم تُفْشِ سره وَتُرْضَى إِيَابَ الْبَعْلِ حِينَ يَثُوبِ (٦)

لذلك احترق الشعراء الغزلون بوهج الحرمان ، وطلما عبروا عن حرمانهم بشعر حزين ناطق بالآنين .

(١) شرح نهج البلاغة ٤/٣٤٦ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٠١ إبراهيم سلامة .

(٣) الأغاني ٤/٣٦٤ (٤) المفضليات ١/١٩٠ .

(٥) المؤتلف والمختلف للأمدى ١٢٧ (٦) المفضليات ٢/١٩١ وديوان علقمة ٣ .

ولقد يفتخر الزوج بعفة زوجته ، كقول معن بن أوس :

لعمرك ما عرسي بدارٍ مَضِيعةٍ وما بعابها إن غاب عنها بخائف<sup>(١)</sup>

ولقد تفتخر هي بعفتها ، فقد قالت الخنساء لبنيها : « والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أبأكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم »<sup>(٢)</sup> .

وقد شاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته ، لأنه يقاسم أخته ماله ، ويعطيها خير النصفين :

والله لا أمنحها شرارها وهي حصانٌ قد كفتني عارها<sup>(٣)</sup>

وهم يعجبون بالمرأة الطيبة السمجة التي لا تتناولها الألسن ، يقول الشنفرى :

فيا جارتى وأنت غير مُلِمةٍ إذا ذُكِرَتْ ولا بذات تَلُفت

أُميمةٌ لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفتٌ وجلت

إذا هو أمسى أب قرّة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت

تَحُلُّ - بمنجاةٍ من اللوم - ببيتها إذا ما بيوتٌ بالملامة حلت<sup>(٤)</sup>

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة ، منها أن سهيل بن مالك نزل ضيفا على أخت حارثة بن لأم - لأنه قصده فلم يجده - فأكرمه ، وراها جميلة ، فوقع في نفسه منها شيء ، فجلس بفناء الخباء يوماً وجعل ينشد :

يا أخت خير البدر والحضاره كيف ترين في فتى فزاره ؟

أصبح يهوى حرّة معطاره إياك أعنى واسمعى يا جاره .

(١) ديوان معن ٣٥ .

(٢) طهارة العرب ١٥ .

(٣) الإصابة ٦٧/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والخصائص والأضداد ١٤٣ .

(٤) الألفاظ ٩١/٢١ والمفضليات ٦/١ تحل بيتها : تنزله .

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنيتها ، فقالت : ما يقول هذا ذو عقل أريب ، ولا رأى مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما أمتت مكرماً ، ثم ارتحل متى شئت مساماً<sup>(١)</sup> .

بل لقد بلغت العفة بها أن تبغض من يسيء الظن بها وإن كان زوجها ، فقد شك الفاكه بن المغيرة في زوجته هند بنت عتبة - وكانت بريئة - وقضى الكاهن ببراءتها ، فأرادها الفاكه على أن تعود إليه فرفضته ، وتزوجها أبو سفيان<sup>(٢)</sup> .

وهي تأنف من الزنا وتجهر بذلك أمام الرسول ، بل تجد في المباشرة المشروعة شيئاً ، فكيف بالحرمة ؟ ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تلا على النساء اللاتي بايعته : « ولا تزنين » قالت هند : وهل تزني الحرة ؟<sup>(٣)</sup> . وفي رواية أنها قالت : ما أقبحه حلالاً فكيف به حراماً ؟<sup>(٤)</sup> .

٤ - ولست أريد بهذا القول أن أزعم للمرأة العربية طهارة الملائكة ، ونقاوة القديسات ، لأن المرأة كالرجل بشر يعتريه الشر ، وتسيطر عليه الغريزة ، فلا بد أن تجافي بعض النساء العفة ، فيعلم خبر بعضهن ، ويخفي خبر الأخريات ، ولكن المكشوفات والمستورات جميعاً قلة ضئيلة في المجتمع العربي القائم على الغيرة وحماية العرض والضمن بالمرأة عن سوء الظن .

من هؤلاء فاقرة زوجة مروة الأسدي ، فقد غاب عنها أعواماً ، فهويت عبداً لها كان يرعى ماشيتها ، وترددت طويلاً ، ثم لانت له . لكنها ندمت فيما يزعمون فقالت : « خيرٌ قليل وفضحتُ نفسي » . وأقبل زوجها فعلم ، فشبهت شبهة أماتها . فقال مرة :

لحا الله ربُّ الناس فاقِرٌ مَيِّتَةٌ وأهونُ بها مفقودَةٌ حين تُفقدُ

(١) بجم الأمثال الميداني ٤٣/١ (٢) المستطرف ٧٣/٢ وشرح نهج البلاغة ١١٢/١  
(٣) الإصابة ٢٠٥/٨ والطبقات الكبير ٤/٨ (٤) ضهارة العرب ١٢ .

لعمرك ما تقتنادنى منك لوعة ولا أنا من وجدٍ عليك مُسَهِّدٌ  
ثم قتل العبد<sup>(١)</sup> .

ومنهن رقاش الطائية ، كانت زعيمة في قومها تغزو بهم ، وكانت كاهنة لها  
حزم ورأى ، زعموا أنها حملت من خادمها — وكان أسيراً جميلاً من إباد —  
فدعاها قومها للغزو فأمرتهم حتى تضع ، فلما وضعت قال شاعرهم :

فُتِبْتُ أَنْ رِقَاشَ بَعْدَ شِمَاسِهَا حَبِلْتُ وَقَدْ وُلِدْتُ غَلاماً أَكْحلَا  
فَاللهُ يُحْظِيها وَيُرفِعُ بُضْعَها وَاللهُ يُلقِها كِشافاً مُقْبِلاً  
كانت رقاش تقود جيشاً جحفاً فصَبَّتْ وَأَحْرَبَتْ بِمَنْ صَبَأَ أَنْ يَحْمِلَ<sup>(٢)</sup>

٤ — قصة الفطيرة :

أما اسم هذا الرجل فمختلف فيه ، أهو الفَطِيون<sup>(٣)</sup> أم الفَيْطون<sup>(٤)</sup> ، أم  
القَيْطون<sup>(٥)</sup> ، أم القَيْطور<sup>(٦)</sup> .

والراجح أن أى كلمة من هذه ليست عاملاً عليه ، لأن الكلمة إن كان  
يهودياً تدل على من رأس اليهود وولى أمرهم ، كما أن النجاشى تدل على من  
ملك الحبشة<sup>(٧)</sup> .

وأما القصة فملخصها أنه كان ملكاً على يهود المدينة ، وكان يفتنُّ العرائس  
قبل أزواجهن ، سواء أكن عبريات أم عربيات ، فلما تقوى الأوس والخزرج  
وترعمهم مالك بن العجلان ، وتزوجت أخته فضلاء أنفت أن يفعل بها ما يفعل  
بغيرها ، واستشارت أخاها ، فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على

(١) مجمع الأمثال العبدانى ٢٢/١

(٢) الروض الأنف ٢٤/٢ ومجمع البلدان ٤٢٨/٧ والحاسن والأضداد ٢١٦ .

(٣) مجمع البلدان ٤٢٩/٧ ومجمع مااستعجم ٣٧١/٢ وخلاصة الوفا بأخبار دارالمصطفى ٨٤ .

(٤) خلاصة الوفا ٨٣ والأخبار الطوال للدينورى ٤٣ . والبده والتاريخ للمقدسى .

(٥) خلاصة الوفا ٧٩ .

(٦) الروض الأنف ٢٤/٢ .

القطييون فقتله<sup>(١)</sup> .

وفي رواية أخرى أن القيطون ابن عم أسعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك ابن صُيُح ، وكان ملكاً على تهامة والحجاز من قبل ابن عمه أسعد ، ثم نزل يثرب واعتدى وتجبّر ، حتى أمر ألا تهدي امرأة إلى زوجها قبل أن يبدؤه بها ، إلى أن زوجت أخت مالك بن العجلان فقتله مالك ، وعلم أسعد بن عمرو بذلك ، فسار إليهم وانتقم منهم<sup>(٢)</sup> .

وقد رووا قصة أقدم من هذه وشبيهة بها ، نسبوها إلى عمليق - أو عمُلوَق - ملك طسم وجديس ، وقالوا إنه بلغ من طفيلانه ألا تزف امرأة من جديس قبل أن يبدأ بها ، ثم قتله رجل من جديس ، بعد أن هاجته أخته المعتدى عليهما ، واستنجدت جديس بملك اليمن أو ملك نجران - ذو جيشان أو ذو حسان أو حسان - فانتقم من جديس<sup>(٣)</sup> .

وهذه القصة وتلك تغايران ما كان العرب يأخذون أنفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وشراء العرض بالمهيج والأرواح . فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملوك ونجوره بيناتهم حيناً من الدهر ، حتى يقبض الله لهم رجلاً منهم يتنكر ليفتال الملك العاهر .

وإن كان القيطون يهودياً فليس ميسوراً له أن يستبيح هذا العمل البشع المنافي لدينه ، دون أن يجد حرداً ومقاومة عنيفة من شعبه ورجال دينه ، على أن اليهود

(١) خلاصة الوفا ٧٩ - ٨٠ و ٨٢ - ٨٤ ومعجم البلدان ٧/٢٨٢٨ والروض الأنف ٢٤/٢ والبدء والتاريخ للعقدي .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ٤٣ .

(٣) مروج الذهب ١/٢٤٣ والأخبار الطوال ١٧ والمعارف ٢١١ وأخبار النساء ١٦ والأغانى ١٠/٤٥ - ٤٧ ومعجم البلدان ٨/٥١٦ وخزانه الأدب ٢/٨٩ والخاسن والأضداد ٢١٤ وتاريخ حضرموت السياسي ٣٦ ومنتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم للشوان الخميري ١٧ .



بالمدينة لم يكن عليهم ملك في أى عهد من عهودهم .

وبين القصتين تشابه أو تماثل تام ، فكل من الرجلين طاغية ، وكل منهما يفتزع العرائس قبل أزواجهن ، والناس يسكتون على هذا الجبروت ردحا من الزمان ، ثم تستثير أخت أخاها في القصتين ، فيقتل الملك الظالم ، وبعد مقتله يستنجد الأقربون إليه بملك آخر . وهذا التماثل التام يحمل على استبعاد القصتين كليهما ، بهذا التفصيل .

على أن أوروبا كانت تخضع لمثل هذا النظام في عهد الإقطاع ، فكان للسيد في أوائل هذا العهد حق الليلية الأولى ، وذلك أنه يجوز له أن يقض بكارة العروس قبل أن يباشرها زوجها ، وربما كان السيد يمثل في ذلك حقوق القبيلة القديمة (١) .

وذكر المستشرق جورج سيل أن مثل هذا كان شائعاً في بعض مقاطعات إنجلترا وأسكتلندا في القرنين العاشر والحادى عشر بعد الميلاد (٢) . وكان الليبيون يقدمون العذارى وهن على أهبة الزفاف إلى الملك ، فمن أعجبته افتضاها (٣) .

## حيائها

حياء المرأة وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، والحياء يقناول مالا تقناول العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ، لكنها تبدى بعض محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، وتخضع في القول ، ولكنها الحية لا تفعل ذلك وقد اتهم شو بنهور المرأة بأنها أقل حياء من الرجل ، لأنها لا تعرف الحياء بمعزل من غريزة الاحتجاز الجنسي ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحي النساء ، فيستترون في الحمامات العامة ، ولكنها المرأة لا تستتر على المرأة إلا لعيب

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ١ / ٦٨

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٥٧ (٣) دائرة المعارف للبياتى ٩ / ٣٣٧

جسدى تواريه<sup>(١)</sup>. لكن ذلك موضوع نظر، لأن المرأة تستحى حيث لا احتجاز، ولأن بعض النساء لا يستحى من بعض، كما أن بعض الرجال لا يستحى بعضهم من بعض، ولكن النساء يستحين من الرجال. وحياء المرأة من مكالاتها الخلقية فى نظر الرجل، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها، وقد أعجب به العرب، لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المستكاملة لصفات الأنوثة. قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسّم:

نواعم ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوالف<sup>(٢)</sup>  
وقال حاتم:

يضىء لها البيت الظليل خصاصه إذا هى يوماً حاولت أن تبسما<sup>(٣)</sup>  
وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مقنعة لا تتأفت، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شىء ضائع، وإذا كملت رجلاً أوجزت:

لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تأفقت  
كأن لها فى الأرض نسيماً تقصه على أمها وإن تكلمك تبثت<sup>(٤)</sup>  
وقال عنتره إنهما غضيفة الطرف<sup>(٥)</sup>، ومدحها الأعشى بأنها لا تتجسس على أخبار جاراتها، ولا تختل أسرارهن<sup>(٦)</sup>.

ولقد شهد أعداء القوم بعفة نساءهم، فقد سبى زهير بن جناب نساء من غطفان، ثم رد إليهم السبايا، وقال من قصيدة:

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأحرزت النساء  
فولاً الفضل منا ما رجعتن إلى عذراء شيمتها الحياء<sup>(٧)</sup>

(٢) ديوان أوس بن حجر ١٤

(١) هذه الشجرة ١٢١ العقاد

(٣) الأغاني ١٥ / ١٥٩

(٤) الأغاني ٢١ / ٩١ والمفضليات ١ / ١٠٧ ومحاضرات الأدباء ٢ / ١٣٦ النسبى:

الشىء المنقود. تقصه: تبحث عنه. أمها: قصدها الذى تريده. تبثت: تنقطع كلامها لانطباعه

(٥) ديوان عنتره ١٤٣ (٦) شعراء النصرانية ٣٦٧

(٧) السكامل لابن الأنير ١ / ١٧٩

## كرمه

اشتهر العربي بكرمه وبشجاعته ، وكان الكرم والشجاعة معاً الفصيلتين ،  
الكبريين في الحياة البدوية ، وكانت المرأة كريمة وإن لم تبلغ الرجل في كرمه .  
فمثلاً كانت غنّية بنت عفيف أم حاتم الطائي من أسخى النساء ، وأقراهن للضيف ،  
وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها  
مالها ، فكشّت دهرأً لا تنال يدها شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها  
قد وجدت ألم الحاجة وارעות ، أعطوها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من  
هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصرمة نخذيها ،  
فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ، ثم  
أنشأت تقول :

لعمري لقد عَضَّي الجوع عضة      فأليت ألا أمنع الدهر جائعاً  
فقولاً لهذا اللأيمى اليوم أعفنى      فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابع  
فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم      سوى عدلكم أو عدل من كان صانعاً  
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة      فكيف بتركي يابن أم الطبايعاً<sup>(١)</sup>؟

وكانت سقانة بنت ابنها حاتم كجدها وكأبيها في الجود ، وكان أبوها يعطيها  
الصرمة من الإبل فتبها الناس ، فقال لها أبوها ، يابنية إن الغويين إذا اجتمعوا في  
المال أتلغاه ، فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله  
لا أمسك أبداً . فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً . قالت : فلا تتجاوز . فقاسمها  
ماله وتباينا<sup>(٢)</sup> .

وكانت تُبَيِّنُ من شاعرات العرب وكرمأهبن ، وكان زوجها كريماً لم ،

يوجد أكرم منه في زمانه ، وقد أتاه أخو امرأته يوماً فأعطاه بغيراً من إبله ،  
وقال لامرأته : هاتي حبلاً ، فقالت : ما بقي عندي حبلى ، فقال : على الجمال  
وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت : اجعله حبلاً لبعضها وأنشدت :

حلفت يمينا يابن قُحَفَانٍ بالذى      تَكْفَلُ بالأرزاقِ فى السهْلِ والجبلِ  
تزالُ حِبَالٌ مُحْصَدَاتٌ أُعِدُّهَا      لها مامشى منها على خفه جملِ  
فأعط ولا تبخلْ لمن جاء طالباً      فعندى لها خُطْمٌ وقد زالت العللُ<sup>(١)</sup>

وقد نزل ببعضين ضيقان فأكرم منهم ، مثل أخت حارثة بن لأم<sup>(٢)</sup> ، وشذرة  
أم الزبرقان بن بدر ، فقد أكرمت الحطيئة وأولاده ، وقيل إن التى أكرمتها  
هنيدة بنت صعصعة زوجة الزبرقان<sup>(٣)</sup> .

لكن الأنباء عن كرمها قليلة ، لأنها أقصر باعاً من الرجال فى هذا المجال ،  
ذلك بأن مالها أقل ، وهى فى أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب ،  
ثم إنها ليست مختلطة بالرجال اختلاطاً يبعثها على الكرم ويمهد أمامها الطريق  
إلى الشهرة به .

## بجملها

١ - أسلفت المقال فى أن المرأة كانت ضئيفة بمال زوجها ، حريصة على  
مال ابنها وأخيها ، وأنها طالما لامتهم فى الكرم ، وطالما لامتهم فى الخمر والميسر  
وإيثار الخيل بالعناية ، لذلك يقول زهير فى مدح حصن بن حذيفة بن بدر :  
بكرتُ عليه غَدوة فوجدته      قعوداً لديه بالصَّريمِ عواذله  
يُفَدِّينُه طُوراً وطوراً      ياهنسه وأعيافاً يدرين أين مخاتله

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٦٧/٤ خضم : جمع خظام ما يوضع فى أنف الجمل

(٢) الأغاني ١٨٠/٣

(٣) بجم الأمثال ٤٣/١

فَأَعْرَضْنَ مِنْهُ عَنِ كَرِيمٍ مُرَّرًا جُمُوعٌ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ<sup>(١)</sup>  
وقد عاتبت سلمى بنت الأسود بن يَعْقُرَ أباها على إخضاعته ماله فيما ينوب  
قومه من ديات ، وما يمنحه فقراءهم ويعين به مستمنحهم ، فقال لها :

وقالت لا أراك تُلِيقُ شَيْئًا أَتُهْلِكُ مَا جِئْتَ وَتَسْتَفِيدُ؟<sup>(٢)</sup>

٢ - وقد تحدث الشعراء عن لوم الزوجات والأمهات والبنات والأخوات  
في البذل ، وأكثروا من هذا الحديث كما سبق في فصول الأم والزوجة والبنات  
والأخت . ولا شك أنهم صادقون فيما حدثوا ، وإلا فكيف يفترى إنسان على  
أمه وبنته وزوجته وأخته فيصمها بالبخل ، وهو يعلم أن في هذا منقصة له ؟

وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامته على الكرم ، وأنه خالفها ،  
ايتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم كرمه والفخر بنفسه ، لأن هذا التخيل نفسه  
منقصة له . إذاً كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما  
كان هذا منهن حرصاً على مال الرجال ، وربما كان بخلاً .

ومهما يكن من شيء فإن النساء كن أقل من الرجال كرمًا ، وكن أحرص  
على المال منهم ، ولعل أسباب ذلك أنهن أحفل بالثروة ، وتنميتها ، وأنهن  
لا يخالطن الناس كما يخالط الرجال ، فلا يخفان بأحاديث الكرم كما يخفون ، ثم  
لأنهن أحسن تدبيراً للمال من الرجال ، وهن ربات البيوت يباشرن حاجتها ،  
ويعدن طعامها ، ويفسكن في غدها ، ثم إنهن أميل إلى الجانب العملي ،  
فلا يخفان بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ، بينما قد يغفل الرجل عن غده  
وهو في نشوة الثناء وأريحية العطاء ، وأخيراً هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنهين ،  
والرجال كثيراً ما يؤثرون غيرهم على أنفسهم .

(١) شرح ديوان زهير لثعلب ١٤٠ وشعراء النصرانية ٥٧٩

(٢) الأغانى ١١/١٣٣

فليس بعجيب أن يكنَّ أحرص من الرجال على المال ، وأن يدبرن للأبناء طعامهم ، ويقتصدن فيما يقدمن لهم إلى حد الإقلال أحياناً ، يقول الشنفرى :  
 وأمَّ عيالٍ قد شهدتُ تقوُّسُهُمْ إذا أطعمتهم أو تحَّتْ وأفلَّتْ  
 تخاف عايننا العيَلِ إن هي أكَثرتُ ونحنُ جياغِ أَى آلٍ تألَّتْ  
 وما إنْ بها ضنُّ بما فى وعائِها ولكنهما من خيفة الجوع أبقت (١)

### بين أخذل فرها فى الإسلام وفى الجاهلية :

١ — ذاعت شجاعة كثيرات من المسلمات ، كم أنخيز بنت الخريش البارقية ، فقد حرّضت جند على يوم مقتل عمّار بن ياسر على معاوية ، ولما آلت الخلافة إليه بعث إليها ، وذكرها خطبتها الحماسية الثائرة ، وقال لها : والله لو قتلتك ما حرّجت فى ذلك . فقالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى الله بشقائه (٢) .

ومثابا سودة بنت عمار ، حرّضت المساميين يوم صفين على قتال معاوية بأبيات منها :

شمّر كفعل أيبك يابن عمار وأقصد لهند وابنها بهوان  
 ثم وفدت على معاوية فى خلافته فذكرها ما قالت ، فقالت : إى والله ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب . . . . . (٣) .

وكذلك فعلت الزرقاء بنت عدى الحمدانية فى يوم صفين ، وقال لها معاوية لما أوفدت عليه : قد أشار على بعض من عرفك بقتلك ، فقالت له : لؤم من

(١) المدخلات ١ / ١٠٨ أو تحت : أعطت قليلا العيل والعميلة : الفجر . أى آل تألت : أى سياسة ساست .

(٢) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ١ / ٢١٧

(٣) العقد الفريد ١ / ٢١١ وبلاغات النساء ٣٥ .

الشير ، ولو أطعته لشاركته<sup>(١)</sup> .

ومثلهن آمنة بنت الشريد ، ولها مع معاوية حوار طويل يدل على الجرأة والاعتزاز<sup>(٢)</sup> .

٢ — ومن الأمثلة العالسة في الاستمساك بالعقيدة والدفاع عن الرأى وفي الشجاعة العظمى أسماء بنت أبى بكر ، فقد دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير بعد ماخذله الناس ، فشكا إليها ، واستشارها فقالت : « إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تقل إنى كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى ، فليس هذا فعل الأحرار ، والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل » . قال : إتماأخاف أن يمشوا بى . قالت : يا بنى إن الشاة لا تألّم السلخ بعد الذبح<sup>(٣)</sup> .

٣ — وذاع كرم كثيرات من المسلمات ، وإذا كان كرم الجاهلية يراد به أحياناً حسن الأحذوثة ، والتباهى ، وتجنب اللوم ، فإن كرم المسلمات كان ابتغاء وجه الله ، وكان عطفاً على المحتاجين . فقد حدّث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة ، فأخذن يزعن الفتح وخواتيم وأنخُرسَ والسَّخاب والمِرطَطة والعقود والأطواق والخلائيل ويلقنهن فى ثوب بلال ، وكان قد بسط ثوبه ليضعن فيه صدقاتهن<sup>(٤)</sup> .

وكذلك فعلت النساء لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ إِنِ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدَّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

(١) العقد الفريد ١ / ٢١٣ و بلاغات النساء ٣٧

(٢) أعلام النساء ١ / ٤ - ٦ .

(٣) بلاغات النساء ١٣٠ - ١٣١ وتاريخ الطبرى ٧ / ٢٠٣

(٤) فتح البارى ١٠ / ٢٧٨ الفتح : جم فتحة الحاتم الكبير فى اليد أو الرجل أو الحلقة من فضة كالحاتم لا فص له . الحرس : حلقة الذهب والفضة أو الحلقة الصغيرة من الحلى . السخاب : قلادة من مسك وقرنفل ومحب بل جواهر .

وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عائشة كانت صائمة ، وقد بعث إليها ابن الزبير نحو مائة ألف ، فتصدقت بها . فلما دنا الإفطار طلبت من أم ذرّة أن تأتيها بإفطار ، فقالت أم ذرّة : أما استطعتِ فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنفيني ، لو كنت أذكرتني لفعت<sup>(١)</sup> . ويذكر أنها تصدقت بسبعين ألفاً وإنما لترقع جانب درعها<sup>(٢)</sup> .

وقد اشتهرت بالكرم كثيرات مثل زينب بنت جحش ، وشكينة بنت الحسين ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية<sup>(٣)</sup> .

٤ — أما عقبتن في الإسلام فليست في حاجة إلى بيان ، لأن الإسلام حاظ المرأة والأسرة بسياج حصين من العفة والحياء .

٥ — والذي أستخلصه من أخلاقها في الجاهلية وفي الإسلام أن الإسلام قوى في المرأة بعض الفضائل ، فرغها في الكرم على أنه صدقة وقربى إلى الله . وواجب اجتماعى على الأغنياء للفقراء ، وزادها حرصاً على العفة بحضه عليها ، وتشديده العقاب للزاني والزانية ، ونمى حياءها ، وأبقى على أخلاقها الأخرى من الشجاعة والاستمسك بالعقيدة ، وعزة النفس . ثم حلاها بنوع آخر من الفضائل كالصبر والقناعة والصفح ، وحرّم فجور الإماء وكسب البغايا . فلم يكن في أمهات فضائل المرأة المسلمة خلق جديد لا عهد لها به ، وحسبها فخراً أن الأخلاق العالية التي دعا إليها الإسلام كانت من حلاها . وليس طبيعياً أن تكون المرأة في الجاهلية محرومة الأخلاق الكريمة ، ثم نراها تتصف بها في مطلع الإسلام ومستقبله ، لأن الجديد من الأخلاق محتاج إلى أن يعمر طويلاً حتى يصير خلقاً عاماً « ويجب لكي يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر في تكوين العرق — وهو نوع من الناس ذوى أخلاق مشتركة تنتقل إليهم بالوراثة المنتظمة —

(١) الطبقات ٨ / ٤٦ وإصابة ٨ / ١٤١

(٢) الطبقات ٨ / ٤٥

(٣) الإصابة ٨ / ٩٢ و بلاغات النساء ١٢٩ والطبقات الكبرى لابن سعد .



أن يتوالى التطور بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قروناً كثيرة، سائراً نحو غرض واحد<sup>(١)</sup> .

فلم يكن مستطاعاً أن ينسخ العرب نساء ورجالاً من أخلاقهم الجاهلية أنسلاً خاتماً على أثر اعتناقهم للإسلام ، لأن ذلك الانسلاخ يقتضى زماناً طويلاً لتتحول الأخلاق في تودة « وعلى ما في السجيا الخلقية من الثبات تراها تقدر كالصفات الجثمانية أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل ، ولا سيما بالبيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد »<sup>(٢)</sup> . وإن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها<sup>(٣)</sup> . وقد جاء الإسلام فوجد في العرب فضائل وريثاً ، أما الفضائل فشجماً ونمها ، وأما الرذائل فأبطلها وحرّمها ومحأها .

فايس بصحيح « أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفطن وما جرى في هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح النساء به لكان نقصاعليهن وذما لهن<sup>(٤)</sup> » ، لأن الجود والوفاء والشجاعة والاستمسك بالعقيدة والعفة فضائل يمدح بها الرجال ، وقد مدحت بها النساء في الجاهلية والإسلام .

(١) حضارة العرب لوبون ٧٨ . (٢) حضارة العرب : لوبون ٨١ .

(٣) روح الاجتماع : جستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩ .

(٤) زهر الآداب للحصرى ٢ / ٥٥ .

## الفصل الثاني

# المرأة سافراً ومهجّبة

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامي والعربي ردّاً من القرن العشرين ، واحتكم أنصار السفور إلى التاريخ وإلى الدين ، واستند أنصار الحجاب إلى التاريخ وإلى الدين ، ثم قضى التطور بالعلب لدعاة السفور ، فسفرت نساء في مصر وفي غير مصر ، لكن الحجاب ما زال صفيقاً في بعض البلاد العربية ، رقيقاً في بعضها الآخر .

كذلك كان شأن السفور والحجاب في العصر الجاهلي ، فنحن نجافي الحق إذا زعمنا أن النساء العربيات كن كلهن سوافر ، ونحن نجانب الصدق إذا حكمتنا بأنهن كلهن محجبات ، لأن العربيات مارسن السفور ، ومارسن الحجاب .

### السفور

١ - كان كثير من النساء سوافر مكشوفات الوجوه ، إذ لم يكن بين رجال العرب وبعض النساء حجاب ، « ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الغلظة ولا لحظة أنجلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . ثم كانت الشرائف من النساء يتمدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً»<sup>(١)</sup> .

(١) رسالة القيان من ثلاث رسائل للجاحظ ٥٦

وقد ذكر الأصمعي أن المرأة كانت تلقى خمارها لحسنها ، وهي على عفة<sup>(١)</sup> .  
وكانت نساء الأنصار لا يحتمرن ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ولا يبدین زینتھن  
إلا ما ظہر منها . ویضرن بخمرھن علی جیوبھن ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين  
يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً  
رحيماً ﴾<sup>(٣)</sup> . ما يثبت أن بعضهن كن سافرات ، لأن الغرض من الآية أن يأمر  
النبي الذسوة الحرائر ألا يقشهن بالإماء في ملابسهن إذا هن خرجن من بيوتهن  
لحاجتهن ، فلا يكشفن شعورهن ووجوهن ، بل يجب عليهن أن يدنين من  
جلابيبهن ؛ لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول ، إذا علم أمهن حرات<sup>(٤)</sup> .

٢ — وكان بعضهن قد أسرفن في سفورهن وتبرجهن ، فهماهن الله  
عن ذلك بقوله لنساء النبي : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية  
الأولى ﴾<sup>(٥)</sup> . ولم يتفق المفسرون على زمن الجاهلية الأولى ، فهي القديمة التي  
كانت في زمن إبراهيم عليه السلام ، أو هي التي بين آدم ونوح ، أو بين إدريس  
ونوح ، أو هي زمن داود وسليمان . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد .  
وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر ، وقيل إن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل  
الإسلام ، وليست لها أخرى ، وإنما أريد بالأولى الجاهلية القديمة<sup>(٦)</sup> . وقيل إن  
الجاهلية الأولى كانت قبل الإسلام ، وفي الإسلام نفسه أخلاق منها ، فقد قال  
النبي لأبي الدرداء - وقد قال لرجل ينازعه يا بن فلانة لأم كان يعير بها  
في الجاهلية - يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية . قال : أجاهلية كفر أم إسلام ؟

(١) شرح المفصلات لابن الأنباري ١ / ١٢٠

(٢) سورة النور ٣١ (٣) سورة الأحزاب ٩٥ (٤) تفسير الطبري ٢٢/٣٣

والتبساووري ٢٢/٣٢ والرازي ٥/٢٤٩ والطبقات الكبير ٨/١٢٧

(٥) سورة الأحزاب ٣٣ (٦) تفسير التبساووري ٢٢/١٠

قال : بل جاهلية كفر . وقال النبي : ثلاث من أهل الجاهلية لا يدعبن الناس :  
الظعن بالأنساب ، والاستمطار بالكواكب ، والنياحة<sup>(١)</sup> .

والذي أرجحه أن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، لأن القرآن  
ينهاهم عن عمل شهيدو أو سمعوا به ، وليست كلمة ( الأولى ) مقابلة لكلمة  
( الأخرى ) التي يتوقعها السامع ، بل هي وصف للجاهلية دال على أنها مضت  
وولي عهدها . وهذا التعبير شبيه بقول الشاعر : « على لاحب لا يهتدى بمناره »  
فليس المراد أن في الطريق مناراً لا يهتدى ، وإنما المراد أنه طريق لا منار فيه  
يهتدى به السائر ، وكقول الشنفرى في لاميته ( ولست بمحيار الظلام<sup>(٢)</sup> ) .

فظاهر لفظه أنه لا تبلغ منه الحيرة ما تبلغه ممن اشتدت حيرته في الظلام ،  
ولكن هذا ليس مراده ، وإنما مراده أنه لا تقع له حيرة أصلاً .

ومهما يكن من أمر الجاهلية الأولى فقد بالغوا في تشويبهها بمبالغة بعيدة  
من الصواب ، فزعموا أن المرأة كانت في هذه الجاهلية تلبس درعا من اللؤلؤ ،  
فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال<sup>(٣)</sup> .

والصحيح أن المراد بالتبرج في الآية الكريمة التبختر والتكسر في المشية ،  
والخضوع بالقول ، وإظهار الزينة والحاسن للرجال<sup>(٤)</sup> ، فقد روى عن قتادة  
أنهن كانت لهن مشية وتكسر ، وروى عن ابن نَجَّيْحٍ أنهن كن يتبخترن ويظهرن  
ويبرزن محاسنهن<sup>(٥)</sup> . «

وقد فهمت بعض المسامات أن الأمر هنا خاص بنساء النبي ، فظللن على  
سفورهن ، مثل سكينه بنت الحسين<sup>(٦)</sup> وروى عن عطاء أنه كان يكره أن

(١) تفسير الطبرى ٢٢/٤

(٢) أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري ٢٣ (٣) النيسابورى ٢٢/١٠

(٤) لسان العرب مادة برج (٥) الطبرى ٢٢/٤ (٦) الأغاني ١٤/١٥٩

تطوف المرأة بالبيت وهي منتقبة ، حتى أخبرته صفية بنت شَيْبَةَ أنها رأت عائشة تطوف منتقبة ، فرجع عن رأيه<sup>(١)</sup> ورويت عن عائشة أخبار عدة تثبت أن بعض النساء كن يسفرن ، من ذلك قولها إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجُور فشققنهن فاتخذن خمرًا<sup>(٢)</sup> . وقولها يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققت أ كفف مروطن فاختمرن بها<sup>(٣)</sup> . وقد دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها ، فشقت عائشة وأبدلتها به خماراً كسيفاً<sup>(٤)</sup> .

وروى عن أم سلمة أنه لما نزلت : « يدنين عليهم من جلايبهم » خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية<sup>(٥)</sup> .

٣ — وكانت هنالك حالات لامندوحة فيها عن السفر حتى من المحجبات ، فكن يسفرن في المناحة ، لأن الفجيرة والحزن والنواح تنحرف بالمرأة عما اعتادت من تستر وتقنع ، يدل على ذلك قول مهلهل في رثاء كليب إنهم كانوا يفارون على نساءهم أن يبرزن من خدورهن ، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حلين :

كنا نفار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجةً عن الأوطان  
نفرجن حين ثوى كليب حَسرا مُسْتَيْقِنَات بَعْدَهُ بهوان  
فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعُهُ من الأكتاف  
يَخْمُشْنَ من أدم الوجوه حواسرا من بعده وَيَعْدُنَ بالأزمان<sup>(٦)</sup>

وقوله :

وإذا تشاء رأيتَ وجهاً وانحما وذراع باكية عليها بُرْنُسُ

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٠/٢ (٢) سنن أبي داود ١١٨/٢ حجور : جمع حجر وهو ما بين الدين من الثوب (٣) المرجع السابق ١١٩/٢ وتفسير الطبري ٩٤/١٨ (٤) الطبقات الكبير ٤٤/٨ (٥) سنن أبي داود ١١٨/٢ (٦) الكامل لابن الأثير ١/١٨٩ وشعراء النصرانية ١٦٢ عواتق : جمع عاتقة وهي التجارية أول ما أدركت أو التي لم تتزوج

تبكى عليك ولست لأثمَ حرّة  
تأسى عليك بعبرة وتنفّس<sup>(١)</sup>  
وقول الربيع بن زياد العبسي :

من كان محزوناً بمقتل مالك  
فليأت نسوتنا بوجه نهار  
يحد النساء حواسرا يندبنه  
ياطمن أوجههن بالأسجار  
قد كن يخبئان الوجوه تسترا  
فاليوم حين برزن للنظار  
يضر بن حرّ وجوههن على فتى  
عفّ الشائل طيب الأخبار<sup>(٢)</sup>

وكن يسفرن إذا أيقن هزيمة قومهن وخشين السبي ، فيتشبهن بالإماء حتى  
يزهد فيهن ، ويتأهبن للفرار سافرات ، يقول قيس بن الخطيم :

صَبَحْنَا كَمْ شَهْبَاءَ يَبْرُقُ بَيْضُهَا  
تُبِينُ خَلَاخِيلَ النِّسَاءِ الْهَوَارِبِ<sup>(٣)</sup>  
وقوله الأفوه الأودي :

يَوْمَ تُبْدِي الْبَيْضَ عَنِ لَمَعِ الْبُرَى  
وَأَهْلَ الدَّهْرِ فِيهَا صَعَصَعَهُ<sup>(٤)</sup>  
وقول طرفة :

سَأَلُوا عَنَا الَّذِي يَعْرِفُنَا  
بُقُونَا يَوْمَ تَخْلُقُ الْأَمَمَ  
يَوْمَ تَبْدَى الْبَيْضُ عَنِ أَسْوَقِهَا  
وَتُلْفُ خَلِيلُ أَعْرَاجِ النَّعَمِ<sup>(٥)</sup>  
وقوله عوف بن عطية التميمي :

وَلنَعَمَ فَتِيَانُ الصَّبَاحِ لِقِيَمُ  
وَإِذَا النِّسَاءُ حَوَاسِرًا كَالْعَنْقَرِ  
مِنْ كُلِّ وَاضِعَةِ الْحَمَارِ وَأَخْتِهَا  
تَسْعَى وَمِنْطَقُهَا مَكَانَ الْمُنْزَرِ<sup>(٦)</sup>

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٩٧/٢ وأخبار المراقبة ٥٦

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٣ والكامل لابن الأثير ١/٢٠٧

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط وجمهرة أشعار العرب ٢٥٢

(٤) ديوان الأفوه الأودي ١٧ مخطوط

(٥) ديوان طرفة ١٠٤ وشعراء الصرانية ٣١٤ والأغانى ٥/٤٤ أعراج : جمع عرج

وهو التطيع من الإبل

(٦) المفصليات ١٢٧/٢ العنقر : أصول الفصب والبقل والبردى مادام أبيض . منطقتها

مكان المنزر ، سقط لإزارها من فرعها فظهر منطقتها

ويقول مهلهل :

على أن ليس يُوفى من كليب إذا برزت مخبّاة الخدود<sup>(١)</sup>  
ويقول سبرة بن عمرو النقعسي في هجاء بني نهشل إن نسوتهم أشبهن  
بالإماء مخافة السباء فبرزن مكشوفات :

ونسوتكم في الرّوع بادٍ وجوهها يُخلنَ إماء والإماء حرائر<sup>(٢)</sup>  
ويقول الأعرج المَعْنِي في رده على امرأته التي عدلته لعنايته بخصانه :

تلم على أن أعطى الورد لِقَحَّةً وما تستوى والورد ساعة تفرع  
إذا هي قامت حاسراً مُشَمَّعَةً نَحِيبَ الفؤاد رأسها ما تُقَمِّع<sup>(٣)</sup>

وقد يسفرن إدلالا بنجاهن أو مكاتهن ، أو خضوعاً لعرف قبيلتهن ، يقول  
المسيّب بن عاس :

أرحلت من سامى بغير متساع قبل العطاس ورُعْتها بوادع؟  
إذ تستييك بأصلتي ناعم قامت لتفتنه بغير قنساع<sup>(٤)</sup>

ويقول الشنفرى :

عُفَاهِيَّةٌ لا تَقْضُرُ السّرَ دونها ولا تُرْتَجَى للبيت إن لم تُبَيَّت<sup>(٥)</sup>  
وقد تقدم في الفصول السابقة أن المرأة كانت تعشى مجامع الرجال، وتخطب،  
وتتشاد الشعر، وتعرض على القتال، وتقاتل، وتخدم الجرحى، وهذا يستدعى  
أن يكون وجهها مكشوفاً للناظرين .

(١) الأغاني ٥/٥٣

(٢) شرح الحماسة للنجدي ١/١٢٧ وللعمري ١/٢٣٨ (٣) معجم الشعراء ٢٠١

(٤) المفضليات ١/٥٨ وديوان المديب الملقب بديوان الأعشى ٣٥٤ وسمط اللآلي

١/١٧٨ متاع : متعة . العطاس : الصبح . أصلى : خدناعم حسن

(٥) الأغاني ١/٢١ عفاهية : ممتلئة .

## الحجاب

لم تكن النساء كلهن سافرات، وإنما سفر بعضهن، وتحجب بعضهن ففطين وجوههن، وليس في هذا تناقض، أو شذوذ، لأن المجتمعات كثيراً ما تتباين عاداتها، وتتغير نظمها في البيئة الواحدة والعصر الواحد. ففي مصر اليوم سافرات ومحتجبات، في المدينة الواحدة، والقريبة الواحدة، وسفور المرأة في القاهرة والإسكندرية غير سفور المرأة القروية، وحجاب هذه غير حجاب أولئك. أما دعوى فير Weir أن الحجاب لم يكن معروفاً في الجاهلية<sup>(١)</sup> فغير صحيحة تدحضها الأخبار، وتبطلها الأشعار.

١ — فالأخبار صحيحة في ممارسة النساء للحجاب، منها أنه كان السبب في اليوم الثاني من أيام النجار الأول أن شاباً من قريش وبني كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بني عامر بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر فأبت، فامتنها أحدهم، فاستغاثت بقومها فقامت حرب<sup>(٢)</sup>.

ومنها أن السبب في اعتقال عبد الله بن علقمة بصاحبته حُبَيْش أنه نزل ضيفاً عند آلها، فأجاسوه في متحدث لهم، فخرجت حُبَيْش وعلى وجهها سبب أخضر، فضر به الهواء، فأنكشف وجهها ويدها، فهام بها عبد الله<sup>(٣)</sup>.

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لي أن أضع خماري معهم فلها صيرمتي: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع، وزوجي الزبرقان بن بدر. وهي ذات الخمار، لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها، فقالوا لها: ما هذا، ولم تكوني متبرجة؟ فقالت: داخلتني خيلاء حين رأيتمكم، فأى امرأة من العرب وضعت

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٦٦ T. h. Weir

(٢) الأغاني ١٩/٧٤ (٣) تزئين الأسواق ٨١ داود الأنطاكي.



خارها عند مثلكم فلها صرمتي<sup>(١)</sup> .

وفي أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب ، كقولهم ( إن العَوَان لا تُعَلِّمُ الحِجْرَةَ )<sup>(٢)</sup> ، أى لا تحتاج إلى تعلم الاختار ، يضرب مثلاً للرجل المحرب .

٢ — والشعر الجاهلى حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور ، فمثلاً يقول النمر بن تولب فى اسرأته التى هجرته :

وصدّت كأن الشمس تحت قناعاتها    بدا حاجب منها وضّدت بحاجب<sup>(٣)</sup>  
ويقول الربيع بن زياد العبسى بعد مقتل مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك    فليات نسوتنا بوجه نهار  
قد كن يخبان الوجوه تسترا    فاليوم حين بدون للنظار  
يخمشن حرات الوجوه على امرىء    سهل الخليفة طيب الأخبار<sup>(٤)</sup>  
ويتغزل الحطيئة فى قوام محبوبته ووجهها ، ويكنى عن وجهها بأنه موضع النقاب :  
طافت أمانة بالركبان آونة    يا حُسْنُهُ من قوامٍ مّا ومُنْتَقِبا<sup>(٥)</sup>  
ويعجب الشنفرى بحبيبه وهى منتقبة لا تكشف وجهها :

فقد أعجبتنى لاسقوطاً قناعاتها    إذا ما مشت ولا بذات تلفت<sup>(٦)</sup>  
وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكجلوا وينتقموا كالنساء :

إن أتم لم تطلبوا بأخيكم    فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق  
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا    نقب النساء فبئس رهط المرهق<sup>(٧)</sup>

(١) النقايس ٢٦٤ (٢) مجمع الأمثال ١٧/١ وجمهرة الأمثال ٦١/٢ ولسان العرب مادة خر . العوان : الثيب أو بنت الثلاثين .

(٣) الأغاني ١٥٩/١٩ (٤) النقايس ٨٦ (٥) خزنة الأدب ٣٩٥/٣ (٦) الأغاني ٩٠/٢١ (٧) شرح الحماسة للبريزى ٥٥/٤ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية . المرهق : اللليل المضيق عليه .

ولقد يتمثل الحجاب في أن تتخذ المرأة، فلا يراها إلا الأقربون، ولا تبرز إلا في الفواجم. يدل على ذلك قول زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء  
فإن تكن النساء مخبّاتٍ فحقّ لكل مُحَصَّنَةٍ هِداء<sup>(١)</sup>

وفي قول مهامل يرثي كليبا:

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبّاة الخدور<sup>(٢)</sup>

وفي قول عدى بن زيد:

يسارقن م الأستار طرّفا مُفْتَرَا وَيُبرِزْنَ من فَتْقِ الخدور الأصابعا<sup>(٣)</sup>

٣ - وإذا كان المراد بالحجاب لبس الخمار ونحوه، فإنه لم يكن مقصوراً على العرب، بل كان شائعاً منذ أقدم العصور في بابل وأشور وفارس والروم والهند<sup>(٤)</sup>، فقد كانت النساء الرومانيات مغاليات في الحجاب في العهد الأول للجمهورية، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة، ووجهها مائم، وعايبها رداء طويل يلامس كعبيها، وفوقه عباءة لا تبدى شيئاً من قوامها. ثم تغيرت الحال في عهد الإمبراطورية، حتى هالت بعض المصلحين، وهبّ (كاتون) ينذر بالخطر المحقق الذي سيأتيهم كل شيء<sup>(٥)</sup>.

كذلك عرف البرس القدماء الحجاب، وعدوا كشف المرأة أو الرجل عن شيء من جسده غير الوجّه مظهرًا منافياً للاحتشام والأدب. وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى إخصي القدم<sup>(٦)</sup>. وبعد حكم دارا الأول كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاماً ضرورياً مراعى، فصرن

(١) شرح ديوان زهير لتعلّص ٧٤ (٢) الأملّى ١٣٢/٢ وكتاب بكر وتغاب ٧١

(٣) الأغاني ١٥٠/٢ (٤) الإسلام والحضارة العربية محمد كرد علي ٨٨/١

(٥) المرأة السلعة ١٢٣ فريد وهدي (٦) قصة الحضارة الفارسية ١٩ ول ديورانت

لا يجسرن على الخروج إلا في هودج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخاطبن الرجال في مجتمع خاص أو عام . بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أذى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والإخوة . ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكراً أو صوراً في النقوش أو التماثيل التي خلفتها إيران القديمة . أما الخليليات والمحظيات فكان على ضد ذلك ، يتمتعن بحرية عظيمة ، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم<sup>(١)</sup> .

وشاع الحجاب عند الهنود أيضاً ، حتى في عصر المهابراته .

وعرفه الأثينيون القدماء<sup>(٢)</sup> ، وقد ورد في الإلياذة قول هكتور : « لست أرضى الغار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب » ومن هذا ، ومن ذكر قناع إيقاب ، وبرقع هيلانة ، وبرقع النساء والربات ، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب<sup>(٣)</sup> .

على أنه مازال شائعاً إلى العصور الوسطى وما بعدها ، وما زالت له آثار ، ولم تغير منه النصرانية شيئاً<sup>(٤)</sup> ، لذلك كان ذاتماً في الدولة البيزنطية<sup>(٥)</sup> ، وإن لم يكن عاماً<sup>(٦)</sup> .

٤ — ثم جاء الإسلام ففصل في مشكلة السفور والحجاب ، قال تعالى : « وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

(١) المرجع السابق ٦٠ (٢) مركز المرأة في الإسلام ٢٤ السيد أمير على الهندي

(٣) الإلياذة ٤٧٥ (٤) التمدن الاسلامي ٧٧/٥ جرجي زيدان

(٥) مركز المرأة في الإسلام ٣٤ (٦) الإمبراطورية البيزنطية ٣٤ نورمان بينتر

النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» (١) .

وقال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (٢) .

واختلف في الإدناء الذي أمرن به ، فقال بعضهم : هو أن يغطين رؤوسهن ووجوههن ، فلا يبدن إلا عيناً واحدة . وقال بعضهم : بل يشدن خُمراً على جباههن . وروى عن ابن عباس أن إدناء الجلابيب هو أن تتقنع وتشد حبيبتها ، وعن قتادة أن يقنعن على الجوانب (٣) وذهب آخرون إلى أن المراد ستر الرؤوس والأعناق والنحور (٤) .

وبذلك حرم على المرأة المساهمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام أجنبي ليس من المحارم ، إلا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، كالوجه والكف ، لأن في إخفاءهما تضييقاً وحرَجاً (٥) .

ونهى الإسلام عن التبرج كما سبق .

وهو بذلك يدرأ الفتنة ، ويقى النفوس نزواتها ، لذلك أحل للعجائز اللاتي لا أرب فيهن ما لم يحله للشابات والجيلات ، يقول تعالى : « والتقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » (٦) .

وقد صور الشعراء بعضهن مختمرات ، فعمربن أبي ربيعة يقول في إحدى صواحيبه :

واشتكت شدة الإزار من البُهْر وألقت عنها لدى الخمار (٧)

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٩٥ (٣) تفسير الطبري ٣٣/٢٢ والنيسابوري ٣٢/٢٢ والرازي ٢٤٩/٥ والطبقات الكبير ١٢٧/٨  
(٤) تفسير الجلالين ٢٩٥  
(٥) تفسير الطبري ٩٤/١٨ والنيسابوري ٧٦/١٨ والبيضاوي ٤٧٦ والجلالين ٢٩٥  
(٦) سورة النور ٦٠ (٧) الأغاني ٩٧/٣

وقد جلس هو والغريض في نسوة مقنعات بأخمرتهن<sup>(١)</sup> . والحارث بن خالد يقول في امرأة مختمرة وهي تخرج :

يقعدن في التطواف آونةً ويظفن أحياناً على فُتْر  
فمترغن من سبع وقد جَهَدَتْ أحشاؤهن موائل الخُمُر<sup>(٢)</sup>

على أن قلة من المسلمات كانت تسفر ، وزعيمتهن في ذلك عائشة بنت طلحة كانت لا تستر وجهها من أحد<sup>(٣)</sup> ، وسكينة بنت الحسين ، كانت برزة أديبة تجالس الجلة من الرجال والأدباء<sup>(٤)</sup> . وقد أشرفت هند بنت النعمان بن بشير على وفد عند زوجها وهي سافر ، وكذلك كانت تسفر امرأة عبد الملك بن مروان<sup>(٥)</sup> . وكان عمرة صاحبة أبي دَهَبِل - وهب بن زمعة الشاعر الإسلامي - امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار<sup>(٦)</sup> .

وفي حديث لُنُصَيْب أنه جالس هو وكَثِيرٌ والأحوص نساء بارزات لاعهد لهم بهن ، وسمعوا الغناء ، وتغدوا بالعقيق جميعاً<sup>(٧)</sup> .

وكانت خُرَقاء العامرية حبيبة ذى النُرْمَةِ تقعد للحجيج وتحادثهم ومعها فاطمة ابنتها<sup>(٨)</sup> .

ولقد كان الباعث لمن على السفور في الإسلام كما كان في الجاهلية : الزهو بالجمال ، والاعتداد بالتصون ، والاعتزاز بالعفة ، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة في سفورها فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمَى بِمِيسَمِ جَمَالٍ ، فأحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد<sup>(٩)</sup> .

(١) الأغاني ٨٣/٦ (٢) الأغاني ٩٧/٣ (٣) الأغاني ٥١/١٠  
(٤) الأغاني ١٦٥/١٤ (٥) العقد الفريد ٢٨٩/٣ (٦) الأغاني ١٥٠/٦  
(٧) الأغاني ١٣٧/١ (٨) الأغاني ١١٩/١٦ (٩) الأغاني ٥١/١٠  
وزهر الآداب ٢٣١/١

وقد سجل الشعراء هذا السفور ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاها الحسن أن تتقدما<sup>(١)</sup>

وقول الشماخ :

« أطارت من الحسن الرداء المحبِّرا »

لأنها مدلة بجالها فلا تختمر ، ولا تستر شيئا من الناظرين<sup>(٢)</sup> .

وإذا فالحجاب الذى دعا إليه الإسلام سهل ميسور مقبول ، وهو شبيه

بما كان فى الجاهلية ، وبما نرى اليوم فى البوادي والقرى .

ولكن بعض المسلمين تشددوا فيه ، ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل

والقادر بالله العباسى أمرها بمنع النساء من الصلاة فى المساجد ومخالطة الرجال فى

المحافل والمجتمعات .<sup>(٣)</sup> .

وكما ضعفت مكانة المرأة وساء ظن الرجال بها ، وساء ظنهم بهم ، علت

حولها الأسوار ، وخيفت عليها الأنظار ، وعاشت فى منزل أشبه بالحصن ،

كالوردة فى أصيص مغلق .

## نَحْرُهَا وَمَلَابِسُهَا

— ١ —

كانت أغظية رءوسهن منوعة ، ولها أسماء شتى منها :

١ — الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . وهو شقة على الرأس تلف

على جزء من الوجه ، فهو يشبه ما يسمى فى عصرنا ( الطرحة ) ، ومن أسمائه .

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١٢٧/٣

(٢) الكامل للبرد ٤٩١/١

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٨٩/١

النَّصِيفُ<sup>(١)</sup> ، والقنَاعُ<sup>(٢)</sup> ، والْبُرْقُوعُ<sup>(٣)</sup> ، والسَّبُّ<sup>(٤)</sup> .

٢ — وإذا كان الغطاء وحده فهو المِقْمَعُ ، والمِقْمَعَةُ ، وهي أصغر من القنَاعِ<sup>(٥)</sup> .

٣ — والنَّقَابُ القنَاعُ على مارِنِ الأنفِ ، وهو على وجوه . قال الفراء : إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينيها فتلك المَوْصُوعَةُ ، فإن أنزلته دون ذلك إلى المَحْجَرِ فهو النِقَابُ ، فإن كان على طرف الأنف فهو النَّثَامُ .

وقال ابن سيرين: النِقَابُ مُحَدَّثٌ ، أراد أن النساء ما كن ينتقبن أى يختمرن . قال أبو عبيد : ليس هذا وجه الحديث ، ولكن النِقَابُ عند العرب هو الذى يبدو منه مَحْجَرُ العينِ ، ومعناه أن إبداءهن المَحْجَرِ مُحَدَّثٌ ، إما كان النِقَابُ لاحقاً بالعينِ ، وكانت تبدو إحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمه عندهم المَوْصُوعَةُ والْبُرْقُوعُ<sup>(٦)</sup> .

٤ — والمَوْصُوعُ النِقَابُ على مارِنِ الأنفِ لا تظهر منه إلا العينان ، وهو البرقع الصغير<sup>(٧)</sup> ويسمى البُخْنِقُ<sup>(٨)</sup> .

٥ — البرْقُوعُ والْبُرْقُوعُ ، وهو للدواب ، ولنساء الأعراب ، فيه خرقان للعين ، والْبُرْقُوعُ المَوْصُوعُ هو الصغير العينين<sup>(٩)</sup> .

٦ — القِنَاعُ ، ما تتقنع به المرأة من ثوب ، تغطي رأسها ومحاسنها به ، وهو أكبر من المِقْمَعِ والمِقْمَعَةُ . وذهب الأزهرى إلى أنه لا فرق عند الثقات من أهل اللغة بين القنَاعِ والمِقْمَعَةِ ، ويظهر أنه كان فى صدر الإسلام من لبس الإماء ،

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة خمر (٢) القاموس مادة قنع

(٣) القاموس المحيط مادة برقم (٤) القاموس مادة سب (٥) لسان العرب

القاموس مادة قنع . (٦) لسان العرب والقاموس مادة نقب والقاموس مادة ثم ولم

(٧) لسان العرب مادة وصوص (٨) القاموس مادة بخق (٩) لسان العرب

فقد رأى عمر جارية عليها قناع فضربها بالدرّة وقال أنشَبَّهين بالحرائر<sup>(١)</sup> .

٧ — البُخُنُقُ : برقع يفضى العنق والصدر ، والبرنس الصغير ، وعن ابن سيده أنه البرقع الصغير . وهو أيضاً خرقة تلبسها المرأة فتعطي رأسها ما قبل منه وما دَبَّرَ غير وسط الرأس . وقال الجوهري : هو خرقة تقنع بها الجارية ، وتشد طرفيها تحت حنكها لتقي الحمار من الدهن ، وتحفظ الدهن من الغبار<sup>(٢)</sup> .

٨ — وفي الشعر ذكر لهذه الخُمُر .

فمن ذكر الحمار قول صخر في أخته الخنساء :

ولو هلكتُ خَرَقْتُ خِمَارَهَا      وَأَتَّخَذْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارِهَا<sup>(٣)</sup>  
وقول المرار بن منقذ :

وهوى القلبِ الذي أعجبه      صورة أحسنِ من لاثِ الخُمُرِ<sup>(٤)</sup>  
ومن ذكر القناع قول عنتره :

إن تُفَدِّ في دوفى القناعِ فإنتى      طَبُّ بأخذِ الفارسِ المُستَلِمِ<sup>(٥)</sup>  
وقول عروة بن الورد :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته      ولم يُلبِّي عنى غزال مقنَعِ<sup>(٦)</sup>  
ومن ذكر البرقع قوله النابغة الجعدي يصف خشفًا :

وخذًا ككبروقِ الفتاة مأمعًا      رَوَّاقِينَ لنا يَعُدُّ أن يتقشرا  
وقول توبة :

وكنْتُ إذا ما جئتُ ليلي تبرِقت      فقد رابني منها الفداة سفورها<sup>(٧)</sup>

(١) لسان العرب مادة قنع (٢) لسان العرب مادة بخنق والقاموس مادة بخق  
(٣) تهذيب الكامل ١٩٢/٢ والشعر والشعراء ١٢٤ والإصابة ٦٧/٨  
(٤) المفضليات ٨٧/١ (٥) لسان العرب مادة قنع وشرح المعاني السبع لابن  
الانباري مخطوط ٥٨ تدفق : ترخى على وجهك (٦) شعراء النصرانية ٩١٣  
(٧) لسان العرب مادة برقع



ومن ذكر الوصاوص قول المنقّب العبدى :  
 ظهري بكّلة وسدّكن رَمَّما وَتَقَبَّنَ الوصاوص للعيون  
 ويروى ، أرين محاسنا وكننّ أخرى .  
 وأنشد ابن برى لشاعر :  
 يا ليتها قد لبست ووصواصا (١) :

ومن ذكر النّصيف قول النابغة فى المتجرّدة :

سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد (٢)

وقول ثعلبة بن صعير فى وصف النعامه ، إنها حضرت بيضا بجناحيها ، وهى  
 فى خباتها ، فلم يبد إلا وجهها ، كالمرأة من الخمس تتقنع ، ولكن يبدو بعض  
 رأسها ووجهها :

فبنت عليه مع الظلام خباءها كالأحسيّة فى النّصيف الحاسر (٣)  
 وقول ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد :

بكت تغلبُ العلباء يوم وفاته وأبرزَ منها كلُّ ذات نصيف (٤)  
 ومن ذكر السبّ قول معن بن أوس :

إذا ما لبس الحلى والشى أشرفت وجوه ولَبَّاتِ يُسَلِّبُنَا الحِلْمَا  
 ولئن الشُّوبَ حِمْرَةَ قرشية زُبَيْرِيَّةَ يَعْلَمَنَّ فى لَوْنِهَا عِلْمًا (٥)  
 ومن ذكر اللثام قول قيس بن الحدادية :

نَشَرْتُ على فيها اللثام وأعرضتُ وأمعنَ بالكحل السحيق المدامع (٦)

(١) لسان العرب مادة وصص (٢) ديوان النابغة ٢٩

(٣) المفضليات ١٢٨/١ (٤) حاسة البحرى ٤٣٦

(٥) البيان والتبيين ٢/٣٥٤ . لئن : أدرن وطوين . الحمره : هيئة الاختيار لونها :  
 إدارتها وطيبها . يعلمن : يسمن من علمه بابه نصر وضرب .

(٦) الأغاني ٧/١٣

ومن ذكر البخنق قول عنتره :

نخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء بخناق وعقود<sup>(١)</sup>

— ٢ —

أما ملابسها فكثيرة أيضا ومنوعة ، منها :

١ — الرِيْطَة ، وهي الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، وهي كل ثوب لين رقيق<sup>(٢)</sup> .

قال سُمَيْح بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيض يَرْفُلُنَ كالدَّمَى في الرِيْطِ والمُذْهَبِ المصُونِ<sup>(٣)</sup>  
وقال الأعشى :

والساحبات ذبول الريط آونة والرافلات على أعجازها العجل  
وقال الرَّمِق — عبيد بن سالم الخزرجي — في مدح أبي جبيلة :

أمثال غزلان الصرا ثم يأتزرن ويرتدينا  
الرِيْطَ والديباج والزَّردَ المضاعف والبُرِينَا  
وذكر حسان في قوله :

يَحْمَلُنَ حَوًّا حُورَ المدامع في الرِّيطِ ويبيضَ الوجوه كالبرد<sup>(٤)</sup>  
٢ — المِرْطُ كساء من صوف أو خز<sup>(٥)</sup> .

ويظهر أن ذيله كان طويلا ينسحب على الأرض . يقول امرؤ القيس :  
خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينَا ذيل مِرْطٍ مرحَل<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان عنتره ٦٤ (٢) القاموس مادة ريط (٣) شرح الحماسة للبريزي ٨٣/٣  
(٤) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهي  
دولاب السق يصف أعجازهن بالضخامة . (٥) الأغاني ٦٩/١٩ الصرايم : قطع الرمل .  
الزرد : الدرغ المزروعة . البرين : جمع برة وهي الخناخال . (٦) ديوان حسان ٣٣ حو :  
جمع حواء أي ذات شفة حمراء ضاربة إلى السواد (٧) القاموس مادة مرط .  
(٨) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرحل : فيه صور الرجال  
( ٢٥ — المرأة في الشعر الجاهلي )

ويقول :

دخلت على بيضاء جِيمَ عظامِها تُعَفِّي بذيلِ المرطِ إذ جئتُ مَوْدِقِي<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر المرط والرِبطة المنتخان بن عَوَيْمِر الهذلي في قوله :

فَحُورٌ قد لهُوتُ بهن حيناً نواعمُ في المروط وفي الرِيَّاطِ<sup>(٢)</sup>

٣ - الصدر ، وهو ما تلبسه المرأة على صدرها ، قال عروة بن الورد  
في نغره بسباياهم من طيئ :

تري كل بيضاء العوارض طَفَلَةً تُفَرِّي - إذ اشال السَّمَاكُ - صدرها<sup>(٣)</sup>  
وكانت الحزينة تتخذه من شعر ، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها صخر :  
ولو هاسكت خَرَقَتْ خمارها وأنخذت من شعر صدرها<sup>(٤)</sup>

٤ - السابري ، ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تصدُّ عن المأثور يني وبينها وتدني على السابري المصلعاً<sup>(٥)</sup>  
٥ - الجبَّة ، وهي ثوب واسع<sup>(٦)</sup> ، ويظهر أنها كانت من ملابس الإماء ،

بدليل قول أوس بن حجر في الأطلال :

تمشى بها رُبْدُ النعمام كما تمشى إماء سُربِلَتِ جُبباً<sup>(٧)</sup>  
وهم ميزوا الإماء بالجبب ، لأن الأزياء كانت تختلف ، فالجرائزى ،  
ولذوات الرايات زى ، وللاماء زى ، ولكل مملوك زى<sup>(٨)</sup> .

٦ - الحِبْرَة ، وهي ضرب من برود اليمن ، وهي أيضاً البرد الموشى<sup>(٩)</sup>

(١) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ٢٥١/١٢

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٢٩

(٣) شعرا النصرانية ٩١١ تفرى : تشق . شال السماك : ارتفع هذا النجم .

(٤) الشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب السكامل ١٩٢/٢ والإصابة ٦٧/٨ والمحاسن

والأضداد ١٤٣ (٥) ديوان امرئ القيس ١١٣ المصلع : المخطط المسير أو الذى وشبه

على شكل الأضلاع (٦) القاموس مادة جب (٧) ديوان أوس ٢

(٨) البيان والتبيين ٩٧/٣ تحقيق هارون (٩) القاموس مادة حبر

٧ - وهناك أنواع كثيرة ، منها : اللِّفَاعُ والمِلْحَقَةُ ، وهو ما تتلفع به المرأة<sup>(١)</sup> ، وهو ( الشال ) في عصرنا . والنِّطَاقُ والمِنْطَقَةُ ، وهي شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها فتُرسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل ينجر على الأرض ، ليس لها حُجْزَةٌ ولا ساقان ولا نَيْفِق<sup>(٢)</sup> ، وهي تشبه بعض الشبه ما يسمى الآن ( الجونلا ) .

والبَتُّ ، وهو الطيلسان من خز ونحوه<sup>(٣)</sup> .

والْحَلَّةُ ، وهي إزار ورداء ، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة<sup>(٤)</sup> .

والبُرْدُ ، هو الثوب الموشى ، والكساء الذى يلتحف به<sup>(٥)</sup> .

والمُعْرَضُ ، الثوب تعرض فيه الجارية وتُجَلَى<sup>(٦)</sup> .

والبُرْنُسُ ، كل ثوب رأسه ملتزق به ، دُرَاعَةٌ كان أوجبة أو مُطْطَرا ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النساء يلبسها فى صدر الإسلام<sup>(٧)</sup> .

قال مهامل :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً وذراعاً باكية عليها بُرْنُسُ<sup>(٨)</sup>

٨ - وكانت تسمى الملابس بأسماء دالة على نقوشها . فالمرَّحَلُ بُرْدٌ فيه تصاوير الرجال ، والمرَّجَلُ إزار فيه صور الرجال .  
والوصائل ثياب يمنية مخططة<sup>(٩)</sup> ، قال ليبيد :

(١) القاموس مادة لفع (٢) القاموس مادة نطق . نيفق : متسع  
(٣) القاموس مادة بت (٤) القاموس مادة حل (٥) القاموس مادة برد  
(٦) لسان العرب مادة عرض (٧) لسان العرب مادة برنس  
(٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١٩٧/٢ وأخبار المراقسة ٥٦ .  
(٩) القاموس مادة وصل

غرائر أبكار عليها مهابةٌ وعونٌ كرام يرتدين الوصائل<sup>(١)</sup>،  
والمجسد والمجسد ثوب مصبوغ بالجسد أو الجسد وهو الزعفران<sup>(٢)</sup>،  
قال طرفة في وصف التينة :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ونجسد<sup>(٣)</sup>  
والمذهب ماجعل نسجه بخيوط من ذهب ، قال سلمى بن ربيعة :

والبيض يرفان كالسدى فى الریط والمذهب المعون<sup>(٤)</sup>  
والخال ، ضرب محكم من برود اليمن الموشاة ، وهو أيضاً الثوب الناعم<sup>(٥)</sup> .

والمرجل ، ضرب محكم من برود اليمن ، والممرجل ضرب من ثياب الوشى  
فيه صور المراحل ، ويقال لها المراحل أيضاً ، وفى الحديث ( حتى يبنى الناس  
بيوتا يوشونها وشى المراحل<sup>(٦)</sup> ) والمصلب فيه نقش كالصليب ، وفى حديث  
عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى التصليب فى ثوب قصه ، أى  
قطع موضع التصليب منه . وقد نهى عن الصلاة فى الثوب المصلب ، وفى حديث  
عائشة : فناولتها عطافا فرأت فيه تصليبا ، فقالت : نحيه عنى . وكانت أم سلمة  
تكره الثياب المصلبة<sup>(٧)</sup> . والمبرج ما فيه صور البروج ، وفى التهذيب قد  
صور فيه تصاوير كبروج السور .

قال العجاج :

« وقد لبسنا ثوبه المبرجا » .

وقال فى وصف ناقة :

« كأن برجا فوقها مبرجا » . شبه سنامها ببرج السور .

والثوب المبرج أيضاً المعين ، أى فى وشيه ترايع صفار تشبه بعيون الوحش<sup>(٨)</sup>

(١) ديوان لبيد ٢٢ عون : ج عوان وهى المتزوجة (٢) القاموس مادة جسد

(٣) ديوان طرفة ٢٦ (٤) شرح الحماسة للتبريزى ٨٣/٣

(٥) لسان العرب ١٣/٢٤٢ (٦) لسان العرب ١٣/٢٨٣ و٢٩١ والقاموس مادة رجل

(٧) لسان العرب مادة صلب (٨) لسان العرب مادة برج وعين

والمسهمم البرد المخطط بوشى على شكل السهام ، قال أوس :  
 فإننا رأينا العرض أحوج ساعة إلى الصون من رِيْطِ يمانٍ مُسَمِّمٍ  
 وفي حديث جابر أنه كان يصلى في برد مسهم<sup>(١)</sup> .  
 والمضرس ، ثوب موشى ، به أثر ، قال أبو قلابة :  
 رَدَعَ الخَلُوقُ بجلدها فكأنه رِيْطُ عتاق في الصَّوانِ مُضَرَّسٍ<sup>(٢)</sup>  
 والعَضْدُ ، ثوب موشى في جوانبه ، أو موشى على العضد من لابسه ، قال زهير  
 يصف بقرة :

فجالت على وحشيها وكأنها مُسْرَبَلَةٌ من رازقٍ مُعَضَّدٍ<sup>(٣)</sup>  
 والمضلع ، ثوب مخطط على شكل الأضلاع ، أو هو الموشى ، أو المسير ،  
 وقيل برد مضلع إذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وفي الحديث أنه أهدى له  
 صلى الله عليه وسلم ثوب سِراءِ مضلع بقر<sup>(٤)</sup> .  
 والمكعب ، المطوى الشديد الأدرج في تربيعة ، أو ما فيه وشى مربع<sup>(٥)</sup>  
 أو هو المنقوش على هيئة الكعب<sup>(٦)</sup> .  
 والمُهَبَّلُ ، ما فيه نقوش وصور كالأهالة<sup>(٧)</sup> .

والخال ، ضرب من برود اليمن الموشية قال الشاعر:  
 وِبُرْدانٍ من خالٍ وسبعون درهما على ذاك مقرونٌ من الجلد ماعز<sup>(٨)</sup>  
 و المِعْرَجَنُ ما فيه صور العراجين والنخل ، قال رؤبة : « في خد  
 مياس الدثمي معرجن<sup>(٩)</sup> » .

والمطير ، ضرب من البرود ، قيل هو المشقق المكسر ، قال العجير السلولي .  
 إذا ما مشت نادى بما في ثيابها ذكي الشذى والمندل المطير<sup>(١٠)</sup>

(١) لسان العرب مادة سهم (٢) لسان العرب مادة ضرس حمله مرة على اللفظ فقال  
 مضرس ، ومرة على المعنى فقال عتاق (٣) لسان العرب مادة عضد . وديوان زهير ٩٢  
 والكنز الثمين ٨٠ رازق : ثوب كتان أبيض . (٤) لسان العرب مادة ضلع  
 (٥) لسان العرب مادة كعب (٦) الإفصاح ١٦٠ (٧) الإفصاح ١٦٠  
 (٨) لسان العرب مادة خيل (٩) لسان العرب مادة عرجن (١٠) لسان العرب مادة طير

أو هو المزين بصور الطيور (١) .

٩ — وأما ألوانها فأكثرها شيوعاً اللون الأحمر، وقد كان العرب مفرمين بالحمرة في الخدوج، يمثل ذلك قول علقمة إن الجبال قد احتملت :

عَقْلًا وَرَقْمًا تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتَبَعُهُ      كأنه من دم الأجواف مَدْمُومٌ (٢)

وقول المسيب بن علس إن الظلمان تحمل :

عَقْلًا وَرَقْمًا ثُمَّ أَرْدَفَهُ      كَلَّلَ عَلَى أَطْرَافِهَا انْحَمَلٌ (٣)

وكذلك صور الخدوج امرؤ القيس (٤) ، وطفيل الغنوى (٥) والخطيئة (٦) .

كذلك كانوا يؤثرون الحمرة في لون الملابس ، قال أوس بن حجر إن

ملابسهن متنوعة الألوان وواسعة :

يَلْبَسْنَ رِيظًا رُودِيًّا جَا وَأَكْسِيَةً      شَتَّى بِهَا اللَّوْنُ إِلَّا أَنبَاهُ قُورٌ (٧)

وكان اللون الأحمر شعار الملوك والأشراف، ولعل هذا مما حببه إلى الناس،

على رغبتهم فيه ، قال النابغة الذبياني في مدح الفساسة :

تَحْيِيهِمْ بِيضُ الْوَلَانِدِ بَيْنَهُمْ      وَأَكْسِيَةَ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ (٨)

وظل إيثارهن اللون الأحمر إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فالسيدة عائشة

كانت تحب من ألوان الملابس الأحمر والمعصر ، فكانت تابس درعاً معصراً

أحياناً ، ومذهباً أحياناً ، ومضرجاً وهو الذي كان يسمى المورّد ، وكانت عليها

ثياب حمراء كأنها شرر وهي محرمة (٩) . وقد وصف المتنبي الحسان الطاعنات

بأسهن حمراء الحلى والنوق والثياب :

(١) الإفصاح ١٦١ (٢) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر

يجال الهودج أو ضرب من الوشي : الرقم : ضرب مستدير أو منقطع من الوشي أو المز أو

البرود . مدموم : مطلى بالدم (٣) ديوان المسيب بن علس المالحق بديوان الأعشى ٣٥٧

الجل : هذب القטיפه ونحوها (٤) ديوان امرئ القيس ٣٢ (٥) ديوان طفيل ٣٣

(٦) ديوان الخطيئة ٣٧ (٧) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء أى واسعة.

(٨) ديوان النابغة ٨ الإضريح : الخز الأحمر .

(٩) الطبقات ٤٧/٨ والأنساب ٦٦٥/١

من الجآذُر في زِيِّ الأعراب مُحَمَّرَ الحَلِيِّ والمطاييا والجلايب؟<sup>(١)</sup>

### حُمَلِيهَا

#### غرامم النساء بالحلي

كلفت المرأة بالحلي في كل بيئة وفي كل عصر، تضيف إلى جمالها تجملاً، وترهى به وتفخر وتكاثر، وتختاب ألباب الرجال، وقلما تبدو عاطلاً من حلاها، وإن غنيت بجمالها ومكاتها، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل، كقول الشماخ:

دار الفتاة التي كنا نقول لها ياظبيةً عطلاً حُسَّانةً الحيد<sup>(٢)</sup>

وإذا كانت الزينة شية للأنتى من بنى الإنسان، فإنها من شيات الذكر في الحيوان، لأن الطليمة تزين الذكران من الطيور والحيوان بما يغرى الأنتى ويحتذبها، أما في عالم البشر فإن الأنتى تزين لتجتلب الذكر « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرننا اليوم على المسرح، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة مالا نبصر نظيره في عصرنا »<sup>(٣)</sup>

لذا شاع الحلي في العصور القديمة عند الأمم، وكان عظيم الشأن عند الأمم التي اتصل بها العرب، فالإسرائيليات كن يتأقنن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والتلطف والأساور والرُعل والعصاب والمصاعيد والخواتم والأحراز والخُرصان والتيجان وغيرها من الملابس والمرايا<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان النبي شرح البرقوق ١/١١٤ الجآذُر : ج جؤذُر وهو وند البقرة الوحشية . الأعراب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبره المطايا: النوق وأجودها الحمر . (٢) معجم البلدان ٨/٥٢٥ (٣) الحياة والحب . لميل لوفادفيح ٢٢ (٤) سفر أشعيا ٣/١٨ - ٢٣ النطف : الأقرط . الرعل : ج رعلة وهي الإكليل من ريمان وآس . الحُرصان : ج خرص وهو حلقة الذهب والنفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من حلي .



والمرأة الفارسية كانت مولعة بأصناف الحلى ، من تيجان وأقراط وخلاخيل وغيرها ، حتى لقد كانت تلبس حذاء مذهباً<sup>(١)</sup> .

والمرأة الرومانية أسرفت في زينةها إسرائفاً حمل ( كاتو ) على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد في نفقات زينتها، واحتدت المناقشة في التريديون بين كاتو وأحد الأعضاء الجانحين إلى أن تطلق للمرأة الحرية في زينتها ، وجاء في رد العضو المعارض : إن النساء لا يستطعن العمل في الوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات أو جنديات يحزرن النصر ، وليس لمن من العمل العام ما يشغل فراغهن ، فماذا يستطعن أن يعملن إن لم يخصن أوقانهن الزينة والملبس<sup>(٢)</sup> ؟

وكانت المرأة المصرية تزين بالمصائب والخواتم والأساور والخلخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار والآلىء والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً ، والكحل بالإثمد كذلك . وغلا المصريون والمصريات في استعمال الشعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلاً مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء<sup>(٣)</sup> .

### صنوف الحلى :

تنوع حلى المرأة العربية ، وتعددت أصنافه ، فكان لكل عضو من أعضاء الزينة حلى يلائمه .

١ — ففي اليد السوار والإسوار ، وهو القلب أيضاً ، وموضعه المعصم . قال

العرندس الكلابى :

بل أيها الزاكب المغنى شبيبته يبكى على ذات خلخال وإسوار

وقال المرار بن سعيد الفقعسى :

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٧ ول ديورانت .

(٢) المرأة في مختلف العصور ٢٧ - ٢٩ .

(٣) الحضارة المصرية القديمة لوبون ٧٥ .

كما لاج تبرُّ في يدٍ لَمَتْ به كعابٍ بدا إسوارها وخضيبها<sup>(١)</sup>  
وقال النابغة الذبياني :

وأبدت سيواراً عن وشوم كأنها بقية ألواح عليهن مذْهَب<sup>(٢)</sup>  
وفيهما الدُمَلَج - بضم اللام وفتحها - وهو المِعْضَد والمِعْضَدَة<sup>(٣)</sup> ، قال عنترَة :  
وتحتي منها ساعد فيه دملج مضى ، وفوق آخر فيه دُمَلَج<sup>(٤)</sup>  
وأشَد ابن الأعرابي :

والبيض في أعضادها الدماليج وَمُعْطِيَاتٌ بَدَلٌ في تَعْوِينِج<sup>(٥)</sup>  
وإذا كان السوار من فضة فهو القَدِّ<sup>(٦)</sup> .

وقد يكون على الساعد حلِي من مرجان ، قال لبيد :

وعالين مَضْعُوفًا وفردًا سَمُوطُهُ جُمانٌ ، ومرجان يشد المفاصل<sup>(٧)</sup>  
وفي الأصابع الخواتم ، ويقال للخاتم خَيْتَمٌ أيضاً ، أشد ابن بَرِي :  
يا هند ذات الجورب المنشَقُّ أخذتِ خَيْتَمِي بغير حق<sup>(٨)</sup>

٣- وفي ساق الرجل الخَلخال ، وهو أيضاً الخَلخال والخُلْخُل ، قال الشاعر :

براقة الجيد صموت الخلل<sup>(٩)</sup>

وقال الأعشى :

وساقان مارَ اللحم مَوْرًا عليهما إلى منتهى خلخالها المتصلصل<sup>(١٠)</sup>

وقال طفيل الغنوي :

وفي الضلعين القلبُ قد ذهبَتْ به أسيلة مجرى الدمع ربا المُخَدَّم<sup>(١١)</sup>

(١) لسان العرب مادة سور (٢) ديوان النابغة ٢٨ .

(٣) لسان العرب مادة عضد (٤) ديوان عنترَة ٣٥ .

(٥) لسان العرب مادة دملج (٦) لسان العرب مادة قلد .

(٧) ديوان لبيد ٢٢ مضعوفًا : ثيابا مضعفة (٨) لسان العرب مادة ختم .

(٩) لسان العرب مادة خلل (١٠) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : تحرك واضطرب .

(١١) ديوان طفيل ٣٣ المخدَّم : موضع الخدمة وهو الخلل .

وفي تفسير قوله تعالى : ( ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن )  
أن المرأة ربما اجتازت وفي أرجائها الخخال ، وربما كان فيه الجلال ، فإذا ضربت  
بأرجلها علم أنها ذات خخال وزينة ، فتمسح عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما  
أمرن ألا يبدن ذلك ، لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه<sup>(١)</sup> .

٣ — أما الأذن فإياها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرها .

ومن أنواع حلبيها القرط وهو الشَّنْف ، أو الشَّنْف ، في أعلى الأذن ، والقرط  
في أسفلهما ، قال الراجز يخاطب امرأته :

قَرَطَكَ اللهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ عَقَارِبًا سَوْدًا وَأَرْقَمَيْنِ<sup>(٢)</sup>

وقال أبو كبير الهدلي :

وبياض وجهك لم تَحُلْ أسراره مثل الوذيلة أو كَشَنَفِ الْأَنْضَرِ<sup>(٣)</sup>  
والحِبُّ ، القرط من حبة واحدة ، وهو الخُرْصُ أيضًا ؛ أو الخُرْصُ الحاقمة من  
ذهب أو فضة قال الشاعر :

عابن لعن من طباء تبالة مذذبة الخُرْصان بادٍ نحوورها<sup>(٤)</sup>

وقد تكون القرط دلالة حسان تهتز بحركة العنق ، قال المرقش الأكبر :

يُهَدِّلُنْ فِي الْأَذَانِ مِنْ كُلِّ مُدْهَبٍ لَهُ رَبْدٌ يَعْيَا بِهِ كُلِّ وَاصِفٍ<sup>(٥)</sup>

وكنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بان الخليط الألى شاقوك إذ شَحَطُوا وفي الخدوج مهبًا أعناقها عيط

ناطوا الرعاث لمهوى لو يَزِرْكَ بِهِ لَانْدَقَ دُونَ تَلَاقِي اللَّبَّةِ الْقُرْطِ<sup>(٦)</sup>

(١) لسان العرب ١٣/٢٨٤ .

(٢) لسان العرب مادة قرط (٣) اللسان مادة شنف . الأنضر : الذهب أو الفضة .

(٤) لسان العرب مادة خرس (٥) للفضليات ٣١/٢ ربذ : عذبة .

(٦) ديوان عبيد القصيدة ٢٢ العيط : على وزن سبب وهو أعيط ومي عيطاء والجمع

عيط بكسر العين وسكون الياء (اللسان والقاموس) وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا :

علقوا . الرعاث : ج رعثة ومي القرط .

وقال النابغة :

إذا ارتعشتُ خاف الجبان رِعائِها      ومن يتعلق حيث عُلقَ يَفْرَقُ<sup>(١)</sup>  
وقد يكون دقيق الصنع يشبه فِقَرَ الجرادة أو فِقَر أمير النحل ، وتشده المرأة  
بأذنها بحيث لا يسقط ، قال سيار الأبنى :

كَانَ خَوْقَ قَرطِهَا المَعقُوبِ      عِلى دَبَابَةٍ أَوْ عِلى يَعْسُوبِ<sup>(٢)</sup>

٤ — وللعنق القملادة، وهى العقد، وقد تكون من ذهب . قال المتنب العبدى :  
أرين محاسناً وكننَ أخرى من الأحياد والبشَرَ المصُونِ  
ومن ذهبٍ يلوح على تريبٍ      كلون العاج ليس بذى غُضُونِ<sup>(٣)</sup>  
وقد تكون من ياقوت وشذر وجزع من اليمين ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :  
تَحَلَّينَ ياقوتاً وشذراً وصيفةً      وجزءاً ظفاريّاً ودرّاً تَوأمّاً<sup>(٤)</sup>  
وقد يكون من لؤلؤ وزبرجد ، قال النمر بن تولب :

أناةٌ عليها لؤلؤ وزبرجد      ونظمٌ كالأجواز الجراد مُفصَّلِ<sup>(٥)</sup>

وقال طرفة :

وفى الحىُّ أحوى يُنفضُ المرَدَ شادنٌ      مُظَاهِرٌ سِمطَى لؤلؤ وزبرجد<sup>(٦)</sup>

وقد يصاغ الياقوت دقيقاً على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

(١) ديوان النابغة ٣٩ .

(٢) الأملى ١/١٨٤ . الموق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لثلاثين .

(٣) الفضليات ٢/٨٩ .

(٤) الفضليات ٢/٤٥ : تمانين : لبس الحلى . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من ذهب .  
صيفة : ما يصنع من الذهب وليست فى العاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرهما : الخزر التمانى وهو  
نقيس . ظفار : بلد باليمن . توأم : اثنين اثنين .

(٥) جبهة أشعار العرب ١٩٦ .

(٦) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبي الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرَد :  
ثمر الأراك المدرك أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر :  
لابس ثوباً فوق آخر . شبه المرأة بالظبي فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

غرأر في كنيّ وصون واعمّة يُحَكِّينَ ياقوتا وشذراً مُفَقَّرًا<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء ، مثل قيس بن  
الخطيم<sup>(٢)</sup> وعلقمة<sup>(٣)</sup> ، والنقّب العبدى<sup>(٤)</sup> ، وعنتر<sup>(٥)</sup> .

٥ — وللوسط الوِشاح ، وهو كِرْسَان من لؤلؤ وجوهر منظومان ، يخالف  
بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقها ، وكشحيها<sup>(٦)</sup> .  
وقال أبو علي : لا يكون وشاحا حتى ينظّم بلؤلؤ أو ودع<sup>(٧)</sup>  
قال عروة بن حزام :

كأن وشاحيها إذا ما ارتدّتهما وقامت عينا مُهَيَّرَةً سلسان<sup>(٨)</sup>  
وقال عنتر :

والشمس بين مُضَرَّجٍ ومُبَلَّجٍ والعصنُ بين مُوشَّحٍ ومُقلَّدٍ<sup>(٩)</sup>  
وأنشد أبو علي :

وتكسو الوشاح الرّخو خَصْرًا كأنه إهان ذوّى عن صفرة فهو أخلق<sup>(١٠)</sup>

٦ — وقد ساعد على كثرة الخلي أن اللؤلؤ في خليج فارس ، والمرجان في  
البحار المحيطة بالعرب ، وأن التجار يمدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان  
بالذهب والنفضة والزمرد والياقوت وغيرها . ثم إن العرب يضرّبون في البلاد  
المجاورة لهم فيبتاعون منها حليا لنساءهم .

(١) ديوان امرئ القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات . مفقر : مصوغ على شكل  
فقار الجراد

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١ .

(٣) ديوان علقمة ٩ (٤) شعراء النصرانية ٤٠٦ (٥) ديوان عنتر ٧٠ .

(٦) لسان العرب مادة وشح (٧) الخخص ٩٨/٤ .

(٨) النوادر ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٨ .

(٩) ديوان عنتر ٦٩ الشمس : وجهها الجميل . مضرج : بحر . مبلج : نقي . العصن :  
قدها . مقلد : عليه قلادة .

(١٠) الخخص ٩٨/٤ إهان : عذق الكياسة .

وكانوا يعجبون بالنساء الخوالى ، ويعجبون بوسوسه الخلى ، قال الأعشى :  
تسمع للخلّى وسواسا إذا انصرفَتْ كما استعان بريحٍ عِشْرِقُ زَجَلٍ<sup>(١)</sup>  
وتصور النابغة أن الخلى يستمد للألاء من بريق ترائبها :

ترائبا يستضيء الخلى منها كجَمَرِ النارِ يُزْرِى بالظلام<sup>(٢)</sup>  
وبعد فقد وصف القرآن الكريم الجنة والخور العين في سور شتى<sup>(٣)</sup> ،  
وذكر حلين ، وما من شك في أن العرب كانوا يعرفون أصناف الخلى التي ذكرها  
القرآن الكريم .

٧ — هذه الأزياء التي كانت المرأة تختال فيها ، والخلى التي كانت تزينها  
وتحليها ، دليل على عرازة المرأة في نفسها ، وعزازتها على ذويها ، ودليل على أن  
قلب الجزيرة كان وثيق الصلة بأطرافها وبالممالك المجاورة ، يحتلب منها أنواع  
الكساء وأصناف الخلى .

ولئن كان ارتداء الكساء الفاخرة والتزين بالخلى الغالية النادرة من حظ  
النساء الثريات المترفات ، إن هذا يشعر بعلومكاتبهن وعظم تقديرهن .  
وليس فيه انتقاص من أقدار الفقيرات ، لأن الحكم هنا للوجد والمعصرة ،  
والعجز والمقدرة ، لا للعرازة والمهانة .

ولقد كان يود المملق أن يثرى ليابس نساءه مثل ماتابس المثریات ، ويمتعن  
بالخلى الذى يشبهه لئن ، وكن يشركنه في هذا الوداد ، كما تطمح المرأة المعاصرة  
في أرقى دوله متحضرة إلى أن تنعم بما تنعم به زميلتها الغنية من وسائل الرفه  
والترف ، وليس في حرمانها نقيصة لها أو نزول بقدرها .

(١) ديوان الأعشى ٤٢ : عشرق : نبات له ورق يطير إذا يبس . زجل : بصوت  
فيه الريح . (٢) ديوان النابغة ٧٣ (٣) منها سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

## الفصل الثالث

# صِنَاعَاتُ الْمَرْأَةِ

مارست المرأة في البيئة البدوية من الصناعات والأعمال العامة ما يلائم البيئة، وما تحتاج إليه الأسرة .

١ - فربت أولادها، واشتركت في الحرب، وضمدت جراح المقاتلين، كما يتبين في دراسة الحرب .

ودبرت شئون الأسرة، كما يقول الشنفرى :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحَتَّ وَأَقَلَّتْ

تَخَافُ عَلَيْنَا الْجُوعَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِياعٌ ، أَىَّ آلٍ تَأَلَّتْ <sup>(١)</sup>

وهي تداوى الجرحى والمرضى بعيدة عن ميدان الحرب أيضاً، فقد كانت لكعبية بنت سعد الأسامية خيمة بالمسجد تداوى فيها المرضى والجرحى، وهي التي عالجت سعد بن معاذ من جرحه يوم الخندق <sup>(٢)</sup>.

وكانت لرُفيدة الأنصارية خيمة في المسجد تداوى فيها الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة جرحى المسلمين <sup>(٣)</sup>.

واشتهرت بعضهن بالطب في الجاهلية، كزَيْنَبِ طَبِيبَةَ بَنِي عَوَّادٍ، كانت تعالج الأبدان، وتطب العيون، وتداوى الجراح <sup>(٤)</sup>.

لذلك يقول قيس بن الخطيم :

طَعْنَتْ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةَ نَائِرٍ لَهَا نَفْدٌ - لَوْلَا الشِّعَاعُ - أَضَاءَهَا

.. .. .. ..

(١) المفضليات ١٠٨/١ والأغاني ٩١/٢١ أو تحت : أعطت قليلاً . تألت : أقسمت .

آل : قسم . (٢) الطبقات الكبير ٢١٣/٨ والإصابة ٧٦/٨ . (٣) الإصابة ١٠/٨

وتهذيب التهذيب ٤١٨/١٢ وفيه أن رفيدة هذه هي التي سماها ابن سعد كعبية .

(٤) الطبقات الكبير والإصابة .

يهون على أن ترُدَّ جِرَاحُهَا عيونَ الأوسى إذ حَمَدَتْ بلاءَها<sup>(١)</sup>  
و يقول دراج لزوجته وقد طعن :

شُدِّي على العصبِ أم كَهَمَسَ ولا تَهْلِكِ أذْرُعُ وَأَرْوُسُ  
مَقْطَعَاتُ وِرْقَابٍ خُنْسُ<sup>(٢)</sup>

وكان محمد بن الجهم يقول : لاتبهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل  
والعجائز ، فإن كثيرا من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء<sup>(٣)</sup> .

٢ — وكانت تغزل وتنسج ، ولم يكن أحب إليهما في فراغها من الغزل  
والنسج ، وقد مارستهما اليهوديات أيضا ، لأن النبي صالح أهل مقنا على أشياء ،  
منها أن يعطوه كل عام ربع ما اغتزلت نساؤهم<sup>(٤)</sup> .

وقد مارسن مع الغزل نسج الأقمشة<sup>(٥)</sup> . فالسيدة عائشة كانت تغزل<sup>(٦)</sup> .  
وحدث النبي على تعليم النساء الغزل وحببه إليهن بقوله : « نعم لهو المؤمنة في بيتها  
المغزل » ، وذكر زياد بن السكن أنه دخل على أم سامة ويدها مغزل تغزل به ،  
فقال لها : كلما أتيتك وجدت في يدك مغزلا . فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب  
بمحدث النفس ، وإنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظمك  
أجراً أطولكن طاقة<sup>(٧)</sup> .

وقد ذكر الشعراء هذه الحرفة ، قال جندل بن المثنى الحارثي يصف سرايا :

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٥ مخطوط وشرح الحماسة للرزوق ١٨٥/١ الشعاع :  
الدم المنتشر . الأوسى : المداويات للجراح . ويذكر الرزوق أنه ذكر النساء لأن الرجال  
كانوا يأفنون من الصناعات ويعلمونها الإمام والعبيد والحرائر اللاتي لسن في غاية بعيدة  
من الشرف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١١١/٢ العصب : أطناب المفاصل وهو أيضاً الشد والطي  
وضرب من البرود ولعل المراد هنا السابري . أم كهمس : زوجته . لا تهلك : لا تخفك .  
خنس : منخفضة منقبضة من الطمن .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣٢٢/٣ (٤) فتوح البلدان ٦٧ .

(٥) فتوح البلدان ٦٠ (٦) الإصابة ١٠٩/٣ .

(٧) الأجر الجزل في الغزل للسيوطي مخطوط والطبقات الكبير .



كانه بالصَّحْحَانِ الْأَنْجَلِ قُطْنٌ سَخَامٌ بِأَيْدِي غَزَلٍ<sup>(١)</sup>  
 وَحَمْسَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ دَارَةَ قَوْمَهُ عَلَى النَّارِ ، فَقَالَ لَهُمْ إِنْ لَمْ تَتَّارُوا فَكُونُوا  
 نِسَاءً ، وَامْسِكُوا الْمَغَازِلَ بِدَلِّ الرَّمَاحِ :

لَئِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَتَّارُوا بِأَخْيِكُمْ فَكُونُوا نِسَاءً لِلْخَلْقِ وَالسُّكُخْلِ  
 وَبِيعُوا الرِّدِّيَّاتِ بِالْحَلِيِّ وَاقْعِدُوا عَنِ الْحَرْبِ وَابْتَاعُوا الْمَغَازِلَ بِالنَّبْلِ<sup>(٢)</sup>

٣ — وكان بعضهم يخترف بالتجميل والتزيين ، مثل آمنة بنت عفان أخت  
 عثمان بن عفان<sup>(٣)</sup> ، ومثل أم رعدة القشيرية التي وفدت على رسول الله وقالت  
 له : إني امرأة مقينة أقيين النساء وأزينهن لأزواجهن ، فهل هو حوب فأنببط  
 عنه ؟ فقال : يا أم رعدة ، قينين وزينين إذا كسدن<sup>(٤)</sup> . ولما اشترى النبي صفيّة  
 من دحية الكلبي دفعها إلى أم سليم حتى تهيئها ، فمسطها وعطرتها ونمستها ،  
 واشتركت معها صواحب لها ، منهن أم سنان الأسامية<sup>(٥)</sup> .

٤ -- وبعضهم احترفن بالإرضاع ، ولاسيما أهل البادية ، إذ كان الحضر  
 يسترضعون البدويات ، ويعطونهن أولادهم ليربينها .  
 ويظهر أن الذين كانوا يسترضعون لأولادهم هم الأغنياء القادرون على استئجار  
 المراضع ، وأن المراضع كن من المحتاجات .

ومن هؤلاء المراضعات سلمى بنت ظالم العامرية أرضعت ابن النعمان<sup>(٦)</sup> ،  
 والسيدة حليلة السعدية أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> ، وفي حديثها أنها  
 خرجت ومعها زوجها في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء<sup>(٨)</sup> .

(١) لسان العرب ٤/١٤ وأساس البلاغة مادة سخم . الصححان : الأرض المستوية .  
 الأنجل : الواسم . سخام : لين المس كالحز . والبيت في الأساس منسوب إلى أبي النجم .  
 (٢) حاسة البحرى ١١ الخلق : نوع من الطيب (٣) الإصابة ٣/٨ .  
 (٤) الإصابة ٢٣١/٨ (٥) الطبقات الكبير ٨٦/٨ (٦) الأغاني ٩/١٠ .  
 (٧) لسان العيون ٩٦/١ والمعارف ٤٣ (٨) تاريخ الطبرى ١٢٦/٢ .

وقد أرضعت سفيان بن الحارث أيضا<sup>(١)</sup> ، ومنهن ثُوَيْبَةُ مرضع حمزة ابن عبد المطالب<sup>(٢)</sup> ، وأم بُرْدَةُ بنت المنذر بن زيد مرضع إبراهيم بن النبي منذ ولادته<sup>(٣)</sup> .

وكانت السيدة خديجة تسترضع لأولادها قبل أن تلد<sup>(٤)</sup> .  
وإذا فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم استنجار الظنثورة ، كما كان العرب يفعلون<sup>(٥)</sup> .

على أن بعضهم كان يعيب الإرضاع ، ففي أمثالهم : تجوع الحرّة ولا تأكل بشديها . وقد فسره أبو هلال بأنها تجوع ولا ترضع لقوم على جُعل ، فيلحقتها عيب ، ويقول : كان أهل بيت زُرارة حُضَّان الملوك ، فافتخر بذلك حاجب ابن زُرارة بقوله :

حَصَّنَا ابن ماء المزن وابن مَحْرَق إلى أن بدت منهم لِحًا وشوارب  
فعا به الناس وقالوا : ما رأينا من يفتخر بالمعايب غيره ، لأن الظئر خادم ،  
والخدمة تضع ولا ترفع . وقيل في تفسير المثل إن الحرّة لا تهتك نفسها ، ولا تبدي  
ما لا ينبغي أن يبدي<sup>(٦)</sup> .

ولقد يعزز الترفع عن الإرضاع أن حسان بن ثابت رد على وفد تميم بمسمع  
من النبي وجاء في رده :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالاعند ذكر المنكارم  
هُبِلْتُمْ ، علينا تفخرون وأتم لنا خَوْلٌ من بين ظئر وخادم  
فقال رسول الله : لقد كنت غنيا يا أخا بني دارم - يريد الأقرع بن حابس -  
أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوا<sup>(٧)</sup> .

(١) المعارف ٤١ (٢) إنسان الميون ١/٩٦ .

(٤) الإصابة ٨/٦١ .

(٣) الاستيعاب ٢/٧٨٨ والإصابة ٨/٢١٥ .

(٥) المبسوط للسرخسي ١٥/١١٨ .

(٧) أسد الغابة ١/١٢٠ .

(٦) جمهرة الأمثال ١/١٨٢ .

(٢٦) - المرأة في الشعر الجاهلي

٦ — وكان منهن قابلات ، كدامى امرأة أبي رافع ، كانت قابلة السيدة مارية القبطية ، فلما ولدت إبراهيم بَشَّرَ به أبو رافع النبي فوهب له عبداً<sup>(١)</sup> ، وكانت قابلة للسيدة خديجة أيضاً<sup>(٢)</sup> . وكانت سوادة أو سَوْدَة بنت مِسْرَح قابلة للسيدة فاطمة حين وضعت الحسين بن علي<sup>(٣)</sup> .

ومنهن خافضات ، وكن محقرات ، ففي يوم أحد مر سباع بن عبد العزى العُبدشاني على حمزة بن عبد المطلب فقتل له : هلم إلى يابن مقطعة البظور — وكانت أمه ختانة بمكة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله<sup>(٤)</sup> . وقد نصح النبي لأم عطية — وكانت تختم النساء — بقوله أَشْمِيهِ وَلَا تَنْهَكِيهِ ، فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند الزوج<sup>(٥)</sup> .

٧ — ومنهن من كن ينسجن الحصر ، وينمقنها ويخرقنها ، فقد أخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت: كنا نكون في عهد رسول الله وأبي بكر وصدر من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تخالئن ، وربما غزات بعضنا فيه الخوص ، فأخرجنا منه عمر<sup>(٦)</sup> .

وكان بعض الحصر منمقاً جميلاً ، يقول النابغة الذبياني في الأطلال التي تجعدت رمالها من الريح إنها كالحصير الذي نمقته الصانعات :

كأن مجرّ الرامات ذُيُولها عليه حصيرٌ نَمَقَتْهُ الصوانع<sup>(٧)</sup>

٨ — واشتهرت رُدَيْنة بتقويم الرماح ، حتى نسبوا الرماح إليها ، فقالوا ردينية ورْدُن . وهي امرأة سَمِير ، وكانا يقومان الرماح بخط هَجَر<sup>(٨)</sup> .

٩ — وبعضهن يرعين الإبل والغنم . وسيرد في أعمال الإماء أنهن مارسن

(٢) الإصابة ٦١/٨ .

(١) الاستيعاب ٢٢/١

(٤) تاريخ الطبري ١٨/٣ .

(٣) الإصابة ١١٧/٨

(٥) الحيوان ٢٨/٧ والبيان والتبيين ٢١/٢ . أشمى : اقطعى قليلاً . لا تنهكى :

(٦) الطبقات الكبير .

لا تبالغي في التعلم

(٨) لسان العرب ٣٧/١٧ والقاموس مادة سمير .

(٧) ديوان النابغة ٤٩

الرعى كالعبيد . ويظهر أن الرعى كان من أعمال العبيد والإماء ، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات ، ولذلك يقول ذو الإصبع العدواني في خطابه لابن عمه - وكانت أمه أمة - :

عنى إليك فما أمى براعية ترعى الخاض ولا رأى بمنفون<sup>(١)</sup>  
 وحدثت سلامة الضبية أو سلامة بنت الخثر قالت : مر بي رسول الله في بدء الإسلام ، وأنا أرعى غنماً لأهلى ، فقال لى : يا سلامة بم تشهدين ؟ قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم أشهد أن محمداً رسول الله ، فتبسم ضاحكاً<sup>(٢)</sup> .  
 وظل الرعى عملاً لبعضهن إلى الإسلام ، فقد كان الجنون وليلى يرعيان غنماً لأهلهما وهما صبيان عند جبل التَّوْبَاد ، وفيه يقول بعد كبره :  
 وأجهشتُ للتَّوْبَادِ حين رأيتُهُ وكَبَّرَ للرحمن حين رآنى<sup>(٣)</sup>  
 ويدل على رعيهما معا قوله :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للآتراب من ثديها حجم  
 صفيرين رعى البهْم ياليت أنسا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم<sup>(٤)</sup>  
 وكانت الراعيات خبيرات بالمرعى ، فقد تخصصت امرأتان إلى ابنة الخس في مراعى أبويهما ، فقالت الأولى : إبل أبى ترعى الإسليح . فقالت ابنة الخس : رَغْوَةٌ وَصَرِيحٌ ، وسنام إطريح . قالت الأخرى : مرعى إبل أبى الخَلَّة . قالت ابنة الخس : سريعة الدرة والجِرَّة<sup>(٥)</sup> .

(١) الأمالى ٢٥٦/١ والفضليات ١٥٨/١ الخاض : الحوامل من النوق أو الحوامل في عشرة أشهر والمراد النوق مطلقاً .  
 (٢) الاصلبة ١١٠/٨ (٣) الأغاني ٥٢/٢ .  
 (٤) الأغاني ١١/٢ .

(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ السنديونى و ١٦٢/٢ الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت في الشتاء تسلع الإبل إذا استكثر منها . الإطريح : الذى طال ومال أحد شقيه الخلة : بضم الخاء شجرة شاكه وما فيه حلاوة من النبات . الدرة : كثرة اللبن . الجرة بكسر الجيم وتفتح ما يفيض به البعير فأكله ثانية ، واللقمة يتعمل بها إلى وقت علقه .

٩ — وكانت الثريات يمارسن أعمال الرجال أحياناً ، مثل طلاء النوق .  
الجرب ، فقد كانت الخنساء تظلي نوق أبيها ، فرآها دريد بن الصمة في مبادلها ،  
فأعجب بها وأحبها ، وقال فيها :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به      كالיום طالى أُنُقِي جُرْبُ  
متبدلاً تبدو محاسنه      يَضَعُ الهِنَاءُ مواضع النَّقْبِ  
متحسراً نَضَخُ الهِنَاءِ به      نَضَخُ العَبِيرِ بِرِيطَةِ العَصَبِ (١)

وشبيه بهذا أن يدبغن الجلود ، ويزلن عنها اللحم ، وفي أمثالهم : « حَالَاتٍ  
جارية عن كوعها » أصله في التي تضع الجلد على كوعها ، ثم تسجاه بالسكين ، فإن  
أخطأت قطعت كوعها (٢) .

وحدثت أسماء بنت عميس أن رسول الله أتاها يوماً وقد هنأت - دفتت -  
أربعين جلدًا . . . . (٣) .

١ — وكن يمتنن الكمأة ، ولم يكن هذا عمل الحقيرات وحدهن ، بل  
شاركت فيه الثريات ، فثلا حليلة بنت فضالة بن كدلة كانت مع صواحبها  
يحنن الكمأة وغيرها من نبات الأرض في الربيع ، حين أبصرن أوس بن حجر  
طريحاً لا يستطيع الحراك ، إذ سقط من فوق ناقته . والدليل على ثراء أبيها  
قول أوس :

ولم تلهيها تلك التكاليف أنها      كما شئت من أكرومة وتخوُد

(١) الأغاني ١٣/١٣٠ والوحشيات ١٧١ مخطوط والشعر والشعراء طبعة شاكر ٣٠٢  
الهناء : الفطران . النقب : الجرب . نضح الطيب : أثره في الثوب . ربطة العصب : ملاءة  
مزخرفة .

(٢) جهرة الأمثال ١/٢٣٧ وجمع الأمثال ١/١٧٦ الكوع : طرف الزند الذي يلي  
الإبهام . الحلء : قطع اللحم عن الأديم والمعنى أنها قشرت اللحم من كوعها ، وهو يضرب لمن  
يتعاطى مالا يحسنه . (٣) الطبقات الكبير ١/٢٠٦

وقوله في رثاء أبيها .

أبادُ لِيَحَّةَ من توصى بأرملة أم من لأشعث ذى طُمُرَيْنِ مُمَحَال؟  
أبا دليحة من يكفى العشيّة إذ أمسوا من الأمر في لبسٍ وبإبال<sup>(١)</sup>

١١ — والروايات كثيرة في معابة حلبها اللبن . من ذلك أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بني يربوع فقتل الرجال ، والحارث يومئذ غلام ، فبقيت النساء ، وكانت نساء بني ذبيان لا يخلبن النعم ، فلما بقين بغير رجال طفقن يدعون الحارث ، فيشد عصاب الناقة ثم يخلبنها ، ويبكين رجالهن ، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ على بغض خالد<sup>(٢)</sup> .

ويذكر الميداني أن النساء في البادية كن لا يخلبن ، لأنه عار عندهن ، وإنما يجلب الرجال<sup>(٣)</sup> .

لذلك يقول النابغة الذبياني في الهجاء :

قد رأينا مكان أمك إذ تمنع من درّة اللقيح الفصيلة<sup>(٤)</sup>  
١٢ — وكان بعضهن يرقين كخالدة بنت أنس الأنصارية ، فقد عرضت رقاها على النبي فأمر بها<sup>(٥)</sup> . ومثل الشفاء العدوية فإنها لما عرضت رقاها على النبي قال لها : ارقى بها وعلمها حفصة<sup>(٦)</sup> .

وكان منهن الفكيمة المزّاحة التي تؤنس النساء وتسليهن ، ففي سنن أبي داود : كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثاها ، بمقدمت المكية المدينة فتعارفتا ، فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وقالت

(١) الأغاني ١٠/٧ و١٨ أشعث : مغبر الرأس من شدة بؤسه . ذوطمرين : لا بس أسبالا .  
(٢) الأغاني ١٠/١٦ (٣) بجم الأمثال ٢/٣٣٥  
(٤) ديوان النابغة ٤٦ (٥) أسد الغابة ٥/٤٣٣  
(٦) الإصابة ٨/١٢١ وفتوح البلدان ٤٧٧ والطبقات ٨/٥٩ والاستيعاب ٢/٧٦١ .

للمكية : عرفت هذه ؟ قالت : لا . ولكننا التقينا فتمارفنا . فضحكت عائشة .  
وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف  
منها اثتاف ، وما تناكر منها اختلف<sup>(١)</sup> .

### ١٣ - الكهانة والعرافة

وإذ كانت الكهانة عظيمة الخطر في الحياة الجاهلية ، وإذ كانت نساء .  
شيركات قد اشتهرن بها ، فمن حقها أن أفرد لها بعناية خاصة . والكهانة بكسر  
الكاف حرفة الكاهن ، وبتحتها مصدر الفعل كَهَنَ ، وهي الإخبار بالغيب  
الذي سيقع<sup>(٢)</sup> .

وللسابقين آراء في وسائط الكاهن إلى معرفة الغيب<sup>(٣)</sup> ، ليس من موضوعي  
أن أعرض لها . وهم ينظمون في سمطها العرافين والزاجرين للطير والطارقين  
للحصى وغيرهم<sup>(٤)</sup> . وإن كان ابن خلدون يفرق بين الكاهن والعراف بأن  
الكاهن أصنى روحاً وأقوى تخيلة ، فهو يعتمد على روحه ، أما العراف فإنه  
أضعف منه ويعتمد على ظنه وترجيحه<sup>(٥)</sup> . وبعضهم يقصر الكهانة على المستقبل  
والعرافة على الماضي . ولكن الأكثر على أنهما من واحد .

والكهانة قديمة النشأة جداً لأن الإنسان كان محاطاً بقوى خفية لا يستطيع  
أن يفهم كتبها ، وكان عاجزاً عن مقاومتها ، فحاول أن يستميلها بالتضرع تارة  
وبالفن أخرى ، فنشأ الدين والسحر ، وكانا وليدى هذا الجهد المزدوج ، وكان  
طبيعياً أن يلتقيا في نقط عدة ؛ لأنهما يستعملان في غرض واحد ، وإليهما يلجأ

(١) سنن أبي داود  
(٢) القاموس مادة كهن  
(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٦١ وشرح صحيح مسلم للنووي وشرح سنن أبي داود للخداجي  
وبلوغ الأرب ٢٦٩/٣ .  
(٤) مقدمة ابن خلدون ٣٦٩ والقاموس المحيط مادة عرف .  
(٥) المقدمة ٣٧٣ .

الإنسان في حال بؤسه أو خوفه ، تضرعاً أو خيفة ، رغبة أو رهبة . ومن العبث أن نبحت فيما إذا كان السحر وليد الدين أو الدين وليد السحر ، فالاعتقادان قد ظهرا في وقت واحد ، أملاهما مظهر العالم والطبيعة<sup>(١)</sup> .

وقد عرف العرب الكهانة ، وكثر فيهم الكهان والكواهن . فمن الكهان عَزَى سَلَمَة ، وشِقِّ بن أَمَّار ، وحازِي جُهَيْنَة ، وسَطْلِيح بن مازن الفسائي<sup>(٢)</sup> ، وخُفَّار بن التَّوَّام الحميري<sup>(٣)</sup> ، وسَوَاد بن قارب الدوسي<sup>(٤)</sup> . ومن العرافين رَبَّاح ابن عِجْلَة عراف اليمامة ، والأباق الأسدی عراف نجد<sup>(٥)</sup> ، وهما اللذان ذكروهما عروة بن حزام في قوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه      وعراف نجد إن هما شفياني  
فقالا: شفاك الله ، والله مالنا      بماضمت منك الضلوع يدان<sup>(٦)</sup>

أما النساء الكواهن فمكثير :

١ — منهن عُفَيْرَاء الكاهنة الحميرية ، ومن قصتها أن مرَّ ثَد بن عبد كلال انتصر في غزاة وغم ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه . ثم رأى رؤيا أذعرتة في منامه ، ولم يستطع أن يتذكرها في صحوه فخرن ، وجعل يسأل الكهان فلا يعلمون ما بنفسه ، فاشتد حزنه وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ؛ لأن أتباعهن من الجنّ اللطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشد الكواهن إليه ، وسألهن فلم يجد عندهن علما . ثم اهتدى مصادفة إلى عفيرة ،

(١) مصر القديمة ٧/٦٣٠ سليم حسن ومقدمة المحاضرات الأولى ٤٨ - ٥٦ جستاب لوبون .  
(٢) البيان والتبيين ١/٢٨٩ و٣٠٨ .  
(٣) بلوغ الأرب ٣/٢٩١  
(٤) المرجع السابق ٣/٢٩٩  
(٥) مقدمة ابن خلدون ٣٧٤  
(٦) الأغاني ٢٠/١٥٥ والنوادر للقالى ١٦١ ومقدمة ابن خلدون ٣٧٣ .



فعرفت حامه الذى كان قد نسيه ، وقصته عليه ، وأوثنته له ، فسرّ منها ، وأهدى إليها مائة ناقة كَوْماء<sup>(١)</sup> .

٢ — ومنهن زَبْرَاء ، وهى أمة من مولدات العرب كانت تُخوِّبُ من بنى رثام ، وقد أُنذرت بنى رثام وهم فى عرس لهم بأن بنى داهن يبيتون الشر لهم ، فكذبها بعضهم ، وبقوا فى عرسهم ، وصدقها آخرون فانصرفوا ، فطارتهم بنو داهن وناعب فقتلوا من فى العرس<sup>(٢)</sup> .

٣ — ومنهن طَرِيفَةُ الكاهنة ( بضم الطاء وفتح الراء أو بفتح الطاء وكسر الراء ، أو طريفة بالطاء المفتوحة ) . وهم ينسبون إليها التكفين بسيل العرم ؛ لأنها رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى سيل فيدمر الجنتين ، وأُنذرت بذلك عمرو بن عامر الذى يقال له مزقياء بن ماء السماء ، فباع أمواله وارتحل هو وقومه حتى اتهبوا إلى مكة ، وكانت طريفة معهم ، ثم أصابتهم الحمى ، فأشارت عليهم أن يتفرقوا فى جهات آخر ، فأطاعوها<sup>(٣)</sup> .

٤ — ومنهن عرافة الحجاز ، وهى التى احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله ، ومنعه بنوه وأخواله بنو مخزوم وعطاء قريش ، وذهبوا إليها يسألونها ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا ، عشر من الإبل . قالت : فارجعوا ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عايبها وعليه بالتداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه . فعادوا وضربوا بالتداح ، فكانت تخرج على عبد الله ، حتى بلغت مائة ، فخرجت على الإبل فذبحوها وتركوها للآكلين

(١) بلوغ الأرب ٣/٢٩٦ . (٢) الأمالي ١/١٢٦ .

(٣) مروج الذهب ١/٢٣٩ وأخبار مكة للأزرقي ٥٢-٥٥ والأغانى ١٣/١٠٥ وجمع الأمثال للبيداني ١/٢٥٣ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ١/٢٨٦ والأعلام النفيسة لابن رسته

ونجا عبد الله<sup>(١)</sup>.

٥ — ومنهن كاهنة بنى سعد اسمها هُدَيْمٌ ، وكأنت بالشام ، وهي التي كان يريد الاحتكام إليها عبد المطلب وقريش حين تنازعوا في حفر زمزم<sup>(٢)</sup>.

٦ — ومنهن العَيْطَلَة - كاهنة من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة ، وهي أم الغياطل - التي قيل إنها تنبأت ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٣)</sup> ، وفي مسند أحمد ابن حنبل أن كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاما<sup>(٤)</sup>.

٧ — ويطول القول إذا فصّلنا أخبار هؤلاء ، وأخبار غيرهن ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهن كفاطمة بنت مرّ الخثعمية<sup>(٥)</sup> ، والزرقاء بنت زهير<sup>(٦)</sup> ، وكاهنة بنى حدّس<sup>(٧)</sup> . وبعضهن كن حسيبات كأُم مرثد السابقة ، وسلمى الممدانية<sup>(٨)</sup> ، وغيرها<sup>(٩)</sup>.

### سجع السكواهن :

كان الكهّان والسكواهن يعمدون إلى لغة مسجوعة ، لا فرق فيها بين سجع الرجال وسجع النساء ، مثل قول زبراء لبني رثام تنذرهم بهجوم أعدائهم :  
واللوح الخفافق ، والليل الفاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن  
الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود  
لينذر تُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلَى<sup>(١٠)</sup>.

- (١) سيرة ابن هشام ١٦٦/١ وأخبار مكة للأزرقي ٢٨٨ وتاريخ الخميس ٢٠٧/١  
وتاريخ الطبري ٢٧٤/٢ وفي تاريخ الخميس أن اسمها سجاح أو قطبة .  
(٢) سيرة ابن هشام ١٥٥١ (٣) سيرة ابن هشام ٢٢٥/١  
(٤) المسند ٣٣٢/١ وتاريخ ابن عساكر ٣٦٧ .  
(٥) مجمع الأمثال ٤٦/٢ (٦) الأغاني ١٥٥/١١  
(٧) سيرة ابن هشام ٤٣٨/٣  
(٨) الأمالي ١٢١/٢ . (٩) جبهة خطب العرب ٢٣٩/١ - ٣٥٢ .  
(١٠) الأمالي ١٢٦/١ اللوح : الهواء . يادو : يخنل . عصلا : معوجة . معلى : منجاة .

ومثل قول طريفة لقومها وقد أصابتهم الحمى في مكة : « من كان منكم ذا عجمٍ بعيد، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلق بقصر عمّان المشيد . ومن كان منكم ذا جاد وصبر ، على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مُرّ . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوَحْل ، المطاعم في المَحْل ، فليلق بيثرب ذات النخل . ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ، والمُلك والتأثير ، ولبس الديباج والحريز ، فليلق ببُصري وعَوير . ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخليل العتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهرق ، فليلق بأرض العراق <sup>(١)</sup> .

ومثل قول الرقاء بنت زهير وقد سألتها قومها حين نزلوا بهجر : ما تقولين يازرقاء؟ قالت : « سَعَفٌ وإهان ، وتمر وألبان . خيرٌ من الحوان . . . » <sup>(٢)</sup> . وكان هذا السجع ضروريا للكهان والكواهن ، لأن له رنيناً موسيقياً ، ووقعا جميلا ، فيؤثر في النفس ، وتجذب موسيقاه قلوب السامعين ، فيموه عليهم الكاهن أو الكاهنة ، ويمتلك عواطفهم ، ويخدر وعيهم ، ويخدشهم بما يزعم أنه عليم به ، فيسمع الناس عنه مصدقين لما يقول ، غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه . لذلك كثيراً ما لجأ الساجعون من الكهان إلى نوع من الغموض ، لتحتمل الكلمة أو الجملة عدة معان ، وليذهب السامعون في فهمها كل مذهب . « والترنيم هو الأساس الذي قام عليه السحر ، ومن المهم كما يقول المصريون التمداء أن يكون الصوت مضبوطاً ، لأن الصوت هو الذي يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما يقول كمباريو ، وما يصدق على الموسيقى يصدق على الشعر أيضاً <sup>(٣)</sup> .

(١) أخبار مكة للأزرقي ٥٢ ومروج الذهب ٢٣٩/١ والأعلاق النفيسة ١١٤/٧ وجمع الأمثال ٥٢٣/١ .

(٢) الأغاني ١١/١٥٥ ومجمع ما استعجم للبكري ٢٢/١ .

(٣) مبادئ علم الاجتماع الديني ٤٧ تأليف باستيد ترجمة محمود قاسم .

لذلك نهى النبي عن سجع الكهان خاصة<sup>(١)</sup>.

### ردود الكهانة على علوم مظنة المرأة :

ومما يسترعى النظر أن الأحداث الكبار ، والهجرات المشهورة ، وتفرق القبائل في أماكن شتى ، كانت مصحوبة بذكر الكاهنات وسجعهن ، وقد سبق سجع طريفة لما تنبأت بسيل العرم ، ولما أشارت على قومها بالتفرق من مكة فأطاعوها ، ونزلوا بأماكن شتى<sup>(٢)</sup> . كذلك لما تفرقت قضاة في البلاد ونزل بعضهم بهجر أشارت عليهم بالرحلة إلى الخيرة فأطاعوا<sup>(٣)</sup> .

وكذلك سبق أن عبد المطلب لما نازعته قريش في زمزم هم بالاحتكام إلى كاهنة بالشام ، وأنه احتكم إلى أخرى بالحجاز لما عزم على قتل ابنه عبد الله ، وأن كاهنة تنبأت بالبعثة الحمديّة .

ولست أريد بذكر هذا أن يكون تصديقاً للكواهن ، وإنما أريد أن العرب كانوا يُجَلُّون الكهان - من رجال ونساء - ويحتكمون إليهم في المشكلات ، ويصدرون عن رأيهم . وقد نسبوا إلى الكواهن أحداثاً أعظم مما نسبوا إلى الكهان ، وسواء أكان لها نصيب من الصحة أم لم يكن ، فإنها دليل على أن المرأة كانت في نظرهم جديرة بأن تُسْتَفْتَى ، وأن تنبئ بالغيب ، وأن يطاع نصيحها ، وتتبع مشورتها ، كما سنرى عند الأشوريين .

### شك المرأة العربية في الكهانة :

شك رجال في صدق الكهان والكواهن ، مثل المرقم<sup>(٤)</sup> ، وربيعة

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٤ - ١٢٦ .

(٢) أخبار مكة ٥٢ - ٥٥ ومعجم البلدان ٧/٣٥٥ ومروج الذهب ١/٢٣٩ وجمع

الأمثال ١/٢٥٣ .

(٤) حاسة البحرى ٢٥٥ والأغاني ٩/١٥٧ .

(٣) الأغاني ١١/١٥٥

ابن مقروم<sup>(١)</sup> ، وعاقمة بن عبدة<sup>(٢)</sup> ، والنايفة الذيباني<sup>(٣)</sup> ، ولييد<sup>(٤)</sup> .

وشكت نساء في صحة الكهانة كما شك الرجال . من هؤلاء هند بنت عتبة ، فإن زوجها الفاكه بن المغيرة ظن بها سوءاً فألحقها بألها ، ولم تسكن تعرف لنفسها جرماً ، واستوثق أبوها من براءتها ، فخرج بها في وفد من النساء والفاكه معه إلى بعض الكهنة ، فلما شارفوا بلده تغيرت هند وامتقع لونها ، فقال لها أبوها : إني أرى ما بك ، وما ذلك إلا لمكروه عندك ، فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا . قالت : يا أبت إن الذي رأيت مني ليس لمكروه عندي ، ولكنني أعلم أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب ، ولا آمن أن يسمني ميسماً يكون عليّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإني سأمتحنه قبل أن نسأله . وامتحنه فعرف صدقه ، ثم قصوا عليه أمر هند فقضى ببراءتها<sup>(٥)</sup> .

### الكهانة في الأمم :

لا يكاد يخلو شعب من الكهانة ، فقد كان الأشوريون - وهم أقدم الأمم السامية - يعتقدون أن المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تفهم السحر وتمارسه ، وأن تعرف الغيب وتتكهن به<sup>(٦)</sup> .

وكان في مصر كاهنات ، زعم هيرودوت أنه كان محرماً على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أم لمعبودة . وهذا قول لا نصيب له من الصحة ، لأن النساء كن يستخدمن في المعابد ، وكثيراً ما وجدنا ذكراً

(١) حاسة البحرى ٢٥٧ (٢) الفضليات ٢٠١/٢

(٣) ريبم الأبرار ١٢٣ مخطوط والعمدة ٢٠٢/٢ والبيان والتبيين ١٨٤/٣ والحيوان

١٣٨/٣ .

(٤) ديوان لييد (٥) شرح نهج البلاغة ١١٢/١ .

(٦) مقال المذكر والمؤنث : . عمر الدسوقي . الرسالة العدد ( ٢٨٥ ) ١٩ ديسمبر

١٩٣٨ . عن :

لكاهنات ، وخاصة في عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت<sup>(١)</sup> .  
 وليس هذا بمعجيب في الشرق عند قدماء المصريين وغيرهم ، لأن السحر  
 كان عظيم الأثر في حياتهم<sup>(٢)</sup> .  
 وكان في اليونان والرومان كهان وكاهنات ، وإن كان النساء أقل عدداً<sup>(٣)</sup> .  
 ثم كانت في أوروبا في العصور الوسطى ساحرات قاسيات يزعمن أنهن  
 على صلة بالله ، ويرى الناس أنهن على صلة بالشیطان ، وقد حوكن أمام محاكم  
 التفتيش وقطن ، وأحرقن ورجمن ، وأحرقن منهن آلاف في دول شتى<sup>(٤)</sup> .

#### ١٤ — معرفتها الفريدة والمكثابة :

نعرف أن عرب الجاهلية كانوا يتعاملون بالتجربة والملاحظة والمخاطبة ،  
 وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به . فالبداوة كانت غالبية على العرب ،  
 وهي طور اجتماعي طبيعي تجتازه الأمم في سيرها إلى الحضارة ، ومن شأنها  
 ألا تتيح للبداوة دراسة منظمة ، ولا تفكيراً متفلسفاً ، ولا تعمقاً في الربط  
 بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعللها ، وإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم  
 فهي نتاج طبعه ، وخطرة من فكره .

وبديهي أنني لا أعنى بالثقافة أو المعرفة أن العرب كانت لهم علوم ذات  
 أصول وقواعد ، لأن طور البداوة يناقض ذلك ، وإنما أعنى المعرفة التي تستمد  
 من الفطرة والبيئة والأحداث ، كالذي قاله ابن خلدون في طب الجاهلية :  
 « وللبداية من أهل العراق طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على  
 بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى ومعجزه ، وربما يصح منه البعض ،  
 إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب

(١) ديانة قدماء المصريين ٧٣ إستيندروف الألمانى ترجمة سليم حسن .

(٢) المرجع السابق ٨٣ (٣) الإلياذة ٤٦٤ .

(٤) المرأة في مختلف العصور ٤٣ .

من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون<sup>(١)</sup> .

وأقصد في هذا الفصل إلى تبيان نصيب المرأة من الثقافة في العصر الجاهلي ، لأرؤز قيمتها ومكاتها من هذه الناحية أيضاً ، ولأتعرف قدرها بالقياس إلى أقدار الرجال .

١ - لكنني أرى أن أقدم للموضوع بخلاء هذه الفكرة : أكان العرب يعرفون الكتابة والقراءة ؟ أم أنهم كانوا كما أشيع عنهم جهلة لا يكتبون ولا يقرءون ؟ ثم أبين نصيب المرأة من هذا الجهل أو من هذا العلم .

أما العرب البداة فإنهم ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لأن الحياة البدوية تباعد ما بينهم وبين هذه المعرفة ، وهذا شأن البداة في كل الأمم .  
وأما أهل الحضرة فقد كان بعضهم على علم بالكتابة والقراءة قبل بزوغ الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فقد وُجِدَت كتابات عربية في جنوبي الجزيرة من عهد دولة معين ، وسبأ وحِمَير ، وجمع المنقبون مئات الألواح والصور منها . وقد كتب العرب على قبة غُمدان ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المُشَقَّر ، وعلى الأَبْلَق الفرد<sup>(٢)</sup> .

ووردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلمون أبناءهم الكتابة في الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة في داره بعد مقتل أبيه ، فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ولد سماه زيدا باسم أبيه . وكان لحمد صديق من الدهاقين العطاء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حماداً

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٠٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٦٨/١ غمدان : قصر بين صنعاء وطبوه . مأرب : بين صنعاء وحضرموت باليمن . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حصن السوءل بتيما .

أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الفارسية فلقنها ، وتولى كتابة العربية لكسرى<sup>(١)</sup> .

تعلم عدى بن زيد في كُتَّاب عربي ثم كُتَّاب فارسي ، وصار من أكتب الناس بالعربية والفارسية وكتب بالعربية في ديوان كسرى<sup>(٢)</sup> ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده<sup>(٣)</sup> . وقد تعلم المرقش الأكبر هو وأخوه حرمة الكتابة من نصراني بالخيصة ، وكان يكتب شعره<sup>(٤)</sup> .

وقد دونوا تاريخهم في الجاهلية ، فإن هشام بن محمد الكلبي قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولى منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الخيرة<sup>(٥)</sup> .

ودونوا الشعر أيضاً ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس ، أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي ، وقال ابن رشيق مثل ذلك<sup>(٦)</sup> . وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان ، أو ما صار منه<sup>(٧)</sup> . وابن جنى يقول : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطُّفُوج - الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار<sup>(٨)</sup> .

(١) الأغاني ١٠٠/٣

(٢) الأغاني ١٠٩/٢

(٣) الأغاني ١٠١/٢

(٤) الأغاني ١٨١/٥ والشعر والشعراء ٥٥ وشرح المفضليات لابن الأنباري ٤٦٠

والمعارف ٣١٩ .

(٥) العمدة ٦١/١

(٥) تاريخ الطبري ٣٧/٢

(٨) الخصائص لابن جني ٣٩٣

(٧) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٣



وقد فصلت القول في تدوينهم بعض الشعر في العصر الجاهلي بكتابي  
( الحياة العربية من الشعر الجاهلي<sup>(١)</sup> ) .

وقد عرف الحجازيون الكتابة ، لأنه لما ظهر الإسلام كان في قريش  
سبعة عشر رجلاً يكتبون ، ذكر أسماءهم البلاذري<sup>(٢)</sup> .

وقد كان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربي ويعلمونه صبيان المدينة  
في يثرب ، فتعلم منهم الأوس والخزرج ، فكثرت كتبهم من قلة ، وبلغوا  
أحد عشر ، منهم حُضَيْرُ الكاتب ، وسُوَيْدُ بن الصامت ، وعبد الله بن أبي<sup>(٣)</sup> .  
وفي موقعة بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من المسالمين  
الكتابة<sup>(٤)</sup> ، وهذا دليل على معرفتهم بها .

وقد ذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة  
مكتوب :

أَلْهَى قُصَيًّا عَنِ الْمَجْدِ الْأَسَاطِيرِ      وَرَشُوَةٌ مِثْلُ مَا تُرْشَى السَّفَاسِيرِ  
وَأَكَلَهَا اللَّحْمَ بِحَمًا لَا خَلِيطَ لَهُ      وَقَوْلُهَا رَحَلَتْ عَيْرٌ أَتَتْ عَيْرِ  
فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا مَا قَالَهَا إِلَّا ابْنُ الزَّبَعْرِىَ<sup>(٥)</sup> .

وروى أن ورقة بن نوفل كان في الجاهلية يكتب كتابة عبرية<sup>(٦)</sup> .

ثم إننا نعلم أن قريشاً تأمرت على النبي ومن أسلم معه ، وتعاقدت في صحيفة

(١) الطبعة الرابعة

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦٠/٢ وفتوح البلدان للبلاذري ٤٧١ وعيون الأخبار ٤٣/١  
والمعارف ٢٧٣ والمزهر ٣٥١/٢ .

(٣) فتوح البلدان ٤٧٣ - ٤٧٩ .

(٤) الكامل للبرد ٢١٣/١ والسيرة الحلبية ٢٥٤/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل  
٢٤٧/١ وإمتاع الأسماع ١٠١/١ .

(٥) طبقات الشعراء ١٩٧ الأساطير : الحرافات . السفاير : ج سفسير وهو السمسار .  
أكلها اللحم بحتاً : كناية عن الفقر لأنهم يأكلون اللحم بغير خبز .

(٦) الأغاني ١٣/٢٠ .

مكتوبة على أن يقاطعوا بني هاشم وبني عبد المطاب ، وعلقوا الصحيفة في الكعبة ، وقد دعا رسول الله على كاتبها فمثل بعض أصابعه<sup>(١)</sup> .

وقد كتب النبي إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمتوقس وإلى ابني الجاندی ملك عمان : جيفر وعياذ أو عباد ، وإلى العباهة من حمير ، وإلى هودبة بن علي ، وإلى الملوك والعطاء<sup>(٢)</sup> ، وكان له نحو أربعين كاتباً لكل منهم عمل أو أكثر ، وهم كلهم أو جايم عرفوا الكتابة قبل الإسلام .

ثم إن في اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه<sup>(٣)</sup> ، والشعر الجاهلي حافل بالدلالة على الورق الذي يكتب فيه .

فمثلاً يقول الحارث بن حلزة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لمن الديار عَمَوْنَ بِالْحَبْسِ آيَاتُهَا كَمَا أَرَقَ الْفُرسُ<sup>(٤)</sup>

وهو نفسه يذكر أن حلف ذى الجواز كان مكتوباً :

واذكروا حلف ذى الجواز وما قدّم فيه العهود والكفلاء

حَدَرَ الْخَوْنِ والتعدى وهل تُنْقَضُ ما في المِهَارِقِ الْأَهْوَاءِ<sup>(٥)</sup>

لأنهم كانوا في الجاهلية يدعون من يكتب لهم الحلف والهدنة ، تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان . والمهاريق التي وردت في قول الحارث بن حلزة ليس يراد بها الصحف والكتب ، لأنه لا يقال للكتب مهاريق حتى تكون كتب دين أو عهود وميثاق وأمان<sup>(٦)</sup> .

ويقول البُعَيْث بن حُرَيْث الحنفي :

لمن طلل كروضات السخال تأبده كالمهاريق البوالى<sup>(٧)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٣٧٢/١ (٢) الحيوان ١/٩٨ .

(٣) بلوغ الأرب ٣/٣٦٧ - ٣٧٩ .

(٤) الفضليات ١/١٣٠ المهاريق : جمع مهريق : الصحيفة معرب .

(٥) البيان والبيان ٦/٣ وشرح القصائد العشر للتبريزي ٣٦٩

(٦) الحيوان ١/٦٩ (٧) معجم البلدان ٤/٣١٧

على أننا نجد في شعر أبي ذؤيب الهلالي وصفًا لكاتب يمني يكتب ديناه  
على رجل مشهور بالوفاء :

عرفتُ الديار كرقمِ الدوا      ة يَزْبُرُهُ الكاتبُ الحِمَيْرِيُّ  
برقمِ ووشى كما زُحِرْفَتْ      بمِشمِها المزدَهَاءَةُ الهَدِيُّ  
أدان ، وأنبأه الأولو      ن أن المدان المَلِيَّ الوَفِيُّ  
فَنَمَمَ في صُحُفِ كَالرِّيا      ط فيمنِ إرثُ كتابِ مَحِيٍّ<sup>(١)</sup>  
ونجد في شعر عاباء بن أرقم ذكرًا للدين المكتوب :

أخذتُ لدينٍ مطمئنٍ صحيفَةً      وخالفتُ فيها كل من جار أو ظلم<sup>(٢)</sup>  
وكذلك في شعر الممزق العبدى :

فلا أنا مولاهم ولا في صحيفه      كفلتُ عليهم والكفالة تَعَنَّقِي<sup>(٣)</sup>  
وقد أكثروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رسالها ، والخطوط المنتظمة  
التي تصنعها الرياح فيها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من  
هذا التصوير كثرة تدعونا إلى أن نصحح نظرنا إلى العصر الجاهلي .

فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التي تحكى عنهم ، لأن هذا  
الفيض من التشبيه ينبىء عن معرفة بالورق وبالكتابة عند بعض الشعراء المشبهين  
على الأقل ، ومن خصائص التشبيه في العصر الجاهلي أنه لا ينجح إلى العلائق  
الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما ينجح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسى  
للمشبه والمشبَّه به ، فالتشبيه هنا ليس منبعثًا عن تخيل أو محاكاة ، وإنما هو  
تصوير لعلاقة يحددها الشاعر بين منظر الأثر العاقى وبين الكتابة .

ومن ذلك تصوير معاوية بن جعفر عم ليلى لأثار الدار بأنها كتابة

(١) ديوان المهذلين ١/٦٤ . يزره : يذبره : يكتبه . الينم : الإبرة التي تشتم بها  
المرأة كنفها . المزدهاة : المعجبة . الهدى : العروس . أدان : باع إلى أجل فصار له دين على  
المشترى . الأولون : كبار السن . الملى : الموسر . الرباط : جمع ربطة وهي الملاءة لم تلتق .  
إرث : أصل .

(٢) الأصمعيات ١٨٠ .

(٣) الأصمعيات ١٩٠ تعنى : تحتبس أى أن الكناية تحبس صاحبها على الوفاء بما كفل

ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق يتخوف أن ياحقه عيب :

فإن لها منازلَ خاويات على كَمَلَى وقفتُ بها الركابا  
من الأجزاء أسفلَ من نَمِيلٍ كما رجعتَ بالقلم الكتابا  
كتابَ نَحْبَرٍ هاجِ بصير مُنَمِّقُهُ وحاذِرَ أن يعابا<sup>(١)</sup>  
وقول الأحنس بن شهاب التغلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، لأن  
العنوان مجود الخط واضحة :

لابنة حِطَّانَ بن عوف منازل كما رَقَّشَ العنوانَ في الرِّقِّ كاتب<sup>(٢)</sup>  
وقول امرئ القيس إن الآثار مثل الكتاب المخطوط في سعن النخل  
الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لمن ظل أبصرته فشحجاني كخط الزبور في العُسيب اليماني<sup>(٣)</sup>  
وقول طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التي تمقها كاتب في  
وضح النهار ، وذلك أجود لها :

أشجاك الربع أم قِدْمُهُ أم ترابٍ دارسٌ حَمَمُهُ  
كسطور الرق رَقَّشَهُ بالضحا مرَقَّشَ يَشْمُهُ<sup>(٤)</sup>  
ومثل هذا ورد في شعر حاتم<sup>(٥)</sup> والمرقش الأكبر<sup>(٦)</sup> وثعلبة بن عمرو العبدى<sup>(٧)</sup>  
وقد جاء ذكر الورق الشامي في وصف طرفة لناقته ، وتشبيهه بياض  
خدها بالقرطاس<sup>(٨)</sup> .

(١) الفضليات ١٥٧/٢ نمل : ماء بقرب المدينة . الأجزاء : منعطفات الوادي . نميل :  
تصغير نمل على حذف الزيادة كما قال البكري . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر :  
محسن . هاج : قارىء .

(٢) الفضليات ٤/٢ والأحنس هذا جاهلي لا صحابي كما توهم الفيروزا بادي إذ التمس  
عليه بالأحنس بن شريق .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٨٦ .

(٤) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢٤٦/٢ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٥) شعراء النصرانية ١١٨ (٦) البيان والبيان ٢٨٨/١ والأمالى ٢٤٦/٢

(٧) الفضليات ٨١/٢ (٨) ديوان طرفة ١٩ .

وجاء ذكر المجلة في مدح النابغة للغساسنة ، والمجلة الصحيفة ، فقد قال أبو جاتم إن بيت النابغة يروى مجاتهم ومحاتهم ، فمن روى مجاتهم فقد أراد الصحيفة ، ومن روى محاتهم فقد أراد بلاد الشام . قال النابغة :

مجاتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون خيراً العواقب<sup>(١)</sup>

ثم إن القرآن الكريم كثيراً ما ذكر الكتابة والصحف والقلم والقراءة ، وليس بمعقول أن يخاطب بهذا قوماً يجهلون الكتابة والقراءة . من ذلك قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق<sup>(٢)</sup> » و : « كراماً كاتبين يعلمون ما تتعلمون<sup>(٣)</sup> » و « في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة<sup>(٤)</sup> » و « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه<sup>(٥)</sup> » و : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً<sup>(٦)</sup> » و : « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى<sup>(٧)</sup> » و : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا بعد ما جاءتهم البينة<sup>(٨)</sup> » و : « لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون<sup>(٩)</sup> » و : « لو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين<sup>(١٠)</sup> » و : « هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه<sup>(١١)</sup> » و : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحتفون كثيراً<sup>(١٢)</sup> » .

- |                           |                      |
|---------------------------|----------------------|
| (١) الأمل ١/٢٤٥           | (٢) سورة العلق آية ١ |
| (٣) سورة الانقطار آية ١٠  | (٤) سورة عبس آية ١٤  |
| (٥) سورة الحاقة الآيات ١٩ | (٦) سورة الإسراء ١٤  |
| (٧) سورة الأعلى ١٨        | (٨) سورة البينة ٢    |
| (٩) سورة الأنبياء ١٠٥     | (١٠) سورة الأنعام ٧  |
| (١١) سورة الأنعام ١٠٥     | (١٢) سورة الأنعام ٩١ |

وإذا فليس بصحيح ما شاع عن جهل العرب بالخط، سواء في ذلك ما يكرره بعض المؤرخين المسلمين وما يقرره بعض المستشرقين مثل نيكلسون<sup>(١)</sup>.

ب — وإذا فما معنى أميين في القرآن الكريم؟

كيف تتفق معرفة العرب القراءة والكتابة مع قوله تعالى: « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »<sup>(٢)</sup>؟

الذي يظهر من سياق الآية الكريمة ومن تفسيرها أنه لا تعارض، ذلك بأن العرب أمة أمية، على معنى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى، يهديهم بالقرآن الكريم، ويعلمهم ما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وابن زيد<sup>(٣)</sup>. ويعزز هذا التأويل ختام الآية « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » أى أن هؤلاء الأميين كانوا قبل النبي وقبل القرآن الكريم في ضلال من عقائدهم.

على أن النيسابورى يورد رأياً آخر في تفسير الأميين، فيقول إن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب أو أم القرى<sup>(٤)</sup>، ويشاركه في ذلك ابن عبد ربه<sup>(٥)</sup>، وهو رأى ضعيف.

وأما قوله تعالى: « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل . . . . . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى . . . »<sup>(٦)</sup>. فإن الأمى هو النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup>، إما لأنه لم يقرأ الكتب التى كانوا

(١) Nicholson. P. 31

(٢) سورة الجمعة ٢ (٣) تفسير الطبرى ٦١/٢٨ - ٦٢ .

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٦٤/٢٨ .

(٥) العقد الفريد ١٦٣/٢ المطبعة الشرفية .

(٦) سورة الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ (٧) تفسير الطبرى ٥٦/٩ .

يقرءونها و يدينون بها ، وإما لأنه لم يطلع كتابا ولم يصاحب معلما<sup>(١)</sup> .  
 وفي قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإنهم إلا يظنون  
 فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به  
 ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »<sup>(٢)</sup> . فإن المراد  
 أناس من اليهود ، وهم أميون أى لا يقرءون ولا يكتبون ، كقوله صلى الله  
 عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أو أنهم لا يحسنون أن يكتبوا  
 فيطالعوا التوراة .

وروى عن ابن عباس أن الأميين قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله  
 ولا كتابا أنزله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا قوم سفلة جهال : هذا من  
 الله . وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجهودهم كتب  
 الله ورسله<sup>(٣)</sup> .

وإذا فايست كلمة أميين فى القرآن الكريم دالة على العرب وحدهم ، فقد  
 أطلقت على اليهود أيضا ، ولم يتفق المفسرون على أن معناها الجملة بالقراءة  
 والكتابة ، فقد ذهب بعضهم إلى أنهم الذين ليس لهم كتاب سماوى يدينون به ،  
 أو إلى أنهم الذين لا يحسنون أن يكتبوا و يقرءوا .

لكنى أرجح التأويل الأول ، وهو أن الأميين من ليس لهم كتاب سماوى .  
 وعلى فرض أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، فإن القرآن  
 الكريم أطلق هذا الوصف مراعيًا الحال العامة فى العرب ، لأن أكثرهم  
 لا يقرءون ولا يكتبون ، وشتان بين أن يكون الشعب كله جاهلا بالكتابة ،  
 وبين أن تكون الكثرة جاهلة .

وهذا الحكم لا يتعارض مع ما أسلفت من معرفة العرب بالكتابة .

(١) النيسابورى ٥٩/٩ والعقد الفريد ١٦٢/٢ (٢) سورة البقرة ٧٨ و ٧٩ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٦٩/١ والنيسابورى ٣١٨/١ .

لأننا في مصر في القرن العشرين ما زلنا نحارب الأمية المتفشية ، على أن في مصر بضعة ملايين يقرءون ويكتبون ، ومازلنا نقول إن مصر قطار زراعي ، ناظرين إلى غلبة الزراعة على غيرها ، وإن كان فيها كثير من الصناعات والتجار والموظفين والعلماء .

ح — كان بعض النساء يعرفن الكتابة والقراءة وبعضهن يعالمنها ، منهن فاطمة بنت مَرَّ الخُعمية ، كانت قد قرأت الكتب في الجاهلية<sup>(١)</sup> :

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد قتل أبيه ، ثم كان من أكتب الناس ، وكتب للنعمان الأكبر<sup>(٢)</sup> .

ومنهن الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية ، كانت تكتب وترقي . وقد قدمت على النبي قبل الهجرة فسال لها : ما عليك أن تعلمي حفصة رُقِيَةَ الثمالة كما علمتها الكتابة<sup>(٣)</sup> . فكانت حفصة وأم كلثوم من زوجات النبي تكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرأن المصحف ولا تكتبان<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن هؤلاء النسوة القارئات الكاتبات قائل ، لأن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هنالك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ، ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن تتعلم النساء القراءة والكتابة ، لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومن عجب أن ينسب إلى عمر قوله في النساء : « جنبوهن الكتابة » وإلى علي بن أبي طالب أنه قال لرجل يعلم امرأة الخط : « لاترد الشر شرّاً »<sup>(٥)</sup> ، فإننا لا نجنح إلى تصديق شيء من هذا . وكيف يحث النبي الشفاء العدوية على أن تعلم زوجها الكتابة ثم يقول عمر وعلى هذا ؟

(١) الروض الأوفى ١٠٤/١ وجمع الأمثال للبيداني ٤٦/٢ . (٢) الأغاني ٢/١٠١

(٣) الإصابة ١٢١/٨ والاستيعاب ٧٦١/٢ وفتوح البلدان ٤٨٧ .

(٤) فتوح البلدان ٤٧٣ . (٥) صبح الأعشى ٦٤/١



وإنما يقال هذا في عصور الضعف الخلقى والسياسي ، حيث يشيع سوء الظن  
بالمرأة ، ويتوهم الرجال أن تعليمها يفسدها أو يضاعف شرها ، وحيث يزدرون  
المرأة، ولا يرونها جديرة بأن تتخفف . ذكر أن بعضهم رأى امرأة تتعلم الكتابة  
فقال : أفعى تُسقى سماً<sup>(١)</sup> .

وسئل فقيه بدمشق في العصر العباسي الثاني : هل يجوز أن تتعلم النساء  
الكتابة ؟ فأجاب بأنه لا يجوز . وفي عهد من عهود الضعف افترى بعضهم أن  
النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تعلموهن الكتابة وعاموهن الغزل وسورة  
النور<sup>(٢)</sup>

وما دفع هؤلاء إلى افتراء الأحاديث المكذوبة والكلمات المنحولة إلى عطاء  
الإسلام إلا شعورهم بضعف حججهم ، واستنادهم إلى قول ذي هيبه ومحبة وسطان ،  
يحبسون أنهم يزعمون الحق بما يروون وبما يزعمون .

ولم يكن عجباً من رجل ساخط على الحياة وعلى الناس والنساء خاصة أن  
ينادي بحرمانهن الكتابة والقراءة ، قال أبو العلاء :

عاموهن الغزل والنسيج والرّدن وخنوا كتابة وقراءة  
وصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزى عن يونس وبراهه<sup>(٣)</sup>

وأن يتردد صدق هذه الدعوة في العصر الحديث على لسان الرافعي<sup>(٤)</sup> :

يا قوم لم تُخَلَقْ بنات الورى للدرس والطرس وقال وقيل  
لنا علوم ولها غيرها فعاموهن كيف نشر الغسيل  
والثوب والإبرة في كفها طرس عليه كل خط جميل

(١) صبح الأعشى ١/٦٤ (٢) التراتيب الإدارية ١/٥٠ عن كتاب النبراس .

(٣) اللزوميات ١/٦٢ الرّدن : تنسيق المتاع (٤) ديوان الرافعي ٢/٤٨ .

## ١٥ - معرفتها النجوم :

١ - عرف العرب بالملاحظة والمشاهدة وطول المرانة كثيراً من الأجرام السماوية ، والأحوال الجوية ، وحركات الكواكب ، ومنازل القمر ، والأنواء . فهم يذكرون في شعرهم أسماء نجوم شتى كالفرقدين والدبران والثريا والعنقود والسماكين والشعري . وقد سجل شعرهم هذا كله .

وهم سمو الأنجم الأربعة التي خلف النسر الواقع أو الخائر صائياً<sup>(١)</sup> .

وقد جمع كتاب أبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي المتوفى سنة ٣٧٦هـ نحو خمسين ومائتين من الكواكب التي يعرفها البدو<sup>(٢)</sup> .

وهم عرفوا منازل القمر بأن اتخذوا في السماء ثمانى وعشرين كوكبة (مجموعة) لا تبعد عن فلك القمر كثيراً ، تدل كل منها على موضع القمر في إحدى ليالى الشهر . كذلك جاء في القرآن الكريم : «والقمر قدرناه منازل»<sup>(٣)</sup> و : «هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»<sup>(٤)</sup> « وقد وضعوا لكل منزلة اسماً ذكرها ابن منظور<sup>(٥)</sup> .

وعرفوا الأنواء - والنوء سقوط منزلة من منازل القمر مع الفجر في الغرب وطلوع منزلة مقابلة لها في الشرق من ساعتها - ونسبوا إليها عدة ظواهر طبيعية من الأمطار والرياح والحر والبرد ، وعزوا كل غيث إلى تأثير المنزلة الساقطة في الغرب أو الطالعة في الشرق ، حتى شاع استعمال النوء بمعنى الغيث<sup>(٦)</sup> .

والدليل على شيوع قولهم بالأنواء ونسبتهم المطر إلى النجوم لا إلى الله قول

(١) لسان العرب مادة نوا .

(٢) القهرست ٢٨٤ وصور الكواكب للصوفي . مخطوط بدار الكتب وبه صور .

(٣) سورة يس ٣٩ (٤) سورة يونس ٥ (٥) لسان العرب مادة نوا .

(٦) لسان العرب مادة نوا وأساس الفلك والجغرافية ٨٥ محمد فخر الدين وعبد الفتاح

النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء<sup>(١)</sup> ، وقول أبي العلاء المعري إنه لا ينسب الأمطار إلى الأنواء كما كان العرب يقولون : مطرنا بنوء المرزَم وغيرهما من النجوم :

ولست بالناسب غيثاً هَمَى إلى السماكِينِ ولا المرزَمِ<sup>(٢)</sup>

وطبعي أن تكون معرفتهم بالأنواء عظيمة ، لأن حياتهم وأرزاقهم ذات صلة وثيقة بالمطر وبالمرعى ، فيهم يتطلعون إلى السماء يتشوفون مطرها ، ويشمّون برقيها ، لذلك كانت لهم فراسة وخبرة بالسحاب الممطر والجهايم ، وبالبرق المنجز والخلب ، والرياح وخواصها .

وقد ألف بعض السابقين من علماء اللغة كتباً جمعوا فيها ما كان للجاهليين من معرفة بالسما .

منها كتاب الأنواء لأحمد بن داود بن وَتَنْد<sup>(٣)</sup> ، وكتاب الأنواء لأحمد ابن عبيد الله الثقفي<sup>(٤)</sup> ، وكتاب الأنواء لأحمد المرثدي<sup>(٥)</sup> ، وكتاب الأنواء لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي<sup>(٦)</sup> ، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار لإبراهيم بن سفیان الزیادی<sup>(٧)</sup> ، وكتاب الأنواء لمُؤرَج بن عمر النحوي<sup>(٨)</sup> ، وكتاب الأنواء وكتاب المطر لابن دُرَيْد<sup>(٩)</sup> ، وكتاب الأنواء لأبي إسحاق ابن الزجاج النحوي<sup>(١٠)</sup> ، وكتاب الأنواء وكتاب الشمس والقمر للنَّضْر بن شَمِيل

(١) لسان العرب مادة نوا (٢) شرح التوير على سقط الزند ٢١٣/٢ .

(٣) معجم الأدباء ٣٢/٣ (٤) معجم الأدباء ٢٤٠/٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٨٧/١٤ (٦) معجم الأدباء ١٩٦/١٤ .

(٧) معجم الأدباء ١٦١/١ .

(٨) بغية الوعاة للسيوطي ٤٠٠ طبعة السعادة بمصر وكشف الظنون ٢٦٦/٢ .

(٩) الفهرست ٨٨ و٦١ و بغية الوعاة ٣٠ - ٣٢ ونزهة الألباء لابن الأثير ٣٢٣

وكشف الظنون ٢٦٦/٢ .

(١٠) الفهرست ٨٨ .

النحوى<sup>(١)</sup>، وكتاب أبي حنيفة الدينورى<sup>(٢)</sup> الذى بين فيه ما كان يعرفه العرب من السماء والأنواء والرياح، وتقسيم العام إلى أزمان الخ وهو يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب وأشعارها وأسجاعها فى ذلك .

وكتب الأنواء كثيرة، منها كتاب للأصمعى، وكتاب لأبى محلم، وكتاب لقطرُب، وكتاب لابن الأعرابي، وكتاب للمبرد، وكتاب لابن قتيبة وكتاب للدهنى، وكتاب للمريدى، وكتاب لوكيع وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

وللنضر بن شميل كتاب الصفات، وهو كبير يمتوى على عدة كتب، ذكر فى الكتاب الرابع منه ما يتعلق بالشمس والقمر والليل والنهار، وذكر فى الخامس ما يتصل بالرياح والسحاب والأمطار<sup>(٤)</sup>.

(ب) وقد أسهمت المرأة فى هذه المعارف .

روى ابن دُرَيْد أن شيخاً من الأعراب كان فى خبائه وابنة له بالنساء، فسمع رعداً، فقال: ما ترين يا بنية؟ فقالت: أراها حواء قرحاء، كأنها أقربُ أنان قمرآء. ثم سمع راعدة أخرى، فقال: كيف ترينها؟ قالت: أراها جمة التَّرجاف، متساقطة الأكتاف، تتألق بالبرق الوِلاف. قال: هلمى المعرفة. أنثى نؤيا<sup>(٥)</sup>.

وروى عن الأصمعى أن أعرابياً ضريراً كانت تقوده ابنته، وهى ترى غنيمات، فرأت سحباباً، فقالت: يا أبت جاءتك السماء. فقال: كيف ترينها؟

(١) الفهرست ٥٢ وبنية الوعاة ٤٠٥ ونزهة الألباء ١١١ وكشف الظنون ٢/٢٦٦

(٢) الفهرست ٧٨ و ٨٨ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ .

(٣) الفهرست ٨٨ (٤) الفهرست ٥٢ وبنية الوعاة ٤٠٥ .

(٥) المطر والسحاب لابن دريد ١٤ مخطوط . حواء . سوداء بحمرة . قرحاء . يتألق برقها من روضة قرحاء إذا كان فيها نوار أبيض . أقرب : خصور . قمرآء : فى لونها بياض لى كدرة . الترجاف : الاضطراب . متساقطة الأكتاف : مهدلة الجوانب مسترخية لكثرة ماؤها . البرق الولاف : الذى يرق برقاً متتابعاً وهو لا يكاد يخف . المعرفة : المسعاة . أنثى نؤيا : أحفر حفيرة حول الحباء تنعم السبل عنه .

قالت : كأنها فرس دهماً تجرُّ جِلالها . قال : ارعى غنيماتك . فرعت مايتها ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عينٌ جعل طريف . قال : ارعى غنيماتك . فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : سَطَحَتْ وَايَضَّت . قال : أدخلى غنيماتك . فجاءت السماء بشيء شطأ له الزرع وأينع ، وخضر ونضر<sup>(١)</sup> .

وروى عن الأصمعي أن معقراً بن حماد البارقي خرج ذات يوم وقد كف بصره وابنته تقوده ، فسمع رعداً ، فقال لها : ما ترين ؟ قالت : أراها حَمَاءَ عَقَّاقَة ، كأنها حَوْلَاءُ نَاقَة ، لها سيرٌ وان ، وصدْرٌ دان . فقال : مرّى فلا بأس عليك . ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين ؟ فقالت : أراها كأنها لحم نثت ، منه مَسِيكٌ ومنه مُنْهَبِرٌ . فقال : وائلي ، الجئي بي إلى جانب قَفَلَة ، فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل<sup>(٢)</sup> .

وذكر أن أعرابياً شام برقا فقال لابنته : انظري أين ترينه ؟ فقالت : أناخ بذى بقر بَرَكه ، كأن على عضديه كِتَافاً . ثم قال لها بعد قليل : عودي فسيى . فقالت : نَحْنَه الصَّبَا ، ومَرَّتُه الجنوب ، وانجَفَنَه الشَّمَالُ استجافا<sup>(٣)</sup> .

وإذا ارتبنا في هذه الأخبار وذهبنا إلى أنها من وضع ابن دريد أو غيره لإحياء كلمات لغوية ، أو نظمها في سمط موضوعي ، فإننا لا نرتاب في أن واضعها

(١) الطر والسحاب : مَحْلُوط . الجلال : ما يوضع فوق الفرس ليصونها . جعل طريف : مضرط أى يستطرف الكلاً فلا يرعى في مكان واحد . شطأ له الزرع : أخرج ثمره . أينع : نضج .

(٢) لطر والسحاب : الحماة : السوداء المحمرة . العتاقة : التي يتسرب برقها والسحاب وينشق عناقق أو هي السحابة المنبجعة بالماء . الحولاء : جلدة رقيقة مملوءة ماء كأنها مرآة تخرج مم سليل الناقة فشيبه السحاب بها في كثرة الماء . لحم نثت . مستخ منتن . وائلي : بادري . قفلة : شجرة يابسة .

(٣) الطر والسحاب : ذو بقر : موضع . البركة : ما ولى الأرض من صدر العير . عضديه : ما بين مرفقيه إلى كتفيه . كتافاً : حبلاً مشدوداً به . نحته : صرفته نحوهم . مرته الجنوب : استخرجت ماءه . استجفته : استخرجت أقصى ما فيه من ماء .

كانوا على علم بمعارف المرأة الجاهلية وجدارتها بأن ينسب إليها مثل هذا .  
والأخبار مستغيضة بعلم السيدة عائشة بالنجوم ، فقد وفدت عائشة بنت  
طلحة على هشام ، وسمرت عنده مع مشايخ بني أمية ، فساتذاكروا شيئاً من  
أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طاع نجم ولا غار إلا سئته ،  
فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ فقالت :  
أخذتها عن خالتي عائشة<sup>(١)</sup> .

### ١٦ — فبرتها بالمرعى :

ليس أحد أخبر بالمرعى من العرب ، لأن جُلَّ حياتهم رعى ، وجل ثروتهم  
إبل وشاء .

وقد كان بعض النساء يمارسن الرعى ، ويكتسبن من تجربتهن خبرة ودراية ،  
وبعضهن يستمعن من الرجال ومن النساء ما يبصرهن بصنوف المرعى وأثرها  
في السائمة ولبنها .

روى أبو زيد أن امرأتين تخاصمتا إلى ابنة الخسّ في مرعى أبويهما ،  
فقالت الأولى : إبل أبي ترعى الإسليح . فقالت ابنة الخس : رغوّة وصريح ،  
وسنّامٍ إطريخ . وقالت الأخرى : مرعى إبل أبي الخلة . قالت ابنة الخس :  
سريعة الدرّة والجيرة<sup>(٢)</sup> .

(١) الأغانى ١٠/١٧ .

(٢) البيان والبيان ١٦١/٢ ولسان العرب مادة سلح وطلح . الإسليح : يقلة من  
أحجار البقول تنبت في الشتاء تسلح الإبل إذا استكثرت منها . إطريخ : طويل مائل .

## الفصل الرابع

# المرأة في الحرب

نمبر :

١ - أسست الحياة القبلية على العداة والحروب المتوالية ، وعلى المخالفة والنصرة ، مؤازرة في غارة أو درءاً من غارة ، لأن العرب عاشوا في بيئة مؤرثة للحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفثون به ظمأهم ، في بلاد شحيحة بالكلاء ، ضئيلة بالماء ، لاملكية في أرضها لأحد . وهم يتنازعون على الشرف والرياسة ، ويتغاورون رغبة في السلب والغنيمة ، لأن أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشرهم في أيدي غيرهم . وإن القطامي - الشاعر المخضرم - ليصور ذلك في حديثه عن الخيل والخيلة :

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهباً حيث كانا  
أغرن من الضباب على حُلُولٍ وضبّة إنه من حان حانا  
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا<sup>(١)</sup>

ولقد تهبج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، لأن شعارهم نصر الأخر ظالماً أو مظلوماً ، ومن يسلّم أخاه يعير . بل إن الشاعر كان يعير قبيلته كلها إن تخلت عن نصرته . قال قريظ بن أنيف - وكان بعض بني شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فاجأ إلى بني مازن من تميم فأنجدوه - :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا  
إذا لقم بنصرى معشر حُشن عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا

(١) شرح الحماسة للبريزي ١٨١/١ الضباب : ضبة وضبيب وحسل وحسيل . الحلول : الحلى المال في مكان واحد .

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا  
 لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرف في شيء وإن هانا  
 يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا  
 فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناً وركباناً<sup>(١)</sup>  
 وكثيراً ما كانت تنشب الحروب لضغن قديم وقرته الصدور ، أولهزيمة  
 وثأر ، والعربي لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ، ولا إساءة كابد حرقها . قال  
 زفر بن الحارث مصوراً هذا الشعور في العصر الأموي :

لعمرى قد أبت وقيمة راهط لمروان صدعا بيننا متنائياً  
 وقد نبئت المرعى على دهن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيأ<sup>(٢)</sup>  
 ثم هم يتسلحون بالشجاعة ، فهي عدتهم ظاهرة وباطنة ، وهي منفرتهم  
 يلبسونها وتلبسهم ، لأنهم لا يهتمون بشرطة ، ولا يتقون بأسوار ، وقد ألفوا  
 أن يدافعوا عن أنفسهم ، « ويتجافون عن المجوع ، ويتوجسون للنبات  
 والهيئات ، وينفر دون في القفر والبيداء ، مدلين بأسهم ، واثقين بنفوسهم ،  
 قد صار لهم البأس خاتماً والشجاعة سجية »<sup>(٣)</sup> .  
 وإذا تفحصنا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه  
 شب كبير وهي تتمشى في دمه .

وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحسن البلاء في حماية  
 الذمار ، والأخذ بالثأر ، وبالعدوان في كثير من الأحيان ؟ .  
 وطالما فزع طفلاً على قعقة السلاح ، وصياح المتقاتلين ، وسمع الأفاصيص

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٥/١ والمرزوقي ١/٢٣ وفي رواية أخرى بنو اللقيطة ،  
 وهي نضيرة بنت عصيم ولا صلة لها ببني شيبان ، أما الشقيقة فهي بنت عباد بن يزيد بن عوف  
 ابن ذهل بن شيبان . ذلولثة : ضعيف .  
 (٢) حماسة البحرى ١٧ (٣) مقدمة ابن خلدون ١٨/٢ ٤ : النبأت : الأصوات  
 الخفية . الهيئات : الأصوات المنزعة .



عن شجيمان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عايبها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها .

ثم شب فرأى الرماح تشدبك ، والسيوف تشتجر ، والتمسى تتصارع ، والأبطال فى الميدان تتصارع .

ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خالقاً عاماً فى العرب ، « وكانت تشبه شجاعة الإغريق القدماء ، تعتمد على الحماسة ، وتختفى سريعاً أمام الفتور والتأخر »<sup>(١)</sup> .

كانت الحروب من خصائص العرب ، ولا سيما البدو ، وقد وصفهم بذلك منذ القدم سمته Simneh مؤرخ مصر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة إذ قال : إنهم رعاة يحبون الحرب ، ويعير بعضهم على بعض<sup>(٢)</sup> .

فلا عجب أن ورث منهم أبناؤهم الشجاعة والفروسية ، لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد فى الفروسية وركوب الخيل . . . . . ترجع فى الغالب إلى استعداد فطرى ورثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلاً بالحروب<sup>(٣)</sup> .

٢ — وإذا تفحصنا أيام العرب وجدناها كثيرة جداً ، حتى لقد أفرد لها بعض المؤرخين كتباً أو فصولاً طويلاً ، وألفيناها تزخر ببطولة الرجال ونخارهم وحسن بلائهم . وقالما وجدنا فيها تفصيلاً لجهود المرأة ، أو نخاراً من المرأة بنصيبها فى حروب قومها .

فهل كانت المرأة منزوية متخلفة عن الحروب ؟ لا فقد أسهمت فيها بنصيب

Nicholson. P 81 (١)

(٢) تاريخ الإسلام السياسى . حسن إبراهيم ١/٦٥ .

(٣) المنود الحمر . على عبد الواحد ٧٨ .

عظيم ، وجهد ما تهور لم يفرد له مؤلف فصلا من كتاب .

وسأ كشف عن هذا الجهد الذى بذلته المرأة فى الحرب ، مانقطاً من المراجع ما تفرق هنا وهناك ، وسيكون هذا رداً على أنها « لم تكن فى مقدمة المحار بين ، ولم تكلف أن تقوم بما يقوم به الرجال ، لأنه كان من النادر أن تتيح لها ظروفاً فيها ذلك ، وإنما كانت تقتصر على إثارة العواطف ، كما فعلت فى يوم ذى قار ، وعلى مد المحار بين بالطعام والشراب ، وتضميد الجراح » (١) .

ولا شك أن دراستنا لنصيب المرأة فى الحروب كفيلاً بأن ترسم صورة صحيحة لمكاتها وأخلاقها وأعمالها فى العصر الجاهلى .

## المرأة المحاربة

كان الرجال ومايزالون فى كل أمة ينهضون بأعباء الحروب ، وبقاء الصناديد ، حاملين أرواحهم على أكفهم وشياً أسلهم وبسيوفهم . وكان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الغايات جر الذبول . فإن شاركن فى الحرب فإنما يقمن بما تطيقه الأنثى من تحميس وتضميد وإطعام وسقى . ولكن هذا لا يؤخذ على إطلاقه ، فإن بعض النساء حاربن كما يحارب الرجال ، بل أدرن قطب الحرب أحياناً ، وكن القائدات لجيش من الرجال .

وقد جانب الجاحظ بعض الصواب فى قوله : « والمرأة إذا ضعفت عن كل شىء نزعته إلى الصراخ والولولة ، التماساً للرحمة ، واستجلاًباً للغياث من حمايتها وكفاتها أو من أهل الحسبة فى أمرها » (٢) ، وسنرى أن هذه لم تكن نزعته على الإطلاق .

Women in the Aiyam at Arab. P. 1. (١)

(٢) الحيوان ٦ / ٢٧٩ .

ولا شك أن المرأة العربية — بمشاركتها مشاركة فعالة في الحرب — قد تفوقت على المرأة اليونانية كما يصورها هوميروس في قوله :

سار هيكطور حينئذٍ وأتى باب إسكيتية والزَّانُ ظليل  
فتلقته نساء وبنات منه عاماً تتقصى سائلات  
عن بنيهن وإخوان ثقات

لأن عمل النساء هنا مقصور على الاستطلاع والاستخبار . وليس في الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب وإن كن قد شاكن في كثير من الأعمال ، كغسل الموتى وإعداد المعدات وإقامة الصلوات ، وربما عتقن على خمول كما فعلت هيلانة مع زوجها باريس<sup>(١)</sup> .

وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية في الحرب قيس بن الخطيم في قوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أول راجب  
أوتيت لعوف أن تقول نساؤهم ويرمين دفعاً ليقنا لم نحارب<sup>(٢)</sup>

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر : هل أنت مطيعي فيما أمرك ؟ قال : ما أنا بتارك رأيك . قال : قاتلوا القوم بالنساء فضلاً عن الرجال . قال الحارث : وكيف ؟ قال : تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطونها إداوة وهراوة ، فإذا صفتت أحبابك فصفهن خلفهم ، فإن ذلك مما يزيد الرجال جلدًا وشدة ونشاطًا ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته ، فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأنت عليه . فقبل الحارث بن همام ما أمره

(١) الإلياذة . ترجمة البستاني ٥٧ :

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط . راجب : ميت . يرمن دفعاً : يرميننا من فوق

الآطام دفانا عن أنفسهن .

به ، وكان النصر لهم <sup>(١)</sup> .

المرأة فائزة للبيس :

وأى دليل على مشاركة المرأة في الحرب وممارستها ما يمارس الرجال من لظاها وفواجعها أقوى من أن تقود الجيش ؟  
إن قيادة الجيش لا تناط إلا بالشهم الجلد الحنك الطاع ، وإن التمائد ليصرف جنده ، ويدبر الخطط للنصر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمت إلى هذه الرتبة العالية ، فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها ، وسمو مكاتبتها ، ودليل على خضوعهم لها وطاعتها .

ومن هؤلاء القائدات :

١ - رقاش ، كانت في طيء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتمنون برأيها ، وكانت كاهنة لها حزم وعزم .

وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إباد بن نزار يوم رحى جابر ، فظفرت بهم ، وغنمت وسبت ، ثم بعد ذلك حملت فتراخت عن الغزو ، فقال شاعرهم :

نُبِذْتُ رِقَاشٍ بَعْدَ شِمَاسِهَا حَبِلَتْ وَقَدْ وُلِدَتْ غَلَامًا أَكْهَلَا

فَاللَّهُ يُحْظِيهَا وَيَرْفَعُ بُضْعَهَا وَاللَّهُ يُلْقِحُهَا كَشَافًا مُقْبَلَا

كانت رقاش تقود جيشاً جحفلاً فصبت وأخر بمن صبا أن يحبلاً <sup>(٢)</sup>

ويظهر لى من حنق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلخت من أنوثتها أو انسلخت منها أنوثتها ، فلما حمت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأريية ما زالت أنثى تتزوج وتحمل وتلد ، نفييت ظنه . ولعله سخط أيضاً لأنه خشى ألا يكون في رجال القبيلة من يخلفها في القيادة وبث الحماسة ويؤمن الزعامة ، فيعجزون

(١) شرح الحماسة للبريزى ٢ / ٣٤ وكتاب بكر وتقلب ٨٣

(٢) جهرة الأمثال لأبي حلال ١ / ٣١٣ وجمع الأمثال ١ / ٢٦٣

عن الغارة واكتساب الفنائم .

٢ — وهذه قائدة أخرى وزعيمة ، كانت تناوى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قومها يأتمرون بأمرها ، ولعلها لو أسلمت لكان لها في التاريخ شأن أى شأن ، تلك هى أم قرفة .

وقد ضرب العرب المثل بعزتها ، فقالوا : أمنع من أم قرفة . وهى امرأة فزارية ، كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم<sup>(١)</sup> . كانت فاطمة بنت ربيعة بن زيد الفزارى هذه زعيمة مطاعة ، وكانت تجاهر بعدائها الإسلام ، حتى لقد بعثت إلى النبي أربعين رجلاً من بطنها ليغزوه فى المدينة ، فبعث النبي إليها فى السنة السادسة للهجرة زيد ابن حارثة فى خيل ، فلقبها بوادى القرى ، فهزمتها ، فحلف ألا يفسل ولا يدهن حتى يغزوه ، فسأل رسول الله أن يبعثه إليهم ، فبعثه فى خيل عظيمة ، فاتصرف فى هذه المرة ، وسبى أم قرفة ، وكانت عجوزاً كبيرة ، وسبى ابنتها ، ثم أمر زيد قيس بن المسحّر أن يقتل أم قرفة ، فربط حبلين برجلها ، ثم ربطهما بين بعيرين وزجرهما فذهبا بها ، فشقاها شقاً<sup>(٢)</sup> .

ويذكر ابن هشام أنه قتلها قتلاً عنيفاً ، ولا يفصل هذا القتل<sup>(٣)</sup> ولكن وصف القتل بالعنف كاف فى الدلالة على نوعه .

٣ — قتلت أم قرفة وسببت ابنتها سلمى ، وقدم زيد بن حارثة بها على رسول الله ، وكانت من نصيب قيس بن المسحّر أو سلمة بن عمرو الأكوخ ، فدأها رسول الله هذا أو ذاك فوهبها له ، فأهداها إلى خاله حزن بن أبى وهب<sup>(٤)</sup>

(١) تاريخ الطبرى ٨٤/٣ وتاريخ الخميس ١٣/٢ وجمع الأمثال ٢٤٩/٢  
 (٢) تاريخ الطبرى ٨٣/٣ وتاريخ يعقوبى ٧٤/٢ وابن الأثير ٧٩/٢ وتاريخ الخميس ١٣/٢ والتنبية والإشراف ٣١٩ و ٢٢٠ ولم يذكر طريقة القتل .  
 (٣) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤  
 (٤) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤ وتاريخ يعقوبى ٧٥/٢ وتاريخ الطبرى ٨٤/٣

وقيل كانت لعائشة فأعتقها<sup>(١)</sup>. وفي رواية أخرى أن رسول الله بعث بها إلى مكة ففادى بها أسرى من المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وأيا ما كان الأمر فقد رجعت سلمى إلى قومها، وارتدت معهم عن الإسلام، ثم انضمت إلى طليحة هي وعيينة بن حصن. ولست أشك في أنها لم تنس مصرع أمها العنيف، ولم تنس مقتل أخيها حَكَمَة يوم أغار عينية بن حصن على سرح المدينة، ولم تنس مرارة السبي ومذلتها، فأرادت أن تشتفي بالنار.

وقد شرعت تحقق ذلك، وتحلق حول لوائها جموع من غطفان وفزارة وأسد وهوازن وسليم وطيب، فقادتهم كما قادت أمها الجموع من قبل، وأمرتهم أن يهجموا على خالد بن الوليد، وكان مشعولاً بحرب المرتدين، فسار إليها.

كانت سلمى تشرف على المعركة وهي راكبة جملاً كانت أمها تركبه في المارك من قبل، وليس أدل على عظم خطرهما من أن يدبر خالد أمره للقضاء عليها أولاً، فيبعد من يعقر جملاً مائة من الإبل، فعقر المسلمون جملاً، وقتلوا، وقتلوا مائة من الملتفين بجملاً، ودارت الدائرة عليها<sup>(٣)</sup>.

٥ — وبعد قليل ظهرت امرأة أخرى تزعم قومها، وتقدمهم في الحرب، بل لقد تنبأت أيضاً، ودان لها كثير وآمنوا بها. أما اسمها فسجاح، وأما كنيته فقام صادر.

وهي بنت أوس بن حق بن أسامة من تميم، أو بنت الحارث بن سويد ابن عقفان<sup>(٤)</sup>، أو بنت سويد بن أسامة التميمي<sup>(٥)</sup>.

وأما تاريخها فمن المرجح أنه قد شوه كثيراً، لأنها ارتدت عن الإسلام، وتزعمت بعض القبائل المرتدة، ولكن هذا التشويه لا يغير الجوهر، وهو أن

(١) تاريخ الطبري ٢٣٤/٣ (٢) الكامل لابن الأثير ٧٩/٢

(٣) تاريخ الطبري ٢٣٤/٣ (٤) الأغاني ٦٤/١٤ وفنوح البلدان ١٠٦

(٥) أوائل الأوائل لأبي هلال ٢٢٢ مخطوط.

سجاح كانت زعيمة في قومها ، ومتنبئة ، وقائدة مطاعة . نشأت سجاح بين أخوالها بني تغلب ، وتنصرت ماثم<sup>(١)</sup> ، فلما كانت السنة الحادية عشرة للهجرة تنبأ بعض العرب ، وارتد بعضهم ، ووضعوا التيجان على رؤوسهم ، وامتنع قوم من دفع الزكاة ، فتنبأت سجاح في بني تغلب ، وخرجت بجمع منهم — الهديل ابن عمران — إلى بلاد بني تميم ، فلقبها بنوحنظلة وصدقوها ، وأجمع بنو تميم على نصرتها ، وفيهم بعض ساداتهم ، كالأحنف بن قيس وحرثة بن بدر والزبرقان ابن بدر وعطار بن حاجب وغيرهم من سادة تميم .

وكان فيما أغرتهم به أن الله لم يجعل هذا الأمر في ربيعة ، وإنما جعله في مضر ، وأن تميما تعدل قريشاً في السيادة والشرف؛ لأنهما معاً من مضر ، وادعت أنه أنزل عليها (بأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يبغيون)<sup>(٢)</sup> . فعلى المضريين أن يقصدوا جموع ربيعة ويفضوها ، ثم يكرؤا على قريش ويغلبوها .

وراجت دعوتها ، وانضم إليها عدد كبير من إياد و تميم ، ومن القبائل العربية النصرانية بالجزيرة<sup>(٣)</sup> ، ثم سيرت جمعاً إلى بني ضبة من الرّباب ، وسارت بجمع آخر من التغلبيين والنمر بن قاسط إلى تيم وعدى وثور ، ثم اتجهت إلى اليمامة<sup>(٤)</sup> .

وراسلت مالك بن نويرة ، ودعته إلى المواقعة فأجابها ، ونهاها عن غزوها بني تميم ، فأجابته ، وقالت : نعم فشأنك ممن رأيت ، وأنا امرأة من بني يربوع ، وإن كان ملك فهو لكم<sup>(٥)</sup> .

(١) فتوح البلدان ٩٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٣٢٩/٥

(٢) الأغاني ١٦٦/١٨ (٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٦٧/٣

(٤) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط وتاريخ العقوبى ١٤٤/٢ والأغاني ٦٥/١٨

(٥) الأغاني ١٤ / ٦٤

ومما أيقنت من قوتها وسيطرتها على هذه القبائل بعد أن هُزمت مرتين<sup>(١)</sup> أرادت أن تقضى على منافسها مسيماة ، فتوجهت إليه لتجاربه ، وعزمت على أن تشخص بعد الانتصار عليه إلى أبي بكر وقريش .

ومما بلغ خبرها مسيماة ضاق ذرعاً ، وتحصن في حصن اليمامة ، فلما أحاطت به استشار قومه فيما يفعل ، فأشاروا عليه أن يسالمها ويدع لها الأمر وإلا هلكوا جميعاً<sup>(٢)</sup> ، ولكن لقاءها لمسيماة كان مغرب مجدها المأمول ، فقد تزوجته ، وجعلت دينه ودينها واحداً ، وآمنت به .

ويروون في ذلك روايات تحمل في طياتها عناصر الشك فيها<sup>(٣)</sup> .

فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل مسيماة وأسرى قيس بن عاصم مؤذن سجاح ، فرت إلى بني تغلب بالعراق<sup>(٤)</sup> يائسة من تحقيق أحلامها بعد أن ظفر خالد بالمرتدين ، وبعد أن قتل أكبر حلفائها مالك بن نويرة .

وقيل إنها أسلمت وهاجرت إلى البصرة ، وحسن إسلامها ، وصلى عليها سمرة بن جندب الفزاري وإلى البصرة من قبل معاوية قبل ولاية عبيد الله ابن زياد<sup>(٥)</sup> .

وفي سجاح يقول مؤذنها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنا أثنى نطيفُ بها وأصبحت أنبياء الله ذُكْرانا<sup>(٦)</sup>

ولا شك أن سجاح لم تدع النبوة في أخوالها وقومها ، وأنهم لم ياتنفوا بها هم وغيرهم من المرتدين إلا وهي جديرة في نظرهم بهذه الزعامة الدينية والسياسية .

(١) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط . هزمت بنو ضبة جموع بني حنظلة الذين أوفدتهم إليهم سجاح ، وقتلها بنو تميم وعدى وثور حين سارت إليهم قتالاً شديداً .

(٢) الأغاني ١٨ / ١٦٦

(٣) الأغاني ١٨ / ١٦٥ - ١٦٦

(٤) الكامل لابن الأثير ٢ / ٢٧١ والأغاني ١٨ / ١٦٦

(٥) فتوح البلدان ٩٤ و ١٠٦ والأغاني ١٨ / ١٦٧

(٦) الأغاني ١٢ / ١٥



## المرأة محاربة :

١ - اشتركت المرأة في الحروب اشتركا عملياً ، فكانت تضرب الأعداء بالهراوى ، وتساعد قومها على النصر<sup>(١)</sup> . وقد رمت النساء الخزرجيات الأوس بالحجارة من فوق الآطام في حرب حاطب ، وفيهين يقول قيس بن الخطيم :

أويت نعوف إذ تقول نساؤهم ويرمين دفعاً ليتنالم نحارب<sup>(٢)</sup>

بل لقد كانت تقدم حيث يحجم الرجل ، وتشجع حين يجبن ، ففي يوم أحد سقط لواء قريش ، فلم يتقدم لرفعه أحد، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبها ليهربن ، فتقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فتراجع المشركون واجتمعوا حولها ، واثنتفوا القتال . وفيها يقول حسان بن ثابت :

فولوا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب<sup>(٣)</sup>

وقد شهدت هذه الموقعة نسبية بنت كعب المازنية أم عمارة هي وزوجها وابناها ، فقاتلت يومئذ قتالاً شديداً ، وأبلى بلاءً حسناً ، حتى قيل إنها جرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه ، وتذب بسيفها ، وترمي دونه بقوسها ، حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو بن قميئة بجرح غائر في عاتقها ، وأصابته هي إصابات ، ولم يبق منها إلا درعان كاتنا عليه . ورأى النبي بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ وفي حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذي ضرب ابني قتال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعترضت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم

(١) كتاب بكر وتغلب ٨٣

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ والمغازي ٢٠٩ أويت لهم : رقت وأشفقت .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٥ وزاد المعاد ٢ / ١٣١ وتاريخ الطبري ٣ / ١٧ والمغازي

٢٠١ والسكامل لابن الأثير ٢ / ٦٣ وديوان حسان ١٣ الجلائب : العبيد .

عمارة . ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبي : الحمد لله الذي ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك .

وهي نفسها قد أصيبت يمتاها في موقعة اليمامة وجرحت جرحات<sup>(١)</sup> .  
ولما انهزم المسلمون في يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن نا كصين حثت في وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هناك المغزل اغزل به ، وهات سيفك . وقصدت إلى أحد مع بعض النساء<sup>(٢)</sup> .

وقد جرئت صفية بنت عبد المطلب على مارهبه حسان بن ثابت ، ذلك أن نساء المسلمين كن في الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية في فارغ - حصن حسان - وتحدثت صافية فقالت : وكان معنا حسان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا بالرسول ، وحاربوا مع المشركين ، فقلت يا حسان : إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : بغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما قال لي ذلك ، ولم أر عنده شيئاً احتجزت ، وأخذت عموداً ونزلت من الحصن إلى اليهودي فضربته حتى قتلتها ، فلما فرغت منه رجعت إلى حسان فقالت : انزل إلي فاسلبه ، فإنه لم يمتنع من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسابه من حاجة يا بنت عبد المطلب<sup>(٣)</sup> .

ويروى الواقدي أن صافية رأت يهوداً جاءوا ليهجموا على الحصن ، فأشارت على حسان أن يحاربهم فامتنع ، فلما رأت يهودياً يصعد إلى الحصن قالت لحسان :

(١) المغازي ٢٦٣ و ٢٦٦ وزاد المعاد ١٣١/٢ والإصابة ١٩٩/٨ وسيرة ابن هشام ٣٠/٣ و ٧٥/٢ وفتوح البلدان ٩٩

(٢) المغازي ٢٧٢

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٥٠ والاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ١٩ مخطوط وسيرة

ابن هشام ٢٤٦/٣ والأغاني ١٦٣/٤

شد على يدي السيف، فضربت عنق اليهودي، ثم رمت برأسه إليهم  
فانكشفوا<sup>(١)</sup> :

لهذا لما أنشد حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد غدوت أمام القوم منتظما      بصارم مثل لون الملح قَطَّاع  
يَخْفِزُ عني نجادَ السيفِ سابعةً      فضفاضةً مثل لون النهي بالقاع

ضحك رسول الله، فظن حسان أنه ضحك من وصف نفسه بالشجاعة  
مع جبنه<sup>(٢)</sup> .

ومن نغار المرأة أن يتحاجل كثير من الرجال فلا تتحاجل مثلهم، بل تثبت،  
وتشير على القائد أن يضربهم كما يضرب أعداءه سواء بسواء، ذلك أنه في  
غزوة هوازن كان المشركون قد تهيئوا وأعدوا، وسبقوا المسالين إلى الوادي،  
فكفوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه، فشدوا على المسالين، وانشر الناس  
راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ذات اليمين، ثم قال: أين  
أيها الناس؟ هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ولكن نداءه  
لم يُجِدْ شيئاً، وبقي رسول الله في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته،  
واغتبط المنافقون أيما اغتباط، حتى قال أبو سفيان: لا تنهيه هزيمتهم دون البحر،  
وصرخ كلدان بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم. ثم صرخ فيهم العباس فاستجاب  
له مائة من الفارين .

في هذا الحول الشديد والمأزق الضيق المبيد التفت رسول الله، فرأى أم سليم  
بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة - وهي حازمة وسطها ببرد لها،  
ومعها جمل زوجها، وقد خشيت أن يغلبها الجمل، فأدنت رأسه منها، وأدخات  
يدها في خزامته مع الخطام، فقال لها الرسول: أم سليم؟ قالت: نعم يا بني أنت  
وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين يهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك،

(١) المغازي ٢٨٢

(٢) الأغاني ٤/١٦٦ يحفز: يدغم. النهي: الغدير.

فإنهم لذلك أهل . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طاحنة : ما هذا الخنجر معك . يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به . فقال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟<sup>(١)</sup>

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن الربيع بنت معوذ . ابن عقبة الأنصارية<sup>(٢)</sup> ، وصفية بنت عبد المطلب<sup>(٣)</sup> ، وخولة بنت الأزور<sup>(٤)</sup> . وهؤلاء اللاتي حاربن في مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتي حاربن في الجاهلية ، دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلي نار الحرب ، وتمارس أحياناً ما يمارس الرجال .

وما من شك في أن هؤلاء المسلمات اللاتي ناخن عن عقيدتهن وحاربن . كما يحارب الرجال ، قد جرين على خلق أصيل في نفوسهن منذ الجاهلية ، جاء الإسلام فزاده وقواه ؛ لما بث في النفوس من حماسة دينية ، وبما أعد للمجاهدين من مشوبة ورضوان . فإيس من الحق أن ندعى أن الإسلام قد صاغ من الجبانة شجاعة في بضع سنوات ، لأن هذا مخالف لسنة الحياة ، ولأن المرأة التي لم تسلم كانت تحارب وتتقود الجيش في مستهل الإسلام وفي حرب الردة ، وكانت تمارس ذلك قبل الإسلام ، فمن أين جاءت شجاعتها إن كان الإسلام هو الذي شجع المرأة المسلمة وأغراها بالقتال ؟

٢ — وبعد فقد حققت بعض النساء العربيات باشتراكهن في الحرب . ما كان يتخيلها أفلاطون في جمهوريته وما كان يريده ، فقد فرض الجندية على المرأة ، وأشركها مع الرجل في حماية الوطن والقتال دونه ، وذلك في رأيه خير من أن تعيش كلا على الرجال المقاتلين يحمونها من السبي<sup>(٥)</sup> ، لذلك سوى بين .

(١) سيرة ابن هشام ٧١/٤ - ٧٥ وتاريخ الطبري ١٢٩/٣

(٢) الإصابة ٨٠/٨ (٣) المغازي ٢٨٢ (٤) اندر المنثور ١٨٥

(٥) جمهورية أفلاطون ١٣٩ و ١٢٤

الفتيات والفتيان في طرائق التربية وفي الواجبات الوطنية ، وقال في جمهوريته :  
« ليس للرجال في إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس للنساء واجبات  
خاصة ، وإنما واجبات الرجال هي واجبات النساء ، فإن الطبيعة قد سوت بينهما  
في المواهب ، وما المرأة في الحقيقة إلا رجل ضعيف » وقال أيضاً : « أترانا نفرق  
بين إناث الكلاب وذكورها فنخرج الذكور وحدها للصيد ، ونكلفها وحدها  
حراسة الأغنام ، وندع الإناث في المنازل ، بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينها  
وبين مشاركة الذكور في الصيد والحراسة ؟ حقاً إننا لا نفعل ذلك ، فيجب أن  
تتعلم النساء الأعمال العسكرية والرياضة البدنية ، ويعاملن معاملة الرجال ، لأن  
التباين العقلي بين المرأة والرجل موجود مثله بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة ،  
فهو تباين في الجنس الواحد أيضاً<sup>(١)</sup> .

لا أريد من ذلك أن أدعو إلى أن تستوى المرأة بالرجل في جميع الحقوق  
والواجبات والأعمال ، وإنما أريد أن أبين أن بعض النساء العربيات قد حققن  
بعض ما كان يريده أفلاطون ، ويتخيله النظام الأسمى للمجتمع المثالي الذي يشده ،  
في حين أن خياله هذا لم يتحقق في بلاد اليونان نفسها .

### المرأة والنار :

هذه الحروب المتوالية لا بد أن تنجلي عن قتلى وجرحى وأسرى وأسلاب ،  
ولا بد أن يعقب هذا في نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها إلا أن  
يثار ، وكان العرب كلفين بالنار جد الكلف ، حتى لقد كانوا يحرمون على أنفسهم  
النساء والحمر والطيب إلى أن يثاروا ، وحتى لقد كان القريب يثار من قريبه ،  
وكان قبول الدية عاراً لا يرضاه إلا الأذلاء<sup>(٢)</sup> .

(١) جمهورية أفلاطون ١٢٥ - ١٣١ و ١٣٩ و ٢٠٩ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٨٩

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي للمؤلف ٢٧٦ الطبعة الرابعة .

وقد كان للنساء شأن عظيم في النار .

١ — فكان يقرعن المنهزمين تقرعاً يزيد المزيمة ألماً ، وبيتعت الحمية  
للنار ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مُكدَّم جمعاً من قومها :  
ألا هل أتاها على نأها بما فضحت قومها غامد  
تمنيتم مائتي فارس فردكم فارس واحد  
فليت لنا بارتباط الخيو ل ضاناً لها طالب قاعد<sup>(١)</sup>

٢ — وكن لا يفتان يحرضن على النار بالقول الملهب المثير ، وطلما نفرن  
من قبول الدبة أيما تنفير . قالت كبشة أخت عمرو بن معدى كرب الزبيدية  
تحرض قومها على أن يثأروا لأخيها عبد الله — وقد هم أخوها عمرو أن يقبل  
الدبة ، أو هي توهمت أنه سيقبأها — أحياناً على لسان التمثيل كأنها وصية لهم ،  
لتزيدهم جداً في النار له ، ولتحتاج حميتهم ، نهتهم فيها عن قبول الدبة وعن  
طاعة عمرو ، ثم هاجت نخوتهم بأنهم إن لم يثأروا نعام مجدوع الأذان ، حقراء  
لا يستحقون أن يردوا الماء ، إلا بعد النساء الحَيض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه : لا تعقلوا لهم دمي  
ولا تأخذوا منهم إفاً وأبكرأ وأنزل في بيت بصعدة مظلم  
ودع عنك عمراً إن عمرا مسلم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم  
فإن أتم لم تثاروا واتدبتم فمشوا بأذان النعام المصلم  
ولا تردوا إلا فضول نساكم إذا ارتملت أعتابهن من الدم<sup>(٢)</sup>

وحملت بنت حكيم العبيدية قومها على أن يثأروا من ربيع قاتل أبيها ،

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠٨ وبلاغب النساء ١٥١

(٢) حماسة أبي تمام شرح التبريزي ١ / ٢١٧ وحماسة الجعري ٣٠ والأمل ٢ / ٢٢٦  
لا تعقلوا دمي : لا تأخذوا بدله دية . الإفال : صغار الإبل . الأبكر : فتیان الإبل . صعدة :  
مكان باليمن . اتدلمت : قبلت الدية . مشوا : امشوا . المصلم : المقطوع الأذان . ارتملت : تاملت

فقلت لهم : عجلوا بقتله ، وإلا فأنتم نساء ، وربيع ربكم فاسجدوا له ، وما أنتم  
إذاً إلا حقراء ضعاف كقصار المعيز وقباحها :

أيرجور بيع أن يثوب وقد نوى      حكيم<sup>(١)</sup> ، وأمسى شلوه بمطَبَّق ؟  
فإن كنتم قوماً كراماً فمَجَّلُوا      له جرأة من بأسكم ذات مَصَدَّق  
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم      فكونوا نساء في الملاء المَخَلَّق  
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له      فما أنتم إلا كَمَعَزَى الحَبَلَق<sup>(١)</sup>

واستثارت هند الجلاحية قومها بأنهم عبيد إن لم يثاروا :

فإن لم يثاروا من قد أصابوا      فكانوا أعبداً لبني كلاب<sup>(٢)</sup>  
وكثيراً ما حرضت الخنساء على النار لأخيها صخر ، كقولها :

ولن أسلم قوماً كنت حربهم      حتى تعود بياضاً جؤنة القار  
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة      يَبْذُنَ طَرْحاً بمِهْرَاتٍ وأمَّهَار  
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنع<sup>(٣)</sup>      عند البيوت حُصَيْنًا وابن سِيَّار  
فتفلسوا عنكم عاراً يجللکم      غسل العوارك حيصاً بعد أطهار<sup>(٣)</sup>

ولقد تعمد إلى كلام مثير يشعر المتواني عن النار بعجزه ليدفع التهمة عن  
نفسه بالجد في النار ، كما قالت ريحانة بنت معد يكرب لابنها دريد بن الصمة  
بعد أن سر حول على مقتل أخيه عبد الله :

يا بني إن كنت عجزت عن النار بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من  
زبيد — تعنى عمرو بن معد يكرب الزبيدي — ، فأنف ابنها من ذلك ،  
وحلف ألا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ

(١) حساسة البحرى ٣٥ مطبق : قبر الخلق : المطيب . المبلق : قصار المعزى ودمامها .

(٢) الأغاني ١٢٢/٢٠

(٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تظعنوا . مكتنع : دان . حصين

ابن ضمضم ومنصور بن سيار من بني مرة . العوارك : الحوائض .

حتى يدرك ثأره، ففزا غطفان وقتل من بنى عيس وفزارة وبني مرة وبني ثعابة، وكان ذلك يوم الغدير، وجاء إلى أمه بدؤاب بن أسماء فقتله بفنائها، وقال: هل بلغت ما في نفسك؟ قالت: نعم متعت بك. وقد نخر بفعاله في عدة قصائد<sup>(١)</sup>.

٣— ولقد يهجن النخوة للثأر بالمظهر المثير، كما فعلت خويلبة عجزوز بنى رثام، فقد حدثوا أنه كان لما أربعون رجلا من إخوتها وأخواتها، وكانت عقيبا، فهي ترى هؤلاء جميعاً بنيتها، ثم إن بنى ناعب وبني داهن تظاهروا على بنى رثام — وهم جميعاً من قضاة متجاورون بين الشجر وحضرموت — فقتلوا منهم ثلاثين رجلا، فهلعت خويلبة هلعاً شديداً، وبالغ الرواة فزعموا أنها عمدت إلى خناصرهم فقطعتهما، ونظمت منها قلادة، وألقمتها في عنقها، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سعوة المهري وهو ابن أختها، فأناخت بفنائها، وأنشدته قصيدة منها:

ياخير معتمد وأمنع ملجأً وأعز منتقم وأدرك طالب  
جاءتك وافدة الشكلى تفتلى بسوادها فوق الفضاء الناصب  
فابردُ غليل خويلبة الشكلى التي رُميت بأثقل من صخور الصاقب  
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه علق بشوئى داهن أو ناعب  
فاهتاج ابن أختها، وخرج في منسر من قومه، فطرق ناعباً وداهنا وأوجع فيهم<sup>(٢)</sup>.

٤— ولقد يبلغ بها الحق حدا يقرب من الوحشية، بل هو ضرب من الوحشية، ففي غزوة أحد لما التقى الجمعان، حرضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال<sup>(٣)</sup>.

(١) الأغاني ٦/٩ و ٢٦/١٤

(٢) الأمالي ١٢٧/١ الصاقب: جبل معروف

(٣) سيرة ابن هشام ١٣/٣



وكانت هند تعرض وحشيًا على أن يقتل حمزة ، وكلما مرت به قالت له :  
إيه أبادسمة ، اشف واشتف<sup>(١)</sup> . وكان وحشي هذا عبداً لجبير بن مطعم  
ابن عدى ، فقال له جبير : قد علمت أن حمزة قتل طعيمة بن عدى يوم بدر ،  
فحزنت نساؤنا أشد الحزن ، فإن قتلته فأنت حر<sup>(٢)</sup> .

ولم يكف هنداً ما ذاقته من حلاوة النصر والثأر ، فشرعت هي ومن معها  
يتملن بالقتلى من المسلمين ، فيجد عن الأذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها  
خدماً وقلائد ، ثم لم يشف ذلك ما بنفسها من موجدة ، فبقرت بطن حمزة ،  
واقطعت فأذة من كبده ولا كتبها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم عات  
صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزينناكم بيوم بدرٍ والحرب بعد الحرب ذات سَعْرٍ  
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكرى  
شفيت نفسى وفضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى<sup>(٣)</sup>

ولم أجد من المؤرخين من يدفع هذه التهمة عن هند أو يخالف الآخرين في  
جوهرها ، فإيس يجدى دفاع ميور Muir عنها، ولا تكذيب لامانس Lamans  
للمؤرخين ، لأنهما لا يعتمدان على دليل . يقول موير : إن مؤرخى السيرة قد  
بالغوا في تصويرها محققة متبررة<sup>(٤)</sup> . ويذهب لامانس إلى أبعد من ذلك ،  
فيدعى أن كتاب السيرة زعموا أن شريفات قرشيات شاركن في غزوة أحد ،  
وفسحوا المجال لادعاء كاذب أن هنداً مثلت بجسد حمزة ، وهو ادعاء اخترعه

(١) سيرة ابن هشام ٦/٣

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/٣٨٦

(٣) سيرة ابن هشام ٤٢/٣ والمعازى ٢٦٩ وتاريخ الطبرى ٣/٢٣ والطبقات الكبير  
٤/٣ سمر : سمر وأصله بضم العين . عتبة : أبوها . أخى : الوليد بن عتبة . بكرى : حفظة  
ابن أبى سفيان . عمى : شيبه بن ربيعة . وهؤلاء الأربعة قتلوا يوم بدر .

(٤) Muir, The Caliphate, its rise, Decline and Fall. 3-129

أنصار العباسيين<sup>(١)</sup>. وهى تشبه فى قصتها هذه أم هكتور ، على أن أم هكتو تمت أن تأكل كبد أخيل ، ووقفت عند حد التمنى :

من لى بذا السَّفَّاءُ أَقْضَمُ كَبِدِهِ قَضًا فَلَ أْبْقِ عَلَيْهِ وَلَا أْذِرْ<sup>(٢)</sup>

٥ — وإذا كان الرجال قد حرموا على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثاروا فإن النساء أشبهنهم فى ذلك ، فقد حرمت هند بنت عتبة على نفسها أن تبكى قتلاها الأربعة فى يوم بلدرحتى تثار من النبي وأصحابه ، وحرمت على نفسها الطيب حتى تغزو النبي والمسلمين ، ولم تقرب فراش أبى سفيان من يوم أن حلقت رأسها حزنا على قتلاها حتى كانت وقعة أحد<sup>(٣)</sup> .

وهن أشبهن الرجال أيضاً فى أن الثأر يشقى بعض حزمهن ، ويكفكف من شجيعتهن ، لذلك يطر بن له ، وينتشين به ، ويكافئن الثأر . ففي يوم أحد منحت هند بنت عتبة وحشياً ثيابها وخدمتين من جزع ظفار كانتا فى ساقها ، ومسكتين وخواتم من ورق كن فى أصابع رجليها<sup>(٤)</sup> . ووعدته أن تعطيه عشرة دنانير إذا عاد إلى مكة<sup>(٥)</sup> . كذلك أشادت الخنساء بقيس بن عامر بن الأمرار الجشمى ؛ لأنه قتل هاشم بن حرملة قاتل أخيها معاوية بن صخر ، وفدته بنفسها وأعزأمتها جميعاً ، وبنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ؛ لأنه أقر عينها فنامت بعد أرق طويل :

فَدَى لِلْفَارِسِ الْجُشْمَى نَفْسِي أَفْدِيهِ بِن لى مِنْ هَيْمِ  
أَفْدِيهِ بِكُلِّ بِنَى سُلَيْمِ بَطَاعِنِهِمِ وَبِالْأَنْسِ التَّمِيمِ  
كَمَا مِنْ هَاشِمٍ أَقْرَتَ عَيْنِي وَكَانَتْ لَا تَسَامُ وَلَا تَسِيمِ  
خَصَمْتُ بِهَا أَخَا الْأَمْرَارِ قَيْسًا فَتَى فِي بَيْتِ مَكْرَمَةِ كَرِيمِ<sup>(٦)</sup>

H.Lamans L'arabie occidentale avant L'hégire P. 124 (١)

(٣) المغازى ٣٢٤

(٢) الإلياذة ١١١٥

(٥) المغازى ٢٧٩

(٤) شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٨٦

(٦) ديوان الخنساء ٢٣١ ولسان العرب ١٦ / ٧٨ والأغانى ١٣ / ١٤٠ وبلغات

النساء ١٦٧ الحميم : القريب والإخوة وبنو العم والعشيرة : الأنس : الحى المتبعون .

( ٢٩ - المرأة فى الشعر الجاهلى )

وتحدثت صفية بنت الخرع عن فرحتها لما قتل عبد يعقوب بالنعمان  
ابن حساس فقالت :

تمد أخذنا شفاء النفس لو شُفيتُ وما قتلنا به إلا اسراً دونه<sup>(١)</sup>  
وقد بقيت بغضة المرأة لواترها، وتلففها على الثأر منه إلى ما بعد العصر  
الجاهلي<sup>(٢)</sup>.

### امراه جا - و - في الحرب :

تصطنع الدول في حروبها الحديثة جواسيس من الرجال ومن النساء ، ولقد  
يكون النساء أقدر من الرجال على تلقظ الأنباء ، وتعرف الدخائل ؛ لأنهن  
يتذرن عن بجمالهن وبمكرهن ودهائهن ، وبالرغبة في حديثهن ، فيبلغن ما لا يبلغ  
الرجال .

وقد عرف العرب الجاسوسية ، وتذرعوا بالنساء لمعرفة ما خفي عليهم من أبناء  
العدو . من ذلك أن رجلاً من غني قتل شاس بن زهير العبسي ، وأنكر بنو غني  
أن يكونوا هم القتل ، فأرسل زهير امرأة إليهم على أنها تاجرة ، وأمرها أن  
تكتم نسبها ، وأن تتعرف خبر ابنه شاس ، فاتصلت بنساء غني ، وعرفت من  
إحدهن أن زوجها هو قاتل شاس ، ثم عادت إليه فأخبرته ، فأغار عليهم<sup>(٣)</sup> .  
وقد اصطفى حاطب بن أبي بلتعة سارة المزنية ، وقيل إنها كانت مولاة  
لبني عبد المطلب ، وأرسل معها كتاباً إلى قريش بمكة ، يحذرهم المسلمين ، وجعل  
لها جملاً على ذلك ، فوضعت الكتاب في رأسها ، ثم فنلت عليه قرونها ، وخرجت  
به ، فبعث رسول الله وراءها على بن أبي طالب وأبا مرثد والزبير ، فأدركوها

(١) الأغاني ١٥/٧٣

(٢) بلاغات النساء ١٢٨ و ١٣٠

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٠

تسير على بعير لها ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فأنكرت ، فأناخوا جماها ، واثتمسوا الكتاب معها فلم يجدوه ، فهددوها أن يجردوها إن لم تخرجه ، فلما رأت إصرارهم أخرجته من قرون رأسها أو من حُجْرَتِهَا ، فانطلقوا به إلى رسول الله (١) .

### الظمان في الحرب :

١ - كان المحاربون كثيراً ما يصطحبون معهم نساءهم في الحروب ، ففي يوم ذى قار استصحب العرب طعامتهم ، وأمر حنظلة بن ثعلبة أن تقف الغنائم خلف الناس ، ثم قال : يامعشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم . ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ، وتبع الظعن يقطع وُضْنِيَّ ، فمسي مقطع الوضن (٢) ، وحاكاه العرب ، فقطعوا وضن نساءهم حتى يقتدروا أنفسهم على الثبات ، دفاعاً عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة راحلها . وكان لقيط بن زُرارة يفرزو ومعه ابنته دُخْتَنُوس (٣) .

وفي يوم التحالق كانت مع عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس أمه على ناقة لها ، فلما توسط الثانية ضرب عرقوبي الناقة ، ثم انتضى سيفه وقال : والله لا يجرى رجل من بكر بن وائل إلا ضربته بالسيف (٤) .

وفي يوم قييف الرّيح بين عامر بن صعصعة وبين الحارث بن كعب وحقاقها أقبلت مذحج ومعها النساء والذراري حتى يشجعنهم على القتال والثبات (٥) .

٢ - وقد حدثت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج في سفر أفرع بين أزواجه فأيتهن خرج بهن خرج بها معه (٦)

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٠٥ وفتح الباري ٧/٢٢٧ وتاريخ الطبري ٣/١١٣

(٢) أوائل الأوائل ٢٣٥ مخطوط وتاريخ الطبري ٣/١٥٤ والأغانى ٢٠/١٣٦

والنقائض ٦٤١ الوضن : جمع وضين وهو حزام الرجل .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢١٢٠ (٤) شرح التبريزي للحماسة ٢/٣٤

(٥) الكامل لابن الأثير ١/٢٣١

(٦) فتح الباري ٦/٥٨ والزبيدي ٢/٢٦٣ وسيرة ابن هشام ٣/٢٤٢

وفي غزوة أحد بعث النبي الحباب بن المنذر ليحزر له قريشاً ، ومساعد  
سأله : هل رأيت ظمناً ؟ قال : رأيت النساء معهن الدفاف والطبول ، فقال رسول الله :  
أردن أن يمرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر<sup>(١)</sup> . وقد تحقق ما توقعه ، فإن قريشاً  
خرجت وخرج معها أحلافها ، واصطحب كثير من القرشيين نساءهم ، فكانت  
هند وضرتها أميمة بنت سعد مع زوجها أبي سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث  
ابن هشام مع عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع الحارث  
ابن هشام ، وبرزة بنت مسعود النخعية وضرتها البقوم بنت المذلل مع زوجها  
صفوان بن أمية ، وربطة بنت منبه مع عمرو بن العاص ، وسلافة بنت سعد مع  
طلحة بن أبي طلحة ، وكانت خناس بنت مالك مع ابنها أبي عزيز بن عمير الخ  
وكانت عمرة بنت علقمة وحدها<sup>(٢)</sup> .

وما زالت المرأة العربية ترافق المحاربين إلى خلافة عثمان<sup>(٣)</sup> .

### أثر الظمأن :

١ — كن يهجن حماسة الرجال ، ويحفزنهم إلى المخاطرة والاستبسال ،  
فيقاتل الرجل حتى الموت ، حماية لنسائه اللاتي كن يصاحبن القبيلة في الحروب  
العظيمة ، ويقمن خلف صفوف القتال<sup>(٤)</sup> .

وكن يحمسن بضروب شتى ، فهن أحياناً يلهين العواطف بأناشيدهن  
المشجعة ، كأنهن قواد يسكبون في قلوب الجنود حميا البطولة . وأحياناً يضربون  
على الدفوف كأنهن فرقة موسيقى حريرية ، وتارة يثرن إقدام الرجال بنظراتهن  
إلى بلائهم ، وشهودهن إقدامهم . والرجال — منذ كانوا وكانت النساء — يبذلون

(١) المغازي ٢٠٧

(٢) سيرة ابن هشام ٦/٣ والمغازي ٢٠١ والكمال لابن الأثير ٦٣/٢ وتاريخ الطبري

١٠/٣ والأغانى ١١/١٢٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩

(٣) فتح الباري ٥٧/٦ (٤) Nicholson P. 82

في محضرهن من أفانين البطولة والشهامة حيث تراد البطولة والشهامة ، ومن ضروب البراعة والكياسة واللباقة حيث تطلب البراعة والكياسة ما لا يبذلون في مغيب النساء .

كان تشجيع النساء للمقاتلين عرفاً عاماً بين العرب ، حضريهم وبدويهم ، ملوكهم وغير ملوكهم ، فإن الحارث بن أبي شمر الملك الغساني<sup>(١)</sup> في حربته مع المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في يوم حليلة وجد أن الحرب قد قامت بينهما أياماً وهي سجال ، فأمر ابنته أن تُطَيَّب جنوده ، ثم نادى : يا فتيان غسان ، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي . فاستشاط لبيب بن عمرو الغساني شجاعة ، وشد على المنذر فقتله ، ثم قاتل فقتل<sup>(٢)</sup> .

والمؤرخون مختلفون في اسم بنت الملك ، أهي هند<sup>(٣)</sup> أم حليلة<sup>(٤)</sup> ، ويرجح تولدكه أن حليلة اسم مكان لا اسم امرأة ، مستدلاً بما ذكره ياقوت والبكري<sup>(٥)</sup> ، وبأن النابغة يذكر يوم حليلة في الأيام التي كان يفاخر بها الغساسنة السابقون للحارث ، ويستنتج أن يوم حليلة هو يوم الحيار<sup>(٦)</sup> ، وهو الذي ذكره الحارث ابن حلزة في معلقته .

وهو الرب والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء<sup>(٧)</sup> .  
وكان ذلك حوالي ٥٤٤ م<sup>(٨)</sup> .

(١) يرى تولدكه . أنه الحارث بن جبلة (أمراء غسان ٢٢ تولدكه) وهو نفسه الحارث الأعرج (ابن الأثير ١/٢٢٣) .

(٢) السكامل لابن الأثير ١/٢٢٣

(٣) ابن الأثير ١/٢٢٣ وأمراء غسان لتولدكه ١٩

(٤) ابن الأثير ١/٢٢٥ ونجم الأمثال ٢/٢٠٢ والمعارف ٢٨٠ وأمثال العرب لاضي ٧٩

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٢٨٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢/١٣ و ٣٢٥

(٦) أمراء غسان لتولدكه ١٩ - ٢٠

(٧) شرح الفوائد العشر للتبريزي ٢٦٨ الحياران : بلد ، وقال ابن الأباري بلدان ،

وقال صاحب القاموس موضع وكذلك قال صاحب اللسان وذكر هذا البيت .

(٨) أمراء غسان ١٩

والعرب قد ضربوا المثل بيوم حليلة فقالوا : ما يوم حليلة بِسِرِّ<sup>(١)</sup> ، والنابغة  
قد ذكره في مدح الفساسة إذ قال في سيوفهم :

تُخَيِّرُنْ مِنْ أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جُرِّين كل التجارب  
وذكر بعض الشعراء في فخرهم بانتصار الفساسة في هذا اليوم أن هند طابت.  
الجنود ، ونص على أن حليلة اسم واد :

يوم وادى حليلة وازدلفنا بالعناجيج والرماح الظماء  
وأنت هند بالخُلُق إلى من كان ذا نجدة وفضل غناء<sup>(٢)</sup>  
ولما كانت حرب بين إياد وكسرى أنوشروان حمست هند بنت طارق.  
ابن بياضة قومها بقولها :

نحن بنات طارق نمشى على التمارق  
والمسك في المنارق مشى القطا النواتق  
إن تقبلوا نعانق ونفرش التمارق  
أو تُدبروا نفارق فراق غير وامق<sup>(٣)</sup>

ثم حمست بهذا القول ابنة القند الزماني قومها في يوم تحلاق اللهم<sup>(٤)</sup> ، ثم  
شجعت به عربية قومها في يوم ذي قار<sup>(٥)</sup> ، وفي يوم أحد حمست به قريشاً هند  
بنت عتبة وصواحبها<sup>(٦)</sup> ، وحمسن بقولهن أيضاً :

(١) الميداني ٢/٢٠٢ وأمثال العرب للضي ٧٩ وتهذيب الكامل ٢/١٦١  
(٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٣ العناجيج : جياذ الخيل والإبل .  
(٣) معجم ما استعجم ١/٧٠ النواتق : الكثيرات الولادة .  
(٤) شرح الحماسة للبربري ٢/٣٥ والأغاني ٢٠/١٤٤  
(٥) النقاظ ٦٤١ ولسان العرب ١٢ / ٨٧ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٣٠  
والمغازي ٢٠٦ وأشعار النساء للهرزباني ٥٧ مخطوط وتاريخ الطبري ٢ / ١٥٣ وشرح نهج  
البلاغة ٣ / ٣٦٦ ، وفي النقاظ ٣٦٨ أن يوم ذي قار هو يوم قراقر وحنو ذي قار وهو أيضاً  
يوم الجبايات ويوم ذات المعجم ويوم الغدوان والبطحاء وكل هذه الأسماء ذكرها الشعراء .  
(٦) تاريخ الطبري ٣ / ١٥ والفاخر للكوفي ١٩ والعارف لابن قتيبة ٢٢٣ والأغاني

ضرباً بنى عبد الدار ضرباً حمات الأديار  
ضرباً بكل بئار<sup>(١)</sup>

وإذا صح أن هند بنت طارق أول قائلة للرجز الأول ، وأن هؤلاء قد تعنين به في الحروب ، فانه إذاً تدرج هذا التدرج التاريخي ، لأن النساء أعجبن به فرددنه في حرب بعد حرب .

على أنه في يوم تحلاق الهمم أنارت بنت أخرى للفند الزماني قومها بقولها :

وغى وغى وغى وحَرَ الحِرارُ والتطَى  
ومُنَّتْ منه الرِّبا يا حَبِذا الحامِّون بالضمحا<sup>(٢)</sup>

ولقد كان الإنشاد يصحب أحياناً بتيكيت الفارين ، ففي يوم حضرة الوادي بين دوس وبنى الحارث جعلت البنات الأربع لخالد بن ذى سبلة يحضضن على الثبات والإقدام ، فإذا رجع إليهن رجل فار أعطينه مكحلة ومجرة وقلن : معنا فانزل ، أى أنك من النساء . وجعلت هند ترتجز بقولها :

مَنْ رَجُلٌ يَنزِلُ الكَتِيبَةَ فَذَلِكُمْ تَرَنُّو لَهُ الحَبِيبَةَ<sup>(٣)</sup>

وهذا التحميس كثير في الجاهلية<sup>(٤)</sup> ، وبقى إلى صدر الإسلام ، فقد حرضت الخنساء بنيتها الأربعة على الاستبسال في حرب القادسية ، وكان التحريض النساء أثر عظيم في حرب علي ومعاوية .

٢ — وإن الشعر خافل بتصوير الحماسة التي كانت تتمشى في نفوس الرجال من الطغائن ، وحافل بالفخر بحمايتهم من السبي ، ولطالما أشهد الشجعان النساء على بلائهم المجيد الذي أبلوا . يقول سلامة بن جندل :

(١) سيرة ابن هشام ١٣/٣ والمغازي ٢٢٤ والأغاني ١٦/١٤ .

(٢) شرح الحماسة للبريزي ٣٧/٢

(٣) الأغاني ٥٣/١٢ وفي الأصل ترني به .

(٤) أيام العرب ١٧٩ وشعراء النصرانية ٢٤١



ألاهل أتى أنباؤها أهل مآربٍ كما قد أتت أهل الدِّبَا والخَوْرَنْقِ  
بأنا منعنا بالفَروقِ نساءنا ونحن قتلنا من أتاننا بمَلزَقِ<sup>(١)</sup>

ويقول عمرو بن كلثوم في ذلك أبياته المشهورة :

على آثارنا بيضُ حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا  
ظمائن من بني جُشم بن بكر خلطن بسم حسباً وديننا  
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا فوارس مُعاليينا  
ليستاهنَّ أبدانا وبَيْضاً وأسرى في الحروب مقرّنيننا  
إذا مارحن يمشين الهويننا كما اضطربت متون الشاريننا  
يقتن جياننا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا  
إذا لم نحمن فلا يقيننا لشيء بعدهن ولا حيننا  
وما منع الطواعن مثلُ ضرب ترى منه السواعد كالْبَرِينَا<sup>(٢)</sup>

ويفخر قيس بن الخطيم بأنهم حموا نساءهم من السبي ، وبأنهم انتصروا في  
يوم بُعَاث ، ويعير خصومهم الهزيمة والأسر :

وإنا منعنا في بُعَاثِ نساءنا وما منعتْ مِنْ خَزِيَاتِ نساءها<sup>(٣)</sup>  
وهم يتجهون بفخرهم بشجاعتهم وانتصارهم إلى المرأة ، كقول حاجب  
ابن دينار المازني :

سلى يشكرا عنا وأبناء وائل هازمها طرّاً وجمع الأرقام  
ألم تعلمي أنا إذا الحرب شمّرت سهامٌ على أعدائنا في الخلاقم ؟

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٦ مخطوط . ملزق : أرض معينة . الدبّا : سوق للعرب .  
الخوْرَنْق : قصر بالحيرة والمراد أهلها .

(٢) شرح المعلقات السبع لابن الأنباري ٧٦ مخطوط والتبريزي ٧ : ٢ الأبدان : الدروع .  
البرين : جمع برة وهي حلقة في أنف البعير . وفي التبريزي ( القلين ) جمع قلة وهي خشبة ياعب  
بها الصبيان ويضربونها بالفلاء .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٦ مخطوط .

عتاة قُرَاةٌ فِي الشِّتَاءِ مَسَاعِرٌ نُحَاةٌ كُحَاةٌ كَاللِّيُوثِ الضَّرَاعِمِ (١)  
ومثل هذا كثير (٢).

٣ — وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَصْحَبُ الْمُحَارِبِينَ لِتَضَعِدَ جِرَاحَهُمْ ، كَمَا يَعْمَلُ الْآنَ نِسَاءُ الصَّلِيبِ الْأَحْمَرِ وَرِجَالِهِ ، وَلِتَسْقِيَهُمُ الْمَاءَ .

وكثيرات هن اللاتي نفرن مع المساهين في غزواتهم الأولى ، وكان الرسول يغزو بالنساء ، فيداوين المرضى ، ويعطينهم من الغنائم ، ولكن لم يفرد لهن سهبا (٣) .  
وقد جاءت إليه امرأة في نساء من بني غفار وقان إنهن يردن أن يخرجن معه في خيبر فيداوين الجرحى ويؤمن المساهين بما يستطعن . فقال لهن : على بركة الله (٤) .  
منهن أم عمارة بنت كعب ، وأم حكيم بنت الحارث (٥) ، والربيع بنت معوذ (٦) ولبلى الغفارية (٧) .

وكانت في أحد أربع عشرة امرأة يحمان الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، كفاطمة بنت الرسول ، وأم سليم بنت ملحان ، والسيدة عائشة ، وحنينة بنت جحش ، وأم أيمن (٨) .  
ولما انهزم المسلمون كانت عائشة وأم سليم قد شمرتتا حتى بدت خلاخيلهما ، وهما تحملان القرب ، وتفرغان الماء في أفواه القوم ، فإذا فرغت القربة عادتتا فملأتاها (٩) . ومنهن أيضاً السُمَيْرَا بنت قيس (١٠) وكُعَيْبَةُ بنت سعد (١١)

(١) العقد الفريد ٣/٧٨

(٢) أمية بن الأُسَكر ( البيان والتبيين ١/١٩٢ ) ودرديد بن الصمة ( البيان والتبيين ٢/١٠١ ) والدهان بن جندل ( الأغاني ٢٠/١٣٨ ) وعمرو بن حوط ( الفرائض ٦٩ ) والأعشى ( الأغاني ٣١/١٤٠ ) .

(٣) المدونة الكبرى للإمام مالك ١/٣٧٠ وسيرة ابن هشام ٣/٣٩٥

(٤) سيرة ابن هشام ٣/٣٩٥ (٥) ألف باء ٢/٢١٠

(٦) الإصابة ٨/٨٠ وفتح الباري ٦/٦٠ .

(٧) الاستيعاب ٢/٧٨٠ (٨) المغازي ٢٤٦ .

(٩) فتح الباري ٦/٥٨ و٧/٢٧٩ (١٠) المغازي ٢٨٥ .

(١١) الاستيعاب ٢/٧٧٩ وطبقات ابن سعد ٨/٢١٣

وأم سايط<sup>(١)</sup> ، وقد اختصها عمر بمرّ بط جيد ، وآثرها به على زوجته ، وقال :  
أحقّ به ، فإنها كانت تحمل لنا القرب يوم أحد<sup>(٢)</sup> .

٤ — وفي شعر النساء كثير من الفخر بالنصر ، وتعمير للأعداء المنهزمين ،  
وإشادة بشجاعة الصناديد من العشيرة . تقول عائكة بنت عبد المطّاب بن هاشم  
في نغرها بيوم عكاظ أيام الفجار :

سائل بنا في قومنا وليكف من شرّ سماعه  
قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باقي شناعه  
فيه السّنور والقنا والكبش ملتئم قناعه  
بعكاظ يُعشى الناظرين إذا هم لحوا شعاعه  
فيه قتلنا مالكا قسراً وأسلمه رعاعه  
ومجدلاً غادره بالقاع تنهسه ضباعه<sup>(٣)</sup>

وتغلّب نغار غميرة الكلبية على عطف الأنتى على الأنتى ، فتحدثت في  
زهو بأن قومها قتلوا فتيان قيس ، فتأيمت نساؤهم ، وقد كن يوشكن أن يتخضبن  
للزواج ، ووصفتن بأنهن مغبرات الألوان من الحزن والفتجيمة والمذلة :

تركنا الطلس من فتيات قيس أيامي بعد تيسير الخضاب  
فلم أر للمقادة كالعوالى ولا للشأر كالتقوم الغضاب  
أراق البجد لي دماء قيس وألصق خد قيس بالتراب<sup>(٤)</sup>  
ووصفت امرأة من الأزرد قومها بقولها :

(١) كثر المال ٩٧/٧ .

(٢) الاستيعاب ٨٠٤/٢ وفتح الباري ٢٨٢/٧ وكثر المال ٩٧/٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ١٣٠/٢ وبلاغات النساء ١٩١ . السنور : الدرع أو  
السلح . القناع : المراد به البيضة . الرعاع : سفلة الناس . غادرته : الضمير للغيل . نهسه :  
تزعج لحمه .

(٤) الوحشيات لأبي تمام ٢ مخطوط الطلس : المغبرات من الحزن والنذل .

قوم إذا حضروا المياج فلا ضرب<sup>١</sup> ينهينهم ولا زجر  
 خزر العيون إلى لوائهم يتزيدون كأنهم نمر<sup>(١)</sup>  
 وكذلك نغرت امرأة من عبد القيس<sup>(٢)</sup> ، ونغرت أم الحباب<sup>(٣)</sup> .  
 وهنا نلاحظ أن النساء كالرجال في المدح بالشجاعة والثناء بها، لأنها فضيلة عظيمة في  
 الحياة البدوية ، لذلك أثرها العرب ، وفضلها اليونان القدماء ، فكانوا يرون أن  
 الجندي أكبر خادم للوطن ، فيصفون عليه من الإجلال أكثر مما يصفون على  
 الفنان « وحين أرادوا أن يكتبوا شيئاً على قبر اسخيلوس لم يذكروا مهارته  
 الفنية ، بل كتبوا : إنه أبدى شجاعة فائقة في معركة مرثون »<sup>(٤)</sup> .

٥ — وما من شك في أن اشتراك المرأة في الحرب ، سواء أفادت الجيش ،  
 أم حاربت أم رافقت المحاربين لتحضهم وتسقيهم وتداوى جراحهم ، دليل على  
 شجاعتها وتشوقها إلى انتصار قومها ، واعتزازها بسيادتهم وحريتهم وقوتهم ،  
 ودليل على سمو مكانتها في القبيلة ، لأنها جديرة بأن تشارك الرجال في الذود عن  
 الحمى ، وفي كسب النصر ، ولو أنها لم تكن جديرة بالمشاركة في هذا العمل الخطير  
 ما سمح الرجال لها بأن تشاركهم فيه .

ثم إن في إعجابها بالشجعان ، وإشادتها بالبطولة والأبطال ، وحرص المقاتلين  
 على نيل إعجابها وثنائها ، دليلاً على عظيم أثرها وعلو قدرها .

### تجنبها عن الحرب أحياناً :

١ — ليس من الطبيعي أن يستن العرب جميعاً نظاماً واحداً ، يأخذون به  
 أنفسهم دائماً ، لأن العرف لا بد أن يتفاير بتفاير الناس ، وكثيراً ما يتخلى عنه  
 الآخذون به في ظرف من الظروف ، لذلك كان بعض العرب يتحون المرأة عن  
 الحرب .

(١) قواعد الشعر لثعلب ١٧ يتزيدون : يسرون سيراً فوق العنق .

(٢) حاسة الجحى ٤٥ (٣) ربيع الأبرار للزخمرى ٩٣ مخطوط .

(٤) مقدمة الشعر عند أرسطو ٢ .

ولعل مردّ هذا إلى أن بعضهم كان يدين بأنها لا تصبر طويلا على أهوال الحرب كما يصير الرجل ، ولأنه كان يحرص عليها و يرضن بها أن تصطلى بسعير القتال وتناججه . ولقد يتجلى إثارها للعمل المنزلى في قول امرئ القيس بن عابس الكندى .

أيا تملك لا تملّ صابني وذرى عدلى  
ذرينى وسلاحى ثم شدى الكف بالفضل<sup>(١)</sup>  
وفي قول حُرَيْث بن سلمة :

تقول ابنة العَمْرِى لما رأيتها تنكرت حتى اكدت منك أهال  
فإن تعجبي منى عُمَيْرُ فقد أتت ليالٍ وأيام على طوال .

.....

ولكنها في كِلَة كلّ شتوة وفي الصيف كُنُّ بارد وجمال  
تصان وتعلّى المسك حتى كأنها إذا وضعت عنها النصيف غزال<sup>(٢)</sup>

والدليل على أن بعضهم كان لا يصطحب الظلمائن أن حاجب بن زرارة استعد للقاء بنى عامر في يوم رَحْرَحَ حان ، وأرسل إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا ، وأمرهم فحملوا الأهل والمتاع وساروا نحو بلاد بغيض ، ولبث هو مع القوم ، ينتظر العامريين<sup>(٣)</sup> .

وفي حرب داحس والغبراء قال قيس العبسى : الرأى أننا لا نلقى ذبيان وحلفاءها ، فإننا قدوترناهم ، فهم يطالبوننا بالذحول ، والذي ينبغى أن نفعله أن نرسل الظلمائن والأموال إلى بنى عامر ، ويبقى أولو القوة والجدد منا على ظهور الخيل<sup>(٤)</sup> ثم أن دُرَيْد بن الصّعة سفه رأى مالك بن عوف حين سارت ثقيف للقيان الرسول في غزوة حنين ، لما علم أن مالكا ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم

(١) أخبار المراقبة ٩٥ لا تمل : لا تضجى

(٢) البيان والتبيين ٣/١٩٠ .

(٤) أيام العرب ٢٦٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٣

وأبناءهم ، وسأله دريد في ذلك فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فهزى برأيه ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المهزوم شيء ؟ إنما إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . فلم يستمع مالك إليه<sup>(١)</sup>

كذلك اختلفت قريش وأحلافها ، وهم يزعمون السير إلى أحد ، فرأى صفوان بن أمية أن تخرج النساء مع المحاربين ليحمسهنم ويذكرنهم قتلى بدر ، ووافقته عكرمة وعمرو بن العاص ، ورأى نوفل بن معاوية أن هذا ليس برأى ، لأنه لا يأمن الهزيمة فتفضح النساء ، ووافقته صفوان بن أمية . فحجاء نوفل إلى أبي سفيان يعرض عليه رأيه ، فصاحت هند : إنك والله سامت يوم بدر فرجعت إلى نسائك نعم نخرج فنشهد القتال ، فإنه لما ردت القيان إلى الجحفة يوم بدر قتلت الأحبّة يومئذ . فقال أبو سفيان : لا أخالف قريشاً فيما أجمعت عليه ، فخرجوا بنسائهم<sup>(٢)</sup> .

ويتضح من هذا أن النظام الأعم الأغلب كان أن تخرج الطعام مع المحاربين ، وكان هذا النظام متبعاً حتى عند ترجيح الهزيمة أو التخوف منها في حرب بعيدة عن الديار .

٢ — وسواء أكان إبعاد المرأة عن الحرب خوفاً عليها من عواقب الهزيمة ، أم ظناً من بعض الرجال بمعجزتها عن البلاء ، فإن الإسلام لم يشجعها على أن تحارب فقد قالت السيدة عائشة للنبي : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور<sup>(٣)</sup> ، وله في هذا أحاديث شتى<sup>(٤)</sup> .

وفي غزوة خيبر خرجت أم زياد الأشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لمن النبي : يا ذن من خرجتن ؟ وظهر في وجهه الغضب . فقان : خرجنا ومعنا دواء

(١) تاريخ الطبري ١٢٦/٣ وسيرة ابن هشام ٦٥/٤ .

(٢) المغازي ٢٠٠ وشرح نهج البلاغة ٣٥٩/٣ .

(٣) فتح الباري ٣/٦ والذبيات ٧٩/٦ .

(٤) فتح الباري ٥٧/٦ والطبقات ١٦٥/٦ و٥٠/٨ .

نداوى به الجرحى ، وتناول السهام ، ونسقى السويق<sup>(١)</sup> .

ولما استأذنته أم كدشمة القضاية أن ترافق جيشه ، قال : لا . قالت : إني لست أريد أن أقاتل ، إني أريد أن أداوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء . قال : لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجامسى ، لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة<sup>(٢)</sup> . ولم يأذن لأم ورقة بنت عبد الله أيضاً ، وقال لها : قبرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة<sup>(٣)</sup> .

ويظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم أباح للنساء أن يصحبن الجيوش فى بعض غزواته ليسقين الماء ويداوين الجرحى ، فلما قوى الإسلام وكثر عدد المساهمين آثر أن تقر النساء فى بيوتهن ، اكتفاء بالرجال فى الحفاظ ، وصيانة للمرأة عن أهوال المعارك ، وإيثارا لأن تفرغ لشئون الأسرة ، وإبعادا لها عن الاسترجال .

### المرأة والسلام

إذا ما ذكرت المرأة بدرت إلى الذهن صفات الأنثى من رقة ولين وعطف وشفقة وحنان ، فهل كانت المرأة الجاهلية حجراً صلباً لا حنوفيه ولا إشفاق؟ هل كانت المرأة العربية دائماً تسعر الحروب، وتوقد الضغائن، وتورث العداوات؟ هل غفلت عما تجره الحروب عليها من ثكل ويتم وترميل وأحزان؟ وعما قد يصيبها من سبي ومذلة وهوان؟ .

لا ، وإنما عاشت فى بيئة تتوالد حروبها ، وتتفاقم منازعاتها ، فلم تستطع إلا أن تدفع فى تيار الرجال .

وهل كان يجديها أو يجدى الرجال أن تتخلف عنهم حيث تستطيع أن تقدم العون ، وتذكى الحماسة ، وتسهم فى القتال؟ وهل كان الرجال يصيخون إلى أصواتها

(١) الإصابة ٢٣٥/٨

(٢) الإصابة ٢٧٠/٨

(٣) الإصابة ٢٨٩/٨

الحنون الرقيق يدعوهم إلى السلام ، ويحيب إليهم الوئام ، وهم يشقون أن أعداءهم يتميزون منهم الغرة ليسكروا عليهم كرة بعد كرة ؟

تتعسف إذا ما ملنا المرأة على مشاركتها في الحروب ، وتتجنى عليها إذا ما انتقمناها ، لأنها لم تحمل غصن الزيتون في عالم يتلهب كالأتون .

وها هي ذى المرأة المعاصرة تدعو إلى السلام في عصر الحضارة الزاهية ، فلا يستمع لها إلّا كماون ، وقد نحت أصوات الدعاة إلى السلام من العلماء ورجال الدين ، وليس لدعواتهم من الأثر إلا ما للصوت يردد صداه ، ثم تبتلعهم البيداء أو يخنقه الفضاء .

ومع ذلك فلم يخل تاريخ المرأة العربية من جهد بذلته لنشر لواء السلام ، فإنه لما تزوج الحارث بن عوف ببهيسة بنت أوس الطائي رفضت أن يقربها، وقالت له : لقد ذكرت لي من الشرف مالا أراه فيك . قال : وكيف ؟ قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً — وكان ذلك في حرب عبس وذبيان — قال : فيكون ماذا ؟ قالت : أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك . فخرج وسعى بين القوم بالصلح ، وحمل الديات هو وهرم بن سنان ، وقد مدحهما بذلك زهير بن أبي سلمى<sup>(١)</sup> .

كذلك أسلفت في دراسة ( البنت ) أن الجمانة بنت قيس بن زهير العبسي أصلحت بين أبيها وجدها لأمها .

وأسلفت في الفصول السابقة أن المرأة كانت تجير ، والإجارة ضرب من كف التمتال ودرء الفتنه .



# السبَايا والإِمَاء

## السبَايا

طبيعى أن تنكشف الحرب عن قتلى وجرحى وسبَايا وأسرى ، وما زال هذا ديدن الحرب إلى العصر الحاضر .

وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الغنائم الأخرى ، لأن في الأسر والسبي إذلالاً للعدو وقهراً ، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبَايا ، فيهم يبادلون بهم أسرارهم تارة ، ويأخذون فداءهم تارة ، ويستخدمون الأسرى في العمل عبيداً ، ويتزوجون السبَايا بغير صداق ، ويستولدونهم . وهم إلى ذلك كله كلفون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا في عدوهم ، وظفروا به ، وليس بعد الأسر والسبي دليل على مقدرتهم وصولتهم .

ولقد يخرضهم على السبي أنه انتقام ، وجزاء بالمثل ، يؤيد ذلك قول المرعش السكبي :

لو كنت حراً كريماً ذا محافظة ما نمت إلا ونار الحرب تشتعل  
حتى تساق نساء سوق نسوتكم بما أصابكم أو يُبَلِّغ الأجل<sup>(١)</sup>

ولما افتخر عامر بن الطفيل بأنه سبي امرأة من عبس ثم من بنى سكين -  
وقد استردها قومها بعد أيام - رد عليه عروة العبسى يعيره سبيه ليلي بنت شعواء  
الهلالية وحسنا

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة فمأخذُ ليلى وهي عذراء أعجب  
لبسنا زماناً حُسْنَهَا وشبابها وردَّتْ إلى شعواء والرأسُ أشيب  
كماخذنا حسناء كرها ودمعها غداة اللوى معصوبُهُ بتصبب<sup>(١)</sup>

### السبي نظام عام :

وقد حدث السبي كثيراً ، حتى لتخولني هذه الكثرة أن أذهب إلى أنه نظام عام متواضع عليه . ولا أستثنى من ذلك إلا أهل مكة ، لأنهم كانوا آمنين ، فلم تُسب قرشية قط ، فتوطأ قهراً أو تجال عليها السهام . قال حرب بن أمية يرغب الحضرمي في نزول مكة — ويكنى أبا مطر — :

أبا مطر هلم إلى صلاح فيكفك الندامى من قریش  
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمين أن يزورك رب جيش<sup>(٢)</sup>

وتكنى هذه الأمثلة لشيوع السبي : فقد أغار قيس بن زهير العبسي على بني يربوع ، فأصاب ابنتي قرواش بن عوف ومائة من إبله<sup>(٣)</sup> . وأغار بسطام بن قيس على بني مالك بن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة ، وهاج أبو جندب بن مرة خلعاء بكر وخزاعة على بني لحيان ، فقتل منهم وسبي من نسائهم وذراريهم سبايا<sup>(٤)</sup> . وأغار الهذيل بن هُبيرة التغلبي على بني يربوع ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً ، وسبي سباياً كثيراً<sup>(٥)</sup> . وفي يوم جدود أغار الحارث بن شريك الشيباني في بكر بن وائل على بني ربيع بن الحارث فأصابوا سباياً ونعماً<sup>(٦)</sup> . وفي يوم التَّسار سبيت نساء كثيرات من شريفات بني عامر<sup>(٧)</sup> . وفي يوم الزُّويرين بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم

(١) الأغاني ١٨٧/٢ .

(٢) معجم البلدان ١٣٧/٨ صلاح : اسم لمكة (٣) النقائض ٨٤ .

(٤) النقائض ٧٥ (٥) الأغاني ٤٧/٢١ .

(٦) النقائض ٧٠٣ (٧) النقائض ٣٢٦ والكمال لابن الأثير ١/٢٢٢ .

(٣٠ - المرأة في الشعر الجاهلي )

ونسأءهم ، ووصل الحوفزان بن شريك إلى من بقي من النساء اللاتي خلفهن الرجال ، وسأروا عنهن للقتال ، فأخذ جميع ما خلفوه من نساء وأموال<sup>(١)</sup> .  
 وكان السبي هدفا مرموقا ، يدل على ذلك أن عامر بن الطفيل قال لبني عامر يوم فيف الريح — بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب : — أغيروا بنا عليهم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ، ونسبي نساءهم<sup>(٢)</sup> .

### الفخر بالنسب والتعير به :

أما فخرهم بالنسب فكثير جداً ، لأنه الآية على القدرة والظفر بالخصم ، ولأنه مضاعفة لزهو الغالب ونشوته بالغلب ، ثم إنه إرهاب للآخرين الذين قد تسول لهم قوتهم أن يحاربوا هؤلاء الأقوياء الغلابين ، وكثيراً ما يتصل بالفخر تعبير . يقول طفيل الغنوي في زده على زيد الخليل وقد أدرك بنو عامر ثأرهم من طيء :

وقتلنا سراتهم جهاراً وجننا بالسبايا والنهب  
 سبايا طيء أبرزن قسراً وأبدلن القصور من الشعاب  
 سبايا طيء من كل حي يعن في الفرع منها والنصاب<sup>(٣)</sup>

ويقول الحارث بن حلزة :  
 ثم ملأنا على تميم فأحرمتنا وفينا بنات مريم إماء<sup>(٤)</sup>  
 ثم أوفى خير قيس بن الخطيم بصونهم نساءهم في يوم بعث ، وبسبيهم نساء الخزرج :

(١) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٥ بين يبي تميم بن مر بن أد وبني عامر بن تميم سقطمة وبين آل زيات (ميم) وعملى وثور. أطلعت سوعكنا ببني عبدة مناة بن أد وضبة بن أد) وحلفائهم طيء وغطفان .

(٢) النقائض ٤٦٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٣١ . ٧٨١ .

(٣) الأغاني ١٦٦/١٦٦ .

(٤) شرح القصائد العشر للبيروني (١٤٧) لما بلغنا الحساء مناعلى عيم فلما صرنا في بلادهم دخلنا في الأشهر الحرام فكفنا على مناهم وقد شقينا بناهم قبل دخول الشهر الحرام .  
 (١٠٦)

وإنا منعنا في بغاث نساءنا وما منعت من مخزبات نساءها<sup>(١)</sup>  
وعير زهير بن جناب التغليبين بقوله :

تبا لتغلب أن تساق نساؤهم سوق الإمام إلى المواسم عبطلا<sup>(٢)</sup>  
وبقوله :

وسبينا من تغلب كل بيضا ء رقاد الضحا برود الرضاب<sup>(٣)</sup>  
وباہی الأفوه الأودی بأنهم سبوا حسانا لم يستطع رجالهن أن يحموهن ،  
وأنهم مشوا يهن يناغين العبيد ، وعليهن ملابسهن الطويلات الذبول تتدلى على  
أطراف النوق ، دلالة على ترفهن :

فأبنا بحور كالظباء وجامل ولم يمتنع البيض الحسان بعولها  
تناغى العضاريط المشاة خرائد<sup>(٤)</sup> تمسح أطراف القلاص ذبولها<sup>(٥)</sup>  
وكذلك باهى عنقرة بسديهم من بنى ضبة وتميم :

فخلوا لنا عود النساء وجببوا عبايد منهم مستقيم<sup>(٥)</sup> وجامح<sup>(٥)</sup>  
وهم يفخرون بأن السبايا حسان منعمات ، يقول زهير بن جناب في تعبيره  
بني تغلب :

وسبينا من تغلب كل بيضا ء رقاد الضحى برود الرضاب<sup>(٦)</sup>  
وبأنهن حسيبات شريقات ، لأن هذا أدل على السطوة ، وعلى نفاسة الفنيمة ،  
وأشد إيلاماً للعدو ، كقول الأسود بن يعفر في ابنه الجراح ، وكانت أمه أخيدة ،  
سباها الأسود من بنى نهد في غارته عليهم :

(١) ديوان فيس بن الحظيم ٤ (٢) الأغاني ٢١/٦٤ وأخبار المراقبة ١٥ .  
(٣) الأغاني ٢١/٦٥ وأخبار المراقبة ١٦ .  
(٤) ديوان الأفوه الأودي ١٧ مخلوط . جامل : قطيع من الجمال برعاته . العضاريط :  
العبيد والأجراء والختم .  
(٥) عنقرة ٤٤ عبايد وروى عبايد وما معنى يقال ذهبوا عبايد وعبايد أي متفرقين .  
جببوا : فروا . مستقيم وجامح : بعضهم على الطريق وبعضهم عدل عنه وضل .  
(٦) الأغاني ٢١/٦٥ وأخبار المراقبة ٢٦ .

فآباء جراح ذؤابة دارم وأخوال جراح سرة بنى نهيد<sup>(١)</sup>  
وبالسباء والسبايا افتخر طرفة<sup>(٢)</sup> ، وعامر بن الطفيل<sup>(٣)</sup> ، وزيد الخليل<sup>(٤)</sup> ،  
وعروة بن الورد<sup>(٥)</sup> والأعشى<sup>(٦)</sup> .

### المرح بالسبي :

١ — مدحوا القادرين على السباء كما نغروا بالسباء ؛ لأنهم بهذا المدح  
يضاعفون من سطوة المدوح ومن لذته بالنصر ، فالأعشى يقول في مدح قيس  
ابن معد يكرب إنه أذل أحياء كثيرة ، وسبي نساءهم ، وفيهن الغانية المترفة المثلثة  
الجسد ، حتى إنهما لضخامتها تأتزر بثوبين قد لفق أحدهما على الآخر ، وهي  
جميلة جداً تعلق التأمم وقاية من الحسد ، ولا تقوم من فراشها لتشرب الغبوق  
إلا ضحا ، وقد نجحها قيس في أهلها ، وسباها واستمتع بها :

فيارُبَّ ناعمة منهم تَشُدُّ اللِّفَاقَ عليها إرارا  
تَنُوطُ التَّمِيمِ وتَأبى الغبوق قَ من سِنَّةِ النومِ إلا نهارا  
ملكْتَ فعانقَهَا ليلة تَنْصُ العُقُودَ وتدعو يَسارا<sup>(٧)</sup>

ولم تشد المرأة عن الرجل ، فقد مدحته بالسبي كما يمدح الرجل ، قالت جنوب  
المذلية في رثاء أخيها عمرو :

والمُحْرَجُ العاتقُ الحسناء مُدْعِنَةٌ في السبي ينفحُ من أردانها الطيب<sup>(٨)</sup>  
وقالت الخنساء في رثاء صخر :

(١) الأغاني ١١/١٣٣ (٢) ديوان طرفة ١٢٨ وشعراء النصرانية ٣١٣ .  
(٣) ديوان عامر القصيدة ٢ (٤) الأغاني ٥٥/١٦ (٥) ديوان عروة ١٩ .  
(٦) ديوان الأعشى الكبير ١٣ تحقيق محمد حسين .  
(٧) ديوان الأعشى الكبير ٤٩ اللفاق : ثوبان يلفق أحدهما بالآخر . الإزار : الملحقة .  
وكل ما ستر . تنوط : تعلق . تنص : ترفع وتظهر . يسار : شعار لهم بالخير .  
(٨) رياض الأدب ٧٨ .

وَسَبَى كَأَرَامِ الصَّرِيمِ حَوَيْتَهُ خَلَالَ رِجَالٍ مُسْتَكِينٍ عَوَاطِلُهُ (١)  
 ٢ - فن الطبيعي - والسبي مفخرة للسابي ومعرفة للنسي - أن يستميت  
 بالرجال في الحرب حتى لا يهزموا فتسبي نساؤهم .  
 يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام      نحاذر أن تقسم أو تهونا  
 أخذن على بعولتهن عهدا      إذا لاقوا فوارسَ معامينا  
 لِيَسْتَلْبِنَ أبدانا وَيَبِيضَا      وأسرى في الحديد مقريننا  
 إذا ما رحن يمشين المويونا      كما اضطربت متونُ الشاريننا  
 يقن جيانا ويقن لستم      بعولتنا إذا لم تمنعنونا  
 إذا لم نحمهن فلا بقينا      لشيء بعدهن ولا حيننا  
 وما منع الطعامن مثل ضرب      ترى منه السواعد كالأقلينا (٢)  
 وقال الأفوه الأودي :

نقاتل أقواماً فسبي نساءهم      ولم ير ذو ذعر لنسوتنا حجاباً (٣)  
 ولذلك كان من مفاخر الرجل أن يبق النساء السبي ، يقول الشاعر ذك بن شريك  
 في رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عودُ النساءِ وشمّرت      مآزرَ يومٍ لا تُؤارى خلاخه  
 وثقن به عند الحفيظة فارعوى      إلى صوته جاراته وحلائله (٤)

(١) ديوان النساء ٢٠٠ آرام الصريم : ظباء بيض في كتيب من الرمل . خلال رجال : جعلتهن في رجاله . مستكين عواطله : قد ذللن وفقدن حليهن .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٤٧ القلون : جمع قلة وهي الحشبة التي يلعب بها الصبيان يضربونها بالقتال .

(٣) ديوان الأفوه الأودي ٢١ مخطوط .

(٤) الأمالي لليزيدي ٣٤ والأغاني ١٢/١١٣ ومراث وأشعار اليزيدي ٨١٦ مخطوط

عود النساء : جمع عائد وهي الأتني الحديثة التاج .

ومدح خُرَيْب بن الحَرْب التيمي بنى جُلَيْم ، لأنهم هموا الغريبات من السبي  
يوم ذى قار :

وإن لُجَيْمًا أهل عز وثروة وأهل أيادٍ لا يُنال قديمها  
هم ممنوعوا في يوم قار نساءنا كما منع الشَّوَلُ الهجانَ قرومها<sup>(١)</sup>  
وكان لقيط بن يَعْمُرٍ قد حذر إبادةً بعد هزيمتها للفرس في دير الجماجم قبل  
وقعة ذى قار بقوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نساءكم كسرى وما جمعا<sup>(٢)</sup>

استخبرص السبايا :

تتفانى القبيلة في حماية نساءها حين يدوى نفيح الحرب ، ويعظم تفانيها إذا  
سبت نسوة منها . عندئذ تنفر القبيلة كلها سراعاً إلى الميدان لاستخلاص السبايا ،  
ويقدم كل فرد حياته ثمناً لشرف القبيلة وتخليص نساءها من أيدي أعدائها ،  
يقول طرفة بن العيد :

ونحن إذا ما الخيل زایل بينها من الطعن نشاجٌ مُخَلٌّ ومُزَعَفٌ  
وجالت عذارى الحى شتى كأنها تَوَالِي صَوَارٍ وَالْأَسْنَةُ تَرَعَفٌ  
ففتناً غداة الغبِّ كلَّ نقيذةٍ ومنا الكئى الصابر التعرف<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٢٠/١٤٠ الشول : جم شائلة وهي من الإبل ما أتى على حائها أو وضعها  
سبعة أشهر فجف لبها . الهجان : الإبل البيض والسكرام الجياد القروم : جم قرم وهو الفحل  
من الإبل .

(٢) الأغاني ٢٠/٢٤ .

(٣) ديوان طرفة ١٢٧ زایل : فرق . نشاج : طعن يخرج الدم بصوت . مخل : يتزف  
الدم ويهزل الطعن . مزعف : قاتل . توالي صوار : أواخر قطع من البئر . شبه العذارى  
حين جلن فزعات بقملان بقر يتبع بعضها بعضاً . فتنا : رددنا . غداة الغب : غداة اليوم التالي  
ليوم الحرب . النقيذة ما يستنقذ من الأعداء . التعرف : الذى يبحث عن الرئيس ويتعرفه  
ليجمل عليه .

وكذلك نغز زيد الخليل بأنه استعاد السبايا اللاتي كانت قزارة وغطفان  
قد أخذتها منه ومن نهبان :

لقد علمت نهبان أني حميتها وأنى منعت السبي أن يتبددا<sup>(١)</sup>  
وافتخر طفيل الغنوى بأنه تخلص السبايا ، ولأم بني جعفر على ضعفهم :  
فنحن منعنا يوم حرس نساءكم غداة دعانا عامرٌ غيرَ مؤنل  
رددنا السبايا من نُفَيْلٍ وجَعْفَرٍ وهن حبالى من نُحْفٍ ومُنْقَل<sup>(٢)</sup>  
وبحسب الرجل شرفاً أن يحمى المرأة من السبي أو يتخلصها من سابيها ،  
وقد ضرب المثل بريبعة بن مكدم ، لأنه حمى الظعائن ، ويزعم الرواة أنه حماهن  
وهو ميت ، فقد هجم بنو سليم يطلبون دماءهم من الحارث بن مكدم وريبعة  
ابن مكدم الكنانى ، فلقوا ظعائن من كنانة ، فأرادوا أن يسبواها ، فمانعهم  
ريبعة فى فرسان معه ، فشد عليه نبيشة بن حبيب السامى فرماه فى عضده ، فلاحق  
بالظعن يستدى ، حتى انتهى إلى أمه ، فقال : اجعلى على يدي عصابة ، وهو  
يرتجز بقوله :

شدى على العصب أم سيار فقد رزيتُ فارسا كالدینار  
يطعن بالرمح أمام الأدبار

وشدت عليه أمه عصابة ، فكرّ على القوم وهو ينزف حتى أثنهم  
وكشفهم ، وقال للظعائن : أسرعن ركابكن حتى ينتهين إلى أدنى البيوت  
من الحى ، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة ، فأعتمد على رحى فلا يقدمون  
عليكن . ففعلن ذلك ، واعتمد على رحى واقفاً على متن فرسه ، حتى بلغت النساء  
مأمنين ، وما يقدم عليه أحد خشية منه ، ثم رموا فرسه لما رأوه مائل العنق ،  
فقمصت ، فمال عنها ميتاً ، فأسرعوا وراء النسوة فلم يلاحقوهن . قال أبو عمرو

(١) الأغاني ١٦ / ٥٣ .

(٢) ديوان طفيل الغنوى ٣٧ نحف : لم شغل بطنها . منقل : عظم بطنها .



ابن العلاء إنه لا يعلم قتيلاً حتى الظعائن غير ربيعة<sup>(١)</sup> . وقد مدحه كثير من الشعراء ، وضرب العرب به المثل ، يقول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل<sup>(٢)</sup>  
ولقد كان استخلاص السبايا مجداً يفخر به الذراري وإن بعدوا ، ففي يوم  
الحِذَابِ سَبَّتْ قيس عيلان نساء من سليط ، فأدركتهم بنو الخطّاقى وبنو ثعلبة ،  
فاستنقدوا السبايا ، وإلى ذلك يشير جرير بقوله :

لقد جُرِّدَتْ يومَ الحِذَابِ نساؤهم فساءت مجاليها وقلت مهورها<sup>(٣)</sup>  
ومن الطبيعي أن تكون المرأة أعظم لطفة على إنقاذ السبايا ، وأن تبتهج  
بتخليصهن وتشيد بمخلصهن ، لأنها تعلم ما تقاسى السبية من آلام السبي والغربة  
والحنين إلى الأهل ، لهذا شادت عمرة بنت دريد بن الصمة فى رثاء أبيها  
بفسكه السبايا :

ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق<sup>(٤)</sup>  
وكان دريد قد قال لربيعة السلمى لما ضربه بسيفه : إذا أتيت إلى أمك  
فقل لها إنك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك .  
فلما رجع إلى أمه أخبرها ، فقالت له : لقد أعتق قتيك ثلاثاً من أمهاتك<sup>(٥)</sup> .  
ومدحت الخنساء أخاها صخراً بأنه فكك السبايا :

ردّاد عادية فكّك عانية كضيفم باسل للقرن هصّار<sup>(٦)</sup>  
وقالت :

ويبيض منعت غداة الصبا ح تگشّف للروّع أذياها<sup>(٧)</sup>

(١) الأغاني ١٤/١٢٦ وجمع الأمثال ١/٢٠٣

(٢) الأمالي ٢/٢٧٠ . (٣) القنائى ١٣ (٤) الأغاني ٩/١٥

(٥) معجم البلدان ٥/١٣٨ . (٦) ديوان الخنساء ١٣٦

(٧) الديوان ٢٠٩ .

## عناوين السبايا :

١ - أطلق العرب الأسرى أحيانا بغير عوض ، إكراما لشاعر يشفع ، كما أطلق الحارث بن أبي شمر أسرى بني تميم وفيه بن شاس بن عبدة ، لما شفع فيهم علقمة ومدحه بقصيدته ، بل إنه أطلق الأسرى وكساهم وحباهم وزودهم زادا كثيراً<sup>(١)</sup> . وأحيانا كانوا يطلقون الأسير بعد جز ناصيته ، كما فعل الحارث بن عبّاد بمهلل<sup>(٢)</sup> .

كذلك كانوا يمتقون النساء ، كرامة لشفيح ، أو زرعاً لجليل ، أو عفواً بعد مقدرة . فقد أكرم يزيد بن عبد المدان دريد بن الصمة ، وردّ عليه سبايا رجل من مُمالة كان جاراً لأخيه عبد الله ثم جارا له ، فقال دريد في مدحه :

مدحت يزيد بن عبد المدان	فأكرم به من فتى مُمتدح
إذا المدح زان فتى معشر	فإن يزيد يزيرن المدح
وردّ النساء بأطهارها	ولو كان غير يزيد فضح
وقلت له بعد عتق النساء	وفك الرجال ورد اللّحح

.....  
.....  
.....<sup>(٣)</sup>

ولما انتصر زهير بن جناب على غطفان قتل منهم وأسر ، ثم رد لهم النساء والأولاد وأخذ الأموال<sup>(٤)</sup> ، وقال :

فلم تصير لنا غطفان لما تلاقينا وأحرزّت النساء<sup>(٥)</sup>

وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة في الجاهلية ومثلها في الإسلام<sup>(٦)</sup> .

وإذا كان السبي مفخرة للسباي فقد كان إطلاق السبايا مفخرة أيضاً

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٤ والمعارف ٢٧٠ (٢) ابن الأثير ١/٢٢٠

(٣) الأغاني ٩/١٨ (٤) ابن الأثير ١/٢٢٦ (٥) ابن الأثير ١/١٧٩

(٦) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ١/٤٩ .

ومأثرة يمدح بها ، فإنه لما أغار الحصين بن الحُمام على بنى عقيل وبنى كعب أنحن فيهم ، واستاق نساء كثيراً ونساء ، وكان فيهن أسماء بنت عمرو سيد بنى كعب ، ثم أطاقها الحصين ومن عليها ، وقال في ذلك :

تركنا من نساء بنى عقيل أيامى تبتنى عقد النكاح  
فأبنا بالنهب وبالسبايا وبالبيض الخرائد والألقاح  
وأعتقنا ابنة العمري عمرو وقد خضنا عليها بالقداح<sup>(١)</sup>

وفي يوم أوراة الأول ذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر بن وائل ، وأحرق بعض السبايا ، فكلمه رجل من قيس بن ثعلبة في شأن الباقيات من السبايا فأطاقهن ، فقال الأعشى يفخر بشجاعة هذا القيسى :

ومنا الذى أعطاه بالجمع ربُّه على فاقة وللملوك هياتها  
سبايا بنى شيبان يوم أوراة على النار إذ تجلّى به فتياتها<sup>(٢)</sup>

وقد مدحت عمرة بنت دريد بن الصمة أباه بفكك سبايا بنى سليم :  
ورب كريمه أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق<sup>(٣)</sup>  
وكانت القبائل الفقيرة الضيقة المراعى القليلة الأنعام لا تجد ما تفتدى به سباياها وأسراها ، فتعتمد على كرم السابى ، وتنتظر إطلاقهن بغير فداء<sup>(٤)</sup> ، أو تتحين الفرص لتسترد سباياها بالقوة ، وتتأثر من خصومها .

٢ — وفي الإسلام كان ذلك ، فإنه لما سبي رسول الله سبياً كثيراً من هوازن أتى وفداهم إليه مسلمين ، ورجوا منه أن يمن عليهم ، وقال أحدهم يارسول الله : إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك - يشير إلى حاضنته

(١) الأغاني ١٢/١٢٢ وشعراء النصرانية ٧٤٥ اللقاح : الإبل الحديثة النواج

(٢) ديوان الأعشى (٣) معجم البلدان ١٣٨/٥

(٤) Women in the Aiyam Al arab. P. 69

من بنى سعد وهم من هوازن - ولو أننا أرضعنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان .  
ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين .  
فقال رسول الله : أأبناءؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا : خيرتنا بين .  
أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا . فقال لهم : أما  
ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأشار عليهم أن يتشفعوا به إلى المسلمين ،  
ويتشفعوا بالمسلمين إليه . ففعلوا ، وتنازل المهاجرون والأنصار إلا الأقرع بن  
حابس وبنى تميم وعيينة بن حصن وبنى فزارة وعباس بن مرداس . فقال  
رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض  
من أول سبي أصيبه<sup>(١)</sup> .

٣ - وبهذا التسريح الذى لا عوض فيه امتاز العرب والمسلمون من الأمم  
الأخرى ، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم بعد أن يتموا فى الرق ست  
سنوات . وكان الأثينيون يطلقون أسراهم إذا ما أدوا ثمن الإطلاق . ولم يعطف  
عابهم الإمبرطيون بمثل هذا التسريح العوضى ، ولم ينيلوهم حقاً من حقوق البشر ،  
بل كانوا إذا زاد عدد الأرقاء من الأسر والشراء قتلوهم غير مستبقين إلا من  
يحتاجون إليه<sup>(٢)</sup> .

### إطلاق السبايا بعوض :

جرى الأتقياء من العرب على أنه من العار أن يستردوا السبايا بمال ، لأن  
هذا دليل الضعف ، فلا هم قادرون على استخلاصهن واستنقاذهن عنوة ، ولا هم  
قادرون على استرجاعهن بغير مال ، سواء أكان ذلك بالانتقام من أعدائهم

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٣٤ وصحيح البخارى بشرح الكرماني ١١/٩٠ والكامل .  
لابن الأثير ٢/١٠٢ .

(٢) دائرة المعارف للبستاني ١/٦٩٦ .

وجزائهم سبياً بسبي ، أم بإطلاق السابي للسبايا تكريماً لقومهن أو لمن يشفع فيهن . لذلك عير سويد بن أبي كاهل بنى شيبان بأنهم اشتروا نساءهم من بهراء التي أغارت عليهم .

ظللن ينازعن العصاريط أزرها وشيبانُ وسط القطُقطانة حُضَرَ<sup>(١)</sup>

١ — على أنهم كانوا يمارسون فداء الأسرى والسبايا ، وكانت لهم نار تسمى نار الفداء ، يوقدونها إذا طلب منهم الفداء ، كراهة أن يعرضوا النساء نهراً لثلاثا .<sup>(٢)</sup> يفتضحن .

من ذلك أن أنس بن مدركة انحلثمى أغار على ناس من ثمالة كانوا جيراناً لدريد بن الصمة ، وغنم وسبي ، وذهب بسبيه وغنائمه إلى نجران ، فذهب دريد إلى يزيد بن عبد المدان بنجران ، ليرد عليه ما سلب أنس ، وجاء في قصيدته ليزيد طلبه رد السبايا بالمن أو بالفداء :

بنى الديان ردوا مال جارى وأسرى في كبولم الثقال

وردوا السبي إن شتمت بمنٍ وإن شتمت مفداةً بمال<sup>(٣)</sup>

٢ — ولم أعترف فيما قرأت على مقدار ما كان يدفع فداء للمرأة إلا في مرة واحدة ، هي أن أبحر بن جابر العجلي فادى أخته حسينة من عمرو بن الحارث بمائة من الإبل وخمسة أفراس<sup>(٤)</sup> .

أما فداء الرجل فإنه ذكر مرات ، فأحياناً كان خمسمائة من الإبل ، وقد كانت فداء لحاجب بن زرارة لما أسره العامريون والعبسيون يوم شعب جبلة . وكان أحياناً مائتين دفعت فداء لعمرو بن عمرو<sup>(٥)</sup> . وفي يوم الشلآن أسر العامريون وبرة بن رومانوس الكلابي أخا النعمان بن المنذر لأمه ، فافتدى بألف

(١) الأغاني ١١/١٦٦ العصاريط : الأجراء والخدم . القطقطانة : موضع .

(٢) مطالع البدور ١٨/٢ (٣) الأغاني ١٧/٩ .

(٤) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ - ٥٩ (٥) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٤

بعير و فرس<sup>(١)</sup> . وفي يوم طَخُفَة بين بني يربوع وجيش النعمان بن المنذر انهزم جيشه ، وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان وحسان بن المنذر ، ثم أطلقوها ، فأعطى النعمان بنو يربوع ألى بعير ، وأبقى لهم الرفاة<sup>(٢)</sup> .

وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً وبهودج أمه<sup>(٣)</sup> ، وفي رواية أخرى أن عتيبة بن الحارث قال لبسطام - وقد عاب بسطام هودج أمه - أما واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتيني أمك بكل شيء ورثك قيس بن مسعود ، وبجملها وحديجها ، فأنته أم بسطام على جملها وحديجها وبثلاثمائة بعير<sup>(٤)</sup> .

وقدم سيار بن عمرو الفزاري للأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث ابن ظالم ألف بعير ، وهي دية الملوك ، ورهنه بها قوسه ، وفي ذلك يقول قراد بن حنش الصاردي :

ونحن رهننا القوس ثم فُودِيَتْ      بألفٍ على ظهر الفزاري أقرعا  
بعشر مئتين للملوك سعى بهسا      ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا<sup>(٥)</sup>

هذا التفصيل الذي نجده في فداء الأسير لا نجد مثله في فداء السبية ، وكل ما نعلم أن سايها كان يتقاضى قدرًا من المال ليطلقها .

فقد أغار قيس بن زهير بن جذيمة العبسي على بني يربوع ، فلم يصب غير ابنتي قرواش بن عوف ومائة من الإبل لقرواش ، ثم اتفق قيس أن يرد ما أخذ ،

(١) ابن الأثير ٢٣٤/١

(٢) ابن الأثير ٢٧٣/١

(٣) النقائض ٣١٦

(٤) النقائض ٧٦ و ٣١٦

(٥) بلوغ الأرب ٢٢/٣ قال ابن عبد ربه في العقد إن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري احتل للأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهي دية الملوك ، ورهنه بها قوسه فوق ، وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة في مقاتل الفرسان إن أحاسن سيار لأمه الحارث بن أبي سفيان الصاردي تكفلها للأسود بن المنذر فقام منها بثلاثمائة ثم مات ، فزهن سيار قوسه على المائتين فلما مدح قراد بن حنش بني فرارة جعل الدية كلها لسيار .

و يُعْطَى فرساً . فلما رأى أصحابه ذلك قالوا : لا نصلحك أبداً ، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين ، فعمدت إلى غنيمتنا فجعلتها في فرس لك تذهب به دوننا . فاشترى منهم غنيمتهم بمائة من الإبل<sup>(١)</sup> .

والذي يوحى به النص أن نصيب أصحاب قيس كان مائة من الإبل عوضاً عن نصيبهم من الغنيمة كلها ، وهي مائة من الإبل وامرأتان ، وليس يفهم منه قيمة فداء المرأتين وحدها

٣ -- وسنعرف أن الإسلام أقر إطلاق السبايا بعوض .

وبهذا الإطلاق المالى تميز العرب فى الجاهلية ، وتميز المسلمون على الرومان ، ذلك بأن الرومان كانوا يطلقون العبيد بالمكاتبه وبالتدبير ، ولكن العتقى لا يتحررون الحرية الكاملة ، بل يبقون خاضعين لسيادة مولاهم ، فإذا افتقر السيد أو أملق أبوه أو أمه كان على المعتق أن يعود إلى الرق ، أو أن يقوم بأود الملق ، وإذا أهان العبد سيده بعد عتقه جاز له أن يسترده<sup>(٢)</sup> .

### بغض المرأة للبي :

اعتزت المرأة بحريتها كما اعتز الرجل ، وأبغضت البي كما أبغض الأسر ، لأن فى سببها إذلالها ، وتغريباً وحرماناً من الوطن ومن الأهل ، وقسراً على معيشة لا ترضاهما مهما تكن معززة مكرمة .

وقد تجلت كراهيتها للبي فى عدة مظاهر :

١ - كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ، ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها ،

لأنها تعلم أنهم يقصدون الحرائر ويريدونهن . قال سبيرة بن عمرو الفقعسى :

ونسوتكم فى الروع بادٍ وجوهها يَحْلَنَ إمامة والإمام حرائر<sup>(٣)</sup>

(١) النقائض ٨٤ .

(٢) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١١ .

(٣) شرح الحامسة للمرزوقى ٢٣٨/١ .

وقال طرفة بن العبد مفتخراً على تغلب يوم تخلاق اللمم :

سائلوا عنا الذي يعرفنا بخزآزي يوم تخلاق اللمم

يوم تبدى البيض عن أسوقها وتلف الخليل أعراج النعم<sup>(١)</sup>

وقال قيس بن الخطيم في هجاء الخزرج :

صبحناكم بيضاء يبرق بيضها تبين خلاخيل النساء الموارب<sup>(٢)</sup>

وقال الشمردل بن شريك في رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عودُ النساء وشمرت ما زر يوم لا توارى خلاخاه

وتفن به عند الحفيظة فارعوى إلى صوته جاراته وحلائله<sup>(٣)</sup>

٢ - وإذا وقعت الواقعة ، وجمعت المرأة بالسبي سخطت على قومها الذين

تركوها تؤسر ، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم . من ذلك أنه لما سببت سلمى بنت

الخلق في يوم النصار قالت تعير جواباً - مالك بن كعب من بني أبي بكر

ابن كلاب - والطفيل ؛ لأنهما فرا :

لحا الإله أبا ليلي بفرته يوم النصار وقنب العير جواباً

كيف الفخار وقد كانت بممترك يوم النصار بنو ذبيان أرباباً

لم تمتعوا القوم إذ شلوا سوامكم ولا النساء وكان القوم أحزاباً<sup>(٤)</sup>

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها ، لأنه فر

عنها وتركها تسي<sup>(٥)</sup> .

(١) الديوان وكتاب بكر وتغلب ٨٩ أعراج النعم : قطعان الإبل .

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٣) الأمالي لليزدي ٣٤ مخطوط والأغاني ١٢/١١٣ ومرات وأشعار الليزدي

٨١٦ مخطوط .

(٤) النقاتن ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٥٩ أبو ليلي : الطفيل والد عامر .

جواب : لقب مالك بن كعب لأنه كان يجوب الآبار يحفرها ويتخذها لنفسه . القنب : جراب

قضبب الدابة . العير : الحمار الوحشي .

(٥) أشعار النساء المرزباني ٥٧



بل لقد كانت المرأة تزدري الأسير وإن كان قومها هم الذين أسروه ، لأنها مفتونة بالبطولة والشجاعة والأنفة كما سبق في صفات الزوج الأثير . فمثلا لما أسر فتى من بني عمير بن عبد شمس عبد يغوث بن صلاء سيد بني الحارث ، يوم الكلاب الثاني ، وانطلق به إلى أهله ، وكان الأسر أهوج ، قالت له أمه لما رأت عبد يغوث عظيما وسيما : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم . فضحكت وقالت : قبحك الله من سيد قوم أسرك هذا الأهوج . وإلى هذا يشير عبد يغوث بقوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترّ مني قبلي أسيراً يمانياً<sup>(١)</sup>

وكذلك سخرت بظمّ مان بن عمرو الدارمي امرأة من أسريه ، فقال :

ألا هزئت مني بنجران إذ رأيت عثاري في الكلبين أم أبان

كأن لم ترّ مني قبلي أسيراً مكبلاً ولا رجلاً يرّمي به الرجوان<sup>(٢)</sup>

وما زالت المرأة العربية تحقر الأسير إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فإن حمدة أو حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري لامت زوجها رّوح بن زبّاع وعيرته ، لأنه أسري يوم المرج ، وقيل لأنه أسر قبل ذلك في حرب غسان ، وافندي . تقول في ذلك :

وهل هند إلا مهرة عربية سليمة أفرس تجلّ لها بفل

فان نُتجّت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقراراً فما أنجب الفحل<sup>(٣)</sup>

على أنه تزوجها وهو سيد يمانية الشام وقائدها وخطيبها ، وهي يمانية مثله ، ولو أنها نزارية وهو قحطاني مثلاً لقليل إن سخطها عليه مبعثه ما بين اليمانية

(١) الفضليات ١٥٦/١ والأغاني ٧١/١٥ .

(٢) معجم البلدان ٧١/٤ الكلبين : القيدين . يرى به الرجوان : استهزاء كأنه رى به رجواً يثر أي ناحيتها وجانبها ( القاموس مادة رجا ) .

(٣) الأغاني ١٣٤/٨ والتنبية والإشراف للسعودي ٣١ وسمط اللآلي ١٧٩/١ وفي رأى ابن سيد ه أن الصواب نفل لا بفل لأن البفل لا يلد . والنفل الحسيس من الإنسان والحيوان .

والنزارية من صراع . كذلك رفض عقيل بن علفة أن يزوج عثمان بن حيان المري - وهو من أبناء عمومته - لأنه كان قد مسه أو مس أباه أسر<sup>(١)</sup> .

٣ - وقد صور الشعراء ما يعتاج في أحشاء السبايا من حزن ولوعة ، وما ينزل بهن من هم وحسرة . فعروة بن الورد يقول إن سباياهم من طيبي يشقن صدورهن إذا جن الليل وطلع النجم :

رحانا من الأجيال أجيال طيبي      نسوق النساء عُودَها وعِشارها  
تري كل بيضاء العوارض طفلة      تُفَرِّي إذا شال السّمك صِدارها  
وقد عَلمت أن لا انقلاب لأهلها      إذا تركت من آخر الليل دارها<sup>(٢)</sup>  
ومجّمع بن هلال يفخر بأنه أسر امرأة من مجاشع ، ويقول إن قلبها قد امتلأ حزنًا وجزعًا ، وإن حزنها مقيم لا يبرح ، وهي تدعو عليه بالتماسة كما أتمسها :  
وعائرة يوم الهيمًا رأيتها      وقد ضمها من داخل الخلب مجزع  
لها غلّال في الصدر ليس يبارح      شجى نشب العين بالماء تدمع  
تقول وقد أفردتها من حليها      تعست كما أتعستني يا مجّمع<sup>(٣)</sup>

والنابغة تصور السبايا حيارى سواهم ، يخططن على الأرض بالعيدان كما يفعل المكروب المهوم الساهم ، أو هن يخططن على الرمل ليتعرفن متى ينطلقن من الإسار ، وهن كاسفات لا يترزّن ولا يبرزن مواضع جهلن :

ويخططن بالعيدان في كل منزل      ويخبأن رمان الشدى النواهد<sup>(٤)</sup>

والنابغة الجعدى تصور حزنهن يتجلى في بكائهن وفي الكتابة الناطقة على

(١) سبط اللآلى ١/١٨٠ .

(٢) ديوان عروة ١٩ وشعراء النصرانية ٩١١ عوذ : حديثات الولادة . عشار : حوامل . تفرى : تشق . السمك : الأعزو والرامح نجمان نيران .

(٣) شرح الحماسة للرزوقي ٧١٦/٣ الهيبا : اسم موضع كانت فيه وقعة لبني نيم الله ابن ثعلبة على بني مجاشع . الخلب : حجاب القاب . الغلّال : حرارة الجوف . شجى نشب : حزن دائم ملازم .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/٦٣ .

وجوهين ، وحسرتين على فراق أطفالهن الرضع :

فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ووجها ترى فيه الكتابة مُجَنَّبِي  
ومُفْتَصِّلاً عن ثدى أم تحبه عزيز عليها أن يفارق مُفْتَلِي (١)

٤ - وليس أدل على بغض المرأة للسبأ من أن تعيش مع سابها حيناً من الدهر ، وتلد له ، ولكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفاً من أن تسمى أمة. فإذا ما برقت لها بارقة أمل في التحرر والفكك من السبي انطلقت لا تلوى على شيء . ولقد تحسن الحيلة في أن تسترد حريتها وقيمتها ، ثم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد تبخع نفسها حتى لا تقع أسيرة . فقد أغار عروة بن الورد على مزيونة فأصاب منهم امرأة بكرراً من بني كنانة يقال لها سلمى وتكنى أم وهب ، فأعتقها ، واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه ، وكانت تقول له : لو حججت بي فأمر على أهلي وأراهم ؟ فخرج بها ، ثم أتى يثرب ، وكان يخالط بني النضير ويعاملهم ، وكان قومها يخالطونهم ، فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى إنه عائد بي قبل أن ينتهي الشهر الحرام ، فتمعأوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب سبياً ، واقتدوني منه ، فإنه لا يرى أنى أفاقه ، ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له فادنا بصاحبتنا ، فإنها وسيطة النسب فينا ، وإن علينا سبة أن تكون سبياً ، فإذا سارت إلينا وأردت معاودتها فاطخبها ، فإننا نزوجك . فقال لهم : ذلك لكم ، ولكن خيروها ، فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها . فوافقوه ، فما كان الغد جاءوه ، فامتنع من فدائها ، ثم رضى ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، وأقبلت عليه فمدحته ، ثم قالت : ما مرّ على يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؛ لأنى لم أكن أشاء أن

(١) الشعر والشعراء ٢٥١/١ تحقيق شاكر . مفصل ومفتلى : مفطوم .

أسمع امرأة من قومك تقول « قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم . فخرن عروة وندم ، وقال ، في ذلك شعراً يدل على خيئته وألمه <sup>(١)</sup> .

كذلك سبى الحارث بن تolib امرأة من بنى أسد يقال لها ججرة بنت نوفل ، فورهبها لأخيها النمر ، ففركته ، فخبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً . ثم قالت له في يوم : أزرني أهلي ، فإني اشتقت إليهم . فقال لها : أخاف إن صرت إلى أهلك ألا تعودى . فوافقته على أن ترجع إليه ، فخرج بها حتى أوصلها بلادها . فلما أطل على الحى تركته واقفاً ، وانصرفت إلى منزل بعلها الأول ، فلما مكثت طويلاً ولم ترجع عرف ما صنعت ، وأنها اختدعته ، فانصرف وقال :

جزى الله عنا ججرة ابنة نوفل      جزاء مفال بالأمانة كاذب  
لأن عابها أمس موقف ركب      إلى جانب السرحات أخيب خائب  
وقد سألت عنى الوشاة ليكذبوا      على وقد أبليت في النوائب  
وصدت أن الشمس تحت قناعها      بدا حاجب منها وضت بحاجب  
وقال فيها أشعاراً كثيرة <sup>(٢)</sup> .

وكذلك سببت امرأة من طسم اسمها عَنز ، فغلبها سابوها في هودج ، وألطفوها بالفعل والقول ، فلم يابها إلا لطف عن مذلة السباء ، فقالت :

شرُّ يومئذ وأغواها لها      ركبت عَنزٌ بحدجٍ جلا  
أى شريومئذ يوم تكروم وهى سبية <sup>(٣)</sup> .

أما قتلها نفسها فيتمثل في فاطمة بنت الخرشب الأحمارية ، ذلك أنها عرض لها قيس بن زهير فافتاد جمابها ، يريد أن يرتبها بدرعه التي أخذها ابنها الربيع ، حتى يردّها . فقالت له : ما رأيت كاليوم فعل رجل ، أين ضل حالك ؟ أترجو

(١) ديوان عروة ١١ والأغاني ٧٦/٢ والشعر والشعراء ٢٦٠ .

(٢) الأغاني ١٥٩/١٩

(٣) ججرة الأمثال لابن هلال ٨ / ٢ وجمع الأمثال ٣٢٨/١ ولسان العرب ٧/٢٥٠

أن تصطاح أنت وبنو زياد أبداً ، وقد أخذت أمهم قتال الناس في ذلك ماشاءوا .  
 أن يقولوا ؟ وحسبك من شر سماعه . فعرف قيس مقالها فغلى سبيلها <sup>(١)</sup> . وفي  
 رواية أنه لم يخل سبيلها ، بل قال لها : إني ذاهب بك لترعى إبلى . فلما أيقنت  
 أنه ذاهب بها رمت بنفسها عن البعير ، خوفاً من أن يلحقها ويلحق بنبيها عار  
 السبي ، فسقطت على رأسها فماتت <sup>(٢)</sup> .

### معاملة السبايا :

تضع الحرب أوزارها ، وتنجلي عن سبايا ، فيقسّمن بالسهم بين المحاربين كما  
 تُقسّم الغنائم . يقول الأعشى :

فما برحوا حتى استحشّت نساؤهم وأجرؤا عليها بالسهم فذلت <sup>(٣)</sup>  
 ويقول الحصين بن الحمام :

وأعتقنا ابنة العمري عمرو وقد خضنا عليها بالقداح <sup>(٤)</sup>  
 فإذا لم يطلق السابي سبته بفداء أو مني ، وإذا لم يتخلصها قومها منه عنوة ،  
 فكيف كان يعاملها ؟ وعلى أي وضع كانت تقيم عنده ؟

### استبدال السبايا :

١ — كان أول ما يلجأ إليه السابي أن يستولد السبية ، لأنها لا تكلفه مهراً .  
 ولأنها تلد له أولاداً نجباء ، كما اعتقد العرب في أولاد الغرائب .  
 والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد تزوج زُرارة بن عدس أمته رُشيّة ، وكان  
 قد أصابها من الرُقيدات — حى من العرب — فولدت له عمراً وذؤيباً  
 وبرغوئاً <sup>(٥)</sup> ، وكانت له زوجات من سباياها من بنى عجل ومن بنى عبد القيس  
 ومن الأزد ، وقد أنجب له <sup>(٦)</sup> .

(١) النفاض ٩٠ وجهرة الأمثال ١/٢٢٨

(٢) الأغاني ٢١/١٦ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٢٦١

(٤) مجمع الأمثال ١/١١٦

(٥) شعراء النصرانية ٧٤٥

(٦) أمثال العرب للمفضل الضبي ٧

وتزوج صُمرة بن جابر سبية من عبد القيس وسبية من الأزدي<sup>(١)</sup> ، وسبي الصَّمَّة بن عبد الله ریحانة بنت معد يكرب الزبيدي ثم تزوجها .  
 واشتهر كثير من أبناء السبایا ، وسادوا ، وفرعوا أبناء الحرائر الميبرات ،  
 مثل دريد بن الصمة أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم  
 ظفراً ، وأتمهم نقيبة ، وأشعرهم ، وكان سيد بني جُشم وقائدهم ، وهو وإخوته  
 عبد الله وعبد يفيوث وقيس وخالدهم جميعاً ریحانة بنت معد يكرب الزبيدي  
 أخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سبها ثم تزوجها فأولدها بنيه<sup>(٢)</sup> . ومثل  
 الأشهب بن ثور بن حارثة ، كانت أمه لخالد بن مالك فاشترها منه ثور بن حارثة  
 في الجاهلية ، فولدت له أربعة نفر كانوا من أشد العرب لساناً ويدا ، وأنعمهم جانباً  
 في الجاهلية والإسلام ، حتى كانوا يأخذون هُدباً من قطيفة أمهم ، ويلقونه على  
 الماء فلا يرده أحد<sup>(٣)</sup> .

٢ - وكانوا يفخرون بزواجهم ، إذلالاً بقوتهم ، وإذلالاً لعدوهم ، قال  
 عمرو بن يربوع الغنوي في هجاء عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

ألم نحم نجداً بمسونة عتاق تباري بقرسانها  
 فسائل جُداماً ونلماً بنا ويحصب من بعد خولانها  
 ومدحج يُدبوك عن حربنا وما كنت تجهل من شأنها  
 نكحنا نساءهم عنوةً بييض الصقاح ومُرانها<sup>(٤)</sup>

وقال عمرو بن الذارع الحنفي في يوم النَّشَاش - وكان لبني حنيفة على بني نمر - :

إذا نحن شئنا زوجتْنا رماحنا كما أمكتنا من بنات المهاجر<sup>(٥)</sup>  
 وافتخر النابغة الجعدي بأنهم أكثر القبائل سبياً ونكاحاً للسبایا :

(١) اللباني ١١٧/١ (٢) الأغاني ٢/٩ .

(٣) الأغاني ١٥٣/٨ (٤) المؤلف والمختلف ١٥٦ تباري : تعارض وتزاحم -

مرانها : جمع مرانة وهو الرمح الصلب واللدن

(٥) معجم الشعراء ٢٢٥

فَمَا وَجَدَتْ مِنْ فِرْقَةٍ عَرَبِيَّةٍ كَفِيلاً دَنَا مِنَّا أَعَزَّ وَأَنْصَرَا  
 وَأَكْثَرْنَا نَاكِحًا لِعَرَبِيَّةٍ أَصَابَتْ سِبَاءً أَوْ أَرَادَتْ تَخْتِيراً<sup>(١)</sup>  
 وافتخر المطوِّح بن عثمان التغلبي على بني نمير بأنهم نكحوا نساءهم قسراً  
 واغتصاباً ، وبأن بني تغلب أعزة لم تغتصب منهم نسوة :  
 هُمُ أَنْكَحُوا بِالغُصْبِ مِنْ فِتْيَاتِكُمْ جِهَاراً وَمِنْ شَرِّ الْجَاهِرَةِ الغُصْبِ  
 وَمَا كَانَ مِنَّا عِنْدَ قَوْمِ سَبِيَّةٍ<sup>(٢)</sup> وَمَا كَانَ مِنْ أَمْوَالِنَا عِنْدَهُمْ نَهَبٌ<sup>(٣)</sup>  
 وتباهى الأعشى بيوم ذى قار ، وأن الرماح مكنت العرب المنتصرين من  
 زواج نساء المهزومين من الفرس وحلفائهم من العرب :

أَلَا يَا رَبِّ مَا حَسَرَى سَتُنْكَحِبَا الرِّمَاحَ حَمَاً<sup>(٤)</sup>

٣ — ولم ينفرد العرب بنكاح السبايا ، لأن هذا العرف كان شائعاً عند كثير  
 من الأمم القديمة والمعاصرة للعرب .

كان شائعاً عند الآشوريين والإسرائيليين واليهود واليونان والرومان<sup>(٥)</sup> ،  
 وكان المولى الإسرائيلي كثيراً ما يتخذ إحدى إمانه حليمة ، جاء في التوراة : إذا  
 ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين ، وفي السابعة يخرج حراً بالجمان . .  
 وإن زوجه مولاة بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها مولاة ، ويخرج  
 وحده<sup>(٥)</sup> .

وكان على الإسرائيلي إن أراد الزواج بإحدى سبائيه أن يدعها شهراً تنذب  
 أهلها ثم يتزوجها . فإن لم ترقه بعد الدخول بها سرحها ، ولا يجوز له بيعها ،  
 وحينئذ تصير حرة . ولعل هذا التشريع الذي حسن حال السبايا جاء متأخراً ،  
 وما من شك في أنه يحمل طابع الصحراء ، ونكاد نقسم فيه روح الفروسية .

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٥ (٢) حماسة الخالد بن ٥٥ مخلوط

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣٠٣ .

(٤) الرق في الإسلام لأحمد شفيق ١٢ والنظم السياسية والاجتماعية ٣٣ و ٧٠ .

(٥) سفر الخروج ٢ : ٢١

والحرية العربية ، وربما نقلته بعض القبائل الإسرائيلية معها قبل نزوحها من الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> : ولكن مع ذلك ظل مركز السبية أحط من الزوجة الحرة من الوجهة الاجتماعية والقانونية<sup>(٢)</sup> .

وكان الزواج بالسبية شائعاً عند الآشوريين ، وعقدت له قوانينهم فصلاً خاصاً ، وإذا تزوج السيد سبيته ارتفعت إلى مقام الزوجة<sup>(٣)</sup> .

وفي القوانين البابلية نوعان من الإماء يطلق على أحدهما أمم *Amatum* ، والميم الأخيرة للتنونين ، ويطلق على الثاني شجيم *sugitim* ، والميم للتنونين أيضاً ، وهما تضارعان في العربية كلمة أمة وشجية ، والفرق بينهما في البابلية أن الأمة هي الجارية التي كانت تختارها الزوجة العاقر لبعْلِها لتلد ، كما فعلت سارة مع إبراهيم إذ اختارت له أمة مصرية ولدت له إسماعيل ، جرياً على عادة البابليين . وكانت الأمة أحط من الزوجة مقاماً وعليها أن تطيع زوجة سيدها ، فإن عصتها حل بها عقاب شديد ، أما الشجية فهي الأسيرة<sup>(٤)</sup> .

وكذلك جرى الفرس القدماء على السبي والاستمتاع بالسبايا<sup>(٥)</sup> ، وكن متعة للأغنياء ، حتى كان من دأب الطبقة العالية ألا ينفروا إلى الحرب إلا والسبايا مصاحبات لهم . وقد ذكروا أن قصر الملك في الإمبراطورية الأخيرة كان يضم من الحظايا عدداً يتراوح بين ٣٢٩ و ٣٦٠ ، لأنه صار من العادات المرعية ألا يضاجع الملك امرأة غير مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن فائمة الجمال<sup>(٦)</sup> . وكذلك كان الحال في مصر ، فللرجل أن يباشر أمته ، وله أن يرفعها إلى مقام الزوجة<sup>(٧)</sup> .

(١) النظم السياسية والاجتماعية ٣٨

(٢) المرجع السابق ٣٨ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧

(٤) المرجع السابق ٣٦

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٦ ول ديورانت .

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٦٠ (٧) الرق في الإسلام ٩ .



وقد اعتبرته شريعة ماني نوعاً من الزجاج . وشاع عند الإغريق في بعض عصورهم ، واحتفظ به الإسبرطيون رمزاً لعقد الزواج<sup>(١)</sup> . وأقره أرسطو ، ولم يكن للمرأة التي تباع أو تؤسر أن تمتنع من أن يباشرها سيدها<sup>(٢)</sup> . وكان الرومان في أول أمرهم يسكروهن التسرى ، حتى تسرى اثنان من كبارهم وأمرائهم ، فأقبلوا عليه إقبالا ، على أن الشرية كانت عندهم أحط منزلة من الزوجة<sup>(٣)</sup> . وكان الساميون عامة ينظرون إلى الشرية على أنها أقل شأناً من الزوجة ، ويعتبرونها من العبيد<sup>(٤)</sup> .

وما زال السلاف في روسيا والصرب يمارسون زواج الاغتصاب إلى القرن الماضي ، ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في تمثيل العروس لدور المعتصب لعروسه في بعض حفلات الزواج<sup>(٥)</sup> .

٤ — فليس بصحيح إذاً أن السبية عند العرب كانت من الناحية الجنسية خاضعة لآسرها ورهن مشورته ، وأن هذه معاملة استمرت إلى الإسلام ، وهي تنطوي على خزي وعار ومذلة وهدم لكرامة المرأة وشرف قبيلتها<sup>(٦)</sup> .

ليس هذا بصحيح ، لأن السبي نظام ضروري يتبع الحرب . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيراً من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن ، فيصرن حليلات وأمهات أولاد وأعضاء في الأسرة ؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن ؟ بلى . ثم إن الأمم القديمة كلها كانت تمارس زواج السبايا ومباشرتهن كما سبق .

على أن العرب كانوا يكرمون زوجاتهم السبيات ، ويفخرون بحسن

(٢) الرق في الإسلام ١٩ .

Westermarck P. 386 (١)

Gibbon. II, 205 (٣)

(٤) سفر التكوين لإصحاح ١٢ : ١٦ وإصحاح ٢٠ : ١٤ وسفر الملوك الثاني لإصحاح

٢٦ : ٥

(٥) قصة الحضارة ١/٧٤ ول ديورانت .

(٦) Women in the Aiyam El Arab. P. 70 (٦)

معاملاتهم والحدب عليهن ؛ لأن زواج السبية لم يكن مقصوداً به إذلالها هي ، بل كان مرغوباً فيه ؛ لأنه ضرب من الفروسية ، ولأنه لا مهر فيه ، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق ، لذلك يقول سعد بن مالك جد طرفة :

فألهمَّ بيضات الحدو ر هناك لا النعمُ المراح<sup>(١)</sup>  
ويقول حاتم الطائي :

وما أنكحونا طائعين بناتهم  
فما زادها فينا السباء مذلةً  
واكنا خاطئناها بخير نساءنا  
وكائن ترى فينا من ابن سبية  
وإذا لقي الأبطال يطعنهم شزراً  
فيوردها بيضاً ويصدرها حُجراً  
كريم إذا اعتر اللثيم تخاله  
إذا ماسرى ليل الدجا قمرأ بدرأ<sup>(٢)</sup>

كانت السبية تعامل معاملة حسنة « معتمدة على جمالها أو مواهبها أو نسلها ، ولكن هذا لا ينفي أن بعضهن كن يعاملن معاملة فيها قسوة<sup>(٣)</sup> »

### بيع السبايا ولهنهن وإرهنهن :

١ - هل من الطبيعي أن يكف كل رجل أن يتزوج بسباياها ؟ لقد يكن كثيرات يضيق بزواجهن ، ولقد يكون له في زواجه السابقة معنى ومقنع ، وربما لا يرقنه أو لا يروقه بعضهن ، فياجأ إلى وسيلة غير الزواج للالتفاف بهن . لذلك كان بعض العرب يبيعون السبايا ، حتى لقد كانت في مكة سوق منظمة لبيعهن بيع العبيد<sup>(٤)</sup> . وقد اشترى ثور بن أبي حارثة من خالد بن مالك أمته

(٢) العقد الفرید ٣/٢١٠

(٤) النظم السياسية والاجتماعية ٣٣

(١) الحماسة ١/١٩٨

(٣) Muslem Law P. 24

رُمَيْلَة واستولدها أربعة من بنيه<sup>(١)</sup> ، وباع رجل في الجاهلية امرأة وأنجبت من سيدها ، فلما مات عنها أريد بيعها وفاء لدينه، فشكت حالها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر الوارث أن يعتقها وعوضه عنها بعبد<sup>(٢)</sup> .  
وكثيراً ما كانت السبايا يوهبن كما يوهب المال ، فقد أغار الحارث بن تَوَالِب — وكان سيداً معظماً — على بني أسد ، فسبى امرأة منهم يقال لها جمره بنت نَوْفَل ، فوهبها لأخيه النمر<sup>(٣)</sup> . وكان النعمان يهب السبايا ، وبهذا مدحه النابغة في قوله :

الواهب المائنة المِعْكَاءَ زَيْنَهَا سَعْدَانُ تُوَضِّحَ فِي أَدْبَارِهَا اللَّابِدَ  
والراكضاتِ ذِيوَلِ الرِّيطِ فَانْقَبَا بَرْدُ المَواجِرِ كَالغَزَلانِ بِالْجَرْدِ<sup>(٤)</sup>  
٢ — والعرب لم يشذوا في هذا أيضاً ، لأن العبرانيين كانوا يبيعون النساء وإن لم يكن رقيقات ، فقد قال يوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهودى اليوم أنى قد اشتريتها لتكون لى زوجة<sup>(٥)</sup> .

وكان الرومانيون يبيعون الأسرى والسبايا للنخاسين كما يبيعون الغنائم ، وإذا حملوهم إلى رومة باعوهم بالمزاد ، وكانوا يبيعون عقب كل حرب أوفوا من السبايا والأسارى<sup>(٦)</sup> .

### القصة عابرون أحياناً :

١ — لاشك أن الناس مختلفون في كثير من الأخلاق والعمادات، ولاشك أن ظروف السباء مختلفة أيضاً ، فقد يسبى الموتور فيتشفي ممن سباهن وممن

(١) الأغاني ٨/١٥٣

(٢) كثر العمال ٤ الحديث رقم ٥١٢٦ وابن حنبل ٦/٣٦٠ وأبو داود ٤/٢٦

(٣) الأغاني ١٩/١٥٨ .

(٤) ديوان النابغة ٢١ . المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان توضح : نبت جيد التغذية : اللابل بهذا المكان . اللبد : المتلبدة الوبر . فانقبا : نعم عبسها . الجرد : الموضع الذى

لا ينبت أو موضع يلاذ تميم (٥) راعوث ٤ : ٩ و The Holy Bible .

(٦) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس

أسرهم ، وقد يسبى القوي الغاصب فيحسن معاملة أسراه وسبائيه .  
 على أن القسوة في معاملة السبائيا كانت عملا معييا عند العرب يعبر به  
 القساة ، فقد عاب خنُف بن نُدْبَة العباس بن مرداس بأنه يستهين بسبائيا العرب ،  
 ويقتل الأسرى . فلما علم العباس قال لخنُف في ملاء من بني سَلَيْم : وإنك  
 لتعلم أنى أطلق الأسير ، وأصون السبية . . . وأما استهاتى بسبائيا العرب فإني  
 أخذو القوم في نسائهم بنعالهم في نسائنا<sup>(١)</sup> . وفي أحوال نادرة سولت الظروف  
 للأسر أن يقتل أسراه ، فقد قتل بنو تميم عبد يعقوب بن صلاة<sup>(٢)</sup> وذبح المنذر  
 ابن ماء السماء أسرى بني بكر على جبل أوراة ، وأحرق سبائيا منهم<sup>(٣)</sup> ، وإلى  
 ذلك يشير الأعشى بقوله :

سبائيا بني شيبان يوم أوراةٍ على النصار إذ تُجلى له فتياتها<sup>(٤)</sup>  
 وافتخر تميم بن الحباب السامى بأنهم بقروا النساء الحبالى :  
 بقرنا الحبالى من زهيرو مالك لبيأس قومٍ من رجاء التَّجْبِيرِ<sup>(٥)</sup>  
 وردد عامر بن الطفيل الفخر ببقر الحبالى .

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بقبيف الريح نهداً وخمعا  
 ونحن صبجنا حتى نجران غارةً تُبيلُ حبالها مخافتنا دما<sup>(٦)</sup>  
 وكرر هذا<sup>(٧)</sup> .

ومن هذا الحلق الذى يعدى على النساء قول جهم بن سبيل الكلابى .  
 حلفتُ لأنتجنَّ نساء سلمى تتاجا كان أكثرهُ الخِدَاجُ<sup>(٨)</sup>  
 ٢ — على أن هذه القسوة كانت شاذة عند العرب كما سبق ، ولم ينفردوا

(١) الأغاني ١٦/١٣٥

(٢) المفضليات ١/١٥٣

(٣) ديوان الأعشى ٦٣ (٤) معجم البلدان ٧/٣١٧

(٥) الديوان القصيدة ١٢ (٦) اندبوان القصيدة ٢٧

(٧) المعجم البلدان ٤/٢٠ . المعجم : إلقاء الجنين ناقصا .

بهم ، كدريد بن الصمة وإخوته ، والأشهب بن ثور ، وأبناء زرارة بن عدس ، كما أسأنت ذلك . أما أبناء الإمام فكانوا لا يلحقون بأبائهم إلا إذا ادعواهم ، كعنترة بن شداد .

وليس في نحر أبناء السبايا هذا الشعور بالنقص الذي نجد في نحر أبناء الإمام ، وفي محاولتهم التعويض عنه بالإشادة ببطولتهم تارة ، وباللباهة بأبائهم تارة .

ثم إن أبناء الإمام كانوا يتحاشون أن يذكروا أمهاتهم في نغارهم أو في غير نغارهم ، على حين نجد كدريد بن الصمة يذكر في رثائه لأخيه عبد الله - وهو أحد أشقائه - أنه ابن أمه ، وشريكه في رضاع ثديها الثر العذب :

دعاني أخى والخليل بينى وبينه      فإما دعاني لم يخذني بقعد  
أخى أرضعتني أمه بلبانها      بثدي صفاء بيننا لم يُجَدَّ (١)

ولو أنه كان يجد في نفسه ما وجد عنترة بن شداد من هوان أمه وضعة منزلتها ما سلك هذا المسلك في توكيد حبه لأخيه ، وتفجعه عليه .

وقد سبق أن الخنساء ودرديد بن الصمة تهاجيا لما رفضته زوجا ، وأنها رفضته لكبر سنه ، ولو أن سبى أمه عار لجاء في رفضها ذكر له كما سنرى في رفض الشريقات لأبناء الإمام ، بل إن أباهاش له ورحب به ، وأنبأها أن سيد بنى جشم جاء يحطبها .

وسنرى أن الإمام مارس من الأعمال ما لم تمارس السبايا . وإذا فقد استبان لى أنه لا مندوحة من التفريق بين السبايا والإمام في صفة كل منهم ، وفي مكاتبتها في نظر العرب ، وفي منزلة بنيتها في الحياة الاجتماعية .

(١) الأغاني ٩/٤ ، ولسان العرب مادة قعد وشعراء النصرانية ٧٥٧ قعد : جيان لثيم قاعد عن الحرب والمكارم : لم يجدد : لم ينضب لبنة عن عيب أو لم يبيس .

## معاملة الاماء

- ١ -

١- استنباط المعنى :

كان سادتهم يستولونهم أحياناً .

ومن الطبيعي ألا يسمو ابن الأمة إلى مكانة ابن الحر إلا إذا تميز بصفات  
تجبر ما في استرقاق أمه من خدش لمكانته ، وقد كان الأ كاسرة وأكثر عرب  
الجاهلية لا يسودون أولاد الإماء ، ويسمونهم الّهجناء ، ويسمون أولاد الميبرات  
الضّرحاء<sup>(١)</sup> . بقول مهدي في امرئ القيس بن حنّام - وكان هجيناً :

لما توّعّر في الكراع هجينهم هلهيات أثار جابراً أوصيلاً<sup>(٢)</sup>

وقد سبق في الزواج أن العربية كانت تأنف أن يتزوجها عبد أو ابن أمة ،  
فقد عاش الشنفرى أسيراً في بني سلامان حيناً ، لا تحسبه إلا أحدهم ، حتى لقد  
اتخذته السامى ولداً ، فقال الشنفرى يوماً لبنت سيده : اغسلى رأسى يا أختى .  
فأنكرت أن يكون أختها ولطمته<sup>(٣)</sup> . لذلك كان أبناء الإماء يعيرون بأمهاتهم ،  
بدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسى سبى سلمى الغفارية ، فولدت له أولاداً ،  
وكان شديد الحب لها ، وكان أولاده يعيرون بأمههم ، ويسمون بنى الأخيذة .  
فقالت له : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردنى  
إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . ففعل ما أشارت به ، وتزوجها من  
قومها<sup>(٤)</sup> .

ومن التعمير بالأم الرقيقة قول أوس بن حجر :

(١) جبهة الأمثال ١٥ .

(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ١١ ولسان العرب مادة هلى . توّعّر : أخذ في مكان وعمر

وأنشده الجوهري لما توغل .

(٤) الأغاني ٣/٣٨ .

(٣) الأغاني ٢١/٨٧ .

أبني لُبَيْسَى إِنْ أُمَّكُمْ أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ عَبْدٌ<sup>(١)</sup>  
 وقول مُعَمَّرِ بْنِ جَعَلٍ فِي هِجَاءِ خَصْمَيْهِ :

وَجَدَاكَ عَبْدًا عُمَيْرِ بْنِ عَامِرٍ وَأَمَّا كَمَا مِنْ قَيْنَةِ أُمَّتَانِ<sup>(٢)</sup>  
 وقول حسان بن ثابت :

أَبُوكَ أَبُوكَ وَأَنْتَ ابْنُهُ فَبَيْسَ الْبَيْتِ وَبَيْسَ الْأَبِ  
 وَأُمَّكَ سُودَاءُ نَوْبِيَّةٌ كَأَنَّهَا لَهَا الْخَنْظَبُ  
 بَيْتَ أَبُوكَ بِهَا مُغْدِفًا كَمَا سَاوَرَ الْهَرَّةَ الثَّعْلَبُ<sup>(٣)</sup>  
 ويعير الأسود بن يعفر بنى نُجَيْحٍ بقوله :

أَبْنِي نُجَيْحٍ إِنْ أُمَّكُمْ أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ وَقَبٌ  
 أَكَلَتْ خَبِيثَ الزَّادِ فَاتَّخَمَتْ مِنْهُ وَشَمَّ خَمَارَهَا الْكَلْبُ<sup>(٤)</sup>

وكثير من الشعراء افتخروا بأن أمهاتهم حرائر ، وكثير من السادة مدحوا  
 بجزية أمهاتهم كما سبق في (الأم) ، كقول الخنساء في رثاء صخر :

يَا بَنَ الْقُرُومِ ذُو الْحِجَا وَابْنَ الْخِضَارِمَةِ الْمُرَاغِدِ  
 وَابْنَ الْمِهَائِرِ لِلدَّيَا ثُرَ زَانِمَا الشِّيمِ الْمُوَاجِدِ<sup>(٥)</sup>

٢ - وقد اشتهر بعضهم بالفروسية ، كخفاف بن عمير بن الشريد أمه نُدْبَةُ  
 وهي أمة سوداء وإليها نسب<sup>(٦)</sup> ، والسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ أُمَّهُ السُّلَيْكَةُ أُمَّةٌ سُودَاءُ  
 نسب إليها<sup>(٧)</sup> ، وعنترة بن شداد أمه زَبِيْبَةُ أُمَّةٌ سُودَاءُ<sup>(٨)</sup> ، والحارث بن  
 عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي أمه حبشية اسمها سَبْحَاءُ ، وكذلك عثمان بن

(١) ديوان أوس بن حجره (٢) الفضليات ٦٠/٢ .

(٣) الخنطب : ذكر الجراد أو ذكر الخنساء . مغدِف : سافد .

(٤) لسان العرب ٣٠٠/٢ وقب : عبد . (٥) ديوان الخنساء ٦٢ .

(٦) الشعر والشعراء ١٢٢ والأغاني ١٣٤/١٦ (٧) الشعر والشعراء ١٣٤ .

(٨) الأغاني ١٤٢/٧ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعاني السبع لابن الأباري ٥٠ .

عَنْبَسَةَ ، ومالك بن ضَبِّ الكَلْبِيِّ ، وشقيق بن سلمة ، وحنظلة بن صفوان الكَلْبِيِّ<sup>(١)</sup> . وقد ذكر المبرد طائفة من النجباء أبناء الإمام<sup>(٢)</sup> .

٣ - لذلك لم يطلق بنو الإمام صبراً على هذا التعبير ، فظالما ردوا عليه بفخرهم بأنهم شجعان فرسان مغاوير ، وبأنهم كرماء ماجدون ، لكننا لا نجد في شعرهم اعتزازاً بنسب الأم أو سخطاً على السبي والاسترقاق ، أو نزوعاً إلى المساواة، ودعوة إلى الأخوة الإنسانية . وأنى لهم أن يدعوا إلى ذلك وهم لا يدينون به ، والعصر كله يدين بالسب ، وبالتفاوت في القدر بين الحر والعبد ، وبين الحر والحر ؟

لذلك يعترف خُفَاف بن نُذْبَةَ بأن نسبه من جهة أمه أسود ، لكن ماثره سودته في قومه ، يقول عن نفسه وعن العباس بن مرداس وهو ابن أمة مثله :

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم<sup>(٣)</sup>

وله شعر كثير في دفاعه عن نفسه<sup>(٤)</sup> . وفضّل في بعضه مفاخره ، فيقول إنه جلد صبور لبق ، ينتسب إلى أجداد ذوى عزة ، وذوى مفاخر ، لكنه لم يعين هؤلاء الأجداد أهم آباء أمه أم آباء أبيه :

إن تعرضى وتضنى بالنّوال لنا فواصِلانَّ إذا واصلت أمثالى  
إني صبور على ما ناب معترفٌ أصرّف الأمر من حال إلى حال  
أنمى إلى مجد أجداد لهم عددٌ مذللين لوطء الحق أُرْوَال<sup>(٥)</sup>

وكثيراً ما دافع عن سواده ، وخايل ببطولته ، وإذا كان قد حرم

(٢) الكامل للمبرد ١/٣١١ .

(١) المجر ٣٠٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١٢٢ .

(٥) منتهى الطالب ١/٢١ .

(٤) منتهى الطالب ١/١٥ - ٢٢ مخطوط .

(٣٢ - المرأة في الشعر الجاهلي)



السراوة من جهة أمه فإنه قد أحرز نصف المجد من أبيه ، وكسب نصفه الآخر بسيفه ، فهو إذا خير من شريف الأب والأم :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شَطْرِي ، وأحى سائري بالْمَنْصُلِ  
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت أَلْفَيْتُ خَيْراً من مُعَمِّ مَخُولِ  
إن كنت في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماك الأعزل  
وبذابلي ومُهَنَّدِي نلت العلاء لا بالقرابة والعديد الأول<sup>(١)</sup>  
ويدافع عن سواده بأنه تمييز له ، وعلم على شجاعته يوم الحرب :

لئن يعيبوا سوادى فهو لي نسب يوم النزال إذا ما فاتني النسب<sup>(٢)</sup>  
وكذلك دافع السليك بن السلركة عن رق أمه بقوله :

ألا عتبت عليّ فصارمتني وأعجيبها ذوو الأمم الطوال  
فإني يا بنّة الأقبام أُرِي على فعل الوضى من الرجال  
أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرجال  
يشق عليّ أن يلقين ضيا ويعجز عن تَخَلُّصهن مالى<sup>(٣)</sup>  
ولم يُعْض أبناء الإمام عن مهانة تلحق بأمهاتهم ، وإنما دافعوا عنهم وأحسنوا ،  
فقد استطاعت امرأة من بنى مرة على سُمَيَّة أم أَرْطَاة ، وسببتها ، فخرج إليها  
أَرْطَاة ، فسبها وضربها ، فلامه قومه ، وقالوا : مالك تدخل نفسك فى خصومات  
النساء ؟ فقال :

يعيرني قومي الجاهل — وانلنا عليهم — وقالوا أنت غير صميم  
هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تُجُوز سبّي واستحلّ حريمي

(١) ديوان عترة ١١٩ وبيع الأبرار ٨ مخطوط والماني الكبير لابن قتيبة ٥٠٧/١  
ويريد بالمعم الخول قيس بن زهير وكان له عشرة أعمام وعشرة أخوال .  
(٢) الديوان ١٠ .  
(٣) تهذيب الكامل ٩٧/٢ .

إذا أنا لم أمتع عجوزي منكم . فكانت كأخرى في النساء عقيم<sup>(١)</sup>  
ثم جاء نصيبُ فدافع عن سواد لونه في الإسلام بقوله :

ليس السواد بناقصى مادام لي هذا اللسان إلى فؤاد ثابت  
من كان ترفعه منابتُ أصله فبيوت أشعاري جعلت منابتي  
كم بين أسود ناطق ببيانه ماضى الجفان وبين أبيض صامت<sup>(٢)</sup>

على أننا إذا كنا لا نجد في العصر الجاهلي شاعراً نافح عن نسبه، أو حاول  
السمو به إلى سمت العرب، فليس معنى هذا أنهم ارتضوا حياتهم، واطمأنوا إلى  
أقدارهم؛ لأنه لاشك في أنهم كانوا يحنون آلامهم في أنفسهم، ويكتبون سخطهم  
أن يظهر ..

٤ — وكان العرب لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم، فلا يرثون إلا  
إذا ادعواهم، وأشهدوا على أنهم ألصقوا بهم نسبهم. فإذا لم يلحق الرجل ابنه  
بنسبه استعبده<sup>(٣)</sup>. وقد ألحق شداد ابنه عنتره به لما أبلى في رد المغيرين على بنى  
عبس إذ قال له أبوه: كُرَّ يا عنتره. فقال: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن  
الجلاب والصرَّ. فقال: كرت وأنت حر. فكرر وهو يقول:

أنا الهجينُ عنتره كل امرئ يحمي حره  
أسوده وأحمره والواردات مُسفره

وقاتل يومئذ قتالا مجيداً، فداعاه أبوه، وألحق به نسبه<sup>(٤)</sup>.

وربما كان من أسباب احتقار بعضهم لأبناء الإماء أن بعض الإماء كن  
يزنين في الجاهلية، وكان سادتهن يأتونهن أيضاً، فإذا أتت المرأة بولد فربما

(١) الأغاني ١١/١٤٠ . (٢) الأغاني ١/١٣٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٧٥ والأغاني ٧/١٤١ .

(٤) الأغاني ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات للزوزني ٥٠ مخطوط .

يدعيه الزاني ، فإن مات السيد ولم يكن قد ادعاه ولا أنكره ، فادعاه ورثته لحق به ، لكنه لا يشارك مستاحقه في ميراثه ، إلا أن يستلحقه قبل القسمة ، وإن كان السيد أنكره لم يلحق به .

من ذلك أن زمعة بن قيس كانت له أمة ، وكان يلم بها ، فظهر بها حمل وكان سيدها يظن أنه من عتبة بن أبي وقاص ، فعهد عتبة قبل موته إلى أخيه سعد أن يستلحق ذلك الحمل . فلما كان عام الفتح تنازع في الولد سعد وعبد ابن زمعة ، الأول يقول أنه ابن أخي ، والثاني يقول إنه أخى وابن جارية أبي ، واجتسما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقضى بأن الولد للفراش <sup>(١)</sup> . ثم إن الأمة أدنى شأنًا من السبية كما سبق ، وابنها مثلها في ضعة الشأن .

٥ — ليس العرب بدعا في نظرتهم هذه إلى أبناء الإماء . ففي شريعة حمورابي أن أولاد الرجل من جاريته لا يعدون أولاداً شرعيين ، إلا إذا نسبهم إليه ، فإذا نسبهم إليه كان لهم حق الإرث ، وإلا فلا ميراث ، ولسكنهم يعتقدون <sup>(٢)</sup> .  
والرومان كانوا يعدون أولاد السبايا عبيداً كأمهاتهم <sup>(٣)</sup> .

وقد حدث هيرودوت عن اللاتين أنهم كانوا يلقبون أولاد الإماء بأسماء أمهاتهم لا آبائهم ، فلو سئل أحدهم عن اسمه ذكر اسمه واسم أمه ثم جدته لأمه . وأعجب من ذلك أن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً عد أولادها أحراراً ، أما إذا كان الزوج حراً وامرأته أمة فأولادها رقيق ، وإن كان أبوه أعظم رجل في المملكة <sup>(٤)</sup> .

ولم ينتسب ابن الجارية إلى أبيه عند اليهود وإن تهود ، لقول الكتاب :-

(١) فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي ١٧٣/٢ .

(٢) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ٤٧ :-

(٣) تاريخ الحضارة ١٤٨ شغلر سنيوورس . (٤) الأئمة عند العرب ٤٥ :-

«عصوا الله وجاءوا بنسل غريب<sup>(١)</sup>». لذلك كان من الطبيعي ألا يرث<sup>(٢)</sup> وجرى الأشوريون على حرمان أبناء السبايا من الميراث، إلا إذا لم يكن للآب أولاد من زوجة حرة<sup>(٣)</sup>.

وكذلك البابليون، فإنهم لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود<sup>(٤)</sup>.

وقد أقر أرسطو استمتاع الرجل بجاريته على أن يكون ابنها حراً<sup>(٥)</sup>.

وكان من أهم مصادر الرق عند الإسرائيليين تناسل الأرقاء، فكانت القاعدة عندهم. أن الولد يتبع أمه حرة ورقاً، فابن الرقيقة يولد رقيقاً ولو كان أبوه حراً، بل لو كان أبوه هو السيد نفسه وكذلك كان اليونان يفعلون.

فإذا ادعاه أبوه لحق به، فصار ولداً شرعياً. لكن اليونان اعتبروا حرته ناقصة، لأنه من الجائز أن يعود إلى الرق بعد موت أبيه<sup>(٦)</sup>. ولم تسمُ أمة بأبناء الإماء كما سمت مصر؛ لأن المصريين كانوا يسوونهم بأبناء الزوجات الشرعيات حتى في التربية والميراث<sup>(٧)</sup>.

وإذا فقد كان أبناء الإماء عبيداً في نظر العرب والرومان واللاسيين واليهود، وكانوا محرومين من الميراث في عرف العرب وشرعة حمورابي واليهود والأشوريين والبابليين، وكانوا لا يلحقون بنسب الآباء في الأمم إلا إذا ادعواهم.

ولم يفايز العرب في نظام النسب إلا أرسطو والمصريون القدماء.

- 
- (١) شعار الحضرة ٨٩ .  
 (٢) شعار الحضرة ١٧٢ .  
 (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ .  
 (٤) المرجع السابق ٣٦ .  
 (٥) الرق في الإسلام ١٩ .  
 (٦) قصة الملكية في العالم ٥٣ ، ٧٧ .  
 (٧) الحضارة المصرية ٧١ . لوبون .

## - ٢ -

وكانت الإمة تستعبد كما يستعبد الأسير ، والأسير كان في عداد العبيد ، فقد  
أسرزيد الخليل جماعة من بني عامر وحلفائهم ، منهم الخطيئة الشاعر ، ثم من  
عليه وأطلقه وقال :

أقول لعبدى جَزُولُ إذ أسرتهُ أئبني ولا يغرُرُكْ أنك شاعر  
فدحه الخطيئة بقصيدتين<sup>(١)</sup> .

وكن إذا يقمن بأعمال تناسب عبوديتهن .

١ - فيخدمن سادتهن ، ولهذا الخدمة مظاهر شتى ، فقد تكون خدمة  
للملوك تشبه عمل الوصيفات . يدل على ذلك قول النابغة الذبياني في مسح عمرو  
ابن الحارث الفسائي :

تحميمهم بيضُ الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاجب<sup>(٢)</sup>  
وقد يطبخن الطعام ، ويظهر أنهن كن يستقلن بالطبخ في بيوت الأشراف ،  
لأن نساءهن مترفات أو مترفات أو مكفيات العمل ، قال طرفة :

تبيت إماء الحى تطهى قُدُورنا ويأوى إلينا الأشعث المتحرف<sup>(٣)</sup>  
وقال إن الإماء اشتوين لنا ولد الناقة على الرماد الحار وعلى الجمر ، وسعين .  
علينا بقطع من السنام السمين :

فطل الإماء يمتلن حوارها ويُسعى علينا بالسديف المسرهده<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني ١٦ / ٥٤ .

(٢) ديوان النابغة ٨ الولائد : الإماء . الإضريح : خز أحر أو أصفر .

(٣) ديوان طرفة ٤٤ و ١٢٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ المتحرف : الذى أذهبت .

(٤) ديوان طرفة ٣٥ وشرح المعاني السبع لابن الأنبارى ٣٧ مخطوط .

عتلن : يشوين في الملة وهي الرماد الحار والجر . الحوار : ولد الناقة . السديف : قطع

السنام . المسرهده : السمين .

وإذا ما فرغ السادة من الطعام أكلت الإمام ما بقى ، يدل على ذلك قول النابغة :  
 فظال الإمام ينتدرون قديحها كما ابتدرت سعداً مياها قراقر<sup>(١)</sup>  
 ويقول عمرو بن قميئة :

ورأيت الإمام كالجئثن البالي عكوفاً على قرارةٍ قدّر  
 ورأيت الدخان كأردغ الأضحة م يندبأع من وراء الست<sup>(٢)</sup>  
 ومدح الأسود بن يعفر قوماً بأنهم كرماء لا تميل إمامهم أواني الطبخ ،  
 أى لا يفرغن من الطهو للضيفان :

بها ليل لا تُصغى الإمام قدورهم إذا النجم وافاهم عشاء بشمال<sup>(٣)</sup>  
 وكن يختطبن أيضاً ، بقول الأخنس بن شهاب فى وصفه الأطلال إن النعام  
 يمشى بها آمناً متثاقلاً كمشى الإمام الحواطب أعيانهم ثقل الحمل :

فلا بنة حطان بن قيس منازل كما تمق العنوان فى الرق كاتب  
 تمشى بها حول النعام كأنها إمام تزجى بالعشى حواطب<sup>(٤)</sup>  
 ويقول طرفة فى هذا المعنى :

حابسى رسم وقت به لو أطيع النفس لم أرمه  
 لا أرى إلا النعام به كالإمام أشرفت حزمه<sup>(٥)</sup>

(١) أساس البلاغة مادة قدح . قديح . بقية المرق فى القدر .

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٦٦ الجعثن : أصول الصليان وهو نبت . الردغ : الطين .  
 يندبأع : يخرج فى شدة .

(٣) لسان العرب ١٩٦/١٩ لا تصنى : لا تميل أو لا تنقص القدر ( القاموس  
 والأساس) وفى اللسان لا تصفو أى لا تأخذ صفوه .

(٤) شرح الحماسة للبربري ١٢٣/٣ والموشح ٤٤ وشعراء النصرانية ١٨٤ حول :  
 لم تحمل . (٥) ديوان طرفة ٧٠ .

وقد وصف قيس بن الخطيم الإمام بأنهن حواطب ، مما يدل على شيوع هذا العمل في طبقة خاصة أو على أنه عمل مرهق :

أصابتُ سراً مِلاًغَرَّ سيوفُنَا وغودر أولاد الإمام الحواطب<sup>(١)</sup>  
وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً . يؤيد ذلك قول امرئ القيس إنهم  
خرجوا للصيد وشرع عبيدهم يجمعون الحطب ليشتروا القنص :

خرجنا نربِغ الوحشَ بين ثُعَالَةٍ وبين رُحَيَاتٍ إلى فَجٍّ أُخْرِبُ  
إذا ما ركبنا قال ولدان أهاننا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نَحْطَبُ<sup>(٢)</sup>

وكن يرعين الغنم والإبل كما يرعى العبيد ، قال ذو الإصبع العدواني في رده  
على ابن عمه وتعريضه به - وكان ابن أمة :

عني إليك فما أمى براعية ترعى المَخاض وما رأيي بمغبون<sup>(٣)</sup>  
وقال الأعشى :

والبيضُ قد عنستُ وطل جراؤها ونشأن في قِنِّ وفي أذواد<sup>(٤)</sup>  
٢ - يحترفن بالبعاء :

(١) كان بعض الإمام جميلات كما وصفهن طرفة<sup>(٥)</sup> ، وعبدة بن الطيب<sup>(٦)</sup>  
وسلامة بن جندل<sup>(٧)</sup> ، وامرؤ القيس<sup>(٨)</sup> . وكان لا يتحرزن ولا يتصون ، فكان  
الرجال يستمتعون بهن . يدل على ذلك قول الأعشى :

والبيضُ قد عنست وطل جراؤها ونشأن في قِنِّ وفي أذواد

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٢) معجم البلدان ١٤٨/١ . (٣) المفضليات ١٥٨/١ والأمال ٢٥٥/١ الخناس :

الخوامل من التوق أو التي بلغت سنتين . (٤) ديوان الأعشى ٩٩ : عنست : لم يتزوجن .  
طل جراؤها : طال زمن شبابها . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل .

(٥) ديوان طرفة ٣٥ . (٦) المفضليات ١٤٣/١ . (٧) المفضليات ١١٨/١ .

(٨) ديوان امرئ القيس ١٤٢ .

ووقد أخالهن ما يمتنعى عُصراً يمان على بالأجساد<sup>(١)</sup>  
 وقد أحب واحدة منهن ، وأكثر من التشبيب بها ، أحب هُرَيْرَةَ ، وكانت  
 هى وأختها خائِدة قينتين لبشر بن عمرو مرثد ، قدم بهما اليمامة لما هرب  
 من النعمان<sup>(٢)</sup> .

(ب) لهذا اخترت بعضهن بالبغاء ، وكان البغاء مقصوراً عليهن ، والدليل  
 على ذلك أن البغى فى اللغة الأمة أو الحرة الفاجرة<sup>(٣)</sup> ، ومن إطلاقها على الأمة  
 قول الشاعر :

نغر البغى بحدج ربِّها إذا ما الناس شلّوا<sup>(٤)</sup>  
 ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإمامة خاصة ، وأن البغى الأمة<sup>(٥)</sup> .  
 وقد عبر الأعشى عن الإمامة بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر أو المنذر ابنه :

يَهَبُ الجِلَّةُ الجِراجِرَ كالألبسِ تان تحنو لدردق أطفال  
 والبغايا يز كُضْنَ أكسبة الإذ مريج والشرعى<sup>(٦)</sup> ذا الأذبال<sup>(٦)</sup>

ثم إن القرآن الكريم عبر عنهم بالفتيات ، وهذه الكلمة لم تطلق فى القرآن  
 إلا على الإمامة « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما  
 ملكت أيمنهم من فتياتكم المؤمنات<sup>(٧)</sup> » ، « والذين يبتغون الكتاب مما  
 ملكت أيمنكم فكاتبوهم إن علمتم فىهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ،  
 ولا تسكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ،

(١) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الشباب والفتاة . قن : رقى . أذواد : جماعات  
 من الإبل . (٢) الأغانى ٧٧/٨ .

(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى . (٤) جهرة الأمثال ١٠٧ .

(٥) الأمالى ١٧٥/٢ . (٦) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ٨٣/١٨ الجلة :

الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجوز وهو البعير الضخم . دردى : صغار الإبل . الشرعى :  
 نوع من البرود . (٧) سورة النساء الآية ٢٥ .



ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم<sup>(١)</sup> . فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ما خص القرآن الإمام بالذكر ، على أن أنفة العرب وغيرتهم على الحرائر ، وعفة الحرائر أيضاً وتخوفهن سوء القالة ، كل ذلك كان مغنياً عن نهى العرب عن إكراه النساء الحرات على البغاء<sup>(٢)</sup> .

(ج) وإذا فقد كان بعض الرجال يقتنى الإمام ويكرههن على البغاء ، ليجابن له مالا ، أو ليلدن أولاداً بينهم ، أو ليكرم ضيفه ، فمثلاً كان عبد الله ابن جدعان نخاساً ، له ست جواريزنين وبييع أولادهن<sup>(٣)</sup> ، وكان عبد الله ابن أبي بن سلول يجبر جاريتيه أو جواريه الست على البغاء ؛ لأنه كان يبيع أولادهن ، ويتقاضى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل إليه جارية لياشرها تكريماً له ، فشكت إحداهن أو اثنتان منهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية . وعن ابن عباس وعن علي أن بعض الرجال كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك في الإسلام<sup>(٤)</sup> ويظهر أن شذازاً من الأعراب كآل عزة بالعراق ظلوا يجبرون جواريتهم على الزنا مجلبة للأولاد كفعل الجاهلية<sup>(٥)</sup> .

ولم يكن هذا العمل القبيح موقوفاً على ابن جدعان وابن أبي ، وإنما مارسه غيرهما كما سيجيء .

(د) ولكن يميزون بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدهن<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة النور الآية ٣٣ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٦١ - ٣٦٨ .

(٣) الأعلام النفيسة لابن رسته ٢١٥/٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٠٣/١٨ وتفسير القرطبي ١٥٤/١٢ والإصابة ١٨٩ و٢١/٨

وفتح الباري ٣٧٨/٤ وتفسير الأوسى ١٥٧/١٨ والعقد القريد ٢/٣ وتفسير الجلالين ٢٩٥

وتفسير الرازي ٣٩١/٦ . (٥) تفسير الأوسى ١٥٧/١٨ . (٦) إنسان العيون ٤٦/١ .

وقد ذكرتهن السيدة عائشة في أنسكحة الجاهلية<sup>(١)</sup> . وقيل إنهن كن تسمين أو أكثر معروفات ، سمى منهن هشام بن الكلبي أكثر من عشر في كتابه : المثالب<sup>(٢)</sup> . وهن جميعاً من سواقط الإمام مثل سُرَيْفَة جارية زمعة بن الأسود ، وأم عَلِيْط جارية صفوان بن أمية ، وحنّة القبطية جارية العاص بن وائل<sup>(٣)</sup> .

وقد اشتهر من هؤلاء شَمِيَّة أم زياد وإخوته ، وهى جارية فارسية أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطليب<sup>(٤)</sup> ، وكان لها أبناء اشتهروا . فابنُها أبو بكر . نَفِيع انضم إلى الرسول في حصار الطائف سنة ٥٨ هـ عندما وعد من ينضم إليه أن يكون حراً ، سواء أكان حراً أم عبداً ، وصار من مواليه<sup>(٥)</sup> . وابنها نافع بقي مع الحارث بن كلدة فأعلن حرته وبنوته كما أعلن بنوة أُرْدَة بنت سمية<sup>(٦)</sup> .

وهؤلاء جميعاً إخوة زياد لأمه ، وبحسب زياد من نباهة الشأن أن ادعى أخوته معاوية ، وأن جعله أكبر ولاته .

(٥) وإذا ما تفضنت وجوه هؤلاء البغايا الحسان ، ويبيت أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن غلبتهن طبيعتهن ، فسفرن بين الرجال والنساء ، يتكسبن بذلك ، ويتعزبن بشيوع الفاحشة ، ويثأرن من المجتمع الذي يحتقرهن .

يدل على ذلك قول السيدة عائشة : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأسٌ إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بقياً في

(١) فتح الباري ١٥٩/٩ . (٢) بلوغ الأرب للألوسي ٥/٢ .

(٣) بلوغ الأرب للألوسي ٥/٢ . (٤) أسد الغابة ١٥١/٥ . والروض الأنتف

١٣/٢ والمعارف ٩٧ ومعجم البلدان ١٥٢/٢ والأغانى ٦٥/١٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

٣١٥/١ . (٥) المغازى ٣٧١ والروض الأنتف ٣٠٤/٢ .

(٦) فتوح البلدان ٣٤٣/٣٥٠ والمعارف ٩٧ .

شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة<sup>(١)</sup> . وفي شعر امرئ القيس<sup>(٢)</sup> والأعشى<sup>(٣)</sup> .  
وعنترة<sup>(٤)</sup> ما يدل على ذلك .

(و) وهؤلاء البغايا كن محقرات ، لأنهن جعن حقارة الإمام إلى حقارة  
البغاء ، والدليل على تحقير الإمام وبخاصة في نظر النساء أن عاصية بنت ثابت  
ابن أبي الأفاح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت  
اسمى فسمنى . فقال : أنت جميلة . ففضبت وقالت : ما وجدت اسما تسميني به  
إلا اسم أمة ؟ وأتت النبي صلى الله عليه وسلم واستسمته فساها جميلة أيضاً .  
ففضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن  
الله عند لسان عمر وقلبه<sup>(٥)</sup> .

ويدل على ذلك أيضاً هجاء عمرو بن معد يكرب لخصومه بقوله :

وكنتم أعبداء أولاد غَيْلِ بنى آمٍ مَرَّ السَّفَادِ<sup>(٦)</sup>

وقد أكثر يزيد بن مفرغ من هجاء عباد بن زياد ، والتنديد بماوية ، لأنه  
ادعى أخوة زياد ، كقوله لعباد :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشرْ شَعْبَ قَابِكِ بانصداع  
فاشهدُ أن أمك لم تبشِّرْ أباسفيانِ واضعة القنصاع  
ولكن كان أمر فيه لبسٌ على وجلٍ شديدٍ وارتياع<sup>(٧)</sup>  
وقوله لمعاوية :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُعْتَلَّةً من الرجل اليماني

(١) عيون الأخبار ٤/١٠٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس ١١٣ .

(٣) ديوان الأعشى ١٢٢ و ١١٤ .

(٤) ديوان عنترة ١٥٢ .

(٥) الإصابة ٤٠/٨ .

(٦) لسان العرب ١٨/٤٧ الفيل : اللبن ترضعه المرأة وهي حامل . أم : إماء .

(٧) الأغاني ١٧/٥٧ و ٦٦ والشعر والشعراء ١٣٣ .

أتفضب أن يقال أبوك عفاً وترضى أن يقال أبوك زان ؟  
 فاشهدُ أن رُمحك من زياد كرحم الفيل من ولد الأوتان  
 وأشهد أنها ولدت زياداً وصخرٌ من سُميمة غير دان<sup>(١)</sup>  
 وله في هذا المجال جولات<sup>(٢)</sup> .

وكانت البغايا يشعرون بمهاتهن كما يشعر الإمام بعامة ، ومصداق هذا أن  
 بيوتهن كانت بمنأى عن المساكن ومضارب الخيام ، وأن روادهن كانوا ينسأون  
 إليهن في الظلام ، لذا سمّين المظلمات تقول العوراء بنت سُبَيْع في رثاء أخيها  
 إنه كان عفاً لا يرود بيت مظلمة :

أبكي لعبد الله إذ حُشَّت قبيل الصبح ناره  
 طيان طاوى الكشح لا يُرْحَى لمظلمة إزاره<sup>(٣)</sup>

وقد قيد العرب البقاء بقيود ، منها أنه كان يحظر على العربية أن تتمهن بالبغاء  
 لأنه كان يقصر على الرقيقات الأجنبية ، ومنها أن كثيراً من الالتزامات المائلية  
 كانت تجب بسببه<sup>(٤)</sup> كما ذكرت السيدة عائشة في حديثها عن نكاح الجاهلية  
 أن البغى إذا حملت ووضعت جمعوا لها القافة ، فألحقوا ولدها بمن يرونه شبيهاً له  
 من الذين ترددوا عليها ، فيدعى ابنه ولا يمتنع من إلحاقه<sup>(٥)</sup> .

( ز ) ولست أرتاب في أن تأجير الأمة للزنا امتهان لها ، ومهانة لسيدها ،  
 ولا يسمح هذه الوصمة عن العرب أن بعض الأمم شاركتهم فيها ، فالرومان كانوا  
 يسبون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان  
 لأنهن يجلبن للمالكين ثروة من الفجور<sup>(٦)</sup> .

(١) المرجع السابق . (٢) الأغاني ٥٧/١٧ - ٧٠ وخزانة الأدب ٥١٦/٢ .  
 ووفيات الأعيان ٣٢٣/٣ والعقد الفريد ٢٣١/٣ ويذكر صاحب العقد أن عبد الرحمن  
 ابن حسان بن ثابت هو القائل : ألا أبلغ معاوية بن حرب . الأبيات .  
 (٣) مرآة شواعر العرب ١٤٧ حشمت : أوقدت . (٤) الأسرة والمجتمع ٧٥ .  
 (٥) لإنسان العيون ٤٧/١ . (٦) الرق في الإسلام ٣٤ .

وقد أقر المشرعون هذا الضرب من الاستغلال ، حتى إن صولون نظم البغاء وأنشأ منازل خاصة للبغايا ، واشترى عددا كبيرا من الإماء ، ووزعهن على هذه المنازل لتنتفع الدولة بأجورهن . وكان بجوار هذا البغاء التجارى بناء آخر دينى فى معابد لإلهة فينوس ( الزهرة ) يخصص للمعبد ، وانتشر هذا البغاء فى بلاد اليونان ، وعدوه من صالح الأعمال ، ونذروا به للإلهة فينوس ، ومدحوه<sup>(١)</sup> .

وكانت الفتيات والزوجات يبحن للرجال أن يباشروهن فى هيكل الإلهة عشتروت ببعليك ، ويعتبرن هذا عملا مقدسا ، لأنه زلنى إلى إلهة الخصب والنتاج ، وقد ظلت هذه العهارة المقدسة إلى عهد قسطنطين<sup>(٢)</sup> .

كذلك كان لزاما على كل امرأة فى بابل وأشور أن تمارس العهارة المقدسة مرة فى حياتها ، فكان هيكل مليتاربه الجمال يعص بهؤلاء النسوة<sup>(٣)</sup> ، وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات فى آشور تقديسا للإلهة استار<sup>(٤)</sup> ، كذلك كان الفينيقيون والإسرائيليون يمارسون العهارة المقدسة ، واتخذوا البغاء تكريما لعشتروت<sup>(٥)</sup> .

بل إن فساد الخلق تسرب إلى زوجات بعض القياصرة ، وجاهرن به ، وحسبنا أن نذكر اسم ليفيا أوستيايا زوجة كاليكولا ( ٣٧ - ٤١ م ) ومسالين زوجة خليفته كلود ( ٤ - ٥٤ م ) . وكانت تيودورا زوجة جستنيان الأول سيئة السيرة ، وقالوا إنها فسقت علانية مع ابنها ومع أختها ، ومع سيدات الحاشية . وتمادت إلى أن كانت تخرج مع أختها فى الليل فتفتشان بساطا فى الشارع . وتفسقان عليه<sup>(٦)</sup> .

(١) قصة الملكية فى العالم ٧٩ . (٢) النظم السياسية والاجتماعية ٢٢ .

(٣) P. A. Rosler. La Question femine. 137

Rosler. P. 140 (٤)

(٥) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى جستاف لويون ٥١ .

(٦) Histoire Des Papes. Tome 2. 67 .

فإذا كان بعض العرب قد أجز الإمام للفجور فإن غيرهم قد فعل ذلك أو ما يشبهه . ولكن هذا لا يبرئ العرب من العوم ، سواء أكان الباعث لهم الرغبة في المال ، أم في الأولاد الذين يباعون أحياناً ، أم إطفاف الضيف كما سبق ، أم كان الباعث أن هذا ضرب مشوه من العبارة المقدسة ، التي كانت معروفة عند الأشوريين والبابليين والفينيقيين والرومان واليهود ، والعرب على صالة بهؤلاء جميعاً .

والواقع أن عدد الإمام اللأني كن يبعين كان قليلاً جداً كما سبق ، ولم يكن يمارسه من نساء العرب أحد .

### — ٣ —

وكن يُبَعَّنَ وَيُورَثَنَ ، فقد اشترت أم حَبيبة بنت أبي سفيان أمة اسمها بركة جاءت بها من الحبشة معها<sup>(١)</sup> . وورث النبي عن أمه مولاته أم أيمن — اسمها بركة<sup>(٢)</sup> — ويظهر أنها هي التي ذكر ابن سعد أنه ورثها من أبيه ، وأنها كانت جارية عسراء اللسان ، واسمها أم أيمن ، وهي حاضنة الرسول ومربيته ، وقد أعتقها حين تزوج السيدة خديجة ، وكان يدعوها أمه ، وكان إذا نظر إليها يقول : هذه بقية أهل بيتي<sup>(٣)</sup> .

وسياتي حديث الشعر عن هبة الإمام القيان ، وعن أمر القيان في الفناء .

### السبأ بين الجاهلية والإسلام

بزغ الإسلام والسبأ ضرورة من ضرورات الحرب في كل الأمم ، فلا مندوحة عن الحرب ولا مناص من السبي والأسر ، وقد تغفل نظام الرق في الحياة

(١) الإصابة ٢٧/٨ . (٢) المعارف ٤٧ .

(٣) الطبقات الكبير ٦٢/٧ .

الاجتماعية والاقتصادية ، وصار دعامته في صرح الحياة . فلو أن الإسلام أبطل الرق دفعة واحدة لهدم هذا الصرح، وأوقع الناس في اضطراب وثورات وشور، ولأضر بالسادة المالكين وبالأرقاء أنفسهم .

ثم إن الأرقاء لم يكونوا قد بلغوا من الوعي الحد الذي يجعلهم يستخطون مكاتبتهم ، ويدفعهم أو يدفع بعضهم إلى التمرد والثورة على هذا النظام العام . ولم يكن الأحرار الذين يقطنون العبيد قد ارتقى بهم تفكيرهم وسمت بهم أخلاقهم وعواطفهم إلى اجتواء هذا النظام ، وإيثار حرية البشر على استعبادهم وتسخيرهم .

لذلك لم تحرم اليهودية أو المسيحية الرق ، ولم تسن من القوانين ما يضيق نطاقه ، وكل ما فعلت أن أوصت الأحرار بإحسان معاملة الأرقاء ، وأوصت الأرقاء بالإخلاص لساداتهم<sup>(١)</sup> .

وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو في القرن الثالث عشر ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية وإلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ، ولم يرق في نظام الرق شيئاً يعاب<sup>(٢)</sup> .

لكن الإسلام نظم الرق كما نظم شؤون المجتمع ، وإذا ما وازنا بين حال السبايا في الإسلام وحالهن في الجاهلية وجدنا الإسلام قد أقر بعض ما تعارف عليه العرب ، وعدل بعضه ، وأبطل الباقي .

### ما أقره الإسلام

١ — أقر الإسلام السبي في الحرب المشروعة . فقد سبي النبي صلى الله عليه وسلم نساء من هوازن ثم ردهن . وسبي من بني المصطلق<sup>(٣)</sup> . وأسرى المسلمون

(١) رسالة بولس إلى أهل أنسس ٦ : ٥ - ٩ . (٢) بلال داعي السماء ٧٤ . (٣) صحيح البخاري بشرح الكرمانى ٩٠/١١ وفتح البارى ٥/١٢٢ والسنن الكبرى للسيهقي ١٢٤/٩ والتنبيه والإشراف ٢١٥ .

من طيء سبأيا، فبين بنت حاتم، فاستعطف النبي بمكازم أبيها فغلب سبأيا<sup>(١)</sup> وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة أن تقتل مقاتلاتهم، وتُسبى ذراريهم ونساءهم. فقال رسول الله: أصبت فيهم حكم الله<sup>(٢)</sup>. ثم لما بعث معاوية بسر بن أرطاة لينكل بشيعة على سار حتى همدان فتغفلهم، وأغار عليهم فقتلهم وسبى نساءهم<sup>(٣)</sup>

٢ — وأقر الإسلام إعتاق السبأيا، كما أطلق النبي سبأيا هوازن. وأقر إطلاقهن بعوض، فقد كاتب النبي عليه الصلاة والسلام جويرية بنت الخارث بن أبي ضرار من بني المصطلق، وقيل إنها كانت في سهم ثابت بن قيس، وكانت نفسها فأنجز رسول الله كتابتها وتزوجها، فأرسل الناس ما في أيديهم من سبأيا بني المصطلق، إكراماً لهم، لأنهم صاروا أصحاب رسول الله<sup>(٤)</sup>.

٣ — وأقر الإسلام بيع السبأيا، لكنه راعى ألا يفرق بين الأقوياء القراية، فقد بعث رسول الله حارثة بن زيد نحو مدين، فأصاب سبأياً من أهل مينا، فبيعوا ففرق بينهم، فخرج رسول الله وهم يبكون فقال: ما لهم؟ فتميل: يا رسول الله فرق بينهم. فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً. قال ابن هشام: أراد الأمهات والأولاد<sup>(٥)</sup>. وفي الحديث الشريف: من رضى رقيقه فليمسكه، ومن لم يرض فليبعه، فلا تعذبوا خلق الله<sup>(٦)</sup>.

ولما باع على بن أبي طالب جارية وولدها وفرق بينهما نهاه رسول الله عن ذلك ورد البيع، وقال بهما أو أمسكهما جميعاً<sup>(٧)</sup>، وكذلك أمره لما باع غلامين أخوين وفرق بينهما<sup>(٨)</sup>. وفي عهد عمر رضى الله عنه أتى الصحابة إلى المدينة بسبى فارس، وكان فيهن ثلاث بنات ليزدجرد - ملك الفرس - فباع

(١) الأغاني ١٦/٩٣.

(٢) التنبيه والإشراف ٢١٧ والخراج للقرشي ١٤. (٣) النقايس ٦١٧.

(٤) فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي ٢/٢٤٨. (٥) سيرة ابن هشام ٤/٣١٢.

(٦) البيان والتبيين ٢/٣٦. (٧) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٦.

(٨) المرجع السابق ٩/١٢٧.



'لمسامون السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً ، فقال له علي بن أبي طالب :  
بنات الملوك لا يعامان معاملة غيرهن . فقال عمر اعلى : كيف الطريق إلى معاملتهن ؟  
قال يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومن فأخذهن علي بن طالب ،  
فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر ، والثالثة لوالده  
الحسين<sup>(١)</sup> ، وهى شاهبانو shahbanu<sup>(٢)</sup> .

٤ — كما أقر أن يوهبن وأن يورثن وأن يخدمن سادتهن .

### ما علمه الإسلام

١ — كان العرب يديحون للسيد أن يستولد سبيته ، و يديحون له أن يستولد  
أمته ، لكنها تظل أمة بعد أن تلد له فأقر الإسلام حق السيد في استيلادها ،  
أما حربتها أو عبوديتها بعد أن تلد لسيدها فقد تعارضت فيها الآراء حقبة من  
الزمن حتى استقرت المذاهب الأربعة ، فتقررت حرية السبية أو الأمة بعد موت  
سيدها بولادتها منه ، وماخص الآراء :

(١) لا يجوز لولى السيد أن يبيع أمته بعد وفاته إذا كانت أم ولد . حدثت  
سلامة بنت معقل فقالت : قدم بى عمى فى الجاهلية فباعنى من الحباب بن عمرو ،  
فولدت له عبد الرحمن ، ثم هلك ، فقالت امرأته : والله تباعين فى دينه . فأثيت  
رسول الله فشكوت له ، فاستدعى البُشمَ بن عمرو أخا الحباب فقالت : أعتقوها ،  
فإذا سمعتم بريق قدم على فأتونى به أعوضكم منها ففعلوا<sup>(٣)</sup> .  
ثم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة رسول الله ، فقال قوم : أم الولد مملوكة ، ولولا  
ذلك لم يعوضهم رسول الله منها .

وقال بعضهم : هى حرة قد أعتقها رسول الله . ففى - كان الاختلاف<sup>(٤)</sup> .

(١) ربيع الأبرار للرمشمري . (٢) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ١٨١ .

(٣) أسدالغابة ٤٧٧/٥ وسنن أبى داود ١٠٦/٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٦٠/٦ .

ورويت في عتق أم الولد أحاديث شتى منها : « أم الولد حرة . وإن كان سقطا » و : « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات ، إلا أن يعتقها قبل موته » و : « من وطئ أمة فولدت له فهي معتقة عن ذُبُر منه <sup>(١)</sup> .

(ب) ثم جاء عمر رضي الله عنه فقرر أن أم الولد تتحرر إذا مات عنها سيدها ، وقال الأمة يعتقها ولدها وإن كان سقطا ، وطبق ذلك فأعتق أمهات الأولاد ، وقال : أعتقن رسول الله . وأمر بتقويم أمهات الأولاد بقيمة عدل في أموال أبنائهن ثم يعتقن ، ومكث على ذلك صدراً من خلافته إلى أن توفي رجل من قريش كان له ولد من أمته ، فسأل عمر الغلام يوماً : ما فعلت يابن أخي في أمك ؟ قال : قد خيرني إخوتي في أن يسترقوا أمي أو يخرجوني من ميراثي من أبي ، فكان ميراثي من أبي أهون علي من أن تسترق أمي . ثم قام عمر فخطب في الناس فقال : إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم قد حدث لي رأى غير ذلك ، فأيما امرئ كانت عنده أم ولد يملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل عليها <sup>(٢)</sup> .

(ج) ويظهر أن الحكم لا يمكن أن يستقر ، فإن علي بن أبي طالب انحرف عن رأى عمر <sup>(٣)</sup> . ثم رجع إليه <sup>(٤)</sup> . وقيل إن ابن عباس أيضاً عارض رأى عمر ، وقيل إن علياً وابن عباس كانا يوافقانه <sup>(٥)</sup> . وأصر بعض المسلمين على أن النبي أقر بيع أم الولد <sup>(٦)</sup> ، وروى ابن حنبل عن جابر : « كنا نبيع سرارينا أمهات أولادنا

(١) كثر المال ٢٤٨/٥ الحديث ٥٠٣٩ - ٥٠٤١ . ومسنند الإمام أحمد ٣٠٣/١ و ٣١٧ . (٢) كثر المال ٢٥٢/٥ الحديث رقم ٥١١٨ .

(٣) كثر المال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٠ و ٥١٣١ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٣٤٢/١٠ (٥) كثر المال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٢ و

٢٤٨/٥ رقم ٥٠٣٩ و ٢٤٨/٥ رقم ٥٠٤١ . والطبقات لابن سعد ١٥٥/٨ ومسنند أحمد ابن حنبل ٣٠٣/١ و ٣١٧ . (٦) كثر المال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٢٥ وابن ماجه

والنبي صلى الله عليه وسلم فينا حتى لا يرى بذلك بأساً<sup>(١)</sup> . وذهب آخرون إلى أن النبي لم يقر بيعها مستدلين بأن صحابة النبي وافقوا رأى عمر<sup>(٢)</sup> . وقد أورد البخارى حديثين في أم الولد أيحكم بعتمها أم لا<sup>(٣)</sup> .

ثم جاء العيني فأخص الآراء المختلفة فيها<sup>(٤)</sup> .

(د) ثم لما تكونت المذاهب أخذت بالرأى القائل إن أم الولد لا يصح بيعها ، وعلى ذلك أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم . لكن داود والظاهرية والإمامية الاثنى عشرية والمعتزلة ذهبوا إلى جواز بيعها . فمثلا يرى الإمام مالك أنه لا يجوز بيعها إذا حلت من سيدها ، ولا يجوز له أن يقبل منها مالاً تقتدى به نفسها<sup>(٥)</sup> :

وهذا الجدل الطويل والخلاف فى الرأى فى صدر الإسلام وبعده دليل على أن الإسلام لم يحسم الحكم فى أم الولد إلى أن تكونت المذاهب الأربعة . وإذا فالشبه قوى بين النظام الذى سار عليه العرب فى الجاهلية فى معاملة الأمة أم الولد وبين الآراء الإسلامية التى تبيح بيعها فى الإسلام ، وإن كان رأى الجمهور أكسبها فى الإسلام حقاً لم يكن لها فى الجاهلية .

(١) مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣/٣٢١

(٢) سنن أبى داود باب التتق ٨ والعيني على البخارى عتق باب ٨

(٣) فتح البارى ٥/١١٨ (٤) هذه الآراء هى : «أ» الثابت عن عمر عدم جواز بيعها ، وروى مثله عن عثمان وهو قول أكثر التابعين ومالك والثورى والأوزاعى والليث وأبى حنيفة والشافعى فى أكثر كتبه ، ونقل عن الزنى أنه قال : قطع الشافعى فى أربعة عشر موضعاً من كتبه بالأبناح . قال العيني وهو الصحيح من مذهبه وعليه جمهور أصحابه «ب» يجوز لاسيد أن يعتق أم الولد مقابل مال يأخذها فتكون كالمسكينة . «ج» يجوز بيعها من غير قيد أو شرط وهو رأى أبى بكر وعلى وابن عباس وغيرهم . «د» يجوز لسيدها وحده أن يبيعها فى حياته فإن لم يبيعها ومات عنها نصير حرة . «هـ» يجوز بيعها سداً للدين سيدها للتوفى . «و» يجوز بيعها ولو كان ولدها موجوداً عند موت أبيه سيدها تعتق وتحسب من نصيب الولد فى التركة وترث معه «ز» يجوز بيعها على شرط أن تعتق ولا يجوز بغير هذا الشرط «ح» إن عتقت وأبقت لم يجز بيعها وإن تجرت أو كفرت جاز بيعها . ( شرح العيني على البخارى ٦/٢١٧ - ٢٢٠ ) (٥) شرح الموطأ ٣/٨٧ .

٢ -- وحبب الإسلام إلى الناس أن يتسروا ؛ لأن نكاح السرية تكريم لها ، وإذا ما ولدت ارتفعت منزلتها فصارت أم ولد . قال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة<sup>(١)</sup> » .  
 أى انكحوا من السرارى أى عدد بالغاً ما باغ ، كما يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة ، وسوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة والسرارى من غير حصر ؛ لقلّة تبعتهن ، وخفة مئوتتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن<sup>(٢)</sup> .  
 وحبب النبي إلى المسلمين أن يتزوجوا بهن بعد عتقهن ، وذكر السيوطى أحاديث ترغب فى التسرى ، منها :

« اتخذوا السرارى فإنهن مباركات الأرحام ، وإنهن أنجب أولاداً<sup>(٣)</sup> »  
 وجرى كثير من المسلمين على ذلك ، فعمر بن الخطاب يقول : « ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يحملون عز العرب ودهاء العجم .  
 وأنشد راجز من بنى سعد :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأننا فيما شئت من خال وعم<sup>(٤)</sup> .  
 وسئل المغيرة بن شعبه عن صفات النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والعربية أنجب ، وما ضرب رهوس الأقران مثل ابن السوداء<sup>(٥)</sup> . أو بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رهوس الأبطال كابن الأعجمية<sup>(٦)</sup> .  
 ولما اتسعت الفتوح وكثرت السبايا راجت سوق السرارى وعظم الإقبال عليهن ، حتى لقد روى عن عبد الملك بن مروان قوله : عجبت لمن استمتع بالسرارى

(١) سورة النساء : (٢) روح المعاني ٤/١٩٥

(٣) الدرارى فى أبناء السرارى ١٤٧ للسيوطى مخطوط .

(٤) تهذيب الكمال العبرد ٢/١٠١ (٥) نزهة الأبرار والأسباع ١٤٧

(٦) العقد الفريد .

كيف يتزوج الحرائر؟ . وكان يقال : من أراد قلة المثونة، وخفقة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر<sup>(١)</sup> .

وكان الخلفاء والأمراء والسراة في العصر العباسي ينجحون إلى السراري ، لذلك لا نجد في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح ، والمنصور والمخلوع ، وأما الباقيون فنكحهم أبناء السراري والجواري<sup>(٢)</sup> .

على أن هذا الجنوح إلى السراري كان يضاده جنوح آخر إلى إيثار الحرائر ولا سيما في الحجاز . فقد كثرت السبايا في صدر الإسلام ولكن لم يتزوج خليفة من الراشدين جارية<sup>(٣)</sup> . وكان أهل المدينة يكرهون استيلاء الإماء حتى نشأ فيهم على بن الحسين ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وفاقوا أهل المدينة فقياً وعلماً وورعاً ، وهم جميعاً أولاد سراري ، فرغب الناس في التسرى<sup>(٤)</sup> وكانت شبرة هؤلاء الثلاثة شرفاً لأبناء السراري عامة ، فقد حكى قرشي أن سعيد ابن المسيب سأله عن أخواله فقال : أمى فتاة . فنقص في عينه . ثم دخل عليه هؤلاء الثلاثة ، فسأله القرشي عن أم كل منهم . فقال : فتاة ، فقال له القرشي : رأيتني نقصت في عينك لأنى ابن فتاة ، أمألى بهؤلاء أسوة ؟ فجل في عينه<sup>(٥)</sup> .

ويروون أن عبد الملك بن مروان تنقص من قدر ابنه مسامة - وكان ابن أمة - متمثلاً بشعر يحقر من شأن أبناء الإماء . فرد عليه مسامة متمثلاً بشعر يرفع من أقدارهم ، فسر عبد الملك وقيل رأسه ، وأمر له بمائة ألف<sup>(٦)</sup> .

وكان بعض العرب يتشدد في عروبة من يصهر إليه وإن كان ابن خليفة ، كعقيل بن علفة المري ، فإنه لما خطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده قال له :

(١) اللطائف والظرائف للنعالي ٦٤ . (٢) اللطائف والظرائف ٦٤ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٢٦/٣ و ٢٩ .

(٤) وفيات الأعيان ١/٣٢٠ واللطائف والظرائف ٦٤ .

(٥) ربيع الأبرار للزحشمري ٨ مخطوط .

(٦) حساسة الخالدين ٣٥ مخطوط وربيح الأبرار ٣ .

جنبني هجناً ولدك<sup>(١)</sup> . لهذا عمد بعضهم إلى العزل ليحولوا دون ولادة الإمام ،  
وقام جدال في العزل أحرام أم مباح<sup>(٢)</sup> .

والذي يظهر لي أن نكاح الإمام كان في الإسلام كما كان في الجاهلية وسطاً  
بين الرغبة فيه والرغبة عنه ، وأن الإمام وأبناءهن — من غير ساداتهن في  
الإسلام — كن في الغالب أدنى إلى التحقير منهن إلى التوقير . وقد سبق أن  
العرب كانوا لا يسودون أبناء الإمام ويسمونهم الهجناء ، ويسمون أولاد الخرائر  
الصحراء ، وسار على سنتهم بنو أمية ، فلم يستخافوا ابن أمة ؛ لأنه في أيهم  
لا تصاح به العرب<sup>(٣)</sup> .

٣ — كان الإسلام أعظم عطفاً على الأسرى والسبايا ، لأنه ابتدع وسائل  
لتحرير الرقيق . من هذه الوسائل تحرير الأرقاء الذين خرجوا من دار الكفر  
إلى دار الإسلام ، وتحرير العبد إذا عذبه سيده ، والتدبير . ومنها أنه جعل العتق  
كفارة لكثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم عمداً والخم  
في اليمين .

وكثيراً ما رغب النبي إلى المسلمين أن يعتقوا ويتزوجوا عتائقهم<sup>(٤)</sup> .  
وأباح الإسلام للأرقاء أن يكتبوا ساداتهم<sup>(٥)</sup> ، وحبب إلى المسلمين أن  
يساعدوهم في جمع هذا المال ليتحرروا ، وجعلهم مصرفاً من مصارف الزكاة . قال  
تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٦ (٢) السنن الكبرى للبيهقي ٧/٢٢٨ - ٢٣١ ومفتاح

كنوز السنة مادة العبيد ٣٣١ ومادة العتق ٣٣٣ .

(٣) جمهرة الأمثال ١٥ والعقد الفريد ٣/٢٢٩ .

(٤) فتوح الباري ٥/١٠٤ وكنز العمال ٥/٢٤٥ - ٢٥٠ وفتح الباري ٥/١٢٥ وسنن

أبي داود ١/٢٠٤ والبيهقي على البخاري ٩/٣٦٩ ومسند أحمد بن حنبل ٢/٤٢٠ و ٤٢٢ و

٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٤٧ و ٢٢٥ و ٩٤٠/٣ .

(٥) المكتبة هي أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً عليه فإذا أداه فهو حر .

ولها حالتان . الأولى أن يطلبها العبد وأباًها السيد وفيها قولان : أن الموافقة واجب على السيد

أو أنها غير واجبة ( تفسير القرطبي ١٢/٢٤٥ ) .

خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم<sup>(١)</sup> . وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل<sup>(٢)</sup> ، وجعل إعطائهم من أنواع البر في قوله تعالى : « يس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . وآتى المال على حبه ذوى القربى . . . وفي الرقاب<sup>(٣)</sup> . لذلك تنافس المساهمون في عتق الأرقاء ، حتى نقد أنفق أبو بكر كثيراً من ماله في شرائهم وإعتاقهم ، وحتى قيل إن النبي أعتق ٦٣ نسمة وإن السيدة عائشة أعتقت ١٠٠<sup>(٤)</sup> ، وإن العباس أعتق ٧٠ وإن عثمان أعتق وهو محاصر ٢٠<sup>(٥)</sup> .

وإذا كان العرب قد افتخروا في الجاهلية بإحسانهم معاملة الأرقاء فإن الإسلام كان أعظم حفاوة بهم وهدياً عليهم . حتى نقد أوصى الله بحسن معاملاتهم في عداد من أوصى بهم من الأعداء . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً<sup>(٦)</sup> » ، وأمر النبي بأن ينادوا بكلمات لا تؤذى « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، ولا يقولن المملوك ربى وربتى ، وليقل المالك فتاى وفتاى ، وليقل المملوك سيدتى وسيدى . فإنكم المملوكون والرب الله عزوجل<sup>(٧)</sup> .

وليس أدل على سماحة الإسلام وتقديره لخربة العتق من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجبر معتوقة السيدة عائشة على مالا ترضى ، ذلك أن بريرة كانت

(١) سورة النور ٣٣ وكثير العيال ٥/٢٤٨ (٢) سورة التوبة ٦٠ .

(٣) سورة البقرة ١٧٧ . (٤) الأنساب للسهماني ١/٦٦٣ .

(٥) التزيين الإدارية ١/٢٩ (٦) سورة النساء ٣٦ .

(٧) سنن أبي داود ٢/٢٠١ وفتح الباري ٥/١٣٠ وربع الأبرار ٢ مع بعض تغيير

مولاة لعائشة فأعتقتها . فقال لها الرسول : ما كنت بؤءك فاختارى ، وكان زوجها مغيث يمشى خلفها ويبكى ، وهي تأباه . فقال النبي لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال لها: اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً لا حاجة بى إليه . فاختارت نفسها (١) .

وكان النبي يكرم جاريتيه أم أيمن كثيراً (٢) ، وكان يوصى بالرقيق كثيراً ، كقوله : من رضى رقيقة فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خالق الله (٣) وقال فى حجة الوداع : أرقاءكم أرقاءكم ، أرقاءكم أرقاءكم ، أظعموهم مما تأكرون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم (٤) .

والوصايا بحسن معاملة الأرقاء كثيرة (٥) .

### ما أبطله الإسلام

١ - قصر الإسلام الأسر على أن يكون فى الحرب بين المسلمين والمشرىين أو بين المسلمين والكفار (٦) ، وبهذا ألغى الأسر والسبى بالنخاسة والاختطاف ، فضيق مجال الأسر .

٢ - إذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم يخبرون فى أن

(١) التجريد الصريح ٣/٢٥٥ والمبسوط ٥/٩٨ وأسد الغابة ٥/٤٠٩ .

(٢) الطبقات الكبير ٧/١٦٢ . (٣) البيان والتبيين ٢/٣٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٣٦ و ٥/١٦٨ و ١٧٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٢ و ٢/٩٠ و ١١١ و ٢٤٨ و ٣٤٢ وفتح البارى ٥/١٢٥ .

(٦) روى عن ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبدة الأوثان . وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة . ذكره الماوردى واختاره ابن العربى ، وقال : هو الصحيح لعموم الآية فيه . والآية هى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أحثتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » تفسير القرطبي



يمنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وفي أن يطلقوهم بعوض أو فدية ؛ وفي أن يقتلوا من يرون في حياته خطراً عليهم، أو يرون في قتله قصاصاً عادلاً ، وفي أن يسترقوهم .

وقد اختلف في قوله تعالى : « فإذا أقيم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أئتمتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها<sup>(١)</sup> » ، فذهب بعض السلف إلى أن الآية في أهل الأوثان وهي منسوخة ، وبعضهم إلى أنها في الكفار جميعاً وهي منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم<sup>(٢)</sup> » وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة<sup>(٣)</sup> » وقوله تعالى : « فإما تتققتهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم<sup>(٤)</sup> » ، وإذا فليس يجوز الفداء ولا المن عابهم ، وقيل : تجوز المفاداة بالمرأة لأنها لا تقتل ، وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة . ورأى بعض السلف أن الآية « فإما منا بعد وإما فداء » . ناسخة للآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . فليس للإمام أن يقتل الأسير ، وإما له أن يمن أو يفادي أو يسترق .

وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الآية محكمة ، والإمام مخير في كل حال لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى القول بالنسخ ، وصفة الناسخ والمنسوخ أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ للآخر ، وقد أذن القرآن بقتلهم في آية أخرى . وإلى هذا ذهب كثير من السلف كابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري وأبي عبيد وغيرهم ، وهو المختار ، لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ، فقد قتل النبي عقبة بن أبي معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وقتل بني قريظة لما نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة

(١) سورة محمد ٤ . (٢) سورة التوبة ٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٦ . (٤) سورة الأنفال ٥٧ .

أسارى المشركين يوم بدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده ، وأخذ من سلامة بن الأكوح جارية فندى بها أناساً من المساميين ، وهبط عليه قوم من مكة فأخذهم ومنّ عليهم ، ومنّ على سبي هوازن ، وهذا كله ثابت صحيح<sup>(١)</sup> .  
وإذاً فالنظام الغالب في الإسلام هو المنّ والنفاء ، لكن النظام الذى كان غالباً في الجاهلية هو الاسترقاق .

٣ - وحرّم الإسلام قتل النساء في الحروب<sup>(٢)</sup> ، وقد حدث ذلك على قلة في الجاهلية إذ أحرق المنذر بن ماء السماء سبايا من بكر بن وائل<sup>(٣)</sup> ، وأحرق عمرو ابن هند امرأة من بنى حنظلة هاجت حنقة بردودها عليه<sup>(٤)</sup> . وذكر بعض الشعراء أنهم بقروا بطون الحبالي<sup>(٥)</sup> ، على أن هذا كان عملاً نادراً يدفع إليه الغضب والتشفي ، وكان العرب يعيرون فاعله<sup>(٦)</sup> .

٤ - وحرّم الإسلام بغاء الإمام سواء أكان عاماً أم خاصاً ، وقد سبق أن بعضهم كان يكره إماءه على البغاء ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرر هو أفتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »<sup>(٧)</sup> .

ولم يقتصر الإسلام على تحريم البغاء العلنى العام ، بل حرّم المخادنة أيضاً : « ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فأنكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسالجات ولا متخذات

(١) تفسير الطبرى ٢٦/٢٦ - ٢٧ وتفسير النيسابورى ٢٦/٢٦ وتفسير القرطبي ٢٢٥/٢٦ - ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرماني ٢٥/١٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير .

(٤) الأغاني ١٩/١٢٩ وجمع الأمثال ١/٣٦٠ .

(٥) ديوان عامر بن الطفيل الفصيحة ١٢ و ٢٧ ومعجم البلدان ٧/٣١٧ .

(٦) الأغاني ١٦/١٣٥ .

(٧) سورة النور ٣٣ .

أخذان<sup>(١)</sup>» ، وقد روى عن ابن عباس أن المسأخات من المعاملات بائنا ، وأن  
متخذات الأخذان من ذوات الخليل الواحد ، وأن أهل الجاهلية كانوا يخرمون  
ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ما خفي . ويقولون إن ما ظهر لؤم ، وإن ما خفي  
لا بأس به ، فأنزل الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ،  
وعن قتادة أن المسأخة البغى التي تؤجر نفسها من غرض لها ، وذات الخلدن ذات  
الخليل الواحد<sup>(٢)</sup> ، فنهى الله تعالى عن البغاء بنوعيه ، ونهى عن نسكاح البغى  
أيضاً ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب البغى<sup>(٣)</sup> .

٥ - وأبطل الإسلام عبودية ابن الأمة من سيدتها ، وقرر أنه حر ، ويرث أباه<sup>(٤)</sup>  
وقد أسأمت أن العرب في الجاهلية كانوا يستعبدون أولاد الإماء ، ولا يتحرر  
الولد ولا يرث إلا إذا ادعاه أبوه وأشهد الناس على إخاقه به . أما إذا تزوج رجل  
أمة لغيره فإن أبناءها يتبعونها في الرق<sup>(٥)</sup> .

٦ - ثم إن الإسلام لم يبح ملامسة السبية قبل التثبث من استبراء رحمها .  
فقد قسم النبي سبايا أوطاس وبنى لمصطلق ، وأمر ألا توطأ حامل حتى تضع ،  
ولا حائل حتى تحيض<sup>(٦)</sup> ، وقال : لا توطأ حائل حتى تضع ولا غير ذات حمل  
حتى تحيض حيضة<sup>(٧)</sup> . وقال لا يخل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع  
على امرأة من السبي حتى يستبرئها<sup>(٨)</sup> .

٧ - ونحن نعلم أن الإسلام دين المساواة في أسمى صورها ، وأنه قائم على أنه  
لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وطالما حض النبي على حسن معاملة الأرقاء ،  
وكثيراً ما رغب الإسلام في عتقهم . لذلك قل أن نجد في شعر المسلمين في صدر  
الإسلام من غير بالسبي ، أو هجا برك الأم كما كان يحدث في العصر الجاهلي .

(١) سورة النساء ٢٥ . (٢) تفسير الطبرى ١٣/٥ والنيسابورى ٢٣/٥ .  
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٢ و٢٨٧ والعين على البخارى ٩/٦٣٤ والأمالى ٢/٢٧٥ .  
(٤) الكشاف ١/٢٠٠ والمقد الفريد ٣/٢٠٩ (٥) الكشاف ١/٢٠٠ .  
(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٥ (٧) سنن أبي داود ١/٢١٣ .  
(٨) سنن أبي داود ١/٢١٣ .

## الفصل السادس

### المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

تبوأَت المرأة في الحياة الأسرية مكاناً عالياً لم تتبوأه أختها المعاصرة لها ، ولقد يكون من البدهاة أن تدل هذه المكانة على قيمة المرأة في القبيلة وفي المجتمع كله ؛ لأن القبيلة هي الأسرة الكبيرة ، والمجتمع إن هو إلا قبائل يجمعها الجنس والبيئة والاشتراك في كثير من نظم الحياة .

لكن ذلك ليس بمحتوم فقد تميزت المرأة في أسرتها ، ولكنها لا تستمتع بمثل هذه العزارة في قبيلتها أو في المجتمع ؛ لأن العزارة في الأسرة عزارة في نطاق ضيق ذي حدود ، كثيراً ما تختبس فيها ولا تتخطاها إلى الميدان الأعظم اتساعاً وهو ميدان القبيلة والمجتمع ، ذلك بأن الرجال يستأثرون بالنفوذ في هذا الميدان ، ويخبرونه عن النساء ، وإن كن في أسرهن عاليات القدر ساميات المكانة .

وسألجأ هنا إلى الشعر أستبته وأسنتطقه كما لجأت إليه فيما مضى ، وسأضيف إليه من التاريخ ما أحتمجه لتوضيح الألوان الناصلة والملامح الحائلة ، والأحداث المبهمة أو المغفلة ، لأستطيع أن أرسم صورة بارزة المعالم للمرأة ، تكشف عن مكانتها في الحياة العامة ، فأبين ما بين هذه الصورة وصورة المرأة في الحياة الأسرية من تشابه وتمائل أو تنافر وتناقض .

ولقد يبدو أن في بعض ما روى عن جهود المرأة في الحياة العامة وفي الحروب مغالاة ، ولست أدفع هذا كله ، ولست أقره كله ، ولكنني أرى أن ما عُزى إلى المرأة - على مبالغته أحياناً - كليل بأن يقدم لنا صورة صحيحة من حياة المرأة في الجزيرة العربية ، لأنه صدى للواقع الذي كان ، وتعبير عما يمكن أن يكون .

## شعور المرأة بمساواتها للرجل

كانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل في مكانته ، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظرتة إلى الرجل . فقد أنشدت فتاة عضها أبوها ومنعها الأكلفاء :

أيزُجرُ لاهينا ونُدجى على الصِّبا وما نحن والفتيان إلا شقائق<sup>(١)</sup>

وفي أمثال العرب : « إن النساء شقائق الأقدام » والشقائق جمع شقيقة وهي كل ما يشق نصفين ، فالنساء إذا مثل الرجال ، لمن مثل ماعليهن من الحقوق<sup>(٢)</sup> ولقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال في كثير من الحقوق أن عجب بعضهم من أن يذكر القرآن الكريم الرجال ويفعل النساء فيما يأمر وينهى ، أو فيما يعد ويوعد ، أو هن وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال ، واحتججن على الرجال فقلن : أسلمنا كما أسلمتم ، وفعلنا كما فعلتم ، فتذكرون في القرآن ولا تذكر<sup>(٣)</sup> ؟ وروى أن أم سلمة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يذكر الرجال ولا يذكر . وروى أن نساء قلن له : لماذا يذكر المؤمنون ولا يذكر المؤمنات<sup>(٤)</sup> ؟ وروى أن سلامة حاضنة إبراهيم بن النبي قالت للنبي : إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء . قال : أوصو بحباتك دسسنك لهذا ؟ قالت : أجل هن أمرننى<sup>(٥)</sup> .

أليس هذا شعوراً من النساء بعلومسكاتهن ، وحرصهن على حقوقهن ، وجدهن في أن يتساوين بالرجال في بعض الحقوق ؟

وقد حقق القرآن أمالهن إذ أنزل الله تعالى قوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين

(١) الأمال ١٠٥/٢ (٢) بجم الأمثال ٢٦/١ والفاموس المحبظ مادة شق .

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد ١٤٥/٨ .

(٤) العليقات الكبير ١٤٤/٨ وتفسير الطبرى ٨/٢٢ .

(٥) أسد الغابة ٤٧٦/٥ وكنز العمال ٣١٥/٨ .

والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا<sup>(١)</sup> .

### نوابها الملك

لم تكن المرأة تشعر بهذه المساواة غروراً أو افتتاناً أو مجاوزة لقدرها الذى تعارف عليه العرب . ذلك بأن العرب ملكوا عليهم نساء ، وكانوا يستطيعون ألا يولوهن لو أمهم رأوا فى توليتهم غضاضة ، أو مجافاة للعرف الذى درجوا عليه .  
١ - فقد حكمت سبأ ملكة اسمها بلقمة<sup>(٢)</sup> أو بلقيس ، يقول أسعد تبّع فى نخره :

ولدتنى من الملوك ملوك كل قبيل متوج صنديد

ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميس جدوى<sup>(٣)</sup>

أو أن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناه الزهرة ، ثم سمّتها العرب بلقيس<sup>(٤)</sup> .

والمؤرخون مختلفون فى اسم أيها ، فهى ابنة اليشرح أو إيلي شرح أو ذى شرح بن ذى جدن القحطاني<sup>(٥)</sup> . أو هى ابنة أنيشرح بن الحارث ، أو بنت الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع . وقيل غير ذلك<sup>(٦)</sup> أو هى بنت آل شرح ابن ذى جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر<sup>(٧)</sup> ، أو هى بنت الهدهاد ابن شرحبيل بن عمرو بن مالك الرائش ، وكان يلقب بذى شرح<sup>(٨)</sup> .

(١) سورة الأحزاب ٣٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ وابن الأثير ١/٨٩ والعقد الفريد ٢/٥٨ .

(٣) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ٨ .

(٤) شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى ٢٧٥ مخطوط من مجاميع بنار

الكتب .

(٥) تاريخ ابن الأثير ١/٨٩ .

(٥) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤

(٧) العقد الفريد ٢/٥٨ المطبعة الشرفية .

(٨) الأخبار الطوال للدينورى ٢٢ .

وفي هذا خاطر واضطراب ، لأن الشرح من موك الطبقة الأولى من حمير ( موك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق . م إلى ٢٧٥ م ) وكان حكمه من ٣٥ - ١٥ ق . م ، وبقيس أو باقمة التي ينسبون لها هي التي لتقيت سليمان قبل ذلك بقرون ، وهم يخالطون بين صاحبة سايمان وبقيس التي تسمى الفارعة ، وهي من موك الطبقة الثانية من حمير ( موك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ - ٥٢٥ م ) وكان حكمها من ٣٣٠ - ٣٤٥ م <sup>(١)</sup> .

وما زلنا نجعل الاسم الحقيقي ملكة سبأ أهو باقمة أم باقيس أم غيرها ، وما زلنا نجعل اسم أبيها ، ولعل النقوش تفصح عن ذلك في يوم قريب . وهذه الملكة عربية ينتهي نسبها إلى قحطان <sup>(٢)</sup> ، والقول بأنها حبشية زعم لم يثبت أن ولد وتوارى ، إذ ذهبت أخيراً إلى سبأ ومأرب بعثة ألمانية علمية برياسة كارل يونجمان ، ونقبت هنالك طويلاً ، ثم اهتدت إلى أن ملكة سبأ ليست حبشية <sup>(٣)</sup> . وكان حكمها في القرن التاسع قبل الميلاد <sup>(٤)</sup>

وقد ملكت في حياة أبيها بتفويض منه ، وقيل ملكت بعده ، وقيل إن أباه لم يكن ملكاً ، وإنما كان وزيراً لملك خبيث سيء السيرة مولع بالعدوان على الأعراض ، فقتلته فملكها الناس عليهم <sup>(٥)</sup> .

والمبالمات في عظمة ملكها تتجاوز مطار الخيال الطليق ، وقد استنكرها من قبل بعض المؤرخين كابن الأثير في قوله : « وما أظن راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله ، وقد تواطأوا على الكذب والتلاعب بمقول الجهال » <sup>(٦)</sup> .

(١) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٢٢ و ١٢٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٥٤/١ وتاريخ ابن الأثير ٨٩/١ .

(٣) الهلال . الجزء الخامس سنة ١٩٢٩ . (٤) العرب قبل الإسلام ١١٨ .

(٥) السكامل لابن الأثير ٩٠/١ الطوال للدينوري ٢٤ .

(٦) ابن الأثير ١٩٢/١ .

واليقين أنها وفدت على سليمان ، لأن القرآن الكريم قص هذه الوفاة في سورة النمل في قول الهدهد لسليمان : « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ثم أرسل إليها سليمان كتاباً فلما أخذته جمعت مستشاريها « قالت يا أيها الملائة إني أتيت إلى كتاب كريم إنه من سليمان ، وإياه : بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعولوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملائة ما كنت قاطمة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وألو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » . ثم ذكر القرآن الكريم إيمانها بسليمان . وقصت التوراة أيضاً هذه الوفاة<sup>(١)</sup> .

ومن القرآن الكريم نعلم أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس ، وأنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوى الرأي ولا تستبد ، ونعلم أن ملكها كان قوياً أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة ، لأنهم أرادوها على أن تحارب سليمان ، ولا تخضع له ، لكنها كانت بعيدة النظر حصيفة الرأي ، فنجبت قومها حرباً تنشب بينها وبين الفاتح ، وبعثت إليه بهدية لتختبره أهو باحث عن المال أم داع إلى دين ؟

ومنذ عهد قريب كشف الدكتور أحمد نجوى عن معبد الشمس والقمر سنة ١٩٤٧ وطبع رحلته في ثلاثة أجزاء . ثم كشفت بعثة أمريكية برياسة مستر ويندل فيليبس عن كثير من آثار اليمين ، منها معبد الملكة باقيس ملكة سبأ ، على مقربة من سد مأرب<sup>(٢)</sup> .

٣ - وهناك ملكة ثانية ، حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٣٣٠ إلى ٣٤٥ م وهي التي تسمى الفارعة ، ولسنا نعرف عنها شيئاً إلا أنها

(١) سفر الملوك الأول فصل ١٠ آية ١١ و٢٢ .

(٢) جريدة المصرى ١٧/١٢/١٩٥٢ .



زوجة عمرو وأخت المدهاد<sup>(١)</sup> .

٣ - ومملكة نالثة ذكرها أسعد تبّع في نخره إذ يقول :

ونساء متوجات كباقيس وشمس ومن ليس جدوى<sup>(٢)</sup>

وليس بنت أسعد تبّع ، قال فيها علقمة بن ذى جدن :

وليس كانت في ذؤابة ناعطٍ يحبّي إليها أنخرج ساكن بربر<sup>(٣)</sup>

وأما شمس فهي أخت باقيس<sup>(٤)</sup> .

٤ - وهذه ملكة عربية أخرى ، حكمت تدمر في القرن الثالث بعد الميلاد

(٢٦ - ٢٧٢) هي الزباء . ولقد ترجع شهرتها إلى سببين :

السبب الأول أنها اتسمت بالشجاعة والسطوة والدهاء ، على جمالها وهيبتها ، فكانت سيرتها أشبه بسير الأبطال من الرجال . كانت فارسة تؤثر الخيول المطيعة على الخففات في أسفارها ؛ وكانت ديمقراطية كسابقتها باقيس ، تحادث أعوانها ومستشاريها ، وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها ، ونصاعة رأيها ، وذلاقة لسانها ، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى ، كوفود ملك الفرس والأرمن ، وقد يشرب جلاسها حتى يثملوا ، ولكنها لا تشرب .

وكانت إذا جلست في قومها لبست أنغر ما يابس ، ونشرت على كتفيها القيصرية الأرجوانية ، ووضعت التاج المؤتلق على رأسها ، وإذا استعرضت جنودها في الميدان استوت على صهوة جوادها مرتدية لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر ، وقد عرت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء ، ثم أخذت تنفخ في الجنود شجاعة من روحها ومظهرها ، فإذا

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٣ .

(٢) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لشوان بن سعيد الحميري ٨ .

(٣) المرجع السابق ٩٦ ناعط . نور وم حتى من ممدان (المرجم نفسه ١٧) .

(٤) المرجم السابق ٩٦ .

رآها الناس كذلك حسبوها إلهة<sup>(١)</sup> .

والسبب الثاني ما كان بينها وبين روما من الحرب ، وتداول النصر ، ذلك بأن أذينة زوج الزباء كان ملكا على تدمر ، وقد أنقذ الإمبراطورية الشرقية من فتك خصومها الفرس ، وهزم سابور ( ٢٦٠ م ) هزيمة ساحقة بعد أن اغتر سابور وازدهى بانتصاره على الإمبراطورية الرومانية وأسره إمبراطورها فاليريان ، ثم آزر أذينة جالينوس بن فاليريان في استرداد الملك من خصومه ، فكافأه جالينوس بأن أقره على مايبده من بلاد ، ومنحه لقب أغسطس ، وعينه إمبراطواً على الشرق وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني . وضربت النقود باسمه ، ورسم يجر خلفه صفاً من أسرى الفرس ، ووافق مجلس الشيوخ بروما على هذا كله .

فاما اغتيال أذينة خلفه ابن ضعيف لم يلبث أن مات ، تخلفت زوجته أذينة وهي الزباء .

وهنا بدأت روما تأتلف تحرشها بملكة تدمر ، إذ أعلن مجلس الشيوخ أن الحقوق التي كان قد نزل عنها لأذينة هي حقوق شخصية لا تورث لغيره ، فالزباء وأولادها لا يرثون شيئاً من ملكه . ولكن الزباء لم تعبأ بمجلس الشيوخ ولا بالإمبراطور جالينوس ، فأعلنت نفسها ملكة على المشرق كله وآسيا الصغرى ، فعبر البحر إليها القائد الروماني هرقل على رأس جيش عرمرم ، وحاربها في أرضها ، واستطاعت البطلة أن تشتت شمله وتقل قواه ، فعاد إلى روما موصوماً بجزى الهزيمة<sup>(٢)</sup> .

وبهذا النصر بسطت سلطانها على الشام وبلاد آسيا التابعة للإمبراطورية

(١) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ٨٧ وموجز تاريخ الحضارة العربية ٤٣٤ .

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجرى ١٥ نجيب البهيتى عن .

الرومانية ووصلت إلى مصر<sup>(١)</sup> .

لكن روما لم تنس هذه الهزيمة ، فعاودت الحرب ، وكان النصر حليفها . وهال الرومان بنصرهم تهيلا ، لأنه نصر كان ميثوسا منه . وليس أدل على ذلك من زعمهم أن ملكا نزل من السماء وآزر الإمبراطور وجيشه ، حتى إن الإمبراطور أورليان لما دخل معبد الشمس في حمص ليشكر للإله العربي بعمل ما أصاب من ظفر ، وصلى بالمعبد ، وقعت عيناه في زعمهم على الكائن السماوي الذي رآه قبل ذلك في المعركة<sup>(٢)</sup> .

وتذكر الروايات العربية كلها أن الزباء قد لقيت حتفها في شرقي مملكتها على يد قصير . ويدعى الرومان أن شمسها قد أفلت في روما ، لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك . ولكن هذا الادعاء باطل ، لأنهم مختلفون في شخصية الأسيرة ، فهي عند فوسيسكوس Vospiscus امرأة كانت ترافق زينب ( الزباء ) في حمل السلاح ، وعند تريليوس Tirbelius وبوليوس Pollion وغيرهما أن الزباء اسم قائد من قواد ملكة تدمر<sup>(٣)</sup> لأن أحد قوادها كان اسمه زبدا من أبناء تدمر ، وهو الذي هزمه أورليانس سنة ٢٧٢ م<sup>(٤)</sup> . ثم إننا على ثقة من نشوتهم بالنصر ، وتنفجهم بما نالوا ، ليستروا هزيمتهم التي أنزلتها بهم الزباء من قبل ، وهذا وحده كاف للتشكك في صحة ما زعموا .

وإذا فإن التي حملت سبية إلى روما لم تكن الزباء ، وإنما بقيت الزباء في

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥ .

(٢) Poujoulat. Tome 11 P 123.

(٣) Poujoulot. tome. 11. P. 120 . وتاريخ الشعر العربي حتى القرن

الثالث الهجري .

(٤) تاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى .

العراق إلى أن لقيت مصرعها كما يقول جميع المؤرخين من العرب<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر بعض الشعراء قصتها مثل عدى بن زيد والمخبل وغيرها ، وشعرهم يتفق مع التاريخ في أنها لقيت حتفها على يد عمرو بن عدى<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقد ملكت نساء غير هاتين في اليمن وكندة وبلاد الأنباط ، حتى لنجد في ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات في المدة من ١٦٩ ق. م إلى ٥٦ م كما نجد في كندة خمس ملكات أيضاً ، منهن العمدة بنت الأعشى ، وكانت أعظم تأثيراً من إختوتها في الناس ، وأعمق نفوذاً ، لبلاغتها وذكائها وجلالها وبراعتها في تدبير شئون الحكم<sup>(٣)</sup> ، ونجد ماوية الغسانية تحكم في فلسطين الحالية تقريباً ، فقد ذكر شارب sharpe أن ملك العرب النازلين في سينا وما جاورها لما مات في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد خلفته امرأته ماوية ، فتحتت من قيود المعاهدة التي بينهم وبين الرومان ، وحملت برجالها على فلسطين وسورية ، واستولت على مدينة بطرا ( الحجر ) ويمت مصر حتى برزخ السويس ، فاضطر الإمبراطور فالانس إلى تجديد المعاهدة بشروط ترضاه ماوية<sup>(٤)</sup> . وقد ملكت أخريات غير هؤلاء ، وأولئك<sup>(٥)</sup> ، ولو أن كل واحدة منهن منحت بواعث على شهرتها كما منحت باقمة والزباء لكان لنا من تاريخهن سجل حافل ، وأرجح أنه لولا القرآن الكريم وصلت باقمة بسليمان ، ولولا حرب الزباء لروما لغمرت كلتاها كما غمرت غيرها من الملكات .

(١) تاريخ الطبرى ٣٦/٢ وابن الأثير ١٢١/١ وأبى الفدا ٧٠/١ واليعقوبى ٢٣٨/١ وابن خلدون ٢٦١/٢ ومعجم ما استعجم ٢٤/١ ومعجم الأمثال ٢١٧/١ وجمهرة الأمثال .

(٢) تاريخ الطبرى ٣٦/٢ .

(٣) تاريخ حضرموت السياسى ٧٤ .

(٤) History of Egypt. vol. 2. P. 293

(٥) Moslem Law. P.17.

## شهرات

على أن بعضهم قد اشتهر بالفطنة والدهاء واللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر، كما اشتهر بعض الرجال .  
 منهن هند بنت أُنس - وهي الزرقاء - ، وجمعة بنت حابس<sup>(١)</sup> ، ورابعة القيسية ومماذة المدوية<sup>(٢)</sup> ، ولها حديث في وصف الخيل والنساء والرجال مع القامس<sup>(٣)</sup> .

ومنهن صخر بنت لقمان ، وحذام بنت الريان ، وخضيلة بنت عامر ابن الظرب ، وفاطمة بنت الخرشب<sup>(٤)</sup> . ومن الشهيرات اللاتي ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث الكندي (أو هي بنت أرقم بن ثعلبة من غسان) ، وهي أم الحارث الأعرج ملك غسان ، التي يقول فيها حسان بن ثابت :  
 أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريمة المفضل  
 وقد ضرب المثل بقرطيا ، قبيل : « خذه ولو بقرطى مارية » أى خذه بالشيء العزيز الذي لا يُقدَّر عليه ، ولا يوصل إليه ، وذلك للترغيب في الشيء وإيجاب الحرص عليه<sup>(٥)</sup> . وقد ذهب الزمخشري ومن نقل عنه إلى أن المثل ضرب بقرطيا ، لأنها أول عربية تقرطت ، فسار ذكر قرطيا في العرب<sup>(٦)</sup> ، ولكن ذلك ليس بصحيح ، لأن العربيات كن يتقرطن قبل مارية ، وإنما الصحيح أن قرطيا كانا نفيسين جداً وإن بولغ في نفاستهما ، حتى لقد قوَّما بأربعين ألف

- 
- (١) البيان والبيان ٣١٢/١ . قال ابن الأعرابي يقال بنت الحس وبنت الحمص وبنت الحسف وهي الزرقاء وقال يونس لا يقال إلا بنت الأوس .  
 (٢) البيان والبيان ٣٦٤/١ .  
 (٣) يلاغات النساء ٥٨ - ٦٢ .  
 (٤) جهرة الأمثال ٢٤٢/٢ وجمع الأمثال ٢٧٦/٢ والأغانى ١٩/١٦ - ٢٧ .  
 (٥) الفاخر للكوفي ٨٧ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٨/٢ ومنتخبات من أخبار الجين ٩٨ .  
 (٦) مستقصى الأمثال للزمخشري ١٠٠ مخطوط وخزانة الأدب ٢٣٨/٢ .

دينار، وقيل كان فيهما درتان كبيض النعام أو الحمام لم ير الناس مثلهما<sup>(١)</sup>.  
يقول الشاعر للنعمان وقد اتهمه :

يا أيها الملك الذي ملك الأنام علانيه  
المال أخذهُ سواي وكنْتُ عنه ناحيه  
إني أؤديه إليك ولو بقرطى ماريه<sup>(٢)</sup>

### مُجَرَّبَات

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدى أحد على من أجاره ، وإن اعتدى عليه أحد ذب جاره عنه ، وحارب المعتدى وإن كان قريبه أو حليفه .  
وكان الجوار نوعاً من الخلف أو الحماية ، ودلالة على قوة الجير ومهابته في قومه .  
١ - ولقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت ، وقيل جوارها ، وحث وصين حماها في الجاهلية .

فقد أجارت فُكَيْهَةَ بنت قَتَادَةَ — خالة طرفة بن العبد — الشليك  
ابن الشلْكَة ، وحثه من بكر بن وائل ، ومدحها الشليك في قوله :

لعمري أبيك والأنباء تنمى لنعم أخت بني عوارا  
عنيتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامت لنصل السيف وانتزعوا الخمارا  
من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شناراً<sup>(٣)</sup>

وحث رَيْظَةَ بنت جَذَلِ الطَّعَّانِ دريد بن الصمة ، اعترافاً بفضله ، لأنه كان قد أعطى ربحه ربيعة بن مُسَدَّم يوم حى الظعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي . فحبسه القوم وقالوا : لا ينبغي أن نكفر نعمته . وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا

(١) خزائن الأدب ١٣٨/٢ وجمع الأمثال ٢١٢/١ وربع الأبرار للزحشمري ورقة

٢٠٦ مخطوط .

(٢) الخبر ٤٣٣ .

(٣) جبهة الأمثال ٢٤٢/٢ .

برضا المخارق الذي أسره ، فانبعثت ربيعة في الليل تقول:

سنجزى دريدا عن ربيعة نعمةً وكل فتى يُجْزَى بما كان قَدَمًا

سنجزيه نُهْمَى لم تكن بصغيرة بأعطائه الرمح السديد المَقُومًا

فلو كان حيًّا لم يضق بثوابه ذراعًا ، غنيًّا كان أو كان معدما

ففكوا دريداً من إسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلماً

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ربيعة وجهه ، ولحق

بقومه ، فلم يزل كافًا عن غزو بني فراس حتى هلك <sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن العدوان على جار البسوس أشعل حرباً طويلة الأجل بين

ابني وائل <sup>(٢)</sup> . ولم تكن هذه الحماية حُكْمَةً للشريفات ، والمتكثات على

نسب أو عصبية قبلية ، بل كانت من حق كل امرأة ياجأ إليها ما يوف ، فهذه

أم غَيْلان الدوسية التي كانت تمشط النساء قد أجارت ناساً من قريش خرجوا

إلى أرض دَوْس — وكان هشام بن المغيرة قد قتل أبا أزيهر — فأمضى قومها

إجارتها <sup>(٣)</sup> على ما بهم من حنق وظماً إلى الثأر .

وفي رواية أن اسمها أم جميل ، وأنها حمت ضرار بن الخطاب الفهري ، فلما

ولى عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه ، فأنته بالمدينة ، وانتسبت له ، فعرف قصتها

وقال لها : لست بأخيه إلا في الإسلام ، وقد عرفنا مننتك عليه ، وأعطاهما على

أنها ابنة سبيل <sup>(٤)</sup> .

٢ - وقد أسأمت في فصل الأم والزوجة والبنات والأخت والقريبة أحوالاً

عدة أجزن فيها وقبل جوارهن ، كما يجير الرجال ويحمي جوارهم .

(١) الأغاني ١٤ / ١٣٠ ، والأمالى ٢ / ٢٧١ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزحشرى ٤٠ مخطوط والفاخر للكوفي ٧٧ والتنبيه

والإشراف للمعدي ١٧٤ . (٣) الإصابة ٨ / ٢٦٥ .

(٤) الحبر ٤٣٣ ، وفي الحاسن والأضداد ٥٦ أنها حمت هشام بن الوليد بن المغيرة ، وهذا

لا يستقيم مع ظنها أنه أخو عمر .

٣ - ثم جاء الإسلام فأبقى للمرأة هذا الحق ، فقد أسامت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل - ابن عمها - واستأمنت النبي صلى الله عليه وسلم لزوجها ، وخرجت في أثره وقد فر إلى اليمن ، فردته فأسلم ، وثبتنا على زواجهما <sup>(١)</sup> .

وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً كان أخوها على يريد أن يقتله يوم الفتح ، وأخبرت النبي بذلك ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت <sup>(٢)</sup> .  
وأجار النبي والمسلمون لزينب بنت الرسول زوجها ، وأطاقوه من إيساره <sup>(٣)</sup> .

### اشتراكها في حلف

سمت بالمرأة مكاتها إلى أن تشترك أحياناً في حلف الرجال ، تتعاند معهم على ما يتعاقدون عليه . وقد حدث ذلك من عهد قديم ، فإنه لما مات قصى ترأس ابنه عبد مناف ، وعظم أمره ، فجاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، فعقد بينه وبينهم حلف الأحابيش ، واشتركت فيه عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف ، وهي التي جرى على يديها حلف الأحابيش <sup>(٤)</sup> .

ثم اشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب في حلف المطيبين ، إذ أخرجت طيباً في جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف وأسد وزهرة وبنو تميم وبنو الحارث بن فهر ، فسموا المطيبين . وكان ذلك لما تحالف بنو عبد

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٩٠/٢ .

(٢) فتح الباري ١٩٦/٦ .

(٣) المغازي ١٢٦ وتاريخ الطبري ٢٩١/٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبي ١/٣٧٨ والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهنون بن خزيمية بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . تحالفوا جميعاً بواد يقال له الأحابيش ، وقيل يسمى حبشاً بأسفل مكة ، فسموا الأحابيش (سيرة ابن هشام ٣/١٩٥) .



الدار ضد عبد المطلب ، وآزر بنو سَهْم بنى عبد الدار (١) .

وإذا كان اشتراكها في هذين الحلفين منبعثاً عن عصبية لقومها ونصرة لآلها، فإنها قد اشتركت في حلف إنسانى عظيم ، الغرض منه نصر المظلوم وحماية المستضعف ، ذلك بأن قبائل من قريش تعاهدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دَخَلها إلا قاموا معه ، ونصروه على ظالمه ، وسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، وقد شهدته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن لى به خمر النعم ، ولو أَدْعَى به فى الإسلام لأجبت » ذلك هو حلف الفضول (٢) .

ونغار الاشتراك فى هذا الحلف متنازع بين عائكة بنت عبد المطلب وأختها أم حكيم البيضاء (٣) ، كما تنوزع فى الحلف السابق .

### إهانتها شهلاً حرباً

وإذا كانت القبيلة تتداعى كلها لنصرة من يعتدى عليه من أفرادها فتنشب حرب بين قبيلتين، فكثيراً ما نشبت حروب للعدوان على امرأة . من ذلك أن اليوم الثانى من أيام الفجار الأول كان سببه أن شاباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جانسة بسوق عكاظ وعليها فضلُ برقعها ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحدهم ، فأطاف بها شباب كنانة وقريش ، وسألوها أن تسفر فأبت . فجلس أحدهم خلفها ، وشد طرف رداءها بشوكة إلى فوق حُجْزتها ، فلما قامت انكشف درعها عن دُبُرِها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهك ، وجُدَّت لنا بالنظر إلى دُبُرِك . فنادت : يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ،

(١) تاريخ اليعقوبى ٢٨٨/١ وسيرة ابن هشام ١٤٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٤٤/١ . (٣) تاريخ اليعقوبى ١٦/٢ .

ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى  
بني عامر من مَثَلَة صاحبتهم<sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن الحرب قامت بين اليمانيين وبين ربيعة ومضر ، لأن لبيد  
ابن عَنبَسَة لطم زوجته التغلبية لطمه شديدة ، وحقر من شأن قومها<sup>(٢)</sup> .

### مطانتها العامة

بعد هذا التطواف مع المرأة العربية أمّا وزوجة وبنّتاً وأختاً وقريبة ، وبعد  
أن درست حقوقها المالية ، ومنزلتها العامة ، وبينت عمالها في الحرب واشترى كفا في  
النضال ، وبعد أن تحدثت عن أخلاق المرأة وتوليها الملك ، وتقدير العرب لها  
وإعزازهم إياها ، بعد هذا كله يحق لي أن أحكم في اطمئنان بأن المرأة العربية  
تبوّأت مكانة سامية في الحياة العربية ، في الأسرة وفي القبيلة .

ثم رأينا الاسلام يعز المرأة إعزازاً ، وينيلها نصيباً ثابتاً في الميراث لم يكن  
محدداً لها في الجاهلية .

ولا شك أن المرأة التي تبوّأت هذه المنزلة كانت خليفة بها ، وكانت جديرة  
بأن تنشىء أشبالاً شجعاناً أقوياء الأخلاق ، وجديرة بأن تلهم الشعراء الغزل ،  
وتبعث في الحاربيين البطولة والبسالة والإقدام ، وتوقد في نفوس ذويها الغيرة عليها  
والحماية لها من الضيم .

ولست أشيد بهذه المكانة متأثراً بتعصب أو محاباة ، فقد أشاد بها من  
لا ير بطهم بالعرب عرق ، يقول العلامة نيكسون : كانت مكانة المرأة العربية  
عالية ، ونفوذها عظيماً في العصر الجاهلي ، فقد كانت النساء حرات في اختيار  
أزواجهن ، وحرات في العودة إلى ذويهن إن أساء الأزواج معاملتهن ، وكن  
أحياناً يزوجن أنفسهن ، ولهن حق الطلاق . ولم تكن الزوجات محتقرات كأنهن

(٢) كتاب بكر وتغاب ١٥ - ٢٥ .

(١) الأغاني ١٩ / ٧٤ .

إماء أو سُرِّيَّات ، وإنما كن أندادا للرجال ورفيقات ، وكن يابهن الشعراء  
لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا<sup>(١)</sup> .

فايس بصحيح إذاً أن المرأة كانت في البيئة العربية حقيرة الشأن ، متاعاً  
للرجال فحسب ، وأن ماصوره بها الشعراء خيال<sup>(٢)</sup> .

### أثر هذه الملائكة في المرأة الأوروبية

بعد انتشار المسيحية كانت المرأة الأوروبية مزدراة ، حتى لقد كانت، النساء  
يعبرن أمهن إناث ، وكن معدودات باباً للجحيم ، وبلغت كراهيتهن والزراية  
بهن إلى أن زعم بعض الناس أن أجسامهن من صنع الشيطان - وإن وُسم هذا  
القول بالكفر - وكان التفكير في النساء خطراً ، وكانت المرأة نحساً ، حتى إن  
الشيطان طالما زار النساك في شكل أنثى . ونجم عن هذه العقيدة في النساء أن  
كثرت الرهبنة والزهادة وبناء الأديار<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن ليجوز للنساء أن يشتركن في عمل خارج دورهن . وكان الزواج  
منبعثاً عن المصاحبة والرغبة في النفع المادى وتوسيع الإقطاعية . وكان يتم أحياناً  
في سن الخامسة ، خلافاً لما قرره الكنيسة أن يكون الحد الأدنى اثنتى عشرة  
سنة ، وكان الطلاق شائعاً على تقيض ما تدعو إليه الكنيسة ، والنساء على  
العموم مملوكة للرجل<sup>(٤)</sup> .

ولقد قرر برنتيير Brunetier أن المرأة الأوروبية تدارت إلى حضيفض لم يتدل  
إليه غيرها في قوله : لم يحدث أن امرأة في أى زمان ومكان كانت تخنى رأسها ،  
وتخضع بضعف القوة والبطش والجبرت والساطان أكثر مما كانت تفعل المرأة

(١) A. Litirary History of the Arabs. PP. 81—89.

(٢) المرأة في العصور ٦٢ — ٦٤ أحمد خاكي .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mes Ray strachey

(٤) المرأة في العصور ١٢ .

من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى<sup>(١)</sup> .

٢ - لكن الغربيين - بعد الحروب الصليبية - تأثروا بتقاليد الفرسان ، فقدروا المرأة، ونشأت بينهم فكرة جديدة : أن مايفعله الرجال من أعمال عظيمة قد أوحى به النساء . فالفرسان خرجوا إلى المعارك مدفوعين بحب النساء وحده، وجالست النساء إلى جوار أطر التظليل يتأهمن على عودة أحبابهن . وكانت نظرة من عينين جميلتين أعظم جزاء على أى نصّب وعناء . ومن هنا حققت قصص العصور الوسطى وأشعارها بتقدير النساء ، فتبدل مركزهن حتى صرن يتقدمن على الرجال في المحافل ، ويقبل الرجال أيديهن بعد أن كانوا يضربونهن<sup>(٢)</sup> :

٣ - فمن أين جاء هذا التقدير للمرأة الأوروبية ؟

تذهب مسز راي استراتشى إلى أن تقدير المرأة الأوروبية جاءها من حياتها في الأديار ، ومن عبادة الناس للعدراء مريم ، لأن التكريم الذى نالته السيدة مريم كان له أثر عظيم في رفع شأن الأمومة<sup>(٣)</sup> .

١ - لكن في هذا التعليل مجافاة للحق ، لأن المرأة الغربية ظلت قرونًا عدة وهى مغبونة القيمة، مغبونة القدر، هابطة المكانة ، فلو أن المسيحية كانت الباعث على رفع شأنها ، أو لو أن تقديس العدراء مريم هو الذى بدل وضعها عزوة، لتحقق ذلك بعد المسيحية بقرن أو بضعة قرون .

ولكن هذا التقدير باعتراف مسز راي ستراتشى نفسها نجم بعد الحروب الصليبية ، فلماذا تأخر إلى هذا العهد لو أنه كان وليد المسيحية أو تقديس السيدة مريم ؟

ب - الحق أنه كان ثمرة للفروسية الغربية ، والفروسية الغربية صدى .

(٢) تاريخ العالم مجلد ١ ص ٣٩٨

(١) تراث الإسلام ١/١٦١ Gibb

(٣) المرجع السابق .

Mes Ray strachy

للفروسية العربية . يقول نيكلسون : « ولعل من الممكن تتبع فروسية العصور الوسطى ، وإرجاعها إلى بلاد العرب الجاعلية ، لأن الشهامة ومغامرة الفرسان ، وإيقاظ العذارى من السبي ، والمساعدة التي كانت تقدم في كل مكان للنساء المحتاجات، كل هذه صفات عربية ، وقد أطلق عليها في أوروبا كلمة شرف أو نبيل أو بطولة chivalry والصلة وثيقة بين هذه الأعمال المحمّدة وبين الفارس ذلك الرجل النبيل البطل الشريف Chivalrous<sup>(١)</sup> .

والمسيحيون قد خالطوا العرب والمسلمين زمناً طويلاً في الشام وخالطوهم أزماً طويلاً في إسبانيا وصقلية . وكان العرب في إسبانيا وصقلية كالعرب في الشام يتسمون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ، ويقدرّون المرأة ، ويرفقون بالمغبوبين « وهي الخلال التي اقتبسها منهم الأمم النصرانية بأوروبا ، فأثرت في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة . وللفروسية العربية تقاليدھا كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها »<sup>(٢)</sup> .

وفي تاريخ العرب بإسبانيا ما يثبت أنه حفل بمخصال الفروسية وتقدير النساء ، وأن المرأة العربية كانت عالية القدر في الغرب كما كانت في الشرق ، بل إن ترند Trend يرى أن النساء تتمتعن في ظل الأمويين بالأندلس بنصيب من الحرية وحظ من التقدير أعظم مما تتمتعن به في ظل العباسيين ببغداد<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن تقدير العرب للنساء حكرة على العربيات، بل كان تقديراً للأثونة مطلقاً ، ولقد يكون هذا التقدير في موقف ضحك تحم فيه المصلحة أن يتفاضى الرجل عن بعض ما يدين به من مثل عالية ، ولكن الرجل العربي غلب مثله العالية على مصاحته ومصاحبة قومه ذلك بأن والى قرطبة حاصر سنة ١١٣٩ م

(٢) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون

(١) Nicholsn P.P, 81—88

(٣) ترث الإسلام ١٢/١ J. B.Trend

مدينة طليعة ، وكانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير - وكانت بالمدينة - من باغته أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة . فارتد القائد العربي من فوره محيياً مكة<sup>(١)</sup> .

ج - ويطول بنا المقال لو حاولنا أن نفضله في فروسية العرب في الجاهلية وفيما بعدها ، وبحسبنا لمحّة دالة ، ونظرة عاجلة .

فالصناديد يفخرون بعد الغزل ببلادهم في الحرب ، ويوجهون الخطاب إلى المرأة يريدون أن يستميلوها وينالوا إعجابها . يقول عنتره :

سلى يا عبل قومك عن فعالى      ومن حضر الوقيعة و الطرادا  
وردت الحرب والأبطال حولى      تمز أكثها السمر الصعادا  
وخضت بمهجتى بحر المنايا      ونار الحرب تتمد اتقادا<sup>(٢)</sup>  
ويكرر هذا فى شعره<sup>(٣)</sup> . ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلوعلمت سائمتى علم مثلى      غداة الروع واصلت الكراما<sup>(٤)</sup>  
وإذا ما عاد من حربته تشوق إلى إعجاب زوجته به وسؤالها الأبطال عن إقدامة علم ، حتى ليطلقها إن لم تسأل لتعرف شجاعة زوجها :

طلقت إن لم تسألنى أى فارس      حايك إذ لاقى صداء وخمما  
أكره عليهم دعابجا ولبانه      إذا ما اشتكى وقع الرماح تخمما<sup>(٥)</sup>  
وله كثير مثل هذا<sup>(٦)</sup> .

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبى باعثاً أى باعث على بطولة

(١) حضارة العرب ٣٤٤ جسا:فلوبون.

(٢) ديوان عنتره ٥٧ (٣) ديوان عنتره ٥٣ و ٥٦ و ١٥٠ .

(٤) ديوان عامر القصيدة ٢ (٥) ديوان عامر اللحق ١٩

(٦) الديوان ماجق ٢٢ والقصيدة ٣ .

تجلب النصر، فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيته ليس تجرى كاشفة عن  
محاسنها لهما وذعراً، ونساء قومه يجزين، فهجم على رئيس الأعداء فقتله، وكسب  
النصر، وصور ذلك في قوله :

مَا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا      يَفْحَصْنَ بِالْمُعْزَاءِ شَدًّا  
وَبَدَتْ لَيْسُ كَأَنهَا      بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى  
وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا الَّتِي      تُخْفِي وَكَانَ الْأَمْرُ جَدَا  
نَازَلَتْ كَبَشَهُمْ وَلَمْ      أَرْمَنْ نَزَالَ الْكَبْشَ بُدَا<sup>(١)</sup>

وقد يستبسل الحارثيون، لأن وراءهم طعائن يحسنهم، وينفر عنهم من الهزيمة،  
وهم أضناء بهن أن يسبين، يقول عمرو بن كثوم:

عَلَى آثَارِنَا بِيضُ حَسَانٍ      نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا  
أَخَذْنَا عَلَى بَعُولَتَيْنِ عَهْدَا      إِذَا لَاقُونَا فَوَارِسَ مُعَلِّمِينَا  
لَيْسَ لَيْسَ أَبْدَانًا وَبِيضًا      وَأَسْرَى فِي الْحُرُوبِ مَقَرَّيْنَا  
يَقْتَنُ حِيَادَنَا وَيَقَانُ لِسْتِمَ      بَعُولَتِنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا  
إِذْ لَمْ نَحْمَهُنَّ فَلَا يَقِينَا      لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حِينَا  
وَمَا مَنَعَ الظُّوَاعِنَ مِثْلُ ضَرْبِ      تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْبُرَيْتَا<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما أشهدتها الرجل على كرمه وشجاعته، كقول عروة بن الورد:

وَقَدْ عَلِمْتَ سَائِمِي أَنْ رَأَيْتُ      وَرَأَيْتُ الْبَخْلَ مُخْتَلِفَ شَتِيَّتِ  
وَأَنْى لَا يَرِينِي الْبَخْلَ رَأَيْتُ      سَوَاءَ إِنْ عَطَشْتَ وَإِنْ رَوَيْتُ

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام شرح التبريزي ١/٩٢ المعزاء: الأرض الصلبة. يفحصن: يؤثرن من شدة الجرى. ليس: اسم حبيته.

(٢) شرح المعانيات السبع لابن الأنباري مخطوط ٧٦ والتبريزي ٢٤٧ الأبدان: الدروع. البرين: جمع برة وهي حاققة في أنف البعير. ورواية التبريزي (كالفلين) جمع قلة وهي الحشبة التي يامب بها الصبيان يضربونها بالقلل.

وأنى حين تستجر العـوالى حوالى اللب ذورأى زميت<sup>(١)</sup>  
ولهذه الفروسية مظاهر أخر ، كنجدة المستغيث ونصرة المستنصف ،  
والحذب على الأرامل واليتامى .

وحسبنا للدلالة على نصرة المستغيث قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع<sup>(٢)</sup> كان الصراخ له قرع الظنايب<sup>(٣)</sup>  
وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك إنه كان نصير الضعيف المغلوب :  
ويوماً إذا كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لاتكن أنت أضيماً<sup>(٤)</sup>  
ومن العطف على المرأة المحتاجة إلى رعاية قول أوس بن حجر فى رثاء فضالة  
ابن كلفة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لأشعت ذى هدمين طملا<sup>(٥)</sup>  
وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

وللشرب فابكى مالكا وأبهما شديد نواحيه على من تشجعا  
وأرملة تمشى بأشعث محمل<sup>(٦)</sup> كفرخ الحبارى رأسه قد تـضوعا<sup>(٧)</sup>  
وقول بنت وثيمة فى رثاء أبها وثيمة بن عثمان إنه ملجأ الأرامل واليتامى :  
ألقىته مأوى الأرملة والمدفعة اليتيمة<sup>(٨)</sup>

والأمثلة شتى على حماية العرب للمستجير ، وفكهم الأسير ، ونصرهم للمهضوم .  
وقد بسطت المقال فى موضع آخر<sup>(٩)</sup> فى افتتاحهم القصائد بذكرها ، وفى

(١) ديوان عروة . زميت : وقور .

(٢) سمط اللآلى ٤٧/١ : الظنايب : جمع ظنوب وهو مسمار فى جبة السنان .

(٣) المفضليات ٦٥/٢ : الخصم : كظك : قهرك وغلبك .

(٤) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ أشعث : مفر . هدم : بال .

طملا : فقير . (٥) المفضليات ٦٦/٢ محمل : سبيء المال والغذاء . الحبارى : ضرب  
من الطير . تضوع : تفرق شعره .

(٦) البيان والتبيين ١٦١/١ (٧) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٥٧ - ٢٧٣ .

(٨) (٣٥ - المرأة فى الشعر الجاهلى)



أفانين غزلهم بها ، وتنافسهم لنيل إعجابها .  
وهذه كلها هي الأسس التي قامت عليها الفروسية في الإسلام وفي أوروبا في  
العصور الوسطى ،

د - وليست هذه الفروسية الغربية ذات المثل السامية وما تقتضى من احترام  
المرأة إلا أثراً للعرب وللإسلام لا للنصرانية . فالإسلام هو الذى رفع المرأة  
الأوربية من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، لا النصرانية . فإذا نظرت إلى  
أمراء النصارى الإقطاعيين فى القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من التقدير  
للنساء ، ووجدت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً فى معاملة النساء ، قبل أن  
يتعلم النصارى من العرب معاملتهن بالحسنى <sup>(١)</sup> .

ونجد أن الشعر فى أوروبا اقترن بالفروسية كما كان عند العرب ، بل أصبح  
شروطاً من شروطها ، وصار لزاماً على الفرسان أن يقرضوه كباراً وصغاراً ، ومن  
لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ليتفنى بحبه ويفصح عن لوايح قلبه أنشد شعر  
سواه <sup>(٢)</sup> . وعد الفارس من واجبه حماية المرأة والأرملة واليتيم والضعيف من  
الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث <sup>(٣)</sup> .

وكثير من العلماء الغربيين يصلون الفروسية الأوربية بالفروسية العربية  
والإسلامية ، يقول فلوريان : « المسلمون أرق الناس حباً ، وأكثرهم خشوعاً ، وأشدهم  
عاطفة ، وإذا أحب أحدهم امرأة - وإن حجبها حتى تصير أسيرة بيته - أصبحت  
حاً كما مطلق السيادة ، وملكت قلبه . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ،  
ولكى يسطعوا فى عيونهن سعوا فى سبيل الثراء ، حتى يقدموا لهن أغلى ما يملكون .

(١) حضارة العرب ٤٨٨ جستاف لوبون والفتوة عند العرب عمر الدسوق ٢٧٢ عن :  
Florian; dans son précis Historiqu. sur le Mauers Floian, dans  
son précis Historique rus le Mauers.

(٢) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Fauaiel, op cit t I p 529

(٣) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Mémoires sur l'ancienne chevalerie

من مال وحياء<sup>(١)</sup> . « ويقول بارثلمى سانت هيلير : « أما الفرسان فقد تعلموا المشاعر الرقيقة وأجل الفضائل الإنسانية من العرب . ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق<sup>(٢)</sup> .

ويذهب Gibb إلى أن الشعر البروفانسى حافل بعشق غنى بالصور الجميلة ، وإلى أن هذا الضرب من الحب أو التقديس للمرأة لم يكن نتيجة لتقاليد العصور الوسطى ، ولم يكن صدقاً للأدب اليونانى أو اللاتينى ، وإنما قام على تقاليد أدبية راسخة صادرة من شعر العرب فى إسبانيا ، لأن الأدب العربى كان فى كل عصوره يستمد من ينبوع حب الرجل للمرأة<sup>(٣)</sup> .

وآخر شهادة أعزز بها أن الفروسية الغربية وليدة العربية قول الأديب الإسبانى الوطنى الغيور بلاسكوا أبانيز الذى توفى منذ بضع سنوات : إن أوربة لم تكن تعرف الفروسية ، ولا تدين بأدائها المرعية ، ولا نخوتها الحماسية قبل أن يفد العرب إلى الأندلس ، وينتشر فرسانهم وأبطالهم فى أقطار الجنوب . وهذه الفروسية التى ظهرت بين عرب الأندلس قد تبناها فيما بعد رجال الشمال ، كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية<sup>(٤)</sup> .

٤ - وبعد ، فلقد جانبت مسز رى سراتشى الصواب حين زعمت أن الإسلام كان ذا تأثير مضاعف فى التدلى بالمرأة ، وتثبيطها عن النهوض ، لأنه قرر أن النساء لانهوس لهن ، وأنهن أدوات للاستمتاع لحسب<sup>(٥)</sup> .

وليست هذه الدعوى فى حاجة إلى تنفيذ بعد ما تقدم من نصره الإسلام

(١) الفتوة عند العرب ٢٠٥ .

(٢) الفتوة عند العرب ٢٧٧ عن Barthelemy saint—Hilair, et le coarn

(٣) تراث الإسلام ١/١٦٠ - ١٦٨ .

(٤) أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ٦٨ و ١١٤ العقاد .

(٥) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٤ Mrs Ray strachey

للرأة ، ومن شهادة الغربيين المصنفين بذلك .

وكأنما نسيت الكاتبة أن عليية من رجال روما اجتمعوا في القرن السابع عشر ، وتناقشوا طويلا في أن للمرأة روحاً أم لا روح لها <sup>(١)</sup> ، وأن امرأة بيعت بشانين في أسواق لندن سنة ١٧٩٠ م لأن نفقات معيشتها زادت على الكنيسة التي تؤويها ، وأن القانون الإنجليزي ظل إلى سنة ١٨٥٩ لا يعدها من المواطنين <sup>(٢)</sup> .

ونسيت أنها هي نفسها التي قالت : لقد كتب بلا كستون Blachstone في شروحه المشهورة على قوانين إنجلترا في سنة ١٧٦٥ م يقول : « أن القيود التي ترزح تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها » والحق أن القانون قد حرّمها كل حق مدني تقريباً ، وحال بينها وبين التعليم وكل شيء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ، ونزلت عن ثروتها كلها عند الزواج ، ونستطيع أن نقرر أن مركز النساء منذ أواخر القرون الوسطى إلى آخر القرن التاسع عشر لم ينتج خيراً <sup>(٣)</sup> .

ونسيت أيضاً أنها هي القائلة : إن النساء كن يعين أمنهن إناث ، وكن معدودات بابا للجهيم ، حتى قيل : إن أجسامهن من عمل الشيطان ، وإن الشيطان طالما زار النساء في شكل أنثى ، لذلك كثرت الرهبنة والزهد وبناء الأديار ، وكان هذا كله بعد النصرانية وانتشارها <sup>(٤)</sup> .

وإذا كانت الأحوال قد دالت ، فتقهقرت المرأة العربية ، ونسى العرب أو تناسوا خلال الفروسية ، بينما أغذت المرأة الغربية سيرها ، ثم جعلت المرأة

(١) دائرة المعارف . مادة المرأة . فريد وجدى .

(٢) المرأة ومركزها الاجتماعي ٤٣ : محمد البنداري .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرجع السابق .

العربية تتطلع إلى أختها الغربية وتحاكيها ، فإنها بذلك تسترد ديناً لها ، وتنتسى بعد أن كانت أسوة .

## موازنة المرأة العربية بغيرها

أستطيع - بعد أن جَلَوْتُ الصورة الصحيحة للمرأة العربية ، وبينت منزلتها في الحياة السياسية والاجتماعية في الأسرة وفي القبيلة ، وبعد أن وازنتها بالنسوة المعاصرات لها - أن أعرض مكاتبا العامة بالنسبة لغيرها من النساء .

### ١ - بين المرأة العربية والعبرية :

قلت إن اليهود اصطبغوا بصبغة عربية في جزيرة العرب فكانوا عرباً في عاداتهم ونظمهم ولغتهم .

لذلك نجد تشابهاً بين بعض أحوال المرأة العربية والمرأة اليهودية ، فمثل منهنما تسبي ، وتباع ، وتورث أو يورث نكاحها ، ولا ترث ، وإن كانت العبرية قد ورثت في عصر متأخر في حالات خاصة ، وورثت العربية أحياناً نصيباً غير مقدر .

وتتشابهان أيضاً في أن كلا منهما نسب إليها بنوها أحياناً ، وفي حرمة بعض النساء على بعض الرجال ، وفي إباحة زواج المتعة .

لكن المرأة العربية تمتاز بأنها خُوِّلت حق الطلاق كالرجل ، وخولت أن تطالب بالتطابق ، وأن تحتلع . وقلما باعها أبوها بيع الرقيق كما كانت تباع العبرية ، ولم يتزوج عربي أخته كما فعل العبرانيون .

ثم إن العرب لم ينظروا إلى المرأة على أنها شر ووباء كما نظر العبرانيون ، بل إنهم أحبوها ومجدوها وتقربوا إليها وصانوها .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بمشاركتها في الحياة العامة مشاركة عظيمة القيمة ، في تولي الملك ، وفي قيادة الجيوش ، وفي أنها تجير ، وتشترك في حلف .

### ٢ — بين المرأة العربية والمسيحية :

لا شك أن المرأة العربية كانت أعظم قدرا من المسيحية ، فإن العرب لم يهبطوا بالنساء إلى تجريدن من الروح والبشرية ، ولم يصفوهن بأنهن رجس . وإذا كانت المسيحيات قد أبلين بلاء حسناً في نشر المسيحية فقد أيلت العربيات بلاء حسناً في الدفاع عن الوثنية أولاً ، وفي الدفاع عن الإسلام ثانياً .

على أن المرأة المسيحية سعدت بما حرّمته العربية ، في أنها لاتضار بالضرائر ولا بالطلاق ولا بالتسرى ، وإن كان كل من هذه الثلاث سلاحاً ذا حدين ، فقد ينتفع به الرجل ، وقد تستفيد به المرأة ، وربما لا يكون منه بدّ في بيئة بدوية محاربة تخشى العار ، وتحرض على عفة النساء وكثرة النسل .

### ٣ — بين المرأة العربية والفارسية :

تمتعت المرأة العربية بالملك كما تمتعت الفارسية ، وكان تعدد الزوجات والتسرى شائعاً هنا وهناك .

وكان الحجاب عند الفرس أشد منه عند العرب ، ثم كانت العربية مصونة ومحاطة بسياج منيع من غيرة الرجل عليها ، فلم يعرف العرب نظام الشيوع في النساء كما عرفه الفرس في عهد من عهودهم .

ثم إن العرب كانوا لا يخلون البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ، كما كان يفعل الفرس .

ولا أشك في أن العرب الذين تمجسوا لم يرتضوا زواج الأمهات والبنات والأخوات ، بل نفروا منه ، وأنفضوا رءوسهم له ، ولكن هذا لا ينفى أن قلة منهم شذت عن العرف العربي في نظام الزواج . يدل على ذلك هجاء أوس ابن حجر لبعض العرب بقوله :

والفارسية فيهم غير مُسَكَّرَةٌ فكلمهم لأبيه ضَيِّزَنٌ سَأَفٌ<sup>(١)</sup>  
وقول التماس في هجاء عمرو بن هند :

ملكٌ بلاعب أمه وقَطِيَّهَا رِجْوُ المفاصل . . . كلمبرد<sup>(٢)</sup>

وذكر بعض المؤرخين أن حاجب بن زُرارة تزوج بنته دُخْتَنُوسَ ، ثم  
ندم<sup>(٣)</sup> . وقيل إن لقيط بن زرارَةَ هو الذي تزوج بنته دختنوس ، وسماها بهذا  
الاسم الفارسي ، فلما قتل في يوم شَعْبِ جبلة وهي في عصمته قال :

يأليت شعري عنك دختنوس إذا أتاها الخبير المَرْمُوسُ

أتحلق الرأس أم تَمِيسُ لابل تَمِيسُ إنها عروس<sup>(٤)</sup>

على أن بعض المؤرخين يتفق مع ابن قتيبة في أنها بنت لقيط ، ولكنها  
كانت زوجة لابن عمها عمرو بن عمرو بن عدس<sup>(٥)</sup> ، ثم تزوجها بعده معبد بن  
زرارة<sup>(٦)</sup> أو عمير بن معبد بن زرارَةَ<sup>(٧)</sup> ، ولم يُشْرَ واحد من هؤلاء إلى زواجها  
بأبيها .

وتشابه الفارسية والعربية في بغضة الآباء للبنات ، وتفضيائهم المذكور عابدين .

#### ٤ - - بين المرأة العربية والرومانية واليونانية

إذا ما قايسنا المرأة العربية بهاتين وجدناها أعلى مكانة ، لأن العرب لم ينظروا  
إليها نظرة المهانة ، ووجدناها تشارك في الحياة الأسرية والحياة العامة بقدر عظيم ،  
ولها حق الملك والتصرف فيما تملك .

(١) ديوان أوس ٣ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/٥٢١ .

(٢) ديوان التلمس ٦ مخطوط . (٣) المعارف ٢٠٥ والأعلاق النفيسة

٢١٧/٧ والمغرب للجواليقي ١٤٢ شرح شاكر وكتاب الزينة لأبي حاتم الزاري ٦٠ مخطوط

(٤) الكامل لابن الأثير ١/٢١٣ (٥) الأغاني ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧

(٦) مجمع الأمثال الميداني ٢/١٣ (٧) الشعر والشعراء ٢٧١ وتاج

العروس ٤/١٤٧ .

ثم إن العرب لم يعتبروها وعاء للنسل فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها مخلوق منحط ، ولم يقتلوا الأم إن ولدت ولداً ضعيفاً .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بأنها كانت صاحبة حق في أن تطلق زوجها ، وأن تحتلع منه لتفارقه ، وأن تطلب الطلاق بدون خلع ، وبأنها لم تكن مشاعة بين الرجال هذا الشيوخ الذي جرى عليه الإغريق والرومان في بعض نظمهم ، ولم يستحل العرب نكاح الأخت لأب كما استحله الإغريق .

والعربية على العموم أسمى في الأسرة وفي المجتمع منزلة ، ولها قسط عظيم من المساهمة في الشؤون العامة .

على أن ثمة بعض التشابه ، فبعض العرب كانوا يثدون البنات ، والإغريق كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث ، وقليل من العرب كانوا يبيحون لنسائهم الاستبضاع كما أباحه الإغريق والرومان ، وكثير من العربيات كن يفرن ، كما كانت تسفر المرأة في إسبرطة وأثينا ، وإن كان سبب السفور عند العربية مغايراً لسببه عند الإغريقية . والعرب والإغريق كانوا يعددون الزوجات ، ويحرمون المرأة أن ترث ، وينسبون أحياناً إلى الأم .

#### ٥ — بين المرأة العربية والمصرية

تشابه العربية والمصرية في سمو المكانة ، فكل منهما استوت على عرش الملك ، وكتابهما جليلة الشأن في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة ، وإذا كانت المرأة المصرية قد حظيت عند بعاها فإن العربية أيضاً كانت ذات نفوذ عظيم ، حتى لقد نسب إليها زوجها أحياناً .

على أن كليهما تملك المال ، وتصرفت فيه مستقلة عن الرجل ، وإذا كان الحكم اليوناني لمصر قد سلب المرأة المصرية هذا الحق فإن العربية لم تُسلبه . وكان تعدد الزوجات والتسرى هنا وهناك .

ولكن المصرية امتازت من العربية بأنها ورثت وحدها أحياناً ، وورثت بالرجل أحياناً أخرى .

والعربية امتازت بأن نكاح الأم والأخت كان محرماً عند العرب .

### دلالة هذه الملاحظة على رقي العرب

كان العرب في العصر الجاهلي يعرجون إلى الرقي ، فقد أقر الإسلام كثيراً من نظمهم في الزواج والطلاق ، وفي معاملة السبايا ، وفي الحجاب والأخلاق ، وحق النساء في الامتلاك والتصرف فيما يمتلكن . وليس أدل على رقيهم من أنهم أو فضوا سراعاً إلى زعامة العالم بعد الإسلام . ولم يكن من الطبيعي أن يخلفهم الإسلام خالقاً جديداً في بضعة أعوام ، وأن يسن آداباً وأخلاقاً وعادات ومعاملات تناقض طباعهم الأصيلة ، وتغاير نفوسهم ، ثم يدينون بها وتشربها قلوبهم حتى ليجدون في نشرها ، ويطيرون بها طيراناً في الآفاق ، ليس من الطبيعي أن يحدث ذلك إن لم يكونوا مستعدين لتلقى هذا الجديد وتقبله وتنفيذ تعاليمه بقنوب واعية ، وعزائم ماضية ، ونفوس طماحة ، لأن حضارة الأمة لا تولد فجأة ، ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيد . كغليل بالتبدل والتطور والانتقال ، كالشجرة تبدأ بذرة في تربة ملائمة وبيئة موافقة ، ثم تتدرج في نموها حيناً بعد حين .

على أنا نعلم أن العرب تسابقوا إلى اقتباس حضارة الأمم في الإسلام ، وهم بهذا الاقتباس السريع أثبتوا أنهم ذوو قرائح مستعدة للرقي والانتفاع بما هو خير ، وهذه الصفات لا تكون ثمرة لوراثة سابقة ، وثقافة قديمة ، فهم على النقيض من البرابرة الذين قوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، وظلوا قرونًا كثيرة لا يستطيعون أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية ، ويخرجوا من



ظلمات القرون الوسطى (١) .

ومن عجب أن يشيد بعض الأجانب المؤرخين الأقدمين ومن المحدثين بحضارة العرب ، ونفقل عن هذه الإشادة ، ونزوح نزميهم بالهمجية والوحشية ، متأثرين بحملات شعوبية قديمة ، وتعصب استعماري ظالم .

لقد وصف هيروودوت بلاد اليمين وصفاً دالاً على حضارتها ، وتابعه سترابون .  
ولقد كان عرب الحيرة والشام على صلة بالفرس والروم وبحضارتهم .  
على أن العرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ،  
وحضارة اليمين أقدم من حضارة الرومان .

ولسنا نغالى في قولنا إن العرب في شبه الجزيرة ولا سيما في الجنوب أسهموا في تشييد الحضارة الإنسانية ، بل إنه لا يمكن إنكار ذلك ، فقد كانت شبه الجزيرة قبل الإسلام بألنى عام ذات مكانة عظيمة في العالم القديم ، ثم زادها الإسلام عزة ، حتى حمل العرب مشاعل النور إلى أوروبا والجهل يتفشى في ربوعها (٢) .

وإذا فما بُدَّ من تصحيح النظرة إلى عرب الجاهلية ، فقد استبان لى من هذا الكتاب ومن كتاب ( الحياة العربية من الشعر الجاهلى ) ومن كتاب ( الغزل في العصر الجاهلى ) أن العرب ظلموا بالحكم عليهم بالهمجية .

وإذ كان قد اتضح لى أنهم على قسط عظيم من الحضارة فيما يتصل بالمرأة في الأسرة والقبيلة والحياة العامة ، فإننى أتوقع أن تكشف دراسات أخرى عن ألوان من الرقى طمست معالمها مع الزمن .

(١) حضارة العرب ١١١ جنتاف لوبون . (٢) حضارة العرب ١٢١ و  
The Bach Ground of Islam, P. 17, philly

## الباب الثالث

### المرأة في الحياة الفنية

أتحدث في هذه الفصول عن المرأة في الحياة الفنية ، مغنية ، وراوية للشعر ، وناقدة ، وشاعرة . وفي هذه الدائرة ناحية عظيمة القيمة كان المنتظر أن أفرد لها فصلا حافلا ، أقصد المرأة الحبيبة أو المرأة الملهمة للغزل ، لكنني لم أفعل ؛ لأنني خصصت المرأة الملهمة للغزل بكتاب ( الغزل في العصر الجاهلي )

#### الفصل الأول

### المرأة المغنية

الغناء في الجاهلية :

أولع العرب بالغناء أيما ولوع ، فكان العربي يتغنى وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلة تمشي به متئدة أو مرقلة ، وهو يهتز على ظهرها هزات تبطيء وتسرع ، وتطول وتقصُر . وكان يتغنى وهو يهجم في الحرب فيجري أو يثب ، ويتغنى وهو يمتح الماء من البئر فيعلو جسمه أو ينخفض ، ويتغنى وهو يرقص ، ويتغنى وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوّزه التسلية ، تنزل به النازلة فيروّح عن نفسه بالغناء ، وتبسم له الحياة فيصور حبه في غناء . فالغناء حذاء الركب ، وشدو الفرد ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمخروب .

## عرف الشعر بالغناء :

وقد ارتبط الشعر بالغناء في النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ، ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هي بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى أساس فيهما معاً ، ففي الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان .

لذلك لا نعرف شعباً غنى بالثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأحلى ، وأكث طواعية للتغيم والترنيم .

وظاهر هذا الارتباط كثيره في الأدب العربي القديم وفي غيره من الآداب .  
١ — فقد كان شعراء العصر الجاهلي يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، وهم يعبرون عن الإنشاد أحياناً بالغناء ، لأن الإنشاد ضرب منه ، كما روى أن المهلب شرب خمرأً وتغنى قصيدته الق مطاعها :

طَفَلَةٌ مَا ابْنَةُ الْمَجَلِّ بِيضًا      ء لعوب لذيذة في العناق<sup>(١)</sup>  
والسُّلَيْكُ بْنُ السَّلَكَةِ غَنَى بِقَوْلِهِ :

يا صاحبيّ ألا لا حتىّ بالوادي      سوى عبيد وآمٍ بين أذواد  
أتظنران قريباً ريثّ غفلتّهم      أم تغدوان فإنّ الرّيح للغادي<sup>(٢)</sup>  
والأعشى كان يغنى في شعره ، وكانت العرب تسميه صنّاجة العرب<sup>(٣)</sup> .  
ومُزَرَّدُ بْنُ ضَرَّارٍ أَوْ أَخُوهُ جَزءٌ يَقُولُ فِي تَهْدِيدِ أَعْدَائِهِ بِهَجَاءٍ مَمضٍ إِنَّهُ سِيرْمِيهِمْ  
بَاهَا جَمْرَةٌ يَتَغَنَّى بِهَا السَّارِيُّ ، وَيُحَدِّثُ بِهَا الْحَادِيّ :  
زَعِيمٌ لِمَنْ قَاذَفْتُهُ بِأَوَابِدٍ      يَغْنَى بِهَا السَّارِيُّ وَتُحَدِّثُ الرُّوَاهِلُ<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني ٥/٥١ . (٢) الأغاني ١٨/١٣٤ . (٣) الأغاني ٩/١٠٩ .

(٤) المفضيات ١/٩٨ أوأبد : غرائب القول يريد الأماجي المرة

وامرؤ القيس كان يغنى بشعره ، يدل على ذلك قول أبي النجم لقنيتها أن  
تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا ببعض الذي غنى امرؤ القيس أو عمرو<sup>(١)</sup>  
وحسان بن ثابت يقرن الشعر بالغناء :

تغنّ بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار<sup>(٢)</sup>  
وقد عبروا عن الشعر بالغناء ، من ذلك أن عمر بن الخطاب قال للنايفة  
الجمعدى : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك فأسمعه كلمة له ، فقال له :  
وانك لقائناها ؟ قال : نعم . قال عمر : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب<sup>(٣)</sup> .  
وكانت النساء يتغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، كقول منقوسة بنت  
زيد الخليل في ترقيص ولدها .

أشبهه أختي أو أشبهن أباكا أما أبي فلن تنال ذاكا  
تَقْصُرُ عن مثاله يداكا<sup>(٤)</sup>

وكن يبكين موتاهن بغناء حزين هو النواح ، كما ناحت الخنساء على أخويها ،  
وهند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها<sup>(٥)</sup> ، وكن يغنين في المعارك ليشجعن  
الرجال على القتال كما سبق في الحرب .

وظل لفظ الإنشاد إلى ما بعد العصر الجاهلي دالا على إلقاء الشعر ، وإن لم  
يصاحبه غناء ، كما في شعر ذى الرمة<sup>(٦)</sup> والمتنبي<sup>(٧)</sup> .

وظالما غنى الرجال بشعر حماسي وهم يحاربون ، كما فعل عمير بن الحمام إذ سمع

(١) الشعر والشعراء ٤٢ . (٢) الموشح ٢٩ والعمدة ٢٤١/٣ وفي أساس

البلاغة (إما كنت ذا بصر) ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح لأن المضمار هو الموضع الذي

تضم فيه الخيل (٣) العند الفريد ٩٠/٤ .

(٤) لسان العرب مادة وكال والأغاني للأطفال عند العرب ٥٥ . (٥) الأغاني ١٣/١٢٩

(٦) العمدة ٢٤١/٢ . (٧) ديوان المتنبي ١٩٣/١ شرح البرقوقى .

النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين في بدر ، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقي وعمل المعاد  
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النقاد  
غير التقي والبر والرشاد<sup>(١)</sup>

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مرَّ عليها — وهي في حصن بني حارثة يوم الخندق ومعها أم سعد — وهو يسرع إلى الحرب ويقول :

كَبْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا جَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ<sup>(٢)</sup>

وفي غزوة خيبر خرج مرَّحِبَ اليهودى من حصن لليهود ، وقد جمع سلاحه وارْتَجَزَ بقوله :

قد علمت خيبر أنى مرَّحِبُ شاكى السلاح بطل مجرَّبُ  
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرَّبُ

.....

وكان يقول من يبارز؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قد علمت خيبر أنى كعب وأننى متى تُسَبُّ الحرب  
ماض على الهول جرى، صلب معى حسام كالعقيق غضب<sup>(٣)</sup>

.....

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى وجماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن عائشة أنه لما قدم رسول الله المدينة تغنت النساء والصبيان بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١ . (٢) تاريخ الطبرى ٣/٤٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازى ٣٩٠ .

وجب الشكر علينا مادعنا الله داع  
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع<sup>(١)</sup>

وفي حفر الخندق رأى النبي ما بالصحابة من تعب وجوع ، فقال متمثلاً  
بقول ابن رواحة :

لا مُمْ لآعِشْ لآعِشْ لآآخِرَهْ فآرْحَمِ الْآنْصَارِ وَالْمَهَاجِرَهْ  
وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَجِيبُونَهُ بِقَوْلِهِمْ :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا  
ورى أنه صلى الله عليه وسلم تمثل يشعر آخر أيضاً<sup>(٢)</sup> ، وأن الصحابة  
ارتجزوا برجل من الأنصار اسمه جَعَيْلٌ وسماه الرسول عمراً فقالوا :

سَمَاءُ مِنْ بَعْدِ جَعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبَأْسِ يَوْمًا ظَهْرًا  
فَإِذَا مَرُوا بِكَلِمَةِ عَمْرٍو قَالَ الرَّسُولُ «عَمْرًا» وَإِذَا نَطَقُوا كَلِمَةَ ظَهْرٍ قَالَ الرَّسُولُ  
«ظَهْرًا»<sup>(٣)</sup> .

٢ — ولم يكن الشعر العربي وحده هو الوثيق الصلة بالفناء ، فقد كان الشعر  
اليوناني كذلك ، فأطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى الغنى وكان  
هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية ، ولم يكن الفناء بالشعر عند اليونان  
محصوراً فى نوع معين منه ، فقد تغنوا فى مذاجاة الآلهة ، وفى مدح الملوك ، وفى  
إلقاء القصص ، وفى الشعر التمثيلى الذى كان حواراً وأناشيد غنائية « على أن  
الشعر الغنائى استمد هذه التسمية من نسبه إلى كلمة Lyre ، وهى آلة موسيقية  
قديمة ، فسمى Lyric poetry أى الشعر الغنائى<sup>(٤)</sup> .

(١) السيرة الحلبية ٢/٥٨ .

(٢) السيرة الحلبية ٢/٣٣٢ . (٣) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٢ .

(٤) أصول النقد الأدبى ٣١٨ أحمد الشايب .

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائي مرتبط بأشد الارتباط بالموسيقى<sup>(١)</sup> .  
ومنذ عهد قديم أطلق الإنجليز كلمة Bard على الشاعر المعنى الذى كان  
يتغنى أمام المحاربين ويعزف على آلة موسيقية<sup>(٢)</sup> .

ثم ظهرت طائفة التروبادور Troubadour فى القرن الحادى عشر إلى  
الثالث عشر فى شرق إسبانيا وشمالي إيطاليا وجنوبى فرنسا ، وكانوا يتنقلون من  
قصر إلى قصر ينشدون شعرهم ، ويوقعون على آلات موسيقية معهم<sup>(٣)</sup> .

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر ظهرت جماعة المنسجر Minnesingers  
فى ألمانيا ، ينشدون الشعر ويتغنونه على أداة موسيقية<sup>(٤)</sup> .

### أنواع الغناء عند العرب

تغنى العرب بشعرهم كما سبق ، فرادى وجماعات ، رجالاً ونساء ، وهذا  
هو الترنيم .

ثم تنوع الغناء إلى ثلاثة أخان : نصب وسناد وهزج . أما النصب فغناء  
الركبان والقيان ، وأما السناد فالثقل والترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج  
فالخفيف كله الذى يابى وينشط على السير ، وهو الذى يثير القلوب ويهيج  
الحلم<sup>(٥)</sup> . وإنما كان أصل الغناء ومعدنه فى أميات القرى من بلاد العرب ظاهراً  
فاشياً ، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه  
القرى مجامع أسواق العرب<sup>(٦)</sup> .

(١) قواعد النقد الأدبى ٧٠ لاسيل كرومى .

(٢) The great Encyclopeda of Universal Knowledge

(٣) المرجع السابق و Twentieth century dictionary. and dictionnaire

Larrouse

(٤) Twentieth century dictionary

(٥) كتاب الملاحى لضى ٤٤ : مخطوط و المقدم القريد ١٨٦/٣ .

(٦) العقد القريد ١٨٦/٣ .

## غناء الإماء

### النساء ألبون بالغناء

كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن في الغالب أندى صوتاً، وأحلى ترجيعاً، وأرق نغماً، ولأن لجهن وأنوثتهن أثراً في الطرب لهن . وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب في الشعر الغزل من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شب الرجال ، ومن أجاهن تكلفوا القول في التشبيب »<sup>(١)</sup> ، ثم قال : « وم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فإني أتمنى أحسن وأملح وأشهى : أن تغنيك فحل ملتف اللحية ، كثر العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مفضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينه ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة »<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الجاحظ قد وازن بين الجارية الحسناء والرجل القبيح ليخلص إلى أننا نؤثر سماع الجارية ونفر من سماع الرجل ، فإن الجواب واحد إذا وازنا بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وقد حدث ثمامة بن أشرس فقال : كنت عند المأمون يوماً ، فاستأذن المغني عمير ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال المأمون : ما بك يا ثمامة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إذا غنى عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى جدلى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك عادة كأنها غصن بان ترنو بمقاة وستان ، كأنما خاقت من ياقوتة ، أو قرطت من فضة

(١) رسالة العشق والنساء لجاحظ ١٦٥ (٢) رسالة العشق والنساء لجاحظ ١٦٤

(٣٦ - المرأة في الشعر الجاهلي)



روبين أن يفنيك رجل كثر اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف؟ فتبسم المأمون  
وقال: الفرق بينهما واضح. يا غلام لا تأذن له. وأمر بأن تحضر أطيّب  
قيناته<sup>(١)</sup>.

### القيان محترفات بالفناء:

هل كان في العصر الجاهلي مغنيات محترفات؟ نعم، كانت هنالك مغنيات  
يحترفن بالفناء، ويشتهرن به هن القيان.

والقينة: الأمة المغنية، من التقيّن وهو التزين، ومنه قيل للمرأة مقينة إذا  
كانت تزين النساء، شبهت بالأمة، لأنها تصلح البيت وتزينه، وقيل القينة الأمة  
مغنية أو غير مغنية، والقينة الجارية تخدم، والأمة غفت أو لم تغن. والمغنية تسمى  
قينة إذا كان الغناء صناعة لها، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر<sup>(٢)</sup>.

وقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد، فقديمًا كانت معاوية بن بكر  
العمليقي - سيد العمالقة الذين نزلوا بمكة في سالف الدهر - جرادتان كانتا قينتين،  
وبهما ضرب المثل في سالف الدهر، فقيل صار فلان حديث الجرادتين، إذا اشتهر  
أمره<sup>(٣)</sup>. وقيل إنهما أول من غنى الغناء العربي<sup>(٤)</sup>.

ولما حُبس المطر عن عاد - وكانوا ينزلون بين الشجر وحضر موت - بعثوا  
موفدهم إلى مكة يستقون لهم، فنزلوا على معاوية بن بكر، لأنه كان صبراً لهم،  
فشفعلوا بشرب الخمر وسماع الجرادتين عن الاستسقاء، ثم تذكروا قومهم فاستسقوا  
لهم<sup>(٥)</sup>.

ثم كانت لعبد الله بن جدعان أمتان تتغنيان في الجاهلية سماها بجرادتي عاد،

(١) زهر الآداب ٢٧/٣ . (٢) لسان العرب ٢٣١/١٧ .  
(٣) مجمع الأمثال ١٨٦/٢ و ١١٨/١ . (٤) جهرة الأمثال ١٩٠/٢ .  
(٥) كتاب الملامى للضي ٥٣٣ مخطوط ومجمع الأمثال ١١٨/١ .

وقد غنت له قول أمية بن أبي الصلت في مدحه :

عطاؤك زين لامرئٍ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين  
وليس بشين لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين  
وذكر لهما إسحاق الموصلي في المائة المختارة لحنا وهو :

أقفر من أهله مصيفُ فبطن نخلة فالعريف  
(١)

وكانت لبشر بن عمرو بن مرزئد قيتان أختان هما هريرة وخليدة ، كانتا  
تغنيانه النَّصَب ، وقد قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٢) . وهريرة هي التي  
شبه بها الأعشى في قوله :

ودع هريرة إن الركب مر تحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟ (٣)  
وفي قوله يذكر غناها :

وتبت داجنة تجاب مثلها خوداً منعمة وتضرب مُعتبا (٤)  
والقيان المشهورات كثيرات ، منهن بنت عَمَزَر (٥) وحمامة (٦) وأرنب (٧)  
وزينب (٨) . ثم كثرن في العصر الأموي والعباسي ، وبر عن أيما براعة (٩) ، حتى  
لقد خرج يودع جميلة وهي ترمع الحج كثير من المغنين والمغنيات الخذاق ، منهم  
هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحا وقد ورحة وهبة الله ومعبد  
ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وعزة الميلاء وحبابة  
وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلثة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء (١٠)

(١) أوائل الأوائل لأبي ملال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ .

(٢) الأغاني ٧٧/٨ . ديوان الأعشى الكبير .

(٣) المنضيات ٧٦/٢ الداجنة : شرحها ابن الأنباري بأنها الفينة المغنية وليس هذا في

المعجم . معتب : مطبع مجاوب والمراد به العود . (٥) الأغاني ١٧/١٠ .

(٦) الإصابة ٤/٨ . (٧) الإصابة ٤/٨ .

(٨) الإصابة ٩٩/٨ .

(٩) الأغاني ١٧٩/٧ و ١٢/١٦ و ١١٨/٧ - ١٤٩ (١٠) الأغاني ١٢٨/٧

حتى قالوا إن زهاء خمسين قينة لحقن بها ، ولحق بها أيضا زهاء ثلاثين مغنياً<sup>(١)</sup>

### هنسية الفناء :

١ - انصرف العرب عن الاحتراف بالغناء ، على شغفهم به وطربهم له . ولعل السبب في انصراف الرجال عن احترافه أنهم كانوا يكسبون أرزاقهم من الحرب ، ومن التجارة والرعى ، وأنهم كانوا يتجافون عن أنواع الصناعات ، وأن مكانة المغنى - وإن أطرب ونال العطاء الجزل - لم تكن توائم المكانة التي يريدونها العربي لنفسه ، ثم إنهم وجدوا الغناء أليق بالنساء من الرجال .

وكذلك انصرفت الحرائر عن الغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ، وإما كسبات رزقهن بأعمال غير الغناء . وما من شك في أن الغناء يقتضى من المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تبرز بعض مفاتيحها لهم ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع أشتهاهم - كما تحدث الشعراء - وما يرضى رجل عربي أن تكون مانتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة ، ولا تجرؤ عربية أن تشذ عن بنات جنسها فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

٢ - لهذا كانت الكثرة الغالبة من القميان في العصر الجاهلي غير عربيات ، وما زالت هذه الكثرة من الموالى والجوارى في العصر الإسلامى والعباسى . يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه في الجاهلية عند جيلة بن الأيهم وجاء في وصفه أنه سمع عشر قيان : « خمس روميات يغبين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغبين غناء أهل الحيرة ، وكان يقد إليه من يغبينه من العرب من مكة وغيرها »<sup>(٢)</sup> ، لكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتي يغبين غناء أهل الحيرة أهن فارسيات أم عربيات ؟

وما يؤيد ذلك أن عامر بن الطفيل هجا خصمه بقوله :

(١) الأغاني ٧/١٢٨ (٢) الأغاني ١٦/١٤

وانخر برهط بنى الحماص ومالك . وبنى الضباب ورعبل وقيان<sup>(١)</sup>  
 وأن الأعشى كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد  
 وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهم ما شاء يستقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومى ،  
 وفى ذلك يقول لناقته :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تنأخى بأبوابها  
 نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها  
 وشاهدنا الجلى والياستين والمسمعات بقصائبها  
 وبرهبطنا دائماً معملاً فأى الثلاثة أزرى بها؟<sup>(٢)</sup>

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال فقال : إن القيان كن فارسيات أو  
 يونانيات من سورية ، وإنهن كن يفتنن بالعربية ، وربما غنن بلهجة أجنبية<sup>(٣)</sup> .  
 وهو فى هذا يتفق مع فون كريمز ، وإن ذهب فون كريمز إلى أنهن كن يفتنن  
 بلسانهن اليونانى أو الفارسى<sup>(٤)</sup> .

وإنه لأدنى إلى الصواب أن نضيف إلى اليونانيات والفارسيات الحبشيات  
 أيضاً كما ذهب الدكتور بيرون Perron إذ قال فى كتابه عن النساء العربيات  
 إن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ولاشك أن أكثرهم من  
 الحبش ، لأن أكثر العبيد قبل الإسلام كانوا حبشاً أو زنجياً ، ولبس ببيد أن  
 تكون القيثتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين<sup>(٥)</sup> . وسنتبين من  
 الفقرات المقبلة أن أكثر القيان كن غير عربيات .

(١) الأغانى ١٦/١٤ (٢) الأغانى ١/١٥٧

(٣) الشعر الفنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤

(٤) Farmer. A. History of Arabian Music. P. 17

(٥) بلال داعى السماء ١٥٠ العقاد .

## غناؤهن بالشعر :

وقد تغنت القيان بالشعر العربي ، كما تغنين بلغاتهن ، ولا عجب في أن يسمع  
العربي غناء بلغة غير لغته ويطرب له ، لأنه يطرب للصوت واللحن ، ويعجب  
بجمال المغنية . فقد روى فيما بعد أن أبا تمام قد سمع غناء بخراسان بالفارسية ،  
فلم يدر ما هو ، غير أنه أشجاه فقال :

حدتكَ ليلة شَرَفَتْ وطابت      أقام سهادها ومضى كراها  
سمعتُ بها غناء كان أولى      بأن يقتاد نفسي من عنائها  
ومُسمِعةٍ يحار السمع فيها      ولم لا تُضمِّمهُ لا يُضمِّم صداها  
مَرَّتْ أوتارها فشجت وشاقت      فلم يسطيع حاسدها فداها  
ولم أفهم معانيها ولكن      ورَّتْ كبدي فلم أجعل شجاها  
فكنت كأتى أعمى معني      يحب الغانيات ولا يراها<sup>(١)</sup>

أما الدليل على غناء بعضهن بالشعر العربي فقول عبدة بن الطبيب :

ثم اضطبختُ كميَّتا قرِّفاً أنفاً      من طيب الراح واللذاتُ تعليل  
مِرِّفاً مزاجاً وأحياناً يُعلِّنا      شعر كمدْهبة السمان محمول  
تُدري حواشيه جيِّداه آنسةً      في صوتها لسماع الشرب ترتيل  
تعدو علينا تليِّنا ونُصفدُها      تُلقي البرود عليها والسرايل<sup>(٢)</sup>

فهو يقرر أن القينة كانت تغنيهن بالشعر العربي الجيد .

ثم إنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة بقصيدة من

(١) تهذيب الكامل ٣٤/٢ وزهر الآداب ١٣٧/٣ .

(٢) المنصليات ١٤٣/١ كميَّتا : خراً في لونها سواد وحمرة . قرِّف : تصيب شاربها  
برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفاً مزاجاً : خالصة وكانها مزوجة بالماء  
لطيفها . يعلِّنا : ياجيتنا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التي تزوق بها السقوف . محمول :  
مروى ذات لحسنه . تدري : ترفع أو تقط حواشي أغانيها تعاريفاً وترجيماً . حواشيه :  
أطرافه . آنسة : منبذة . نصفدُها : نعطها .

شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه<sup>(١)</sup> .

وكانت سارة مولاة لبني عبد المطلب بن عبدمناف ، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله بالمدينة وأسلمت ، وشكت حاجتها ، وطابت منه الميرة ، فقال لها : أما كان في غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء . فوصلها صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> ، وكانت هريرة وخليدة قينتين لبشرو بن عمرو ابن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب<sup>(٣)</sup> ، وهو غناء عربي صرف .

وقد تغنين بالشعر العربي في أغراض شتى ، فقد غنت جرادتا عبد الله ابن جدعان قول أمية بن أبي الصلت في مدحه ، وأميه يسمع :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته يبذل وما كل العطاء يزين

(٤)

وتغنين بالهجاء أيضاً ، فإن خالد بن جعفر قال لقينة بالخيرة اجتمع عندها هو والحارث بن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

دار لهنسد والرباب وفررتنا ولميس قبل حوادث الأيام

وهن خالات الحارث ، فغضب الحارث<sup>(٥)</sup> .

وكان لابن خَطَل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبي ، فأمر النبي بقتلهما يوم الفتح . فأما قريية فقتلت مصلوبة ، وأما فررتنا ففرت حتى استؤمن لها الرسول فأمنها فأمنت<sup>(٦)</sup> .

وكن يغنين وراء الحاربيين ليأبين حماستهم ، فإن قريشاً كانت قد خرجت في غزوة بدر ومعها ثلاث قيان ، فأرسل أبوسفیان فردهن من الجحفة ،

(٢) لإنسان اليون ٨٧/٣ .

(١) الأغاني ١٥٧/٩

(٤) الأغاني ٣/٨ .

(٣) الأغاني ٧٧/٨

(٦) تاريخ الطبري ١١٩/٣ وتاريخ الخميس ١٠٤/٢

(٥) الأغاني ١٧/١٠

ثم خرجت قريش في أحد ومعها قيامها<sup>(١)</sup> .

وكان الرجل يستمع إلى الفناء ليشجع ويثأر ، ذلك بأن الحارث بن ظالم اعتمزم أن يقتل خالد بن جعفر ، فخرج إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى :

تَعَلَّمْ أبيت اللعن أنى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر

ثم مضى إليه فقتله<sup>(٢)</sup> .

وكن يغبين في المآدب ، فقد تحدث خارجة بن زيد فقال : دعينا إلى مادة في آل نبيط ، فحضرتها وحضرها حسان بن ثابت ، فجلسنا على مائدة واحدة ، فلما فرغنا من الطعام أتوا بجارتين إحداها رائقة والأخرى عزة ، فجلسنا وأخذتا مزهريهما وضربنا ضرباً عجيباً ، وغنتنا بقول حسان :

انظر خليلي بباب جِئَقِ هل تُبْصِرُ دون البقاء من أحد<sup>(٣)</sup>

وكن يغبين في الأعراس ، فقد كانت أرنب مغنية بالمدينة ، ولما تزوج بعض الأنصار قريبة لعائشة قال لها النبي : أهديت عروسك ؟ قالت نعم . قال : فأرسلت معها بفناء ، فإن الأنصار يخبونونه ؟ قالت : لا . قال : فأدركيها بأرنب<sup>(٤)</sup> .

وكن يغبين للتسليمية والتطريب غزلاً وغير غزل ، فقد خرج مسلم والبخاري عن عائشة أنها قالت : دخل على أبو بكر وجاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما قالت الأنصار في يوم بعث ، فقال أبو بكر : أمرمار الشيطان في بيت رسول الله ؟ وكان ذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله : يا أبا بكر لسكل قوم عيد وهذا عيدنا . وخرج أبو داود والإمام أحمد بن حنبل عن الربيع بنت معوذ

(١) المغازي ٣٦ والسيرة الحلبية ١٥٥/٢ وتاريخ الطبري ٢/٢٧٦

(٢) الأغاني ٧/١٠ (٣) الأغاني ١٤/١٦ (٤) الإصابة ٨/٤ والعقد

الفريد ٣/٢٣١ والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٣٣ .

ابن عفرأ أن النبي دخل عليها صبيحة زفافها ، فجعات جويزيات يضربن بدف  
لهن ويندبن من قتل من آباءها يوم بدر ، إلى أن قالت إحداهن : « وفينا نبي يعلم  
ما في الغد » فقال : دعى هذا وقولى الذى كنت تقولين ، أو قال لهما : أما هذا  
فلا تقولاها<sup>(١)</sup>

ومن هذا أن فتية من قريش اجتمعوا عند قبيلة من قيان المدينة ، ومعهم  
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فإذا بحسان يستأذن ، فسكرهوا دخوله ، وشق  
ذلك عليهم ، فقال لهم عبد الرحمن : أيسركم الآن مجلس ؟ قالوا نعم قال : مروها  
إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغنى :

أولاد جَمَنَةَ عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريمة المفضل

ففعلت ، فبكى حسان حتى ظنوا أن نفسه سقطت<sup>(٢)</sup> .

وقد كان لحسان جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره ، وقد جلس يوماً فى ظل  
حصنه وحوله أصحابه وهى تغنيه بمزهرها :

هل على ويحك إن هوت من حرج

فمر النبي فسمع ضحك وقال : لا حرج إن شاء الله<sup>(٣)</sup> .

كذلك كان امرؤ القيس يأمر قيانه أن يغنيه بشعر مرة بن الرزاع<sup>(٤)</sup> :

إن الخليط أجدّ البين فادّجوا وهم كذلك فى آثارهم تلج<sup>(٥)</sup>

وغنت القيان أيضاً بالأسواق ، وكان بدر موسماً من مواسم الجاهلية يجتمع  
به العرب ، ولهم به سوق ينجر بها الأشراف الجزر ، ويطعمون الطعام ويشربون

(١) سنن أبى داود ١٩٧/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٠/٦

(٢) الأغاني ١٦/١٦ (٣) الأغاني ١٠/١٦١

(٤) الرواع اسم أمه كما فى ترجمة أخيه فى معجم الشعراء للرزباني وأبوه سلم بن عمرو  
وهو شاعر قديم من بنى أسد (٥) المؤلف والمختلف ١٢٧ تلج : جمع لجة وهى الجماعة الكثيرة



الخمر ، وتعزف القيان لهم <sup>(١)</sup> .

### أثر غنائهم في النفوس :

كن يشجعن على الاستبسال وعلى المخاطرة والنار كما سبق ، وكن يلهين السامعين ويطربنهم ، يقول عبدة بن الطبيب إنهم كانوا يطربون فيخلعون عليها الخلع :

تغدو علينا تَدَيِّبِنَا ونُصَفِدُهَا تَلَقَى البروذُ عليها والسرايل <sup>(٢)</sup>  
ويقول امرؤ القيس إن القينة كانت تفرج عنه همومه :

وإن أُنسٍ مَكْرُوباً فيارب قينة منعمة أَعْلَمْتُهَا بكَرَانٍ <sup>(٣)</sup>  
ويشتد الطرب بعبد يغوث فيشقى رداءه :

وأُنجر للشُّرب الكرام مطيبي وأصدع بين القينتين ردائياً <sup>(٤)</sup>

فكان يعمل ما عمله من بعده عمر بن أبي ربيعة ، إذ كان يسمع جميلة فيشقى رداءه إلى أسفله <sup>(٥)</sup> . وسمع يوماً عزة الميلاء تغنى بشعره ، فشقى ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فاما أفاق قال له القوم : اغيرك الجبل بأباب الخطاب ، قال : إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي <sup>(٦)</sup> . ثم جاء بعدها أحد الظرفاء في العصر العباسي ، وكانت له قينتان إحداها مجيدة مطربة والأخرى مسينة ، فكان إذا غنت المجيدة خرق قيصه ، وإذا غنت المسينة قعد يخطئه <sup>(٧)</sup> . وقد سمع حسان غناء راتقة وعزة وعزفهما العجيب على مزهريهما ، فدمعت عيناه ، فإذا سكتتا ذهب بكأوه ، وإذا غنتا عاوده .

وكان الشراب كثيراً ما يصاحب الغناء ، لأن بين الخمر والغناء « مناسبة

(١) المغازي ٣٧ وتاريخ الطبري ٢/٢٧٦ (٢) المفضليات ١/١٤٣ .

(٣) الديوان ١٨٧ كران : عود (٤) المفضليات ١/١٥٦

(٥) الأغاني ٧/١٢٧ و ١٢٩ - ١٣٤ (٦) الأغاني ١٦/١٣

(٧) محاضرات الأدباء ١/٤٦٦ (٨) الأغاني ١٦/١٤ .

في أكثر الأحوال . . . ولهذا صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ .  
أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ، ويستمرى الكثير مع سماعه ، وإن كان  
يتمل عليه قليلاً إذا خلا من استماعه «<sup>(١)</sup> ، لذلك كان أعراب وادي القرى إذا  
ظفروا بشراب أتوا حواظ من النخل عند استواء الظهيرة حين تطير الموراشن  
والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأسون بتغيريها ، و يقيمون أصواتها  
مقام المزامير والأوتار<sup>(٢)</sup> .

هكذا كان يفعل الأعشى ، إذ يشرب الخمر ويسمع الغناء الرومي عند أساقفة  
نجران<sup>(٣)</sup> . وامرؤ القيس كان يتنقل في أحياء العرب ومعه رفاقه ، فإذا صادف  
غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه كل يوم ، وخرج إلى الصيد ،  
ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانته<sup>(٤)</sup> .

ولقد تحدث الشعراء عن مصاحبة الخمر للغناء ، يقول لبدي إن القينة تعترف  
على العود بأنامها الطيبة وسامعها يحسنون الخمر :

أغلى السِّبَاءِ بِسُكْلِ أَدَكْنَ عَاتِقٍ      أَوْ جَوْنَةٍ قُدَحَتْ وَفُضَّ خِنَامُهَا  
بِصَبْوَحٍ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ      بِمُوتَرٍ تَأَنَّى لَهُ إِبَاهُمُهَا<sup>(٥)</sup>

ويقول في رثاء النعمان :

لبيك على النعمان شرباً وقينة      مُحْتَبِطَاتِ كَالسَّعَالِي أُرَامِلِ<sup>(٦)</sup>

ويقول الأعشى :

(١) مطالع البدور ٢٣١/١ (٢) مطالع البدور ٢٦١/٢

(٣) الأغاني ١٣٥/١٠ (٤) الأغاني ٦٥/٨

(٥) شرح القصائد العشر للتبريزي ١٦٣ ولسان العرب ٥٤/١٨ السبأ : شعراء  
الخمر للشرب لا للبيع . أدكن : زق أغبر . عاتق : صفة للخمر أو للزق والعاتق الخالصة أو  
المتعة أو التي لم تفتح . جونة : خاية مطوية بالقار . كرينة : مغنية . موتر : له أوتار . تأنى  
له أى تطاوعه . وروى تأنا له بضم اللام . أى تصاحبه

(٦) ديوان لبدي ٢٩ مُحْتَبِطَاتِ : نائلات نعمة . السعالي : الفيلان

ورادعةً بالطيب صفراء عندنا      لجلس الندامي في يد الدرع مَفْتَقُ  
 إذا قلت غنى الشَّرْبِ قامت بمزهر      يكاد- إذا دارت له الكف- ينطق<sup>(١)</sup>  
 وما زالت الخمر تلازم الغناء في كثير من الأحوال بعد العصر الجاهلي ، فمثلا  
 يقول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

فاصطبجنا بخمر عانة صِرْفَا      وهونا بقيننة عَرَافَه<sup>(٢)</sup>  
 ويقول :

دَعَا لى سَلِيمى وَالطَّلَاءِ وَقِينة      وَنَأْسَا الْأَحْسَبى بِذَلِكَ مَالَا<sup>(٣)</sup>  
 ويقول مالك بن أسماء ( ونسب إلى الوليد بن يزيد وربما زاد في شعر مالك ) :  
 حَبْذَا لَيْلَتى بَتَلَّ يُونَا      حَيْث نَسَقى شَرَابِنَا وَنَعْنَى  
 مِنْ شَرَابِ كَأَنه دَمِ جَوْفِ      يَتْرِكُ الشَّيْخِ وَالنَّقَى مُرْجَعِنَا  
 حَيْث دَارَتْ بِنَا الزَّجَاجَةُ دَرْنَا      يَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَا جُنُنَا  
 وَمَرَرْنَا بِنَسْوَةِ عَطْرَاتِ      وَسَمَاعِ وَقَرْقَفِ فَنَزَلْنَا<sup>(٤)</sup>  
 وقد أولع الغزلون بالصوت فيه غنة ، وأولع الشاربون بصوت المغنية الأبح ،  
 وقد يفخرون بأن البجة من أثر الخمر ، قال عبيد :

وَيْدِ يَفْوَحُ الْمَسْكَ مِنْ حَجَرَاتِهِ      تَسَدَّيْتُهُ مِنْ بَيْنِ سَرِّ وَمُخْطُوبِ  
 وَمَسْمَعَةٍ قَدْ أَصْحَلُ الشُّرْبُ صَوْتَهَا      تَأْوَى إِلَى أوتَارِ أَجْوَفِ مَحْنُوبِ<sup>(٥)</sup>  
 ويقول ثعلبة بن صعير :

أَسْمَى مَا يَدْرِيكَ أَنْ رَبِّ فَتِيَّةِ      بِيضِ الْوَجْوهِ ذَوَى نَدَى وَمَا ثَرِ

(١) ديوان الأعشى ١٤٧ وطبقات الشعراء ٣٦ تحقيق شاكر رادعة بالطيب : مطبعية  
 بالزعفران . مفتق : شق وفتحه .

(٢) الأغاني ١٠٥/٦ (٣) الأغاني ١٣٤/٦ (٤) ديوان الوليد ٥٦  
 وسقط اللآلى ١٥/١ والأشربة ٧٨ مخطوط . قرقف . قرقف : خر تصيب شاربها برعدة  
 (٥) الديوان القصيدة ٩ محنوب : مقوس وأراد العود . تأوى : تعطف وترقى وربما  
 كانت محرفة عن تأنى بمعنى تترفق

فتمصرت يومهم برنةً شارفٍ وسماعٌ مدجبةٌ وجدوى جازر<sup>(١)</sup>  
ويقول بُرج بن مُسهر الطائي :

وفينا مُسمعات عند شربٍ وغزلانٍ يُعدُّ لها الحميم<sup>(٢)</sup>  
ولقد تشرب كما يشربون فتطرب أيتا طرب ، يقول الأعشى :

وصدوح إذا يهيجها الشرب ترقّت في مزهر مندوف<sup>(٣)</sup>  
هذا إذا قرأنا ( الشرب ) بضم الشين . فإذا قرأناها بفتح الشين كان المعنى  
أن الشاربين يهيجونها باستحسانهم على أنى لم أجد في العصر الجاهلي نساء  
يشربن الخمر .

وإلى ذلك يعرض عبد المسيح بن عساة أو أخوه حرّمة<sup>(٤)</sup> ، وأبيد<sup>(٥)</sup> ،  
وعبدة بن الطيب<sup>(٦)</sup> .

بجمال الفباه وعنهون :

كثيراً ما ازدهى الشعراء بجمال قيسانهم ، فوصفوا محاسن أجسادهن ،  
ورخامة أصواتهن ، ولباقة حركاتهن .

يقول سلامة بن جندل إن مغنيتهم رخصة بضة حوراء العين مفاججة الأسنان عفيفة :

وعندنا قينة بيضاء ناعمة مثل الميهة من الحور الخرايعب  
تُجرى السواك على غرٍّ مفاججة لم يفردها دانسٌ تحت الجلايب<sup>(٧)</sup>

(١) الفضليات ١٢٨/١ رنة شارف : صوت الناقة المسنة عند تحرها . سماع مدججة :

سماع مغنية في يوم دجن . جدوى جازر : ما يقدم لهم من أطيب اللحم

(٢) شرح الحماسة للبريزي ١٣٧/٣ الحميم : الماء الحار لتستحم به

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ . ترقّت : تصعدت في غنائها . مندوف : مضروب

على أوتاره (٤) الفضليات ٧٩/٢ والموتلف والمختلف ١٥٧

(٥) ديوان لبيد ٣١ (٦) الفضليات ١٤٣/١

(٧) الفضليات ١١٨/١ المهة : البقرة الوحشية . الخرايعب : جمع خرعوب وهي الشابة

الحسنة القوام الرخصة اللينة . غر : أسنان بيض . لم يفردها : لم ياصق بها

ويقول طرفة إن قينتهم تسميهم الغناء وهي لابسة ثوباً مزعجراً واسع الصدر ، وإنما حاذقة تلبى رغبات السامعين والنشأوى ، وهي بضة الجسد ، تغنى في غير تكلف أو إجهاد ، لأنها مطبوعة ماهرة ، ويزيدها جمالا تقتر عينها وتكشر نظراتها ، وإن صوتها لخلو مطرب فيه حنين وشجا :

ندامى يبص كالنجوم وقينة تروح علينا بين برود ونجسد  
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة يحس الندامى بضة المتجرد  
إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رساها مطروفة لم تشدد  
إذ رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظار على رُبَع ردى<sup>(١)</sup>  
على أنهن كن يحدن الزينة ، وليس من المصادفات أن تكون كلمة التقين  
: دالة على التزين<sup>(٢)</sup> . يقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعرفن بالدف لفتياننا وعيشنا رخيا  
يتبارين في النعيم ويضئبن خلال القرون مساكذيا  
إنما همهن أن يتحلين سموطا وسنبلا فارسيا  
من سموط المرجان فصل بالدر فأحسن بحلمهن حليا<sup>(٣)</sup>  
فليس بعجيب أن يعشقوهن ، وعشقين عنيف لأنه نابع من عدة حواس  
« ولأنهن يجمعن للإنسان من اللذات مالا يجتمع في شيء على وجه الأرض .  
واللذات كلها إنما تكون بالحواس . والمأكل والمشروب حظ حاسة الذوق ،  
ولا يشركها فيه غيرها ، فلوأكل الإنسان المسك الذى هو حظ الأنف وجده

(١) ديوان طرفة ٢٨ مجسد : ثوب مصبوغ بالجماد وهو الزعفران أو هو الثوب الذى  
بلى الجسد . جس الندامى : ما يطلبونه من غنائها . رقيقة : حاذقة . مطروفة : ساكنة الطرف .  
على رساها : فى تودة . أظار : مراضح . ربيع : فصل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ردى :  
هالك . (٢) لسان العرب ٢٣١/١٧ والقاموس المحيط مادة قين  
(٣) الأغاني ٩/١٦٤ سموط : فلاند . سنبل : نبات طيب الرائحة .

بشعاً واستقذره . . . فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس ،  
 وصار القلب لها رابعاً ، فلعين النظر إلى القينة الحسناء ، وللسمع منها حظ الذي  
 لا مئونة عليه ، ولا تطرب آلهته إلا إليه ، وللمس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواد  
 للقلب وشهود عنده...»<sup>(١)</sup>

وقد أسلفت حب بعض الشعراء لهن كالأعشى وامرئ القيس .  
 فإذا ما اجتزنا العصر الجاهلي إلى الأموي والعباسي وجدنا اشتباراً بعشق  
 المغنيات ، إذ شاع اقتناؤهن واقتناء الإمامة بعامة ، والاستمتاع بهن في عصر  
 فاضت فيه الأموال بأيدي العرب ، وحنجوا إلى الترف واللذة والمجانة ، فتضاءلت  
 الأخلاق العربية البدوية ، حتى لقد ظهر جماعة من الخنثين يصلون ما بين الرجال  
 والنساء ، وجماعة من النساء يسفرن بالرسائل ويمهدن للقاء ، ويفرين النساء  
 ويصلحن العتب بانتحال الأعذار ، كهؤلاء اللاتي سفرن بين عمر بن أبي ربيعة  
 وعشيقاته ، وهو يصف إحداهن بقوله :

فأتبها طَبِيَّةَ عالمة	تخالط الجسد مراراً باللعب
تُحَاظُ القول إذا لانت لها	وتُراخى عند سؤرات الغضب
لم تنزل تصرفها عن رأيها	وتأتأها برفق وأدب
أن كفى لك رهنٌ بالرضا	فأقبل يا هند قالت : قد وجب

ولما أنشد ابن أبي عتيق هذه القصيدة قال له : الناس يطلبون خليفة في صفة  
 قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه<sup>(٢)</sup> . ويقول أيضاً :

فبعثت كاتمة الحديث	رفيقة بجوابها
وحشية إنسية	خرأجة من بابها
فرقت فسـهـلت المعـا	رض من سبيل نقابها <sup>(٣)</sup>

(١) رسالة القيان للجاحظ ٦٩ (٢) الأغاني ٥٧/١

(٣) الأغاني ٦٠/١

وبلغ من حب يزيد بن معاوية لخبابة أنه كان لا يعصى لها رجاء ، وكان يخرج عن الوفاق إذا سمعها<sup>(٤)</sup> . ولم يكن وحده المفتون بها ، فإن كثيراً كانوا يشركونه في ذلك ، حتى إنه لما اشتراها وهو أمير وأراد الخروج بها قال الحارث ابن خالد :

قد سألَ جسمي وقد أودى به سقمٌ من أجل حبيّ خلوا عن بلدة الحرم  
يحسن قلبي إليها حين أذكرها وما تذكرتُ شوقاً أب من أمم  
وقال فيها الشعراء فأكثرُوا ، وغنى أشعارهم المفتون بمكة والمدينة<sup>(١)</sup> .

### أثر الفجار في الشعر :

١ — تغنى الشعراء بشعرهم ، وتغنت القيان بشعر الشعراء ، ولم نعرف أن العرب تغنوا بالثر .

وأرجح أن الغناء بالشعر كان عظيم الأثر في أوزانه وتطورها ، وإذا فقد كان للقيان نصيب في هذا التطور أسهم به مع الرجال . وقد ذهب أبو حيان التوحيدى فيما رواه عن مسكويه إلى ما يعزز هذا ، في قوله :

« ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزاناً لا تقبلها طباعتنا ، ولا تحسن في ذوقنا ، وهى عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش :

لابنة عجلان بالظفِّ رسومٌ لم يتعفَّين والعهدُ قديمٌ

وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان ما يكون عند المطبوعين منكسوراً ، وهى صحيحة . والسبب فى جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغيات يستعملونها فى مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا لانعرف تلك النغيات ،

فإذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن في طباعتنا ....» (١) .

وقد سبق أن العرب كانوا يغنون بشعرهم ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزنون شعرهم بالغناء ، قال حسان بن ثابت :

تغن في كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار<sup>(٢)</sup>

٢ — وكانت القيان أكثر غناء بالشعر من الشعراء أنفسهم ، والشعراء يسمعونهن ويظربون لهن ، فهم يحدون شعرهم ويتخيرون وزنه سهلاً التلحين والترجيع ، وهم إذا ما سمعوه يفتنوا تنبهوا إلى ما قد يكون فيه من عيب في الوزن أو القافية . من ذلك أن النابغة أقوى في قصيدته التي مطلعها :

أمن آل مية رأمح أو معتد عجلان ذا زاد وغير مزود

فقدم المدينة فميب عليه ذلك ، فلم يأبه له ، فقالوا للجارية : غنيه هذه.

القصيدة ، فإذا صرت إلى قوله :

زعم الأحبة أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

فرتلى . فلما سمعها انقبه ، وأصاح إقواءه ، ولم يعد إليه ، وقال : قدمت يثرب

وفي شعري شيء ، وخرجت وأنا أشعر الناس<sup>(٣)</sup> .

٣ — فلم يكن عجباً أن تقوى الرشيدة بين الشعراء والقيان في العصر

الجاهلي ، فلعبد الله بن جدعان قينتان<sup>(٤)</sup> ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان<sup>(٥)</sup>

ولسلامة بن جندل قينة<sup>(٦)</sup> ، ولطرفة قينة<sup>(٧)</sup> ، وكذلك لعمر بن الإطنابة<sup>(٨)</sup> ،

(١) الهوامل والشوامل ٢٨٢ لأبي حيان التوحيدي ومسكويه .

(٢) الموسخ ٤٠ وفي أساس البلاغة : تغن بالشعر إما كنت ذا بصر . ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح ، لأن المضمار الموضع الذي تضر فيه الخيل

(٣) الموسخ ٣٩ وطبقات الشعراء ٥٦ والشطر الثاني بعد الإصلاح : وبذاك تنعاب الغراب الأسود (٤) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغاني ٣/٨

(٥) الأغاني ٧٧/٨ (٦) المقاليات ١١٨/١

(٧) ديوان طرفة ٢٨ (٨) الأغاني ١٦٤/٩



والمعبدة بن الطيب<sup>(١)</sup> ، ولعبد يعقوب<sup>(٢)</sup> ، ولامرىء القيس قيان يغنيته في تنقله  
ورحلاته للصيد واللهو<sup>(٣)</sup> ، ولأحبيحة بن الجلاح قينة تغنيه بشعره<sup>(٤)</sup> .

ثم قويت الاحزمة بين الشعراء والمغنين والمغنيات في العصر الأموي والعباسي ،  
فالغريض وابن سريج يرافقان عمر بن أبي ربيعة ويغنيانه بشعره ، ويذيعان  
غناهما وشعره في الناس ، حتى لقد قالوا : إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء  
ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك ترقصه<sup>(٥)</sup> . وكان الإعجاب متبادلا  
بينه وبين جميلة ، يعجب بغنائها وتعجب بشعره فتغنيه ، حتى لقد يشق قيضه  
إلى أسفله<sup>(٦)</sup> ، وكذلك غنى ابن سريج بشعر عمر على مسمع منه ومن جميلة<sup>(٧)</sup> ،  
وتغنى بشعر الأحوص<sup>(٨)</sup> .

ويكفي للدلالة على إعزاز الشعراء للمغنيات أن جميلة لما خرجت إلى الحج  
ودعها إلى مكة كثير من المغنين والمغنيات ، وودعها من الشعراء ابن أبي عتيق  
والأحوص وكثير عزة ونصيب وجماعة من الأشراف ، وتلقاها بمكة عمر بن  
أبي ربيعة والمرجى والحارث بن خالد الخزومي . فلما حجت قال عمر : أقسمت  
على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها إلا أخرج معها إلى المدينة فإني خارج ،  
فخرجوا فكان في موكبها من رافقوها من المدينة إلى مكة ، ومن خرجوا معهم  
من مكة إلى المدينة<sup>(٩)</sup> .

#### هبة الفياره :

كان الملوك والموسرون لا يستأثرون بالإماء ، بل يشركون معهم غيرهم في  
سماعين ، وكانوا يهبونهن أحيانا .

- |                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (١) المفضليات ١٤٣/١           | (٢) المفضليات ١٥٦/١                 |
| (٣) الأغاني ٦٥/٨ والديوان ١٨٧ | (٤) الأغاني ١١٥/١٣                  |
| (٥) الأغاني ١٠٩/١             | (٦) الأغاني ١٢٧/٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٢ |
| (٧) الأغاني ١٢٩/٧             | (٨) الأغاني ١١٤/١                   |
| (٩) الأغاني ١٢٧/٧             |                                     |

قال الأعشى في مدح مسروق بن وائل :

الواهب القيناتِ كالنَزْ لان في عُقد الخائل  
يركُضنَ كلَّ عَشية عَصَبَ المَرِيشِ والمَراجلِ<sup>(١)</sup>  
وقال :

هو الواهب المسماتِ الشُّرو بَ بينَ الحَريِرِ وبينَ الكَتَنِ<sup>(٢)</sup>  
وقال في مدح الأسود بن المنذر اللخمي أخى النعمان بن المنذر أو في مدح  
المنذر بن الأسود :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجِراجِرَ كالبُسْتانِ تَحْنُو لَدَرَدَقِ أطفالِ

والبغايا يركُضنَ أ كسِيةَ الإضْرِيحِ والشَّرْعِيَّ ذَا الأذْيالِ<sup>(٣)</sup>

وكانت لعبد الله بن جدعان قينتان ، وكان سيداً جواداً ، فرأى أمية بن  
أبى الصلت ينظر إليهما وهو عنده ، فوهبه إحداهما ، فاما انصرف لامة الناس  
على أخذها وعبد الله عليل ، فعاد ليردها ، ومدحه ، فوهب له الثانية أيضاً<sup>(٤)</sup> .

وكن يسبين أيضاً ، فقد أغار ضرار بن عمرو على كلب بن وبرة فغنم وسبي ،  
وكانت في السبي قينة لعمرو بن ثعلبة اسمها الرائقة ، وبنت لها اسمها سلمى<sup>(٥)</sup> . وقد  
سبق أن السابي كان يتجرى الحرائر ، وأنهن كن يتظاهرن بأنهن إماء حتى  
لا يسبين ، ولسكن القيان سبين ؛ لأنهن غنيمة نفيسة .

(١) ديوان الأعشى ٢٢١ يركضن : يحركن . المريش : البرد الموشى المراجيل : جم  
مرجل وهو إزار من خز فيه علم أو فيه صور الرجال .

(٢) اللسان ١٧/٢٣٥ المسمات : القيان . الشروب : الشاربون . الكتن : الكتان

(٣) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ دردق : صفار . الجلة الجراجر :

الإبل المنة الضخام . البغايا . الإماء . الإضريح : خز أصفر أو أحمر . الشرعي : نوع  
من البرود (٤) الأغاني ٢/٨ والمخبر ١٣٨ وأوائل الأوائل ٢١٠ مخطوط .

(٥) بجم الأمثال ١/١٢١

## أثر الغناء لأهني في العربي :

١ - أسلفت أن العرب قد اتصلوا بالفرس وبالروم ، وبينت مناحي التأثير بهم . وهم قد اختلطوا بالأحباش أيضاً وتأثروا بهم <sup>(١)</sup> .

(١) اختلاطهم بالحيش يرجع إلى ما قبل الميلاد . ذلك بأنه في العهد الأول للدولة الحميرية الأولى ( ١١٥ ق م - ٣٠٠ م ) نزحت جموع من العرب إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دولة أكسوم الحبشية في القرن الأول الميلادي ( تاريخ العرب ٦٥ فيليب حتى ) وفي القرن الأول قبل الميلاد تدخل الحيش في شؤون الملك العربي باليمن ، ثم اتخذوا لهم مستعمرة في الجنوب الغربي من بلاد اليمن واستقرت بها جاليات حبشية ( بين الحبشة والعرب ، عبدالمجيد عابدين ٢٣ - ٣٦ ) وفي نهاية القرن الثالث بعد الميلاد عاودوا الاحتكاك . وحكوها إلى القرن الرابع *The Bach ground of Islam P. 123 Glasser* ثم عادوا ففتحوها في القرن الخامس ( ٤٨٠ م ) وولوا على اليمن أميراً نصرانياً ولكنه لم يعيش طويلاً ، فلما مات انتهب اليهود الفرصة وولوا على حير ملكاً يهودياً هو ذو نوس ( بين الحبشة والعرب ٤٥ - ٤٧ ) وحوالي ٥٢٣ م كانت حملة أرياط أو أبرهة ، وكان الاستعمار الحبشي الأخير ، وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز فكانت غزوة الفيل ( تاريخ الطبري ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢ )

والمؤرخون مختلفون في زمن هذه الغزوة اختلافاً يجعل بدءها من ٥٠٠ إلى ٥٧٠ م بناء على اختلافهم في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنسان الميون ١/٦٥) وكثير من الباحثين يرجعون أنها كانت حوالي ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان في ٥٧٠ م ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم أبرهة وحكم يكسوم ومسروق بن أبرهة ( بين الحبشة والعرب ٦٥ ) ومهما يكن من شيء فقد كان حكم الحبشة لليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأجلوا الأحباش عنها اثنتين وسبعين سنة كما يذكر الطبري ( تاريخ الطبري ١١٥/٢ ) ومعنى هذا أن الغزوة بدأت في مستهل القرن الخامس . ولسكننا إذا سلطنا بأنها بدأت سنة ٥٢٣ م وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعد يكسوم ١٩ سنة ثم مسروق ١٢ سنة ( بين الحبشة والعرب ٦٧ ) كان عمر هذا الاستعمار ثنتين وخمسين سنة لا اثنتين وسبعين ، على أن العرب كانوا على صلة بالأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من الحكم والاستعمار ، أقصد التجارة ، فكان اليمنيون والفرشيون يختلفون إلى هناك متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق ( تاريخ الطبري ١٨٠/٢ وجمع الأمثال ٢/٦٦ ) فسكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً ( الأغاني ٨/٥٠ ) وبسندبظ أو أبري أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية ، وأحباش يراعون مصالح قومهم التجارية ( بحر الإسلام ١٥ ) ومن مظاهر هذا الاتصال الودي أن كانت أول هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ( سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ - ٣٦١ ) ثم إن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشاً ، وكثيراً ما تزوج العرب بمحبشيات أوسود ( عمون الأخبار ٤/٤٠ ) ورسالة فخر السودان من مجموع رسائل الجاحظ ٧٥ والأغانى ١٤١ و١٦/١٣٥ و١٨/١٣٣ و٢٠/٢ والمخبر ٣٠٦ - ٣٠٩ والشعر والشعراء ١٢٢ و ١٣٤ والإصابة ٢٧/٧ و ٢١٢ )

وهذا الاتصال بالأحباش والفرس والرومان كانت له آثار في الغناء .  
وقد علمنا أن أكثر القيان كن غير عربيات ، سواء تغنين بالشعر العربي أم بلغاتهن ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين كما ظن الدكتور بيرون Berrou<sup>(١)</sup> . ونحن نعلم أن أكثر المغنين في الإسلام كانوا غير عرب مثل سعيد بن مسجح المغنى ، فقد كان مولى أسود<sup>(٢)</sup> وابن محرز كان مولى فارسياً<sup>(٣)</sup> ، وسائب خاثر كان مولى من الفرس أيضاً<sup>(٤)</sup> .  
ونجد في اللغة كلمة الدَّرْقَلَة أو الدَّرْكَلَة تدل على ضرب من الرقص الحبشى<sup>(٥)</sup> وكان الأحباش كلفين بالرقص واللعب بالحراب في الحافل والأعياد في الجاهلية والإسلام ، والعلاقة وثيقة بين الرقص والغناء والموسيقى .  
وإذا ما رجعنا إلى الآلات الموسيقية التي ذكرها الشعراء في الجاهلية - كما سيحىء - وجدنا أكثرها أجنبية عن العرب .  
فكلمة قنّين حبشية ، وقد جاءت في الحديث: إن الله حرم الخمر والسكوبة ( الطبل ) والقنّين<sup>(٦)</sup> . والطنبور كلمة فارسية أصابها من كلمة ( دنبه بَرّ ) ومعناها إلية الحمل<sup>(٧)</sup> .  
وابرّبط هو العود أعجمى ليس من ملاحى العرب ، وفي التهذيب أنه من ملاحى الفرس ، شبه بصدر البط ، والصدر بالفارسية بَرّ ، فقيل بربط<sup>(٨)</sup> .  
والوّن الصنج الذى يضرب بالأصابع ، وهو الوّنَج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم<sup>(٩)</sup> .

(٢) الأغاني ٣/ ٨١

(١) بلال داعى السماء ١٥٠

(٤) الأغاني ٧/ ١٧٩

(٣) الأغاني ١/ ١٤٥

(٥) لسان العرب والقاموس مادة درقل (٦) لسان العرب مادة قنن

(٧) لسان العرب والقاموس مادة طنبور وفرهنك نفيسى و steingass

(٨) لسان العرب والقاموس المحيط مادة بربط

(٩) لسان العرب مادة ون

والصنج هو الآلة المصنوعة من صُفْر أعجمي معرب<sup>(١)</sup> .  
 والمَوْنج هو المعزف وهو المزهر والعود ، وقيل نوع من الصنج ، فارسي معرب  
 أصله وَنَهَ ونطقه العرب الوَنْ<sup>(٢)</sup> .  
 والبَمّ الوتر الغليظ من أوتار المزهر ، أعجمي<sup>(٣)</sup> ، ومُسْتَقُ صيني آلة يضرب  
 عليها معرب ، ذكر الضبي أن الكلمة فارسية أصلها مُشْتَه صيني أى يؤخذ  
 باليدين<sup>(٤)</sup> ، وفي القاموس مُسْتَقَّة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج  
 ونحوه ، معرب<sup>(٥)</sup> .  
 أما كلمة دُف وكران وعود ومزهر فعربية الأصل<sup>(٦)</sup> ، وقد نقاها الفرس  
 عن العرب<sup>(٧)</sup> .

٢ - وإذا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسي والرومي والحبشي منذ  
 الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء هذه الآلات الأجنبية قبل أن  
 يبرز الإسلام ، ومن أن الغناء الرومي والفارسي كان معروفًا لهم في الشام كما ذكر  
 حسان<sup>(٨)</sup> ، وفي نجران كما ذكر الأعشى<sup>(٩)</sup> . وكان الحارث بن كلدة قد تعلم  
 ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها<sup>(١٠)</sup> ، ثم سافر ابنه النضر كما  
 سافر أبوه ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، وتعلم من أبيه الطب  
 وغيره<sup>(١١)</sup> .

أليس من حقنا أن نصحح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب في فهمه مذهباً

(١) لسان العرب والقاموس . مادة صنج وصرح

(٢) لسان العرب والقاموس مادة ونج (٣) لسان العرب مادة بم

(٤) الملاحى للاضي ٢١ مخطوط (٥) القاموس المحيط مادة ستوق .

(٦) لسان العرب والقاموس مواد السكلمات (٧) المعجم في اللغة الفارسية ..

هنداوى ومجم stlengass (٨) الأغاني ١٦/١٤

(٩) المعاني الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ والأغاني ٩/١٥٧

(١٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١

(١١) عيون الأنباء ١١٣/١

آخر؟ فهو يذكر أن سعيد بن مسجع المكي الأسود المغني أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، وأنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنفات الموجودة في غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده (١) .

وذكر في رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية فقامه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن سريج والقريظ (٢) . ويقول إنه كان مولى أسود (٣) ، وكذلك كان ابن سريج (٤) . وفي رواية ثالثة أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربي ، ثم صاغ على نحوها (٥) .

وهذه الروايات وإن اختلفت في ظروف نقل ابن مسجع للغناء تتفق مع الروايات الأخر التي ذكرها أبو الفرج أن ابن مسجع أول من نقل الغناء الفارسي إلى العربي .

ثم إن أبا الفرج ذكر في موضع آخر أن ابن مُحَرِّز — مسلم أو عبد الله — كان أبوه من سدة السكبة ، أصله من الفرس — كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم العزف من عزة العملاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغناءهم ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم وغناءهم . وقد أسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم ، وأخذ محاسنه ومزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب ، فأثني بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صنَّاج العرب .

(١) الأغاني ٨١/٣ (٢) الأغاني ٨٢ و ٨١/٣ (٣) الأغاني ٨٢/٣ (٤) الأغاني ٨٢/٣ (٥) الأغاني ٨٤ ٣

وهو الذي ابتكر غناء الزمل، ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله، لأن ابن سَلَمَك أول من غنى رملا بالفارسية أيام الرشيد محاكياً لابن محرز وهو تلميذه<sup>(١)</sup>.

وذكر مرة ثلاثة أن سائب خاثر - الفارسي الأصل - أول من عمل العود بالمدينة وغنى به، وأن عبد الله بن عامر سيده كان قد اشترى إماء نائحات وأتى بهن المدينة، فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه، ويسمع الناس منهن، ثم قدم رجل فارسي اسمه نَشِيْطُ فغنى، فأعجب به عبدالله، فقال له سائب خاثر: أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسي بالعربية، ثم غدا عليه وقد صنع: «لن الديار رسومها ففر...».

وهو أول صوت غنى به في الإسلام من الغناء العربي المتفق الصنعة. ثم اشترى عبد الله نَشِيْطًا، فأخذ عن سائب الغناء العربي، كما أخذ عنه ابن سُرَيْجَ وجميلة ومَعْبَد وعزة الميلاء وغيرهم. وسائب هو أستاذ معبد، وكثير من أصواته منجولة إلى معبد<sup>(٢)</sup>.

وذكر في رواية رابعة أن طُوَيْسَ مولى بنى مخزوم أول من غنى الغناء المتقن من الخنثين، وأنه أول من صنع الهزج والرمل في الإسلام<sup>(٣)</sup> وكان في عهد عثمان ابن عفان، وقد علم ابن سريج والدلال ونومة الضحا. ويتفق ابن عبد ربه وابن شاکر مع أبي الفرج في أنه أول من غنى الغناء الرقيق في الإسلام<sup>(٤)</sup>.

ثم تقنا بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج، فذهب خدابخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب في الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا، وعلموا العرب الغناء على نعمات الدف والناي والطنبور

(٢) الأغاني ١٧٩/٧

(١) الأغاني ١/١٤٥٠

(٤) العقد الفريد ٣/١٨٦ وفوات الوفيات ١/١٩٧

(٣) الأغاني ٤/٣٨

والعود<sup>(١)</sup> .

والذي لاحظته على روايات أبي الفرج أنها لا تلتقى عند شخص معين يصح أن ننسب إليه السبق في إدخال الغناء الفارسي أو العربي ، فهو مرة ابن مسجح ، ومرة بن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نسيط ، وخامسة طويس .

ولست أذهب إلى إنكار أثر الغناء الفارسي والرومي في العربي ، بل إنى أؤكد أنه رفته ومدته ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء كان لهم فضل في تطوره وتجديده ورفده بالغناء الأجنبي ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب كما أسلفت - عرفوا هذا الغناء من قبل ، وأطربتهم به قيامهم ، وتحدثوا عن آلات الموسيقى فارسية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين . ولست أشك في أن الغناء شق طريقه نحو الرقي والكمال بعد اتصال المسلمين بالفرس والروم وغيرهم ، وصار فنا رفيعاً يختص به ذوو اللّهوات الخنوة ، والأذواق العالية ، والحس المرهف من نساء ورجال .

وقد بدأ ذلك منذ صدر الإسلام ، إذ انتشر الغناء وذاع واتخذ طرباً وموسيقى فيما لم يكن من قبل . يدل على هذا أن زيد بن ثابت الأنصاري ختن بنته فأولم ، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر حسان ابن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه ، فلما أكلوا ضربت عزة الميلاء على مزهرها وغنت بقول حسان .

فلا زال قبرين بضرى وجلق عليه من الوسمى جود ووابل

فطرب حسان وبكى . وقيل لخارجة بن زيد : أكان يكون هذا الغناء عندكم ؟ قال : في الأعراس ، ولم يكن يشهد بما يشهد به اليوم من السعة<sup>(٢)</sup> .

(١) مقدمة خدابخش لكتابات الحضارة الإسلامية لعمون كريم ٢٥

(٢) الأغاني ١٦/١٣ جود : مطر غزير



ويدل على هذا أيضاً أن ابن رشيق ذكر أنواع الغناء العربي من نصب وسناد وهزج ، ثم نقل عن إسحاق الموصلي أن هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الإسلام وفتحت العراق وجلب الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء الجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير<sup>(١)</sup>.

على أن بعض البدو ظنوا يجهلون آلات الموسيقى الدخيلة إلى العصر العباسي ، فإن ناهض بن ثومة بن نصيح الشاعر الفارس كان بدوياً جافياً كأنه من الوحش ، وقد انتجع الشام في العصر العباسي فقصص صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية بحلب ، فرأى عرساً ، فتحدث بما رأى حديثاً طريفاً ، يهمننا منه دهشته مما رأى من آلات الموسيقى ، وتصويره الطريف لأصواتها ، كقوله : «جاء شاب بحشبة عينها في صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك أذنها وحركها في يده ، فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هي أحسن قيده رأيتها قط ، وغنى عليها فأطربني حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبي أنت وأمي ماهذه الدابة ؟ فاست أعرفها للأعراب ، وما أراها خاقت إلا قريباً . فقال : هذا البربط . فقلت فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزير . قلت : فالذي يليه . قال : المثنى . قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث . قلت : فالأعلى ؟ قال : البم . فقلت آمنت بالله أولاً ، وبك ثانياً ، والبربط ثالثاً ، واليتم رابعاً<sup>(٢)</sup> » .

### الآلات الموسيقية .

لم تكن القيان يفتنن معتمدات على الصوت وحده ، فقد ذكر الشعراء أسماء الآلات الموسيقية التي كن يعزفن عليها .  
ومن هذه الآلات الدف وهو (الطار) قال عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيمان يعزفن بالدف لفتيانا وعيشاً رخياً<sup>(١)</sup>  
ومنها العود ، وهو أيضاً الكران والمزهر ، والبربط ، والموتر ، والمكبل ..  
وكتب اللغة تنص على أنها مترادفات . ولقد يصح ذلك ، ويصح أنها آلات  
مقاربة الشكل تشبه العود . قال الصَّعْب بن حَبَّان التغلبي :

وقَرَّبَ الخُرْدُ من قِيانِه عوداً له الفضل على عيدانِه  
أخف عند الحمل واحتضانِه من ريشة توضع في ميزانِه  
أخرس تلقاه على بيانِه كرامةً الجاسِ في هوانِه  
(٢)

وسماه سَامِي بن ربيعة المزهر في قوله يعدد لذاته :

والكثيرَ والخلفِضَ آمناً وشِرعَ المزهر الخنون<sup>(٣)</sup>  
وسماه امرؤ القيس الكران والمزهر :

فإن أمس مكروبا فيارب قينة منعمة أعمامها بكران  
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أحش إذا ما حرَّكته يدان<sup>(٤)</sup>  
وسماه الأعشى المزهر :

وصدوح إذا يهيجها الشرب ترقّت في مزهر مندوف<sup>(٥)</sup>  
وسماه البربط في قوله :

وبربطنا دائماً معـمـل فأى الثلاثة أزرى بها؟<sup>(٦)</sup>  
وسماه لبيد الموتر :

(١) الملامى للضي ٤١ مخطوط (٢) الملامى ٥٣٣

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٨٣/٣ الكثير : المال الكثير . الشراع : أوتار العود

(٤) ديوان امرؤ القيس ١٨٧ (٥) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ ترقّت :

تصعدت في غنائها . مزهر مندوف : عود يضرب على أوتاره

(٦) الممانى الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١

بصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأناله إبهامها<sup>(١)</sup>  
وسماه كعب بن زهير المكبل :

ورنة هتاف العشى مكبل ينازعه الأوتار من ليس راميا  
تنازعه مثل الملهاة رفيقة نجس الندامى تترك اللب رانيا<sup>(٢)</sup>  
وسموا أوتار العود محابض واحدها محبض ، وهى الشرع أيضاً مفردها  
شريعة ، قال تميم بن أبي بن مقبل :

صدحت لما جيداه تركض ساقها عند التجار مجامع الخلال  
فضلاً ينازعهها المحابض رجعها بأحد لا صحل ولا مصحل<sup>(٣)</sup>  
وذكروا الصنج أيضاً ، قال الأعشى إن الصنج يترنم استجابة للمزهر ،  
وكأنما يبكي بكاء الحزين مخافة أن يلام :

ومزهرنا دائماً معمّل فأى الثلاثة أزرى بها  
ترى الصنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يدعى بها<sup>(٤)</sup>  
وقال إن العود يجيب الصنج ويجاوبه :

ومستجيب تحال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل<sup>(٥)</sup>  
وفى لسان العرب أن الكرينة المغنية الضاربة على الكران وهو العود  
أو الصنج ، والكنارة نحو منه<sup>(٦)</sup> ، قال ليلى :

(١) الملامى للضى ٥٣٣ مخطوط وشرح القوائد العشر ١٦٣ والمعانى الكبير ١/٦٦٩  
وشرح المعاني السبع لابن الأنبارى ١١٤ مخطوط . تأناله : تصلحه وتسوسه . وفى لسان  
العرب تأنى له أى تطاوعه (٢) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٧٠ ب : لبيب  
(٣) الملامى للضى ٥٣٣ تركض ساقها مجامع الخلال : ترفع ساقها ذيلها . التجار  
الخمارون . فضل : فى ثوب بذلة . أخذ : ضامر . يعنى العود . الصحل والمصحل . الأبع  
(٤) ديوان الأعشى ١٧٣ والمعانى الكبير ١/٦٨٨ ولسان العرب مادة صنج . الصنج .  
دوائر صفار من النحاس تفاق بالأصابع وتنقر الراقصة عليها .

(٥) ديوان الأعشى ٤٦ مستجيب : عود (٦) لسان العرب ١٧/٢٣٨

صَعَلْ كَسَافَةَ التَّنَاةِ وَظَيْفَهُ وَكَأَنَّ جُوجُوهَ صَفِيحِ كِرَانٍ (١)  
 وقد وصف الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة الطائى أو قيس بن معد يكرب  
 مجلسَ شرابٍ وندامى وغناء بقوله :  
 وَمُسْتَقٌ صِينِيٌّ وَوَنٌّ وَرَبْرَبٌ يُجَاوِبُهُ صَنْجٌ إِذَا مَا تَرَّتْهَا (٢)  
 وهذه الآلات قد بقيت إلى العصر الأموى ، وعزفت القيان عليها ، مثل  
 سيرين وسلمى وجميلة وعزة الميلاء ورائقة (٣) .

---

(١) اللسان مادة كرن (٢) الملاحى للضبي ٢١ مخطوط . المستك : آلة يضرب  
 عليها معرب . الون : آلة طرب معرب . البربط : العود أو الزهر معرب . وذكر أن كلمة  
 مستق صيني أى يؤخذ باليدىن وفى القاموس مستق بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج  
 ونحوه ، معرب .  
 (٣) الأغاني ٢/١٦

## الفصل الثاني

# المرأة راوية للشعر وناقدة

١ - كان الشعر يذيع ويتخطى الآفاق والنجاد والقيافي بالرواية ، وكان يرويه جيل بعد جيل ، ويحفظه الرجال كما يحفظون الأنساب والوقائع .  
فهل روت المرأة الشعر؟ نعم ، فقد قدمت على النبي الفارعة بنت أبي الصلت  
أخت أمية بعد فتح الطائف ، فقال لها : هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟  
فأخبرته خبره ، وأنشدته شعره الذي أوله :

باتت همومي تسرى طوارقها أكفأ عيني والدمع سابقها  
وأنشدته قوله :

كل عيش وإن تطاول يوماً صائرٌ مرة إلى أن يزولا  
ليتني كنت قبل ما قد بدأ لي في تلال الحياة أرعى الوعولا  
فقال لها رسول الله : كان مثل أخيك كمثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ،  
فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وفي رواية أنها أنشدته شعراً دينياً لأمية  
فقال : آمن شعره وكفر قلبه<sup>(١)</sup> .

وكان الأعشى قد علم ابنته وثقتها ، حتى وثق بذوقها ونقدها ، فكان يعرض  
عليها شعره ، ويقول لها : عدى لي الحزبات - القصائد اللاتي يخزين غيره  
فلا يستطيع أن يأتي بمثلهن - فتسمعه من شعره<sup>(٢)</sup> .

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته ، وطواعية التعبير لها  
على البديهة ، فقد أرق ليلة وعنده ابنته ليل ، فعن له الشعر ، فقال :

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثنا أصولها  
ثم أجبل فلم يجد شيئاً . فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أحببت ! قال :  
أجل . فقالت : هل لك أن أجزع عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد . فأعاد البيت ،  
فقالت :

مقاويلُ بالمعروف خُرسٌ عن الخذا كرائمُ يُعاطون العشيّة سؤلها  
لحمي حسان فقال :

وقافيةٌ مثل السنان رزينة تناولت من جو السماء نُزولها  
فقالت :

براهها الذي لا ينطق الشعر غيره ويعجز عن أمثالها أن يقولها<sup>(١)</sup>  
وكانت عائشة مثلاً في رواية الشعر ، فقد تولى تربيتها جماعة من بني مخزوم ،  
فنشأت فصيحة اللسان ، قوية البيان ، حافظة لكثير من الشعر .

حدث هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحداً أعلم بفقته ولا بطب  
ولا بشعر من عائشة<sup>(٢)</sup> . وحدث أبو الزناد أنه ما رأى أحداً أروى لشعر من  
عروة ، وأن عروة قيل له : ما أرواك ! فقال : ما روايتي في رواية عائشة ؟  
ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً<sup>(٣)</sup> .

وكانت إلى هذه الرواية لبقّة حصيقة في الاستدلال بالشعر والتمثل به ،  
حدثت فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة  
أغزل ، فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فهبت ،  
فنظرت إلى فقال : مالك بهت ؟ فقلت : يا رسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك  
يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، ولو رأك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره

(١) الموشح ٦٢ في الأصل عنده بدلا من غيره

(٢) الطبقات ٣٩/٧ والإصابة ١٤٠/٨ وأسد الغابة ٥٠٤/٥ والاستيعاب ٢/٦٦٥

وتهذيب التهذيب ٤٣٥/١٢ (٣) الإصابة ١٤٠/٨ والطبقات ٨/٥٠ والاستيعاب ٢/٦٦٥

قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير أنزلني لا قلت : يقول :

وَمُبْرَأً مِنْ كُلِّ غُبْرٍ حَيْضَةٍ وَفَسَادِ مَرْضَعَةٍ وَدَاءِ مُغْيَلٍ  
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهَهُ بَرَقَتْ كِبْرَقُ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قالت : فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقبّل ما بين عيني ، وقال :  
جزاك الله خيراً يا عائشة ، ما سررت مني كسروري منك<sup>(١)</sup> .

وقالوا إنها كانت تروى القصيدة ستين بيتاً ، والقصيدة مائة بيت<sup>(٢)</sup> ،  
وكانت معجبة بشعر حُجَيَّةِ بْنِ الْمُضَرَّبِ ، وتحض على روايته ، لأنه يعين على  
البر<sup>(٣)</sup> . وذهب عطار و الزهري إلى أنها كانت أعلم الناس من نساء ورجال<sup>(٤)</sup> .  
وليس من الطبيعي أن تنفرد السيدة عائشة بالحفاضة الراوية للشعر بين النساء  
العربيات ، وإنما الطبيعي أن يشركها كثير من النساء ، فلا بد أن كانت نساء  
آخر يحفظن الشعر ويروينه ، لكنهن لم ينان ما نالت السيدة عائشة من مجد  
ونباهة صيت ، ولم تسجل حياتهن كما سجلت حياتها ، فهي زوج النبي ، وبنت  
صديقه وخليفته ، ولو لم يقدر لها أن تكون كذلك ، وأن تشترك في نصرته حزب  
سياسي قوى ، وأن تكون راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدر لها ذلك كله  
لضاع كثير من أخبارها كما ضاعت أخبار مئات من أمثالها .

٢ - أما نقدها للشعر فإنه كان كنفد الرجال ، قائماً على استحسان  
أو استهجان ، في جمل قصار تدل على الاستجادة أو الاستهجان .

فكان الأعشى إذا قال القصيدة عرضها على ابنته ، وقد كان ثقفاً وعلمياً  
ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام ، وكان يقول لها : عدى  
لى الخزيات - القصائد البارعة التي تعجز غيره - فتعد منها :

(١) الإحياء للغزالي ١٠٩/٣ ودلائل النبوة للبيهقي

(٢) الطبقات ٥٠/٨ (٣) أسان العرب ١٩/٦٦

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥

أغر أروع يُسْتَسْقَى الغامُ به لو قارع الناسَ عن أحسابهم قرعاً  
وتذكر ما أشبهها من شعره<sup>(١)</sup> .

وذكروا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الشعر ، فقال له علقمة :  
قد حاكمت بيني وبينك امرأتك أم جندب . قال : قدرضيتُ . فقالت لها :  
قولا شعرا على روى واحد وقافية واحدة ، تصفان فيه فرسيكما .

فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خِلِيَّ مَرَّايَ عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ . لِنَقْضِ أَلْبَانَاتِ النَّوَادِ الْمُعْدَبِ

.....

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذَهَبْتَ مِنَ الْمَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ . وَلَمْ يَكْ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجْنِبِ

.....

فغلبت علقمة . فقال زوجها : بأى شيء غلبته ؟ قالت : لأنك قلت :  
فلسوط ألحوبٌ وللساق درّةٌ وللزجر منه وقعٌ أخرج منعب  
فهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك .  
وعاقمة قال :

فَوَلَّى عَلَى آثَارِهِنَّ بِحَاصِبٍ وَعَيْبَةَ شُرُوبٍ مِنَ الشَّدِّ مُنْهَبٍ  
فَأَدْرَكْنِي ثَانِيًا مِنْ عَنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فلم يضرب فرسه بسوطه ، ولم يمره بساق ، ولم يتعبه بزجر .  
ففضب من قولها وطلقها ، وخلفها عليه عاقمة<sup>(٢)</sup> .

(١) الأغاني ١٥/١٠٦

(٢) الأغاني ٧/١٢١ و ٢١/١١٢ والموشح ٢٨ ألحوب : شدة عدو . درة : المراد  
سرعة جرى . أخرج : ظلم . منعب : عداء يمد عنقه . وروى مهذب سريع العدو . حاصب :  
ريح تحمل التراب . عيبة شُرُوبٍ : المراد دفعة قوية من السرعة . مايب : مسرع . الرائح  
المتحلب : المطر الغزير



وفي رواية عمر بن شبة وأبي عمرو الشيباني<sup>(١)</sup> وابن عائشة<sup>(٢)</sup> أن امرأ القيس تزوج امرأة من طيء فأبغضته ، ثم نزل به صديقه علقمة فتنازعا في أيهما أشعر ، فأقترح امرؤ القيس أن يصف كل منهما ناقته أو فرسه ، وأن يكون الحكم بينهما امرأة امرئ القيس . وتتفق رواية المفضل عن أبي النغول الأكبر مع هذه الرواية ، لكنها تنسب إلى علقمة أنه القائل : قل شعراً وانعت الصيد وهذه - يعني أم جندب - الحكم بيني وبينك<sup>(٣)</sup> .

وقالوا إن علقمة سمي الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجته<sup>(٤)</sup> .  
لكن هذه القصة المشهورة في حاجة إلى تمحيص .

ذلك أن الحكم من الناحية الفنية جائر ، لأن المعارضة لم تكن قائمة على المفاضلة بين الفرسين نفسيهما ، وإنما كانت قائمة على البراعة في الوصف ، وما من شك في أن كلا من الشعارين قد وصف حصانه فأجاد ، بغض النظر عن عتق الحصان وكرمه ، وشدته وإسراعه . فمثلا صور امرؤ القيس حصانه يجرى وراء الصيد ، ولكنه لم يغفل عن تصوير مشاعره ولهفته ليدرك هذا الصيد ، بأنه صب على حصانه سوطه وهمزه بساقه ، وزجره ، ليجود بما فوق الطاقة ، وهو بهذا التصوير لم يخرج على طبيعة الإنسان في أى زمان ، فالمسافر العجلان اليوم يركب الطائرة التي تقطع الأميال في الدقيقة الواحدة ، ويشعر بسرعتها التي ما كانت في خلد البشر ، ولكنه إذا كان مأهولاً يشعر أنه في حاجة إلى سرعة أعظم .

وكيف تغفل عن قول امرئ القيس بعد البيت الذي عابته أم جندب :  
فأدرك لم يجهد ولم يشن شأوه يمر كخذرُوف الوليد المنقب<sup>(٥)</sup>

(١) الموشح ٢٩ (٢) الأغاني ٧/٢٢١

(٣) الموشح ٣٠ (٤) الأغاني ٢١/١١٢

(٥) شأوه : طلبة . الخذرُوف : لعبة للصبيان تشبه النحلة المشيدة الآن

أى أنه قد أدرك طريدته دون حاجة إلى طَلْقٍ آخِرٍ ، وإنه ليعدو عدواً  
يكاد يخفى تفاصيل أجزائه ، مثل الدوّارة التي يرميها الصبي على الأرض فتدور  
مسرعة حتى لا ترى أجزائها . وهذا تصوير بالغ حد الروعة من حيث الصورة  
ومن حيث الوقع في النفس ، ذلك بأن الصبي حينما يقذف خذروفه في قوة  
ومهارة فيدور دوراناً قويا يعجب به ويباهى بمهارته ، وكذلك امرؤ القيس  
أجرى حصانه معجباً به وبنفسه ، وهو في وصفه هذا جار على طريقة العرب من  
حيث إثارة الصدق والتوسط بالخيال المقبول المشوق المستمد من الواقع .

ثم إن البيتين معاً يجعلان حصان امرئ القيس كحصان عاقمة عدواً  
وجوداً بأقصى ما يجود به الأصيل الكريم .

ومن الإنصاف أن نقرر أن قول امرئ القيس :

إذا ما جرى شأوينِ وابتل عطفُهُ      تقولُ هزيرُ الريحِ مرتِ بأثابِ  
ليس أقل روعة من قول عاقمة :

فأدرِ كهنِ ثانياً من عنائه      يمر كمرِ الريحِ التَّحَابِ

لأن امرأ القيس صور حصانه بعد ما جرى شوطين ، وابتل جنبه بالعرق ،  
سريعاً خفيفاً يهوى من جريانه الهواء ، كأنه ريح مرت بالأثاب خفياً قويا .  
وإذا ما قرأنا القصيدتين كليهما وراعينا أن امرأ القيس هو الباديء  
استرعى نظرنا أن عاقمة يجرى على إثره ، ويستعين كثيراً بأبياته . من ذلك  
أن البيتين الأولين من وصف عاقمة لحصانه هما البيتان الأولان من وصف  
امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها      وماء الندى يجرى على كلِ مذنبِ  
بمنجرد قيد الأوابد لاحه      طراد الهوادي كلِّ شأوٍ مغربٍ (٢)

(١) مذنب : مسيل ماء . لاحه : غير لونه . الهوادي : الوحوش السريعة . الشأو .  
الغاية والأمد مغرب : مسرع جدا

وليس المقام مقام توسع في الموازنة ، وقد وازن بين القصيدتين موازنة مفصلة الأستاذ السباعي بيومي ، من حيث وصف الشعارين لفرسيهما ، ومن حيث وصفهما للمدو والصيد ، ومن حيث النزول بعد الصيد والرواح منه ، وانهى إلى أن امرأ القيس أجود من علقمة ، وأن علقمة يحاكيه وينقل منه ، وأن من الإجحاف أن يؤخذ بقول أم جندب<sup>(١)</sup> .

على أن في القصة ما يفهم منه أن حكم أم جندب ضالع ؛ لأنها كانت تفرك امرأ القيس<sup>(٢)</sup> ، ولأنه ناسم حكما قال : ليس كما قلت ولكنك هويته<sup>(٣)</sup> . أما الناحية الثانية فهي أني أشك في هذا التحكيم ؛ لأنني لا أعقل أن تجرؤ امرأة عربية على أن تؤثر علانية رجلا على زوجها ، وهي واثقة بأن الرجال غير ، وهي أيضاً ذات حياء وحصافة . ولا يشفع في هذا أنها فارك تتهاج زوجها ليطلقها ، لأنها لم تكن تدري ماذا يجره حكما ، فقد يجر الطلاق الذي تريده لكنه مخالط بسوء ظن ومذمة ، وقد يجر عضلا وتعليقا ، وربما نجم عنه أن يزهد روحها زوجها الهائج الغضبان .

وكيف يغفل امرؤ القيس عن بغضتها إياه ، ويفتتح قصيدته بالغزل فيها ؟ ثم إنى أستبعد أن يقول الشاعران على البديهة هاتين القصيدتين الطويلتين البارعتين .

ولا أصدق أن تجرى على لسان أم جندب كلمة روى وقافية ، لأن الروى والقافية اصطلاح لم يعرف إلا فيما بعد .

وإنه ليعزز رأيي في اختراع القصة أن علقمة لم يسم فخلا لتزوجه أم جندب بعد امرئ القيس ، وإنما سمى فخلا - كما ذكر الجاحظ - للتفريق بينه وبين

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي بيومي ٢٥٦ - ٢٦٢

(٣) الأغاني ٢١/١١٢

(٢) الأغاني ٧/١٢١

عاقمة بن سهل بن عمارة من رهط علقمة النحل ، لَمَّا وقع عليه اسم الخصى <sup>(١)</sup> .  
 ويزيد هذا تعريزاً أن مئات من الشعراء وغيرهم من مشهورى الجاهلية  
 قد خلفوا غيرهم على نساتهم ، ولم يسم أحدهم بخلاً ، فلماذا خص عاقمة بهذا  
 اللقب ؟

ولكن القصة لها دلالتها على أن المرأة العربية كانت تتذوق الشعر ،  
 وتنفقه ، وتبين مواضع الجودة والرداءة فيه .

وهي شبيهة بقولهم إن حسان لما غضب من تفضيل النساء عليه قال  
 للنابغة : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة ، حيث تقول ماذا ؟ قال :  
 حيث أقول :

لما الجففات الغر يلعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما  
 ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحَرَّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا  
 فقال : إنك لشاعر لولا أنك قلت الجففات فقلت العدد ، ولو قلت الجفان  
 لكان أكثر . وقلت يلعن في الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ  
 في المدح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت  
 على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وشجرت بمن  
 ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً <sup>(٢)</sup> .

وعزى نقصد بيت حسان إلى النساء على مسمع من النابغة ، ذلك بأنها  
 قالت لحسان : ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟  
 قالت : قلت الجففات ، والجففات ما دون العشر فقلت العدد ، ولو قلت الجفان  
 لكان أكثر . وقلت الغر والفررة البياض في الجبهة ، ولو قلت البيض لكان

(١) الحيوان ١/١٣٠ . كان عاقمة بن سهل قد أسر باليمن فهرب ، فأسر ثانية

فخصى ، وقد أدرك الإسلام .

(٢) الأغاني ٨/٢٨٨

أكثر اتساعاً . وقلت يلعن واللعن شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحا ولو قلت بالليل لكان أبلغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت أسيافنا والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر دماً . وقات يقطن فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت دمًا ودماء أكثر من الدم . ونفرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً<sup>(١)</sup> .  
والوضع ظاهر في هذا الحكم ؛ لأنه يتكئ على التفرقة بين جمع المؤنث السالم وجمع التكسير من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة في عصر التدوين ، ويعتمد على المبالغة في الاستعارة وعلى التحويل في التصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما درست علوم البلاغة ، وزاحم العقل والمنطق الذوق والفطرة . والنقد كله منبعث عن إشار للغلو والمغالاة في المعاني في عصر كان الشعراء أميل فيه إلى الصدق والخيال المقبول . لذلك فإن قدامة بن جعفر على الحق في دفاعه عن حسان<sup>(٢)</sup> .

٣ — فلما جاء الإسلام نافست النساء الرجال في العلم والأدب ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حث الرجل والمرأة على التعلم ، وحث الرجل على تعليم ولده . وابنته ، إذ ذكر في الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها<sup>(٣)</sup> »

١ - فكان من المسلمات راويات للحديث ، يأخذ عنهن الرجال ، كالسيدة عائشة<sup>(٤)</sup> ، وقد تلتقى على بن أبي طالب الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته هي ميمونة بنت سعد<sup>(٥)</sup> . وعد محمد بن سعد أكثر من سبعائة

(١) شرح مقامات الحريري للشمري ٢/٢٥٣ والمعارف ١٠٥ وشرح شواهد المغني ٩١

(٢) فتح البدي بشرح مختصر الزبيدي ١/١٠٢

(٣) نقد الشعر ٣٦

(٤) الإصابة ٨/١٧٣ .

(٥) الإصابة ٨/٤٠

راوية للحديث عن رسول الله أو عن الثقة من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهم<sup>(١)</sup> .  
وكذلك فعل ابن حجر<sup>(٢)</sup> في كتابه (الإصابة) على أنه ذكر ٣٢٢ صحابية روين  
عن الرجال وروى عنهم الرجال في كتابه (تهذيب التهذيب)<sup>(٣)</sup> .

وألف الحافظ الذهبي كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) قال فيه :  
وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها<sup>(٤)</sup> .

وقرأ أبو بكر الخطيب الحافظ أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ)  
صحيح البخارى بمسكة على كريمة المروزية<sup>(٥)</sup> .

وتتلمذ الحافظ أبو القاسم بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) لشيوخ عدة منهم  
بضع وثمانون امرأة<sup>(٦)</sup> .

وسمع محمد بن المؤرخ أبي شامة المقدسى صحيح البخارى وغيره على أم الفضل  
كريمة بنت عبد الوهاب المتوفاة ٦٤١ هـ<sup>(٧)</sup> .

وكان لشهدة الكاتبة المتوفاة ٥٧٤ هـ السماع العالى الذى أُلحمت فيه الأصاغر  
بالأكبر ، وقد سمع عليها خلق كثير<sup>(٨)</sup> .

ب - وكان منهن ناقدات للشعر يتجرى الشعراء مرضاتهن . فكانت عمرة  
الجمعية صاحبة وهب بن زمنة الجمعى امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة  
وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دهب لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع  
إليها ، وكان يحبها وتحبه ، فلما قيل لها إن أمرها ذاع احتجبت عن جلاسها ،  
وعن أبي دهب ، فقال :

تطاول هذا الليل ما يتبلىج وأعيّت غواشى عبّرتى ما تفرّجُ

(١) الطبقات الكبير لابن سعد (٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر

(٣) تهذيب التهذيب ٣٩٧/١٢ - ٤٩٢ (٤) ميزان الاعتدال ٢/٦٨٢ -

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢ (٦) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٧٣

(٧) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٧٣ أبو شامة

(٨) وفيات الأعيان ١/١٨٣ .

وبث كئيبا ما أنام كأنما      خلال ضلوعى جمره تنوهج  
فطوراً أمئى النفس من عمرة المئى      وطوراً إذا ما ليجّ بي الحزن أنشج  
لقد قطع الواشون ما كان بيننا      ونحن إلى أن يوصل الحبل أحوج<sup>(١)</sup>

ج - وكانت فى الإسلام تجيز الشعر كما أجازته سابقتها فى الجاهلية ، ومن ذلك أن عقيل بن علفة كان فى سفر ومعه ابناه علفة وجثامة وابنته الجرباء فقال عقيل :

قضت وطراً من ديز سعد وطلما      على عرض ناطحنه بالجحاجم  
إذا هبطت أرضاً يموت غرابها      بها عطشاً أعطينهم بالخرائم  
ثم قال : أنفذ يا علفة ، فقال علفة :

فأصبحن بالمومنة يجمان فتية      نشاوى من الإدلاج ميل العائم  
إذا علم غادرته بتنوفة      تدارعن بالأيدى لآخر طاسم  
ثم قال : أنفذى يا جرباء ، فقالت :

نأن الكرى سقاهم صر خديّة      عماراً تمشى فى انطاً والقوائم  
فغضب عقيل وهاج وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ،  
ثم أحال عايبها يضربها فصدده عنها أخوها<sup>(٢)</sup> .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، وقد أنشدها أبو عمرو  
قصيدة قيس بن الخدّادية التى مطلعها :

أجدك إن نعمت نات أنت جازع      قد اقتربت لو أن ذلك نافع  
فاستحسنتها ، وكان يحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم : من قدر منكم أن  
يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه . فلم يقدر أحد منهم

(١) الأغانى ٦/١٥٠

(٢) الأشعرية لابن قتيبة ٥٩ مخطوط والأغانى ١١/٨٢ علم : جيل . تنوفة : صحراء  
لاماء بها ولا أنيس . تدارعن : أسرعن . طاسم : منطس . صر خديّة : خر .

على ذلك<sup>(١)</sup> . وقد أسمعها الغريص قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب ، ثم استزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، وطلبت منه أن يغنيها في شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبي ربيعة . فضحكت وأعطته خمسة آلاف أخرى<sup>(٢)</sup> .

وكانت سُكَيْنَةُ بنت الحسين ذات صيت طائر في حب الشعر وتذوقه وتقدمه حتى ليصح أن تقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت صاحبة ندوة أدبية يهفو إليها الشعراء ، فيُستمعونها ويستمعون رأيها وتقدها ، ولها في ذلك أخبار شتى ، منها أنها أشدت قول الحارث بن خالد :

ففرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الخمر  
فقلت أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم ، فقلت : وما حسنه ؟ فوالله  
لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها<sup>(٣)</sup> :

ولما أنشدها الغريص قصيدة عمر بن أبي ربيعة :

ألم بزينب إنَّ البين قد أفدا قُلَّ الثَّوَاءَ لئن كان انرحيل غدا  
طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت : أحسنت والله وأحسن ابن أبي ربيعة ، وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك<sup>(٤)</sup> .

وقد زارها بالمدينة الفرزدق فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت ، أشعر منك جرير الذي يقول :

بنفسى من تَجَبُّبُهُ عَزِيزٌ عَلَىَّ وَمِنْ زيارته نَامَ  
ومَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَّعَ النِّيامَ  
فقال لها : والله لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد فسأله فأجاب كالذيوم السابق ، فقالت : جرير أشعر منك ، وذكرت بعض شعره ،

(٢) الأغانى ٣/٣٢٠ .

(٤) الأغانى ٢/٣٧٦ .

(١) الأغانى ١٣/٧ .

(٣) الأغانى ٣/٣٢٧ .



وكذلك فعلت في اليوم الثالث<sup>(١)</sup> ونقدت أيضاً قصيدة لعمر<sup>(٢)</sup>.

وكذلك نقدت كالم بنت سعد الحزومية شعراً<sup>(٣)</sup>. وكانت خرقاء العامرية محبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ، ومن قولها : كان رقيق البشرة ، عذب المنطق ، حسن الوصف ، مقارب الرصف<sup>(٤)</sup>. وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثيرٍ بعض شعره ، ونقدته ، وفضلت عليه امرأ القيس<sup>(٥)</sup>.

د -- أما الموالى فكانت لمن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء إلى التنافس في اقتنائهن ، وحسبى أن أذكر أنه كان منهن مغنيات أستاذات ، تلتقى عنهن زعماء المغنين ، فمثلاً جميلة كانت أستاذة ابن سريج<sup>(٦)</sup> ، وأستاذة معبد ومالك<sup>(٧)</sup> وعاتكة بنت شهدة كانت أستاذة إسحاق الموصلي<sup>(٨)</sup>.

هـ -- وإذا فقد برعت المرأة في صدر الإسلام وفيما بعده ، واشتهرت بعارف شتى حتى سامت الرجال أحياناً ، وليس من المعقول أن تكون خاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجأة ، وإنما الطبيعي أن الإسلام قد استهبل على العرب والنساء يسهمن في المعرفة ، ويسرن كالرجال بخطا نحو الكمال ، فكان الإسلام مشجعاً على حث الخطأ ، وكان نوراً إلى الهدف الذي يآتمه النساء والرجال جميعاً.

---

(١) الأغاني ٥٠/٧  
 (٢) الأغاني ٣٧٧/٢  
 (٣) الأغاني ٢٠٥/١  
 (٤) الأغاني ١٢٠/١٦  
 (٥) الأغاني ٥٧/١٤  
 (٦) الأغاني ١٢٦/٧  
 (٧) الأغاني ١٢٦/٧  
 (٨) التاريخ الكبير لابن عساكر ٤١٦/٢ .

## الفصل الثالث

# المرأة الشاعرة

العرب أمة شاعرة كما سبق ، وقد قاومت آلاف من قصائدها عوادي الدهر ، حتى جاء عصر التدوين فدونت وأطلت علينا .  
وبديهى أن هذا الشعر الذى غالب الزمن وتحطاه لم يكن أول شعر قد اكتمل خصائص الشعر الأسلوبية والمعنوية والموسيقية ، فهو من غير جدال مسبق بمحاولات شتى فى أزمان متطاولة .

وكان العرب يعترفون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم ، والإشادة بفضائلهم ، فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ، « ولم يكن من اللغو أن نقول إن العرب قرضوا وحدهم من الشعر - فى الجاهلية والإسلام - أكثر مما قرضته أمم العالم مجتمعة<sup>(١)</sup> .

وقد حقق رواية الشعر فيما يروون ، وتحرروا الصواب جهدهم ، ونهبوا على كثير من الدخيل المنحول ، حتى لقد حدث الزبير عن ابن سلام عن يحيى بن سعد القطان أنه قال : رواية الشعر أعقل من رواية الحديث ، لأن رواية الحديث يروون مصنوعا كثيرا ، ورواية الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع<sup>(٢)</sup> .

فمن المروى من شعر النساء

أمام هذا الفيض الزاخر من شعر الرجال لأنجد إلا قلة من شعر النساء ،

وبخاصة في الكتب الأولى التي جمعت الشعر ، كالتبقيات لابن سلام ،  
والمفضليات المصنبي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ،  
والحماسة لأبي تمام .

فمثلا في المفضليات للضبي مرثية واحدة لامرأة من بني ضُبَيْعَة في خمسة  
أبيات ، وليست هذه المرأة معروفة الاسم أو العصر .

وذكر ابن سلام من أصحاب المرائي متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة  
وكعب بن سعد الغنوي ، ثم قال : والمقدم عندنا متمم بن نويرة<sup>(١)</sup> ، ثم ذكر  
الخنساء في إيجاز جدا بقوله « بكت الخنساء أخويها صغرا ومعاوية ، فأما صخر  
فقتلته بنو أسد ، وأما معاوية فقتلته بنو مرة من غطفان . فقالت في صخر كلمتها  
التي تقول فيها :

« وإن صخرًا التائمُ الهداة به » وكلمتها الأخرى :

أمن حدث الأيام عينك تهمل      وتبكي على صخر وفي الدهر مذهل  
وقالت في معاوية قصيدتها :

ألا ما لعينيك أم ما لها      لقد أخضَل الدمع سيرها لها<sup>(٢)</sup>  
فكأنها في رأيه لم تقل غير هذا .

ولم يذكر الآمدى في المؤتلف والمختلف إلا بضع شاعرات .

ولم يذكر المرزباني في معجم الشعراء امرأة .

وذكر القرشي في الجهرة تسعا وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعرا ، منها  
سبع قصائد في الرثاء ، ولم يذكر شاعرة .

لماذا قلت رواية شعرهن أولاد؟

ولعل الأسباب في قلة ما روى من شعرهن أول الأمر راجعة إلى  
هذه الأمور :

١ — كان الرواة في عصر الجمع والتحصيل حراساً على الغريب ، فكانوا يأخذون عن الأعراب ، لأنهم يقدرون في الشعر قيمته اللغوية ، وسنرى أن شعر النساء قليل الغريب ، فلم يحفل الرواة بروايته وإذاعته .

٢ — وشعر النساء كما سنرى موحد الغرض في القصيدة الواحدة ، وربما حسب الرواة هذا عجزاً ، لأن العرب جروا على تعدد موضوعات القصيدة ، وتنوع أغراضها ، وألف الرواة هذا التعدد .

وليس أدل على إعجابهم بنظام القصيدة الجاهلية الجارية على تعدد الموضوعات من أنه سيطر على القصائد العربية إلى العصر الحاضر .

٣ — وكان الشاعر لسان قبيلته ، يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل في شعر النساء ذكر الحروب والأيام ، فلم نجد المؤرخون والإخباريون فيه طلبتهم .

٤ — وربما كان مردّ بعض ذلك إلى لون من التعصب ، فقد ضرب المثل ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ، ولم يضرب بالخنساء مثلاً في إجادتها الرثاء . من ذلك قول ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد ، ولا وصف الحُمُر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامه إلا احتاج إلى عاتمة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني (١) .

وقد سبق إيثار ابن سلام لثمم بن نويرة في الرثاء ، ومثل هذا كثير في كتب الأدب .

٥ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أو التغافل أن الشعر الجاهلي قد فُقد كثير منه ، كما يقرر عمر بن الخطاب وأبو عمرو بن العلاء (٢) ، وكما يقرر ابن سلام (٣) ، فضع من شعر النساء كثير وبقى قليل .

(١) الأغانى ١٥/٩٣ (٢) طبقات الشعراء ٢٣ والخصائص ٩٣١

(٣) طبقات الشعراء ٢٣ و ١١٥ و ١١٦ و ٢٠٥

٦ — ثم إن أوسع أبواب الشعر العربي في الجاهلية ما يتصل بالحروب والمفاخرات والحماسة عامة ، حتى إن القبائل التي كانت تنعم بالسلام الطويل لم ينبغ فيها إلا قليل من الشعراء « فمثلا بالطائف شعراء وليسوا بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يعبرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يجاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان ، وأهل الطائف في طرف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت وابنه أمية وغَيَّيلان بن سامة وكنانة بن عبد ياليل ، وأبو مَجْنَن بن حبيب النخعي (١) .

وقد كانت الحرب والحماسة أخلق بالرجال من النساء ، وإن كن قد شاركن في هذه وفي تلك .

٧ — وتقد يكون من بواعث هذا الإغفال أن العرب يؤثرون الفحولة والجزالة في الشعر ، وهم قد وجدوا في شعر الرجال قوة ورسانة فاحتفوا به ، ووجدوا في شعر النساء ليناً وضعفاً فلم يحفلوا به .

ولانسى أن الكتب الأولى للمختارات ، وهي القصائد المطولة المسماة بالمعانيق — التي اختارها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ هـ — وجمهرة أشعار العرب للقرشي المتوفى سنة ١٧٠ هـ (٢) والمفضليات للضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ (٣) ، والأصمعيات للأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، كلها ليست خالية من شعر النساء فحسب بل من شعر المولدين أيضا . فكأن هؤلاء وجدوا في شعر المرأة رقة وسهولة فألحقوا شعرها بشعر المولدين .

(١) طبقات الشعراء ٢١٧ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٣٦٤ ومقدمة الإلياذة للبتاني ١٧٢ .

(٣) ذكر الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال ، والحافظ الجزري في طبقات القراء أنه توفي ١٦٨ هـ ، وذكر ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة أنه توفي ١٧١ هـ وخطأ ثم أحمد شاكر وعبد السلام هارون ورجحا أنه توفي حوالي ١٧٨ (مقدمة شرح المفضليات ٢٣/١) .

## مراجع مافئة بشعرهن فيما بعد

ثم حفلت المراجع بشعر النساء في الجاهلية والإسلام ، كالأغاني . بل لقد ألف المرزباني كتابا في ثلاثة أجزاء جمع فيه كثيرا من شعرهن سماه ( أشعار النساء ) لكن الموجود منه الجزء الثالث وحده <sup>(١)</sup> ، وقد ذكر ياقوت أن أشعار النساء للمرزباني في ستمائة صفحة <sup>(٢)</sup> . وللخزرق أخت طرفة ديوان مخطوط <sup>(٣)</sup> ثم طبع .

ولجنوب الهذلية ديوان ذكره صاحب كشف الظنون <sup>(٤)</sup> .

وللخنساء ديوان مخطوط ومطبوع <sup>(٥)</sup> ،

وجمع الأب لويس شيخو اليسوعي كثيرا من مرثي شواعر الجاهلية في كتاب رياض الأدب في مرثي شواعر العرب <sup>(٦)</sup> ، في نحو مائة وستين صفحة ، اعتمد فيه على كثير من المراجع المطبوعة والمخطوطة كالأغاني ، والسكامل لابن الأثير ، وكتاب القصيدة النورانية في مناقب العدنانية مخطوط في المكتبة الشرقية ، وكتاب الرقائق في مجموعة الشعر الجاهلي الزائق ، والعمدة ، ومعجم البلدان ، والحماسة . والمثل السائر ، وشرح ابن بدرون على قصيدة ابن زيدون ، وأمثال العرب للضبي . والعقد الفريد ودرة الغواص الخ .

ثم ألف السيوطي كتاب ( نزهة الجساء في أشعار النساء ) <sup>(٧)</sup> ، وذكر في مقدمته أنه جزء لطيف في الشاعرات الحدنات دون المتقدمات من الجاهليات والحضرمات ، فإن أولئك لا يُحْصَيْن كثرة ، حتى إن الطرماح جمع كتابا في

(١) أشعار النساء للمرزباني مخطوط ٨ أدب ش (٢) معجم الأدباء ٢٦٩/١٨  
 (٣) ديوان خزرق مخطوط ٣٤ أدب ش ٥٦٨ (٤) كشف الظنون ٢٧١/٣ لبسيك  
 (٥) مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش والطبوع أنيس الجساء في شرح ديوان الخنساء  
 الأب لويس شيخو ١٨٩٦ م .  
 (٦) طبع في بيروت ١٨٩٧ م (٧) مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر

أخبار النساء الشواعر من العربيات ، فجاء في عدة مجلدات ، رأيت منها المجلد السادس ، وليس هو الأخير<sup>(١)</sup> على أن كتب الأدب واللغة والتاريخ حافلة بقطوف من شعرهن كالأغاني ، وخزانة الأدب ، والعقد الفريد ، وعيون الأخبار ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم استعجم للبكري ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الأثير ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، وبلاغات النساء لابن طيفور ، وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكي ، ووصف جزيرة العرب للهمداني ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال ، وحماسة البحتري ، وسيرة ابن هشام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للحموي ، وزهر الآداب للحمري ، والكامل للمبرد ، والمؤتلف والمختلف للآمدى الخ .

### شعر منقول للنساء :

١ — ليس بصحيح كل شعر عُزِي إلى النساء ، فإن بعضه دخيل عليهن ، نَحَله بعض الناس إياهن ، ولقد يكون بعضه لشاعرة ويُنحَل أخرى ، وبعضه لشاعر وينحَل شاعرة ، وبعضه من عمل الراوي أو المؤلف .

ومثل هذا حدث في شعر الرجال ، فمثلا حدث أبو عبيدة أن قراد بن حنش المرثي من شعراء غطفان ، كان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لارزية مثلها ما تبغى غطفان حين أضلت<sup>(٢)</sup>

وحدث الأصمعي أن طفيلة الغنوي في بعض شعره أشعر من امرئ القيس .

(١) نزعة الجلباء في أشعار النساء مخطوط مس ٢

(٢) الموشح المرزباني ٧ :

وحدث الرياشي أن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه مثل عمرو ابن قميئة<sup>(١)</sup> . وكثيراً ما ذكر ابن سلام أن في بعض ما يروى نحلاً وانتحالاً<sup>(٢)</sup> . وفي الأغاني كثير من هذا كالأبيات التي قالها عمر بن أبي ربيعة أوزالده أبي نهشل في مدح هشام بن المغيرة ، ونسبت إلى عبد الله بن الزبيرى<sup>(٣)</sup> .

وقد نبه القدماء على كثير من هذا المنحول ، كقول عامر بن جُوَيْن في غزله .  
بهند بنت امرئ القيس بن حُجْر :

هممت بنفسى كل الموموم      فأولى لنفسى أولى لها  
سأحمل نفسى على آلة      فأما عليها وإما لها

هكذا روى ابن أبي سعد عن دارم بن عقال . ومن الناس من يروى هذا للخنساء في قصيدتها :

ألا ما لعينى ألا ما لها      لقد اخضل الدمع سرها<sup>(٤)</sup>  
والبيتان في ديوان الخنساء<sup>(٥)</sup> :

وقد ذكر ابن إسحاق أربع قصائد لهند بنت عتبة في رثاء قتلى بدر ، وعلق عليها ابن هشام بأن أهل العلم بالشعر ينكرونها<sup>(٦)</sup> .

٢ — والخطب هنا سهل ؛ لأن دوافع النحل والانتحال في شعر النساء أقل منها في شعر الرجال . ومن السهل أن ترد بعض ما ألصق بهن من شعر دخيل ، معتمدين على سمات فيه لا تتفق وخصائصهن وأنوثتهن .  
من ذلك ما نسبته البحرى إلى امرأة في رثاء :

أقول لنفسى في خفاء ألومها      لك الويل ما هذا التجلبد والصبر؟

(١) المرجع السابق ٣٤ و ٣٧ .

(٢) طبقات الشعراء ٣٢ و ٤٠ و ٤١ .

(٣) الأغاني ٦٣/١ (٤) الأغاني ٦٩/٨ .

(٥) نزهة الجلساء ٢٠٥ .

(٦) سيرة ابن هشام ٤١٤/٢ - ٤١٧ .



ألا تفهمين الخبّر أن لست لاقياً أخى إذ أتى من دون أ كفانه القبر<sup>(١)</sup>

فقلمة « لاقياً » تدل على أن القائل رجل لا امرأة .

على أن أبا الفرج روى بعض أبيات هذه القصيدة لعلى بن عبد الله أخى جُعْفَى<sup>(٢)</sup> ، ورواها كلها أبوعلی القالی لسلمة بن يزيد فى رثاء أخيه لأمه قيس ابن سلمة<sup>(٣)</sup> ، وكذلك رواها أبوتمام لسلمة الجُعْفَى فى رثاء أخيه<sup>(٤)</sup> .  
ومن ذلك ما ذكره اليزيدى للخنساء<sup>(٥)</sup> .

أنا بأكِّ عليك للمعروف ولصكّر الكماة بين الصفوف

ولو أنه للخنساء لقالت بأكية ، على أن القصيدة ليست فى ديوانها .

كذلك ما ذكره الحصرى من قصيدة لامرأة ترضى طفلها ، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً ، فإن فيها أبياتاً تدل على أن قائلها رجل لا امرأة ، مثل :

فدعا لأنصره وكننت له من قبل ذلك حاضر النصر  
لو قيل تفديه بذلت له مالى وما جمعت من وفر  
أو كنت مقتدراً على عمرى آثرته بالشطر من عمرى  
قد كنت ذا فقر له ففدا ورمى على وقد رأى ققرى<sup>(٦)</sup>

فقلمة حاضر ، وتفديه ، ومقتدر ، وذا ، دالة على ذكر لا أنثى . والدعوة إلى النصر إنما توجه إلى الأخ لا إلى الأخت .

ولقد يقدر فى نسبة الشعر إلى شواعر من العصر الجاهلى تهاقت عبارته ، وضمف صياغته ، ونبوه عن الأسلوب العام لذلك العصر . من هذا الضرب كثير

(١) حماسة البحترى ٤٣١ ؛ (٢) الأغانى ١٠٦/٢١ (٣) الأمالى ٧٣/٢

(٤) شرح التبريزى للحماسة ٥٩/٣ (٥) مرث وأشعار مخطوط بمعهد المخطوطات ٩ ؛

(٦) زهر الآداب ٨/٢ على هامش القمد الفريد .

كما بالجزء الثاني من جبهة أشعار العرب للقرشى (١) .

وأرجح أن هذا الجزء معزوم إلى القرشى ، وليس من تأليفه . على أن به بعض القصائد المشهورة التي أجمع الأدباء على صحتها ، لكنها مزيدة كثيراً ، مثل قصيدة جلييلة أخت كليب (٢) .

ومن هذا الضرب ما روى أن أمامة بنت كليب - ولم يكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة - دخلت على عمها المهايل حين قتل أبها جساس وابن عمرو ابن الحارث ، فأخبرته بقتله ، وقيل إنها وجدته سكران ، فقالت له (٣) :

أتلهو بالملاهي والخمور ولا تدرى بمعاينة الأمور  
ولا تدرى بأن كليب أخى قتيلاً عند جساس الغدور  
فوا عجباً لجساس وعمرو لقد رميا أخاك بعنقفير (٤)  
على ناب البسوس سراب أعنى يُبيحُ دمه سدى كدم البعير (٥)

فأسلوب هذه الأبيات ركبك مخيف ، وأغلاطها النحوية كثيرة ، وكلمة عنقفير ليست من أسلوب المرأة ولا من أسلوب فتاة في الثامنة عشرة ، ثم إنه ليس بصحيح أن مهايلاً كان يجمل قتل أخيه حتى أخبرته ابنته .

على أنه مما يخالف طبائع الأشياء أن تعلم فتاة بمقتل أبيها ، ثم تدخل على عمها فتلقى عليه شعراً ، لأن الحادث مذهل ، لا تسعف فيه البديهة بشعر ، بل الطبيعي أن تولول وتصيح .

(١) مخطوط بمكتبة نيور (٢) الجمهرة . الجزء الثاني ١٧٧

(٣) رياض الأدب ٦ (٤) عنقفير : داهية عظيمة

(٥) سراب : علم على ناقة البسوس .

# فنون شجرها

## الرثاء

أسلفت القول في حب الأم لابنها ، والمرأة لزوجها ، والبنت لأبيها ، والأخت لأخيها ، والقريبة لقربها ، وذكرت نماذج من رثائهن لهؤلاء .  
ورثاء هو المجال الفسيح الذي تطلقت فيه عواطف المرأة ، لأنه نوع من النواح والبكاء ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو كَرَبَهَا القضاء ، وإنها لتلتذ الحزن وتستديمه ، وتوالى البكاء وتستطيعه ، وفاء وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها .

فهل كان لثاء النساء خصائص تميزه من رثاء الرجال ؟

١ — الذي أحسسته في مرثيهم أنهم يشدون بفضل المرثي من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفة الخ كما أشاد الرجال في مرثيهم .  
فمثلاً ترثي الخنساء صخرًا بالشجاعة في قولها :

فمن للحرب إذ صارت كَلُوحًا      وَشَمَّرَ مُشْمَعُوهَا لِلنَّهْوِضِ  
وخيَلٌ قَدْ دَلَقَتْ لَهَا بِأُخْرَى      كَانَ زَهَاهَا سَنَدُ الْخَضِيضِ  
إِذَا مَا الْقَوْمِ أَحْرَبَهُمْ تَبُولٌ      كَذَاكَ التَّبَلُّ يُطَلِّبُ كَالْقُرُوضِ  
بِكُلِّ مُهَيَّئِدٍ عَضْبِ حُسَامٍ      رَقِيقِ الْخَدِّ مِصْقُولِ رَحِيضِ<sup>(١)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٥٨ سند المضيض : أسفل الجبل حيث يكون أرسى وأصلب .  
أحربهم : هيجهم . الرحيض : المفضول وتريد به السيف الصقيل كان الماء يقطر منه لشدة صفائه زهاهما : منظرها .

وترثيه بالكرم ، وإغاثة الجار ، وإصلاح ذات البين ، والحلم في قولها :  
 فمن لقرى الأضياف بمدك إن همُ ففءك حلو ثم نادوا فأستموا  
 كمهدك إذ أنت حتى وإذ لهمُ لديك منالاتٍ وريٌّ ومشيّع  
 ومن لهممٍ حل بالجار فادحٍ وأمير وهي من صاحب ليس يُرقع  
 ومن جليسٍ مفحشٍ لجلسه عليه يجهل جاهداً يتسرّع  
 ولو كنت حيا كان إطفاء جهله بحلمك في رفق وحلمك أسرع<sup>(١)</sup>  
 وهي في رثائها لا تخرج عن وصف أحزانها ، وتعداد مناقب أخويها ، كما  
 يعدد الرجال مناقب الرجال .

ولقد تعاضلت هي وهند بنت عتبة مصيبتيهما ، وادعت كل منهما أنها أعظم  
 بلوى ، فالخنساء تعاضم بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وهند  
 تعاضمها بأبيها عتبة وعمها شيبه وأخيها الوليد ، ولكنهما في هذه المفاخرة لم  
 يخرجوا على هذا السياج ، وإنما نوهتا بالحمد المألوفة .  
 قالت الخنساء :

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة - قليل إذا نام الخلى هجودها  
 وصنوي لا أنسى معاوية الذي له من سرات الخرتين وفودها  
 وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا غدا بساهمة الأطل قبًا يقودها  
 فذلك يا هند الرزية فاعلمى ونيران حرب حين شب وقودها<sup>(٢)</sup>  
 فأجابتها هند بقولها :

(١) الديوان ١٥٩ الحى : جماعة القوم ، أى لو نشب الشر بين القوم لشملهم حلمه  
 وتدارك جهلهم . وهذا على رواية ولو كان حيا . أما الرواية التي اخترتها ( ولو كنت حيا )  
 فعناها لو كنت يا صخر موجوداً لتداركت هذا الشر قبل استنعاله .

(٢) الأغاني ٤/٢١١ وجمع الأمثال ٢/٢٠٥ الخرتين : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال  
 بالججاز أى هو مقصد الأشراف من القبائل يأتيونه فيما يلم بهم . ساهمة : دقيقة . الأطل  
 الخواصر جمع لطل . قب : جمع أقب الفرس الدقيقة المحصر الضامرة البطن .

أبكى عميدَ الأبطحين كليهما      وحاميهما من كل باغ يريدها  
 أبي عتبة الخيراتِ ونحك فاعلمى      وشيبةُ والحامى الذمار وليدها  
 أولئك آل المجد من آل غالب      وفي العز منها حين يُنمى عديدها<sup>(١)</sup>  
 وقالت لها الخنساء أيضاً :

من حسن لي الأخوينِ كالغصنين أو من راهما  
 أخوين كالصقرين لم ير ناظر شرواهما  
 قرميين لا يتظالمنا      ن ولا يُرام حماها  
 أبكى على أخو      نى والقبر الذى واراها  
 لا مثل كهلى فى الكهو      ل ولا فتى كفتاهما  
 رحين خطيين فى      كبد السماء سناها  
 ما خلفنا إذ ودعا      فى سُوددِ شرواهما  
 سادا بغير تكلف      عفواً بقميصِ نداها<sup>(٢)</sup>

والخنساء تنزع النزوع نفسه فى رثاء زوجها مرداس بن أبى عامر الشلمى ،  
 فتشيد بعزيمته وشجاعته وقوته وتحليصه السبايا :

وفضل مرداساً على الناس فضله      وأن كل همِّهمَّ فهو فاعله  
 وأن ربَّ واد يكره القومُ هبطه      هبطت ، وماء منهل أنت ناهله  
 وسبى كآرام الصريم حويته      خلال رجال مستكين عواطله  
 متى ما تعادل ما جدا تعادل به      كما عدل الميزان بالكف ثاقله<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٢١٢/٤ وجميع الأمثال للميداني ٢٠٥/٢ الأبطحين : مكة وسهل تهامة .  
 عديدها : جموعها .

(٢) الديوان ٢٥٦ والأغاني ٢١٣/٤ حس : أدرك . شرواحا : مثلها . قرمان : سيدان .  
 كهلى : تريد أخواها معاوية وكان بكر لإخوته . فتى . تريد صغرا وضمير فتامعا يعود لى فرعى  
 بنى سليم (٣) ديوان الخنساء ١٩٩ آرام : طباء . الصريم : الرمل . نافلة : وازنه .

وهذه النزعة نفسها محققة في مرثية دُخْتَنُوس<sup>(١)</sup> لأبيها تقيط بن زرارة :  
 بَكَرَ النَعْيُ بِخَيْرِ خُنْدِفٍ كَهْلِهَا وَشَبَابِهَا  
 وَبَخِيرَهَا نَسَبًا إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَنْسَابِهَا  
 وَقَرِيعِهَا وَنَجِيبِهَا فِي الْمَطْبَقَاتِ وَنَابِهَا  
 وَرَئِيسِهَا عِنْدَ الْمَلِكِ وَزَيْنَ يَوْمِ خَطَابِهَا  
 فَيُؤْمَلُهَا وَيُحُوطُهَا وَيَذُبُّ عَنْ أَحْسَابِهَا  
 وَيَبْلُغُهَا مَوَاطِنَ لِلْعَدُوِّ كَانِ لَا يُمَشِّي بِهَا  
 فِعْلَ الْمَدْلِ مِنَ الْأَسْوَدِ لِحَيْنِهَا وَتَبَابِهَا<sup>(٢)</sup>  
 وفي رثاء خرنق لزوجها وأبنائها الثلاثة :

لَا يَبْعَدُنُ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ  
 النَّازِلُونَ بِكُلِّ مَعْتَرِكٍ  
 وَالْخَالِطُونَ نَحِيَّتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ  
 إِنْ يَشْرَبُوا يَهْبُؤُوا وَإِنْ يَذْرَبُوا  
 قَوْمٌ إِذَا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ  
 هَذَا ثَنَاءً مَا بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ  
 سَمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ  
 وَالطَّيْبُونَ مَعَاوِدَ الْأَزْرِ  
 وَذَوِي الْغَنَى مِنْهُمْ بِذِي الْفَقْرِ  
 يَتَوَاعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الْهُجْرِ  
 لَفْظًا مِنَ التَّأْوِيهِ وَالزَّجْرِ  
 فَإِذَا هَلَكْتَ يَحْتَنِي قَبْرِي<sup>(٣)</sup>

وكذلك في رثاء الفارعة بنت معاوية<sup>(٤)</sup> ، وسارة القرظية لقومها<sup>(٥)</sup> ،

(١) قال في تاج العروس ١٤٧/٤ أصله دختنوش بضم التاء والنون أي بنت الهذلي سماها أبوها باسم بنت كسرى وقلبت الدين شيئا لما عبرت . وقال أيضاً دخدنوس وتختنوس بفتح الدالين في الأولى والثاني في الثانية (٢) الأغاني ٣٩/١٠ والسكامل لابن الأثير ٢٤٤/١ والمنظوم والمثنون لابن أبي طاهر ٢١ بكرة : أتى باكرأ . قريعتها : سيدها . المطبقات : الشدائد وسنوات الجذب . كان لا يمشي بها : يتعقب العدو في أما كن لم يبطأها من قبل أو لم توطأ . المدل : الجري . الوائق يقوته ، أي أنه خاطر وفعل فعل الأسد الذي يعود عليه إقدامه بالحنف . (٣) ديوان خرنق ٣ والأمال ١٥٨/٢ وأشعار النساء للعرزباني . الهجر : الفجس -

للفظ : الجلبة . التأويه : الصوت والصياح . النجيت : المنحوت الفقير .

(٤) أشعار النساء للعرزباني ٢٢ مخطوط (٥) معجم البلدان ٢٤٣/٢

وخريق لآلها<sup>(١)</sup> ، ودختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة<sup>(٢)</sup> ،  
وهذا الاتجاه نفسه غالب في شاعرات العصر الإسلامي والعباسي ، فمثلا  
عاتكة بنت عمرو بن نَفَيْل رثت زوجها الزبير بن العوام ، وأشادت ببطولته  
وشجاعته في قولها :

غدر ابن جُرْموز بفارس بُهْمَةً      يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدٍ  
يا عمرو لو نهته لوجدته      لاطأ نَشْأَرَعِشَ الجَنَانِ ولا اليد  
كم غمرة قد خاضها لم يثنه      عنها طِرَادِكِ يابن قَمْعِ القَرَدَدِ  
ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله      فيما مضى ممن يروح ويفتدى<sup>(٣)</sup>

وكذلك فعلت ليلي الأخيلية في رثاء توبة بن الحمير<sup>(٤)</sup> ، وزينب بنت  
الطَّائِرِيَّةِ في رثاء أخيها يزيد<sup>(٥)</sup> ، وليلي بنت طريف في رثاء أخيها الوليد بن  
طريف الشاري<sup>(٦)</sup> :

وهؤلاء ، وأولئك — ما عدا الخنساء في بعض مرثياتها — لم يُجَدِّنْ تشقيق  
المقال في وصف ما تعتليج به قلوبهن من اللوعة والأسى .  
ثم إن المرأة في رثائها لابنها مثلا لم تتحدث عما كانت تؤمله فيه ، أو عما  
كانت تتشوف إليه من أن يشب ويكبر فُتَحَبَّرَ به وبينه ، ولم تتحدث زوجة  
عن دماثة زوجها ، وحسن عشرته لها ، وعطفه عليها ، ووفائه لها .

(١) ديوان خرقنق مخطوط والحامسة البصرية ٩٥ مخطوط

(٢) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٣) حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ١/٢٩٥  
والحامسة البصرية ٨٤ مخطوط . ابن جرْموز : عمر بن جرْموز التميمي قتل الزبير غيلة بوادي  
السباع في عودته من وقعة الجمل . فارس بهمة : فارس جيش والمراد الزبير . إن ظفرت :  
ماظفرت . فقم القردد : الفقم البيضاء الرخوة من الكمأة ، والقردد : ما ارتفع من الأرض .  
والمراد وصف أبيه بالذلة لأن هذا الفقم يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من يجتنيه

(٤) حماسة البحتري ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٦ وزهر الآداب ٧٢/٤

(٥) حماسة البحتري ٤٣٣ ، وبلاغات النساء ١٩٣

(٦) حماسة البحتري ٣٥ ، والأغاني ١١/١١ و ٩/١١

أفكان مردّ هذا إلى معجزة بيانية؟

لا، لأن القدرة التي أسعفتهم بالإشادة بالحامد كفيّلة أن تسعفهم بتصوير ذلك .

وأرجح أن محركاتهم للرجال في رثائهم وفي إشاداتهم بمضائل المرثى ، وأن ضيق أفق خيالهم ، وعجزهم عن تصوير حزنهم ، والتعبير عن مشاعرهم بحيث يشركن الآخرين والأخريات معهن فيما يشعرون به ، هي السبب فيما نرى من شبه رثائهم برثاء الرجال ، وفيما نرى في مرثيهم من احتباس على ذكر الحامد العامة ، حتى إننا قلما نستطيع أن نميز رثاء امرأة من رثاء رجل ، وقلما نجد في مرثيهم ملامح ناطقة وسمات كاشفة تنبع من الأنوثة ، وتعبّر عن عواطف الإناث .

وفي الحق إنهن أشجى من الرجال قلوباً عند الفجعة ، وأشد منهم حزناً ، وأعظم لوعة ؛ لأنهن أضعف احتمالاً ، وقلوبهن أسرع انخلاقاً ، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لم تجيء مرثيهم أشد حرارة وأقوى تأثيراً ؟

سبب ذلك أن الانفعالات والعواطف كالطرب والغضب والحزن والفرح لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها « لأن الانفعال القرى يعقد اللسان ، ويشل التفكير ، ويشغل عما عداه . فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من شرابه ، وبعد أن يهدأ من غضبه ، إذ تصفو قرينته ، ويستطيع الخلق ، وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور الكامنة ، وإذا فهو لا يقول إلا عن روية »<sup>(١)</sup>

والنساء يفتأن حزنهن بالدموع الغزار الحرار ، وبالآهات والأنات والمويل وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموحجة ، فإذا ما معدن إلى



القرىض مَتَّخِنٌ من عاطفة قد تنفست ، وأوَيْنَ إلى لغة كان البكاء والنشيج ،  
والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً .

٢ — وفي كثير من مرثي الشواعر تصوير ما أصابهم من ذلة وضعف  
بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية في رثاء أبيها :

قد كنت لي جبلاً ألوذ به      فتركتني أضْحَى بأجرَد ضاح  
قد كنت ذات حمية ما عشت لي      أمشي البراز و كنت أنت جناحي  
فاليوم أخضع للذليل وأتقى      منه وأدفع ظلمي بالراح  
وإذا دعت قمرية شجياً لها      يوماً على فَنَنْ دعوتُ صباح  
وأغضُّ من بصرى وأعلم أنه      قد بان حدُّ فوارسى ورماحي<sup>(١)</sup>

وتعترف سلمى بنت حُرَيْث النضرية بالذلة في رثائها زوجها زفر :  
أصبحتُ نهباً لرئب الدهر صابرة      للذل أكثرُ تحنُّانا إلى زفر  
إلى امرئ ماجد الآباء كان لنا      حصنا حصيناً من اللأواء والغير  
كان العاد لنا في كل حادثة      تأتي بها نائبات الدهر والقدر<sup>(٢)</sup>

وتعترف الخنساء بتضعفها وحاجتها بعد ضجر :

فقد نلتُ أبو أوفى خِلالاً      على فككها دخلتُ شعابي<sup>(٣)</sup>  
وتقول :

دَقَّ عظمي وهاض مني جناحي      هلك صخر فما أطيق برأحا<sup>(٤)</sup>  
وليس لهذا أثاره في رثاء الرجال وإن عظم حزنهم وأمضهم الهم ،  
كمرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك<sup>(٥)</sup> ، ومرثية الأبيورد بن المعذر الرياحي .

(١) الأماي ١/٢ وشرح الحماسة للبريزي ١٨٩/٢ ونهيات الأماي ٧٨ ورجع ماروي  
عن أبي العلاء أن الرواية الصحيحة ( شجبا ) أي فرخها المالك وهو الهديل والشجب بفتح  
الجيم المالك وبكسرهما المالك (٢) بلاغات النساء ١٨١  
(٣) الديوان ١٤ أبو أوفى : كنية صخر (٤) الديوان ٣٤  
(٥) المنذليات ٦٥/٢ والأماي للبريدي ١٨ مخطوط

لأخيه بُرَيْد<sup>(١)</sup> ، ومرثية دُرَيْدِ بْنِ الصَّعَّةِ لأخيه عبد الله<sup>(٢)</sup> ، ومرثية المهلهل  
لأخيه كَثِيب<sup>(٣)</sup> ، ورتاء أبي ذؤيب الهذلي لبنيه<sup>(٤)</sup> ، ورتاء أبي زُبَيْدِ  
الطائي لابن أخيه<sup>(٥)</sup> ومرثية أوس بن حجر لفضالة بن كِلْدَةَ<sup>(٦)</sup> .

٣ - وهن أكثر من الرجال ذكرا للأوعدة ، وأكثر حديثاً عن البكاء  
والدموع والوجعة ؛ لأن ضعفين وأنوثتين وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى  
في تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، حتى لتتسم  
مرائيهن بالنواح أكثر مما تتسم بغيره ، ونواحين متشابهة لا تميز بينه  
ولا خلاف .

فمثلاً تقول الخنساء :

تقول نساء شبتِ من غير كَبْرَةٍ	وأيسرُ مما قد لقيتُ يُشيبُ
أقول أبا حسان لا العيش طيب	وكيف وقد أفرَدتُ منك يطيب؟
ذَكَرْتُكَ فَاسْتَعْبَرْتُ وَالصَّدرُ كَأَظْمِ	على غصّةٍ منها الفؤاد يذوب
لعمري لقد أوهيتَ قباي عن العزا	وطأطأتَ رأسي والفؤاد كَثِيبِ
لقد قُصِمَتْ مَنى قناسة صليبية	وَيُقَصِّمُ عودَ النَّصْبِ وهو صليب <sup>(٧)</sup>

فهي تتحدث عن شبيها قبل أوان الشيب ، وعن مرارة حياتها ، وعن  
دموعها وغصتها ، وحرقة فؤادها ، وعن عجزها عن التصبر ، وكآبة قلبها ،  
وطأطأة رأسها ، ثم عن فقدائها سندها الذي كانت تعتمد عليه .

(١) مرات وأشعار لليزيدي مخطوط والأمالى ٢/٣

(٢) شرح الحماسة للبربري ١٥٦/٢ والأمالى لليزيدي ٣٥

(٣) الأمالى للقالى ١٢٩/٢ والأمالى لليزيدي ١١٦

(٤) حماسة الخالد بين ٣٨٧ مخطوط (٥) الأمالى لليزيدي ٧ - ١٣

(٦) ديوان أوس بن حجر ٢٢

(٧) الديوان ١٥ النصب : العلم المنصوب أو عود النبع وهو شجر تتخذ منه القسي .

أبو حسان : كنية لصخر .

وتقول أيضاً :

ألا ياعين فانهمري بفزُرٍ وفيضي فيضةً من غير نَزْرٍ  
ولا تعدى عزاء بعد صخر فقد غلبَ العزاء وعيل صبرى  
لمرزةً كأن الجوف منها بعيدَ النوم يُشعرُ حرَّ جَمْرٍ<sup>(١)</sup>  
وتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى هُلكُ صخر فما أطيق برَاحا<sup>(٢)</sup>  
وتقول فى توالى دموعها :

ألا ما لعينى ألا مالها لقد اخضل الدمع سر بالها<sup>(٣)</sup>  
وتقول أيضاً :

قدى بعينك أم بالعين عُوَارٍ أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار<sup>(٤)</sup>  
وإذا ما نضب دمعها ، ورقأت جفونها استمطرتها وحثتها على التسكاب :  
يا عين مالك لا تبكين تسكابا : إذا راب دهر وكان الدهر ريباً<sup>(٥)</sup>  
وتقول :

يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جاء فى الأسماط متقوب<sup>(٦)</sup>  
وكذلك تقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

يا عين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح<sup>(٧)</sup>  
وتقول صنية بنت مسافر فى بكاء أهل القلب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش :  
يا من لعين قذاها عائر الرمد حدَّ النهارِ وقرن الشمس لم يقيد

(١) الديوان ٦٧ غزر : دمغ غزير . نزر : قلة . عيل : غلب . مرزة : مصيبة .  
يشعر : يالصق به . (٢) الديوان ٣٤ دق عظمى : هزل . ما أطيق براحا .  
لا أستطيع التحول من مكان إلى آخر (٣) الأغاني ٦٩/٨ والديوان ٢٠١  
(٤) الأغاني ١٣/١٣ (٥) ديوان النساء ١  
(٦) الديوان ١٢ (٧) الحماسة البصرية ٩٥

قومي صفى ولا تنسى قرابتهم وإن بكيت فما تبكين من بعد<sup>(١)</sup>  
وتقول سليمى بنت المهليل في رثاء أخيها .

أعيني جودا بالدموع السوافح على فارس الفرسان في كل صافح  
أعيني إن تفتى الدموع فأوكفا دما بارفضاض عند نوح النوامح  
ألا تبكيان المرتجى عند كل مشهد يثير مع الفرسان نفع الأباطح<sup>(٢)</sup>  
أما الرجال فإنهم يتجادون ويفاخرون بتجلدهم ، كأنس بن مدركة الخنعمي .  
في قوله :

كم من أخ لي كريم قد فُجِفْتُ به ثم بقيتُ كأنى بعده حجير  
لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتي دونه العذر<sup>(٣)</sup>  
وقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحداء  
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا  
ما إن جَزَعْتُ ولا هَلَمْتُ وما يرد بكأى زندا<sup>(٤)</sup>

ونجد بعض الرجال يعرضون البكاء عرضاً سريعاً عجلان ، كقول متمم  
ابن نويرة في رثاء أخيه مالك :

فعيني هلا تبكيان لملك إذا أذرت الريح الكنيف المرفعاً  
أبي الصبر آيات أراها وأنتى أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا  
وأنى متى ما أدعُ باسمك لا تجبُ وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا

(١) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢ العائر : وجع العين .

(٢) مرثى شواعر العرب ١٨ صافح : ضارب بعرض السيف .

(٣) حماسة البحتري ١٩٢ (٤) حماسة البحتري ١٩٣ وشرح الحماسة للبتريزي ١/٩٢ .

وإني وإن هارتني قد أصابني من الرزء ما يبكي الحزين المنجماً<sup>(١)</sup>  
وقول مهلهل في رثاء كليب :

أبت عيناى بعدك أن تكفأ كأن غضا القناد لها شيفار  
كأنى إذ نعى الناعى كليباً تطاير بين جنبي الشرار  
فدُرْتُ وقد عشا بصرى عليه كما دارت بشارها العقار<sup>(٢)</sup>

وأى نجمة يفجع بها رجل أقى من أن يفقد بنيه الثمانية ؟

لقد نزلت هذه الكارثة بأبى ذؤيب الهذلى فلم يتضعع كالتضعع المرأة ،  
لكنه بكى وتحدث عن بكائه فى إنجاز ثم تجلد :

أودى بنى فأعقبونى حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع  
سبقوا هوى وأعنفوا لهوام فتخرموا ولكل جنب مصرع  
فعبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع  
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع  
وإذا المنية أنشت أظفارها ألفت كل تيمة لا تنفع  
فالعين بعدهم كأن جنونها سملت بشوك فى عورا تدمع  
وتجلدى للشامتين أريهم أنى لزيب الدهر لا أتضعع  
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع<sup>(٣)</sup>

ولقد رثى الأبيرد بن المعذر الرياحى أخاه بريدا فتجع وتوجع ، ولكن فى  
رجولة كقوله :

تطاول لىلى لم أئمه تقلباً كأن فراشى حال من دونه الجمر  
أراقب من لىل التمام نجومه لئن غاب قرن الشمس حتى بدا الفجر

(١) الفضليات ٦٧/٢ و ٦٩ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢

(٢) أخبار المراقبه ٤٨ سفار : أى جنونها وأشفارها كشوك القناد فلا تنطبق . عشا :

من باب رضى ودعا أى عمى (٣) جمهرة أشعار العرب لأقرشى ٢٦٤

تذكرت علقاً بان منا بنصره  
فإن تكن الأيام فرقن بيننا  
وكنت أرى هجرأ فراقك ساعة  
أحقاً عباد الله أن لست لاقيا  
فلما نعى الناعى بُرَيْدا تبدلت  
إلى الله أشكو في بُرَيْد مصيبتى  
٤ - ولقد يعبرن تعبيراً نسوباً يكثردورانه على ألسنة النساء ، كقول  
الخنساء :

تعرفتني الدهر نهساً وحزاً  
وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً<sup>(٢)</sup>  
وكذلك تكرر كلمة (لهفي) في قولها :  
لهفي على صخر فإني أرى له  
لهفي على صخر لقد كان عصمة  
وفي قولها :

فيا لهفي عليه ولهف أمي  
أيصبح في الضريح وفيه يمسى؟<sup>(٤)</sup>  
وتعبر بكلمة (ويلي) :

ويلي عليه ويئله  
أصبحتُ حصني منكسر<sup>(٥)</sup>

وتقول ناجية بنت ضَمْصَم المريية في رثاء أخيها هرم :  
يا لهف نفسي لهفة المنفجوع  
ألا أرى هريماً على مودوع  
من أجل سيدنا ومصرع جنبه  
علقَ الفؤاد بمنظّل مجذوع<sup>(٦)</sup>

(١) مرات وأشعار لليزيدي مخطوط ٨١٦ (٢) الديوان ١٤٣ وأمالي ابن الشجري

٢١٥/١ نهساً : نهساً . قرعاً : ضرباً على الرأس . غمزاً : نخساً باليد

(٣) الديوان ٢١ (٤) الديوان ١٥٣

(٥) الديوان ١٢٤ (٦) لسان العرب ٢٦٤/١٠ والأغانى ٣٠/١٦ مودوع :

اسم فرسه . حنظل مجذوع : حنظل وويل وخم يميت .

٥ - وتصطبغ سرائيهم بوحدة الموضوع ، ولهذا تندرج فيها الحكمة ، وتخلو من التمهيد .

على أن في سرائي الرجال حكمة أحياناً ، وتمهيدا غزليا أحياناً أخرى<sup>(١)</sup> .  
والحكمة التي في رثاء الرجال متصلة بالموت وأحداث الدهر وفواجهه كقول  
أبي ذؤيب :

ولقد حَرَصْتُ بأن أدافع عنهم      وإذا المنية أنشأت أظفارها الأتدفع  
وإذا المنية أنشبت أظفارها      ألفت كل تيممة لا تنفع  
والنفس راغبة إذا رغبتهما      وإذا تُردُّ إلى قبيل تقنع  
والدهر لا يَبْقَى على حدثانه      مستشعرٌ حلقَ الحديد مقنَعٌ<sup>(٢)</sup>  
وقول أبي زُبَيْد الطائي في رثاء ابن أخيه الجلاح :

إن طول الحياة غير سُـمُود      وضلالٌ تأميل طولِ الخلود<sup>(٣)</sup>  
وقول الفنوي في رثاء أخيه :

لعمركم إن البعيد لما مضى      وإن الذي يأتي غداً لقريب<sup>(٤)</sup>  
ولم أجد في مرثيهم من الحكمة إلا قليلاً جداً ، كقول عمرة أخت عمرو  
ذي الكلب في رثائه :

كل امرئٍ بِمِحالِ الدهر مكذوب      وكل من غالب الأيام مغلوب  
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا      يوماً طريقتهم في الشر دُعُوب  
وكل من غالب الأيام من أحد      مُودٍ وتابِهُهُ الشبان والشيب<sup>(٥)</sup>

(١) الفزل في العصر الجاهلي ٢٦٠

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٦٥ (٣) الأمل للبريدي ٧ مخطوط ، وجمهرة أشعار العرب ٢٨٦ (٤) جمهرة أشعار العرب ٢٧٤ وذكر القرشي أن اسمه محمد بن كعب وفي خزائن الأدب للبهنادي أن اسمه كعب بن سعد الفنوي ، وفي لسان العرب أن اسمه ابن سويد الفنوي (٥) حاسة البحري ٤٢٩ ولسان العرب مادة دعب وريائس الأدب ٧٦ دعوب : طريق مذلل موطوء ملوك

وكذلك هذه الأبيات من رثاء سُعدَى الجُهَنِيَّة لأخيها أسعد بن الشَّمرِ دُل :

ولقد بدالى قبيلُ فيما قد مضى وعلمت ذاك لو انَّ علماً يَنْفَع  
 أن الحوادث والمنون كلاهما لا يُعْتَبَان ولو بسكى من يُجْزَع  
 واقدم علمت بأن كلَّ مؤخَّر يوماً سبيلَ الأولين سَيَتَّبَع  
 ولقد علمت لو انَّ علماً نافع أن كلَّ حى ذاهب فمُودَّع<sup>(١)</sup>

وقول الخنساء :

أرى الدهر يرمى ما تطيش سبامه وليس لمن قد غاله الدهر مرجع<sup>(٢)</sup>  
 وأغلب الظن أن خلو مرآئيهن من المتقدمة الغزلية صدى لأنوثتهن ، فإن  
 غزلهن - كما سيظهر - نادر ومستور .

أما ندرة الحكمة في رثائهن فمرجعها إلى أنهن ينصرفن إلى النواح ،  
 ويستغرقن في الرثاء لا يلوين على غيره ، فلا يلحقن به سواه ، كما كان الرجال  
 يفعلونه .

ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن المرأة تجنح إلى التخصيص ، والرجل يجنح إلى  
 التعميم ، فنظرتها شاملة ، ونظرتها جزئية ، ونظراته موضوعية مجردة ، ونظرتها  
 فردية محددة ، لهذا لم تمتد نظرها إلى ما وراء الفاجعة من عبر وعظات ومفارقات .  
 يقول بعض الباحثين إن المرأة بوجه عام « تجذب انتباهها حادثة ما أكثر  
 من فكرة ما ، والرجال يهتمون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء  
 ذاتها . وهذا الرأى يتفق مع رأى جون ستيوارت مل ؛ لأنه رأى أن المرأة تفكر  
 في الأشياء على أنها جزئيات منفصل بعضها عن بعض ، ولا تفكر فيها على أنها  
 مجموعات متصلة مترابطة<sup>(٣)</sup> » .

ثم إن المرأة أقوى وأحد من الرجل عاطفة ، وعاطفة حزنها تتجلى في هلعها

(١) لسان العرب ١٠٩/٩ و ٣٧٩ و ٣٦٩/١٣ ورياض الأدب ١٣٢

(٢) الديوان ١٦٣ (٣) نفسية الراهق ٤٦ رياض عسكر

(٤٠) - المرأة في الشعر الجاهلي



وجزعتها وعويلها ونحيبها ، وصياحها برزْمها . وليس هنا مجال للحكمة ، لأن  
الحكمة وايدة العقل والتفكير ، وهذه العاطفة الملتببة تقضى على العقل والتفكير

\* \* \*

وقد تزعمت الخنساء شواعر الجاهلية والإسلام في الرثاء ، لكثرة ما رثت  
أخويها ، ولجوذة مرثيها ، وحرارة عاطفتها . وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق  
عكاظ بعد أن أنشده الأعشى وحسان — وكانت له قبة حمراء تأتيه فيها الشعراء  
فتنشد — فقال لها : ما رأيت ذا مئانة أشعر منك . فقالت ولا ذا خصيتين<sup>(١)</sup> .  
وروى أنها أنشدته قصيدتها التي مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار .  
حتى اتبته إلى قرلها :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار  
وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار  
فقال لها : لمولانا أبا بصير — يريد الأعشى — أنشدني آنفًا لقلت إنك  
أشعر الجن والإنس ، أنت والله أشعر من كل ذات مئانة . فمضب حسان وقال :  
والله لأنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ومن جدك<sup>(٢)</sup>

ويظهر أن حسانا أراد فيما بعد أن يهون من حكم النابغة ، فقد روى عنه  
قوله : جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشدته ،  
فقال إنك لشاعر ، وإن أخت بنى سليم لبكاءة<sup>(٣)</sup> .

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرثاء ، واعترفوا بقدرة بعض النساء .

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢/١

(٢) الأغاني ١٥٦/٩ و ١٨٨/٨ وبلاغات النساء ١٦٩ وفي الشعر والشعراء ٣٠٢  
أن حسانا غضب هذه الغضبة لما فضل النابغة الأعشى عليه . ومن معاني المئانة موضع الولد  
من الأنثى

(٣) الأغاني ١٦٧/٤

يقول أبو العباس : كانت الخنساء وليلى بائنتين في أشعارهما ، متقدمتين  
لأكثر الفحول ، ورب امرأة تتقدم في صناعة ، وقلما يكون ذلك . ثم ذكر أن  
الجاحظ كان يُحْضِرُ ذهنه ، ويجمع نفسه حين تحدّثه هاشمية جارية حمدونة ، مخافة  
أن تورّد عليه مالا يفهمه ، لبعده غورها واقتدارها . وكان يشار بقول ، لم تقل  
امرأة شعرا إلا تبين الضعف فيه فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان  
لها أربع خُصِي (١) . وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات العُزّ—واحدتها أغرّ ،  
وهو ما نجم من صدر البيت تمام معناه دون عجزه ، وكان لو طرح آخره لأغنى  
أوله بوضوح دلالاته — وهو :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار  
وذكر لليلى الأخيالية بيتاً هو :

قوم رباط الخيل حول بيوتهم وأسنة زرق يُخَلِّنَ نجومًا (٢)  
وبعد فإن رثاء المرأة لابنها وزوجها وأبيها وأحبابها وقومها « دليل على سمو  
خلقها وعلو مكانتها عند العرب في الجاهلية ، لأنها في نظرهم جديرة برثاء الموتى  
والإشادة بفضلتهم (٣) .

(٢) قواعد الشعر لثعلب ٣١

(١) تهذيب الكامل ١٩٠/٢

Nicholson.P. 89(٣)

## التحميس على القتال وعلى الثأر

١ — عاش العرب في حروب تتوالد، وغارات تتوالى، فكثرت فيهم القتل والمجرح والأسر والغنم، وطبعي أن يجد المهزوم على هازمه، وكانت نار موجدته لا تنطفئ إلا بأن يثار لنفسه. لهذا كان العرب كلفين بالثأر أيما كلف، يجرمون اللذات من خمر ونساء وطيب حتى يدرکوا وترهم، وإن كان الوار قريباً. وكانت النساء دائبات على إشعال الحفيظة للثأر، وكن لا يفترن عن تذكير الرجال به، وحضهم عليه بوسائل شتى.

ولعل الرجال لم يكونوا بحاجة إلى هذا الحض، وإنما أرادت النساء أن يشركوهن في التأييد على إدراك الثأر، والتشوف لغسل الدم ومحو العار؛ لأن المنفعل في حاجة إلى أن يشعر بمشاركة غيره له في انفعاله، ولا تشذ عواطف العداوة عن هذا، « فنحن نحرص الحرص كله على استمالة الآخرين إلينا في غضبنا وفي كراهيتنا، ولا ترضى هاتان العاطفتان إلا إذا قام حكم غيرنا على صدق الدافع إلى الغضب والكراهية، ونحن لا نمل البرهنة على وجاهة الأسباب التي دفعت إلى البغض أو الكراهية، ومعنى هذا أننا لا نمل من محاولة إقناع الآخرين بأنه لا بد أن يشعروا بما نشعر به<sup>(١)</sup> ».

٢ — وقد قان شعراً في التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين كما سبق في الحروب. وقلن شعراً يحرضن به على الثأر كما سبق في المرأة والثأر.

وكن يزدرين الدية وقابل الدية، تقول امرأة من ضبة لقومها: ارفضوا الدية، وأذيقوا خصومكم سلاحكم، فإن لم تفعلوا وتثاروا فلا حابت نوقم لبناً: ألا لا تأخذوا لبناً ولكن أذيقوا قومكم حدّ السلاح  
فإن لم تثاروا عمراً يزيد فلا درت لبون بني رباح<sup>(٢)</sup>

(١) مقدمة في علم النفس الاجتماعي ٢٢٨ (٢) دراسة العنزي ٣٢ اللبن: جمع لبون، وهي الناقة ذات اللبن.

وقد حرّضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على النار لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية ، أو حين توهمت أنه سيقبلها ، فتحدثت بلسان القتيل مهتاجة حميتهم ، ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، مندّدة بهم إن لم يثأروا ، مشبهة إياهم بالنعام في جنبه وفراره ، ثم قالت لهم :  
وحيثذ أتم أذل الناس ، فلا تردوا الماء إلا بعد أن تفرغ طوائف الرجال والنساء الطاهرات ثم الحيض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه : لا تَعْقِلُوا لَهْمُ دَمِي  
ولا تأخذوا منهم إقالاتاً وأبكاراً وأنزل في بيت بصعْدَةَ مُظَلَمٍ  
ودع عنك عمراً إن عمراً مسلم وهل بطنُ عمرو غيرُ شبرٍ لمطعم ؟  
فإن أتم لم تثاروا واتدبتم فمشوا بأذان النعام المصلّم  
ولا تَرِدُوا إلا فُضُولَ نَسَائِكُمْ إذا ارتملت أعقابهن من الدم<sup>(١)</sup>  
وبمثل ذلك حرّضت بنت حكيم العبدية قومها<sup>(٢)</sup> .

وكتثيراً ما حرّضت الخنساء على النار لأخيها صخر كقولها :

ولن أسالم قوما كنت حربيهم حتى تعود بياضاً جُؤنةً القار  
لا نوم حتى تعود الخليل غابسة يَنْبِذَنَّ طَرْحاً بِمُهْرَاتٍ وَأَمْهَارٍ  
أو تحفزوا حفزةً والموت مكتنعٌ عند البيوت حُصِيناً وابنَ سَيَّارٍ

(١) شرح التبريزي للجهاسة ١١٧/١ وحامسة البحرى ٣٠ والأمالى ٢٢٦/٢ وأساس البلاغة . مادة رمل . قال التبريزي : « مشوا أى امشوا ، ومن روى مشوا بضم الميم فعناه امسحوا . والمعنى إن لم تقتلوا فأتى وقبلتم ديني فامشوا أذلاء بأذان مجدعة كأذان النعام . ووصف النعام بالمسلم تصغيراً لها وإن كانت خليفة . يقول كأنكم ١٢ تعبرون ليست لكم أذان تسمعون بها فامشوا صمأعماً يتكلم به الناس من عبيكم . وفي لسان العرب رواية بفتح الميم ورواية بضمها . قال : والظالم مسلم الأذنين وصف بذلك لصفيرهما وقصرهما . فإذا أطلق على الناس فإنما يراد به الذليل المهان (اللسان مادة سلم ومش) ولا شك أن فتح الميم أولى ارتملت : تلطخت بالدم

فتفلسوا عنكم عاراً يجلّلكم غَسَلَ العوارك حَيْضاً بعداً طَهَاراً<sup>(١)</sup>  
 ٣ — ولقد كان تحريضها مستجاباً دائماً ؛ لأنه صادف هوى من نفوس  
 الثائرين ، ولأنه حث من المرأة على الشجاعة وهى طبيعة فى العرب ، ثم هم تواقون  
 إلى أن يحققوا أمل المرأة فى شجاعتهم . فلقد حرّضت كَنْزَةَ أم شَمَلَةَ بن بُرْد  
 المنقرى ولدها شَمَلَةَ على الثأر بقولها : إني واثقة من شجاعة ابني وثأره من خصومنا ،  
 فاستجاب لها وثأر :

إن يك ظنى صادقا وهو صادق      بِشَمَلَةَ يحبسهم بها تحبساً أزلاً  
 فيا شمل شمرّ واطلب القوم بالذى      أُصِبتَ ولاتقبل منهم قصاصاً ولا عقلاً  
 وقالت أيضاً :

لهفى على القوم الذين تجمعوا      بذى السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا  
 فإن يك ظنى صادق وهو صادق      بشملة يحبسهم بها تحبساً وعرا<sup>(٢)</sup>  
 ٤ — وإذا ما هزم قومها قرعتهم ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة  
 ابن مُكَدَّم جمع غامد وحده :

ألاهل أتاها على نأياها      بما فضحت قومها غامد ؟  
 تمنيتم مائتى فارس      فردكم فارس واحد  
 فليت لنا بارتباط الخيول      ضاناً لها حالبٌ قاعد<sup>(٣)</sup>

٥ — ولقد تهدد أعداءها وتوعدهم بالغاارة ، كقول امرأة من بنى عامر :

وحرب يضح القوم من نفيانها      ضجيج الجمال الجليّة الدّيرات  
 سيتركها قوم ويصلى بحرّها      بنو نسوة للشكل مصطبرات

(١) ديوان الحنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطفنوا . مكتع : دان . حصين .  
 ابن ضمضم ومنصور بن سيار المريث . العوارك : الحوائض .  
 (٢) شرح الحامسة للبريزى ١١٨/٢ . أزلا : سجنأ دائما . لاتقبل قصاصا : لاتقبل .  
 واحداً بواحد . العقل : الدية . السيد : اسم موضع (٣) البيان والتبيين ٢٠٨/١

فإن يك ظني صادقا وهو صادق بكم وبأحلام لكم صفيرات  
 تُعدّ فيكمُ جَزَرَ الجزور رماحنا ويمسكن بالأ كباد منكسرات<sup>(١)</sup>

٦ - ولقد تشيد بمن يشفى حتفها فيئأر لها ، كما شادت الخنساء بقبس  
 ابن عامر الجشمي إذ قتل هاشم بن حرملة الذي قتل أخاها معاوية ، فدحته وفدته  
 بنفسها وبأعرانها جميعاً وبنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ، وذلك لأنه أقر عينها  
 فذاقت النوم بعد الأرق الطويل :

فدّي للفراس الجشمي نفسي أفديه بمن لي من حميم  
 أفديه بكل بني سليم بظاعنهم وبالأنس المقيم  
 كما من هاشم أقرت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم  
 خصصتُ بها أبا الأمرار قيساً فتى في بيت مكرمة كريم<sup>(٢)</sup>

وكن يشفين بالثأر ، ويمجدن فيه تضييداً لجراحهن . تقول الخنساء لعامر الجشمي :  
 كما من هاشم أقرت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم<sup>(٣)</sup>  
 وتتحدث صفية بنت الخزرج عن جُزئتها بقتل عبد يغوث ثأراً للنعمان  
 ابن جَسَّاس :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شقيت وما قتلنا به إلا امرأ دونه<sup>(٤)</sup>  
 وكذلك تتحدث خيرة نقي إذ نسكل قومها ببني أسد ، وثأروا الزوجها بشر :  
 فقد قُطعت رءوس بني قُمَين وقد نُقعت صدور من شراب<sup>(٥)</sup>

(١) شرح الحماسة للبربري ١٣٢/٢ وأشعار النساء للبرزباني . نفيانها : المراد ما  
 يتطير من دماؤها . الجلة : السنة . الدبرات : جمع دبيرة وهي التي بها قرحة . أحلام صفيرات :  
 عقول ضعيفة وهذا تهديد لهم وتوعد . تقول إن صدق ظني في فساد عقولكم وعدم لما نسكركه .  
 عادت رماحننا تقتلكم في سرعة وتصيب مقاتلكم وأكبادكم .

(٢) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغاني ١٣/١٤٠ ولسان العرب .

٧٨/١٦

(٤) الأغاني ١٥/٧٣

(٣) الديوان ٢٣١

(٥) ديوان الحرنيق ٧ مخطوط

٧ — أما الرجال فكانوا يتهددون الأعداء بالثأر ، ولا يدعون غيرهم إليه غالباً ، بينما كانت النساء في الغالب محرضات لرجالهن محمسات ، يكنّ إليهم تحقيق الثأر ، لأنهم عليه أقدر .

فمثلاً يقول المهلهل في رثاء كليب :

خذ العهد الأكيد على عمري      بتركي كل ما حوت الديار  
وهجرى الغانيات وشرب كأسٍ      ولُبسي جُبَّةً لا تستعار  
ولست بخالغ درعى وسيفي      إلى أن يخلع الليلَ النهار  
وإلا أن تبسّد سَراة بكر      فلا يَبْقَى لها أبداً أثار<sup>(١)</sup>  
فهو يحرم على نفسه كل طيب ، ويهجر الغواني والخمر ، ولا يغير ملبسه ، ولا يخلع درعه أو يلقى سيفه حتى يثأر ثأراً يشفي .

ويقول دريد بن الصَّمَّة :

شَلَّتْ يَمِينِي وَلَمْ أَشْرَبْ مَعْتَقَةً      إِنْ أَخْطَأَ الْمَوْتَ أَسْمَاءُ بِنَ زَيْنَاعٍ  
وكان عصمة بن حذرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمرًا ، ولا يمس امرأة ، ولا يفتسل حتى يقتل من عبس سبعين رجلاً بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنتني من عبس      صاغ شرابي وشفيت نفسي  
وكنت لا أقرب طُيْبَرَ عِرْسِي      وكنت لا أشرب فضل الكأس  
ولا أشد بالوخاف رأسي<sup>(٢)</sup>

وهذا الاتجاه في شعر الرجال مثل امرئ القيس<sup>(٣)</sup> ، وتأبط شرأ<sup>(٤)</sup> ، والمثلث ابن عمرو التنوخي<sup>(٥)</sup> ، وزيادة الحارثي<sup>(٦)</sup> .

(١) أخبار المراقسة وأشعارهم ٤٩ وشعراء النصرانية ١٦٤ (٢) معجم الشعراء  
للعزباني ٢٧٤ الوخاف : الخطمي يغسل به الرأس (٣) الديوان ١٥٢ وشعراء النصرانية ٩٣  
(٤) شرح التبريزي للحجاسة ١٦٠/٢ (٥) المؤلف والمختلف ١٨١ وشرح التبريزي  
للحجاسة ١٨/٢ (٦) شرح التبريزي ١٣٠/١

## ٣ - الهجاء

١ - كان الهجاء فناً شعرياً عظيم القيمة والخطر في الحياة الجاهلية ، لأنه حرب لسانية لا بد منها مع حرب الرمح والسنان ، تسبقها آنا وتمهد لها ، وتصاحبها آنا فتؤجج أوارها ، وتلاحقها حيناً فتزيد الخزاية والنكال . وقد كان إلقاء الهجاء يصحب أحياناً بمظهر خاص للشاعر ينبيء عن الشر والفضب ، كأن يجمع شعر رأسه في ناحية ، أو يدلى عباءته في غير اساق وانتظام ، أو ينتمل قدماً واحدة ، ويترك الأخرى ، كما فعل لبيد بن ربيعة العامري حين هجا الربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر<sup>(١)</sup> .

وكذلك كان الهجاء عند الأمم الأخرى عظيم الأثر أيضاً ، حتى ائقد تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتأخص في كلمة الهجاء La satire ، وهذه الكلمة لا تثير في أذهاننا نحن المتحضرين غير فكرة أنه تمرين أدبي عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه كان في وقت ما يتقمصه ساحر ، وكانت لعنته فادحة تصيب من توجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك من نتائج ، فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقى اليأس في قلب والد معشوقته ، وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقصى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها .

ورواة هذه القصة يحكونها على أنها أسطورة تشيد بمهوبة أرشيلوك لا بخلقه ، ولكن ليس من العدل أن نعتقد ذلك ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها ، فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على لكمبيس Lycambés ونيو بوليه Néobule إذ قذفها بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل



عن الساحر الآثم إلا في العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . وقد ظل الناس في كثير من الأقطار حيناً طويلاً لا يميزون بينهما<sup>(١)</sup> .

ولكن لم يرد عن العرب أنهم أضفوا على الشاعر الهجاء خصائص الساحر أو خصائص الكاهن كما ذهب نيكلسون في قوله : « وكانوا يعتقدون أن الهجاء الذي يوجهه الشاعر للأعداء شديد الأثر والخطورة ، وكان لقوافيه التي تشبه بالرماح الأثر الذي للعنة التي يرسلها نبي أو قسيس ملهم<sup>(٢)</sup> » .

٢ - وقد شاركت النساء في الهجاء على ندرة وإيجاز ، وتختلف قاصٍ عن الرجال .

وكان الباعث عليه إما ردًا على مثله ، وإما ضيقاً بعمل ، أو بغضة لشخص .  
فثلاثاً خطب دريد بن الصمة الخنساء ، ورفضته قائلة : ما كنت لأدع بني عمي وهم مثل عوالي الرماح وأتزوج شيخاً ، وسخط عليها وهجاها بقوله :

وقاك الله يا بنه آل عمرو	من الفتيات أشباهي ونفسي
وقالت إني شيخ كبير	وما نباتها أنى ابن أمس
فلا تلدى ولا ينكحك مثلي	إذا ما لي لة طرقت بنحس
تريد شر نبت القدمين شئنا	يباشر بالعشية كل كرس
فأجابته بقولها :	

معاذ الله ينكحني حبر كى	قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى شرفاً ومكرمة أتاهما	إذا أغذى الجليس جریم تمر
ولو أصبحت في جشم هدياً	إذا أصبحت في دس وقفر
قبيلة إذا سمعوا بدعر	تخفي جمعهم في كل جحر <sup>(٣)</sup>

(١) اللغة . ج فندريس ٢٣٨ ترجمة الدواخلي والقصاص .

(٢) Nicholson P. 78 (٣) الديوان ١٢٠ والأغانى ٣٠/١٣ ولسان العرب ٢٩/١٢ والأمالى ١٦٢/٢ طرقت بنحس : جاءت بظلمة وغبرة والمراد إذا حدثت حرب . شر نبت : غليظ الكمين أو الأصابع . الكرس : البحر والبول المتجمد . حبر كى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفها يكاد يكون مقعدا . القصير الشبر : المتقارب الخطو . جریم : تمر يابس . شئن : غليظ

فرمته بضعف الجسد ، وبطء المشية ، والشيخوخة ، وبالبخل ، ورمت قبيلته بالجن . وفي الأغاني رواية أخرى<sup>(١)</sup> أنها رفضته وقالت لأبيها :  
 أَنخَطِبَنِي هَبْتَ عَلَى دَرِيدٍ      وَقَدْ أَطْرَدْتُ سَيْدَ آلِ بَدْرِ  
 معاذ الله . . . . . الأبيات

وفي الديوان وفي الأملى أنها قالت هذا القول لأخيها معاوية ، وكان يريد أن يكرهها على زواج دريد<sup>(٢)</sup> . ولكنني أرجح أن دريداً هو الذي بدأها بالهجاء ، وأوثر الرواية الأولى لأبي الفرج ، لأن دريداً قد تغزل بها وتمناها ، فكان حسبها أن تقنع برده ورفضه ، وليس هناك باعث على الهجاء ، فلما هجأها هجته . ثم إنها كانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها ، روى أن حسناً قال لها يوماً : اهجي قيس بن الخطين . فقالت : لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته فوجدته في مشرفة ملتقاً في كساء ، فنخسته برجلها ، وقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، وكأنها تعرض عبداً تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائماً ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبداً<sup>(٣)</sup> . وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء أنها كانت لا تبدأ بالهجوم ، ولا تهجو إلا من يستحق هجاءها .

وقد استشاط حزن دخننوس على أبيها لقيط بن زرارة إذ قتل في يوم شعب جيلة ، وكان لواء الرباب ذلك اليوم مع رجل من أشرف الرباب يقال له النعمان ابن قهوس التميمي ، وكان من فرسان العرب ، فمروا بليقطة فقتل ، فبهجت دخننوس بقولها :

ع بكفه رمح مِثْلُ	قَرَّ ابْنُ قَهْوَسٍ الشَّجَا
كَأَنَّهُ سَمِعَ أَرْكَ	يَعْدُو بِهِ خَاطِئِي البُضِيعِ
غُظْفَانِ إِنْ سَارُوا وَحَلُوا	إِنَّكَ مِنْ تَيْمِ فَدَعِ

(١) الأغاني ١١/٩

(٢) الأغاني ١٠/٣

(٣) الديوان ١١٩ والأملى ١٦١/٢

لا منك عذُّهم ولا أباك إن هلكوا وذلوا  
فخر البغي بمحج رببتها إذا الناس استنقلوا  
لا حدجها ركبت ولا لرغال فيه مُستَظَلُّ  
ولقد رأيتُ أباك وسط القوم يبزُّ أو يجلُّ  
متقـلدا ربق الفرا ر كأنه في الجيد غل<sup>(١)</sup>

فتمكمت به إذ وصفته بالشجاعة ، رهجته بالجن والفرار السريع ، ثم حقرت  
من شأنه بأنه من تيم فلا يجدر أن ياتحق بطفان ، وقالت له إن نخره ونخر قومه  
بطفان كالأمة التي تفخر بسيدتها لا بنفسها ، ثم عبرته حقارة أبيه ، فقالت : إنها  
رأته جباناً يخضع ويخضع ، ويجمع البعر ، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم حين يضع  
حبالها في عنقه كالغل ، فهو عبد حقير .

وكذلك هجت الخرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو  
ابن هند فقتله<sup>(٢)</sup> ، ومن هجائها قولها :

ألا ثككتك أمك عبد عمرو      أبا نخزيات واخيت الملوكا؟  
هم ركوك للوركين ركلا      ولو سألوك أعطيت البروكا  
فيوما عند زانية هلوك      كصل الرجع مزهرها نحوكا<sup>(٣)</sup>

فهي تدعو عليه بالتحف ، وتعجب من منادته عمرو بن هند وهو موصوم  
بالخزي ، وتحقر من شأنه بأن الملوك نبذوه وحقروه ورضى عن ذلك ، ولو أنهم  
سألوه أعز ما يملك تقدمه زلني إليهم وخموا ، ثم تطعن أخلاقه بقولها إنه جلس

(١) الأغاني ٣٤/١٠ وسط اللالي ٨٣٥/٢ والنقائس ٦٥٦ ( روى البيت : ولا  
لرغال فيه مستظل ) . مثل : مستقيم قوى منتصب . خاطي البضيع : مكتر . السمع : ولد  
الذئب من الضبع ويزعمون أنه في عدوه أسرع من الطير . أزل : أرسح سريع خفيف الوركين .  
رغال : الأمة . يبزو : يبز عجزه أو ينحن ظهره . الربق : جبل البهم . الفرار : الخرفان  
والحملان . يجل : يلقط البعر بيده .

(٢) ديوان الخرنق ٤ مخطوط

(٣) جهرة أشعار العرب ٤٣ البروك : الإبل البارة . صل : حية . الرج : الغدير

مومسات يفشاهن ، و يسمع الغناء عندهن . وتهجوه مرة أخرى فتذكره نجيد  
عن الثار :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه في غلى قِدر وما يدرى  
فهلّا ابن حسحاس قتلت ومعبداً هما تركاك لا ترش ولا تبرى  
هما طعنا مولاك في عطف صابه وأقبلت ماتلوى على تحجر تجرى<sup>(١)</sup>  
وكذلك هجت عاصية بنت عبد العزى الطائى بنى محارب<sup>(٢)</sup> .

ولقد تهجو المرأة من يخالفها في دينها ، كما هجب هند بنت عتبة رمة بنت  
شبية بن ربيعة لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه ، فعابت عليها إسلامها ،  
واتباعها دين من قتلوا أباه<sup>(٣)</sup> ، وكما هجت المسلمين والإسلام عضاء بنت مروان  
من بنى أمية بن زيد فقال النبي : « ألا آخذ لى من ابنة مروان ؟ » فسرى إليها  
عمير بن عدى الخطمى فقتلها<sup>(٤)</sup> .

٣ — ولقد كان المرتقب من المرأة أن تكثر هجاء ضررتها أو ضررتها ، لأن  
العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقة ، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل ، ولعلها  
كانت تقع بالكيد ، والإغارة ، والنظرات الشرز ، والكلمات المرة ،  
والحركات الساخرة .

ثم هى تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضررتها، وأن زوجها يؤثر ضررتها  
عليها ، لذلك لا تهجوها حتى لا تكشف عن موجدتها ، أما سكونها فإنه يؤول  
على أنها حظية عند زوجها ، وأنها لا تحفل بضررتها ، وهذا من مكر النساء .  
ومن الهجاء ما قالت امرأة فى هجاء أخرى قد خطبها زوجها .

(١) ديوان الخرنق مخطوط . ابن حسحاس ومعبد: رجلان غلباه . لا ترش ولا تبرى :

كناية عن خذلانه وضعفه . عطف : جانب . محجر : موضع منخفض ذو ماء ومرعى .

(٢) شرح الحماسة للبريزى ٥٦/٤ (٣) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة

٣٢ مخطوط (٤) سيرة ابن هشام ٣١٣/٤

لا خَارَ رَبِّي لِأَبِي الفَصِيلِ  
 وَلَا وَقَاهُ عَشْرَةَ الدَّلُولِ  
 بَدَّلَ مِنِّي أَخْبَثَ البَدِيلِ  
 هُوَ جَاءَ مَتَاءً كَشَبَهُ النُّوَلِ  
 تَحْمَلُ رِدْفًا وَاسِعَ الفُضُولِ  
 مِثْلَ إِهَابِ المُنْحَةِ المُنْجُولِ  
 يَبَيْتُ فِيهِ المَذْبُ أَوْ يَقِيلُ<sup>(١)</sup>

٤ — ولقد تحمد على زوجة ابنها فتهجوها ، وهجاؤها هنا كسابقه مقصور على تقييد المنظر والذم بالدمامة ، وبسوء الأخلاق .

من ذلك أن هند بنت عضم الدوسية حقدت على امرأة ابنها يزيد فشكبتها إلى زوجها في هجاء مر يتناول أعز ما تفخر به المرأة : الجمال والأخلاق :

أيزيدُ قد لا قيتُ منكراً      عَجِلْتُ بِأَمَكِ مُدْخَلَ القَبْرِ  
 هُوَ جَاءَ جاهلةً إذا نطقت      ليست كما بابا بيضة الخدُر  
 سوداء ما تنفك مُتَأَقَّةً      ملائى مُضَيَّبَةً على جَجْرٍ<sup>(٢)</sup>

٥ — وأحياناً كان الشريح يخدم بين المرأة وزوجها فتقلبه وتهجوه ، لأنه أثارها وهاجها ، كما نشرت أم الصريح بنت أوس الكندية على أبي الصريح السكبي فقالت :

كأن الدار يوم تكون فيها .      علينا حفرة ملئت دخاناً

(١) بلاغات النساء لطيفور . الدلول : الجمل الطبع . بديل : خلف وق الأصل البدول وهو تحريف . هو جاء : حقاء . متاء : عاربة من اللجم . ردفا : كانت في الأصل رففا وهو تحريف . الإهاب المنجول : المشقوق عن العرقوبين إلى الرأس ثم يسلخ . المنحة : الناقة أو الشاة الحلوب كانت في الأصل ( اليجة ) وهو تحريف

(٢) بلاغات نساء ١٠٠ متأقة : مملوءة بالشر والغضب . مضبية على جر : ممسكة به تريد أنها شريرة مؤذية .

فليتك في سفين بنى عباد طريدا لا نراك ولا ترانا  
وليتك غائب بالهند عنا وليت لنا صديقا فاقتنا  
ولو أن النذور تكلف منه لقد أهديتها مائة هجانا<sup>(١)</sup>

وكذلك فعلت أم الأسود، وحذرت النساء أن يتزوجن مثل زوجها الجبان البخيل<sup>(٢)</sup>.

٦ - وقد بقيت المرأة تمارس الهجاء في الإسلام، كما مارسته في الجاهلية، فقد هجا أبو وجزة زوجته زينب بنت عرفة فهجته في صدر الإسلام<sup>(٣)</sup>، وهجا عبد الله بن أوفى الخزاعي امرأته وهجته<sup>(٤)</sup>، وهجت حميدة بنت النعمان بن بشير أزواجها ويظهر أن حميدة هذه كانت كلفةً بالهجاء، فقد هجت زوجها الأول الحارث بن خالد بن العاص بن هشام<sup>(٥)</sup>، وزوجها الثاني رَوْح بن زنباع<sup>(٦)</sup>، وزوجها الثالث الفيض بن محمد بن الحكم<sup>(٧)</sup>. ويدل على ذلك أنها ولدت من الثالث - الفيض بن محمد بن الحكم - ابنة تزوجها الحجاج بن يوسف، فقدمت على ابنتها زائرة، فقال لها الحجاج: يا حميدة إني كنت أحتمل مزاحك مرة، وأما اليوم فإني بالعراق، وهم قوم سوء فيأياك. فقالت: سأ كنف حتى أرحل<sup>(٨)</sup>. وحميدة في هجائها لم تخرج على سنن الجاهلية من حيث الذم الجسدي كقولها في زورجها الحارث:

نكحتُ المدني إذ جاءني فيالك من نكحة غاويه  
كبول دمشق وشبانها أحبُّ إلينا من الجالية  
صنَّانٌ لهم كصنَّان التيو س أعباعلى المسك والغالية<sup>(٩)</sup>

- |  |   |
|--|---|
| (١) بلاغات النساء ١١٨  | (٢) بلاغات النساء ١٠٠                   |
| (٣) أغانى ٧٦/١١  | (٤) شرح الحماسة للبربري ٤٢/٤            |
| (٥) الأغانى ٨ ١٣٢  | (٦) سمط اللآلى ١/١٧٩-١٨٠ والأغانى ٨/١٣٣ |
| والاستبصار ورقة ١٢٦ مخطوط (٧) الأغانى ٨/١٣٥ وسمط اللآلى ١/١٨٠                |   |
| (٨) الأغانى ٨/١٣٥  |   |
| (٩) الأغانى ٨/١٣٢ الجالية: أهل الحجاز لأنهم كانوا يميلون عن بلادهم إلى الشام |   |

فرد عليها بنثل هجائها :

قاطنات الحجون أشمى إلى قلبى من ساكنات دمشق  
يتضوَّعن لو تضحخن بالمسك صنانا كأنه ريح مِرِّق<sup>(١)</sup>  
وهجت زوجها روح بن زنباع بقولها :

وهل أنا إلا مهرة عربية سائلة أفراس تجلبها بفل  
فإن أتجت مهراً كريماً فبالحرى وإن بك إقراراً فما أنجب الفحل<sup>(٢)</sup>

٧ - اتسم هجاؤهن بالعبفة في الجاهلية وفي الإسلام ، ففي العصر الإسلامي  
أخش النابغة الجعدي - وكان شاعراً قد عمر في الجاهلية طويلاً وأدرك الإسلام  
وعمر فيه أيضاً - في هجاء ليلى الأخيلية فردت عليه في غير إغش شديد<sup>(٣)</sup> .

والذى لحظته أن هجاءهن في الإسلام كهجائهن في الجاهلية مقصور على  
الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع ، كقول زوجة قتادة بن مُعَرِّب  
في هجائه : إن فمه قبيح ، وإن ريحه منتنة ، حتى لقد أتلفت هذه الرائحة أنفياً  
وصماخى أذنيها :

حلفت - ولم أ كذب وإلا فكل ما ملكت لبيت الله أهديه حافيه  
لو ان المنايا أعرضت لاقتحمتها مخافة فيه إن فيه لداهيته  
فما جيفة الخنزير عند ابن مُعَرِّب قتاذة إلا ريح مسك وغاليه  
فكيف اصطبارى يا قتاذة بعدما شمت الذى من فيك أنأى صماخيه<sup>(٤)</sup>  
وقالت أخرى في هجاء رجل :

(١) الأغاني ١٣٢/٨ الرق : يفتح الميم الإهاب المتن ، وبكسرهما الصوف المتن .  
(٢) الأغاني ١٣٤/٨ وسهط اللآلى ١٧٩/١ وبلاغات النساء ٩٦ والعقد الفريد  
١٦٩/٤ وأخبار النساء ٥٣ بفل : صوابه في رأى ابن سيده نقل وهو الحسيس الدق من  
الناس والدواب تريد الفرس الهجين . إقرار : هجته من جهة الأب لا الأم  
(٣) الأغاني ١٦/٥ وسهط اللآلى ٢٨٢/١ ولسان العرب مادة ذلغ  
(٤) شرح الحماسة للبريزى ٤/٤ أنأى : أفسد

إن أباك زَهْرَقٌ دقيقٌ لاحسن الوجه ولا عتيق  
تضحك من طُرْطُوبِهِ العُنُوقِ<sup>(١)</sup>

٨ — وهن لم يبرعن في الهجاء براعة الرجال ، لأنه لون من التهجم والتطاول ، ومضع الأعراض ، والسفه ، يخافى الأنوثة ، وينافى الحياء ، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء ، فالقبيلة تعتد شاعرها أو شعراءها لسانها البتار لعداتها ، المكافح عن مفاخرها ، المنافع عن حسبها وسؤدها ، يبلغونها ماتبافها للسيوف والرماح ، ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك .

ثم إن الرجال كانوا حماة للنساء ينشئونهن في الدعة والنعمة والحماية والرفه ، ويتخذونهن ثمراً حلواً لا شوكا وقتاداً ، فمن الطبيعي أن يبعدوهن عن مضايق الهجاء ومحرجاته . على أن النساء كن يشعرن أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال ، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بن مجاشع وغيرهم ما حل بأعين بن ضبيعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم — وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن — فأتين الفرزدق فقلن له : قبح الله قيدك ، فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلجيت شاعر قوم ، فأحفظنه ، ففض قيده ، وهجا جريراً<sup>(٢)</sup> .

أما في العصر العباسي فقد أخصن في هجائهن ، تأثراً بالتلف وانحلال الأخلاق وضعف الشهامة العربية ، وكانت الإمام رائدات الفحش والخلاعة بالقول والعمل ، مثل عريب<sup>(٣)</sup> . وكذلك أخصن في الأندلس في أواخر الحكم العربي<sup>(٤)</sup> .

(١) شرح الحماسة للتبرزي ١٧٣/٤ ولم يذكر أنها جاهلية . زهزق : لثيم . الطرطوب : صوت الراعي إذا سكن معزاه . الضوق : لثات الماعز .

(٢) النقايس ١٢٥ وطبقات الشعراء ٣٢٧ .

(٣) الأغاني ١٨٠/١٨٠ (٤) ففتح الطيب ٥٦٣/٢ و ٥٦٤ و ٦٣٣ طبعة

أوروبا ونزهة الجلساء ٢٨ و ٤٢ و ٤٣ مخطوط . ونزهة الأبصار والأسماع ١٢

(٤١) — المرأة في الشعر الجاهلي



## الفخر

كان فخر العرب بشجاعتهم وكرمهم وفضائلهم يدوى في بلادهم دويًا ،  
وكثيراً ما اقترن فخرهم بهجاء أعدائهم .

وكان الشاعر حينما يفخر يعدد مناقب قومه ، لأن الفرد يعتز بالقبيلة  
لا بشخصه ، ومجد القبيلة مجده ، على أن الشعراء أحياناً كانوا يختصون أنفسهم  
ببعض الفخار .

١ — وقد افتخرت النساء أيضاً ، ولكن فخرهن لم يكن بأنفسهن ، وإنما  
كان إشادة بقبايلهن وأقاربهن .

فاختساء تفخر بقومها في مجال الرثاء :

وأفنى رجالى فبادوا معا	فأصبح قلبى لهم مُسْتَفْرَا
لذكر الذين هم فى الهيا	ج للمستضيف إذا خاف عَزَا
كأن لم يكونوا حى يُتَّقَى	إذ الناس من عَزَّ بَرَا
وكانوا سَراة بنى مالك	وزين العشيرة مجداً وعزا
هم منعوا جارهم والنساء	ء يحفز أحشائها الموت حفزا
غداة لقوهم بمأومة	طحون يفادرن فى الأرض وَكُرا
بييض الصفاح وسمر الرماح	فبالبيض ضربا وبالسمر وَخُرا
وخيل تكدسُ بالدارعين	وتحت العجاجة يَجْمُزُنْ جَمْزا
جـرزنا نواصى فرسانهم	وكانوا يظنون أن لن تُجْزَا
تَعَفُّ ونعرف حق القيرى	وتتخذ الحمد مجدداً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد	ونلبس فى الأمن خَزَا وقَزَا <sup>(١)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٤٣ . من عز بز . من غلب سلب . ملوومة : كتيبة مجتمة .  
طحون : تملحن كل شىء . تجمز : تعدو .

«والخرنق تفخر بقومها أيضاً في مجال الرثاء :

لا يبعـدَنُ قومي الذين هم سم العـدـاة وآفة الجـزـر  
النازلون بكل معـتـرك والطـيـون معاقـد الأزر<sup>(١)</sup>

وتفخر ببلادهم في التنكيل بيني أسد في مجال رثائها لزوجها بشر :

ألا لا تفخرن أسد علينا يوم كان حـيـنـاً في الكتاب  
فقد قُطعت رءوس بني فـعـين وقد نُقعت صدور من شراب  
وأردينا ابن حسحاس فأفـحى تجول بِشـلـوه نُجس الذئاب<sup>(٢)</sup>

وتقول أيضاً في هجاء بني أسد بالجبن والملع من لقاء قومها :

سمعت بنو أسد الصياح فزادها عند اللقاء مع النفار نفارا  
ورأت فوارس من ضئيبـة وائل صبروا إذا نفع السناك ثارا  
بيضا يحززن العظام كأنما يوقدن في حلق المغافر ناراً<sup>(٣)</sup>  
وتفخر بزوجها أيضاً<sup>(٤)</sup> :

وكذلك فخرت عاتكة بنت عبدالمطلب بقومها، فنوهت بشجاعتهم وبلادهم :

سائل بنا في قومنا وليكف من شر سماعه  
قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باق شناعه  
فيه السنور والقنا والكبش ملتئم قناعه  
بعكاظ يعشى الناظرين إذا هم لحوا شماعه  
فيه قتلتنا مالكا قسراً وأسلمه رعاعه

(١) ديوان الخرنق ١٠

(٢) ديوان الخرنق ٧ مخطوط . كان حيناً في الكتاب : كان مقضياً . ابن حسحاس :

رجل من أسد الشلو : العضو . بنو فعين : من بني أسد

(٣) الديوان ٧ صليبة وائل : من نمله . بيضا : سيوفا مجلوة . يحززن : يقطن المغافر :

ج مغفر ما يلبس على الرأس من زرد ليقبه (٤) الديوان ١٩

وَمُجْدَلًا غَادِرَتَهُ بِالْقَاعِ تَنْهَسُهُ ضِبَاعُهُ<sup>(١)</sup>

ولقد تفخر الشاعر بأمرها دفاعاً عنها ، من ذلك أن أم زينب بنت فروة ابن سنان كانت أمة فارسية ، فنوهت زينب بحسبها :

إِن ابْنَةَ الدِّهْقَانِ كَسَرَى تَوَوَّلَتْ      بَطْعَنَ السَّكَاةِ وَاخْتِلَاسَ الْمَعَابِلِ  
وَلَمْ تُخْتَطَفْ أُمِّي عَلَى غَيْرِ نَثَلَةٍ      وَلَمْ تَخْتَطَفْ إِلَّا بِطْعَنِ الْمَقَاتِلِ  
مِنَ اللَّابِسَاتِ الرَّيْطَ زَهْرَاءَ لَمْ تَبْتَ      تَحُشُّ مَعَ الْأُمِيِّ وَقَدَّ الْمَرَاجِلِ  
وَلَمْ يُرَى فِي أَفْسَاءِ مَرَّةٍ مِثْلَهَا      وَلَا عِنْدَ قَيْسٍ مِنْ غَنِيمَةِ قَافِلِ<sup>(٢)</sup>

٢ — وفخر المرأة على قلتها وضعفه ليس فيه من الأنوثة شيء ، كالعفة والجمال والرقه وحلاوة الحديث وإسعاد الزوج ورعاية الأولاد وتديير البيت ، وإنما هو فخر بالرجال وأعمالهم .

ولعل مرد ذلك إلى استحسانها من الفخار بهذه المميزات . وليس معنى مباهايتها بالرجال أنها كانت ذليلة القدر مسلوبة الشخصية ، وإنما معناه أنهم حمايتها وأسنادها ، فهي تشعر بالعز والمنعة وعلو القدر في كنفهم وظلمهم إذا كانوا أعزة ، كما يفخر أحدنا بوطنه أو معبده أو أبيه .

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات في شيء ، فمثلاً تمزج ليلى الأخيلية بعض الفخر بهجائها للناطقة الجمعدى ، فتباهى بمزة قومها :

لَسَاتَامِكُ دُونَ السَّمَاءِ وَأَصْلُهُ      مَقِيمٌ طَوَالَ الدَّهْرِ لَمْ يَتَحَلَّحْ لَهَا  
وَمَا كَانَ مَجْدٌ فِي أَنْاسِ عِلْمَتِهِ      مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَجْدُنَا كَانَ أَوْلَا<sup>(٣)</sup>

(١) شرح الحماسة للبربري ١٣٠/٢ السور : الدرغ الرعاع : سفلة الناس أو الجبناء .  
جدلا غادرته : غادرت الخيل مجدلا . تنهسه : تنهسه .

(٢) بلاغات النساء ١٨٢ . المعابل : نصال السهام . نثلة : جماعة . تحش : توقد .  
الأمي : القبي الجلف الجاني والمراد العبد . وقد المراجيل : نارها . غنيمة قافل : راجع من الحرب بالفنائم

(٣) أشعار النساء للبرزباني ٤ مخطوط وبلاغات النساء ١٧٠ تامك : سنام والمراد مجد عال .

٣ — أما فخر الرجال فقد كان فيه ضرب من الفخر بالقبيلة كلها حسبها  
بوعدها وثرائها و بطولتها وظفرها ومنعتها، وضرب من الفخر الشخصي الفردى.

يمثل النوع الأول قول عمرو بن كلثوم :

أباهند فلا تعجل علينا	وأنظرنا نخسبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً	ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غزٍ طوال	عصينا الملك فيها أن ندينا
متى ننقل إلى قوم رحانا	يكونوا في اللقاء لها طحينا
وأنا المانعون لما يلينا	إذا ما البيض زابت الجفونا
وأنا النعمون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الشاربون الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدراً وطينا <sup>(١)</sup>

وقول لبيد

إننا إذا التقت الجماع لم يزل	منا لزازٌ عظيمة جسامها
ومقسّم يعطى العشيبة حقها	ومغذّم له لخطوقها هضامها <sup>(٢)</sup>

وقول أمية بن أبي الصلت :

بأنا النازلون بكل ثغر	وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المانعون إذا أردنا	وأنا المقبلون إذا دُعينا
وأنا الحاملون إذا أناخت	خطوبٌ في العشيبة تبتلينا
وأنا الرافعون على ممدّ	أكفّاً في المكارم ما بقينا <sup>(٣)</sup>

ويتمثل الضرب الثانى فى الزهو بالذات والكرم والبطولة فى قول عنتره :

(١) شرح الفصائد العشر للتريزى (٢) جبهة أشعار العرب ١١٥ لزاز : قرن .  
جسامها : متحمل لها . مغذّم : يأخذ من هذا ويدع ذلك . هضامها : منحها  
(٣) الجهرة ١٨٩ .

ولقد شربتُ من المُدّامة بعدما  
 فإذا شربتُ فإنتى مستهلكٌ  
 وإذا صحوتُ فما أقصّر عن ندى  
 ركذ الهواجر بالمشوف المُعلم  
 مالى وعرضى وافرو لم يكلم  
 وكما علمتِ شمائلى وتكرّمى

لما رأيت القوم أقبل جمعهم  
 يدعون عنتر والرماح كأنها  
 ما زلت أرميهم بثغرة وجهه  
 فازورّ من وقع القنا بلبانه  
 لو كان يدوى ما المحاورة اشتكى  
 يتذامرون كررت غير مذمّم  
 أشطان بئر فى لَبانِ الأدهم  
 ولبانه حتى تسربل بالدم  
 وشكا إلى بعبرة وتحمحم  
 ولكان لو علم الكلام مُكلى (١)

وكقول طرفة :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنتى  
 فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى  
 وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى  
 عنيت فلم أكسل ولم أتبلد  
 وإن تلتمنى فى الحوانيت تصطد  
 إلى ذروة البيت الرفيع المصدد

أنا الرجل الضربُ الذى تعرفونه  
 خَشَّاشٌ كَرَأْسِ الحية المتوقد (٢)

(١) شرح الفصائد العسر للتبريزى وديوان عنتره . المشوف المعلم : الكأس أو الدينار  
 المحلو المنقوش . (٢) شرح الفصائد العسر للتبريزى وديوان طرفة . الضرب : الخفيف .  
 خَشَّاش : ماض متوقد : ذكى .

## المدح

١ — ليس لهن في المدح نصيب ، لأن بواعثه كانت محبوسة على الرجال ،  
سواء في ذلك المدح المنبعث عن إعجاب ، أو عن رغبة في العطاء . ثم إن مدح  
المرأة للرجل مما يُعاف ، ولكن جاء في شعرهن قليل من المدح ، كمدح الخنساء  
لأبيها وأخيها حين استبقا على الخليل ، وهو أدخل في الفخر بهما من المدح :

جارى . أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الخضر  
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعدر  
وعلا هتاف الناس أيهما قال الجيب هناك : لا أدرى .  
برزت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى  
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر  
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا على وكر<sup>(١)</sup>

وهذا مأزق حرج أبدعت فيه الخنساء ، لأنها مدحت أباهما وأخاهما معاً ،  
وبينت إكرام الابن لأبيه ، وإعزازة لقدره ، وجعلت تقديم الولد لأبيه في  
السبق معرفة بحقه ، وتقديراً لمكانته وسنه .

وقد قيل لأبي عبيدة : ليست هذه الأبيات في مجموع شعر الخنساء ، فقال :  
العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل ذلك<sup>(٢)</sup> .

(١) ديوان الخنساء ١٣٦ وأمالى المرتضى ٦٧/١ وزهر الآداب ٢٣٩/٣ . يتعاوران . ملاءة الخضر : يصير غبار الجرى كثوب يلبسه هذا مرة وذلك مرة . الخضر : العدو والسباق .  
نزت القلوب : ناقت لمعرفة السابق . لزت العذر بالعدر : قرنت عنان السابق بنان المسبوق .  
أولى : كان الابن أهلاً لأن يجارى أباه فيسببه لولا أنه امتنع أنفة ولأبيه عليه فضل السن  
والقدر .

(٢) أمالى المرتضى ٦٧/١

ورأيت هذه الصورة فيما بعد الكميت ، فحكاها في مدحه مخد بن يزيد  
ابن المهلب :

أحدٌ ومثلك طالبا لم يَلْحَقْ	ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه
وتلوت بعد مصليا لم تَسْبِقُ	تتجاوزان ، له فضيلة سنه
فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّقْ	إن تنزعا وله فضيلة سنه
من بُعد غايته فأحجج وأخلق <sup>(١)</sup>	ولقد لحقت به على ما قد مضى
ثم نسج على منوالها المؤمل بن أميل الكوفي الحاربي في مدح المهدي :	
إليك من السهولة والوعور	لئن فت الملوك وقد توافوا
بقوا من بين كاب أو حسير	لقد فات الملوك أبوك حتى
وما بك حيث تجري من فتور	وجئت وراءه تمشي حثيثا
بمنزلة الخليق من الجدير	وقال الناس ما من ذين إلا
له فضل الكبير على الصغير	فإن سبق الكبير فأهل سبق
فقد خُلِقَ الصغير من الكبير <sup>(٢)</sup>	وإن بلغ الصغير مدى كبير

٢ - وفي الإسلام نابت بنت لييد عن أبيها في مدح أمير الكوفة الوليد  
ابن عقبة وشكره ، ذلك بأن لييدا كان قد آلى في الجاهلية أن يطعم ما هبت  
الصبا ، ثم واصل ذلك في إسلامه ، فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة  
إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس ، فقال : قد علمتم حال أخيكم أبي عقيل ،  
وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا ، وقد هبت فأعينوه . ثم بعث إليه  
بمائة من الجزر واعتذر إليه بقوله :

أرى الجزار يشحدشفرته	إذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الأنف أصيد عامري	طويل الباع كالسيف الصقيل

(١) أمال المرتضى ١/٦٨

(٢) أمال المرتضى ١/٦٨ .

وفقى ابن الجعفرى بما نواه      على العلات والمال القليل  
 يُذَكِّي الكُومَ ما هبت عليه      رياح صَبًا تَجَاوِبُ بالأصيل  
 فلما وصلت الجُزُر والشعر إلى لبيد قال : إني تركت الشعر منذ قرأت  
 القرآن ، وإني ما أعيأ بجواب شاعر . ودعا ابنة له فقال : أجيبه عني ، فقالت :  
 إذا هبت رياح أبي عَقِيل      دعونا عند هبّتها الوليدا  
 أشم الأنف أُصَيِّدَ عَبْشَمِيًّا      أعان على مروءته لبيدا  
 بأمثال الهضاب كأن رَكْبًا      عليها من بنى حام قُعودا  
 أبا وهب جزاك الله خيرا      نحرناها وأطعمنا الوفُودا  
 فقد إن الكريم له مَعَاد      وظنني بابن أروى أن يعودا  
 فقال لبيد : أجت وأحسنت لولا أنك سألت في شعرك . قالت : إنه أمير  
 وليس بسوقة ، ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألتاه . قال لبيد : أجل<sup>(١)</sup> .  
 بعد هذا يتبين أن مدح المرأة على ندرته موجز خاطف لا تفصيل فيه ،  
 ولا توليد لمعانيه .



## الحنين إلى الوطن

١ — حب الوطن طبيعة راسخة في كل نفس . ولقد يطوّف الإنسان مايطوف ، ويفترب مايفترب ، ويشهد مايشهد من ضروب الجمال في غير وطنه ، ولكن نفسه دائماً تنازعه إلى مسقط رأسه ، وعواطفه تهوى إلى وكره الذي منه خرج ، وفي ملاعبه لهاً ودرج .

ويظهر أن للصحراء سحراً خاصاً — على جذبها وشطفها — يجتذب أهلها إلى الأرياموا عنها ، ولا يَتَجَلَّحُوا منها ، بل إن سحرها ليجتذب العارفين بها من غير سكانها .

وقد صور هذه المشاعر الرحالة أحمد حسنين في رحلته اللووية . وللاجاحظ رسالة حافلة بحب الأعراب لباديتهم والحضريين لأوطانهم نساء ورجالا يقول فيها : « وترى الأعراب تحن إلى البلد الجذب ، والمحلّ القفر ، والحجر الصّلد ، وتستوخم الريف <sup>(١)</sup> » .

بل لقد بلغ من حب العرب لديارهم أنهم كانوا إذا رحلوا للغزو أو للنجمة حملوا معهم من تربة الدار رملا وعفرا ( ترابا ) يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع . يقول شاعر من بني ضبة :

نسير على علم بكنهه مسيرنا      بُعْفَرَّ زاد في بطون المزاد  
ولا بد في أسفارنا من قبيصة      من الترب نُسقاها حُبِّ الموالد <sup>(٢)</sup>

كانت المرأة والرجل سواء في الحنين إلى الوطن ، يقول عمرو بن قيسمة لما خرج مع امرئ القيس إلى قيصر <sup>(٣)</sup> ، وقد حنت ابنته إلى وطنها إذ شطت بها

(١) رسالة الحنين إلى الأوطان ٨

(٢) رسالة الحنين إلى الأوطان ١٢ العفة : بقية اللبن في الضرع والمراد القليل من الزاد.

قبيصة : قبضة وحفنة (٣) الأغاني ١٦ / ١٥٨

النوى فبكت ، وتذكرت آلها :

قد سألتني بنت عمرو عن ال أرض التي تُنكر أعلامها  
لما رأت ساتيدما استعبرت لله دَرُّ اليوم من لامها  
تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها<sup>(١)</sup>

٢ — وقد أسلفت في باب الزواج أن المرأة كثيراً ما كانت تتوجس من الزيجة في غربة ، لأنها تؤثر أن تقضى حياتها بين قومها وفي وطنها . ولكن ما كل ما يطلب المرء يناله ، فلا بد من أن تغترب أحياناً ، فهي إذاً تشتاق إلى وطنها ، وتنفس عن نفسها بشعرها ، فمثلاً تحن هند بنت عَصْم السدوسية إلى بلادها وهي عند ربيعة بن غزالة الكندي ، وتصور حنينها في أن الماء الذي تشرب منه لا يبيل أوامها ، وتود لوجاءها أحد بشرية من ماء وطنها لتعطيه أربعاً من وطن زوجها ، ثم تقول إنها تشتعل شوقاً إلى ديار أهلها ومسقط رأسها ، ويزيد شوقها اشتعالاً أنها يأسه من أوبة قريبة :

ألا لا أرى ماء المصَّبَحِ شافياً نفوساً إلى أمواهِ بَقعاءِ نَزَعاً  
فَمَنْ جاء من ماء السَّبالِ بِشَرِبَةٍ فإن له من ماء لِينَةٍ أربَعاً  
وقد زادني وَجداً بِبَقعاءِ أني رأيت مطاياها بلينةَ ظُلماً<sup>(٢)</sup>

وهي تعجب ممن يلومها في شوقها إلى وطنها ، بل إن الملامة لتزيدها ولوعاً به ، وما ذنبها في أن تكلف بأرض عشيرتها وتقل غيرها ؟ وإنما لتتمنى أن تقدر الريح على نقل نجواها ، وتلطف وتظرف في تمنيتها أن تبلغ الريح تحياتها ، وفي دعائها لها بالخير ، راجية ألا تمس بتحتيتها الثرى ، وإنما لحفية بالريح الشمالية تسألها عن قومها أيقربون ومتى يقربون ؟

(١) معجم البلدان ٥/٥ ساتيدما : جبل بين ميفارقين وسعرت

(٢) بلاغات النساء ١٠٦ المصبح ، بقعاء ، السبال ، لينة : أسماء مواضع . ظلم :

المراد مقيمة .

قالت وجهية بنت أوس الضبية :

وعاذلة تغدو علىّ تلومني      على الشوق لم تمنح الصباية من قلبي  
فمالي إن أحببت أرض عشيرتي      وأبغضت طرفاء القصيدة من ذنب  
فلو أن ريحا بلغت وحيّ مُرسلي      حفيّ لنا جيتُ الجُنوبَ على النَّقب  
فقلت لها : أدى إليهم رسالتي      ولا تخاطبها طال سعدك بالتُّرب  
فإني إذا هبت شمالاً سألتها      هل ازداد صدّاحُ الثميرة من قُرب؟<sup>(١)</sup>  
وكذلك حنت أم موسى بنت سدرة الكلابية<sup>(٢)</sup> وامرأة من غطفان<sup>(٣)</sup> .

ولقد يعقد شوقها إلى وطنها صلة وجدانية بينها وبين الجمل الغريب الذي  
يحن إلى مراجعه ، كما حدث لامرأة من أبان زوجت في كلب ، فنظرت إلى  
بكر من ديارها فرأته يحن إلى وطنه فقالت :

الأأيها البكر الابائي إنني      وإياك في كلب لمغتربان  
تجنّ وأبكي ذا الهوى لصباية      وإنا على البلوى لمصطحبان  
وإن زمانا أيها البكر ضمّني      وإياك في كلب لشرّ زمان<sup>(٤)</sup>

وسأبين في الغزل أن بعض الحنين إلى الوطن غزل مستور ، وحين إلى  
حبيب نازح لا طاقة للمرأة أن تبوح به .

٣ — وقد لازمها وفاؤها لوطنها وحبها لديارها إلى ما بعد العصر الجاهلي ،  
فإن ميسون بنت بحدل الكلابية لما زفت من بادية كلب إلى معاوية بن أبي  
سفيان لم تطق حياة الحضر ، وتشوقت للبادية بقولها :

(١) شرح التبريزي للحجاسة ١٨٧/٤ ومعجم البلدان ١١٥/٧ . طرفاء القصيدة : شجر  
بهذا الموضع . حفيّ : مهم معتن ملح في السؤال . النقب : الطريق في الجبل . هبت شمالاً :  
هبت الريح شمالاً والظاهر أنها كانت تهب من ناحية قومها مستقبلة ديار زوجها . صدّاح : المراد  
بهم أهل وناس لأن الصدح الصوت . الثميرة : هضبة بين نجد والبصرة بعد الدهناء

(٢) بلاغات النساء ١٩٦ ومعجم البلدان ٢٢٣/٣ و ٥١٦/٨

(٣) معجم البلدان ١٦٩

(٤) رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٢

كَبَيْتُ تَحْفَقُ الأرواحَ فِيهِ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِصْرِ مُنِيفٍ  
 وَأصواتُ الرِّياحِ بِكُلِّ فِجٍّ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ  
 وَكَلْبٍ يَنْبِجُ الأَبْيَاتَ دُونِي      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَرِّ الأَيْفِ  
 وَلُبْسِ عِبَاءَةٍ وَتَقَرِّ عَيْنِي      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ  
 وَخِرْقَةٍ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٍ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَاجِجِ عَالِيفٍ<sup>(١)</sup>

وقد حدث عبد الله بن إسحاق الجعفرى قال : أمرت بملء صهريج لى فى بستان عليه نخل مُطلّ ، وذهبت بأمر حسانة المريّة وابنتها — زوجتى — فلما نظرت أمر حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجلها فى الماء ، فقالت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لنجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : ها هنا أعجب إلى .

فدرنا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تخضض رجلها فى الماء وتحرك شفيتها ، فقالت : يا أم حسانة لا أحسبك إلا قد قلت شعراً ، قالت : أجل ، ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبيّ أسره      وللعين دمعٌ مُخَدِّرُ الكحلِّ ساكبه  
 لعمري لنهى باللوى نازح القذى      نقى النواحي غير طَرَقٍ مشاربه  
 أحبُّ إلينا من صهاريجٍ مُلئت      للعب ولم تملحْ لدىّ ملاعبه  
 فيا حبذا نجد وطيب هوائه      إذا أهضبتَه بالعشيّ هواضبه  
 وريح صبا نجد إذا ما تنسمت      ضحاً وسرت جَنحَ الظلام جنائبه  
 فأقسم لا أنساه ما دمت حية      وما دام ليل من نهار يُعاقبه  
 ولا زال هذا القلب مسقى لوعة      بذكره حتى يترك الماء شاربه<sup>(٢)</sup>

(١) حسانة الخالد بن ٢٣٢ مخطوط. بكر: فنى من الإبل . صعب : لم يركب . الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق . خرق : سخى ظريف حسن الخليقة . عالج : حمار أو حمار وحش . عليف : مطعوم لا يعمل .

(٢) محاضرات الأدباء ٢/٣٦٥ ورسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٠ نهى : غدِير . الطروق : الماء الذى خاضته الإبل وبات فيه وبعرت : أهضبته المواضب : فاضت عليه السحب فى غزارة . جنائب : رياح الجنوب .

## الغزل

كانت لهوات الشعراء تتجاوب بالغزل في كل صقع من أصقاع الجزيرة ،  
ينفسون به عن حب مبرح ، وحرمان ممض ، وشوق لهيف ، أو يفتنون في وصف  
مفاتيح النساء الجسدية والنفسية ، و يصرحون بما نالوا من لذات ومتع .

ولقد كان الخليلي يحاكي الشجى أحياناً فيتغزل ، وهؤلاء وألئك خلفوا من  
الشعر الغزل ثروة عظيمة تنبئ عن تقدير العرب للمرأة ، وخضوعهم لسلطان  
الجمال والحب. ولم يكن من محض المصادفة أن بدت العلاقات ومشهورات القصائد  
بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة .

وما من شك في أن المرأة كالرجل تحب ، وتتشوق ، وتذكر وتمنى ،  
وإذا كانت شاعرة فإن المتوقع أن تتغنى حبها في شعر ترجيه العاطفة ، كما يتغنى  
الرجل . ولكن هذا الشعر الذي كنا نرقبه كثيراً غزيراً لم نتمسك منه إلا نادراً  
قليلاً ، كأنه خلّس الدهر أو فلتات اللسان .

### كتمان المرأة :

وليس تعليل ذلك بعسير ، لأن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر  
بحبهن ، مجبولات على كتمان الهوى المعتلج بقلوبهن ، بينما يحب الرجل فلا يطيق  
أن يحتبس حبه ، فيعبر عن مشاعره بقصيد يقرضه ، أو لحن ينشده ، أو تمثال  
ينحته ، أو غناء يردده ، ويطير به خياله كل مطير ، فيملاً الدنيا غزلاً . ولقد  
يَفْتَنُ فَيَتَغَزَلُ غزلاً روحياً يصور محبوبته ملكاً ، أو يتغزل غزلاً حسياً يصور  
جمالها ويكشف عن بدعها .

أما المرأة فتحب ولكنها تسمّر عاطفتها ، وتجنّ مشاعرها ، وتحبس حبها في  
صدرها ، على أنها ليست أقل من الرجل حباً . لذلك تعتمد أحياناً إلى السحر

والرثى لاجتذابه ، وتتجمل وتزين وتتمنع لاختلابه .

وحب الرجال يمتاز بأنه سافر ناطق ، وحب المرأة يمتاز بأنه محجب صامت .  
ثم إن المرأة مطلوبة مرغوبة ، ففى إذاً قديرة على كتمان عاطفتها ، لأن مقاليد  
الحب بيدها لا بيد الرجل .

وقليلاً ما يقبلها الحب فتبوح ، لأن الرجل أغراها بوعوده ، وسحرها بنشيدته ،  
وفكّ عقدة لسانها ببلاغته ، أو لأنها ضاقت بما تجد ، فنبتت بكلمة أو تخففت  
من ثقل الحب بأبيات من الشعر ، ولكن هذا نادر نزر .

« والمرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوماً واحداً  
فيظهر ذلك بوجهها ولسانها . والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ،  
وإن أحب يوماً واحداً شهبت جوارحه <sup>(١)</sup> » .

وهذا طبعى لأن إظهار المرأة بغضها لا عيب فيه ولا لوم .

لذلك كانت مية على حق فى قولها - وقد سئلت بعد موت قابوس : ما كان  
يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ - : منهنى من ذلك خوف العار ، وشماتة  
الجار ، ولقد كان بقاى منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أنى وجدت ستره أبقى لما  
فى الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

وكذلك كانت عفراء ، فقد هالها ما نزل بعروة ، فكادت تبوح بسرها ،  
فقيل لها : أما عندك له حيلة تخفف ما به ؟ فقالت : والله لأنا أسرّ بذلك وأشوق  
إليه منه ، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار <sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت مية وعفراء تُجَنِّانُ حبيهما مخافة العار واستطالة الألسنة ، فإن  
عفراء بنت أحر كانت تكتم حبيها عزّةً وتجلداً وترفعاً عن أن تتهم بما لا يليق

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٧٩ .

(٢) أخبار النساء لابن القيم ٣٥

بالأنتى . ذلك أنه قيل لها ما كان يضرك لو رَوَّحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبتة بزورة؟ فقالت : منعى من ذلك قولكن عفراء قد صَبَّتْ إلى الحارث<sup>(١)</sup>

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والإسلاميون من تصوير الحبيبات ببادلنهم حباً بحب في صراحة وجلاء . وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من التصريح بذلك ؛ لأن العرب حراس على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنعة البعيدة المنال .

يدل على ذلك قول السُّلَيْك بن السُّلْكَة إن قلبه يعاف المرأة المتهاككة الجواد بوصاياها ، ويعلق بالمنعة التي لا تحوم حولها ربية :

من الخفِرات لم تفضح أخاها      ولم ترفع لوالدها شَناراً  
يعاف وصالَ ذات البذلِ قلبى      وأتَّبَع المُنَّعة النَّواراً<sup>(٢)</sup>  
وقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

تُسمِعُ الحدَاثَ قولاً حسناً      لو أرادوا غيره لم يُسْتَمِع<sup>(٣)</sup>  
وقول كعب بن رُواع :

ويخالها المرح السفيه تحبه      ونوَالها غيرَ الحديثِ بعيد<sup>(٤)</sup>  
وقول قيس بن الحدادية :

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة      فما نوَلتِ والله راءِ وسامع<sup>(٥)</sup>

وقد صور رجل من بنى أسد تصوّون محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطْلَبُ ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها فى شيء :

وإنى لأرجو الوصل منك كما رجا      صدَى الجُوفِ مرتاداً كُداه صُلُود  
وكيف طلابى وصل من لو سألته      قَدَى العينِ لم يُطْلَبُ وذاك زهيد

(١) أخبار النساء ٢٦

(٢) الأغاني ٤/٣٦٤ التوار : النفور من الربية (٣) الفضليات ١/١٩٠

(٤) المؤلف والمختلف اللامدى ١٢٨ . (٥) الأغاني ١٣/٦

ومن لورأى نفسى تسيل لقال لى أراك صحيحاً والفؤاد جليد<sup>(١)</sup>  
وهذا الضرب كثير في شعر الشعراء<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان هذا هو الذوق العربي العام فقد وجدوا في تصوير المرأة طالبة  
للرجل متبالكة أو عليه غضا من أنوثتها وحيائها، واستطالة من الرجل، وزهوا  
بنفسه، لأنه إذا يتنزل في شخصه لا في حبيبته.

ولم يخرج على هذا الذوق العربي إلا عمر بن أبي ربيعة في الإسلام، وقد  
أكثر من هذا كقوله:

قالت ليرب لها تحدثها لفسدن الطواف في عمر  
قوى تصدى له ليعرفنى ثم اغمزيه يا أخت في خفر  
قالت لها: قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسمى على أثرى<sup>(٣)</sup>  
وكرر مثل ذلك<sup>(٤)</sup>.

ولكن هذا كان مستهجننا منه، حتى لقد قال له كثير: لقد أسأت وقلت  
المجر، ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها، وإنما توصف  
الحررة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع<sup>(٥)</sup>.  
وقال له ابن أبي عتيق لما أنشده أبياتاً منها:

قالت الصغرى وقد تيممها قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

(١) شرح التبريزي للحجاسة ١٩٠/٣ ومجمع البلدان ٣٩٦/٦. الجوف: الطمئن من  
الأرض الغليظة. مرئاداً: طالباً منصوب على الحال. صلود: قلية الماء أى أرجو وصلك رجاء  
العطشان الطالب للماء من أرض لا تبيض بالماء، ولو أنى سألتك قذى من عينك ليجلت به  
(٢) الأعشى (الديوان ١٠٤) والشنفرى (الأغاني ٩١/٢١) والمفضليات (١٠٦/١)  
وأوس بن حجر (الديوان ١٤) وحاتم (الأغاني ١٥/١٥٩) ونعلية بن صمير (المفضليات  
١٢٦/١) وكعب بن زهير (حماسة البحرى ٨٣) وعلقمة (ديوان علقمة ٦)  
(٣) الأغاني ١٧٠/١ و ١٠٤ وفي رواية ثم اسبطرت تشتت في أثرى.  
(٤) الأغاني ٩٢/١ و ٩٤ و ١١١ و ١١٩ (٥) الأغاني ١١٩/١  
(٤٢ - المرأة في الشعر الجاهلي)



أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول قلت لها  
فقلت لي ، فوضعت خدي فوطئت عليه<sup>(١)</sup> .

صور من غزلها :

تمزات المرأة على ندرة وقلة ، وكان غزلها يبدو في مظاهر :

١ - فهي تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نكالا .

من ذلك أن رجلا من بنى عقيل تزوج امرأة من قبيلته ، دخل يوما وهي  
تتمثل ببیت غزل ، فقال لها : ما هذا الذي تتمثلين به ؟ لعلك عاشقة . قالت :  
لا . ولكن أبيات حضرتني . فقال : لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعن  
ظهرك وبطنك . فأنشأت تقول :

فإن تضربوا ظهري وبطني كليهما      فليس لقلب بين جنبي ضارب  
يقولون عزى النفس عن تودّه      وكيف عزاء النفس والشوق غالب  
فطاةيا<sup>(٢)</sup> .

وكانت امرأة من نلم اسمها سعدى تهوى ابن عم لها يقال له عيسى ، فلما  
خشى أهلها الفضيحة قالوا لها : إن نطقت فيه بشعر قطعنا لسانك . فقالت :

خليلى إن أصعدتما أو هبطتما      بلادا هوى نفسى بها فاذا كرانيا  
ولا تدعأ إن لامنى ثم لا أمم      على سخط الواشين أن تعذرانيا  
فقد شف جسمى بعد طول تجلدى      أحاديث من عيسى تشيب النواصيا  
سأرعى لعيسى الود ما هبت الصبا      وإن قطعوا فى ذاك عمداً لسانيا<sup>(٣)</sup>  
وباحت امرأة من خثعم بحبها لكعب بن طارق الشجاع الباسل :

فإن تسألونى من أحبّ فإننى      أحب وبيت الله كعب بن طارق

(١) الأغاني ١/١١٩ (٢) أشعار النساء للمرزبانى ورقة ١٨ مخطوط . عزى :

صبرى . تود : الضمير عائد على النفس (٣) أخبار النساء لابن قيم ٣٤

أحب الفتى الجمعدَ السَّلُولِيَّ ناضلاً على الناس معتاداً لضرب المَفَارِقِ (١)  
 ٢ - وتصور شوقها ولحقتها إلى الحبيب ، كقول فارعة بنت ثابت في  
 عبد الرحمن بن هشام المخزومي ، أو قول خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد  
 ابن المغيرة المخزومي :-

يا خليلي نابني سهدى لم تتم عيني ولم تكد  
 فشرابي ما أسيع وما أشكى ما بي إلى أحد  
 كيف تدجوني على رجل أنسي تلتذه كبدي  
 مثل ضوء البدر صورته ليس بالزميلة النكد  
 من بني آل المغيرة لا حامل يكس ولا ججد  
 نظرت يوماً فلا نظرت بعده عيني إلى أحد (٢)

ولقد تبثلى بالطلاق من زوجها الذي تحب ، فلا تفتأ تشوق إليه ، كزئب  
 بنت فروة المرية ، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة ، فجرى بينهما نزاع فطلقها ،  
 فقالت :

يا أيها الراكب الفادي مطيته عرّج أُنْبَيْك عن بعض الذي أجد  
 ما عالج الناس من وجد ومن كمد إلا ووجدى به فوق الذي وجدوا  
 حسبي رضاه وأنى في مسرته ووده آخر الأيام أجتهد (١)  
 ومثلها أم الضحاك الحاربية كانت تحت رجل من الضباب ، وكانت تحبه  
 حباً شديداً فطلقها فقالت :

هل القلب إن لاقى الضَّبَابِيَّ خالياً لدى الركن أو عند الصفا متحرّج ؟

(١) الحيوان للجاحظ ٤/٣ •

(٢) الأغاني ٣/٣٣ ويرى الزبير بن يكار أن الشعر لابن زهير الخنثى لسكنى وجدت في  
 الأغاني ٨/٥١ رثاء أسيفاً قاله خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد ، مما يرجح أن الغزل  
 لها . الزميلة : الجبان الضعيف . نكد : شؤم عسر . ججد : يخيل

(٣) أخبار النساء ٣٥ والأمالى ٤/٨٧

وأعجلنا قرب الحَلِّ وبيننا حديث كتنشيج المريضين مُرْعَجٍ  
 حديث لو ان اللحم يُصَلَّى بحره طرياً آتى أصحابه وهو مُنْصَجٌ (١)  
 ولها فيه شعر آخر ، وسلوان (٢) .

وليس هذا بغريب من امرأة تحب زوجها حباً عفيفاً ، فهي لا نستطيع  
 الحياة في بعده أو هجره ، كما قالت أخرى :

وما أحسنَ الدنيا وفي الدار خالد وأقبحها لما تجهز غازياً (٣)

٣ — وإذا ما نكث بعهده أو اتهمته بالقدر مظلوماً قرعته وودت له  
 التعاسة، فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له حب ولقاء وموathيق ،  
 ثم زوجه أبوه غيرها على كره منه ، فرض ، وكانت ليلي أشد به وجداً وحباً ،  
 فأرسلت إليه جاريتها لتقول له :

تَمَسَّا لِمَنْ بَغِيرِ ذَنْبِ يَضْرِمُ قَد كُنْتَ يَا صَخْرُ ، زَمَانًا تَزْعَمُ  
 أَنْكَ مَشْفُوفٌ بِنَسَا مَتِيمٌ حَتَّى بَدَا مِنْكَ لَنَا الْمُجْمَعِمُ (٤)

٤ — ولقد تستر حبها ، فتتجه بفرلها إلى الحنين لوطنها ، كما سبق في حنين  
 هند بنت عصف السدوسية ، وحنين وجيهة بنت أوس الضبية ، وكما في قول امرأة  
 من أبان كانت متزوجة في كلب ، ورأت يوماً جملاً من ديارها ، وأحست أنه  
 يحن إلى وطنه ، فجوابته حينئذ بحنين كما سبق .  
 وكذلك صبغت أسماء المرية صاحبة عامر بن الطفيل حنينها إلى حبيبها بصيغة  
 الشوق إلى الوطن :

أَيَا جَبَلِيٍّ وَادِي عُرَيْرَةَ الَّتِي نَأَتْ عَنْ ثَوَى قَوْمِي وَحُمِّ قَدُومِيَا

(١) الأمال ٨٦/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤

(٢) الأمال ٨٧/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤

(٣) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣

(٤) أخبار النساء ١٠٦ المحجم : الخفي في الصدر

ألا خليا مجرى الجنوب لعله      يداوى فؤادي من جواه نسيمها  
 وكيف تداوى الريح شوقا بماطلا      وعينا طويلا بالدموع سُجومها  
 وقولا لركبان تميمية غدت      إلى البيت ترجو أن تُحطَّ جُرومها  
 بأن بأكناف الرّغام غريبة      موهّمة نكلى طويلا نثيمها  
 مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى      وتبريح شوق عاكف مايرميها<sup>(١)</sup>

بين الجاهلية والإسلام :

كثر غزل النساء في الإسلام ، وفاض في العصر العباسي ، تأثراً بالحضارة  
 والنعمة ، وضعف الأخلاق البدوية ، حتى لنجد في غزل بعضهم تكسراً  
 لا يليق<sup>(٢)</sup> ، ولكن غزلهن في القرن الأول للهجرة لا يختلف عن غزلهن في  
 العصر الجاهلي من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلا .  
 ومن أمثله أن أبا بكر رضى الله عنه مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة  
 فسمع جارية تطحن وتنشد :

وعشقتة من قبل قطع تدمى      متأيسا مثل القضيّب الناعم  
 وكان نور البدر سنّة وجهه      يُنمى ويضعّد في ذؤابة هاشم  
 وأنا التي لعب الغرام بقلبيها      فبكت بحبّ محمد بن القاسم

فدق عليها الباب ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحرّة أم مملوكة ؟ قالت :  
 مملوكة يا خليفة رسول الله . فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاهما فاشتراها منه ،  
 وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب ، وقال : هؤلاء فتن  
 الرجال<sup>(٣)</sup> .

(١) الأمالى ١٩٧/٢ حم فدومها : قدر وقضى . نثيمها : صوتها وأنيبها . مايرميها :  
 مايزايلها (٢) في كتاب السيوطي نزهة الجلساء في أشعار النساء المخطوط شعر لبعض المحدثات .  
 فيه مجون لم نشهد مثله في العصر الجاهلي ولا في القرن الأول .  
 (٣) أخبار النساء ١١٥ سنة وجهه : دائرته أو صورته أو جبهته وجبينه

وقد تغزلت أم خالد الخثعمية في جَحْوش العَقِيلِي ، فدعت لذيواره بالسحب  
الغزار الواكفة ليشرب من مائها جحوش ، وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه-  
اللتين تشبهان عيني الصقر ، ثم فدت بنفسها عيني جحوش وقيصه وأسنانه  
المجلوة ، وأقسمت أنها قد ولت به كما ولت عفراء بعروة ، وقالت إنه مباح  
لجحوش أن يلج بيتها وأهلها نيام وهي لأجله تحب النجديين وتكره الحجازيين :

فليت سِماكِيّا يطير ربّابه يقاد إلى أهل الفضا بزمام  
ليشرب منه جَحْوشٌ وَيَشِيْمَهُ بعيني قطاميٍّ أغرّ شامِي  
بنفسى عينا جحوشٍ وقيصُهُ وأنيابه اللاتي جلا بيّشام  
فأقسم أنى قد وجدت بجحوش كما وَجَدَت عفراء بابن حزام  
وما أنا إلا مثلها غير أنى مؤجّلةٌ نفسى لوقت حمام  
فإن كنت من أهل الحجاز فلا تلج وإن كنت نجدياً فليج بسلام  
رأيت لهم سيّاء قوم كرهتهم وأهل الفضا قوم علىّ كرام<sup>(١)</sup>  
ففي هذا الغزل إغراق في الإعجاب بجمال الرجل الجسدى ، واستطابة لزيارته-  
ليلا والأهل هجود .

ومثله قول خيرة بنت أبي صَيْغَم البَلَوِيَّة وكانت من أظرف النساء .  
فما نُظْفَةُ من ماء بهسٍ عذبةٌ تُمنَعُ من أيدي الرواة أروحُها  
بأطيب من فيه لو انك ذقته إذا ليلة سحّت وغاب نجومها<sup>(٢)</sup>  
ثم إن في غزل بعضهم لونا من المبالغة كقول امرأة بدوية ، على شعرها:  
مسحة الإسلام :

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى بأرعن ركناه صفاً وحديد

(١) الأماي ٢/١٠ وبلاغات النساء ١٩٤ مع بعض تغيير

(٢) بلاغات النساء ٩٧ ، بهس : اسم ماء .. أروحها : أشمها أو أنالها وأصيها ..

تَقَطَّرَ من وجد وذاب حديدَه وأمسى تراه العين وهو عميد  
 ثلاثون يوماً كل يوم وليلة أموت وأحيا إنَّ ذا الشديـد  
 مسافة أرض الشام ويحك قربي إلى ابن جَوَّاب يزيدَ أريد  
 فليت ابن جواب من الناس حظنا وأن لنا في النار بعدُ خلود<sup>(١)</sup>  
 والأمثلة على غزلهن شتى كفضل الخنساء بنت التَّيْحان في جَحْوش  
 الخفاجي<sup>(٢)</sup>، وغزل امرأة عامرية في حصن<sup>(٣)</sup>، وغزل أم فروة العطفانية<sup>(٤)</sup>  
 وغزل امرأة من بني عامر في مالك<sup>(٥)</sup>، وحنين امرأة من بني عامر إلى  
 كَثيب قومها<sup>(٦)</sup>.

وقد تذكرت عشرة الحاربية — حين هرمت — ما كان منها في صباها  
 فقالت إن الحبين والحبات لم يجربوا من الحب إلا بعض ما جربت :  
 جريتُ مع العشاق في حَلْبَةِ الهوى ففقتهم سَبَقاً وجئت على رِشْلِ  
 فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى  
 ولا شربوا كأساً من الحب مرَّةً ولا حلوة إلا شرايهم فَضَلَى<sup>(٧)</sup>  
 وكذلك تغزلت عُليمة بنت المهدي<sup>(٨)</sup>

(١) مجالس نعلب ٨٠/١ والنظوم والمنثور لابن طيفور ورقة ٧٣ مخطوط.  
 (٢) بلاغات النساء ١٩٤ ولعله جحوش بن عمرو بن سلمة وقد وفد أبوه على النبي  
 واستقطعه (الأغانى ٢٠/١٦٥) (٣) أشعار النساء للرزباني  
 (٤) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣ وفي زهر الآداب ١٦٧/١ أنه لعاتكة المربة في ابن عمه  
 المغيرة (٥) معجم البلدان ١٩٢/٤  
 (٦) أشعار النساء للرزباني .  
 (٧) شاعرات العرب ٩١ و ١٠٢ .  
 (٨) نوات الرقيات ١٠٠/٢

## خصائص شعرها

### ١ — إمارة الرثاء :

استبان مما سبق أنهم لم يبرعن إلا في الرثاء ، لأنه وثيق الصلة بنفوسهن وميلهن ، فهن رقيقات الشعور ، ضعيفات الاحتمال ، سريعات الانفعال ، فياضات العيون ، لا يطقن فقدّ الأحباب ، وهن أشد حزنًا وأحدّ لوعة من الرجال .

على أن رثاءهن في جملته متشابه السمات ، لا يستطيع منافسة رثاء الرجال ؛ لأن مرآة الرجال الصادرة عن عواطف صادقة تصور شخصياتهن ونظراتهن إلى الحياة .

وقد قصرن في الأغراض التي عالجنها ، فلم تدان إحداهن شاعراً في الغزل أو الحماسة أو الفخر أو الهجاء ، فنحن نذكر الخنساء على أنها قد أجادت الرثاء ، وشأت فيه بعض الرجال ، وإن تخلفت عن الفحول في براءة التصوير وقوة الأداء ، ولكننا لا نستطيع أن نجد شاعرة قاربت شاعراً في فن آخر .

وكان المتوقع أن يبرعن في أغنيات الأطفال ، لكن حظهن هنا ضئيل أيضاً كما سبق في فصل الأم .

وليس لمن في الوصف نصيب ، مع أن الرجال الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها قد جالوا في الوصف جولات ، فوصفوا الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، ولاسيما الخيل والابل .

وليس مرجع هذا إلى نقص في الذكاء ، لأن بعض علماء الدراسات النفسية قد خلصوا من تجارب عدة « إلى أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس من حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطري غرزي ولد معناه، وليس مكتسباً من تجارب أودربة ،

ولا يشترط فيه غير اتحاد نسبة الذكاء العام بين الأفراد . أى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام وما ينشأ عليه المرء من إحساس بالجمال . وتفوق إنسان على آخر في هذه الناحية يتككون فيما بعد بالتجارب الخاصة أو ما يمكن أن يسمى بالدربة والمرانة» (١) .

ثم إنهن لاحظن لمن من المدح كما أسلفت .

### ٢ - وهرة الموضوع :

وتمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع ، وقد أسلفت نماذج من شعرهن في الرثاء وغيره يتبين فيها صواب هذا الحكم ، فبين قلما أوردن في رثأتهن حكمة ، ولم يقدمن لقصائدهن بمقدمات كما فعل الشعراء ، من غزل ، وبكاء أطلال ، ووصف للرحلة ، وخطاب للرفيقين الخ .

ولم نجمن في شعرهن أفانين عدة من وصف ومناج وتغر كما كان يفعل كثير من الشعراء . ولعل سبب ذلك استغراقهن في الموضوع الواحد لا يشغهن إليه سواه ، أو أن التعدد في التصديده كان عملاً فنياً يعتمد إليه الشعراء ويتوخونه ، ولكن النساء لم يبلغن هذه المكانة الفنية .

### ٣ - غلبة المقطعات :

وقصائدهن مقطعات ، فليست لإحداهن مُطَوَّلَةٌ . وأطول قصائد النساء - وهى زعيمتهن فى طول القصائد أيضاً - قصيدتها التى مطلعها :

ألا ياعين فأنهمرى بغيرى  
وفيضى فيضة من غير نزر<sup>(٢)</sup>

(١) موسيقى الشعر ٢ لـ إبراهيم أنيس

(٢) الديوان ٦٧



أبياتها عشرون بيتاً . وقصيدتها التي مطلعها :

ما هاج حزنك أم بالعين عوار أم ذرقت إذ خلت من أهلها الدار<sup>(١)</sup>  
أبياتها خمسة وثلاثون . على أن بعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها .  
وقصيدتها التي مطلعها :

أعنى هلا تبيكيان على صخر بدمع حيث لا بكى ولا تزر<sup>(٢)</sup>  
أبياتها تسعة عشر ، وبعضها غير مقطوع بروايتها  
وقصيدتها التي مطلعها :

ألا ما لعينيك أم الما لــــا لقد أخضل الدمع سربالها<sup>(٣)</sup>  
أبياتها سبعة وثلاثون ، وليست كلها مقطوعاً بروايتها .

على حين تكثر المطولات في شعر الرجال ، فمثلاً قصيدة متمم بن نيرة  
في رثاء أخيه مالك عدتها واحد وخمسون بيتاً<sup>(٤)</sup> ، ومرثية أبي ذؤيب الهذلي  
لبنيه عددها سبعة وستون بيتاً<sup>(٥)</sup> ، ومرثية أبي زيد الطائي للجلاح ابن أخته  
أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً<sup>(٦)</sup> .

وللرجال مطولات في غير الرثاء أيضاً ، فمعلقة امرئ القيس عدتها اثنان  
وثمانون بيتاً ، ومعلقة طرفة عددها مائة وسبعة ، ومعلقة زهير أبياتها ثلاثة  
وستون ، ومعلقة لبيد ثمانية وثمانون ، ومعلقة عنتره أربعة وثمانون ، ومثلها مطولة  
الحارث بن حلزة ، ومدحة الأعشى للأسد بن المنذر أو المنذر بن الأسود عدتها

(١) الديوان ٧٣

(٢) الديوان ٨٥ (٣) الديوان ٢٠١

(٤) المفضليات ٦٥/٢ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢ والأمالى لليزيدي ١٨ - ٢٥

وحجاسة الخالد بن ٣٨٧ مخطوط (٥) جمهرة أشعار العرب ٢٦٤

(٦) جمهرة أشعار العرب ٢٨٦ والأمالى لليزيدي ٧ - ١٣

خمسة وسبعون بيتاً<sup>(١)</sup> ، ومدحته لقيس بن معد يكرب أبياتها ثلاثة وثمانون<sup>(٢)</sup> ،  
وهجاؤه لعاقمة ستون بيتاً<sup>(٣)</sup> ، وهجاؤه لشييان بن شهاب سبعون بيتاً<sup>(٤)</sup> .

وقد نسبت إلى النساء مطولات ، ولكنها تحمل دلائل وضعها ، مثل  
المطولة التي نسبت إلى الدعجاء بنت المنتشر بن وهب في واحد وأربعين بيتاً .  
ومن أبياتها التي تحمل دليل الوضع .

فبت مکتبنا حَرَآنَ أُنْدبه حتى أتقنى بها الأنبياء والخبر  
فكلمة مکتب وحران دالتان على أن القائل رجل لا امرأة . على أن  
في أسلوبها فحولة الرجال ومعانيهم مثل :

لا تأمنُ البازل الكوماء ضربته بالمشرفي إذا ما أخروط السفر  
وتدعر البزل منه حين تبصره حتى تقطع في أعناقها الجرر  
لا يتأررى لما في القدر يرقبه ولا يعض على شرسوفه الصقر<sup>(٥)</sup>  
فهذه القصيدة ليست للدعجاء ، إنما هي لأعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه  
المنتشر بن وهب<sup>(٦)</sup> .

فما السر في قصر قصائدهن ؟

ربما كان مبعث هذا في الرثاء تعاطى الموضوع الواحد ، وأن دموعهن وصياحهن  
وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى ،  
فيؤثرنها على الشعر المطول .

(١) ديوان الأعشى ٣

(٢) ديوان الأعشى ١٣

(٣) الديوان ١٠٤

(٤) الديوان ١١١

(٥) رياض الأدب في مرآئ شواعر العرب ١١٨ . أخروط : بعد الطريق . الجرر : ج .

جرة وهي ما استرجفه العير من بطنه . النوفل : البحر والكثير العطاء . الزفر : الكثير

الأهل والعدة . يتأررى : ينتظر . شرسوفه : طرف الضلع . الصقر : دويبة في البطن

(٦) جهرة أشعار العربي لأفرسى ٢٨٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٢ والكامل .

وأما في شعرهن كله فلا نهن ملولات لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة،  
والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة كما سيجيء .

#### ٤ - صور وتماثيل نسوية :

وفي شعرهن صور ، وتعبيرات نسوية ، كقول الخنساء في رثاء صخر :  
وتعشى البصيرَ بطعن أليمٍ وتعطى الجزيل وتحمى الذمارا  
فيلقى صريعا يَمْجُجُ النجيع كمرجل طباحه حين فارا  
وهاجرة صاخدي حرها جعلت رداءك فيها خمارا<sup>(١)</sup>  
فالتشبيه بمرجل الطباحه حين يفور ، وتشبيه الرداء بخمار يليقان بالأنتى .  
وكقولها في تحريضها على الثأر لصخر :

فنفسوا عنكم عارا تجللكم غسل العوارك حيصا عند أطهار<sup>(٢)</sup>  
وكقولها (أوجعني الدهر) :

تعرّفتني الدهر نهسا وحزنا وأوجعني الدهر قرعا وغمزا<sup>(٣)</sup>  
وكقولها (لهفي) :

لهفي على صخر فإني أرى له نوافل من معروفة قد تولت  
لهفي على صخر لقد كان عصمة لمولاه إذ نعل بمولاه زلت<sup>(٤)</sup>  
وكقولها (وبلى) :

وبلى عليه ويلة أصبحت حصني متكسر<sup>(٥)</sup>

وكقول عاصية في رثاء أخيها عمرو بن عاصية السلمي :

يا لهفي نفسي ضلالة جزعا على ابن عاصية المقتول بالوادي<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٠١ و ١٠٨

(٢) الديوان ١١٧ العوارك : الحوائض . عند أطهار : عند انقطاع الميصر

(٣) أمالي ان الشجري ٢١٥/١ والديوان ١٤٣ (٤) الديوان ٢١

(٥) الديوان ١٢٤ (٦) الأغاني ١٥/١١

٥ - ابن التميمي :

وشعرهن ألين من شعر الرجال كثيراً ، سواء في الرثاء أو في الفخر أو في الهجاء أو الغزل ، لأن طباعهن رقيقة لا يلائمها اللفظ الحوشي المستكره ، وتعبيرهن صورة من طبيعتن ، ولأن الجزالة والفجولة والقوة في التعبير لاتوائم نفسيتهن . غير أن في قليل من شعر الخنساء بعض الغريب المستكره الذي لا موسيقية فيه ؛ لأنها كانت امرأة مسترجلة كقولها :

قد راعني الدهر فبؤس له بفارس الفرسان والخنشليل<sup>(١)</sup>  
وقولها :

يا عين بكئي فارسا حسن الطعان على الفرس  
بذر الكمي مجدلاً تراب المناخر منقمس<sup>(٢)</sup>

وقولها :

يفشون منك غطامطاً جاشت بوابله الرواعد<sup>(٣)</sup>

وقولها :

في جوف رمسٍ مقيمٍ قد تضمنه في رسمه مُقَمَّطَاتٌ وأحجار<sup>(٤)</sup>

٦ - كثرة الترصيع :

وإذ كانت المرأة بطبعها مولعة بالزينة وبالمظهر الخلاب « وتغرها الظواهر وإن ساء الخبر ، فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة الصوغ تقع في نفسها موقعاً حسناً وإن كانت قليلة القيمة »<sup>(٥)</sup> فإنها قد أكرت من الترصيع في الشعر . كثرة تسترعى النظر .

(١) الديوان ١٩٠ ولسان العرب ١٣/٣٣٦ الخنشليل : السريع الماضي والجيد الضرب بالسيف . (٢) الديوان ١٥٤ وبعضهم لم يروها للخنساء . منقمس : ملق على الحضيض . (٣) الديوان ٦١ الغطامط : البحر الكثير الماء . الرواعد : السحب ذوات الرعد والمطر . (٤) الديوان ٨٣ المتقطرات : الدواهي أو الصخور الصلاب الشداد . (٥) في علم النفس . الإبراشي وحامد عبد القادر ٣/٣٦٢

١ - والترصيع ضرب من الإيقاع الصوتي والانسجام الموسيقي « ولسريان النغم في كل أجزائه أو أكثرها عد أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة <sup>(١)</sup> » لأن التابع في الكلمات ورنين مقاطعها يؤلف صورة موسيقية تستجيب النفس لها، وتنسجم مع التنغيم الذي تحدته، ويطبع الأسلوب بطابع صوتي رنان، فيسائر السمع هذا التألف الموسيقي، مدفوعاً بالتقرب وانتظار توقيع خاص، وتصحبه في ذلك حال نفسية من الرضا والإعجاب والاطمئنان وغيرها « هذا إلى أن الأثر السمعي يصحبه أثر جسمي وعضلي، يجعل السامع يشعر بأن وزن الكلمات وما في العبارات من تنغيم موسيقي يهز أعضائه، ويسير به في صعود وهبوط، أو استواء، أو إسراع أو إبطاء » <sup>(٢)</sup>.

وهذا النوع من الخلق الموسيقية افتتان في طرق ترديد الأصوات في الكلام، ليسترعى نغمه الأذان بألفاظه، كما يسترعى القلوب بمعانيه، فهو مهارة في نسج الكلمات، وبراعة في ترتيبها وتنسيقها، ومهما يتنوع وتتعدد طرائقه فإنها يجمعها أمر واحد هو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ في الأسماع.

ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقي، لأن الأصوات التي تتكرر في البيت مضافة إلى تكرر القافية وإلى الوزن، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المقدرة والمهارة. وربما لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية <sup>(٣)</sup>.

وقديما تنبه له النقاد، فسماه ثعلب في كتابه قواعد الشعر الأبيات الموضحة، وقال إنها ما استقلت أجزاؤها، وتماضت فصولها، وكثرت فقرها، واعتدلت

(١) صور البديع . على الجندي ٢٩/٢ (٢) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد

حسن ٣٩

(٣) موسيقى الشعر . إبراهيم أنيس ٣٩

أجزاؤها ، فهي كالخليل الموضحة ، والفصوص الجزعة ، والبرود الحبرة<sup>(١)</sup> .  
وقد فضله قدامة وأظن في وصفه ، وأنى بأمثاله له من شعر امرئ القيس  
وزهير وطرفة وغيرهم<sup>(٢)</sup> .

ب — ولكن هذا الترصيع الذي أكثرت منه النساء شأنه شأن القافية  
التي يلتزم فيها مالا يلزم ، فجعله ينشأ من ندرته ، فإذا كثرت ثقل ، لأن الإسراف  
في التجانس قبيح في الموسيقى والشعر جميعاً ، حتى إن الاختلاف في بعض  
الأحيان يعد عنصراً من عناصر الانسجام .

« وهذا الاختلاف لا ينفك يتزايد في الموسيقى الحديثة ، وله قيمة في الشعر ،  
وذلك ما فعله فكتور هوجو في بعض أشعاره ، كما اتبعه لافوتين وموسيه .

الانسجام شيء نسبي ، وليس أعذب من عودة إلى التوافق التام بعد سلسلة  
من الموافقات ، ولا شيء أجمل وقمماً في الأذن من أن تسمع فجأة في قصيدة لموسيه  
بيتاً يلتزم مالا يلزم في وسط طائفة من الانسجام المعتاد<sup>(٣)</sup> .

لذلك كان قدامة على حق في قوله إن الترصيع يحسن إذا اتفق له في البيت  
موضع يليق به ، وإنه معيب إذا تواتر واتصل في الأبيات ، لأنه دال على التعمد  
والتكلف<sup>(٤)</sup> .

واتفق معه أبو هلال في هذا الرأي وقال : إن بعض القدماء قد ارتكبوا  
هذا ، فبانت على أبياتهم سمة التعسف ، واستجاد قول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليفة مهدئ الطريقة نفاع وضرار

وقال هذا بيت جيد :

ثم ذكر بيتها :

(١) قواعد الشعر لثعلب ٣٧ (٢) نقد الشعر لقدامة ٢٤ - ٣٠ والعمدة لابن

رشيق ٢٢/٢

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة جوبو ١٧١ (٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٢٨

فَعَالٌ سَامِيَةٌ وَرَادٌ طَامِيَةٌ لِمَجْدِ نَامِيَةٍ تَغْنِيهِ أَسْفَارٌ  
 وَقَالَ : هَذَا الْبَيْتُ رَدِيءٌ لِتَبَرُّؤِ بَعْضِ الْفَائِظَةِ مِنْ بَعْضٍ (١) .

وَلَقَدْ بَلَغَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بِغَضَبِهِمْ لِلتَّكْلُفِ أَنْ تَجَنَّبُوا التَّصْرِيحَ فِي مَطْلَعِ بَعْضِ  
 الْقِصَائِدِ كَالْأَخْطَلِ ، وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ كَثِيراً مَا يَصْرَعُ ، وَأَكْثَرُ شِعْرِ ذِي الرِّمَّةِ غَيْرُ  
 مَصْرَعِ الْمَطْلَعِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ كَثِيرٍ مِنَ الْفُجُولِ (٢) . وَكَذَلِكَ فَعَلَّ بِنُ أَحْمَرَ وَأُمِيَّةُ  
 ابْنُ حَرْثَانَ الْكِنَانِيُّ ، عَلَى أُنْهَمِمْ كَانُوا يَصْرَعُونَ بَعْدَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ، وَرَبَّمَا صَرَعُوا  
 أَبْيَاتًا فِي الْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ إِظْهَاراً مُقَدَّرْتِهِمْ ، وَأَكْثَرَ مِنْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْرُؤُ  
 الْقَيْسِ (٣) .

ج — وَقَدْ رَصَّعَ الرِّجَالُ كَقَوْلِ أَبِي الْمُثَلِّمِ فِي رِثَاءِ صَخْرِ الْغَمِيِّ :

أَبِي الْمُهْزِيْمَةِ آتٍ بِالْعَظِيْمَةِ مِتْلَافِ الْكَرِيْمَةِ لِاسْقِطِ وَلَاوَانِ  
 حَامِي الْحَقِيْقَةِ نَسَّالِ الْوَدِيْقَةِ مِعْتَاقِ الْوَسِيْقَةِ جَلْدِ غَيْرِ ثُنْيَانِ  
 رَقَّاءَ مَرْقَبَةٍ مَنَاعِ مَعْلَبَةٍ رَكَّابِ سَلْهَبَةٍ قَطَّاعِ أَقْرَانِ  
 هَبَّاطِ أُوْدِيَةِ شَهْبَادِ أُنْدِيَةِ سَحَّالِ الْوَيْةِ سِرْحَانَ فُتْيَانِ (٤)

وَقَوْلِ عَامِرِ بْنِ الطَّنِيْلِ :

وَلَكِنِّي أَحْيَى حَمَاهَا وَأَتَقَى أَذَاهَا وَأَرْمِي مِنْ رَمَاهَا بِمِقْضَبِ (٥)  
 وَلَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ حَفَاؤَةً بِالْتَرَصِيْعِ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ ، كَقَوْلِهِ .

(١) الصناعتين لأبي هلال ٣٦٧ (٢) العمدة ١١٥/١

(٣) نقد الشعر لقدماء ٣٠ - ٣٤

(٤) الأغاني ٢١/٢٠ والعمدة ٢٢/٢ وقد نسبت الأبيات إلى الخنساء في ديوانها ٢٣٩  
 ونسب البيت الثاني إليها في أساس البلاغة مادة عتق . آبي المهزيمة : لا يرضى الذل والظلم .  
 نسال الودية : يقتحم الهواجر . معتاق الودية : يعتق الطريدة وينجيها ويسبق بها . وفي  
 روايه الوثيقة يكون المعنى أنه واف بعهد . غير ثنيان : سيد مقدم ، والثنيان هو الذي دون  
 السيد مقاما . مرقبة : موضع مراقبة العدو . سلهبة : فرس طويولة

(٥) ديوان عامر القصيدة ٣٢ والصناعتين ٣٦٧

فتور القيام قَطوع الكلام      تَفْتُرُ عن ذى غُرُوبِ خَصِرٍ (١)  
وقوله :

أفاد فجاد وسواد فزاد      وقال فزاد وعاد فأفضل (٢)  
وقوله :

كان المدام وصوب الغمام      وريح الخزاعي ونشر القطر  
يعلّ به برّد أنيابها      إذا طرب الطائر المستحجر (٣)  
وقوله في وصف حصانه :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النساء      له حجبات مشرفات على الفأل (٤)  
وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام      وريح الخزاعي ، وذوب العسل  
يعلّ به برد أنيابها      إذا النجم وسط السماء استقل (٥)  
وقول زهير بن أبي سلمى .

كبداء مقبلة ، وزكاء مدبرة      قوداء ، فيها إذا استعرضها خضع (٦)  
د — أما ترصيع النساء فهو كثير كقول الخنساء :

غداة لقوم بملومة      طحون يفادرن في الأرض وكزا  
بييض الصّفاح ، وسمر الرمّاح      فبالبيض ضرباً وبالسمر وخزا (٧)  
وقولها في رثاء صخر :

سمح خلائقه ، جزل مواهبه      وافي الدمام إذا ما معشر غدروا (٨)

(١) ديوان امرئ القيس ٧٨ والعمدة ٢٤/٢ خصر : بارد

(٢) الديوان ١٧٢ (٣) الديوان ٧٩ . القطر : عود يتبخر به المستحجر : المفرد سحرا

(٤) الديوان ١٤٤ الشظى : عظم لاصق بالذراع . الشوى : الأطراف . الشنجج : التقبض

النسا : عرق في الفخذ . الحجبات : رءوس عظام الوركين . الفأل : لحم الورك أو عرق عن  
عين العجب ويساره

(٥) الديوان ١٧١ يعلّ : يسقى مرة بعد مرة (٦) تقد الشعر لقدماء ٢٥

(٧) الديوان ١٤٥ (٨) الديوان ١٢٥



وقولها :

جم فواضله ، تَمَدَى أنامله  
 رداء عادية ، فكأك عانية  
 جَوَاب أودية ، حَمَّال أوية  
 كاليدر يخبو ولا يخفى على السارى  
 كضيفم بأسل للقرن هصار  
 سمح اليدين جواد غير مَقْتَار<sup>(١)</sup>  
 وقولها :

سمح سجيته ، جزل عطيته  
 وللأمانة راع غير خبوان<sup>(٢)</sup>  
 وقولها :

فالمجد خُلِّدَه ، والجود عَانَه  
 خطاب مَفْصَلَة ، فَرَّاج مظلمة  
 حمال أوية ، شهاد أندية  
 سيم العداة ، وفكأك العناة إذا  
 والصدق حَوَزته إن قرنه هابا  
 إن هاب مُفْطَعَة أئى لها بابا  
 قطاع أودية ، للوتر طلابا  
 لاقى الوغى لم يكن للقرن هيبابا<sup>(٣)</sup>  
 وقولها :

رفيع العماد ، طويل النجاد  
 ساد عشيرته أمردا<sup>(٤)</sup>  
 وقولها :

يعطى الجزيل ، ولا يلجى الجليل ، ولا  
 يعيا السبيل إذا قيل من هادى؟<sup>(٥)</sup>  
 وهذا كثير فى شعرها<sup>(٦)</sup> .

ومن الترصيع قول جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عروة :

لقد علم الضيف والمملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا  
 بأنك ربيع ، وغيث مريع وأنت هناك تكون الثملا

(١) الديوان ١٣٦ عانية : أسيرة . هصار : كاسر . مفتار : شديد البخل

(٢) الديوان ٢٤٧ .

(٣) الديوان ٤ وفى قواعد الشعر للعلب ٣٧ أن البيت حمال أوية لأخت محمود بن

(٤) الديوان ٤١

شداد العدوية

وحيّ أبجت ، وحيّ منحت غداة اللقاء منـايـا عجـالـا  
 وحيّ وردت ، وثغر سددت وعالج شددت عليه الحبالا  
 ومال حويت ، وخيل تمّيت وضيف قرّبت يخاف الوكالا<sup>(١)</sup>  
 وقول ليلي الأخيلية :

ألا رب مكروه أجت ، ونائل فعلت ، ومعروف لديك ومُنكر<sup>(٢)</sup>  
 وقول عاصية بنت عمرو :

شهاد أندية ، رفاع أنبية شداد ألوية ، فتاح أسداد  
 نحر راغية ، قنال طاغية حلال راوية ، فكك أقياد  
 قوال محكمة ، نقاض مبرمة فراج مبهمة ، حبّاس أوراد  
 حلال ممرعة ، حمال معضلة قرّاع مفضّعة ، طلاع أنجاد<sup>(٣)</sup>  
 وقول ليلي الأخيلية :

وقد كان مرهوب السنان وبين اللسان ومخّذام الشرى غير فاتر<sup>(٤)</sup>  
 من هذا يتجلى ولوع المرأة بالترصيع ، وولوعها بالتسميط ، وهو سجع ثلاثة  
 أجزاء من البيت أو سجع جميعه كما سبق .

#### ٧ - كثرة الإقواء :

في شعرهن إقواء أحيانا ، وإكفاء نادراً .

١ - والإقواء والإكفاء شيء واحد في رأى أبى عبيدة وأبى جعفر<sup>(٥)</sup> ،  
 ويونس<sup>(٦)</sup> . وهما مختلفان عند غيرهما . فالإكفاء في رأى المرزبانى أن يتقارب  
 حرفا الروى ، كالنون والميم واللام لتقرب مخارجهما ، كقول الشاعر :  
 'بنيّ إن البرّ شيء هيّن المنطق اللسين والطعم'

(١) مراثى شواعر العرب ٨٣ الوكال : الضعف (٢) قواعد الشعر اتعاب ٣٧  
 (٢) الاغانى ١١/١٥ (٣) نقد الشعر لقدامة ٢٧ مجذام السرى : قطاع السير ليل  
 (٤) اللسان ٢١ . ٥٦ (٦) طبقات الشعراء ٥٦ ، ٥٨

والعرب قد تخلط بين الإكفاء والإقواء<sup>(١)</sup>. أما الإقواء فهو اختلاف المجرى،  
والمجرى، حركة حرف الروى الذى تبني عليه القصيدة، فتكون قافية مرفوعة  
وأخرى مخفوضة أو منصوبة<sup>(٢)</sup>.

وقد وقع الإقواء والإكفاء فى شعر الرجال على قلة. فمن إكفاء الرجال  
البيت السابق، وفى قصيدة لمتهم بن نويرة إكفاء<sup>(٣)</sup>، وكذلك فى قصيدة لعميرة  
ابن طارق<sup>(٤)</sup>.

ومن إقواء الرجال قول بشر بن أبى خازم:

ألم تر أن طول الدهر يُسلى وينسى مثل ما نُسيتْ جُدام  
وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم إلى للبلد الشامى<sup>(٥)</sup>

وكذلك أقوى النابغة<sup>(٦)</sup>، وسلامة بن جندل<sup>(٧)</sup>، وعمرو بن أحمد الباهلى<sup>(٨)</sup>.

ب — ولا شك أن الإكفاء والإقواء عيبان فى موسيقى الشعر، لذلك لم  
يُقوَ أحد من الطبقة الأولى وأشباهاها إلا النابغة، ثم تنبه لإقوائه فأصاحه<sup>(٩)</sup>.  
ولو أن المرأة كانت أرهف فى الحس الموسيقى من الرجل ما وقع فى شعرها إكفاء  
ولا إقواء. لكنهما قد وقعا.

فمن الإكفاء قول ابنة أبى مسافع فى رثائه:

وأنت الطاعن النجلا ء منها مُزِيدٌ آن  
وبالكف حلام صا رم أبيض خدام<sup>(١٠)</sup>

ومن الإقواء قول الخنساء:

فدئى للفارس الجشمى نفسى أفديه بمن لى من حميم

(١) المرشح للمرزبانى ١٥ و ٢٠ (٢) الموشح ١٨ وطبقات الشعراء ٥٨

(٣) النقائض ٢١ (٤) النقائض ٥٦

(٥) الموشح ٥٩ (٦) الأغاني ١٥٧/٩

(٧) ديوان سلامة المخطوط القصيدة المائة

(٨) الموشح ٨٠ (٩) طبقات الشعراء ٥٥

(١٠) الموشح ٣١

أفديه كما أقررت عيني      وكانت لا تنام ولا تنيم<sup>(١)</sup>  
وقول خرنق :

هم جدعوا الأنوف وأوعبوها      فما ينساغ لي من بعد ربي  
وبيض قد قعدن وكلُّ كحلٍ      بأعينهن أصبح لا يليق<sup>(٢)</sup>  
وقول جلييلة :

إذا الخليل سارت بعد صالح صدورُها      وخُوفَ ابنا وائل من عشيرها

فها كم حريق النار تُبدي شرارها      فيقدح في كل البلاد سعيرها<sup>(٣)</sup>  
وقول ابنة تميم بن الأحم في رثاء أبيها الذي قتله عقبة بن هبيرة :  
أعقيب لا ظفرت يداك ألم يكن      دركٌ بحمق دون قتل تميم

فليحققنك في العشيرة لامة<sup>(٤)</sup>      ولتقتان به وأنت ذميم<sup>(٤)</sup>  
وقد سبق في فنون شعرهن أمثلة شتى فيها إقواء .

#### ٨ - شعرهن لا يمثل أنوثتهن :

وتنقسم معاني شعرهن جملة بأن طابعها مذكر ، وقد بينت أن شعرهن لا يمثل إلا لونا ناصلا من خصائص الأنوثة ، وأنه يكاد يكون صورة تامة من شعر الرجال إذا استثنينا السمات الأسلوبية والمعنوية السابقة ، فما مرد ذلك ؟ قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهم عن بعض مجالي القول التي برز فيها الرجال ، وإن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذي يجيد الغزل لا بد أن يكون محباً ، والذي يصف الحرب لا بد أن يكون قد عرکها ، وذاق حلوها ومرها ، وواصف الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف

(١) ديوان الخنساء ٣٣٢ (٢) ديوان الخرنق ٦ مخطوط

(٣) رياض الأدب في مرأى شواعر العرب ١٥ (٤) المرجع السابق ١٠٧

تتطلب من المرأة أن تجيد في فنون من القول لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟

لكن ذلك مردود ، لأن المرأة العربية كما سبق قد أسهمت في الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت في الحرب ، فلماذا قصرت في الشعر ؟ ثم لماذا لم تنبغ في الأغراض المتصلة بحياتها النسوية ؟ ولماذا لم تتفوق في الرثاء غير الخنساء ؟

على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضيق وقسوة ومجافاة للواقع، وإلا لوجب أن يعيش الروائي أو الشاعر أو الكاتب ألواناً من المعيشة ، وأن يجرب ضروباً من التجارب لا تنسع لها حياته ، ولا يطيقها .

والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذي يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ، ويعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل في مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تكتسب ، فهناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان ما يفرض علينا شعورنا بتلك الظروف أن ننفعل ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون . وقد قال جو بلو : « إذا كنا مستيقظين فإننا لا نتحكم في التعبير عن عواطفنا فحسب ، بل نتحكم في عواطفنا نفسها . وهناك نصيب كبير من التصنع والعرف في عواطف الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتقد أننا نشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هي التي تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل ذلك شأن جميع العواطف السامية ، سواء أكانت خلقية أم جمالية أم دينية أم اجتماعية »<sup>(١)</sup> .

أريد أن أقرر أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينفسان عما بهما ، وهذا لا شك فيه . وقد يتأثران عن طريق الجمالة والمواساة والمشاركة للغير ، فينقلب تأثرهما إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تنفس .

(١) مقدمة علم النفس الاجتماعي : بلوندل ٢٣٥

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن الدعوى بأن المرأة لم تبرع في فنون الشعر لأنها لم تنخرط في الحياة العامة انخراط الرجل ، فليست مستقيمة من ينبوع العاطفة الذى يستقى منه الرجل ، دعوى لا تقوى على النقاش .  
وقد أسألت أنها تجافى الواقع ، لأن الأدباء كثيراً ما يبرعون في تصوير أحداث ومشاهد لم يروها .

ثم إن العالمين النفسيين الكبارين وليم جيمز وكارل لانج قد توافقتا في سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م على نظريته في العواطف ، دون أن يكون أحدهما على علم ببحث الآخر ، وتسمى نظريتهما نظريه جيمز لانج Games-Lange Theory .  
وما يخص هذه النظرية أن الانفعالات ناشئة عن تغيرات جثمانية متعددة النواحي ، فنحن لا نبتكي لأننا محزونون ، بل نحزن لأننا نبتكي ، ونحن لا نرتعد لأننا نخاف ، بل نخاف لأننا نرتعد ، ولها أدلة على إثبات هذه النظرية ، ولغيرها ردود عليهما ، ليس هذا مجال بحثها<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن في النظرية كثيراً من الصواب ، لأن كثيراً من الممثلين والممثلات يحتم عليهم عملهم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيتظاهرون بالضحك والفرح أو البكاء والحزن ، وهم كثيراً ما يشعرون بعد هذا التظاهر بالسرور أو الأسف حقيقة ، وما ذلك إلا لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جثمانياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ثم إن المتظاهر بالمرض قد يمرض ، والمتظاهر بالصحة والعافية قد يصح ويبرأ .  
وقد أخذ برأيهما ريبو Ribot في كتابه علم نفس العاطفة ، فقال : « لنا في كل دراسة نفسية للعواطف أن نختار بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف ، وهذا الاختيار سيلازم بتابع طريقته الخاصة ، فالرأى الأول يقرر أن الحالات العاطفية ثانوية مشتقة من المعرفة وتابعة لها ، بل لا وجود للعواطف إلا بالمعرفة ، وذلك مذهب العقليين .

والرأى الثانى يقرر أن هذه الحالات العاطفية أولية أساسية مستقلة وغير متدخلة فى الذكاء ، ومن الممكن تصورهما من غيره ، وهو مذهب العضويين . والنظرية الأولى ( العقلية ) هى نظرية هربات ومدرسته ، ومؤداها أن العاطفة لاتوجد إلا مرتبطة بالتصورات العقلية ، فالعاطفة نتيجة لاجتماع الأفكار وإدراكها فى النفس (١) .

بعد ذلك نسال لماذا لم تبرز المرأة فى فنون الشعر التى شاركت الآخريين والأخريات فى التأثير بدوافعها ، منتظاهرةً مجاملةً فى أول الأمر ، ثم منفعلهً آنفعلاً أصيلاً بعده ؟

لقد رأت أحياناً وسمعت أحياناً أخرى عن ميادين القتال ، وتناحر الأبطال ، ولقد رأت مشاهد الطبيعة ، وسمعت من الشعراء إعجابهم بها ، وقرىضهم فيها ، ولقد شاهدت بهجة قومها وقد ظفروا ، وشهدت حسرتهم وأساهم وقد انكسروا ، فأين شعرها فى هذا وأشباهاه ؟

ليس السبب فى ( تذكير ) شعرهن هو ضيق حياتهن ، وإنما السبب فى فقدان شعرهن سمات الأنوثة ، وفى انطباعه بطابع الذكورة عدة أمور :

١- أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة ، لكنها متقطعة قصيرة الأنفاس « وتمتاز انفعالات الرجل من انفعالات المرأة بأنها أعمق وأطول أثراً ، وأقل ظهوراً » (٢) .

فشاعر الرجل أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة ورزينة لاتكاد تحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية فى الظاهر ، ولكنها سريعة التغير ، دانية الغور إلا فى الحزن ( على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع ، والخوف ، والفريزة الوالدية ، وفريزة الخضوع ، والاستعداد للتمزز ، فكلها تبدو فى النساء أقوى منها فى الرجال ) (٣) .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب .

(٢) نفسية المراهق ٤٨ . (٣) كيف يعمل العقل ١٤٦/٢

ب - ثم إن الإنتاج الأدبي يحتاج إلى استعداد طبيعي ، وإلى جهد وصبر وتفتيح وإرادة ، والمرأة أضعف من الرجل إرادة كما يقرر علم النفس ، والفنان يستوحى من عقله الباطن ، ويستسلم لمواكب من الأخيلة والصور ، ويتحرر من الحياة الشعورية الواعية ، ويدنو من لحظات غير واعية ، وحينئذ ترتفع الحجب التي كانت تفصل خارج نفسه عن داخلها ، فيعبر مستمداً من عقله الباطن ومن شعوره ، وإذاً فالتمبير الفني إرادي وغير إداري معاً . غير إرادي لأنه يستمد من الانفعال والفعل الباطن وينابيع الوحي ، وإدراي لأن المعبر يستمد من فكره وشعوره اللغة التي يجسم بها أحلامه ويصور بها إلهامه :

« يقول لامب Lamb إن الشاعر بخلم في يقظته ، وليس ملكاً لموضوعه ، وإنما هو الذي يمتلك موضوعه ويصرفه ويسيطر عليه ، فهو يخلق في السماء وهو مدرك لما يقول <sup>(١)</sup> » .

ويقول ريتشاردز Richards إن القدرة على التعبير عن التجربة الماضية هي أولى خصائص الشاعر <sup>(٢)</sup> .

فالإنتاج الفني يرجع إلى عوامل عقلية ، تتجلى في التحليل ، ويتضمن الانتباه الانتقائي أو التجويد ، لأن النفس تعزل بعض التفاصيل وبعض الأشكال وبعض الوسائل ، وهي على وعى بَيْنٍ بالغاية التي تقصد إليها ، ويتضمن تداعي الأفكار والحكم والبرهنة . ويرجع إلى عوامل انفعالية ، لأن صور الإبداع لا بد فيها من عناصر وجدانية يستحيل الإبداع بغيرها <sup>(٣)</sup> ، فهي الحافز أو الدافع أو الميل أو العاطفة ، أو أى عنصر من عناصر الوجدان .

ولا شك أن العامل الإرادي في الإنتاج الأدبي يحتاج إلى جهد طويل . والأخبار مستفيضة عن شعراء العرب الذين كانوا ينقحون شعرهم ويعاودونه

The Aesthetic Theories. by Dr Hanns. P. 142 (١)

Eblid P. 142 (٢)

A. S. Eddington. Space, Time and Gravitation. P 200 (٣)



بالصقل والتهديب ، فملا كان أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والخطيئة وأمثالهم  
يوجدون شعرهم ، ويقفون عند كل بيت ، يعيدون فيه النظر ، لتخرج القصيدة  
كأيا مستوية في الجودة ، حتى لقد قال الخطيئة : « خير الشعر الخولي  
المحكك<sup>(١)</sup> » .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانیه في اختيار أجود ما تفيض به  
شاعريته ، فقال إن الأبيات تنال عليه ، وإنه يرد بعضها ، ويتمكن من نفسه  
فيكسبها كما يكسب الفارس جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد أو عشرًا  
في رواية - أو تخير من قصيدة كان يعالج نظمها ستة أبيات - لأنه نحي رديها ،  
واصطفى جياها :

أذود القوافي عنى زيادا      زياد غلام جرىء جوادا  
فلمّا كثرن وعنّيني      تخيرتُ منهن ستا جيادا  
فأعزل مرّجانها جانباً      وآخذ من ذرّها المستجادا<sup>(٢)</sup>

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون  
ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، مثل سواد بن كراع  
العكلى<sup>(٣)</sup> ، كما اشتهر أبو نواس والبحتري وغيرهما في العصر العباسي ، وشوقى  
في العصر الحاضر . بينما أكثر بعضهم من الارتجال كأبي العتاهية ، فجاء شعره  
كما يقول الأصمعي : « كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب ، والتراب  
والخرف والنوى » .

وسيطرت نزعة التنقيح والتجويد على كثير من أدباء الغرب ، فمثلا ، كان  
لافوتتين ينظم المثل ، ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفي كل مرة يحرر ويغير ،

(١) البيان والتبيين ٩/٢ و ١٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٣ ورواها الأمدى في المؤلفات والمختلّف لامرئ القيس بن  
الحارث الكندي ورواها المرزباني في معجم الشعراء لامرئ القيس بن بكر بن امرئ القيس  
بن الحارث ورواها بعضهم لامرئ القيس بن عابس الكندي وكاهن جاهليون

(٣) البيان والتبيين ١٢/٢

ويحذف ويضيف . وكان شاتوبريان يبدأ الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل  
لافونتين ، ويقول بسكال : إنه حرر بعض فصول البروفنسيات خمس  
عشرة مرة» (٣) .

وكثيراً ما صور الأدباء عليهم أحياناً ، يقول الفرزدق وقد تحداه رجل من  
الأنصار أن يقول قصيدة مثل قصيدة حسان «لما الجفنت الغرياه من في الضحا»  
قاتله الله ، ما رميت بمثله ، لقد أتيت منزلي بالأمس ، فأقبأت أصدد وأصوب في  
كل فن من فنون الشعر ، فكأنني منجم لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى  
بالفجر رحلت ناقتي ، ثم أخذت بزمامها حتى أتيت ذبابا (جبل بالمدينة) فنادت  
بأعلى صوتي : أجيبيوا أخاكم أبا لبيني ، فحاش صدري كما يخيش الرجل ، فمعلت  
ناقتي ، وتوسدت ذراعها ، فماقت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً (١) .

ويتحدث الشاعر الكاتب ديهامل فيقول : كم من مرة استمعت فيها إلى  
رجال أو نساء يتحدثون وسط الجوع في عربة قطار أو مطعم ، فتحدثني نفسى في  
كل مرة : ها قد وقعت على ضفة نفسية ، أو تسقطت نالقة ، أو لحت دافعاً  
خفياً ، ولكننى عاجز عن أن أصوغ ما كشفت ألفاظاً ، وربما أستطيع فيما بعد  
أن أصور ما أحسست به ، أما الآن فلا ، وأنا أعلم أنى لم أصب التوفيق ، فسباتى  
بعدى من يستفيد من تجاربنا ، وتسمعه عبقريته فيوفق إلى التعبير عما لحنا (٢) .

وإذاً فلا مندوحة في قرض الشعر عن طبيعة ، وعن موهبة ، وعن جهد  
إرادى يبذله الأديب . وإن هذا الجهد الإرادى ليتمثل في اختيار العبارات  
الملائمة والتنقيح ، وتصوير المعانى والمشاعر ، وهذا الجهد عظيم ، لأن إبراز  
العواطف والمشاعر في صورة لفظية ملائمة شاق يحتاج إلى مقدرة وصبر ومرونة .  
وقد تنبه بعض نقاد العرب لهذا ، فذكر بشر بن المعتمر الاستعداد والجهد (٣) ،  
وذكرها الجاحظ (٤) ، وقرر الجرجاني أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه

(٣) دفاع عن البلاغة ٦٦ انزياح

(١) النقائس ٥٤٧ (٢) الذوق المنهجي عند العرب ٢٥

(٣) العمدة ١٢٢/١ والبيان والتبيين ١٣٥/١ (٤) البيان والتبيين ١١٨/١

الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل سبب من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان<sup>(١)</sup> .

وذكر أبو حيان التوحيدي أن الكلام ينبعث في أول مبادئه إما من عفو البديهة ، وإما من كد الروية ، وإما أن يكون مركباً منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل .

ففضيلة عفو البديهة أن يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أن يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أن يكون أوفى .

وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف . على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائب التعسف كان بايعاً مقبولاً رائعاً حلواً . والتفاضل بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في هذا المركب الذى يسمى تأليفاً ورسفاً<sup>(٢)</sup> .

ح - ثم إن النساء أعجز من الرجال عن الابتكار ، حتى فيما يختص بالإناث وتظن لمن المقدرة فيه ، كالتخاطة والطهو والغناء والرقص ، فالرجال هم الذين يتذكرون للسيدات نماذج المعارض والحلى ، وهم الذين يتفوقون في فنون الطهو ، وتلحين الأغاني ، وتدريب الراقصات ، واختراع الأدوات المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسيج . « وفي هذا شرح للظاهرة المشاهدة من أن النساء أكثر تقبلاً للحقائق ، والرجال أكثر ابتكاراً . فالنساء أقدر على ممارسة العمل الرتيب الذى يتطلب صبراً وتطبيقاً وذاكرة حاضرة ، أما الرجال فاهم براعه يحق الفخر بها فيما يتطلب كسفاً وبحثاً »<sup>(٣)</sup> .

(١) الوساطة . الجرجاني ٢١

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١٣٢/٢

(٣) كيف يعمل العقل ١٤٣/٢

وفي رأى علم النفس وعلم الأحياء أن الذكر إيجابي والأنثى سلبية، وقد تقرر هذا من ملاحظة الخلية المنوية للذكر وبويضة الأنثى، فالحيوان المنوى نشيط متحرك، يتقدم ليمحس عن البويضة، والبويضة تترث وتنتظر وتستسلم، كما وضَّح ذلك هافيلوك إليس Havelook Ellis<sup>(١)</sup>. وقد أشار الأستاذ إرنست كرتشمير Ernest Kretschmer أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج في كتابه (نفسيات العباقرة) إلى النساء اللاتي زاولن الفنون، فذكر أن المرأة لم تُمنع تعلم الموسيقى والعزف على آلاتها، لكن لم يخلد من النابغات في الموسيقى إلا اللاتي اتصن بالرجال، مثل كلارا زوجة شومان الموسيقى العالمى، وفانى أخت مندلسن، وكورونا شروتر صديقة جيتى، وغيرهن، وذكر الشاعرة الألمانية أنيت فون درست هاشوف Anette Von Droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة في مزاجها وكلامها، وكانت تتزيا بزى الرجال، وتتمنى في بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء، أو جندياً مقاتلاً، أو رجلاً على الأقل. ولم تنظم قط في عواطف الأمومة، أو وصف الطفولة، أو حنين المرأة إلى الحب والألفة البيتية، وما شابه ذلك من معارض الشعر التي يجب أن يكلف بها النساء. وقال إن هذا النزوع إلى التشبه بالرجال مشهود مطرد في نساء التاريخ المشهورات، مثل اليعصابات ملكة إنجلترا، وكاترين قيصرة روسيا، وكريستينا ملكة السويد، فهن ينفغن في القدرة على بعض أعمال الرجال، بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة، لا بمقدار ما يزيد على الحاجة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك مدام كورى، فإنها كانت زوجة لعالم كبير تأثرت به، ومسز براوننج الشاعرة الإنجليزية كانت زوجة للشاعر روبرت براوننج، وجورج

(١) سيكولوجيا المرأة ٨٥ فرويد ترجمة محمد صدق وهذه الشجرة ١٧٣ للعقاد والأزمات

الزوجية وعلاجها ٣٠ محمد زكى شافعى (٢) هذه الشجرة ٧٤ . العقاد

إليوت ألفت أحسن رواياتها وهي في عشرة صديقتها لويس ، واللادى ديلك Dilke كتبت في الدراسة العالية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون ، وكتبت في السياسة والإدارة حين صارت زوجة لرجل سياسي (١) .

وهذا الحكم أقرب إلى الحق من حكم شوينهور القاسى ، ذلك بأنه يرى أننا نخطئ في تسمية النساء الجنس اللطيف ، ويجب أن نسميهن الجنس غير المتذوق ، لأنهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة ، وإن كن يدين هذا أحياناً رغبة في إرضاء الرجال . ولسن قدرات على النظر الموضوعى إلى أى شأن من الشؤون . وأشهر مشهوراتهن لم ينتجن إنتاجاً أصيلاً في الفنون الجميلة ، ولم يقدمن للعالم عملاً ذا قيمة خالدة . لذلك كان الأسيويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وفرقوا بينها وبين الرجل في كثير من الحقوق والواجبات (٢) .

وقفى على أثره الفيلسوف الاقتصادى برودون في كتابه ( ابتكار النظام ) فرأى أن النوع الإنسانى ليس مديناً للمرأة بأية فكرة أخلاقية أو سياسية أو فلسفية ، أو باى كشف صناعى ، فالرجل وحده هو الذى اخترع وكمل وعمل وأنتج وغذى المرأة ، وإن الدور الذى مثلته المرأة في الآداب مثل الدور الذى مثلته في المصنع ، فإنها لا تقوم في المصنع إلا بما لا يحتاج إلى استعمال القريحة (٣) .

والفكرة المشتركة في هذه الآراء أن المرأة عاجزة عن الابتكار ، وأن النساء المشهورات كن متصلات ببعض من الرجال فحاشا كينهم ، واقتبس من شهرتهم ، وكن أميل إلى مظاهر الرجولة منهن إلى الأنوثة .

وهذا حق ؛ لأننا لم نعرف شاعرة بهرت عصرها وأخلت شعراءه ،

(١) هذه الشجرة ١٧٣ . العقاد

(٢) كيف يعمل العقل ١٣٥/٢

ولم نعرف خطيبة أو كاتبة شدهت دهرها ، وأخملت كتابه وخطباءه .

والحكم كذلك في العلم والصناعة ، لأن الطبيعة ضربت حجابها بين النساء والتفوق على الرجال أو مساواتهم في هذا المضمار ، قبل أن يضرب الرجال على النساء الحجاب .

ويعزز علم النفس هذه الفكرة بتقريره أن الذكور يتفوقون على الإناث في الأعمال التي تحتاج إلى تفكير ، كرد الأسباب إلى المسببات ، وفي القدر العقلية العامة<sup>(١)</sup> .

على أننا نجد الخنساء — أشعر النساء العربيات — امرأة مسترجلة ، فهي تهنأ إبل أبيها ، وهذا من عمل الرجال . وأبوها يقول لدريد بن الصمة حين خطبها : « إن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها » ، ثم يستشيرها فتقول في صراحة : « يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالى الزماح ، وناكحة شيخ بنى جشم ؟ » ثم لما هاجها دريد ردّت عليه بمثل هجائه .

ولما قُتل أولادها في حرب القادسية وعامت بمصرعهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . وقد تنبه بشار إلى أنها أنثى كالرجل فقال : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، كانت بأربع خصى .

د - ويرجع السبب أيضاً في محاکاتهن للرجال واصطباغ شعرهن بالذكورة الفكرية والتصويرية إلى أنهن رأين الرجال متفوقين عليهن ، وأعجبن بهـذا التفوق ، فقلدن الرجال ، ولا شك أن ما قرره تارد Tarde في التقايد من الناحية الاجتماعية من الممكن أن ننتفع به هنا في الناحية الأدبية . فهو يقرر أن التقايد

( بمعنى نقل إنسان من إنسان بصفة عامة ، أو أديب من أديب ، أو أدب أمة عن أدب أمة بصفة خاصة ) يتبع سبيلاً واحداً هو أن التقليد يسرى من الداخل إلى الخارج ، أى أن الأمة التى تقلد الأخرى هى الأمة التى تنقل ذوقها وأفكارها وأدبها قبل أن تنقل عاداتها ورفاهيتها ، فهى تقلد تقليداً داخلياً ، قبل أن تقلد تقليداً خارجياً ، وهو قانون ينطبق على الأفراد أيضاً .

وتارد يذهب إلى أن التقليد أيضاً ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أن الأمة إذا أجدبت فى الآداب وكانت على صلة بأمة أخرى مثرية فى آدابها ، أحست الأولى بفقرها وبراء جارتها ، فدانت بتفوقها ، وإذا تقف من أدب الأمة الثرية موقف المتطلع أو الآخذ ، فينحدر التقليد من الأمة المقلدة إلى الأمة المقلدة ، أى من الأعلى إلى الأدنى . وهذا التقليد طبيعى ، لأنه نوع من الجبر الاختيارى ، أى أنه جبر تحتمه المدنية نفسها ، وهى تفرض على الإنسان المتمدين أو المتطلع إلى الحياة أن يطيع القوانين العامة حينما يقف على الدرجة الأولى من سلم المدنية ، وهو إذا أطاعها فلائنه يجد من نفسه الحاجة إليها . وهذا ينطبق على الأمم ، وعلى العواصم وعلى الأفراد ، وينطبق على العلم وعلى الآداب <sup>(١)</sup> .

ومن السهل تطبيق هذين القانونين على حال المرأة والرجل ، فالرجل حامى المرأة ، وهو القوام بشئونها ، وهو سندها وأملها ، أباً أو زوجاً أو ابناً أو أخاً ، وهو أقوى منها جسداً ، وأحصف رأياً ، وأسمى مكاناً ، ثم هو أبرع منها شعراً وأقوى لسناً ، وهذه كلها دوافع إلى إعجاب المرأة به ، ومحاكاتها إياه ، وتأثرها خطاه . ولست أبعد عن الصواب إذا حكمت حكماً عاماً : أن النساء فى العصر الجاهلى .

كن ملهمات للشعراء أعظم منهن منتجات للشعر وناقذات .

نم هن اللاتى ألهمن الشعراء الغزل ، فأثرى الأدب بهذا الفن الجميل ، وهن اللاتى ألهمن فى الرجال روح الحماسة والمنافسة ، فصوروا عواطفهم ، وجملوا جنات الأدب بفراس ناضر ، حلوا الجنى ، دانى القطوف .

# الجديد في البحث

و بعد :

فأى جديد في هذا البحث ؟

أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة في غضون له حاجة إلى تكريرها ،  
وبعضه حقائق عامة جديدة بإفرادها وذكرها .

١

كان العرب في العصر الجاهلي متصلين بالأمم والديانات المعاصرة لهم بوسائل  
شتى ، وقد تأثروا بمن اتصلوا بهم ، وتجلى هذا التأثير في ضروب من العقائد  
والأخلاق والعادات والنظم .

وقد بينت معالم هذا التأثير والتشابه أو التخالف فيما يتصل بأحوال المرأة .  
لكن سلطان البداوة والبداءة كان غلبا ، يطبع الحياة العربية بطابعه ،  
ويصطبغ به العرب البداوة والحضر .

٢

لقد طالما ردد بعض الباحثين المعتمدين بالشعر الجاهلي أنه ثبت أمين للحياة  
العربية ، لكنهم لم يحققوا هذه الدعوى بدراسات تتكئ على الشعر الجاهلي ،  
وردد آخرون أن الشعر الجاهلي لم يصور الحياة العربية في شتى مظاهرها .

وقد استنطقت الشعر الجاهلي ، فوجدته قد سجل مظاهر الحياة العربية ،  
وصور مناخرها وردائلها ، لكن في إجمال يوائم طبيعة الشعر وطريقته الفنية  
الوجدانية ، وجنوحه إلى التركيز والإيجاز والاكتفاء بالدمج والإشارة .

وهذا الشعر الذي استقيت منه صحيح في الأكثر الأعم ، لأنه بعيد عن  
بواعث النحل ، فهو لا يمت إلى عصبية قبلية أو سياسية ، وليس مما يتكاثر به



الرواة المتنافسون، ويتزايد فيه القصص والإخباريون، ثم إنه غير مقصود لذاته، إنما جاء عرضاً في خلال القصائد، وهو إلى ذلك كله لا يخافى النظم التي تحتمها البادية على قضاها

## ٣

كانت الصورة التي رسمت للمرأة العربية مضطربة متناقضة، فرسمت لها صوراً جليلة، إذ استمددت من الشعر الأنوان والأصباغ التي رسمت بها صور المرأة، وجلات مكاتمها في الحياة الاجتماعية والسياسية: في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع، سواء أكانت أمأم زوجة أم بنتاً أم أختاً أم قريبة، أم عضواً في المجتمع، وسواء أكانت في سلم أم في حرب.

## ٤

اتضح لي أن الشراء كثيراً ما نسبوا إلى الأمهات أو نسبوا إليهن، فافتضى هذا النسب أن أعلل له، فعرضت لنظرية التوتمية، ونظرية الشيوعية عند العرب وفندتهما، وأثبت بطلانهما بالنسبة إلى العرب. ثم رجعت النسب للأُم إلى أسباب شتى، ليس فيها أثر للتوتمية ولا للشيوعية.

## ٥

في دراستي للبنات أثبت أن كثيراً من العرب كانوا يحبون بناتهم، ويحبدون عليهن، ويتكلمون بأسمائهن، ويهشون لمشورتهن، ويرفعونهن مكاناً عالياً. وبهذا صححت الرأي الشائع أن العرب جميعاً كانوا يفيضون البنات، ويبدونهن.

## ٦

صححت الرأي الذي كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت في الحضيض، تسام الخسف، وتأمل معاملة العبيد، حتى جاء الإسلام فحررها من السكبول،

ورفعها من الضعة ، وأكسبها حقوقاً لم تكن لها .  
فأثبتت أن المرأة كانت في الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية  
ورأى وحرية .

واستنبطت هذا الحكم من دراستي لمكانة الأم والزوجة والبنت والأخت  
والقريبة والمرأة ، في القبيلة وفي المجتمع العربي .

وبينت أن المرأة كانت في الحياة السياسية عضواً عاملاً ، تشارك الرجال في  
شئون جليلة ، وترتفع أحياناً إلى منزلتهم ، وتسودهم آونة فتملك عليهم ، أو  
تقودهم في الحروب . حتى المرأة السبية كانت تعامل معاملة حسنة ، ميزت الدرب  
من أمم كثيرة .

وإذا فلم تكن مكانة المرأة العربية أدنى من مكانة المرأة المعاصرة لها ، بل  
لقد جازت نساء عصرها ما عدا المرأة المصرية في بعض أحوالها .

وخلصت من الموازنة إلى أن الإسلام قد وطن مكاتها ، وأكسبها حقاً  
جديداً لم يكن لها ، ذلك بأنه فرض لها نصيباً معلوماً من التركة .

## ٧

كشفت عن حقيقة أخرى : أن المرأة لم تكن تملك المال وتتصرف فيه  
فحسب ، بل كانت تنال من التركة نصيباً ، وإن لم يكن مقدراً مقررأ . فقد  
عثرت على نصوص استنبطت منها أن المرأة كانت ترث أحياناً ، واهتديت إلى  
نص فريد فذ يثبت أنها ورثت نصف الذكر في حال ربما لم تكن الوحيدة في  
المجتمع العربي .

## ٨

لم أجد تفرقة بين السبي والأمة في المراجع اللغوية والتاريخية والدينية ، فلم  
أطمئن إلى ذلك ، لأن الروح العام للشعر الجاهلي يوحى بالتفرقة ، فاستطعت أن

أفرق بينهما في الصفة ، والمنزلة ، والعمل ، والمعاملة ، ومنزلة أبناء كل منهما ، ممتداً على الشعر فيما ذهبت إليه .

## ٩

فندت — في دراستي للإمام القيان — الفكرة الشائعة أن العرب لم يعرفوا الغناء الفارسي والرومي إلا في الإسلام ، وأثبت أنهم كانوا على صلة بهذا الغناء في العصر الجاهلي ، وأيدت بنصوص شعرية كثيرة أنهم عرفوا الآلات الموسيقية الأجنبية قبل الفتح الإسلامية .

## ١٠

في دراستي للمرأة الشاعرة اهتمت إلى كثير من الشواعر المنسيات ، ودرست شعرهن وشعر غيرهن ، واستطعت أن أميز الأصيل من الدخيل ، ووازنت بين شعر النساء وشعر الرجال ، واستنبطت ملامح شعر النساء في كل فن ، وخصائص شعرهن في كل فنونهن ، ورجعت هذه الخصائص إلى نفسية المرأة ومقتضيات حياتها .

نم اتميت إلى أن النساء الشواعر كن يحاكين الرجال الشعراء ، لسكن أجنبيتهن قعدت بهن عن التحليق في جوائهم ، وأنهن لم يستطعن أى يسمن شعرهن بسمات الأنوثة البارزة التي تفرده وتميزه من شعر الرجال في كل موضوع من موضوعات الشعر .

## ١١

واستوحيت من هذه الدراسات للجمع العربي أن العرب لم يكونوا — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — جموعاً من الهمج البدائيين ؛ لأن نظمهم في الزواج والطلاق ومعاملة النساء ، وتمليكهن المال ، والإسماح بتصرفهن فيه ومعاملة السبايا ، والحجاب ، كانت أرقى من نظم الأمم المعاصرة لهم أنا ، وشبيهة بها آناً ، ولأن الإسلام أفر كثيراً من هذه النظم .

## اقتراحات

١

أقترح على الذين يريدون تتبع الشعر العربي إلى ينابيعه الأولى أن يفتدوا السير إلى العصر الجاهلي فيتملوه ويتذوقوه ، على أنه فيض من عواطف صادقة متدفقة ، وعلى أنه العمدة الأولى ، والأسس الأصيلة للشعر في شتى عصوره .

فمن الإجحاف بالشعر الجاهلي أن يهمل ، أو أن يدرس على أنه أثر قديم يتفككه به الدارس ، ومتحف لمخائفات من الماضي السحيق يلم بها في نظرات عوابر ولحاح خواطف .

ولست أنكر أن هذه الدراسة يعوزها الصبر والأناة والرغبة ، ولست أعدو الحق إذ أقرر أن العصر الحاضر منكوب بنزعتين تباعدان ما بينه وبين هذه الدراسة : أقصد الفرور والاستخفاف ، وإيهما لتبدوان فيما يحول ببعض النفوس وما يجرى على بعض الألسنة والأقلام ، من الاعتزاز بكل حديث ، والزراية بكل قديم ، وإن كان الحديث وايداه وصداه .

٢

وإذ قد استبان لي خطر الشعر الجاهلي وتمثياله لعصره ، أردت أن يخلل به الدارسون ، جمعاً ، وتحقيقاً ، ودراسة .

١ - ففي المكتبات عشرات من الدواوين والمجموعات الشعرية مخطوطة ، وعشرات مطبوعة طبعاً رديئاً عاجزاً ، وهي كلها تتلف على من يحققها ، ويخرجها إخراجاً علمياً .

٢ - ومن المستطاع أن تؤسس على الشعر الجاهلي عدة دراسات ، كدراسة الحياة السياسية ، والحياة الخلقية ، والحياة الدينية ، وعلاقة الشعراء بالبيئات ، وأثرها في إنتاجهم وخيالهم .

على أن فنون الشعر في حاجة إلى دراسة مفصلة عميقة ، تكشف عن نشأة كل فن وخصائصه .

ثم إن سلطان الشعر الجاهلي على ما بعده مفتقر إلى دراسة مستوعبة ، تبين أثره في العصور الأخرى من حيث منهج القصيدة ، والمعاني ، والخيال ، والموسيقى .

٣ — وإنه لمن الخير أن تتسكىء الدراسات التاريخية والاجتماعية على الشعر الجاهلي يرفدها ويمدها .

### ٣

تقد درست شعر المرأة في العصر الجاهلي ، وكشفت عن خصائصه . فأود أن يدرس آخرون شعر النساء في العصر الإسلامي ، وفي العباسي ، ويميزوا خصائصه ، لتعرف مقدار ما بين النسوة الشواعر من تشابه أو تخالف ، وهل هناك طابع عام يطبع شعرهن جميعاً ؟ وإنني لأترقى في الرغبة ، فأتوق إلى أن يدرس آخرون شعر النساء في الأمم الأخرى ؛ لتتعرف خصائصه ، وإلى أي حد تتقارب أو تتباعد من خصائص شواعرنا ، وهل في شعر النساء جميعاً ملامح موحدة أو سمات متشابهة ؟

### ٤

وليكن منهج الدارسين لأدبنا العربي كفيلاً بتجلية مابه من مميزات فنية ، وما فيه من قوة وحيوية ، متجردين من التعصب له أو التعصب ضده . فما من شك في أن لهذا الأدب خصوماً ، منهم القدماء ، ومنهم المحدثون ، لكنه تعالى على هؤلاء وأولئك ، وتأنى عليهم ، وبقي كالصخرة الصلدة في طريق السيل ، كلما عجز بها انكسر ثم انحسر ، ومضى عنها سائمة الحواشي عظيمة الخطر .

واظالمما لقيت عناء وبلبلت في دراسة التاريخ العربي في العصر الجاهلي ، لأنه لما يزل مهملًا ، ويخولني هذا أن أتح على المؤرخين ليعنوا بالعصر الجاهلي ، فيكشفوا ما يكتنف تاريخ العرب من بلبلت وغموض ، ويوضحوا صلاتهم بالعالم القديم ، ومكانتهم من الحضارة الخالية ، فقد آن الأوان لأن ينكشف الإبهام ، وينجلي الظلام ، ويتبليح الحق ، ويوضع العرب في مكانهم الصحيح من ركب الحضارة .

# المراجع

مرتبة هجائياً

- ١ - مخطوطات
- ٢ - كتب عربية
- ٣ - كتب مترجمة إلى العربية
- ٤ - كتب إفريقية

## ١ - المخطوطات

- ١ - الأجر الجزل في الغزل . السيوطي . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ٢ - الاستبصار في أنساب الأنصار . مخطوط بدار الكتب ٣٤٩ تاريخ لم يعلم مؤلفه ، ويظهر أنه لشيخ الإسلام أبي محمد عبد الله المقدسي المتوفى ٦٢٠هـ .
- ٣ - إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم . لأبي عبد الله عبد الله محمد بن الشيخ المراكشي . مخطوط بدار الكتب ٢١٣٧ تاريخ .
- ٤ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ، المعروف بحماسة الخالدين . مخطوط بدار الكتب ١٧٠٩ أدب
- ٥ - أشعار النساء للمرزباني ( الجزء الثالث ) مخطوط بدار الكتب ٨ أدب  
ش ٤٢٨٩٨
- ٦ - أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .
- ٧ - إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك . للسيد محمد مرتضى الزبيدي . مخطوط بدار الكتب ٢٠١٨ تاريخ .
- ٨ - أيمان العرب . النجيري الكاتب .

- ٩ — جبهة الإسلام ذات النثر والنظام . لأمين الدين أبي الفنائم مسلم بن محمود الشيزرى . مخطوط بدار الكتب ٩٢٢٣ أدب .
- ١٠ — جبهة أشعار العرب (الجزء الثانى) أبى زيد محمد القرشى . مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٢٦٨ تاريخ . و بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ١٥٧ - ٢٦٠ باسم جبهة أبى زيد القرشى .
- ١١ — الحماسة البصرية . جمعها أبو الحسن البصرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٠ أدب .
- ١٢ — الدرارى فى أبناء السرارى . للسيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ١٣ — ديوان الأفوه الأودى . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب .
- ١٤ — ديوان خرنق . مخطوط بدار الكتب ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب .
- ١٥ — ديوان الخنساء . مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطى سنة ١٢٨٨ هـ .
- ١٦ — ديوان سلامة بن جندل . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ٦٥٤ ( ٧١٩ ) .
- ١٧ — ديوان عروة بن حزام . رواية المرزبانى بسنده إلى ثعلب . مخطوط بدار الكتب ٧٠ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ١٩٦ ( ١٦ ) .
- ١٨ — ديوان قيس بن الخطيم . مخطوط بمكتبة تيمور ٢٩٦ شعر .
- ١٩ — ديوان المتلس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .
- ٢٠ — ربيع الأبرار . الزمخشرى . بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .
- ٢١ — شرح القصيدة الحميرية لشوان بن سعيد الحميرى . مخطوط بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ٢٧١ - ٢٨٩ .
- ٢٢ — شرح المعلقات السبع . ابن الأنبارى . مخطوط بدار الكتب ١٩٩٠٧ .



- ٢٣ — صور الكواكب . أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي .  
مخطوط بدار الكتب ٩٠٧ ميقات . وبه صور شتى للكواكب .
- ٢٤ — العنوان في مكاييد النسوان . علي بن عمر المعروف بابن البتوني  
الأبوصيري . مخطوط بدار الكتب ٣٥٦٨ أدب .
- ٢٥ — فضل العرب على العجم . ابن قتيبة الدينوري . مخطوط بدار  
الكتب ١٨٦٤ أدب .
- ٢٦ — كتاب الملاحى وأسمائها أبو طالب المفضل بن سلامة النحوى اللغوى .  
مخطوط بدار الكتب ٥٣٣ فنون جميلة .
- ٢٧ — كتاب الزينة . أبو حاتم الرازى . مخطوط بالخرزانه المحمدية  
الهمدانية . يعده للإخراج الدكتور حسين المدانى .
- ٢٨ — محاسن النساء . لأحمد بن هشام . مخطوط بمكتبة تيمور  
٨٠٣ أدب .
- ٢٩ — مرثا وأشعار . لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدى . مصور  
بمعهد المخطوطات ف ٨٠٦ ( ١٩٣ ) .
- ٣٠ — مستقصى الأمثال . للزمخشري . مخطوط بدار الكتب أدب  
١٠٢ م .
- ٣١ — المطر والسحاب لأبي بكر محمد بن دريد الأسدى ، مخطوط بدار  
الكتب لغة ٢٢٩ .
- ٣٢ — من نسب إلى أمه من الشعراء . لمحمد بن حبيب ، مخطوط بدار  
الكتب ٧٥ ش أدب .
- ٣٣ — منتهى الطالب من أشعار العرب . جمعه محمد بن المبارك مخطوط  
بدار الكتب ١١٨٤٦ ز .

- ٣٤ — المنظوم والمنثور . لابن طيفور . مخطوط بدار الكتب ٥٨١ .  
 ٣٥ - نثر الدر . صورة شمسية بدار الكتب رقم ٤٤٢٨ أدب لوح ٣٦٧ .  
 ٥٦ — نزهة الجلساء في أشعار النساء . للسيوطى . مخطوط بمكتبة تيمور  
 ٨١٣ شعر .  
 ٣٧ — نثر الحاسن اليمانية في خصائص اليمين ونسب القحطانية . مخطوط  
 بدار الكتب ٤٦٥٠ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .  
 ٣٨ — الوحشيات ( الحماسة الصفري ) . لأبى تمام . مخطوط بدار الكتب  
 ٢٢٩٧ أدب .

## ٢ — الكتب العربية المطبوعة

- ٣٩ — أبيات المعاني . أبو هلال العسكري .  
 ٤٠ — اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب . الأستاذ محب الدين  
 الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .  
 ٤١ — أثر العرب في الحضارة الأوروبية . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار  
 المعارف بمصر ١٩٤٦ م .  
 ٤٢ — الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين . م . حائى  
 بن شمعون . مطبعة كوهين ورزنتال بمصر ١٩١٢ م .  
 ٤٣ — إحياء علوم الدين . الغزالي . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢-١٩٣٣ م  
 ٤٤ — أخبار الحكماء . القفطى . مطبعة ليزج ١٣٢٠ هـ  
 ٤٥ — الأخبار الطوال . أبو حنيفة الدينورى . بتحقيق فلاديمير جرجاس .  
 مطبعة بريل ١٨٨٨ م  
 ٤٦ — أخبار المراقسه وأشعارهم في الجاهلية و صدر الإسلام . الأستاذ حسن  
 السندوبى . الطبعة الأولى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٥٣٨ هـ ١٩٣٩ م .

- ٤٧ - أخبار مكة . الأزرق . رواية أبي محمد إسحاق الخزاعي . مطبعة المدرسة  
 المحروسة بمدينة غنتغه ١٢٧٥ هـ . وطبعة المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ .
- ٤٨ - أخبار النساء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي المعروف  
 بابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العامة بمصر ١٣١٩ هـ .
- ٤٩ - الأزمان الزوجية وعلاجها . الدكتور محمد زكي شافعي .
- ٥٠ - أساس البلاغة . الزمخشري .
- ٥١ - أساس العدالة في القانون الروماني . دكتور علي حافظ . مطبعة لجنة  
 البيان العربي بالقاهرة ١٩٥١ م .
- ٥٢ - أساس الفلك والجغرافية . الأستاذ محمد فخر الدين والأستاذ عبدالفتاح  
 الزيادي . مطبعة التوكل ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .
- ٥٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة مجلس دائرة  
 المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن ١٣١٨ هـ .
- ٥٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة .  
 ١٢٨٠ هـ .
- ٥٥ - الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة الباني  
 الحلبي بالقاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .
- ٥٦ - أسس علم النفس . الدكتور عبد العزيز القوصي . مكتبة النهضة  
 المصرية ١٩٥٠ .
- ٥٧ - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة . الأستاذ مصطفى  
 سويف . مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م .
- ٥٨ - الإسلام والحضارة العربية . الأستاذ محمد كرد علي بك . مطبعة  
 دار الكتب ١٩٣٤ .
- ٥٩ - الإصابة في تمييز الصحابة . أبو الفضل أحمد بن علي الكفاني

- العسقلاني المعروف بابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ٦٠ - الأصمعيات من مجموع أشعار العرب . نشره وليم بن الورد البروسي .  
طبعة لبيسغ .
- ٦١ - الأضنام . هشام بن محمد الكلبي . تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا .  
المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- ٦٢ - الأصول الفنية للأدب . الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٤٩ .
- ٦٣ - أصول النقد الأدبي الأستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثانية . مطبعة  
الاعتماد بمصر ١٩٤٢ م .
- ٦٤ - الاعتصام . الشاطبي مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- ٦٥ - أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري . الطبعة  
الثانية ١٣٢٤ هـ .
- ٦٦ - الأعلام النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م .
- ٦٧ - أعلام النساء الأستاذ عمر رضا كحالة المطبعة الهاشمية بدمشق .
- ٦٨ - الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . الأجزاء الخمسة الأولى طبعة  
دار الكتب والباقية طبعة ساسي .
- ٦٩ - ألف باء . البلوي . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
- ٧٠ - الأمالي . أبو علي القالي : مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .
- ٧١ - أمالي ابن الشجري . مطبعة الأمانة بمصر ١٩٣٠ م .
- ٧٢ - أمالي السيد المرتضى . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر  
١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ٧٣ - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع .  
المقريزي تحقيق محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .
- ٧٤ - الإمتاع والمؤانسة . أبو حيان التوحيدى . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٩ .

- ٧٥ — أمثال العرب . المنفصل الضبي . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
- ٧٦ — الأنساب أبو سعيد عبد الكريم السمعاني . لندن ١٩١٢ م .
- ٧٧ — أنساب العرب القدماء . الأستاذ جرجى زيدان . مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٦ م ،
- ٧٨ — إنسان العيون في صيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . علي بن برهان الدين الحلبي ، الطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .
- ٧٩ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .
- ٨٠ — باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . الأستاذ حمزه فتح الله بك . مطبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .
- ٨١ — البدء والتاريخ . المطهر بن طاهر المقدسى . باريس ١٩٠٣ م .
- ٨٢ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
- ٨٣ — بلاغة أرسطويين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة .
- ٨٤ — بلاغات النساء ابن طيفور مطبعة مدرسة والددة عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .
- ٨٥ — البلدان اليعقوبي : مطبعة برزيل بليدن ١٨٩١ م .
- ٨٦ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكرى الألوسى المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ .
- ٨٧ — بلوغ الأرب في مآثر العرب . محي الدين الشهير بالطار . مطبعة الصفا بباينان ١٣١٩ هـ .
- ٨٨ - - البيان والتبيين . الجاحظ (١) تحقيق الأستاذ حسن السندوبى ، الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٢ م (ب) وتحقيق الأستاذ

عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ م -

١٩٤٩ .

٨٩ - بين الحبشة والعرب . الدكتور عبد المجيد عابدين . طبعة دار الفكر العربي بمصر

٩٠ - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . الأستاذ السباعي بيومي . مكتبة

النهضة ١٩٤٨ م

٩١ - تاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم . الطبعة الثانية . مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٩٢ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك .

٩٣ - تاريخ التربية . الأستاذ أحمد فهمي القطان . مطبعة مصر ١٣٤٥ هـ -

١٩٢٦ م .

٩٤ - تاريخ تمدن الاسلامى . الأستاذ جرجى زيدان . مطبعة الهلال

١٩٠٢ - ١٩٠٦ .

٩٥ - تاريخ حضرموت السياسي . صلاح البكرى اليفعى . المطبعة السلفية

بمصر ١٣٥٤ هـ .

٩٦ - تاريخ الحميس في أحوال أنفس نفيس . الديار بكرى . المطبعة العامرة

العمانية ١٣٠٢ هـ .

٩٧ - تاريخ العرب (مطول) الدكتورة فيليب حتى وإدورد جرجى وجبرائيل

جبور مطبعة دار الكشاف بيروت ١٩٤٩ م .

٩٨ - عمر بن الخطاب . ابن الجوزى . مطبعة صبيح بمصر .

٩٩ - التاريخ الكبير أبو القاسم على بن عساكر . مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

١٠٠ - تاريخ اللغات السامية ، الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد

بمصر ١٣٤٨ هـ - ٢٩٢٩ م .

١٠١ - تاريخ مكة . أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى . من كتاب

المنتقى في أخبار أم القرى . ليزج ١٨٥٩ م

١٠٢ - تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب . نشره هوتسا

M. TH. Hautsma

١٠٣ - تاريخ اليهود . أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى مطبعة

جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م

١٠٤ - تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . الدكتور

إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .

١٠٥ - تاريخ يوسفوس اليهودى . المطبعة العلمية ببيروت .

١٠٦ - التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح الزبيدى . مطبعة

مصطفى البابى الحلبي بمصر .

١٠٧ - تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه . الفيروزابادى . من

نوادير المخطوطات . نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر .

١٠٨ - التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والتاجر والحالة

العلمية فى المدينة المنورة . عبد الحى الكنانى القاسى . المطبعة الأهلية بنفاس

١٣٦٦ هـ .

١٠٩ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع : أبو شامة . القاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٠٤٧ م .

١١٠ - تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق داود الأنطاكى بالمطبعة

البيهية المصرية م .

١١١ - تطور النظرية التربوية . الأستاذ صالح عبد العزيز . المطبعة الأميرية .

١١٢ - تفسير الألوسى (روح المعانى) : السيد محمود شكرى الألوسى .

دار الطباعة المنيرية بمصر .

- ١١٣ - تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)
- ١١٤ - تفسير الجلالين : مطبعة المعارف العلمية بمصر ١٣٤٤ هـ .
- ١١٥ - تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل )  
المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
- ١١٦ - تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن ) مطبعة بولاق  
١٣٢٣ هـ .
- ١١٧ - تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .
- ١١٨ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن ) مطبعة دار الكتب .
- ١١٩ - تفسير النيسابورى ( تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان )  
على هامش الطبرى : بولاق ١٣٢٣ هـ .
- ١٢٠ - التنبية والاشراف المسعودى مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ -  
١٩٣٨ م :
- ١٢١ - تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلانى . مطبعة دائرة المعارف  
النظامية بالهند ١٣٢٧ هـ .
- ١٢٢ - تهذيب الكامل للبرد . الأستاذ السباعى بيومى . مطبعة السعادة  
بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .
- ١٢٣ - تيارات أدبية بين الشرق والغرب الدكتور إبراهيم سلامة  
١٩٥٢ م .
- ١٢٤ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ابن  
الديبع الشيبانى الزبيدى مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .
- ١٣٥ - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . الثعالبي . مطبعة الظاهر  
بمصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .
- ( ٤٥ - المرأة فى الشعر الجاهلى )



- ١٢٦ — الجامع الصحيح . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة  
١٣٢٩ هـ .
- ١٢٧ — جوهرة أشعار العرب . القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ  
١٩٢٦ م .
- ١٢٨ — جوهرة الأمثلة . أبو هلال العسكري . على هامش مجمع الأمثال  
للميداني . المطبعة الخيرية بمصر ١٣١٠ .
- ١٢٩ — جوهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسي . تحقيق ا . ليفي .  
بروفنسال . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٧ م .
- ١٣٠ — حجة الله البالغة . أحمد شاه ولي الدين الدهلوي : المطبعة الخيرية  
بمصر ١٣٣٢ هـ :
- ٣٣١ — حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة . جابي زاده علي فهمي .  
دار سعادت روشن مطبعة سي ١٣٢٤ هـ .
- ١٣٢ — حسن الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة . السيوطي . مطبعة  
الموسوعات بمصر ١٣٠١ هـ
- ١٣٣ — الحماسة البيهقي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .
- ١٣٤ — الحنين إلى الأوطان . للجاحظ . مطبعة المنار بمصر ١٣٣٣ هـ .
- ١٣٥ — حياة الحيوان . الدميري . مطبعة بولاق
- ١٣٦ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .  
مطبعة نهضة مصر ١٩٥٢ هـ - م .
- ١٣٧ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة  
الباي الخاوي بمصر وطبعة ساسي .
- ١٣٨ — الخراج . أبو يوسف . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق  
١٣٠٢ هـ .

- ١٣٩ — الخراج يحيى بن آدم القرشي . تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر  
 للطبعة السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ . وطبعة ليدن ١٨٩٥ م .
- ١٤٠ — خزانة الأدب البغدادي . مطبعة دار العصور بمصر .
- ١٤١ — خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى السهمودي . مطبعة بولاق  
 . هـ ١٢٨٥ .
- ١٨٤ — دائرة المعارف . الأستاذ محمد فريد وجدى .
- ١٤٣ — دائرة المعارف : البستاني
- ١٤٤ — داعي السماء بلال بن رباح . الأستاذ عباس العقاد . طبعة سعد  
 بمصر بالقاهرة ١٩٤٥ م .
- ١٤٥ — دلائل النبوة : أبو نعيم أحمد الأصبهاني مطبعة مجلس دائرة  
 المعارف بحيدرآباد الدكن ١٣٢٠ .
- ١٤٦ — ديوان الأعشى الكبير ميهون بن قيس . تحقيق الدكتور محمد  
 حسين . المطبعة النموذجية ١٩٥١ م .
- ١٤٧ — ديوان امرئ القيس بشرح السندوبي مطبعة الاستقامة بالقاهرة  
 . الطبعة الثانية .
- ١٤٨ — ديوان أمية بن أبي الصلت . تحقيق فون سردريك شلمهتر ١٩١١ .
- ١٤٩ — ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جير Dr. Rudolf Geyer  
 . م ١٨٩٣ .
- ١٥٠ — ديوان جرير . المطبعة السلفية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ١٥١ — ديوان حاتم طي . طبعة بيروت .
- ١٥٢ — ديوان الحادرة ( قطب أو قطبة بن أوس بن محسن ) أملاء  
 . تأبوعبد الله اليزيدي . نشره انجلمان Dr. G. Engelmann

- ١٥٣ — ديوان حسان بن ثابت . نشره محمد شكرى المكي مطبعة الإمام  
بمصر ١٣٢١ .
- ١٥٤ — ديوان الحطيئة . بشرح السكرى . مطبعة التقدم بمصر .
- ١٥٥ — ديوان الحماسة لأبي تمام (أ) بشرح التبريزى مطبعة بولاق .  
(ب) بشرح المرزوقى تحقيق الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هرون .  
مطبعة لجنة التأليف ١٣٧١ هـ .
- ١٥٦ — ديوان الرافعى . مصطفى صادق الرافعى .
- ١٥٧ — ديوان زهير بن أبى سلمى . بشرح أبى العباس الشيبانى ثعالب .  
مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م .
- ١٥٨ — ديوان سلامة بن جندل . رواية الأصمعى والشيبانى والأحول . نشره  
الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠ م .
- ١٥٩ — ديوان السموءل . رواية أبى عبد الله نفلطويه . نشره الأب  
لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٩٠٩ .
- ١٦٠ — ديوان طرفة (أ) بشرح الأعم الشنتمرى . مطبعة برطند بمدينة  
شالون ١٩٠٠ م (ب) بشرح الشنقيطى ١٩٠٩ م .
- ١٦١ — ديوان طفيل الغنوى . رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى .  
نشره كرنكو F. Krankow لندن ١٩٢٧ م .
- ١٦٢ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى . رواية ابن الأنبارى عن ثعالب .  
يتحقق ليال sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .
- ١٦٣ — ديوان عروة بن الورد . بشرح ابن السكيت . طبعة بيروت .
- ١٦٤ — ديوان دلقمة الفحل . طبعة بيروت .

- ١٦٥ — ديوان عمرو بن قميئة. نشره ليال Sir Charles Lyall كبردج ١٩١٩م  
 ١٦٦ — ديوان عنتر بن شداد. تحقيق عبد المنعم شلبي. مطبعة شركة  
 دفن الطباعة.
- ١٦٧ — ديوان الفرزدق مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٤ هـ.
- ١٦٨ — ديوان قيس بن الخطيم نشره رودلف جيبير Dr. Rudolf Geyer  
 - فيينا ١٩١٤ هـ.
- ١٦٩ — ديوان لبيد. نشره هوبر Dr. A. Huber ليدن ١٨٩١ م.
- ١٧٠ — ديوان المتنبي. شرح البرقوق. المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ  
 ١٩٣٠ م.
- ١٧١ — ديوان المسيب بن علس. ملحق بديوان الأعشى. تحقيق  
 رودلف جيبير.
- ١٧٢ — ديوان معن بن أوس المزني. رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم  
 . نشرة بول اسكوارز Paul Schwarz ليزج ١٩٠٣ م.
- ١٧٣ — ديوان النابغة الذبياني. بشرح البطليوسي. طبعة بيروت.
- ١٧٤ — ديوان نابغة بنى شيبان. مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٥١ هـ —  
 ١٩٣٢ م.
- ١٧٥ — ديوان الهذليين. مطبعة دار الكتب ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م.
- ١٧٦ — ذيل الأمالي والنوادر. القالي. طبعة دار الكتب.
- ١٧٧ — رسالة الغفران. المعري. تحقيق الدكتور عائشة عبد الرحمن.  
 مطبعة دار الكتب بمصر.
- ١٧٨ — رسالة القيان. الجاحظ من ثلاث رسائل. للجاحظ. نشرها يوشع  
 دفنكل المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ.
- ١٧٩ — الرسالة. الإمام الشافعي. تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

- ١٨٠ — الرق في الإسلام . أحمد شفيق باشا . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
- ١٨١ — الروض الأنف . شرح سيرة ابن هشام . السهيلي . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
- ١٨٢ — رياض الأدب في مرأى شواعر العرب . جمعه الأب لويس شيخو اليسوعي . طبعة بيروت ١٨٩٧ .
- ١٨٣ — زاد المعاد في هدى خير العباد ابن القيم الجوزية : مطبعة صبيح بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
- ١٨٤ — زهر الآداب للحضري نشره الدكتور زكي مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر .
- ١٨٥ — سمط الآلى في شرح آمال القالى البكرى . تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .
- ١٨٦ — السنن الكبرى . البيهقي . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بمحيدرآباد ١٣٥٥ هـ .
- ١٨٧ — سيرة النبي . ابن هشام . بتحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .
- ١٨٨ — شرح التنوير على سقط الزند للمعري . مطبعة الإسلام بمصر ١٣٢٤ هـ
- ١٨٩ — شرح التصانيد العشر . التبريزى . مطبعة صبيح بمصر .
- ١٩٠ — شرح الموطأ للإمام مالك . الزرقانى المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .
- ١٩١ — شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ١٣٢٩ هـ .
- ١٩٢ — شرح الهاشميات للكفيت بن زيد الأسدي . مطبعة شركة التمدين الصناعية بمصر .

- ١٩٣ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) بتحقيق الأستاذ محمود شاكر .  
 مطبعة الحلبي ١٣٦٤ هـ .
- (ب) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة المعاهد بمصر ١٩٣٢٥١٣٥٠ م .
- ١٩٤ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء  
 اليسوعيين بيروت ١٨٩٠ م .
- ١٩٥ — شفاء النفس . الدكتور يوسف مراد . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣ م
- ١٩٦ — الصبح المنير في شرح ديوان أبي بصير ميمون بن قيس . بشرح  
 أبي العباس ثعلب . نشره الدكتور رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer مطبعة  
 أدلف هلز هوسن ١٩٢٧ م .
- ١٩٧ — صبح الأعشى . القلقشندي . مطبعة دار الكتب بمصر .
- ١٩٨ — صحيح البخاري بشرح الكرمانلي . المطبعة المصرية ١٣٥٦ هـ  
 ١٩٢٧ م .
- ١٩٩ — صحيح سنن المصطفى . أبو داود السجستاني . المطبعة الكستلية  
 ١٢٢٨ هـ .
- ٢٠٠ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . مطبعة  
 صبيح بالقاهرة .
- ٢٠١ — صور البديع (فن الأسجاع) الأستاذ علي الجندي .
- ٢٠٢ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسي . نشره الأب لويس شيخو اليسوعي  
 المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٢ .
- ٢٠٣ — طبقات الشافعية الكبرى . ابن تقي الدين السبكي . المطبعة الحسينية  
 بمصر ١٣٢٤ .
- ٢٠٤ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجحفي . تحقيق الأستاذ محمود  
 محمد شاكر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٢٠٥ — الطبقات الكبير . ابن سعد . نشره إدوارد سخو . مطبعة بريل  
بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٠٦ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطي .

٢٠٧ — عبقرية المسيح . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار أخبار اليوم

١٩٥٣ م .

٢٠٨ — العرب قبل الإسلام . الأستاذ جورجى زيدان .

٢٠٩ عصر ما قبل الإسلام . الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة وادى النيل

١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٢١٠ — العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين . نشره وليم

ابن الورد البروسى . لندن ١٨٧٠ م .

٢١١ — العقائد . عمر عنایت . مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٨ م .

٢١٢ — علم النفس الفردى ، أصوله وتطبيقه . الدكتور إسحاق رمزى

مطبعة دار المعارف بمصر .

٢١٣ — عمدة القارى لشرح صحيح البخارى . العيني . المطبعة الأميرية .

٢١٤ — العمدة فى صناعة الشعر وتقدمه الطبعة الأولى . مطبعة أمين هندية

بمصر ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م .

٢١٥ — عنوان المرقصات والمطربات . نور الدين على المغربى . مطبعة جمعية

للمعارف ١٢٨٦ هـ .

٢١٦ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب .

٢١٧ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ابن أبى أصيبعة .

٢١٨ — عيون المسائل الشرعية فى الأحوال الشخصية . الأستاذ على

حسب الله . الطبعة الثانية . مطبعة العلوى بمصر ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م .

- ٢١٩ — الغزل في العصر الجاهلي . الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة لجنة  
البيان العربى ١٣٧٠ - ١٩٥٠ م .
- ٢٢٠ — الغناء للأطفال عند العرب . الدكتور أحمد عيسى بك . المطبعة  
الأميرية ببولاق .
- ٢٢١ — الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . مطبعة مجلس دائرة  
المعارف النظامية بالهند ١٣٢٤ م .
- ٢٢٢ — الفاخر . أبوطالب المفضل بن سلامة الكوفى . نشره سالس  
انبروس . مطبعة بريل بليدن ١٩١٥ م .
- ٢٢٣ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية  
١٣٠١ هـ .
- ٢٢٤ — فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدى . الشرقاوى . مطبعة مصطفى  
البابى الحلبي بمصر .
- ٢٢٥ — الفتوة عند العرب . الأستاذ عمر الدسوقى . مطبعة لجنة البيان  
العربى بمصر ١٩٥١ م .
- ٢٢٦ — فتوح البلدان . البلاذرى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ  
١٩٠١ م .
- ٢٢٧ — فتوح الشام . أبو إسماعيل محمد الأزدي البصرى . مطبعة بيتست  
مشن كلكته ١٨٥٤ م .
- ٢٢٨ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ .
- ٢٢٩ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٧١ م .
- ٢٣٠ — فوات الوفات . ابن شاکر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .
- ٢٣١ — فى علم النفس . الأستاذ محمد عطيه الإبراشى والأستاذ حامد  
عبد القادر . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .



- ٢٣٢ — القاموس المحيط . الفيروز ابادى .
- ٢٣٣ — القرآن الكريم .
- ٢٣٤ — قصة الأدب الفارسى . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ٢٣٥ — قصة الملكية فى العالم . الدكتور على عبد الواحد والدكتور سعفان .
- ٢٣٦ — قصص الأنبياء . الأستاذ عبد الوهاب النجار . الطبعة الثانية . مطبعة النصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
- ٢٣٧ — قواعد الشعر . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رواية أبى عبيد الله محمد المرزبانى . نشره اسكيا بارلى G. Schiaparelli . مطبعة بريل بليدن ١٨٩٠ م .
- ٢٣٨ — الكامل فى التاريخ ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ٢٣٩ — الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .
- ٢٤٠ — كتاب الأملى . أبو عبد الله محمد اليزيدى . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ٢٤١ — كتاب بكر وتقلب . مطبعة نخبة الأخبار بيومى ١٣٠٥ هـ .
- ٢٤٢ — كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنوشروان . مطبعة نخبة الأخبار بلهند ١٣٠٥ هـ .
- ٢٤٣ — كتاب المغانى الكبير فى آيات المغانى . ابن قتيبة . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
- ٢٤٤ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين على المتقى الهندى . مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٣ هـ .
- ٢٤٥ لزوم مالا يلزم . المعرى . الطبعة الأولى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣ هـ .
- ١٩١٥ م .
- ٢٤٦ — لسان العرب . ابن منظور .

- ٢٤٧ — الطائفة والظرائف . الثعالبي . المطبعة الوهيبية بمصر ١٢٩٦ هـ . .
- ٢٤٨ — المؤلف والمختلف . الأمدى . نشره الدكتور فريقس كرنكو . .  
مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
- ٢٤٩ — مبادئ علم النفس العام . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .
- ٢٥٠ — المبسوط . شمس الدين السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .
- ٢٥١ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة دار المعارف بمصر .
- ٢٥٢ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٢٥٣ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى .
- ٢٥٤ — الحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٠ هـ .
- ١٩١٢ م .
- ٢٥٥ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهاني . مطبعة المويجى .
- ٢٥٦ — الحبير . أبو جعفر محمد بن حبيب برواية أبي سعيد السكرى .  
نشرته الدكتورة إيلزه ليختن شتير الأمريكية . مطبعة المعارف العثمانية بميدرا آباد .
- ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- ٢٥٧ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية .
- ١٣٢٥ هـ .
- ٢٥٨ — مختلف القبائل ومؤلفها . أبو جعفر محمد بن حبيب . نشره .  
وستنفيلد . طبعة غوتنجن ١٨٥٠ م .
- ٢٥٩ — المحصن ابن سيده .
- ٢٦٠ — المدونة الكبرى . الإمام مالك . الطبعة الأولى . المطبعة الخيرية .  
بمصر ١٣٢٤ هـ .

- ٢٦١ — المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفي بك .  
الطبعة الثانية . مطبعة المعارف بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .
- ٢٦٢ — المرأة في التاريخ والشرائع . الأستاذ محمد جميل بيهم . بيروت  
١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م .
- ٢٦٣ — المرأة في مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكي . مطبعة  
دار الكتب ١٩٤٧ م .
- ٢٦٤ — المرأة المسلمة . الأستاذ محمد فريد وجدى . مطبعة الترقى بمصر  
١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م .
- ٢٦٥ — المردفات من قریش . أبو الحسن المدائني . نشره الأستاذ  
عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات . مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ١٩٥١ م .
- ٣٦٦ — مروج الذهب . المسعودي . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ٢٦٧ — مسالك الممالك . أبو إسحاق إبراهيم الإصطخرى المعروف  
بالكرخي ليدن ١٩٢٧ م .
- ٢٦٨ — المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .
- ٢٦٩ — المستطرف من كل فن مستطرف . الأبيشي . المطبعة الميمنية  
بمصر ١٣٠٨ هـ .
- ٢٧٠ — مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ٢٧١ — مصارع العشاق . أبو محمد جعفر السراج . مطبعة الجوائب  
بالآستانة ١٩٠٧ م .
- ٢٧٢ — مصر القديمة . الأستاذ سليم حسن بك . مطبعة دار الكتب  
المصرية ١٩٥٠ م .

- ٢٧٣ — مطالع البدور في منازل السرور . علاء الدين البهائي الغزولي .  
مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٣٩٩ هـ .
- ٢٧٤ — المعارف . ابن قتيبة الدينوري . المطبعة العامرة الشرفية بمصر  
١٣٠٠ هـ .
- ٢٧٥ — معجم الأدباء . ياقوت الحموي . مطبعة دار المسامون بمصر  
١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- ٢٧٦ — معجم البلدان . ياقوت الحموي . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
- ٢٧٧ — معجم الشعراء المرزباني . نشره الدكتور سالم الكرنكوي  
مكتبة المقدسي بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
- ٢٧٨ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . البكري . تحقيق  
الأستاذ مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .
- ٢٧٩ — المنغازي . الواقدي . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م .
- ٢٨٠ — المفصليات للضبي . تحقيق الأستاذ أحمد شاکر ولأستاذ  
عبد السلام هارون . الطبعة الأولى . مطبعة المعارف بمصر ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م .
- ٢٨١ — مقال ( المذکر والمؤنث ) الرسالة العدد ٢٨٥ . الأستاذ عمر الدسوقي .
- ٢٨٢ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .
- ٢٨٣ — ملحق بديوان النابغة الذبياني . أخرجه M. Hartwy Derenbourg  
باريس ١٨٩٩ م .
- ٢٨٤ — الملل والنحل . الشهرستاني . على هامش الفصل لابن حزم .  
المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ م .
- ٢٨٥ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين . مطبعة دار المعارف .  
بمصر ١٩٤٨ م .

- ٢٨٦ — منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس المعلوم لنشوان  
ابن سعيد الحميري . مطبعة بريل بليدن ١٩١٦ م .
- ٢٨٧ — موسيقى الشعر . الدكتور إبراهيم أنيس . دار الفكر العربي بمصر
- ٢٨٨ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . المرزباني . المطبعة السلفية  
بمصر ١٣٤٣ هـ .
- ٢٨٩ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال . الحافظ الذهبي . طبع الهند  
١٣٠٩ هـ .
- ٢٩٠ — نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع . لم يذكر مؤلفه  
على الكتاب ولا في فهرس دار الكتب ولا في فهرس المكتبة التيمورية .  
المطبعة العاصرة العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ .
- ٢٩١ — نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . المطبعة الأميرية  
١٢٩٤ هـ .
- ٢٩٢ — نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمه .  
مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .
- ٢٩٣ — نسب عدنان وقحطان . المبرد . أخرجہ الأستاذ عبد العزيز الميمنى  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٦ م .
- ٢٩٤ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية  
الأستاذ محمد جمعه . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م .
- ٢٩٥ — نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرئ طبعة أوروبا .
- ٢٩٦ — نفسية المراهق . الأستاذ رياض عسكر .
- ٢٩٧ — نقد الشعر . قدامة بن جعفر . نشره الأستاذ محمد عيسى منون  
المطبعة الوطنية بمصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

٢٩٨ - نقد النثر. قدامة بن جعفر تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ  
عبد الحميد العبادي . مطبعة مصر ١٩٣٩ م .

٢٩٩ - النقائص . نقائص جرير والفرزدق . مطبعة بريل بليدن ١٩٠٧ م

٣٠٠ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب القلقشندی . مطبعة الرياض  
بيغداد .

٣٠١ - هذه الشجرة الأستاذ عباس محمود العقاد .

٣٠٢ - الهنود الحمر . الدكتور على عبد الواحد واني ( سلسلة اقرأ ٨٨ )

٣٠٣ - الموامل والشوامل . أبوحيان التوحیدی ومسكويه نشره الأستاذ

أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١ م .

٣٠٤ - وفيات الأعيان . ابن خلكان مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

### ٣ - كتب مترجمة إلى العربية

٣٠٥ - أحلام اليقظة . تأليف الدكتور جورج هنرى جرین . ترجمة

الأستاذ إبراهيم حافظ ومراجعة الأستاذ زكى المهندس بك . مطبعة لجنة البيان

العربي بمصر ١٩٥٠ م .

٣٠٦ - الإسلام . خواطر وسوانح . تأليف الكونت هنرى دى كاسترو

ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة السعادة بمصر .

٣٠٧ - الإلياذة . هوميروس . ترجمة الأستاذ سايان البستاني . مطبعة

الملال بمصر .

٣٠٨ - الإمبراطورية البيزنطية . تأليف نورمان بينتر . ترجمة دكتور

حسين مؤنس والأستاذ محمود زايد . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م

٣٠٩ - أمراء غسان . تأليف الدكتور ثيودور نولدكه . ترجمة الدكتور

بندل جوزى والدكتور قسطنطين زريق . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣ م

- ٣١٠ — الأومة عند العرب . تأليف واسكن G. A. Wilken ترجمة  
بندلى صليبا الجوزى ١٩٠٢ م .
- ٤١١ — أهل الزمة فى الاسلام . تأليف ا. س. ترتون . ترجمة الأستاذ  
حسن حبشى . مطبعة الاعتماد بمصر .
- ٣١٢ — تاريخ الحضارة . تأليف شارل سنيوبوس . ترجمة الأستاذ محمد  
كرد على بك . مطبعة الظاهر بالقاهرة .
- ٣١٣ — تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف ف . بارتولد الروسى . ترجمه  
من التركية الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
- ٢١٤ — تاريخ الشعوب السامية ( العرب والإمبراطورية العربية ) تأليف  
بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكي . دار العلم  
للملايين ببيروت ١٩٤٨ م .
- ٣١٥ — تاريخ العالم . نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن . ترجمة  
إدارة الترجمة بوزارة المعارف بمصر .
- ٣١٦ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . تأليف دى بور = De Boer ترجمة  
الأستاذ محمد عبد الهادى أبوريده مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ هـ  
١٩٣٨ م .
- ٢١٧ — تراث الاسلام . تأليف جماعة من المستشرقين ، نشرته لجنة النشر  
للجامعين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م
- ٣١٨ — جمهورية أفلاطون . ترجمة الأستاذ حنا خباز مطبعة المقتطف  
والمقطم ١٩٣٩ م
- ٣١٩ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . تأليف  
فون كريم ترجمة دكتور مصطفى بدر . دار الفكر العربى بمصر ١٩٤٧ م

- ٣٢٠ - حضارة العرب تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م
- ٣٢١ - الحضارة المصرية تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم . المطبعة العصرية بمصر
- ٣٢٢ - حضارات الهند تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة إحياء الكتب العربية بمصر ٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .
- ٣٢٣ - الحياة والحب تأليف إميل لودفيج . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . مطبعة المعارف بمصر
- ٣٢٤ - دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها الأساتذة عبد الحميد يونس وإبراهيم خورشيد وعباس محمود وأحمد الشنتناوى
- ٣٢٥ - الدعوة إلى الإسلام تأليف أرنولد sir. T. Arnold ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ عبد الحميد عابدين والأستاذ إسماعيل النجراوى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ م .
- ٣٢٦ - ديانة قدماء المصريين تأليف الأستاذ استيندرف الألماني . ترجمة سليم حسن بك مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ م
- ٣٢٧ - روح الاجتماع تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة الشعب بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م
- ٣٢٨ - سيكولوجيا المرأة تأليف فرويد ترجمة الدكتور محمد مختار صدقى مطبعة دار النيل .
- ٣٢٩ - الشاهنامة . الفردوسى . ترجمة الفتح بن على البغدادى تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . مطبعة دار الكتب بمصر .
- ٣٣٠ - شعار الخضر فى الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرايين . ترجمة وشرح الأستاذ مراد فرج . مطبعة الرغائب بمصر ١٩١٧ م .
- ( ٤٦ - المرأة فى الشعر الجاهلى )



٣٣١ — العقد الأنفس في ملخص التاريخ المقدس . وهو ترجمة لكتاب تاريخ الأمة الإسرائيلىة من اللغة الفرنسية . ترجمة تادرس وهبى . مطبعة جريدة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ .

٣٣٢ — العهد الجديد . مترجم من اللغة اليونانية . كمبردج ١٩٢٧ م .

٣٣٣ — قصة الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب

محمود . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م .

٣٣٤ — قصة الحضارة الفارسية . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور

إبراهيم الشواربى . مكتبة الخانجى ١٩٤٧ م .

٣٣٥ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع . تأليف الدكتور إميل دوركهايم .

ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

٣٣٦ — كتاب الشعر . أرسططاليس . ترجمة الأستاذ إحسان عباس .

دار الفكر العربى .

٣٣٧ — كتاب العهد القديم .

٣٣٨ — كيف يعمل العقل . تأليف سرل برت . ترجمة الأستاذ محمد

خلف الله .

٣٣٩ — اللغة . تأليف ج فندريس . ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى

والدكتور محمد القصاص . مطبعة لجنة البيان العربى .

٣٤٠ — مبادئ علم الاجتماع الدينى . تأليف روجيه باستيد . ترجمة

الدكتور محمود قاسم . مكتبة الأنجلو ١٩٥١ م .

٣٤١ — المرأة والدولة فى فجر الاسلام . تأليف نايه أبوت Nabla Abbot

ترجمة الأستاذ محمد عبد الفنى حسن .

٣٤٢ — مركز المرأة فى الإسلام . تأليف السيد أمير على الهندى . ترجمة

الأستاذ على فبهى محمد مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .

- ٣٤٣ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة . تأليف ج . م . جوبو : ترجمة الأستاذ سامي الدروبي . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٨ م .
- ٣٤٤ — المعجم في اللغة الفارسية . نقله إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . مطبعة مصر .
- ٣٤٥ — مقدمة الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .
- ٣٤٦ — مقدمة في علم النفس الاجتماعى . تأليف الدكتور شارل بلوندل ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامه ، مكتبة الأنجلو بمصر ١٩٥١
- ٣٤٧ — اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

## ٤ - المراجع الإفرنجية

## إنجليزية

- 348 An Introduction to the sociology of Islam, by Levy. 1933.
- 349 History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.
- 350 A History of the Jews. by Solomon Grayzel. Philadelphia. 1948.
351. A Literary History of the Arabs. by Reynold. A. Nicholson. London 1907.
352. A Literary History of Persia, by Browne. London, 1902.
353. Arabic Before Mohammed, by O' Leary. London 1927.
354. Chamber's Twentieth Century Dictionary.
355. Educational Psychology. by Skinner. New York, 1939.
356. Encyclopedia Americana. New York. Chicago.
357. Encyclopedia Britannica.
358. General sociology. by Wright and Elmer Farrer and Renhart, 1966.
- 359 History of Egypt Sharpe. vol. 2, London 1885.
- 360 Israel from its Beginning to the Middle of the Eighth Century, by Adolphe Lods. London 1932.
- 361 Introduction to social Psychology Meekerzee and Elmer London 1928.
- 362, kinship and Marriage in Early Arabian. by Robertson Smith. London 1907.
363. Lust for Life. by Irving Stone. 1946.
364. Man and Woman. by Havelock Ellis.
- 365 Muslim Law. An Historical Introduction to the Law of inheritance. by Alexander David Russel and Abdullah Al Mamtun Suhrawrdy. London.

- 366 On the Origin of Civilisation and Primitive Condition of Man. by Lubbock.
- 367 Original sources of the Quran, by the Rev. W. S. T. Clair Tisdall New York. 1865
- 368 studies in Ancient History. primitive Marriage. by Mac Leuan. 1856.
- 369 sources of Islam, by the Rev. W. S. T. Clair Tisdall, Edinburgh. 1901.
- 370 space, Time and Gravitation, by A. S. Eddington. 1920
- 371 The Aesthetics. by Knox. New York. 1936.
- 372 The Background of Islam By Philby
- 373 The Caliphate. its rise. Decline and Fall by sir William Muir. Edinburgh. 1924.
- 374 The Great Encyclopedia of Universal Knowledge, London.
- 375 The Women in ayyam El Arab Ilse Lichtenstadter. London 1935
- 376 The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. by Margoliouth
- 377 The Psychology of Marriage, by Walter M. Gallichan, London 1927.
- 378 The science of Living Things. Heredity : The Stream of Life. By Eldou. Moore. London. 1935.

## فرنسية

- 379 Essai sur l' Histoire des Arabes, par De Perceval. paris 1848.
- 380 Histoire des papes. paris 1842.
- 381 La Grande Encyclopedie Tome 17
- 382 La Question Feministe. par Rosler.
- 383 L' Arabie Occidentale avant l' Hegire. par H. Lammans. Beyrouth. 1928.
- 384 La Religion des primitifs par Monseigneur Leory.

## فارسی

# فهرست

المقررة :

١٣ - ٥

٧٣ - ١٤

تمهيد

## صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

- صلة العرب باليهود : مقدم اليهود إلى الحجاز ( ١٨ ) اختلاطهم بالعرب ( ٢٠ )  
اليهود باليمن وما جاورها ( ٢٤ ) أثر اليهود في العرب ( ٢٦ ) المرأة اليهودية ( ٣٠ )  
صلة العرب بالنصارى : النصرانية في الشمال والوسط ( ٣٤ ) النصرانية في  
اليمن ( ٣٧ ) أثر النصرانية في العرب ( ٣٩ ) المرأة النصرانية ( ٤١ )  
صلة العرب بالفرس : العلاقة القديمة بين العرب والفرس ( ٤٣ ) إمارة  
الحيرة ( ٤٤ ) الفرس باليمن والبحرين ( ٤٥ ) صلات أخرى ( ٤٦ ) أثر الفرس في  
العرب ( ٤٧ ) بعض مظاهر تأثيرهم ( ٥٠ ) المرأة الفارسية ( ٥٦ )  
صلة العرب بالرومان . مملكة الأنباط . مملكة تدمر ( ٥٨ ) مملكة غسان ( ٦٠ )  
خضوع قبائل عربية للرومان ( ٦٠ ) أثر الرومان في العرب ( ٦١ ) المرأة الرومانية  
واليونانية ( ٦١ ) .  
صلة العرب بمصر : قدم الاتصال . المكسوس بمصر ( ٦٦ ) العرب بقفط  
والصعيد ( ٦٩ ) التجارة بين مصر والعرب ( ٧٠ ) المرأة المصرية ( ٧٠ )

## الباب الأول

### المرأة في الحياة الأسرية

#### الفصل الأول

#### (الأم)

٧٤-١٤٨

للأسرة أساس القبيلة (٧٤) الأم معين الأسرة (٧٦) أثر الأم في القرابة (٧٧)  
 الأم الحرة (٧٩) الأم المنجبة (٨٥) النسب إلى الأم: مظاهره (٨٨) آراء في أصل  
 النسب إلى الأم (٩١) مناقشتها (٩٣) رأي في هذا النسب (١٠٥)  
 مظاهر حب الأم لبنيتها (١١٢) التربية الجسمية (١١٢) التربية الخلقية (١١٦)  
 تمنيتها أن يعيشوا (١١٨) رفضها الزواج إبقاء عليهم (١١٩) حرصها على مالهم (١١٩)  
 حزنها على فقيدهم (١٢٠) رثاؤها موتهم (١٢١) رفضها دية القتل (١٢١).  
 مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم (١٢٠) إعزاز الأم . حمايتها من المهانة (١٢٣)  
 الفخر . بالأم . التنفيذية بها (١٢٤) تلبية مشورتها (١٢٥) التعبير عن الإخوة الأشقاء  
 بأبناء الأم (١٢٥) إثارتها على الزوجة (١٢٧) إعزاز الإخوة لأم (١٢٨) إعزاز  
 الخال (١٣١) أثر الخال في ابن أخته (١٣١) نصرته لابن أخته (١٣٢) نصرته الولد  
 لخاله (١٣٦) الفخر بالخال والمدح به (١٣٨) الحرج من الثأر من الخال (١٤٠)  
 الصبر على أذاه (١٤١) التعبير بالخال (١٤٢) الخال في الإسلام (١٤٢) عموق  
 الأميات أحياناً (١٤٣).

#### الفصل الثاني

#### الزوجة

١٤٩-٢٧٨

أثر المصاهرة (٤٩) الزوجة المثلى : صفاتها المدوحة (١٥٠ - ١٥٧)  
 صفاتها المذمومة (١٥٧ - ١٦٠) الزوجات الغريبات (١٦٠) الحكمة في الاغتراب

عقيدة العرب . رأى القدماء رأى العلم الحديث . منافع أخر في الاغتراب (١٦٠ - ١٦٤) الزواج من شعوب أخرى (١٦٤) .

الزوج الكفء في نظر المرأة وآلها . مظاهر كفاءته (١٦٧ - ١٨٣) حرية المرأة العربية في اختيار زوجها . موازنة بينها وبين غيرها (١٨٢) مظاهر هذه الحرية (١٨٣) الإسلام وتزويج المرأة نفسها (١٨٦) الخطبة والإملاك (١٨٨) المهر (١٩٠) وصايا للزوجة عند زفافها (١٩٦) .

مكانة الزوجة عند زوجها (١٩٨) حبه لها (١٩٨) نداؤها بلقب التكريم (٢٠٠) إسهادها على مفآخره (٢٠١) اعتذاره لها من فراره (٢٠٣) نغره بحسن عشرته لها (٢٠٥) استماع مشورتها (٢٠٧) غيرته عليها وحمايتها (٢٠٨) الإسلام ومعاملة الزوجات (٢١١) .

مكانة الزوج عند زوجته (٢١٣) حبها له (٢١٣) خوفها عليه (٢١٥) حرصها على ماله (٢١٧) وفاؤها له . مظاهر وفائها (٢٢٣) تمرد أحياناً (٢٢٩) الإسلام يوصى المرأة بزوجها (٢٣٣) .

تعدد أزواج (٢٣٤) وحدة الزوجة عند الأمم (٢٣٤) اوحدة عند العرب (٢٣٥) تعدد الزوجات عند الأمم (٢٣٦) التعدد عند العرب (٢٣٨) عداء الضرائر (٢٣٨) هل في التعدد منقصة للمرأة؟ (٢٤٢) .

أنكحة الجاهلية . أنواعها . موافقة أكثرها لما جاء به الإسلام . موازنة بينها وبين النظم القديمة وما جاء به الإسلام (٢٤٥) المحرمات في الجاهلية (٢٥١) المحرمات في الإسلام وعند الأمم الأخرى (٢٥٢) .

الطلاق (٢٥٨) ضرورته (٢٥٨) الطلاق عند الأمم (٢٥٩) دواعيه عند العرب (٢٦٠) أنواعه عند العرب : الطلاق (٢٦٢) الخلع (٢٦٤) الظهار (٢٦٦) الإيلاء (٢٦٧) حق المرأة في الطلاق (٢٦٧) ما جاء به الإسلام (٢٧١) حسرة بعد الطلاق (٢٧٢) العدة (٢٧٧) .

## الفصل الثالث

٣٧٩ - ٣١٤

## البنات

حب بعض العرب للبنات . مظاهر هذا الحب في الجاهلية والإسلام (٢٧٩)  
مدح البنت تكريماً لأبيها (٢٨٤) اعتداداً بيها برأيها وبجوارها (٢٨٥) كنيته باسمها  
(٢٨٧) بغض بعضهم للبنات (٢٨٩) امتداد البغض إلى ما بعد الجاهلية (٢٩٠) .  
الوَاد (٢٩٢) أسباب الوَاد (٢٩٣) طريقته (٢٩٧) هل اقتصر على الإناث  
(٢٩٨) هل كان الوَاد عاماً ؟ (٢٩٩) موقف الأمهات من الوَاد (٣٠٠) إحياء  
الموَدوات (٣٠١) الوَاد وما يشبهه عند غير العرب (٣٠٣) الوَاد ومكانة المرأة  
العربية (٣٠٤) .

حب البنات لأبيها . مظاهر هذا الحب : خوفها عليه (٣٠٦) تمنيتها أن يعيش  
شاباً قوياً (٣٠٧) حرصها على ماله (٣٠٨) حزنها عليه إذ مات (٣٠٨) حضنها  
على الثأر له إذا قتل (٣٠٩) رثاؤها له (٣١٠) سرورها بأن يشبه ابنها  
أبها (٣١٢) إشارتها قومها على قوم زوجها (٣١٣)

## الفصل الرابع

## الأخيت والقريبة

٣٢٥ - ٣١٥

مظاهر حب الأخ لأخته : مقاسمتها ماله (٣١٥) استماع مشورتها (٣١٦)  
حمايتها (٣١٦) إجارتها من تجيره (٣١٦) غيرته عليها (٣١٧) إعزازه  
لأبنائها (٣١٨) .

مظاهر حب الأخت لأخيها : اعتزازها به (٣١٩) رثاؤها له (٣٢٠) .  
القريبة ، إعزاز أقاربها لها . إعزازها لحم (٣٢٢) .



## الفصل الخامس

## حقوق المرأة المالية ٣٢٦ - ٣٤١

تمهيد . ملكية المرأة العربية . الأدلة على أنها كانت تمتلك . من القرآن الكريم ( ٣٢٦ ) من الأخبار ( ٣٢٧ ) الملكية بين المرأة العربية وغيرها ( ٣٢٩ ) حرية المرأة العربية في التصرف المالى ( ٣٣٠ ) .  
 المرأة العربية والميراث ( ٣٣٢ ) الإجماع على أنها كانت لا ترث ( ٣٣٢ ) مناقشة هذا رأى . الأدلة على أنها كانت ترث أحيانا . النصوص التى تؤيد ذلك ( ٣٣٣ ) ذكور لا يرثون ( ٣٣٨ ) امتياز المرأة العربية بالميراث ( ٣٣٩ ) الإسلام وتوريث النساء ( ٣٣٩ ) .

## الباب الثانى

## المرأة فى الحياة العامة

## الفصل الأول

## أخلاق المرأة ٣٤٢ - ٣٦٨

شجاعتها النفسية ( ٣٤٢ ) استمساكها ببقيدتها ( ٣٤٥ ) عزة نفسها ( ٣٥٠ ) عفتها ( ٣٥٣ ) حياؤها ( ٣٦٠ ) كرمها ( ٣٦٢ ) بخلها ( ٣٦٣ ) بين أخلاقها فى الإسلام والجاهلية ( ٣٦٥ ) .

## الفصل الثانى

## المرأة سافرة أو محتجبة ٣٦٩ - ٣٩٧

السفور . الأدلة على سفور بعضهن ( ٣٦٩ ) حالات لا مندوحة فيها عن السفور ( ٣٧٢ ) .

- الحجاب . تحجب بعضهن . تنفيذ دعوى فير Veir أن الحجاب لم يعرف في الجاهلية ( ٣٧٥ ) الأدلة على ممارستها الحجاب ( ٣٧٥ ) الحجاب عند الأمم ( ٣٧٧ ) حكم الإسلام في السفور والحجاب ( ٣٧٨ ) .  
 أنواع خمرها وملابسها وأسمائها وألوانها ( ٣٨١ ) .  
 حلبيها : غرام النساء بالحلي ( ٣٩١ ) صنوف الحلي ( ٣٩٢ ) .  
 الاستدلال من الأزياء والحلي على عزاظة المرأة ( ٣٩٧ ) .

### الفصل الثالث

#### صناعة المرأة

٣٩٨—٤٢٩

- تربية الأولاد ( ٣٩٨ ) التطيب ( ٣٩٨ ) الغزل والنسج ( ٣٩٩ ) التجميل ( ٤٠٠ ) الإرضاع ( ٤٠٠ ) القبالة ( ٤٠٢ ) نسج الحصر ( ٤٠٢ ) تقويم الرماح ( ٤٠٢ ) الرعى ( ٤٠٢ ) ممارسة بعض أعمال الرجال ( ٤٠٤ ) جنى الكمأة ( ٤٠٤ ) الرقى ( ٤٠٥ ) الكهانة والعرافة ( ٤٠٦ ) بعض الكواهن ( ٤٠٧ ) سجع الكواهن ( ٤٠٨ ) دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة ( ٤١١ ) شك المرأة العربية في الكهانة أحيانا ( ٤١١ ) الكهانة عند الأمم ( ٤١٢ ) القراءة والكتابة ( ٤١٣ ) الأدلة على معرفة العرب للقراءة والكتابة ( ٤١٤ ) نساء كاتبات قارئات ( ٤٢٣ ) معرفة النجوم ( ٤٢٥ ) الخبرة بالمرعى ( ٤٢٩ ) .

### الفصل الرابع

#### المرأة في الحرب

٤٣٠—٤٦٣

- تمهيد ( ٤٣٠ ) المرأة الحاربة ( ٤٣٣ ) قيادتها الجيوش ( ٤٣٥ ) بعض القائدات ( ٤٣٥ ) محاربتها في المعارك ( ٤٤٠ ) تحقيقها ما تخيله أفلاطون ( ٤٤٣ )

المرأة والثأر (٤٤٤) المرأة جاسوسة في الحرب (٤٥٠) الظمآن في الحرب  
 (٤٥١) أثر الظمآن في المحاربين (٤٥٢) تنحية المرأة عن الحرب أحيانا  
 (٤٥٩) .  
 المرأة والسلام (٤٦٢) .

### الفصل الخامس

## السبَايا والإِماء

٥٢٤—٤٦٤

السبَايا: السبي نظام عام (٤٦٥) الفخر بالسبي والتعير به (٤٦٦) المدح  
 بالسبي (٤٦٨) استبسال الرجال حذارا على النساء من السبي (٤٦٩) استخلاص  
 السبَايا (٤٧٠) إعتاق السبَايا (٤٧٣) إطلاقهن بمعرض (٤٧٥) بغض المرأة  
 للسبي . مظاهر هذا البغض (٤٧٨) تصوير الشعراء لحزن السبَايا (٤٨١)  
 معاملة السبَايا (٤٨٤) استيلادهن عند العرب (٤٨٤) شهرة كثير من أبنائهن  
 (٤٨٥) نخر العرب بإنسالهن (٤٨٥) استيلاذ السبَايا في الأمم الأخرى (٤٨٦)  
 الرد على دعوى إساءة العرب لسبَاياهم . إحسان العرب معاملتهن (٤٨٨) بيع  
 السبَايا وهبتهن وإرثهن عند العرب وغيرهم (٤٨٩) القسوة عليهن أحيانا عند  
 العرب وغيرهم (٤٩٠) .

الإماء: التفرقة بين السبي والأمة (٤٩٢) معاملة الإماء: استيلادهن . مكانة  
 أبنائهن (٤٩٦) شرف بعض أبنائهن (٤٩٦) دفاع هؤلاء الأبناء عن أنفسهم  
 (٤٩٧) سبب احتقار العرب لهم (٤٩٩) أبناء الإماء في الأمم الأخرى (٥٠٠)  
 استرقاق الإماء . خدمتهن السادة (٥٠٢) إكراههن على البغاء (٥٠٤) مشابهة  
 كثير من الأمم للعرب في هذا (٥٠٩) العبارة المقدسة (٥١٠) بيعهن  
 وإرثهن (٥١١) .

السبأ بين الجاهلية والإسلام (٥١١) ما أقره الإسلام (٥١٢) ما عدله الإسلام (٥١٤) ما أبطله الإسلام (٥٢١) .

### الفصل السادس

## المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة ٥٢٥—٥٥٤

تمهيد شعور المرأة بمساواتها للرجل (٥٢٦) توليها الملك . بعض الملكات (٥٢٧) . شهيرات (٥٢٤) مجبرات (٥٣٥) اشتراك المرأة في حلف (٥٣٧) إهاتها تشعل حربا (٥٣٨) مكاتبا العامة (٥٣٩) أثر هذه المكانة في المرأة الأوروبية وفي نظام الفروسية (٥٤٠) .

موازنة المرأة العربية بغيرها: موازنتها بالعبرية (٥٤٩) والمسيحية (٥٥٠) والفارسية (٥٥٠) واليونانية والرومانية (٥٥١) والمصرية (٥٥٢) دلالة هذه المكانة على رقي العرب (٥٥٣) .

## الباب الثالث

### المرأة في الحياة الفنية

#### الفصل الأول

٥٥٥—٥٨٩

## المرأة المغنية

الفناء في الجاهلية (٥٥٥) علاقة الشعر بالفناء (٥٥٦) غناء الإماء . النساء أليق بالفناء (٥٦١) القيان محترفات بالفناء (٥٦٢) جنسية القيان (٥٦٤)

غناؤهن بالشعر (٥٦٦) أثر غنائهن في النفوس (٥٧٠) جملمن وعشقين  
 . (٥٧٣)

أثرهن في الشعر (٥٧٦) هبة القيان (٥٧٨) أثر الغناء الأجنبي في العربي  
 . (٥٨٠) الآلات الموسيقية (٥٨٦) .

## الفصل الثاني

### المرأة راوية للشعر وناقدة ٥٩٠-٦٠٢

روايتها للشعر (٥٩٠) نقدها للشعر (٥٩٢) روايتها ونقدها في الإسلام  
 . (٥٩٨)

## الفصل الثالث

### المرأة الشاعرة ٦٠٣-٦١٨

تمهيد . قلة المروى من شعر النساء (٦٠٣) تعليل ذلك (٦٠٤) مراجع  
 تحفل بشعرهن (٦٠٧) شعر منقول للنساء (٦٠٨) .

فنون شعرها

الرسائل :

ملاءمته للمرأة (٦١٢) طابع مراثيهم : الإشادة بفضائل المرثى على طريقة  
 الرجال (٦١٢) تعليل ذلك (٦١٧) تخلف في مراثيهم . تصويرهن لذاتهن  
 وضعفهن (٦١٨) كثرة الحديث عن اللوعة والبكاء (٦١٩) تعبيرات نسوية  
 (٦٢٣) وحدة الموضوع . ندرة الحكمة (٦٢٤) تعليل ذلك (٦٢٥) كلمة  
 عن الخنساء (٦٢٦)

## التحريض على القتال وعلى النار :

كثرة الحروب . شعر النساء في الحروب ( ٦٢٨ ) التحريض وتشجيع الرجال المقاتلين ( ٦٢٨ ) تأثر الرجال بهذا التحريض ( ٦٣٠ ) تهديد الأعداء وتوعدهم بالفارة ( ٦٣٠ ) الإشادة بالثائرين ( ٦٣١ ) اشتفاؤهن بالنار . موازنة بينهن وبين الرجال ( ٦٣٢ ) .

## الرجاء :

قيمة الرجاء في الجاهلية ( ٦٣٣ ) مشاركة النساء فيه ( ٦٣٤ ) ألوان من هجائهن ( ٦٣٤ ) لماذا قل هجاء الضرائر ؟ ( ٦٣٧ ) هجاء لزوج ابنة ( ٦٣٨ ) هجاء للزوج ( ٦٣٨ ) بين هجائهن في الجاهلية والإسلام ( ٦٣٩ ) سمات هجائهن ( ٦٤٠ ) تخلفهن فيه عن الرجال ( ٦٤١ ) .

## الفخر :

بماذا افتخرن ؟ ( ٦٤٢ ) خلو فخرهن من صفات الأنوثة ( ٦٤٤ ) موازنة بين فخرهن وفخر الرجال ( ٦٤٥ ) .

## المرح :

لماذا قل نصيبهن منه ؟ ( ٦٤٧ ) .

## الحنين إلى الوطن :

حب العرب لوطنهم ( ٦٥٠ ) حنين المرأة المغتربة إلى وطنها ( ٦٥١ ) .  
حنينها في العصر الإسلامي ( ٦٥٢ ) .

## الغزل :

حفاوة الشعراء به ( ٦٥٤ ) كتمان المرأة حبيبها ( ٦٥٤ ) صور من غزلهن .  
 ( ٦٥٨ ) البوح بالحب ( ٦٥٨ ) الشوق إلى الحبيب ( ٦٥٩ ) السخط عليه .  
 إذا غدر ( ٦٦٠ ) التستر أحيانا بالحنين إلى الوطن ( ٦٦٠ ) موازنة بين غزل  
 الجاهليات والإسلاميات ( ٦٦١ ) .

## خصائص شعرها

إجادة الرثاء ( ٦٦٤ ) وحدة الموضوع ( ٦٦٥ ) غلبة المقطعات ( ٦٦٥ ) ،  
 صور وتعبيرات نسوية ( ٦٦٨ ) لين التعبير ( ٦٦٩ ) كثرة الترصيع ( ٦٦٩ ) ،  
 موازنة بينهن وبين الرجال في الترصيع ( ٦٧٢ ) كثرة الإقواء ( ٦٧٥ ) شعرها ؛  
 لا يمثل الأنوثة تمثيلا كاملا . غلبة الطابع المذكور عليه . تعليل ذلك ( ٦٧٧ ) .

٦٨٩

الجديد في البحث

٦٩٣

اقتراحات

٦٩٦

المراجع

## كتب للمؤلف

١ - وحى النسب في شعر شوقي .

دراسة لفرز شوقي من حيث بواعثه وخصائصه .

٢ - وطنية شوقي :

دراسة منصفة للوطنية في شعر شوقي ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وعلى موازات بينه وبين غيره من الشعراء .

٣ - الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدين شوقي ومظاهره في شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبي ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودراسة لزرعته الإسلامية في تأييد الخلافة التي كانت قائمة ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٤ - الفكاهة في الأدب :

دراسة للفكاهة العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ودراسة مفصلة لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ - البطولة والأبطال :

دراسة للبطولة وأسماؤها وأنواعها ، وعرض صور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، وصور من أبطال مصر الحديثة مع التحليل .

٦ - أبو حيان التوحيدي :

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته وثقافته وصلاته ،



وتحليل لأخلاقه ، وتعريف بكتبه ، وتحليل أسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه وبينه وبين الجاحظ .

#### ٧ - سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع .

#### ٨ - أدب السياسة في العصر الأموي :

دراسة للأحزاب السياسية ، وعرض نماذج من أديها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، وتحليل لهذا الأدب ، وموازنات بين بعضه وبعض .

ودراسة للعصبية القبلية والعصبية الجنسية وأثرهما في الشعر والسياسة ، وترجمة لبعض أدباء السياسة .

#### ٩ - سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

#### ١٠ - مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

#### ١١ - الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام . نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

### ١٢ - المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكاتبتها في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، أما وزوجة و بنتا وأختا وقريبة .

و دراسة للمرأة في الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، وأثرها في الغناء ، وشاعريتها ، وأنواع شعرها ، وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم . نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

### ١٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان من الحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات .

### ١٤ - أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي :

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض وفي الجو ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفنهم .

### ١٥ - التيارات المذهبية بين العرب والفرس :

دراسة للصلات بين العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعراء من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب إلخ .

### ١٦ - المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق ( بالاشتراك ) .

## ١٧ - الطبرى :

دراسة مفصلة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته ، وألوانها ، وتلاميذه ومؤلفاته ، وشخصيته ، ودراسة لمنهجه فى التفسير وفى التاريخ وفى الفقه .

## ١٨ - فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه . ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها ، وتصور الأمم لها إلخ .

## ١٩ - بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله .

المركز الإسلامى الثقافى  
مكتبة سماحة آية الله العظمى  
السيد محمد حسين فضل الله العامة  
الرقم : ٥٠٧٩١

مَطْبَعَةُ الْمَلِكِ